جامعة ابن خلدون - تيارت
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

العلوم الإنسانية والاجتماعية

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة أكاديمية تعنى بالدراسات والبحوث
في التاريخ والمجتمع



12

العدد الثاني عشر ديسمبر 2017 ردمد:1112-5896

الخلدونية

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة تيارت

العدد الثاني عشر(12) ديسمبر2017

الإيداع القانوني Dépôt légal718-2005

ردمد:ISSN1112-5896

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِين﴾

آل عمران، الآية 140

الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة تيارت، العدد الثاني عشر(12) ديسمبر2017

الرئيس الشرفي للمجلة:

الأستاذ الدكتور مدربل خلادي، مدير جامعة تيارت

مدير المجلة:

الأستاذ الدكتور تاج محمد

رئيس التحرير:

الدكتور شرف عبد الحق

الأمانة:

الدكتور لكحل فيصل

الدكتور بلقاسم بن عودة

الأستاذ مرزوقي محمد

هيئة التحرير:

د.بليل محمد، د.بوخاري عمر، د. بن صحراوي كمال، د.قريصات زهرة، د. سعد الحاج، د.بن موسى سمير. د.ماريف منور، د.فوزية لزغم، د.حباش فاطمة، د. عليلي محمد، د.دوبالي خديجة، د.كلاخي ياقوت، د. الطيب بوجمعة نعيمة، أ.موهوب مراد، أ.كرطالي نورالدين، أ.رمضاني حسين، أ.ياحي عبد المالك، أ.عليلي محمد، أ.حسنة كمال. أ.قفاف البشير.

هيئة القراءة والتحكيم:

من خارج الجزائر:

من سلطنة عمان: د.بوعصبانة سليمان عمر. **من المغرب:** أ.د. حسن الصادقي، د.إدريس بوهليلة، د.لحسن تاوشيخت، د. أحمد الشكري، د.عمر أكراز، د.عبد السلام مقداد. **من معهد العالم العربي بباريس:** أ.د. الطيب ولد لعروسي. **من جامعة تونس:** أ.د. مقداد عرفة. **من جامعة منوبة:** الأستاذ الدكتور تليلي لعجيلي. **من جامعة الزيتونة:** الأستاذة رفعة عطية.

من داخل الجزائر:

من جامعة وهران1: أ.د.بن نعمية عبد المجيد، أ.د. بن معمر محمد، أ.د.جيلالي سلطاني، أ.د.فغرور دحو، أ.د.غازي الشمري، أ.د.مهديد إبراهيم، أ.د. عبد القادر بوعرفة، أ.د.مزيان محمد، أ.د.بوركبة محمد، د.بحري أحمد. **من جامعة وهران2:** أد. بن مشرقي بن مزيان. د.بن سادات نصر الدين. **من الجامعة الإفريقية بأدرار:** أ.د.الحمدي أحمد. **من جامعة الجزائر:** أ.د.بوساحة عمر. أ.د.عليش لعموري. **من جامعة تلمسان:** أ.د. عباس محمد، أ.د.عبد الجليل مرتاض، د.وهراني قدور. **من جامعة بشار:** د.حيمي عبد الحفيظ. **من جامعة معسكر:** أ.د.طيبي غماري، أ.د.بوداود عبيد، أ. د.ودان بوغافلة، أ.د.عدة بن داهة. **من جامعة بلعباس:** أ.د. هلايلي حنيفي. د.عسال نور الدين، أ.د.شخوم سعدي. **من جامعة مستغانم:** أ.د.سيكوك قويدر. **من جامعة تيارت:** أ.د.شريط عابد، أ.د.مدني بن شهرة، أ.د.زروقي عبد القادر، أ.د.بن جامعة الطيب. **من جامعة خميس مليانة:** أ.د.تلمساني بن يوسف. **من جامعة البويرة:** د.عائشة حسيني، أ.أوكيل مصطفى باديس. **من جامعة الأغواط:** أ.قفاف عبد الرحمن. **من جامعة الجلفة:** د.بن حاج ميلود. **من جامعة سطيف2:** أ.د.سفاري ميلود، **من جامعة الجزائر:** أ.د.جمال يحياوي. أ.د.حساني مختار. **من جامعة الوادي:** أ.د.لشهب أبو بكر. **من جامعة غرداية:** أ.د.إبراهيم بحاز، أ.دمانة أحمد. **من جامعة المسيلة:** د.براخلية عبد الغني، د.روبي محمد. د.بركات عبد الحق. **من جامعة الشلف:** أ.د. شارف عبد القادر. د. غربي بغداد. د. هاشمي آمال.

قواعد النشر بالمجلة

إن صفحات مجلة الخلدونية مفتوحة للباحثين من داخل الوطن وخارجه. ومن أجل تسهيل عمل المجلة يرجى من الراغبين في نشر بحوثهم الالتزام بالقواعد التالية:

1- أن يكون العمل العلمي أصيلا لم يسبق نشره.

2- ينبغي أن تتميز الأعمال المقدمة بالجدّة والعمق في الطرح وبالأسلوب السليم والمنهجية العلمية، ولا تقبل المجلة المواد المنشورة أو المقدمة للنشر في جهات أخرى.

3- أن لا تزيد عدد صفحات المقال عن 15 صفحة.

4- أن تكون اللغة العربية مكتوبة بخط Traditional Arabic بحجم 16 واللغة الأجنبية بحجم 12 خط Times New Roman، وأن يرفق المقال بملخصين مع الكلمات المفتاحية باللغتين العربية والإنجليزية.

5- لا يقبل أي مقال بعد انتهاء الآجال، والمجلة غير ملزمة بإعادة الأصول المرسلة إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

6- كل الأعمال العلمية المقدمة تخضع للتحكيم السري؛ العلمي النوعي والمتخصص قبل النشر، وتُخطِر المجلة الباحثين بقرار صلاحية المواد أو عدمها. كما أن البحوث والدراسات التي يرى المحكمون تعديلها تُرَدُّ إلى أصحابها لإجراء التعديلات لكي تأخذ طريقها إلى النشر. وتحتفظ المجلة بحقها في إدخال تعديلات، أو تأخير النشر إلى عدد قادم حسب إمكانياتها،

7- يجب الالتزام بالطرق العلمية المقدمة في النشر، على أن تكون الهوامش يدويا وفي آخر المقال.

8- تكون المقالات مصحوبة بملخصين إحداهما بلغة المقال والثاني بالإنجليزية.

وسائل الإيضاح:

يجب أن تقدم الجداول الإحصائية والرسوم البيانية والخرائط والصور الأصلية مستقلة عن النص في (A4) بشكل فردي أو جماعي مع ذكر رقم الجدول أو الشكل. ويجب أن تتسم وسائل الإيضاح بالوضوح.

كل المراسلات توجه إلى البريد الإلكتروني للمجلة: alkhaldonia.fsh@gmail.com

ما تنشره المجلة لا يعبر سوى عن رأي صاحب المقال، ولا يعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة التحرير

فهرس الموضوعات

تقديم.....مدير المجلة		**8**
افتتاحية العدد.....رئيس التحرير		**9**
جهود مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا في فهرسة التراث المخطوط بالجنوب الكبير	د/ عبد الحق شرف	**11**
النقد الاسلامي للعهد القديم	د/ بقة بلخير	**25**
أثر الدين على النحت المصري القديم	د/ أوكيل صبيحة	**43**
سياسة الإمبراطور المغاربي سبتيميوس سفيروس في قيادة الإمبراطورية الرومانية	أ/حمادوش بولخراص	**55**
وصف تلمسان في نظم الاغتراب لابن خميس التلمساني	د/ بوخاري عمر	**67**
الكتابة التاريخية في مصر خلال عصر المماليك	د/ قدور وهراني	**75**
وضع المرأة الريفية ببايلك الغرب الجزائري	د/كمال بن صحراوي	**87**
التنافس الأوروبي العثماني في ظل الأزمات الدولية خلال ق19	أ/ قفاف عبد الرحمن	**98**
إسهامات علماء الجزائر في الحياة العلمية في المغرب الأقصى خلال الفترة العثمانية	أ/ خنفار حبيب	**119**
مقتطفات من تاريخ قبيلة العمور ببلاد جبال القصور	د/ موساوي مجدوب	**127**
التحالف الأوربي ونهاية حكم يوسف باشا القرمانلي	أ/ بوعناني العربي أ.د/ ودان بوغفالة	**145**
مجازر الثامن ماي 1945م ودورها في بلورة الوعي الثوري	د/كيدار عبد الوهاب	**155**
المطالب الإقليمية المغربية وتداعياتها على الثورة الجزائرية	د/ عسال نور الدين	**172**
اندلاع الثورة التحريرية بمنطقة بمستغانم (المنطقة الرابعة من الولاية الخامسة) وتطورها ما بين 1954- 1956	د/ بليل محمد	**186**
حملة الحقائب خلال الثورة الجزائرية شبكة جانسون أنموذجا	د/ محمد الزين ط د/مسعود بقادي	**206**

واقع مؤسسات العبادة الإسلامية وكوادرها في مدينة تلمسان وأحوازها 1917-1952	أوسليم عبد الوهاب د/ حمدادو بن عمر	219
منهج البحث الوثائقي من خلال المصادر المتاحة على الواب	خيرة روابحي أ.د/ محمد صاحبي	236
علم التفسير من دور التأصيل إلى العصر الحديث	أ/ بن عمر عوف	259
ضوابط ومقاصد السلوك الاستثماري في الاقتصاد الإسلامي	د/ واثق عباس	270
التحليل الحجاجي لبنية الخطاب والنص القرآني أركون نموذجا	د/ لكحل فيصل	283
دور الأرغونوميا في تحقيق جودة حياة العمل	د/عرقوب محمد أ/ يوسف خوجة عادل	293
الوشم التقليدي على الجسد الأنثوي: جمال وهوية قراءة أنثروبولوجية في الدلالات الرمزية	ط/ساري وهيبة د/قريصات الزهرة	304
بناء مقياس المساندة الاجتماعية لأمهات الأطفال المعاقين عقليا	ابن الطيب فتيحة أ.د/ محمد الصغير شرفي	324
دور إدارة الموارد البشرية في تحسين الأداء التنظيمي في المؤسسة الاقتصادية الجزائرية	د/ هيشور محمد لمين أ/ عيبود زيتوني	343
الأم المتعلمة والتنشئة الاجتماعية للطفل	أ/بن براهيم دليلة أ.د/ عمروني بهجة	360
تقييم البرنامج التكويني البيداغوجي التحضيري لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين في الجزائر قراءة تحليلية في ضوء جودة البرامج التكوينية	ط/ بوشريط نورية أد/يوب نادية مصطفى الزقاي	376
التخلف برزخ بين عالم الغيب وعالم الشهادة	أ/ بهلول عبد القادر أ.د/محمدي رياحي رشيدة	409
مصدر السلطة والشرعية لدى المثقف والسياسي في الجزائر وطبيعة العلاقة بينهما	أ/ دادي محمد أ.د/مزوار بلخضر	418
المتون الشفهية النوع الاجتماعي والقيم شباب مدينة تيارت نموذجا	أ/ بودواية مختار د/جرادي العربي	438

تأثير النزعة الوضعية على التشريع المعاصر في تحديد المسؤولية الجنائية	أ/ قاضي مراد أ.د/ سماعيلي يامنة	**453**
مشكلات المجتمع الحضري	د/ بريقل الهاشمي	**461**
تقييم العملية التدريبية عنصر هام في تنمية الموارد البشرية في المؤسسة	أ/ بن دريدي منير	**481**
استراتيجية الاختيار المهني بالمنظمة التجلّيات و الأبعاد	أ/ خريبش زهير أ.د/ حسان الجيلاني	**494**
مواصفات القيادة الاستراتيجية لدى اطارات مركب تكرير البترول RA1/K (سكيكدة)	كريم أمينة أ.د/غياث بوفلجة	**509**
قلق المستقبل وعلاقته بتقدير الذات والدافعية للإنجاز لدى تلاميذ الطور الثانوي	بودربالة شهرزاد أ.د/ منصوري مصطفى	**524**
سياسة التمويل الداخلي للثورة التحريرية 1954-1962	د/ امحمد بوحموم	**537**
التأثيرات الدينية القرطاجية على النوميد	أ/قفاف البشير	**554**
تطور الإرشاد المدرسي في الجزائر	أ/بن سعيد عبد القادر	**569**

كلمة العدد
بقلم الأستاذ الدكتور تاج محمد، مدير المجلة

عندما يكون عمل الانسان خالصا لغاية سامية، لاشك أنه سيكون نافعا على المدى القريب والمدى البعيد. ولما كان فريق الخلدونية مؤمنا بسمو رسالته، وضروريتها في عملية التنمية، فإن جهدهم ولاريب سيكون في مستوى المسؤولية التي أدركوها وهم يتناولون مواضيع هذه المجلة، التي بدأت توجِد لنفسها مكانة ضمن المجلات الوطنية، التي لا تحمل إلا عبق التاريخ، وانشغال المجتمع، وأغوار النفس، وتأملات الفيلسوف، وعظمة الآثار، وعين الإعلام.

كان لها هذا الفضل، لأن جمعت باحثين من أرجاء الوطن، وبمضامين إنسانية تطرح سؤال الإنسان من أجل سعادة الانسان.

سعيد فريق الخلدونية بأن يضع بين أياديكم الكريمة هذا العدد الذي يحمل رقم الثاني عشر، وهو رقم له دلالات كثيرة، ويبشركم بميلاد مجلة العبر الصادرة عن مخبر "الدراسات التاريخية والأثرية في شمال أفريقيا"، التي سيسطع نجمها في سماء الكلية، حتى تصبح هاته الأخيرة بنجمتين هما: "مجلة الخلدونية، ومجلة العبر".

افتتاحية العدد

بقلم الدكتور عبد الحق شرف، رئيس تحرير المجلة

ها هي ذي ستّ مضت منذ أن أسندت إلينا مهام إدارة تحرير الخلدونية الغرّاء. مضت السنون والأعوام وفريقها يبذل قصارى الجهود حتى تتبوّأ مجلّتهم المراتب العلا، وشعارهم برّاق؛ ذوّاق، وكلهم كلمة واحدة: "وما توفيقي إلا بالله".

لقد شقّت هاته المجلة دروب التميز والإبداع؛ فصارت خلال زمن ليس بالطويل –والأيام حُبلى بكل بشائر الخير- قِبلةً لعديد الباحثين من شتى ربوع الجزائر. فقصدها أصحاب التاريخ والآثار للتعريف بماضي الأمم، ورواد الفلسفة، والنفس، والمجتمع؛ فجاءت بحق مادة دسمة، لحّنها أصحابها بأروع اللّحن، وأدّوها بأعَذْبِ النّشيد والنّغم.

هذا؛ وتلقّى فريق المجلة عددا لا بأس به من الأبحاث الجادة والجديدة، في شتى مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية، نقدمها لقرائنا الأوفياء اليوم في قالب متميز، متمثلا في العدد الثاني عشر.

ولَكَمْ كُنّا نتشوّف لمستقبل أجمل وأزهر لخلدونيتنا فيما سلف؛ فتمّ لنا المراد بأضعاف ما كنا نروم ونسعى إليه، فكانت المحصلة سرور وفرح دفعةً قد تواردا. سرور بصدور العدد الثاني عشر؛ وفرح وغبطة وبشرى بميلاد مجلة العِبر الصادرة عن مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا؛ التي سيسطع نجمها مع رأس السنة القادمة بحول الله (2018).

وإننا والحال هذه؛ نرفع خالص الشكر والتقدير لكل من قدّم لنا يد العون والمساعدة من أجل النهوض بهذه المهمة العلمية النبيلة، خاصة هيئة التحرير، والقراءة والتحكيم من داخل الوطن وخارجه، التي تجشمت عناء القراءة والتصويب، فقدمت بذلك أروع الأمثلة في الصبر والجلد من أجل الرقي بالبحث العلمي في بلادنا الحبيبة إلى مصاف الرقي والإبداع.

والله من وراء القصد، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

جهود مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا جامعة وهران في فهرسة التراث المخطوط بالجنوب الكبير

د/عبد الحق شرف

مدير مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا

جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص: يعدّ حفظ التراث المخطوط ببلادنا من المسائل التي يجب أن توليها الدولة اهتماما خاصا، وذلك لما لهذا التراث من أهمية قصوى في حفظ الهوية الوطنية والتاريخية للبلاد. وإذا كانت الفهرسة في بلادنا ما زالت لم تعرف الانطلاقة الحقيقية، فإن ما حققته الوزارة المنتدبة المكلفة بالبحث العلمي ووزارة الثقافة خلال السنوات الأخيرة من سنّ قوانين تقضي بالحفاظ على هذا التراث وتأسيس مخابر بحث للغرض نفسه؛ هو أمر يجب أن نثمّنه ونباركه، وكما قيل: "رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة".

وإيمانا منا بهذا المبدأ السامي؛ فإننا نروم من خلال هذه الورقة العلمية أن نساهم ولو بنزر يسير في مدّ جسور التواصل بيننا وبين هويتنا وبين تراثنا المخطوط، هذا التراث الذي عانى لسنوات طوال من الإهمال والضياع وعزوف المتخصصين عن حفظه وذلك لصعوبة المهمة التي يكتسيها الطابع العام لهذه العملية، من البحث عن المخطوط وفهرسته وترميمه ثم تحقيقه وإخراجه ووضع بين أيدي الباحثين للاستفادة منه، وذلك من خلال عرضنا لتجربة فريدة من نوعها في هذا الإطار، وهي التجربة التي خاضها مخبر المخطوطات بجامعة وهران، الذي ننتمي إليه منذ سنة 2005.

The efforts of the laboratory of the manuscripts of Islamic civilization in North Africa at the University of Oran In the cataloging of the manuscript heritage in the Great South

The preservation of the manuscript heritage in our country is one of the issues that the State should pay particular attention to, since this heritage is of the utmost importance in preserving the national and historical identity of the country. If the indexing in our country still does not know the real breakthrough, the achievements of the Ministry in charge of scientific research and the Ministry of Culture in recent years, in the enactment of laws to preserve this heritage and the establishment of research laboratories for the same purpose; is something that

should be valued and praised, and as it it said “Journey of thousand miles begins with one step".

Our belief in this supreme principle, we intend, through this scientific paper, to contribute even to make a direct link between our identity and our manuscript heritage, which has suffered years of neglect and loss and the reluctance of specialists to preserve it, due to the difficulty of this general process from searching for the manuscript and its indexing and then its restoration and then achieve it and put it in the hands of researchers to benefit from it, through the presentation of a unique experience in this context, an experiment conducted by the manuscript laboratory at the University of Oran, to which we belong since 2005.

مقدمة:

تعدّ عملية الفهرسة من أولى الخطوات التي يسلكها الباحث وهو بصدد القيام بهذا العمل النبيل؛ حفظ التراث المخطوط من الضياع والاندثار.

والجزائر بتاريخها العريق، تعتبر واحدة من أهم المراكز الثقافية في شمال إفريقيا، بل في العالم العربي والإسلامي، وذلك لما تحويه من تراث كبير، خاصة المخطوط منه، الذي ظل لفترات طويلة يعاني التهميش والجفاء، مقبورا مطمورا عليه في غياهب النسيان، إلى أن تعالت الصيحات المدوية لفهرسته وترميمه وإخراجه إلى النور، والاستفادة منه في قراءة الماضي، وصناعة المستقبل.

وقد تعددت المبادرات التي انطلقت في هذا الإطار، خاصة مع ميلاد شبكة المخابر الوطنية لإنقاذ المخطوط مع بداية العشرية الأولى من هذا القرن، التي وضعت ضمن أولوياتها الرئيسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه الثروة الثقافية العلمية الهامة، التي بقيت لعدة أجيال تحكي في صمت تاريخ أمة، وصبر شعب مناضل.

وحرصا من على تثمين جهود هذه الشبكة، والتنويه بالأعمال المنجزة في هذا الإطار، ارتأينا وضع دراسة إحصائية مفصلة لواحد من مخابرها، ويتعلق الأمر بمخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بجامعة وهران، صاحب أكبر حصة فهرسة بولاية أدرار والتي تعدت سقف الخمسمائة مخطوط.

فما تقييم جهود هذا المخبر في عملية الفهرسة؟ وما هي المعوقات الرئيسة التي حالت دون إتمام عملية الإنقاذ والفهرسة على الوجه المرتضى؟ وما هي المقترحات أو الحلول لتفادي ضياع التراث المخطوط؟

1/- إطلالة على بعض المفاهيم المنهجية وواقع عملية الفهرسة ببلادنا:

معنى التراث:

لغة؛ هو ما ورث أو ما يخلّفه الرجل لورثته. وفي الاصطلاح؛ هو ما خلّفته لنا الأجيال من آثار فكرية مسجلة على الألواح أو مدونة في بطون الكتب التي خطتها أيديهم قبل أن تعرف الطباعة.

معنى الفهرسة[1]:

هي عملية الوصف الفني لمواد المعلومات. والوصف في الاصطلاح؛ يعني إحصاء الصفات الأساسية للشيء. وهي علم من العلوم الأساسية في مجال المكتبات والمعلومات. وهو علم له أصوله وقواعده، التي استقرت منذ عشرات السنين، ولكنه لا يكتسب بالقراءة والدراسة فحسب، وإنما بالممارسة العملية[2].

إن فهرسة مخطوطات بلادنا بحاجة ماسَة إلى صناعة حديثة[3] نعيد النظر من خلالها في قراءة تراثنا وخاصَة ذلك التراث المتمثل في المخطوطات التي قد ينطوي المخطوط الواحد منها على عدة أنواع من المعرفة، والتي هي بحاجة إلى تصنيف وترتيب فتبويب.

ومما يؤسف له اليوم أن جزءا كبيرا من تراثنا سيؤول لا محالة إلى الاندثار والضياع إذا لم يتم تكاتف الجهود لحفظها وحمايتها، فلا هي جُمعت في المكتبات العمومية، ولا وُضعت تحت تصرف الباحثين قصد إخراج بعض البعض منها إلى النور، وهذا يقودنا إلى إشكالية أخرى وهي: هل قدم الباحثون ما عليهم تجاه هذه التراث؟

الإجابة باختصار؛ أنه عندما نتحدث عن دور الباحثين في خضم هذا الموضوع، فإنه لا بد لنا أن نعْرِضه أو نتناوله من ثلاثة أبعاد رئيسة: جانب التجميع والحفظ والفهرسة، وجانب التعريف والإعلام، وجانب التحقيق والنشر.

ويبقى الجانب المهم والأساسي هو الجانب الأول؛ جانب التجميع والحفظ والفهرسة، حيث بقي هذا الجانب إلى يوم الناس هذا من اختصاصات المكتبة الوطنية أو مخابر المخطوطات التي أنشئت لهذا

الغرض، أو شبكة المخابر الوطنية التي تجمع فيها المصورات والأصول، وهي في اعتقادنا أنها مسؤولية منوطة بهذه الجهات.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف يتسنى لنا أن نعرّف بهذا التراث؟ وما سبيلنا إلى ذلك؟ وما الأدوات التي نستعين بها للوصول إلى هذا الهدف؟

هنا تتعدد الوسائل وفي مقدمتها سهر الجهات الوصية على إتاحة الفرصة للباحثين من أجل تسهيل عملية الحصول على المخطوط وفهرسته ولما لا تحقيقه كآخر مرحلة.

إن عملية الفهرسة هي بحق عمل نبيل يقدم خدمات جليلة لتاريخ منطقتنا مما يحفظ لها هويتها من الانطماس[4]، وستبقى هذه العملية هي الخيار الوحيد حتى نحقق نهضة شاملة في هذا الجانب وفي شتى مجالات العلوم الإنسانية وغيرها من العلوم الأخرى، الأمر الذي نسعى إليه كباحثين متخصصين في هذا المجال، وذلك من خلال المشاركة في الندوات الوطنية والدولية التي تقام لهذا الغرض.

2/- الخزائن المفهرسة[5]:

تكفل مخبر المخطوطات بجامعة وهران، بفهرسة مخطوطات دائرة أولف بولاية أدرار، وهي خمسة خزائن على النحو التالي:

أولا/ خزانة أحمد بختي[6]:

تقع بقصر زاوية حينون ببلدية أولف[7]. مؤسسها أحمد العالم القاضي الشرعي بأولف خلال الفترة الاستعمارية. وهو من الأعلام البارزين، غير أن تاريخ ولادته يبقى إلى يوم الناس هذا مجهولا. أما تاريخ وفاته فلا يطرح الإشكال نفسه، بل الآكد أنه توفي سنة 1942، بعد حياة حافلة بالدرس والتحصيل.

وقد نسخ العديد من المخطوطات بيده. ومن أبرز تلاميذه الطالب داده، وغيره كثير خاصة أبناء بختي بقصبة بني بلال. وتحتوي خزانة الشيخ بختي العديد من المخطوطات والذخائر النفيسة، وهي من أكبر الخزائن في ولاية أدرار دائرة أولف من حيث عدد المخطوطات التي تحويها، إذ يقدر بحوالي 320 مخطوطا، موزعا بين المصاحف وعلوم القرآن، الحديث وعلومه، الفقه وأصوله، العقيدة، التصوف، الوعظ والإرشاد، التراجم والسير، التاريخ والرحلات، علوم اللغة، الأدب، وعلوم وفنون وأخرى.

وقد جاءت الإحصائيات في هذه المكتبة على النحو التالي:

المصاحف: 15 مخطوطا

علوم القرآن: 23 مخطوطا

الحديث وعلومه: 09 مخطوطات

الفقه وأصوله: 115 مخطوطا

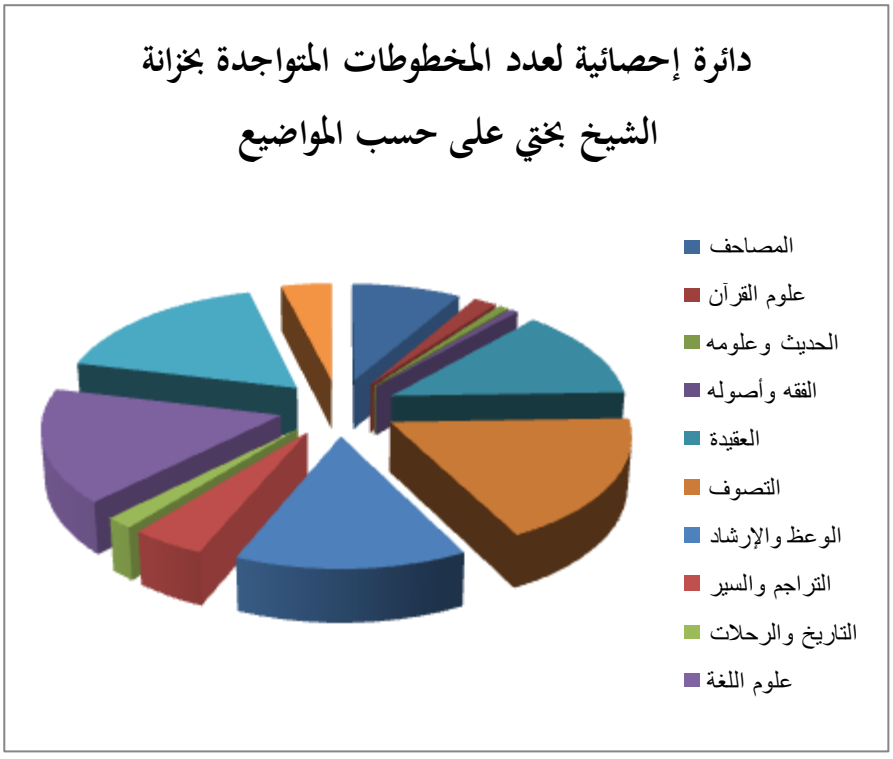
العقيدة: 23 مخطوطا

التصوف: 32 مخطوطا الوعظ والإرشاد: 25 مخطوطا

التراجم والسير: 08 مخطوطات التاريخ والرحلات: 03 مخطوطات

علوم اللغة: 29 مخطوطا الأدب: 31 علوم وفنون أخرى: 07 مخطوطات

المجموع: 320 مخطوطا



ثانيا/ خزانة الطالب التهامي:

مؤسس الخزانة هو الطالب التهامي بن عبد القادر حينوني المولود عام 1312هـ بقصر أركاش. وهو أحد تلاميذ الشيخ حمزة ولد الحاج أحمد الفلاني، الذي أخذ عنه عددا من المسائل، وصار معلما للقرآن ببلده، وبقصر إينر بأولف، ثم انتقل إلى تمنغست ومكث فيها عدة عقود.

وقد كان رحمه الله إماما ومرشدا ونصوحا، وقد توفي سنة 1403هـ. نسخ العديد من المخطوطات التي توجد بخزانته، وبعضها بخط تلاميذه، وله مراسلات عديدة مع العلماء والمشايخ.

وتعد خزانة الطالب التهامي، من الخزائن الثرية بالمنطقة، من حيث احتوائها على عدد لا بأس به من المخطوطات والمقدر بحوالي 183 مخطوطا، توزعت بين المصاحف، وعلوم القرآن، الحديث وعلومه، الفقه وأصوله، العقيدة، التصوف، الوعظ والإرشاد، التراجم والسير، التاريخ والرحلات، علوم اللغة، الأدب.

وفيما يلي إحصاء أعدادها على حسب التخصصات:

المصاحف: مخطوط واحد

علوم القرآن: 04 مخطوطات

الحديث وعلومه: 03 مخطوطات

الفقه وأصوله: 59 مخطوطا

العقيدة: مخطوط واحد

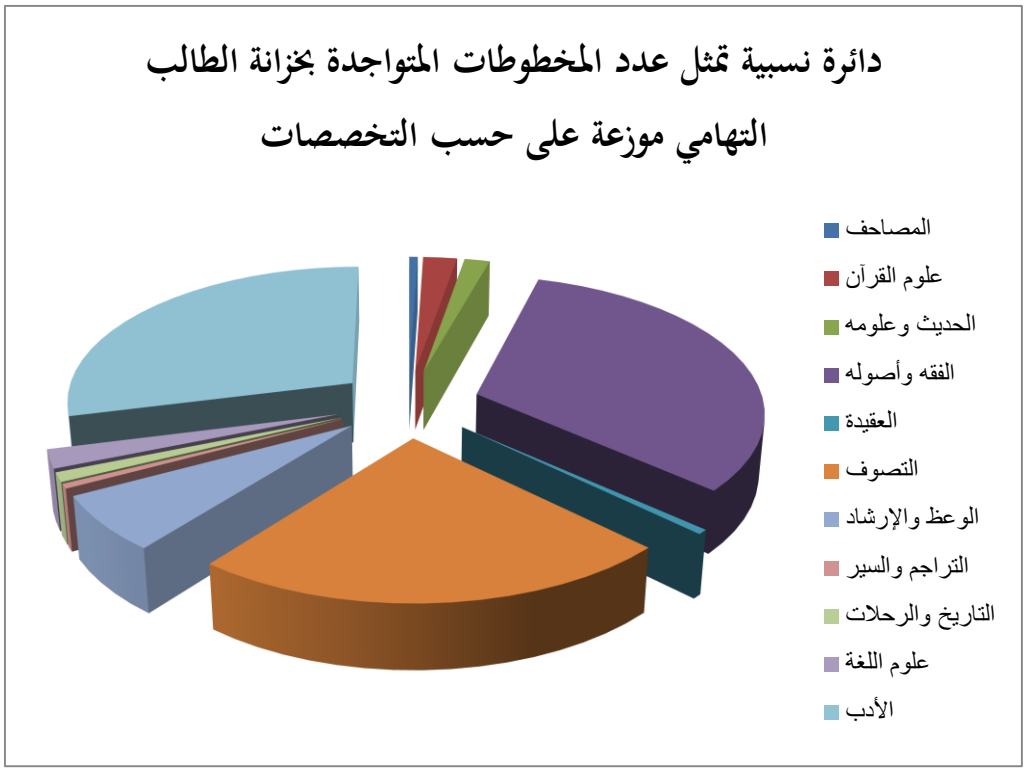
التصوف: 43 مخطوطا

الوعظ والإرشاد: 12 مخطوطا

التراجم والسير: مخطوط واحد

التاريخ والرحلات: مخطوطين علوم اللغة: 04 مخطوطات الأدب: 53 مخطوطا

المجموع: 183 مخطوطا



ثالثا/ خزانة الطالب أمبارك حاد الله:

هو الطالب حاد الله امبارك، أخذ عن الطالب بوكادي، وزادت معارفه بالاطلاع والاجتهاد الذي عُرف به إلى آخر حياته.

وقد أسس مدرسة خاصة به بقصبة ميخاف، ثم جمع العديد من المخطوطات التي كان يستعين بها في التدريس. وقد توفي سنة 1996.

تحتوي مكتبته على 11 مخطوطات، موزعة بين علوم القرآن، الفقه وأصوله، العقيدة، التراجم والسير، وعلوم اللغة.

وفيما يلي إحصاء كامل لأهم مخطوطات الخزانة موزعة على المواضيع التالية:

علوم القرآن: 01

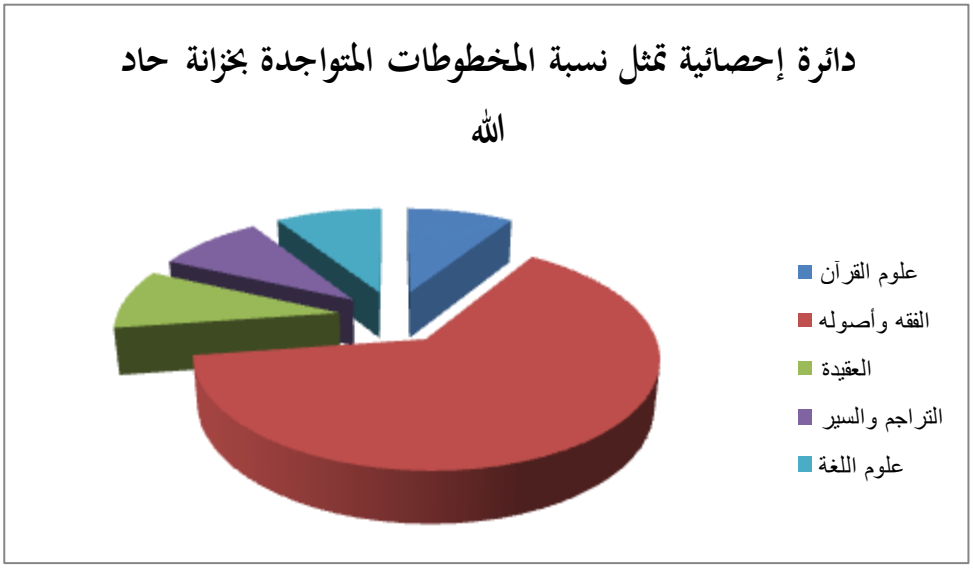
الفقه وأصوله: 07

العقيدة: 01

التراجم والسير: 01

علوم اللغة: 01

المجموع: 11 مخطوطا



رابعا/ خزانة أولاد سيدي بية:

مؤسسها هو بية بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن محمد بن بية بن عبد الله، وهم ينتسبون إلى الحاج عبد الرحمن مؤسس تيط الشرقي بأولف. ولقد كان لجدهم شهرة واسعة، وعرف عنه صلاحه وتقواه وورعه. ورغم الطبيعة القاصية في المنطقة، إلا أن جد أولاد بية استطاع أن يجمع المخطوطات والوثائق، وبعضها لا يزال في أحسن حال، وهي الآن موجودة عند أحفاد جد القبيلة الذي يزاول التدريس بالجامع الكبير وهو الطالب بية. وتحتوي خزانة سيد بية 17 مخطوطا موزعة بين المصاحف، الفقه وأصوله، العقيدة، التصوف، الأدب، وعلوم وفنون أخرى.

المصاحف: 03

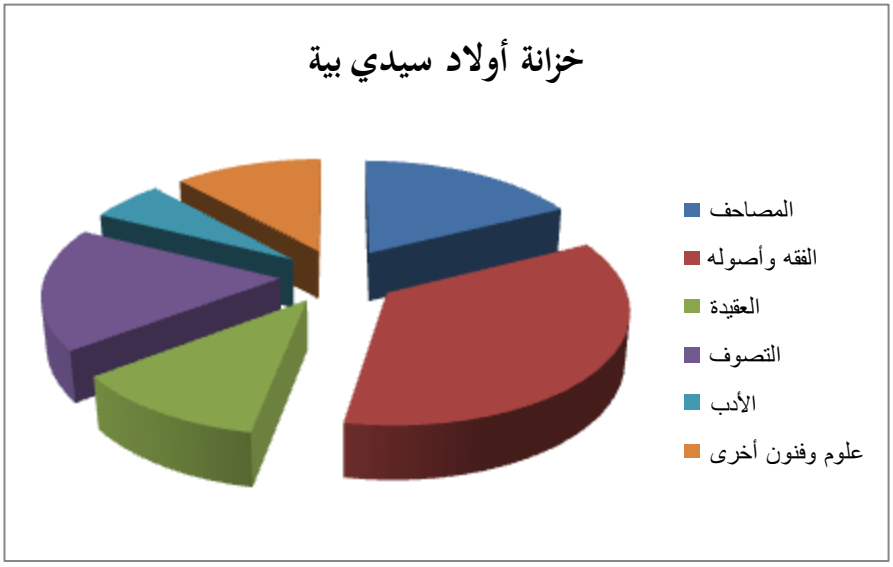
الفقه وأصوله: 06

عقيدة: 02

التصوف: 03

الأدب: 01 علوم وفنون أخرى: 02

المجموع: 17 مخطوطا



خامسا/ خزانة محمود بن أبي لحية:

وتحتوي على 47 مخطوطا، موزعة بين المصاحف وعلوم القرآن، الحديث وعلومه، الفقه وأصوله، التصوف، التراجم والسير، علوم اللغة، والأدب.

المصاحف: 01

علوم القرآن: 02

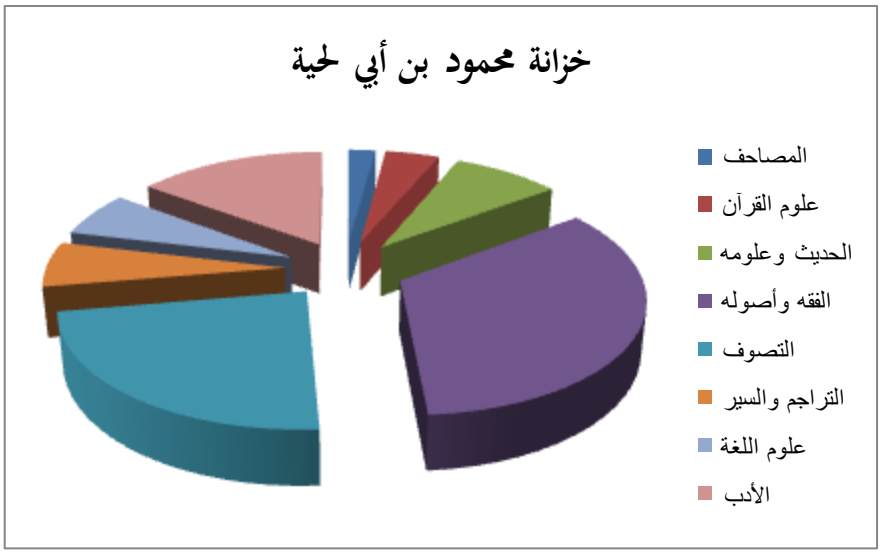
الحديث وعلومه: 04

الفقه وأصوله: 16

التصوف: 11

التراجم والسير: 03 علوم اللغة: 03 الأدب: 07

المجموع: 47 مخطوطا



أما عن مجموع ما تم فهرسته في كامل الخزائن فقد وصل إلى حدود 578 مخطوط، موزع كما يلي:

المصاحف: 20 مخطوطا

علوم القرآن: 30 مخطوطا

الحديث وعلومه: 16 مخطوطا

الفقه وأصوله: 203 مخطوط

العقيدة: 27 مخطوطا

التصوف: 89 مخطوطا

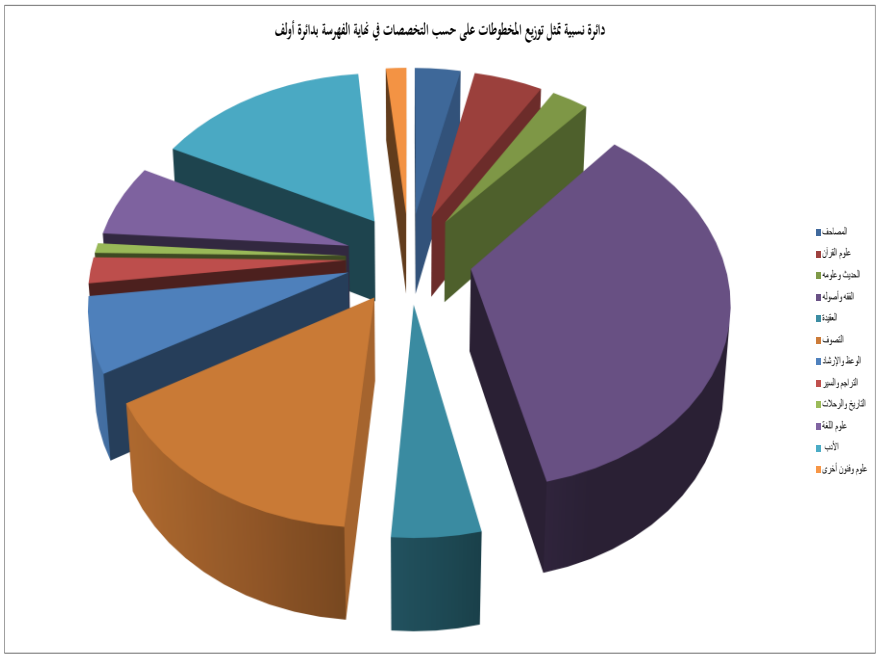
الوعظ والإرشاد: 37 مخطوطا

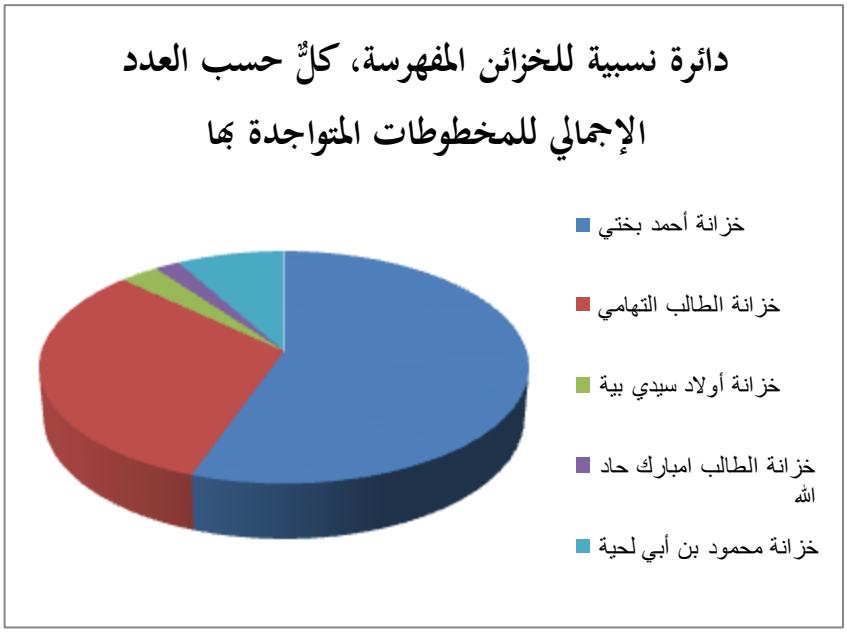
التراجم والسير: 13 مخطوطا

التاريخ والرحلات: 05 مخطوطات

علوم اللغة: 37 مخطوطا

الأدب: 92 مخطوطا علوم وفنون أخرى: 09 مخطوطات





3/- الحلول والمقترحات:

أولا: لابد من سن تشريعات أو قوانين رادعة تجرّم كل من ثبت في حقه العبث بالتراث المخطوط باعتباره رافدا من روافد الهوية الوطنية.

ثانيا: لابد أن تسعى الوزارة الوصية وفي القريب العاجل لا الآجل على إيجاد صيغة مناسبة لحل مشكل فقدان أو غياب الثقة بين أصحاب خزائن المخطوطات والباحثين والجهات الوصية، وهي خطوة في اعتقادنا يجب أن تجد طريقها إلى الحل والتأخير فيها سيعرض جزءا من هويتنا إلى الاندثار والطمس.

ثالثا: تمكين الباحثين المتخصصين في حقل الفهرسة والتحقيق من الوصول إلى خزائن المخطوطات وذلك في إطار سن قوانين تنظم هذه العملية.

رابعا: تشجيع مالكي المخطوطات على التصريح بالرصيد المخطوط المتاح لديهم.

خامسا: يرجى من الجهات الرسمية خاصة وزارة الثقافة ومخابر المخطوطات إقامة دورات تكوينية بمشاركة أساتذة وباحثين متخصصين في هذه العملية، قصد مساعدة أصحاب الخزائن على فهرسة مخطوطاتهم وذلك دون عناء نقلها من أماكنها الأصلية لتصويرها أو فهرستها، وكذا تجنبا لخوف أصحابها عليها من الضياع أو ما شابه.

سادسا: إننا على يقين أن بلادنا تحوي ذخائر من التراث المخطوط لا يجب الاستهانة بها، بل يتطلب ذلك عناية خاصة تقتضي منا كباحثين ومن وزارة الثقافة كمسهل لهذه العملية، أن نمضي فيها قدما قبل أن يتداركنا الوقت، وتعبث عوائد الزمن بالكثير منها كما كان الحال مع مخطوطات الجنوب الكبير خلال فيضانات السنوات الأخيرة.

خاتمة:

وصفو الكلام؛ فإننا نعتبر أن عملية الفهرسة أصبحت اليوم تعدّ من المعابر التجنبّية للانفلات من فخ ضياع الهوية الوطنية، كيف لا وقد سبقتنا إلى ذلك أمم عديدة وفي مقدمتها الدول الغربية التي جندت لهذا لغرض طاقات هائلة ستكفي مستقبلا لسدّ حاجات الباحثين والتقنيين لإكمال هذه العملية باحترافية كبيرة.

صور لبعض الخزائن المفهرسة:



الصورة: 01



الصورة: 02



الصورة: 03

الهوامش:

1- عن علاقة الفهرسة بالمخطوطات، راجع: حلوي فتيحة، فن فهرسة المخطوطات العربية الإسلامية خزانة كوسام بمنطقة أدرار نموذجا، دكتوراه في الآداب والحضارة الإسلامية، بإشراف: أحمد دكار، جامعة تلمسان، 2015-2016، ص: 05.

2- محمد حلمي وآخرون، فهرسة المخطوطات العربية بين النظرية والتطبيق، تقديم ومراجعة عبد الستار عبد الحق الحلوجي، القاهرة: مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ط1، 2012، ص: 10.

3- عبد القادر أحمد عبد القادر، صنعة المخطوط والوراقة والفهرسة في الحضارة الإسلامية، دار الوثائق للدراسة والطبع والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 2006 حيث يشير صاحب هذا الكتاب إلى أهمية صناعة الفهارس بما يتبعه من جزئيات خاصة بالمخطوطات مع إعطاء العديد من الأمثلة لهذه المخطوطات التي لقيت مشاكل وحلول من قبل الباحثين في كتاب صنعة الخط .

4- عن الأسباب الداعية إلى الاهتمام بفهرسة التراث المخطوط؛ راجع: محمد حلمي، المرجع السابق، ص: 12

5- طبعت هذه الفهرسة في مجلد كبير من طرف وزارة الثقافة.

6- عن هذه الخزانة راجع: مختار حساني وبشار قويدر، مخطوطات ولاية أدرار، الجزائر: منشورات وزارة الاتصال والثقافة، 1999، ص: 26.

7- راجع: http://www.taouat.net. يوم 2017/11/02، الساعة 21 و30د.

النقد الاسلامي للعهد القديم

د/ بلخير بقة، جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص:

شكل ذلك التحريف والتبديل الذي احتواه العهد القديم مجالا خصبا للعلماء المسلمين الذين كانوا السباقين في مجال نقد العهد القديم، وقد تأتى لهم ذلك من خلال وقوفهم على ما ورد في القرآن الكريم الذي قدم أول صورة نقدية إسلامية للتوراة، كما كان للجدال الديني الدائر بين أنصار الديانات السماوية الثلاث دور هام في مجال نقد العلماء المسلمين للكتاب المقدس عامة، والعهد القديم بصفة خاصة، وبذلك تمكن المسلمون من الوصول إلى نتائج باهرة في مجال النقد التوراتي، وعلى خطى منهج العلماء المسلمين في النقد سار كذلك العديد من العلماء اليهود والنصارى الذين تبنوا نفس المنهج في نقدهم للعهد القديم.

الكلمات المفتاحية: العهد القديم، التوراة، ابن حزم، الجويني، النقد..

Abstract:

This distortion and alteration of the Old Testament constituted a fertile ground for Muslim scholars who pioneered the criticism of the Old Testament. They came to this by standing on what was stated in the Holy Qur'an, which presented the first Islamic Islamic version of the Torah, The three heavenly role played an important role in the criticism of Muslim scholars of the Bible in general, and the Old Testament in particular, thus enabling Muslims to reach remarkable results in the field of biblical criticism, and in the footsteps of the approach of Muslim scientists in criticism also followed many Jewish scientists and Christians who adopted the same term In their criticism of the Old Testament.

key words: The Old Testament, The Torah, Ibn Hazm, Al-Juwaini, Criticism ..

مقدمة:

يعتبر العهد القديم كتاب ديني يهدف إلى نشر تعاليم العقيدة التي يعمل بها اليهود، لكن رغم أنه كتاب عقيدة إلا أن ذلك لا ينفي عنه الصبغة التاريخية، لذلك وجب وصف هذا الكتاب بأنه إرث ثقافي لأحد شعوب الشرق الأدنى القديم، وحدثا مهما من الأحداث التي لازمت تطور المعتقدات الدينية عبر التاريخ، هذا ناهيك عن أهميته كمصدر تاريخي رغم مصداقيته النسبية، إذ أن عملية جمع وتدوين أسفار العهد القديم استمرت لفترات طويلة تزيد عن ألف عام تعرض اليهود خلالها إلى كثير من الوقائع والأحداث والهزائم أدت إلى تعرض كتاباتهم للفقدان والتلف والإحراق والنهب، وخضّعوها للزيادة والحذف، حيث فقدت التوراة من تابوت العهد أيام سليمان، وتعرضت القدس (أورشليم) للانقسام وحملات التدمير من قبل اليهود أنفسهم أو الآشوريين أو الكلدانيين. ومن خلال هذا يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن العهد القديم كتاب ليس له أي سند تاريخي يثبت تسلسل نقله، وأنه تعرض لفترات

عديدة من الضياع، وأن أصله العبري لا وجود له بأيدي اليهود، مما يجعل المجال واسعاً للتحريف والتبديل؛ أي أن تاريخ بني إسرائيل المليء بالتقلبات الدينية والسياسية كان له الأثر في مواقفهم الدينية، وقد انعكس ذلك على التوراة فتأثرت من تلك التقلبات والمواقف.

وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى التحريف والتبديل التي تعرضت له التوراة، إشارات وأدلة من القرآن كانت سببا في نشاط علماء المسلمين في مجال نقد العهد القديم ككل، وخاصة التوراة (أسفار موسى الخمسة)، إذ كان عليهم كشف نقاط الضعف الموجودة في الكتاب، سواء كانت نقاط ضعف عقائدية، أو تاريخية، وغيرها، وقد نبغت فئة كبيرة من المسلمين في مجال النقد التوراتي كان أبرزهم ابن حزم الذي كان أول الكتاب المسلمين الذين استخدموا منهجا نقديا علميا، كما أنه في الوقت نفسه أول من كان لديه معرفة حقيقية بالنص التوراتي، خاصة أسفار التوراة الخمسة. ومن هنا كان لنا أن نتساءل: ما هو المنهج الذي استخدمه العلماء المسلمين في نقدهم للعهد القديم؟

I - مفهوم النقد:

1- النقد لغة: للنقد في اللغة معنيان مترادفان يشيران إلى معنى واحد وهما كما يلي:

أنه جاء بمعنى التمييز والتنقية: النقد خلاف النَّسِيئة، والنقد والتنقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها[1]. وجاء بمعنى الفحص والاختبار: نقد الشيء نقدا؛ أي اختبره ليميز جيده من رديئه، يقال نقد النثر والشعر؛ أظهر ما فيهما من عيب أو حسن[2]. وإذا رجعنا إلى اشتقاق كلمة نقد في المعاجم الغربية نجدها تتفق مع معناها في العربية، على أن الكلمة في أصلها الإغريقي (Kritik) تعني الحكم[3]. فالنقد هو الحكم الذي يميز بدقة بين الصحيح والخطأ[4].

2- النقد اصطلاحا: يعرف فريد الأنصاري النقد في كتابه أبجديات البحث في العلوم الشرعية بأنه:"هو عملية تقويم وتصحيح وترشيد، وعليه فإنه لا يكون بمعنى النقض؛ بل هو محاكمة إلى قواعد متفق عليها أو إلى نسق كلي، ذلك أن النقد.. نقد اجتهاد ما جزئيا كان أو كليا في أي مجال من مجالات العلوم الشرعية إنما هو عملية محاكمة وتقويم تهدف إلى التصحيح والترشيد من خلال مواطن الخطأ والصواب، بناء على مقاييس متفق على جلها أو كلها"[5].

وميّزت موسوعة لالاند الفلسفية بين نوعين من النقد فهناك النقد الحسن وهو: "عدم التسليم بأي تقرير دون التساؤل أول الأمر عن قيمة هذا التقرير سواء من حيث مضمونه (نقد داخلي)، أو من مصدره (نقد خارجي)"، أما النوع الثاني فهو النقد القبيح: "ويكون أميل إلى إبراز العيوب منه إلى إبراز المحاسن أو إلى وضع شيء إيجابي بنفسه"[6]. أما في المعجم التوراتي النقد: "يعني الحكم، وأصبح يشير في اللغة الفرنسية على الحكم القاسي والهدام، في حين أن معناه لدى الأوساط العلمية خاصة لدى رجال التفسير فهو الحكم الذي يقدر ويعطي الصورة الحقيقة للحالة المدروسة من حيث قيمتها وحدودها وغناها وفقرها"[7]. وعليه يمكن القول أن الناقد هو ذلك العالم الذي يصدر يحكمه بعد فحصه للأعمال

الأدبية والفنية، ويهتم بمناقشة الأحداث التاريخية الغامضة والتواريخ وأصالة النص المدروس وصحة مخطوطاته[8].

3- النقد التوراتي: تختلف التعاريف المعطاة للنقد التوراتي باختلاف إيمان معرّفيه وعقيدتهم، إذ تعرفه موسوعة (La Grande encylopédie Larousse) بأنه: "الدراسة المنهجية للنص المقدس بغرض معرفة مفهومه ومحتوياته"[9]. وقد جمع يوسف الكلاّم مجموعة من التعاريف للنقد التوراتي منها تعريّف ريتشارد سيمون بقوله: "العناية المطلوبة من أجل تصحيح الأخطاء التي تسربت إل الكتب المقدسة". وعرّفه أيضا: "معرفة كيفية التوفيق بين ما نعلمه وما فرض علينا الإيمان به". بينما يعرفه بعضهم بقولهم: "النقد التوراتي هو بيان أن نصوص التوراة ليست صحيحة، أو أنها بدلت خلال انتقالها عبر الأزمنة، أو لإبطال دعوى أنها موحاة من الله". بينما يعرفه البعض الآخر: "النقد التوراتي علم يسعى إلى تحديد طرق وصول النص إلينا، وتحديد قيمته وفائدته الأدبية والتاريخية واللاهوتية، ويشمل نقد النص، والنقد الأدبي، والنقد التاريخي، والنقد الداخلي، والنقد الخارجي".

وإجمالا يمكن القول أن النقد التوراتي هو الحكم على التوراة حكما يقوم أساسا على العلم لا على الظن فقط، ولقد ساهمت المناهج النقدية مع بعض العلوم الإنسانية الأخرى في إعطاء أحكام على الكتاب المقدس أقرب إلى الصحة، نخص منها علوم التاريخ والفيلولوجيا والأركيولوجيا وعلم اللغات القديمة[10].

II - موقف القرآن من العهد القديم:

يعظم القرآن الكريم جميع الأنبياء ويثني عليهم وعلى كتبهم، ويجعل الإيمان بهم وبكتبهم جزءا من إيمان المسلم، وهو أمر متفق عليه بين جميع المسلمين، إذ لا نجد فيهم على اختلاف فرقهم أحدا يفرق بين أحد من رسل الله، فيؤمن ببعضهم دون البعض[11]، يقول تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)**﴾[12]. وقد أكثر القرآن من ذكر التوراة والإنجيل والثناء عليهما أكثر من الكتب السماوية الأخرى التي نزلت على الأنبياء الآخرين[13]، فقد ورد ذُكر لفظ التوراة في القرآن الكريم ثمانية عشر مرة[14]، وحكم القرآن الكريم الصريح بالتوراة المنزلة من الله بأنها هدى ونور وضياءً أو فرقانا يفرق بين الحق والباطل، وذكر ورحمة وإمام ومباركة وتبيان لكل شيء، وهي دستور حياتي لبني إسرائيل شرعت لهم الأحكام ووضحت لهم الحلال والحرام، وأن الألواح التي نزلت على موسى عليه السلام فيها تفصيل لكل شيء وهدى ورحمة، وإن فيها حكم الله، يلتزم به الأنبياء وأتباعهم منذ نزولها حتى الإنجيل، الذي حرّم بالنسخ بعض ما فيها، واستمرت بقية أحكامها نافذة حتى بعثة محمد ﷺ مهيمنا عليها وعلى الإنجيل ليكون القرآن هو الحكم[15]. يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا**

النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44)﴾[16].

وللقرآن الكريم حكم آخر صريح في التوراة الحالية التي تم تحريفها، والتي أخفى منها اليهود كثيرا من الأحكام والأخبار، والتي نسوا منها وحرفوا فيها وغيّروها، وحكم القرآن الكريم في هذه القضية يفوق كل الأحكام العلمية موضوعية أمانة وعدلا[17]، يقول تعالى: **﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾**[18]، أي أن اليهود يتلون كلام الله على غير تأويله، وبمعنى آخر فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة[19]. ويقول كذلك عن تحريفهم: **﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46)﴾**[20]. والآية تدل على نفس معنى الآية السابقة، فالمقصود بها تفسير اليهود الكلام بغير مراد الله[21].

وعلى ذلك يمكن القول أن القرآن الكريم قدم أول صورة نقدية إسلامية للتوراة، وأعطى أصولا علمية منهجية لنقده، ووضع اللبنات الأولى والركائز الأهم للجهود الإسلامية في نقد كتاب اليهود المقدس، وخصوصا التوراة من خلال القواعد القرآنية التي أرساها، والتي تمكن علماء تاريخ الأديان المسلمين عن طريقها من الوصول إلى نتائج باهرة في هذا المجال، حيث انطلق العلماء المسلمون من تلك الآيات وغيرها من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في نقدهم للتوراة، وما يتبعها من الأسفار المقدسة عند اليهود، واستخرجوا منها الأدلة والشواهد على تحقيق ما ذكره الله عزَّ وجلَّ في القرآن الكريم من وقوع التحريف والتبديل والكذب في كتبهم، ونستطيع أن نقرر بكل ثقة أن الأسبقية في نقد الكتاب المقدس بصفة عامة، وبالخصوص التوراة كان لعلمائنا المسلمين بهدي من القرآن الكريم الذي وضع أصول ذلك النقد الهادف إلى إظهار الحق، وقد تأثر أحبار اليهود والنصارى ومفكريهم بالمسلمين في دراساتهم النقدية للتوراة والأناجيل، ومن ثم تجرؤوا على المشاركة في تلك الدراسات النقدية لكتبهم المقدسة بعد أن تخلصوا من طغيان الكنيسة وسيطرتها، واستطاعوا إعلان نتائج دراساتهم التي سبقهم إليها كثير من علماء الإسلام بقرون عديدة، بل واستطاعت جهود العلماء المسلمين في القرون الماضية أن تضاهي نتائج حركة النقد التوراتي في عصرنا الحالي.

III- الدراسات النقدية الإسلامية للعهد القديم:

1- القواعد المنهجية لنقد النصوص عند المسلمين:

عرف المسلمون العديد من العلوم الدينية، والتي تناولوها في وقت مبكر بطريقة تختلف عن باقي الشعوب، إذ كتب المسلمون عن الدّين بطريقة وصفية واقعية منعزلة عن سائر العلوم والفنون وشاملة

لكافة الأديان المعروفة في عهدهم، فكان لهم بذلك السبق قبل الغرب في تدوين الدين كعلم مستقل، تدوين ابتعد عن الخيال والظن والأخبار العامة وما شابه ذلك، بل كانوا يستمدون أوصافهم لكل ديانة من المصادر الموثوقة بها، وبعد أن جعلوا الدّين علما مستقلا حاولوا وضع مناهج علمية لدراسته. والاهتمام بهذا المجال تؤيده المؤلفات الكثيرة المختصة في علم الملل والنحل (علم الأديان)، إلى جانب المؤلفات الكلامية التي نجد فيها الرد على العقائد المحرفة ونقدها، هذا الرد الذي يستند إلى نفس التقنيات المنهجية التي ظهرت في الغرب حديثا، من نقد للنصوص ومقارنتها والنظر في متنها وسندها بغرض إثبات مصداقيتها، والكثير من هذه المؤلفات سُلطت عليها الدراسة من طرف باحثين مسلمين وغربيين، ومنها دراسات مقارنة مثلا بين منهج المسلمين والغربيين المحدثين.

لكن رغم توفر هذا المؤلفات التي اهتمت بتاريخ الأديان وتصنيفها ومقارنتها إلى جانب المؤلفات الكلامية، الجدلية التي اهتمت بنقد النص، وإثبات التحريف، إلا أن الفضل في تأسيس المنهج لا يعود لهؤلاء المؤرخين أو المتكلمين، إذ أن إبداع وتطبيق منهج نقدي للأديان كانت نواته وبدايته مع علماء الحديث الذين ابتكروا منهجية لم تعرف من قبل، بهدف تخريج الأحاديث[22]، ذلك أن المسلمين أرادوا الحفاظ على مصادر الشريعة وصيانتها من التحريف، فأبدعوا هذا المنهج ووضعوا ما عرف بمصطلح الحديث دراية ورواية؛ وذلك بدراسة السند والمتن وبيان العلل التي تؤثر في صحة الحديث ودرسوا حال الرجال، ووضعوا قواعد للجرح والتعديل[23]، وبينوا درجات الحديث من حيث القبول والرد، وهذه المنهجية العلمية في قبول الحديث ورده كانت مؤسسا لعقلية نقدية وسّعت من دائرة اهتمامها لتشمل الوثائق التاريخية المتعلقة بتاريخ المسلمين وتاريخ غيرهم. وعليه أُعتبر المسلمون أول من وضع منهجا علميا دقيقا لتمحيص الأخبار وتحليلها، وهو منهج تنفرد به الحضارة الإسلامية[24]، وهو ما يؤكده فؤاد سزكين في قوله: "أن الأبوة الشرعية لقوانين ضبط صحة رواية الإسناد تقع في الفكر الإسلامي، وهذا جانب تنفرد به الحضارة الإسلامية، ولا يعرف له في الحضارات الأخرى شبها"[25].

وتأسيسا على ذلك فقد اعتمد العلماء المسلمون في منهجهم النقدي على قواعد حاسمة للجرح والتعديل، وقسموا في نقدهم لأي وثيقة تاريخية وتحليلها قبل الاطمئنان إلى ما فيها والوثوق بما تضمنتها إلى قسمان أساسيان هما:

أ- النقد الخارجي (نقد السند أو الرواية): وهو ما يتعلق بالناحية الشكلية للوثيقة، فلا يكفي أن تكون لدينا الوثائق صحيحة كما كتبها واضعها، وإنما يجب أن يضاف إلى هذا معرفة مصدر الوثيقة ومؤلفها وتاريخها. ذلك أن الوثائق تختلف في قيمتها اختلافا واسعا من حيث صحة نسبتها إلى واضعها الأصلي أو إلى من ذكر اسمه كواضع لها[26]. يقول عبد الرحمن بدوي:"... فعلينا إذن أن نقوم بعملية امتحان قاس لكل هذه الوثائق المتخلفة عن الحادث موضع الدرس، وذلك بأن نسأل أولا: هل الوثيقة صحيحة، أي كما كانت في الأصل؟ وإذا لم تكن كذلك فماذا عسى أن يكون النص الصحيح؟ ثم تحقق المصدر الذي تنسب

إليه الوثيقة، وهذا ما يكون النقد الخارجي (critique externe) أو نقد التحصيل (critique d'érudition) أو النقد الفيلولوجي (critique philologique)"[27].

ب- النقد الداخلي (النقد الباطني أو نقد المتن): وهو ما يتعلق بامتحان النص من داخله ببيان عدم التناقض، وعدم المناقضة للحقائق العلمية والوقائع التاريخية. فالنقد الداخلي لإثبات صحة الوثيقة[28]، وفي هذا يقول عبد الرحمن بدوي: "وعلينا بعد هذا كخطوة ثانية أن نسأل، أولا: ما معنى هذا النص؟. ثانيا: هل آمن به صاحبه؟. ثالثا: هل كان محقا في إيمانه به؟. وهذه المسائل الثلاث هي التي تكون ما يعرف باسم النقد الباطني، (critique interne)، وبواسطة هذين المنهجين (أي النقد الداخلي والخارجي) نستطيع أن نصل أولا إلى تحديد دقيق لصحة الوثيقة التاريخية، وهذا يتم بفضل النقد الخارجي، وثانيا إلى فهم معنى الوثيقة، وهذا ما يقوم به النقد الباطن، ولهذا انقسم النقد التاريخي إلى قسمين: النقد الخارجي والنقد الباطن"[29].

2- نماذج من النقد الإسلامي للعهد القديم:

بعدما تلقى علماء الإسلام الإشارات القرآنية التي كشفت عن عدم صحة نسبة العهد القديم إلى الأنبياء، وخطأ ذلك الإسناد، إما جزئيا ويتمثل في التحريف والتزييف المتعمد[30] وذلك في قوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)**﴾[31]. أو كليا كما في بعض الكتب والأسفار الكاملة التي كتبوها، وادعوا نسبتها إليه تعالى[32]. يقول تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)**﴾[33].

لذلك قام العلماء المسلمون بفحص إسناد كتب وأسفار العهد القديم استنادا إلى وجوه من النقد الداخلي والخارجي، وقادهم الفحص إلى نتائج باهرة جعلت منهم بلا شك المؤسسين الحقيقيين لعلم النقد التاريخي للعهد القديم. فكان بذلك اهتمام الكثير من المفكرين المسلمين بموضوع نقد الكتاب المقدس انطلاقا من هذا الأساس، فكتبوا وأبدعوا كتبا جديرة بالدراسة.

ومن هذه الأعمال نجد: كتاب (الفصل في الأهواء والملل والنحل) لابن حزم، كتاب (شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل) لإمام الحرمين الجويني، كتاب الشهرستاني (الملل والنحل)، وكتاب (المقالات في أصول الديانات) للمسعودي، وكتاب البيروني (الآثار الباقية على القرون الخالية)، وكتاب (الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح) لنعمان الألوسي ابن الإمام الألوسي صاحب التفسير، وكتاب (الحيارى في الرد على اليهود والنصارى) لابن القيم الجوزية، وكتاب (الأعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام) للقرطبي، وأيضا (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) للرازي، وكتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لابن تيمية... وتوالت بعدها جهود علماء الإسلام في هذا المجال في دراسات نقدية عميقة للكتاب المقدس عموما[34]، ولأن المجال لا يسعني هنا لتتبع كل إسهامات العلماء المسلمين في هذا المجال نظرا للكم

الهائل من المؤلفات التي اهتمت بنقد العهد القديم، لذا ارتأيت أن أتناول نموذجين فقط حسب شهرة الكتاب وانتشاره، ومكانته عند علماء المسلمين.

أ- منهج ابن حزم في نقد العهد القديم:

أ-1- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الأندلسي، عاش بين سنتي (384هـ-456هـ) في قرطبة في عهد وزارة أبيه للحاجب المنصور بن أبي عامر من ولاة الدولة الأموية في الأندلس، له مؤلفات في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل والتاريخ والنسب والأدب والرد على المعارض، ومن أبرز هذه المؤلفات: (المحلى)، (طوق الحمامة)، (جوامع السير)، (النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية)، (الناسخ والمنسوخ، (نسب البربر)، (فضل العلم وأهله)[35]، (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، وهو من أبرز كتبه التي اتضحت فيه اتجاهات نقد التوراة وبقية أسفار العهد القديم.

أ-2- منهجه: رغم ضخامة التراث النقدي الإسلامي للكتب اليهودية والمسيحية إلا أنها لم تنظم في شكل علمي ومنهجي له أصوله ومبادئه الثابتة إلا بعد مرور أربعة قرون كاملة مع المؤسس الحقيقي لعلم نقد الكتاب المقدس وهو ابن حزم الأندلسي الذي يعد من كبار المفكرين والموسوعيين[36]، والذي يعد دعامة علم تاريخ الأديان عند المسلمين، وصاحب جهد عظيم في بناء منهج الدراسة النقدية الموضوعية لأسفار الكتاب المقدس ما يجعله الدارسَ الأكبرَ في هذا الحقل العلمي[37].

لقد قام ابن حزم بدراسة التوراة دراسة وثائقية تقوم على أساس التحليل العلمي، حيث قام بتفنيد الأساطير التي وردت في التوراة بطريقة علمية موضوعية، معتمدا على منهج النقد التاريخي المستمد أساسا –كما ورد سابقا- من منهج علماء الحديث، وخاصة فيما يتعلق بأصول الرواية، وضرورة اتصالها، والتثبيت من أحوال الناقلين للأخبار (نقد السند)، وبالتالي الجمع بين نقد المتن والسند، فكان أن غطت دراسته النقدية للتوراة المستوى النصي والمصدري والديني والتاريخي والجغرافي والأخلاقي واللغوي والأدبي، وهي نفس الاتجاهات التي قامت عليها حركة نقد الكتاب المقدس في الغرب التي أسسها المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن، ولا تختلف هنا سوى في التفاصيل التي حصل عليها النقاد في العصر الحديث من خلال التقدم في علمي التاريخ والآثار وفي منهج النقد التاريخي والأدبي، وكذلك التقدم في الدراسات اللاهوتية والدينية والفلسفية[38]. وقد كان ابن حزم يرمي من خلال مناقشته لليهود ونقد كتبهم إلى تحقيق هدفين هما:

- أن جمهور أهل الكتاب كانوا يرون أن التوراة التي بين أيديهم هي المنزلة على موسى عليه السلام، وأن موسى عليه السلام هو الذي كتبها وسلمها إلى الأحبار اليهود، ثم حفظت من بعده حتى وصلت إليهم، فأراد إبطال هذا الإدعاء وإثبات الوضع والتحريف بأشكاله المختلفة لها في أيديهم.

- ثمة تلازم بين عقيدة كل قوم وكتابهم المقدس، فإذا ثبت بطلان الكتاب وتحريفه، فهذا يعني فساد العقيدة التي تقوم عليها[39].

أ-2-1- النقد الخارجي (السند): يمكن تلخيص النقاط التي اتبعها ابن حزم في نقده لسند التوراة بما يلي:

- اطلع ابن حزم على نسختين للتوراة، وقد سجل وصفا دقيقا لإحدى هاتين النسختين قلما نعثر عليه في كتابات المفكرين المسلمين[40].

- التطرق للمراحل السياسية التي مر بها اليهود، وذلك في قوله: "ونحن نصف إن شاء الله تعالى حال كون التوراة عند بني إسرائيل من أول دولتهم إثر موت موسى عليه السلام إلى انقراض دولتهم، إلى رجوعهم إلى بيت المقدس، إلى أن كتبها لهم عزرا الوراق بإجماع من كتبهم، واتفاق من علمائهم، دون خلاف يوجد من أحد منهم في ذلك، وما اختلفوا فيه من ذلك نبهنا عليه ليتيقن كل ذي فهم أنها محرفة مبدلة"[41].

فمن خلال استعراض وتتبع ابن حزم للتاريخ السياسي والديني لليهود، يصل إلى أن نص التوراة الأصلي، الذي أنزله الله على موسى عليه السلام قد تعرض من الناحيتين الزمانية والمكانية لظروف تجعلنا لا نثق به[42]، ويمكن أن نلخص أهم القواعد التي اعتمدها في إبطاله صحة سند التوراة:

أولا: من أجل التأكيد على تحريف التوراة وتبديلها وتجهيل مؤلفها وجه ابن حزم جهده في نقده لسند التوراة إلى دراسة العوامل التاريخية والظروف التي مرت بها التوراة منذ وفاة موسى عليه السلام إلى أن فقدت نهائيا، وأكد ابن حزم أن الأحداث التاريخية كانت مهيئة للتحريف:

1- حال الملوك والحكام والقضاة من بعد موسى عليه السلام إلى طالوت، وتبدل أحوالهم بين الكفر والإيمان وخصوصا أحوال الملوك بعد موت موسى عليه السلام، وقد أحصى ابن حزم سبع ردات لهم إثر موت موسى عليه السلام إلى ولاية أول ملك لهم وهو شاؤول، سبع ردات فارقوا فيها الإيمان وأعلنوا عبادة الأصنام، وهي:

أ- بعد موت فنحاس بن العازار بن هارون، واستمرت ردتهم ثمانية أعوام، كفروا خلالها وارتدوا وعبدوا الأوثان علانية.

ب- بعد موت عثنئيل بن كنار، ارتدوا ثمانية عشر عاما.

جـ- بعد موت شمجر بن غاث، استمرت ردتهم عشرين عاما.

د- بعد موت دبورة، ارتدوا سبعة أعوام.

هـ- بعد موت أبي مالك بن جدعون، عادوا للردة وعبادة الأوثان ثلاثة أعوام وربما أكثر.

و- بعد موت بابين بن جلعاد، ارتدوا ثمانية عشر عاما.

ز- بعد موت عبدون بن هليل، استمرت ردتهم أربعين عاما. ثم يتساءل ابن حزم بعد إحصاءه للردات بقوله: "أي كتاب يبقى مع تمادي الكفر، ورفض الإيمان، هذه المدد الطوال، في بلد صغير، مقدار ثلاثة أيام في مثلها فقط ليس على دينهم وإتباع كتابهم أحد على ظهر الأرض غيرهم؟!"[43]

2- يتتبع ابن حزم حال ملوك يهوذا بعد موت سليمان عليه السلام وأديانهم إلى تدمير أورشليم[44]، فبعد موت سليمان عليه السلام، حدث الانقسام، وتداول على حكم مملكة يهوذا حوالي عشرون ملكا بداية من رحبعام إلى صدقيا، ثم يصف لنا الوضع الديني بصفة عامة في هذه الفترة في قوله: "وظهر يقينا أن بني يهوذا وبني بنيامين كانت مدة ملكهم بعد موت سليمان عليه السلام أربعمائة سنة.. وكانوا كفارا (الملوك) معلنين عبادة الأوثان حاش خمسة منهم فقط كانوا مؤمنين ولا مزيد.. فعمّهم الكفر وعبادة الأوثان: في أولهم وآخرهم، فأي كتاب، وأي دين يبقى مع هذا؟! ولم يل بعد يوشيا المؤمن إلا كافر معلن عبادة الأوثان، منهم من نشر أسماء الله من التوراة!!، ومنهم من أحرقها وقطع أثرها!!.. إلى أن انقطع أمرهم بغارة بختنصر وسبوا كلهم، وهدم البيت واستأصل أثره"[45].

3- بيان حال ملوك الأسباط العشرة الذين لم تكن أحوالهم أفضل من غيرهم، فقد ظهر فيهم الكفر والردة وعبادة الأوثان، فبعد الاستقراء التاريخي التفصيلي من ابن حزم لحال ملوك الأسباط العشرة من أولهم يربعام بن نباط إلى آخرهم هوشع يعلق على ذلك ويقول: " فقد صحَّ يقينا أنَّ جميع أسباط بني إسرائيل – حاشا – سبط يهوذا وبنيامين ومن كان بينهم من بني هارون بعد سليمان عليه السلام مدة مائتي عام وواحد وسبعين عاما لم يظهر فيهم قط إيمان ولا يوما واحدا فما فوقه وإنما كانوا عباد أوثان"[46]، وقال: "لم يكن فيهم مؤمن قط ولا واحد فما فوقه؛ بل كانوا كلهم معلنين بعبادة الأوثان مخيفين للأنبياء مانعين القصد إلى بيت المقدس لم يكن فيهم نبي قط إلا مقتولا أو هاربا مخافا"[47].

ثانيا: عدم الثقة بالتوراة المنسوبة لموسى عليه السلام، لأنها لم تصل بالتواتر فلا يوجد العدد الذي يؤمن تواطؤهم على التحريف، وإنما كانت تحفظ عند الكاهن الأكبر وحده في الهيكل[48]، فيقول:" فاعلموا الآن أن التوراة لم تكن من أول دولتهم إلى انقضائها إلا عند الهاروني الكاهن الأكبر وحده في الهيكل فقط"[49]، لكن هنا يطرح سؤال: هل كان الكاهن الأكبر على امتداد تاريخ بني إسرائيل أمينا على حفظ التوراة التي لم تكن توجد عند أحد غيره؟. فيجيب ابن حزم بقوله: "قد كان في الكهنة الهارونيين ما كان في غيرهم من الكفر والفسق وعبادة الأوثان.. أن من هذه صفته فلا يؤمن عليه تغيير ما ينفرد به"[50].

ثالثا: وقوع غارة نبوخذ نصر (بختنصر) وخراب بيت المقدس، وهو المكان الذي كانت تصان فيه النسخة الوحيدة للتوراة، والتي كانت محفوظة في الهيكل حيث تم إحراقها، وبعد ذلك كانت كتابة التوراة من عزرا الوراق والتي أملاها على اليهود من حفظه، "وكانت كتابة عزرا للتوراة بعد أزيد من سبعين من خراب بيت المقدس!! وكتبهم تدل على أن عزرا لم يكتبها لهم أو لم يصلحها إلا بعد نحو أربعين سنة من رجوعهم إلى البيت، بعد السبعين عاما التي كانوا فيها مسبيين، ولم يكن فيهم حينئذ نبي أصلا ولا القبة ولا التابوت"[51].

لقد قدم ابن حزم مجموعة من البراهين في نقده لسند التوراة أكد من خلالها على تحريف التوراة، إذ يقول: "هذه كلها براهين أضوء من الشمس على صحة تبديل توراتهم وتحريفها"[52]، فعدم حفظ التوراة، وضياعها يعود لأسباب كثيرة أهمها ما تعرض له بنو إسرائيل من سبي وقتل واضطهاد عبر

التاريخ، كما أن ملوكهم لم يكونوا أهلا لحفظ التوراة، بل كانوا يتنقلون من حال سيء إلى أسوء منه، وهذا يؤكد أن التوراة الموجودة بأيدي اليهود اليوم إنما هي تأليف عزرا الوراق التي كتبها أبَان السبي البابلي لليهود[53].

أ-2-2- النقد الداخلي (المتن): النظر إلى النصوص ذاتها وما فيها من تناقض واختلاف ومغايرة للواقع الذي كشف عنه من داخل التوراة ذاتها، فقد كان يحصي الاختلافات والفروق ويتبعها بدقة، فإذا وجد خطأ كشفه، ثم ساقه دليلا على بطلان الكتاب وتحريفه، وبذلك استطاع أن يبرهن على أن التوراة تحمل بين طياتها دليل بطلانها، وفيما يلي مواضيع النقد الذي وجهه ابن حزم إلى النص التوراتي:

- **الاساءة للذات الإلهية:** لاحظ ابن حزم أن التوراة تمتلئ بالتعبيرات التي يمس منطوقها ومفهومها معا قداسة الذات الإلهية، وما ينبغي لها من سمو وتنزيه، فهي تنسب إليه تعالى، فنسبت إليه التشبيه والتجسيم، والأوصاف البشرية كنسبة البداء، والتعصب والنصب، وظهوره ليعقوب على صورة إنسان ضعيف، ونسبة الندم والخشية من اللعن، ووصفه بالكذب والندم على ما فعل، والطعن في علم الله، وأن له الأبناء، وتذكر نبوءات له لم تتحقق[54]، وكمثال على ذلك:

- ففي نسبة الكذب يقول كاتب التوراة أنَّ الله تعالى قال لإبراهيم : **[13 فَقَالَ لأَبْرَامَ: «اعْلَمْ يَقِيناً أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيباً فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ فَيُذِلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ. 14 ثُمَّ الأُمَّةُ الَّتِي يُسْتَعْبَدُونَ لَهَا أَنَا أَدِينُهَا. وَبَعْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُونَ بِأَمْلاَكٍ جَزِيلَةٍ. 15 وَأَمَّا أَنْتَ فَتَمْضِي إِلَى آبَائِكَ بِسَلاَمٍ وَتُدْفَنُ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ. 16 وَفِي الْجِيلِ الرَّابِعِ يَرْجِعُونَ إِلَى هَهُنَا لأَنَّ ذَنْبَ الأَمُورِيِّينَ لَيْسَ إِلَى الآنَ كَامِلاً»]**[55]. فيرد ابن حزم على ذلك بقوله : "في هذا الفصل على قلَّته كذبتان فاحشتان شنيعتان منسوبتان إلى الله تعالى وحاشا لله من الكذب والخطأ"، ويوضح وجه الكذب في ذلك : أنه لم يرجع من الجيل الرابع أحد إلى الشام، وأن فترة التعذيب فيها كذب فاحش[56].

- تشبيه التوراة أحيانا الإنسان بالخالق، ومن ذلك نجد: **[26 وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ»]**[57]. وفي قول التوراة كذلك: **[22 وَقَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفاً لْخَيْرَ وَلشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضاً وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ»]** [58].

- **الاساءة للأنبياء:** تمتلئ التوراة بعدد كبير من النصوص التي تصور الأنبياء تصويرا لا يتفق وعصمتهم أو مقامهم الديني الجليل، بل إنها تذهب إلى أبعد من ذلك فتنسب إليهم العديد من الكبائر[59]، وكمثالين على ذلك:

- أنَّ لوطا عليه السلام زنى بابنتيه الكبرى والصغرى، بعد أن سقياه الخمر ثم حملتا منه[60]، فقد ورد في التوراة: **[30 وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ وَابْنَتَاهُ مَعَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي**

الْمَغَارَةِ هُوَ وَبْنَتَاهُ. [31]وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. [32]هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْراً وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً»] [(61)].

- أن داود عليه السلام زنى بأوريًا الحثّي وهي امرأة أحد جنوده ، ثم أرسل زوجها إلى الحرب وأمر بتقديمه في أول الحرب ليقتل[(62)]، جاء في التوراة: **[2وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدّاً. 3فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هَذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟» 4فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. 5وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى».]** [(63)] يقول ابن حزم:"وتالله ما رأيت أمة تقر بالنبوة، وتنسب إلى الأنبياء ما يشبه هؤلاء الكفرة"[(64)].

- **تناقض النصوص:** إذا كان ابن حزم قد انطلق في نقده للقائمتين السابقتين من منطلق ديني، أي أنه كان يعرض التوراة على مقياس ديني، فإنه في هذه القائمة قد أصبح يعتمد على أساس عقلي واضح، إذ يعتمد على أسلوب المقارنة ثم يستخرج النتيجة التي تثبت اضطراب النص الذي يقوم بفحصه[(65)]، وتوصل إلى كثير من وجوه التناقض ومن أبرز وجوه التناقض نجد:

تناقض النص مع نفسه، كأن تذكر التوراة مثلا أن الله قرر أعمار البشر بمئة وعشرين سنة، ثم تورد أسماء كثير من الأشخاص والأنبياء فاقت أعمارهم هذا الرقم[(66)]. وتناقض النص مع نص آخر في نفس النسخة من التوراة، كذكر التوراة مثلا أن رؤية الله قد وقعت لبعض بني إسرائيل **[14وَيَقُولُونَ لِسُكَّانِ هَذِهِ الأَرْضِ الذِينَ قَدْ سَمِعُوا أَنَّكَ يَا رَبُّ فِي وَسَطِ هَذَا الشَّعْبِ الذِينَ أَنْتَ يَا رَبُّ قَدْ ظَهَرْتَ لَهُمْ عَيْناً لِعَيْنٍ وَسَحَابَتُكَ وَاقِفَةٌ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ سَائِرٌ أَمَامَهُمْ بِعَمُودِ سَحَابٍ نَهَاراً وَبِعَمُودِ نَارٍ لَيْلاً.]** [(67)]، وفي موضع آخر ورد في التوراة: **[12فَكَلَمَكُمُ الرَّبُّ مِنْ وَسَطِ النَّارِ وَأَنْتُمْ سَامِعُونَ صَوْتَ كَلامٍ وَلَكِنْ لَمْ تَرُوا صُورَةً بَل صَوْتاً.]**[(68)].

وتناقض النص مع نص آخر في نسخة أخرى من نسخ التوراة، فقد ورد مثلا في النسخة التي اعتمدها ابن حزم في دراسته: **[24فَطَرَدَ الإِنْسَانَ وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ.]"** ، وفي نسخة أخرى: **[24وَوكلَ بالجنان المُشْتهر إسْرَافيل وَنَصب بَيْنَ يَدَيْه رُمْحًا نَارِيًا لِيحْفَظَ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ.]** [(69)]. وهنا يعقب ابن حزم قائلا: "إن لم يكن أحدهما خطأ من المترجم، وإلا فلا أدري كيف هذا؟!"[(70)].

وأخيرا يعتمد ابن حزم في إظهار تناقض التوراة على ما ورد في القرآن الكريم، فقد ورد مثلا في التوراة **[1وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ 2فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاثَةُ رِجَالٍ وَاقِفُونَ لَدَيْهِ. فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ 3وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ. 4لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا**

تَحْتَ الشَّجَرَةِ [5]فَاَخُذَ كِسْرَةَ خُبْزٍ فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَازُونَ لأَنَّكُمْ قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عَبْدِكُمْ». فَقَالُوا: «هَكَذَا تَفْعَلُ كَمَا تَكَلَّمْتَ».][71]. يتتبع ابن حزم هذه القصة في التوراة ليستخرج منها نقاط تكشف عن التناقض، إما في داخل القصة ذاتها، وإما مع المبادئ الثابتة لدى اليهود[72]، يقول ابن حزم:"فأول إخباره أن الله تعالى تجلى لإبراهيم، وأنه رأى الثلاثة نفر فأسرع إليهم وسجد وخاطبهم بالعبودية، فإن كان أولئك الثلاثة هم الله فهذا هو التثليث بعينه .. وإن كان أولئك الثلاثة ملائكة وهكذا يقولون فعليهم في ذلك أيضا فضائح عظيمة، وكذب فاحش"[73]. ورد في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)**﴾[74]، إذ يثبت القران الكريم أن من جاء إلى إبراهيم عليه السلام هم أربعة ملائكة في صورة بشرية محتفظين بخصائصهم الملائكية، وأبلغوا إبراهيم عليه السلام أنهم مرسلون إلى قوم لوط لإهلاكهم على كثرة فسادهم، وبشروا امرأة إبراهيم عليه السلام بغلام هو اسحاق عليه السلام[75]، وهذه القصة خالية من أي مخالفة شرعية بعكس القصة المحرفة في توراة اليهود.

- **الأخطاء العلمية:** تشتمل هذه القائمة على مجموعة من الأخطاء العلمية التي رصدها ابن حزم في توراة اليهود، وتتعلق هذه الأخطاء بالحساب[76]، وذلك مثلا في حسابه لأعمار الأنبياء وتداخل تواريخهم مع بعضها البعض، فتذكر التوراة مثلا أن نوحا عليه السلام لما بلغ خمس مائة سنة ولد له يافث وسام وحام، ثم تذكر أن نوحا عليه السلام لما بلغ ستمائة سنة كان الطوفان، ولسام يومئذ مئة سنة، وأن سام ابن نوح عليه السلام لما كان ابن مئة سنة ولد له ارفخشاد لسنتين بعد الطوفان، فهذا خطأ في عامين.. ويختم ابن حزم قوله في حديثه عن الأخطاء الحسابية: "إن الذي عمل لهم التوراة التي بأيديهم كان قليل العلم بالحساب، ثقيل اليد فيه جدا"[77]. وأخطاءً في التاريخ، ففي سفر الخروج مثلا نجد أن مدة إقامة بني إسرائيل في مصر كانت 430 سنة[78]، وفي سفر التكوين 400 سنة[79]، وبحساب عمر يعقوب عليه السلام، ثم أعمار الأجيال إلى زمن الخروج مع موسى عليه السلام فيجتمع منها 350 سنة، فأين الثمانون سنة الباقية من جملة أربعمائة وثلاثين سنة[80].

وسجل في الجغرافيا مجموعة من الأخطاء، كالأخطاء الخاصة بتحديد الأنهر الأربعة الخارجة من الجنة، واستشهد بمعلومات صحيحة عن منابع النيل، ومجرى الفرات..[81]، وأخيرا طبائع العمران، وبدائة العقل، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في التوراة من تحويل ماء النيل ومصر كلها إلى دم على يد موسى وهارون عليهما السلام، وأن السحرة فعلوا ذلك، وهنا يتساءل ابن حزم: "أي ماء بقي حتى يفعل السحرة

ذلك؟ فإن قال اليهود بأن السحرة قلبوا ماء الآبار التي حفروها بجوار النيل، فيتساءل ابن حزم مرة ثانية: ومن أين شرب أهل مصر في فترة حفر الآبار وهم بلا ماء أصلا..[82].

ب- منهج الإمام الجويني في نقد العهد القديم:

ب-1- الإمام الجويني: هو الإمام شيخ الإسلام البحر الحبر، المدقق المحقق الأصولي المتكلم أبو المعالي عبد الملك بت عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوه الجويني، أحد كبار الشافعية، الملقب بإمام الحرمين، ولد في جوين من نواحي نيسابور سنة 419هـ، وتوفي سنة 478هـ، برع في علم الكلام، له عدة مؤلفات منها: (العقيدة النظامية)، (البرهان)، (الإرشاد)،(نهاية الطلب في دراية المذهب)،(الشامل،) (الورقات)، (مدارك العقول)، (غياث الأمم في الإمامة)، (غنية المسترشدين)...[83]

ب-2- منهجه: أثبت الإمام الجويني بما لا يدعو مجالا للشك إثبات وقوع التحريف والتبديل في التوراة، وذلك في كتابه (شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل)، الذي تناول فيه الموضوعات التالية: دعوى اليهود والنصارى عدم تحريف التوراة والإنجيل، وصف تاريخي لتدوين التوراة، عقد مقارنة بين التوراة العبرانية واليونانية، وذكر بعض تناقضات الأناجيل. ويتجلى منهجه في باب النقد اعتماده على المعطيات التاريخية ثم المقارنة بين التوراة العبرانية واليونانية.

ب-2-1- المعطيات التاريخية:

يؤكد الجويني بأن التوراة التي بيد اليهود الآن، هي من كتابة عزرا، بعد هجوم ملك بابل نبوخذ نصر، وصرح كذلك بأن كتابته للتوراة كانت قبل بعثة المسيح عليه السلام بخمس مائة وخمسة وأربعين سنة، ويبرهن على خطأ نسبة التوراة الحالية إلى موسى عليه السلام، بأن اليهود والنصارى قد صرحوا بوقوع الكذب في نسخ التوراة التي بيد كل طرف...، فاليهود يزعمون بأن النصارى بدلوا ما بأيديهم من النسخ...، والنصارى يزعمون أن اليهود بدّلوا ما بأيديهم من نسخ التوراة، فقد أجمع الفريقان على القول بوقوع التبديل، وهذا ينفي ما طرحه أهل الكتاب، من كون التحريف غير ممكن لعدم حصر نسخ التوراة، وعدم انقياد كل فرد من الأفراد لذلك التحريف، أضف إلى ذلك عدم عصمة عزرا من هذا الفعل، رغم ما يدعونه له من الفضل، خاصة وأنه كان حريصا على الرئاسة[84].

ب-2-2- المقارنة:

لجأ الإمام الجوينى إلى المقارنة لتأكيد التحريف والتبديل بين نسخة اليهود والنصارى، باعتبار أن هذه المقارنة عُقدت بين نصوص التوراة التي بيد اليهود، ونصوص أخرى بيد النصارى، لذلك فهي أبلغ في إثبات وقوع التحريف، وقد ركز المؤلف هنا على النصوص التي تناولت أعمار الآباء الأوائل، من آدم إلى نوح عليهما السلام، ومن نوح إلى إبراهيم عليهما السلام، فكان يذكر ما في التوراة العبرانية، ثم يذكر ما في التوراة اليونانية، وفيما ملخص ما ذكره بدءا بقوله[85]: "ونحن نذكر الآن ما يكذب النسختين فنقول":

- تذكر التوراة التي بيد اليهود أن آدم عليه السلام، حين مضى عليه مائة وثلاثون سنة ولد له شيت أما عند النصارى مائتان سنة.

- تذكر التوراة التي بيد اليهود أن شيت حين مضى عليه ستمائة سنة ولد له أنوش، أما عند النصارى سبعمائة سنة.

- تذكر التوراة العبرانية أن أنوش حين مضى عليه تسعون سنة ولد له قينان، أما عند النصارى مائة وتسعون سنة.

- تذكر التوراة العبرانية أن قينان حين أتى عليه سبعون سنة ولد له مهللئيل، بينما عند النصارى مائة سبعون سنة.

- تذكر التوراة العبرانية أن مهللئيل ولد له يارد حين عاش خمسا وستين سنة، أما عند النصارى مائة وستون سنة.

- تتفق النسختان على عمر يارد حين ولد له أخنوخ.

- تذكر العبرانية أن أخنوخ حين أتى عليه خمس وستون سنة، ولد له متوشالح، وفي النسخة اليونانية مائة خمس وستون.

- تتفق النسختان على عمر متوشالح حين ولد له لامك مائة سبع وثمانون سنة، وعلى عمر لامك حين ولد له نوح عليه السلام وهو مائة واثنتان وثمانون سنة، وعلى عمر نوح عليه السلام حين ولد له سام خمس مائة سنة، وعلى عمر سام حين ولد له افركشاد وهو مائة سنة ولد لأفركشاد شالح بعد أن عاش خمسا وثلاثين سنة.

- تذكر التوراة العبرانية أن شالح ولد له عابر حين مضى عليه ثلاثون سنة، وفي النسخة اليونانية مائة ثلاثون.

- تذكر التوراة العبرانية أن عابر لما بلغ أربعا وثلاثين سنة ولد له فالج، وفي النسخة اليونانية مائة وأربع وثلاثين.

- تذكر التوراة العبرانية أن فالج لما بلغ ثلاثين سنة ولد له راعوا، وفي النسخة اليونانية مائة وثلاثين.

- تذكر التوراة العبرانية أن رعو حين بلغ اثنتين وثلاثين سنة ولد له سروج، وفي النسخة اليونانية مائة واثنتين وثلاثين.

- تذكر التوراة العبرانية أن سروج حين بلغ ثلاثين سنة ولد له ناحور، وفي النسخة اليونانية مائة وثلاثين.

- تذكر العبرانية أن ناحور بلغ تسعا وعشرين سنة حين ولد له تارح، وفي النسخة اليونانية تسع وسبعون، وتارح ولد له إبراهيم وهو ذو سبعين سنة[86].

الهوامش:

(1)- أبا الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور (ت 711هـ)، **لسان العرب**، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، مج5، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص 4517.

(2)- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004، ص 944.

(3)- Encyclopédie AZ, Edition Atlas, Paris, 1979, p 1591.

(4)- Dictionnaire encyclopédique Quillet, LAQ, Paris, 1975, p 1607.

(5)- فريد الأنصاري، **أبجديات البحث في العلوم الشرعية**، ط1، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، 1997، ص 98.

(6)- أندريه لالاند ، **موسوعة لالاند الفلسفية**، تع: خليل أحمد خليل، إشراف: أحمد عويدات، ط2، منشورات عويدات، بيروت، 2001، ص 238.

(7)- L. Mounloubou, FM. Dictionnaire Biblique Universel, Paris Desclée,1984, p 150-151.

(8)- Dictionnaire encyclopédique Quillet, OP.Cit, p 107.

(9)- La grande encyclopédie Larousse, Tome 08, Librairie Larousse, Paris, 1972, p 1690.

(10)- يوسف الكلام، **تاريخ وعقائد الكتاب المقدس** –يعنى إشكالية التقنين والتقديس، دراسة في التاريخ النقدي للكتاب المقدس في الغرب المسيحي-، ط1، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، 2009، ص 29.

(11)- محمد علي برّو العاملي، **الكتاب المقدس في الميزان**، (د.ط) الدار الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص 54.

(12)- سورة البقرة، الآية: 136.

(13)- محمد علي برّو العاملي، المرجع السابق، ص 54.

(14)- محمد علي البار، **المدخل إلى دراسة التوراة والعهد القديم**، ط1، دار القلم، دمشق، 1990، ص 112.

(15)- أسامة محمد أبو نحل، نقد نماذج لروايات العهد القديم من خلال القرآن الكريم والدراسات الحديثة، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، مج14، العدد 2، 2006، ص 175. ينظر كذلك: صلاح عبد الفتاح الخالدي، **حديث القرآن عن التوراة**، دار العلوم للنشر والتوزيع، عمان، 2000، ص 179.

(16)- سورة المائدة، الآية: 44.

(17)- أسامة محمد أبو نحل، المرجع السابق، ص 175.

(18)- سورة البقرة، الآية: 75.

(19)- أبي الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، ابن كثير (ت 774هـ/1372م)، **تفسير القرآن الكريم**، ج (1-2)، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2002، ص 228.

(20)- سورة النساء، الآية: 46.

(21)- ابن كثير، المصدر السابق، ص 756.

(22)- نعيمة إدريس، **أزمة المسيحية بين النقد التاريخي والتطور العلمي**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في الفلسفة، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008، رسالة غير منشورة، ص 14-15.

(23)- **الجرح والتعديل**: **الجرح لغة**: مصدر جرحه بجرحه جرحا أي أثر فيه بالسلاح. ينظر: ابن منظور، المرجع السابق، مج1، ص 586. **واصطلاحا**: هو الطعن في الراوي بما يثلم عدالته أو يخل بضبطه مما يترتب عليه سقوط روايته أو ضعفها، والتجريح وصف الراوي بصفات تقتضي تضعيف روايته أو عدم قبولها. **والتعديل لغة**: مأخوذ من العدل، **واصطلاحا**: هو

وصف الراوي بصفات توجب قبول خبره. **أما علم الجرح والتعديل:** فهو علم يبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة وعن مراتب تلك الألفاظ، وقيل علم يعني بتوثيق وتجريح الرواة بألفاظ مخصوصة. ينظر: عصام أحمد البشير، **أصول منهج النقد عند أهل الحديث**، ط2، مؤسسة الريان، بيروت، 1992، ص 16-18.

(24)- إبراهيم أحمد الديبو، ابن حزم الأندلسي رائد الدراسات النقدية للتوراة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مج 23، العدد الثاني، 2007، ص 455.

(25)- فؤاد سزكين، **محاضرة في تاريخ العلوم**، (د.ن)، الرياض، 1979، ص 455.

(26)- عبد الرحمن بدوي، **مناهج البحث العلمي**، ط3، وكالة المطبوعات، الكويت، 1988، ص 194-195.

(27)- نفسه، ص 187.

(28)- إبراهيم أحمد الديبو، المرجع السابق، ص 455-456.

(29)- عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص 187-188.

(30)- مصطفى زرهار، **مقاربات في دراسة النص التوراتي** –سفر راعوث أنموجا-، ط1، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، 2012، ص 189.

(31)- سورة المائدة، الآية: 13.

(32)- مصطفى زرهار، المرجع السابق، ص 189.

(33)- سورة البقرة، الآية: 79.

(34)- مصطفى زرهار، المرجع السابق، ص189-190.

(35)- أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (608هـ/681هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج3، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1980، ص 325-326. ينظر كذلك: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت748هـ/1274م)، **سير أعلام النبلاء**، ج 18، تح: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقوسي، ط11، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، ص ص 184-190.

(36)- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المصدر السابق، ص 190.

(37)- إبراهيم أحمد الديبو، المرجع السابق، ص 453.

(38)- نفسه، ص 454.

(39)- عبد الوهاب عبد السلام طويلة، **توراة اليهود والإمام ابن حزم الأندلسي**، ط1، دار القلم، دمشق، 2004، ص 13.

(40)- حامد طاهر، منهج النقد التاريخي عند ابن حزم نموذج من نقد توراة اليهود، حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، العدد 06، 1988، ص 613.

(41)- أبي محمد علي بن أحمد، ابن حزم الظاهري، (ت 456هـ/1064م)، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تح: محمد ابراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، ج1، ط2، دار الجيل، بيروت، 1996، ص 287.

(42)- حامد طاهر، المرجع السابق، ص 615.

(43)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 290.

(44)- محمد عبد الله الشرقاوي، **في مقارنة الأديان** –بحوث ودراسات-، ط2، دار الجيل، بيروت، 1990، ص 104.

(45)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 297-298.

(46)- نفسه، ص 297.

(47)- نفسه، ص 294.
(48)- إبراهيم أحمد الديبو، المرجع السابق، ص 470.
(49)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 294.
(50)- نفسه، ص 300-301.
(51)- نفسه، ص 298.
(52)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 301.
(53)- إبراهيم أحمد الديبو، المرجع السابق، ص 471.
(54)- حامد طاهر، المرجع السابق، ص 620.
(55)- سفر التكوين (15: 13-16)
(56)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 213.
(57)- سفر التكوين (1: 26)
(58)- سفر التكوين (3: 22)
(59)- حامد طاهر، المرجع السابق، ص 622.
(60)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 223.
(61)-سفر التكوين (19: 30-32)
(62)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 239.
(63)- سفر صموئيل الثاني (11: 2-5)
(64)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 239.
(65)- حامد طاهر، المرجع السابق، ص 625.
(66)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 201.
(67)- سفر العدد (14: 14)
(68)- سفر التثنة (4: 12)
(69)- سفر التكوين (3: 24)
(70)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 208.
(71)- سفر التكوين (1: 5)
(72)- حامد طاهر، المرجع السابق، ص 628.
(73)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 220.
(74)- سورة هود، الآية: 69-73.
(75)- ابن كثير، المصدر السابق، ج2، ص 1474-1475.
(76)- حامد طاهر، المرجع السابق، ص 628.
(77)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 212.
(78)- سفر الخروج (12: 40-42)
(79)- سفر التكوين (15: 13)

(80)- ابن حزم الظاهري، المصدر السابق، ص 253.

(81)- نفسه، ص 203-205.

(82)- نفسه، ص 250.

(83)- تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (771هـ/1370م)، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج5، تح: محمود محمد الطناجي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د.ت)، ص 165. ينظر كذلك: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المصدر السابق، ص 468

(84)- عبد الملك بن عبد الله يوسف أبي المعالي الجويني (ت478هـ/1085م)، **شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل**، تح: أحمد حجازي السقا، ط3، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 1989، ص ص 36-38.

(85)- مصطفى زرهار، المرجع السابق، ص 196.

(86)- أبي المعالي الجويني، المصدر السابق، ص ص 38-42.

أثر الدين على النحت المصري القديم

د/أوكيل صبيحة، جامعة عمار ثليجي الاغواط

الملخص: يتحدث المقال عن فن النحت عند المصريين القدماء ومدى تأثره بالدين، خاصة وأن المصريون القدماء كانوا من أكثر الشعوب تديناً؛ حيث كانت أعمالهم في حياتهم اليومية في مجملها مخصَّصة للحياة الأخرى التي تتَّسم بالخلود، ومن تلك الأعمال المنحوتات مثل التماثيل وكل ما يرافق نقوش تزيينية مثل التوابيت والحلي إلى غير ذلك، كانت موجهة لخدمة الدين، والتي زينت المعابد والأهرامات وقد جسّدت الآلهة والملوك في منظر يكتسيه الهيبة والورع والوقار، كما كانت منحوتاتهم تمثل جزء من الأثاث الجنائزي الذي يضمن خلود الروح في الحياة الأخرى، كما تطرَّقت إلى أهم الخصائص التي تميّز بها النحت الفرعوني عن غيره من فنون العالم القديم، مثل: الضخامة والجدية والمثالية والرتابة والجاذبية، بالإضافة إلى الفصل في نوعي النحت هو المجسم والبارز.

الكلمات المفتاحية: النحت، مصر القديمة، الدين، التماثيل، الآلهة، الفرعونية، النحت البارز، النقش، التمائم، التوابيت.

Abstract:
The article talks about the sculpture of ancient Egyptians and the extent of its influence on religion, especially The ancient Egyptians were among the most religious people; their work in their everyday lives was entirely devoted to the other immortal life. These include sculptures such as statues and all associated with ornamental inscriptions such as coffins Ornaments, etc., were designed to serve the religion, which decorated the temples and pyramids and embodied the gods and kings in a landscape of prestige and prestige and reverence, as their sculptures represent part of the funerary furniture that guarantees the immortality of the soul in other life, and also touched on the most important characteristics that met G.
The pharaonic sculpture of other ancient arts, such as: greatness, seriousness, idealism, monotony and gravity, in addition to the separation of the two types of sculpture is the stereotype and the highlights.
key words: Sculpture, Statues, Amulets, the art, Religion, Gods, Pharaonic, Ancient Egypt.

مقدمة: يقول هيرودوت: «إن المصريين أشد البشر تديناً، ولا يُعرف أي شعب بلغ من التدين درجتهم فيه؛ فإن صورهم بجملتها تمثل أناساً يصلون أمام إله، وكتبهم في الجملة أسفار عبادة... ونسُك»[1]، وقد تعددت معبودات المصريين القدامى طالما أنه لكل الموجودات أرواح، لذلك عمدوا إلى تجسيد تلك المعبودات في صور متعددة، وعلى الرغم من أن التجسيد والتشبيه في مصر قد ظهر قبل عصر السلالات الفرعونية، إلا أنه لم يبق على حاله وإنما أخذ في التطور من شكل لآخر[2].

وبالحديث عن تدين المصريين من جهة وبراعتهم في الكثير من الفنون في مقدمتها النحت من جهة أخرى يتبادر للذهن مجموعة من التساؤلات: هل كان للدين تأثير في النحت المصري القديم؟ وكيف تجلى ذلك في المنحوتات بنوعيها المجسمة والبارزة؟ وبماذا تميّز النحت المصري عن غيره من الفنون؟.

I.تعريف النحت:

فن النحت يتمثل في النحت المجسَّم الذي يُعنَى بنحت التماثيل (Sculpture)، والنحت البارز الذي يتمثل في النقوش ذات البعدين (Relief)[3]، وقد عُرّف في معجم أكسفورد الموجز نقلاً عن ر. أنجلباخ أنه فن التشكيل المجسم أو البارز للأشياء، يتم بنحت الحجر وحفر الخشب وتشكيل الطين وصب المعدن وما شابه ذلك، وقد بلغ معظم أشكال النحت مستوى عالي في عصر الأسرات الباكر سواء في الحجر أو الخشب أو العاج أو النحاس أو الذهب...[4]، وتشهد تحفة شيخ البلد على روعة فن النحت الذي ينم على الواقعية والبساطة[5]، والتي يقول فيها ماسبيرو: «لو أقيم معرض عالمي لروائع الفن القومي لقدمت إليه تمثال شيخ البلد ليمثل عظمة الفن المصري»[6].

وأهم ما يجسِّد براعة النحت المصري القديم تلك التماثيل التي ازدانت بها المعابد والأهرامات للآلهة والملوك، بالإضافة إلى اللوحات المنقوشة ثنائية الابعاد التي وجدت في المعابد، والتي تضمنت مناظر الحياة اليومية التي يواصل الميت عيشها كما جاءت في المناظر ومناظر أداء الطقوس الدينية.

وقد عزّز فن النحت الاعتناء بتجسيد اشكال الآلهة أحسن تجسيد، وذلك لإضفاء القداسة والهيبة على تماثيل الآلهة، لذلك أصبح النحت شكلاً من أشكال التعبير الصوري لشعب اعتقد في الخلود واللانهائية، حيث تظهر الخصائص المشتركة في نحت التماثيل من خلال ارتباطها بفكرة البعث والحياة الأبدية في العالم الآخر، ومن ذلك ظهرت هيئة الملوك والآلهة في المنحوتات كبشر يتمتعون بجلال وهيبة.

II.خصائص فن النحت: عمل الفن المصري بصفة عامة على تحويل كل حدث إلى قيمة حضارية[7]، وفن النحت بصفة خاصة ظل بنقوشه وتماثيله شكل موسوعة حضارية، عبَّرت عن اتجاهات عصورها ومستويات الذوق عند أصحابها، وترجمت ما استحبّه أهلها من دنياهم وما رجوه لأنفسهم في أخراهم، واكتسى طابعاً متميَّزاً لا تكاد العين تخطئه إذا قارَنَته بأي فن آخر قديم أو حديث، وقد امتاز عن غيره من فنون العالم القديم بما يلي:

1.الضخامة (Greatness):

امتاز النحت الفرعوني بضخامة أحجامه بشكل لافت للنظر، على نوع النحت العملاق (Monumental Sculpture) مثل تمثال أبو الهول[8] في واجهة معبد أبو سمبل، أو جزء الكتف والصدر لرمسيس الثاني[9] في صالة معبده في هابو، والتي وصل وزنها إلى أكثر من مائة طن[10].

2.الجدية (Seriousness):

تظهر جدية النحت المصري القديم أنه لم ينم عن أي مظهر من مظاهر العبث والترفيه، بل إن فخامة الأعمال قد أثبتت ثقة الفنان بنفسه، وذلك راجع إلى كون معظمها كانت موجهة للحياة الأخرى، ولا أدل على جدية الأعمال الفنية المصرية من الهيبة والوقار الذي تُظهره تماثيل الآلهة التي تملئ المعابد[11].

3. الديمومة (Permanence):

استوحى المصري القديم الصلابة من الطبيعة التي جعلت كل شيء قاسٍ في مصر، كما أعجب بالثبات والدوام ما جعل جل أعماله توجه للخلود، وكذا تماثيله لتدوم للأبد[12]، وقد استعمل المصري القديم الحجارة حيث كان الملوك يوفدون البعثات إلى أسوان، وأماكن مختلفة من الصحراء الشرقية لجلب الأحجار المختلفة اللازمة للأهرامات والمعابد والأبواب الوهمية والمسلات[13] والنواويس والتماثيل والتوابيت وغيرها، بما يكفل لمنشآتهم البقاء آلاف السنين[14]، فمصر كانت أول من استعملت الحجارة في فنونها على نقيض حضارة واد الرافدين التي اعتمدت على اللبن في البناء.

4.الجاذبية (Gravity):

تظهر جاذبية النحت الفرعوني في القطع الفنية، والتماثيل الرائعة ذات الألوان المفعمة بالحيوية، التي جعلت الفن المصري القديم يتسم بالجمال والأناقة، هذا وقد اكتسب نضارة وأناقة جذابة ومرونة في الخطوط خاصة منه فن الدولة الحديثة (1580- 1085 ق.م) الذي جاء معاكساً لفن الدولة القديمة (2690- 2180 ق.م) والوسطى (2060- 1785 ق.م)، كونه اتسم بالقوة والصلابة وأصدق مثال على جاذبية الفن المصري تمثال نفرتيتي[15] والذي يعد رائعة فنية مفعمة بالجمال والأناقة[16].

5.المثالية (Idealism):

لم تكن المثالية أو ما تعني بما فوق الواقعية صفة عرضية في الفن المصري عامة والنحت بصفة خاصة، بل كانت صفة أصيلة؛ حيث كان المصري شغوفا بالحياة الأبدية في تصورها شبيهة بحياته، لا يخرج فيها عن الموروث ويعيش ما استطاع حفاظاً عليه، وهذا ما أضفاه الفنان المصري على الفن بمختلف أنواعه، لذلك عاش هذا الأخير أسير الحفاظ والتقاليد الدينية التي تفرض أوضاعاً محددة للتماثيل، هي المثالية لا سيما فيما يخص تماثيل الآلهة[17].

6.الواقعية (Realism):

كان النحت المصري يهدف إلى محاكاة الطبيعة أو النسخ والتقليد وإبراز الحقيقة، وهو بذلك يناقض الفن الإغريقي بأهدافه التي ترنوا إلى السمو بالإنسان إلى المثالية، وقد وصل التقليد إلى حد طبع القوالب الجبسية على الأجسام[18]، ومحاولة الفنان بث الحياة في تماثيله جعله يعمل قدر الإمكان إظهار ملامح الوجه الخاص بصاحب التمثال أو الممثل في الصورة لضرورة دينية[19]، فقد ظل الفنان يعبر عن نفسه من خلال تقاسيم الوجه أو الهيئة، كما هو الحال في تماثيل الدولة الوسطى والحديثة، التي عبرت بصدق عن تقلب الأقدار، مثل الرأس الجميل للتمثال "سنوسرت الثالث"[20] الذي عثر عليه في معبد الكرنك، وفيه لمسة من الحزن وملامح تعبر عن الألم جراء الصراع الذي دام عدة قرون[21]، كذلك تظهر

من واقعية تماثيل الدولة الحديثة الصور التي تظهر أفراد عائلة الملك أخناتون[22] في جلسات طبيعية لا تتفق مع الوقار التقليدي للملوك[23]، والفضل في إبراز الخطايا النفسية والتعبيرات الخاصة بالإضافة إلى الطباع والأحاسيس يعود لاستعماله الألوان الطبيعية[24].

7.الرتابة (Monotony):

نظر العلماء الغربيون المتأثرون بالعقلية الأكاديمية والكلاسيكية الإغريقية التي سادت القرن التاسع عشر إلى الفن المصري بتميَّزه بالرتابة، كونه قد اقتصر على موضوعات محددة لم يتجاوزها، وتقيده بقواعد صارمة نظمت العمل ما جعله يظهر وكأنه نتاج يد واحدة[25]، حيث نجد أن فن النحت رسا منذ الأسرة الأولى على قوانين تضبطه، مثل قانون الأمامية والنظرة المستقيمة وانعدام الحركة لدرجة أن النظرة العابرة للتمثال تحكم عليه بالجمود[26]، بغض النظر عن الهدوء والوقار الإلهي الذي منحه هذا القانون لتماثيل الآلهة والملوك.

8.الرمزية (Symbolisme):

تعتبر البنية الرمزية من أهم ما ميَّز التشكيلات الإبداعية المصرية، حيث بدأ الفكر يوجد لذاته مجموعة من الرموز يُنَظِم بها معطيات الخبرة التي امتلكها[27]، بمعنى أنه كان هناك تقليد يحتم معاملة الأشخاص في الفن طبقاً لمراكزهم في البلاط المصري، فسواء كان رسماً أو نقشاً أو نحتا، فإنه كان يُميُّز الأشخاص حسب مكانتهم الاجتماعية، لذلك كانت صورة الإله أكبر من صورة الملك كما كانت صورة الملك تكبر عن أحجام صور العامة[28].

وقد بدأ الاختلاف الكبير في أحجام الأشخاص المرسومين منذ اتحاد القطرين، بعد أن كانت فيما قبل تتساوى كل الأشكال في الحجم، فلأول مرة يقابلنا مثلاً الاختلاف في الأحجام في لوحة الملك مينا[29] حيث مثل الملك في حجم يفوق موظفيه، كما أن أفراد الشعب الوحيدين الذين كان يسمح بتصويرهم من الجانب، على حين يجب تصوير الملك وموظفيه بحيث تظهر أكتافهم من الأمام، أي تصويرهم بالطريقة المثلى التي تتفق مع الوقار المحيط بالمصري المنتمي إلى الطبقة الراقية[30].

III.أنواع النحت:

ينقسم فن النحت كما سبق وذكرت إلى نوعين وذلك راجع لأبعاد العمل فإذا كان ثنائيا يسمى نقشاً أو النحت البارز، أما إذا كان ثلاثي الأبعاد أي مجسم فيسمى نحتاً مجسماً، وقد احتفظت المعابد والاهرامات بآلاف التماثيل المنثورة في حنايا المعابد على ضفاف النيل في حالة جيدة، وسأحاول فيما يلي إظهار تأثير الدين على النحت بنوعيه:

1.النحت المجسَّم:

عُرِف النحت المجسَّم بأنه فن يتعامل مع الكتل والفراغات والأحجام[31]، وبدقة أكثر يقصد به صناعة التماثيل بنوعيها الصغيرة والكبيرة، وتعود أقدم التماثيل إلى العصر العتيق الذي كان بمثابة مرحلة التكوين لفن النحت المصري القديم[32]؛ فقد تميَّزت تماثيل تلك الفترة بصغر حجمها وبساطة

شكلها، بعضها من العاج وبعضها الآخر من الطين المشوي، وقد كانت موضع تمجيد الفراعنة ورمزت إلى وضعهم المثالي بأسلوب رصين يدل على عظمة الملك وسعة سلطانه، ومن تماثيل تلك الفترة تمثالي فرس النهر وقرد الإله "تحوت"[33] المصنوعين من المرمر[34].

بينما تميز نحت الدولة القديمة بالنزعة الواقعية والجاذبية، وقد وصل إلى أوج عظمته وقوته، وهذا ما يُلمس في التلوين الواقعي الذي ظهر في تمثالا الأمير "رع حوتب" وزوجته الأميرة "نفرت" واللذان يرجع عهدهما إلى بداية الأسرة الرابعة؛ فتمثال الرجل خصص له لون المغرة الحمراء، بينما اتخذ تمثال المرأة اللون الأصفر، كما رصعت العيون بحجر الكوارتز شبه الشفاف والقرنية بالبلور الصخري، أما الحدقة فكانت عبارة عن تجويف في الوجه الخلفي من القرنية مملوء بالسواد بينما طُوقت كتلة العين بإطار برونزي[35]، كما نجد أيضاً من أحسن نماذج فن النحت التي تعود للأسرة الرابعة تمثال خشب الجميز المسمى "شيخ البلد"[36] الذي كشف عنه في أعمال ماريت (1821-1881م) في مقبرة "كا عبر" في سقارة[37]، وقد اعتمد هو الآخر على طرقة الترصيع في تلوين العيون التي تحدد نظرة التمثال الواقعية وكذا تمثال الكاتب المصري المتربع[38].

وقد تميز فن النحت في عهد الدولة الوسطى بالواقعية المعبرة عن تقلب الأقدار، وخاصة في عهد الأسرة الثانية عشر كتماثيل "سنوسرت" العشرة، وتماثيل "أمنمحات الثالث"، التي تميزت بالأناقة ودقة الصنع، غير أنها لم تكن قوية التعبير كتماثيل الدولة القديمة، وفي الدولة الحديثة وبتولي "أخناتون" العرش وتوحيده للآلهة في الإله أتون[39] تحول الفن نحو الموضوعية، ومن أمثلتها نجد تمثال "أخناتون" وتمثال "نفرتيتي"، وبانتهاء حقبة "أخناتون" رجع الفن إلى تقاليده القديمة، غير أن النحت اضمحل في عهد الدولة الأخيرة، واقتصر على تماثيل صغيرة دقيقة الملامح شديدة الصقل[40].

تأثر فن النحت في بداية نشأته بفكرة المنفعة الدينية التي قصدها قدماء المصريين، وهي أن تكون تماثيلهم مأوى لروح الميت بعد وفاته مما جعل لتماثيلهم صفة خاصة؛ حيث لم يكن الغرض الذي يرمي إليه الفنان من إيجاد أكبر شبه ممكن بين الصورة المنحوتة والأصل البشري غرضاً فنياً، بل كان غرضاً دينياً استناداً إلى فكرة الحياة بعد الموت، فقد كان الشرط الأساسي لتحقيق خلود الروح في العالم الآخر أن تتعرف هذه الأخيرة على الجسد، وبالتالي ضماناً لراحة الميت الأبدية بمعية بعض التعاويذ السحرية التي تملئ جدران القبور والتوابيت[41].

والتزام الفنان بالتقاليد الدينية شكّل قيداً عليه ألزمه استخدام أسلوب محدد من ناحية الشكل؛ فقد كان الفنان المصري يرى أن الحقيقة هي جوهر فنه، وكان يحس أن هذه الخطوط التي يرسمها ليس حافزها الوحيد هو الإبداع الفني، وإنما حافزها الأكبر فكرة الخلود، وبالتالي كان الفنان المحكوم بهذه القواعد المقدسة "صانعاً" جعلته مجهول الشخصية، ولم يحاول أيٌّ من فناني مصر القديمة أن يُظهر أعماله الفنية باسمه[42]، كما حددت هذه التقاليد أوضاع ومواضع التماثيل، حيث أضفى عليها نوعاً من الجمود، وهو ما حاد بالفنان عن استخدام قواعد المنظور، فقد كان يحرص على أن

تبلغ تماثيل الأرباب غاية التأثير والترغيب، إذ كان عليه أن يصور الآلهة والملوك في تلك الهيئة الجليلة والمهيبة من أجل أن تسموا على البشر[43]، وعلى نفس السبيل حرص الفنان على نحت تماثيل الموتى على أتم الاستواء، كي يبرؤوا في أخراهم من أعراض الهم وعلامات الضعف والمرض والكبر التي شهدوها في دنياهم، كتجاهل شيخوخة صاحب التمثال وإظهاره فتياً، أو رجلاً وقوراً تظهر من ملامحه معالم النعمة والرغد والبشاشة تأكيداً لمبدأ احتفاظ المرء بشبابه المتجدد الدائم في الجنة بعد انتقاله إلى الدار الآخرة[44].

ومن مظاهر القداسة أيضاً التي أحاطت بنحت التماثيل أن احتوتها المعابد، وحفظتها في نواويس كانت تغلق أبوابها أغلب الليل والنهار ولا تفتح إلا بمقدار، وإذا فُتحت لا يقترب منها أو يرى تماثيلها غير القلة من الأطهار، كما تعمد الفنان أن يميز تماثيل الأرباب والفراعنة وأصحاب المقابر في أوضاع خاصة راع فيها أن يواجهها المشاهدون والمتعبدون من أمامها أكثر مما يرونها من جوانبها أو من خلفها[45]، وحرص على استقامة الهيئة ووحدة الاتجاه، فنحت جذوع تماثيلهم العليا منتصبة دائماً، حين الوقوف وحين الجلوس، ووجه أبصارها إلى الأمام في اتجاه مستقيم ونحت رؤوسها على استقامة كاملة لا تلتفت يميناً ولا يساراً، فبدت وكأنها تتطلع لأصحابها إلى المستقبل والخلود[46].

وقد اعتمد النحاتون في أغلب تماثيلهم على النقبة وحدها مع عري بقية الجسم، وذلك راجع فيما يحتمل لثلاث تأثيرات: التقاليد القديمة التي احترموها وعزّ عليهم أن يغيروها، وتأثير الاعتقاد بأنهم يمثلون بعض أصحاب التماثيل في حالات زهد يتجردون فيها من أغلب ملابسهم، ويواجهون فيها أربابهم سواء في ساحات المعابد، أو على أعتاب الآخرة وتأثير الاعتقاد بأنهم يمثلون بعضاً آخر من أصحاب التماثيل في محافل تقليدية سيعيدون فيها أجدادهم في عهودهم البعيدة[47].

كما يدخل في إطار النحت الموجه لخدمة الدين التماثيل الشافية أو التمائم، وهي عبارة عن تماثيل منحوتة بغرض جنائزي تحمل دلالات سحرية بإمكانها أن تبعد الخطر عن حاملها أو أن تشفيه إذا تعرض لأذى، ويظهر الأعداء الميتولوجيين في أشكال الحيوانات الخطرة التي يفترض أن تلحق الضرر بالإنسان مثل "أبوفيس" الذي اتخذ هيئة ثعبان[48]، ومن الطبيعي أن هذه التماثيل تكون أكثر فعالية إذا أدمجت بالشخص المعني، ولقد كانت الكتابات على التماثيل الشافية تعمل على الشفاء، ويستطيع تحقيق الرقية[49] باللمس، كذلك الأمر في تمثال رمسيس الذي نقش عليه رمز إله الشمس "خبري"، الذي يجعل من الملك شخصية مزدوجة إلهية ودنيوية، حيث يلاحظ أن شخصية الملك هي التي تخلق الفاعلية: فمن مجرد حروف مطلسمة ومبهمة تخلق قوة تفيض حيوية وإلهية، ويجب التنويه إلى أن التماثيل الشافية كانت تعرض في الأماكن العامة أو المقابر للحياة الأخرى مثل التماثيل الشافية التي وجدت في معابد الدلتا في أتريب وتل بسطة[50].

2.النحت البارز "النقش":

هو اصطلاح يطلق على أعمال النحت التي تبرز فيها الأشكال عن المسطحات الملساء أو المنحوتة، حيث يكون البعد المنحوت بها أقل من أي عمق آخر، وله بعدين (الطول والعرض) بقصد إنشاء موضوع يحمل دلالة فكرية[51]، وباللاتينية يعني (Relief)، وقد أُخذ هذا المصطلح من الإيطالية "ريليفيو" (Rilievo) أي "ريليفاريه" (Rilievare) بمعنى يرتفع[52]، ويتمتع هذا النوع من النحت بحرية لم يتمتع بها النحت المجسم تتركز في قدرة المثال على تشكيل العناصر منفصلة تماماً عن بعضها، ويقترب هذا الفن من التصوير الزيتي كونه يستخدم الظل والنور، كما لا يشترط سطحاً مستوياً أفقياً فأحياناً يكون السطح مقعراً أو محدباً وفقاً لشكل السطح الذي تنحت عليه[53].

وأقدم النقوش التي عُثِر عليها رؤوس الدبابيس الحجرية وألواح الأردواز التي يرجع عهدها إلى فجر التاريخ نفسه كان الغرض منها يكون دينياً فضلاً عن الزخرفي، ويبلغ عدد الرؤوس ثلاثة رؤوس: اثنان منها عليهما نقوش تمثل أهم احتفال وهو الـ"حب- سد"[54]، أما الثالث فيصور فرعون وهو يقطع السد في احتفال فيضان النيل، وكانت النقوش البارزة نادرة في الأسرة الأولى والثانية، بيد أنها تميزت في الأسرة الثالثة بدقة الصنع ونظارة الأسلوب مثل نقوش الغرف السفلية للهرم المدرج، وهي تعد من أبدع أمثلة الفن المصري في الدولة القديمة[55]، بالإضافة إلى صور المناظر المحفورة على جدران مقصورة الأمير "رع حوتب" والتي تمثل مناظر الحياة اليومية من صيد الطيور والسمك والحيوانات.

أخذ فن النقش بعد الأسرة السادسة يضمحل وينحط باستمرار حتى أواسط عصر الأسرة الحادية عشرة حيث بلغ أقصى درجات الانحطاط، غير أنه ابتداءً من النصف الثاني من هذه الأسرة ظهر طرازاً جديداً كان نواة لمدرسة فنية جديدة، التي أظهرت تكلفاً وتصنعاً غير طبيعيين يشوبهما في كثير من الأحيان شيء من الجفاف وعدم الانسجام، وقد استمر الفنانون يتكلفون في نقوشهم تكلفاً ظاهراً حتى آخر الأسرة الحادية عشرة، أما في الأسرة الثانية عشرة فنجد النقوش اكتسبت دقة ماثلت بها نقوش الدولة القديمة، وتعتبر نقوش عمود سنوسرت الأول المربع الذي عثر عليه بالكرنك مثالاً لأحسن ما صنع في الدولة الوسطى[56].

أما في عصر الدولة الحديثة فقد استعاد فن النقش مجده؛ حيث جاءت الأسرة الثامنة عشر بنهضة جديدة في الفن، غير أنها لم تصل إلى المستوى العالي الذي بلغته في العصور القديمة، وأوضح مثال لتأثر هذا الفن بالتقاليد الدينية تلك النقوش التي وجدت في معبد رمسيس الثالث بالكرنك اين يظهر وهو يقتل الاعداء بيده، بينما يقف الاله آمون امامه يسلمه سيف النصر دلالة على قداسة الانتصار الذي دعت إليه الآلهة[57]، بالإضافة إلى النقوش التي تعود إلى عهد الملكة حتشبسوت[58] في معبد الدير البحري، وأهم مواضيعها الدينية قصة ولادتها من الإله "أمون- رع".

ارتبط النحت البارز بمواضيع على علاقة بالمعتقدات الدينية؛ ففي أعماق المعابد والقبور نحتت موضوعات ذات البُنى الفكرية الدينية، ففي مثل هذه الأماكن المفعمة بالقدسية حفظت للإنسانية أشهر هذه المشاهد، والتي تتخلص بوقفات خاصة مشحونة بالروح الدينية للملوك الفراعنة إلى جوار

الآلهة التي سيحظون بالخلود في عالمها الأبدي، مثل مشاهد تقديم القرابين والشعائر والممارسات الدينية، وقد انتظمت مثل هذه الممارسات والفعاليات الطقسية تحت رعاية نظام من الكهنوت المتمرس[59]، وتُظهر أقدم النقوش الأثر الديني لهذا الفن مثل "صلاية مينا"؛ حيث مُثِل في الحقل الأول من الأعلى واحد من أهم الرموز الدينية الإلهة "حاتحور"[60] رمز الخصب والبقاء والتجدد، فبشكل متقابل يظهر زوج من رأس هذه الإله بينهما اسم الملك بالكتابة الهيروغليفية، ما أكسب المشهد طابعاً روحياً، وكذا احتل في المشهد العلوي شكلاً رمزياً آخراً للإله حورس[61] وكأن الآلهة باركت انتصار الملك على الأعداء[62].

وقد اقترن النحت البارز بالدين وما جاء فيه من تغيير على يد "أخناتون"، الذي رمز لقدرة الشمس التي تنشر أشعتها على هيئة أيد مبسوطة تهب الحياة وتخلق الوجود، ويظهر أثر هذا التجديد في التحول الذي مس بنائية الصور النحتية، فغدت إنسانية الطابع وبشرية النزعة، فالخوض في ملامح وتفاصيل الشكل المرئي لم يكن دقيقاً، بل نقل للوجود الإنساني بما يرضي حاجاته الروحية التعبيرية؛ حيث جاءت عبادة أتون لا تعني مجرد عبادة الشمس، بل عبادة خواصها التي تهب الحياة، فقد سعى أخناتون إلى أن يحل محل الحشد الضخم من الآلهة المصرية، إله فرد أحق غير مشخص بتمثال، وهو بمثابة علامة محسوسة لتجلي اللامرئي، وأصبح بذلك النحت البارز يختار موضوعات جديدة، ويبحث عن رموز شخصية ويحاول تصوير الحياة الروحية الفردية الباطنة[63] مثل مشاهد تعبد "أخناتون" وزوجته.

في الأخير يمكن القول أن فن النحت عند المصريين القدماء عرف مكانة مميزة بين الفنون التي مارسوها، حيث يعتبر من أرفع الفنون كونه يعمل على خلق صورة وكأنه فن خلق الحياة، والتماثيل ضرورية للدلالة على الآلهة والبشر على السواء مثل تماثيل الآلهة التي تجسدّت في اشكال حيوانية أو آدمية أو مزج بين الإثنين، وتماثيل الملوك الذي يحرص من خلالهم الفنان على تعرف الروح على جسد الملك الذي كانت تعيش فيه الحياة الأولى لتخلد معه في الحياة الثانية، دون ان ننسى التوابيت التي تزينت بنقوش تمثل تعاويذ ورقى لحفظ الميت، وبصفة عامة كل الأثاث الجنائزي الذي تزين بالنقوش الدينية، وذلك دليل على تأثر فن النحت بالدين فقد استقر نتيجة استقرار مذاهبه، كما أخذ من قداسة الهدف الذي وجدت من أجله وضعية خاصة للتماثيل التي تخدم بالدرجة الأولى أغراض الخلود والآخرة أكثر من العرض على الملأ والتقلد بأوضاع دنيوية مؤقتة عارضة، إذ جرت تقاليد فن النحت على ما جرت عليه تقاليد فن الرسم والتصوير سواء بسواء، فشاركتها دلالات الخلود وحب البساطة والوضوح كما شاركتها وسائل التنفيذ.

الهوامش:

)1–(Hérodote, **Histoire**, livre II, trad: E. Le Grand, Les Belles Lettres, Paris, 1936, 37.

(2)- شحادة الناطور وآخرون، **مدخل إلى تاريخ الحضارة**، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، (د.ت)، ص60، 61.

(3)- شويكار محمد سلامة، **دراسات في تاريخ الفن المصري القديم**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص13.

(4)- ر. أنجلباخ، **مدخل الى علم الاثار المصرية**، تر: احمد محمود موسى، المجلس الاعلى للآثار، القاهرة، 1988، ص174.

(5)- إميل يعقوب، **الموسوعة الثقافية العامة: الفنون**، دار الجيل، بيروت، 1999، ص8.

(6)- G. Maspero, **Art in Egypte**, The Publisher's Printers, Stuttgart, 1913, p74, 75.

(7)- نعمات أحمد فؤاد، **شخصية مصر**، عالم الكتب، القاهرة، 1968، ص41.

(8)- **تمثال أبو الهول:** سماه قدماء المصريين "حو" بمعنى الحامي أو "حوريم أخت" بمعنى حورس الأفق. أنظر: آنا رويز، **روح مصر القديمة**، تر: إكرام يوسف، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2005، ص245.

(9)- **رمسيس الثاني**: أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة، تولى الحكم بعد وفاة والده سيتي الأول، نقل العاصمة إلى بر رعمسسو أي دار رمسيس، حارب شعوب البحر، كان له الدور الكبير في معركة قادش ضد الحيثيين، بنى مقبرته في وادي الملوك. أنظر: سمير أديب، **موسوعة الحضارة المصرية القديمة**، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص ص454- 456.

(10)- محمود إبراهيم السعدني، **محاضرات في تاريخ الفن القديم**، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 2003، ص24.

(11)- عفيف بهنسي، **تاريخ الفن في العالم**، مديرية الكتب الجامعية، الشركة العربية، دمشق، 1966، ص38.

(12)- مرجريت مري، **مصرومجدها الغابر**، تر: كمال محرم، لجنة البيان العربي، 1957، ص319،318.

(13)- **المسلات**: جمع مسلة (Stèle) عبر عنها الفراعنة بكلمة "تيحن" أي الأصبع المضيء، وأطلق عليه مؤرخو الإغريق اسم "L'obélisque" أي الوتد أو الإبرة، وترجمه العرب لاسم المسلة، وصفها بليني بأنها "أشعة متحجرة للشمس" وهي =تمثل الرمز المقدس لإله الشمس، وهو القمة الهرمية فوق قاعدة كلما ارتفعت كلما اقترب الفرعون من إله الشمس رع، وبالتالي اكتساب صفة الشمس وهي التجدد والبعث. أنظر:

Pline l'Ancien, **Histoire Naturelles**, livre XXXV, trad: M. E. Littré, Firmin Didot Frères Fils et Cie Libraires, Paris, 1829- 1933, 14.

(14)- محمد أنور شكري، **العمارة المصرية في مصر القديمة**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1970، ص43.

(15)- **نفرتيتي**: ملكة فرعونية زوجة اخناتون، اشتهرت بجمالها وجاذبيتها، أنجبت في طيبة ثلاث بنات هن: "مريت آتون" و"مكت آتون"، و"عنخ-آس-أن-يا-آتون"، وعندما استقرت مع زوجها في تل العمارنة وأنجبت له "نفر نفرو آتون تاشري" و"نفر نفرو رع" و"ستب أن رع". أنظر: سمير أديب، المرجع السابق، ص ص819- 821.

(16)- محسن محمد عطية، **جذور الفن**، ط2، دار المعارف، مصر، 1997، ص80.

(17)- ثروت عكاشة، **الفن المصري**، ج1، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1991، ص318.

(18)- زهير صاحب، **الفنون الفرعونية**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2005، ص195.

(19)- أدولف إرمان وهرمان رائكة، **مصروالحياة المصرية في العصور القديمة**، تر: عبد المنعم ابو بكر ومحرم كمال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص478.

(20)- **سنوسرت الثالث**: ابن سنوسرت الثاني من ملوك الاسرة ال12، حكم مدة 35 سنة، استطاع خلال فترة حكمه ضم بلاد النوبة توفي بعد ان دشن هرمه في دهشور. أنظر: سمير أديب، المرجع السابق، ص525.

(21)- محسن محمد عطية، المرجع السابق، ص78.

(22)- **أخناتون**: هو أمنحوتب الرابع ابن امنحوتب الثالث، فرعون حكم في عصر الدولة الحديثة في طيبة وهو في سنة 16 سنة، زوجته الجميلة نفرتيتي، جاء بديانة جديدة وهي عبادة القوة الكامنة في قرص الشمس كان كل اهتمامه بالدعوة للاله الجديد، وقد قام بنقل العاصمة من طيبة إلى تل العمارنة، مات وهو في سن 32 سنة. أنظر: سمير اديب، المرجع السابق، ص ص194- 196.

(23)- صبحي الشاروني، **فن النحت في مصر القديمة وبلاد مابين النهرين**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1993، ص150.

(24)- عزت زكي حامد قادوس، **تاريخ عام الفنون**، مكتبة الحضري، الإسكندرية، 2001، ص24.

(25)- عفيف بهنسي، المرجع السابق، ص45.

(26)- أدولف إرمان وهرمان رائكة، المرجع السابق، ص475.

(27)- زهير صاحب، المرجع السابق، ص236.

(28)- صبحي الشاروني، **فن النحت في مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1993، ص128.

(29)- **مينا**: أول ملك لمصر، ومؤسس الأسرة الأولى بعد توحيده لمصر، أنشأ عاصمته عند ملتقى الدلتا بالصعيد أسماها "أنب-حج" أي القلعة البيضاء (منف)، ويعتقد البعض أنه الملك نعرمر الذي وجدت له بعض الآثار أهمها لوحته الشهيرة بالمتحف المصري، والتي سجل على وجهها انتصاره على الشمال وتوحيده لشطري الوادي تحت حكمه. أنظر: سمير أديب، المرجع السابق، ص808.

(30)- أدولف إرمان وهرمان رائكة، المرجع السابق، ص458، 459.

(31)- صبحي الشاروني، المرجع السابق، ص33.

(32)- زهير صاحب، المرجع السابق، ص102، 103.

(33)- **تحوت**: الإله القمر برأس القرد، وهو إله الكتابة والحكمة والأدب. أنظر: آنا رويز، المرجع السابق، ص139.

(34)- محسن محمد عطية، المرجع السابق، ص70.

(35)- نعمت إسماعيل علام، **فنون الشرق الأوسط والعالم القديم**، ط6، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ص85.

(36)- سمي هذا التمثال كذلك نظراً للشبه الكبير بينه وبين شيخ بلدة سقارة في الوقت الذي عثر عليه فيه، ويمثل نموذجا للواقعية والإحساس العميق بالرشاقة بما يحويه من ملامح الوجه التي تخفي وراءها شخصية قوية، وهو يمسك في يده عصاه رمزاً على سيطرته على عماله. أنظر: شكري الصادق، **مرشد الطالبين إلى تاريخ الفنون الجميلة عند قدماء المصريين**، مطبعة المعارف، مصر، 1909، ص194.

(37)- **سقارة**: هي مدينة صحراوية تقع على بعد 25كم جنوبي هضبة الجيزة، تنقسم إلى سقارة الشمالية وسقارة الجنوبية تواجه منف وتزخر بالآثار القديمة عثر فيها على مقابر ملوك الأسرات الأولى والثانية واهرامات الدولة القديمة. أنظر: سمير أديب، المرجع السابق، ص516.

(38)- محسن محمد عطية، المرجع السابق، 74.

(39)- **آتون**: قرص الشمس المرئي بدأت عبادته منذ الدولة الوسطى، و في عهد أخناتون (الدولة الحديثة) حل أتون محل الآلهة المصرية كلها وأصبح الإله الوحيد، تقع مركز عبادته في مدينة تل العمارنة. أنظر: آنا رويز، المرجع السابق، ص130.

(40)- عفيف بهنسي، المرجع السابق، ص63، 64.

(41)- توفيق حمد عبد الجواد، **العمارة والفنون في العصور الأولى**، ج1، ط2، (د.ن)، (د.م.ن)، 1970، ص96.

(42)- صبحي الشاروني، المرجع السابق، ص131.

(43)- محسن محمد عطية، المرجع السابق، ص45.

(44)- ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص317، 318.

(45)- سمير أديب، المرجع السابق، ص294.

(46)- محمد شفيق غربال وآخرون، **تاريخ الحضارة المصرية** العصر الفرعوني، مكتبة النهضة المصرية، مصر، (د.ت)، ص301.

(47)- سمير أديب، المرجع السابق، ص296.

(48)- إيفانج كوبنج، **السحر والسحرة عند الفراعنة**، تر: فاطمة عبد الله محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999، ص137.

(49)- مثل الرقية المترجمة من عصر الدولة الحديثة: «يا قلبي من أمي، يا قلبي من أمي أيا صدري من نمائي، يا صدري من نمائي، لا تقف ضدي شاهداً ولا تجابهني في مجمع المحاكمة ولا تمل عليّ على مشهد صاحب الميزان. أنك أنت كائي التي في جسدي وخنوم الذي ينعش أعضائي، انطلق إلى السعادة واستعد (؟) من أجلنا هناك، لا تجعل اسمي كريهاً من النبلاء الذين يجعلون الرجال أكواماً (؟)...لا تقل الكذب ضدي بين يدي الآلهة...». أنظر: ر. أنجلباخ، المرجع السابق، ص307.

(50)- إيفانج كوبنج، المرجع السابق، ص ص151- 153.

(51)- مري مرجريت، المرجع السابق، ص382.

(52)- نهى محمود نايل، **الدلالات الرمزية والقيم الفنية لتيجان الآلهة في النقوش المصرية القديمة**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلوان، 2003، ص46.

(53)- صبحي الشاروني، المرجع السابق، ص38.

(54)- **عيد الحب- سد**: هو من أقدم الأعياد في مصر القديمة اذ يرجع الاحتفال به إلى بداية التاريخ، يحتفل الفراعنة به بعد مرور ثلاثين سنة من اعتلاء الملك الحكم، ثم أصبح كل ثلاث سنوات، كان يقام في منف، ويسمى أيضا باليوبيل. أنظر: محمد عبد القادر محمد، **الديانة في مصر الفرعونية**، دار المعارف، مصر، 1984، ص82، 83.

(55)- مري مرجريت، المرجع السابق، ص382، 383.

(56)- كمال محرم، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998، ص149، 150.

(57)-كمال محرم، المرجع السابق، ص 160.

(58)-**حتشبسوت:** كانت زوجة تحوتمس الثاني الذي كان صغيراً عن تولي الحكم، حملت العديد من الألقاب فقد كانت ابنة ملك، وأخت ملك والزوجة الملكية والزوجة الإلهية لأمون، حيث استطاعت بقوة شخصيتها منذ البداية أن تتولى شؤون البلاد بأن حكمت مدة 20 سنة، كان أهم منشآتها المعمارية معبد الدير البحري. أنظر: سمير أديب، المرجع السابق، ص356، 357.

(59)- مري مرجريت، المرجع السابق، ص382، 383.

(60)- **حاتحور**: اسمها يعني (حوت، حور) أي مكان أو بيت حورس، حازت منذ عصر التأسيس وفي عصر الأسرات شهرة واسعة كإلهة للسماء، كما كانت تمثل الصورة الأنثوية لحورس، اعتقد المصريون أن موقعها كان في دندرة أين سميت بالإلهة العظيمة. أنظر: سمير أديب، المرجع السابق، ص354، 355.

(61)- **حورس**: إله السماء عند المصريين القدامى في هيئة صقر عيناه الشمس والقمر، ظهر بعد صراعه مع عمه ست كإله لمصر السفلى، وفي العصر المتأخر عرف إله لمصر كلها، كما كانت المراكز الشائعة لعبادته في ادفو-أين وقر الإله في صورة القرص المجنح- وكوم امبو كابن للإله رع. أنظر: مانفرد لوركر، **معجم المعبودات والرموز الدينية في مصر القديمة**، تر: صلاح الدين رمضان، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000، ص ص 119- 121.

(62)- نعيم فرح، **موجز تاريخ الشرق الأدنى**، دار الفكر، سوريا، (د.ت)، ص105.

(63)-نعيم فرح، المرجع السابق، ص294، 295.

سياسة الإمبراطور المغاربي سبتيميوس سفيروس

في قيادة الإمبراطورية الرومانية

أ.حمادوش بولخراص، جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص: هذه الدراسة تتمثل فيما أضحت عليه الإمبراطورية الرومانية بعد الاستيلاء على العرش من قبل قائد إفريقي المدعو سبتيميوس سيفروس، يعتبر عصره بداية تغيير في تاريخ الإمبراطورية، حيث اعتمد على أسلوب عسكري وبصيغة ديمقراطية في تسيير الإمبراطورية، لقد اعتبر بعض المؤرخين تولي الأجانب السلطة تجاوز خطير في تاريخ الإمبراطورية، كما اعتبروا سبتيميوس العنصر الرئيسي في اضمحلال الإمبراطورية الرومانية.

Summary

This study is what became the Roman Empire after the seizure of the throne by an African commander called Septemius Severus, His time is the beginning of a change in the history of the empire, Was based on a military style and a democratic formula in the administration of the empire, Some historians consider the seizure of power by outsiders as a dangerous transgression in the history of the empire, They also considered Septemius as the main element in the decadence of the Roman Empire.

شخصيته: لوكيوس سبتيميوس سيفيروس (Lucius SeptimiusSeverus) ولد سنة146م من أب يدعى جيتا(Géta) وأم فلافيا بيا(Fulvia Pia)[1]، يعتبر أول إمبراطور عسكري، ابن مدينة لبدة لبتيس مجنا (Leptus Magna)، يتكلم اللاتينية بنبرة هيلينية، تلقى تعليماً رومانياً وثقافة لاتينية، درس الفلسفة في أثينا والقانون في روما، تمرس في سلك الوظائف تحت رعاية ماركوس أوريليوس، زوجته الأولى مارسيا(Murcia)، تولى التربيونية ثم عين برايتوراً في إسبانيا وحاكماً على جنوب غالة وبانونيا، عضو في مجلس الشيوخ إلى جانب مركزه العسكري كقائد جيش إقليم جرمانيا[2].

كان طموحاً من ورائه زوجته الثانية يوليا دمنا (Julia Damna) السورية الأصل، التي كانت تنحدر من أسرة ثرية بحمص لها مركزكهنوتي كبير، أنجبت له ولدين هما باسيانوس (Lucius Publius Septimius Antoninus Bassianus) الملقب كاراكلا(Caracalla) وجيتا(Lucius Septimius Antoninus Geta)[3]، قلد ولديه بمرتبة قيصر مع الاسم المعظم انطونينوس، كما أبحر في نهر النيل جنوباً وأمر بترميم الثقوب الموجودة في تمثالي ممنون* اللذان كان يصدران صوتاً خاصة عند الفجر[4]، قسم ولاية مصر وسوريا إلى ولايتين كما فعل بولاية بريطانيا، زار آسيا وولاية الدانوب.

لقد اعترف حول امتلاك العرش قائلاً:"لقد كان هو كل شيء، ولكن ما من شيء كانت له قيمة تذكر"[5]، توفي في الحملة على بريطانيا بسبب المرض بمدينة يورك (Eburacum) يوم04 فبراير211 م، هذا ما جعل الجيش الروماني يتوقف عن توسعاته في اسكتلاندا وظل السور حداً فاصلاً بينها وبين أملاك الإمبراطورية الرومانية.

ظروف توليه حكم الإمبراطورية الرومانية:

أسفر التفكك المتزايد لمجتمع العبودية عن فوضى تدريجية في الجهاز الحكومي للإمبراطورية الرومانية، في نفس الوقت نمى الوضع العسكري وبشكل استثنائي، أعطيت القيادات للعسكريين الأمر الذي أثار سلسلة من الانقلابات والحروب، إن هذا العهد من الانقلابات فتحته القوات الإمبراطورية المنحلة، خاصة بعد اغتيال كمودوس انطونين (Commodus Antonin)، حيث تألق إلى الحكم إمبراطوران خلال ستة اشهر، بوبليوس هلفيوس بارتيناكس (Publius Helvius Pertinax) وماركوس ديديوس يوليانوس(MarcusDidiusIulianus)، هذا الأخير الذي وصل إلى الحكم بشراء ذمم الحرس البريتوري، عاش منغلقاً على نفسه داخل مقصورته، إثر هذه الأفعال مباشرة شرعت القوات المحتشدة في الأقاليم بتنصيب قادتها أباطرة.

ثارت القوات العسكرية في المشرق وفي سهول الدانوب وفي بريطانيا، رشحت قادتها طمعاً في مكافأة مجزية بعد الوصول إلى العرش، يبدو أن القادة كانوا يحلمون بالإنقلاب حتى قبل تعيين يوليانوس، هتفت قوات الشرق بقائدها جايوس بسكنيوس نيجر(GaiusPescenius Niger) والي سوريا، كما ردت قوات الدانوب بالمثل هاتفةً بقائدها وحاكم منطقتها بانونيا(Pannonia) إمبراطوراًالمدعو سبتيميوس سيفروس، وفي نفس الوقت نادت القوات المتاخمة في بريطانيا بقائدهاكلاوديوس البينوس(Claudius Albinus)[6]، لكن جيش الدانوب بقيادة سبتيميوس، دحر خصومه واستولى على عرش روما مؤسساً بذلك الأسرة التي حملت اسمه من(193م-235م)[7].

كان لضخامة الجيوش أثر في ترجيح كفة ميزان الصراع على العرش، نجد البينوس يقود ثلاث فرق، أما نيجر يقود تسعة فرق وسبتيميوس فكان يقود اثنى عشر فرقة، فضلاً عن تواجده بالقرب من إيطاليا، كان التأييد العام يميل نحو نيجر، خاصة من جانب مجلس الشيوخ والشعب الروماني، لكن سبتيميوس كان أسرع منه في التصرف، دخل روما من الشمال وأضاف اسمه مباشرة إلى الراحل برتيناكس ليلغي وجود يوليانوس القانوني من ناحية ومن ناحية أخرى لكي يظهر نفسه منتقماً لمصرع برتيناكس ووريثاً له كإمبراطور، حتى انه أعلن نفسه ابنا بالتبني لماركوس أوريليوس، أرغم مجلس الشيوخ على تأليه أخيه بالتبني كمودوس كما زعم، حتى أنه غيّر اسم ابنه باسيانوس الذي اشتهر فيما بعد بـ

كراكلا وسماه ماركوس أوريليوس أنطونينوس، وهذا لعدة أسباب ربما بدافع ربط أسرته بهذه الأسرة أو لهدف وراثة ضياع أنطونينوس التي ضمها، أو ربما لإعجابه به[8].

لما أحست قوات الحرس الإمبراطوري بنوايا سبتيميوس هجرت يوليانوس، هذا الأخير الذي أظهر عدائه لسبتيميوس قبل دخوله روما عندما أعلن بإسم مجلس الشيوخ أن سبتيميوس عدو الشعب الروماني[9]، على إثر هذا الوضع رضخ المجلس لسبتيميوس كما انعموا عليه بالألقاب التشريفية وأدانوا يوليانوس بحكم الإعدام[10].

كان على سبتيميوس التخلص من أعدائه ومنافسيه خاصة نيجر والي سوريا ومن أجل ذلك هادن البينوس قائد بريطانيا واستدعاه لتولى مهمة أخرى[11]، ثم استدعى سبتيميوس قواته إلى الخدمة لمحاربة نيجر الذي كان قد ضمن لنفسه مبايعة الولايات الشرقية، وكان نيجر يحظى بموقع استراتيجي هام لأنه يمكن أن يقطع القمح المصري عن روما فترضخ خوفاً من المجاعة، ولهذا السبب قام سبتيميوس ببعث فرق عسكرية الى افريقية لقطع الطريق على نيجر خوفاً من استيلائه على مصر وليبيا، كذلك بعث بفرق أخرى إلى بلاد اليونان وتراقيا[12]، تحرك نيجر واستولى على مدينة بيزنطة ليتحكم في مدخل البوسفور والدردنيل، وما أن وصل سبتيميوس حتى حاصر بيزنطة محرزاً عدة انتصارات جعلت من نيجر يتراجع ويحتمي بجبال طرسوس بسوريا سنة 194م، لاحقه سبتيميوس وهزمه في أيسوس في المكان الذي هُزم فيه ملك الفرس دارا (داريوس) من طرف الإسكندر الكبير، اتجه نيجر نحو الفرات محاولاً الهروب إلى مملكة البارثيين[13]، لكن جنود سبتيميوس لحقت به وقتلته[14].

انتقم سبتيميوس من المدن والقوات التي أيدت نيجر، مثل أنطاكيا(Antioche) التي أمدته بالمال والرجال، قام كذلك بإعدام رجال المجلس الذين حاربوا إلى جانب نيجر بصفة قادة وترابنة (Tribun)[15]، ثم قام بغزو منطقة شمال ما بين النهرين محاولاً محاربة البارثيين لولا استدعائه العاجل لمواجهة خطر الانقلاب الذي قام به البينوس سنة 195م، في هذه الأثناء استسلمت بيزنطة من جراء الحصار، هدمت أسوارها وقتل أعضاء حكومتها ونهبت أموالها.

جلس البينوس على عرش الإمبراطورية الرومانية بعد غياب سبتيميوس، ومما ساعده للخروج عن طاعة سبتيميوس هوالمجلس وزوجته خاصة، لقبوه بلقب أغسطس وقبل البينوس تحدي سبتيميوس، وقام بجمع قواته عند لوجدنوم(Lugdunum) ليون حالياً بفرنسا، قام سبتيميوس بتعيين ابنه كاراكلا قيصراً وولي عهده، ثم سار غرباً لملاقات خصمه البينوس.

في شهر فيفري سنة 197م، انتصرسبتيميوس على خصمه البينوس،كما قام بتأديب سكان مدينة ليون، حيث أطلق لجنوده العنان في القتل والنهب وإشعال النار في معظمها[16]، ومن هذا التاريخ آل

عرش الإمبراطورية إلى عائلة مغربية ليبية خلال الثلث الأول من القرن الثالث وهي عائلة سبتيميوس من لبدة التي استطاعت الاحتفاظ بالتاج من(197م-235م) وتحدث تغيرات جوهرية في تاريخ الإمبراطورية[17].

يمثل عهد سبتيميوس نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، لبلوغ السلطة كان عليه أن يتغلب على كل خصومه، وهكذا اضطربت أحوال الإمبراطورية واهتزت أركانها بنشوب حرب أهلية، مما أدى إلى اختلال الميزان الاقتصادي وخاصة بازدياد رقعة أراضيه التي استولى عليها نتيجة مصادرته لممتلكات خصومه،كمالا يمكن انكار صفاته التي تجلت في قيادته وبطشه ووحشيته اتجاه خصومه المتمثلين خاصة في طبقة النبلاء والمثقفين، الذين كانوا يمثلون حاشية الإمبراطور السابق، فقد استوجب عليه التغيير إذ لجأ إلى اختيار ولاته وحاميته من طبقة تختلف عن سالفتها في النشأة والنظرة إلى الحياة.

سياسته العسكرية:

استولى على العرش بقوة السلاح والجيش، الذي وهبه الحكم والسلطان مع إكراه مجلس الشيوخ على قبوله وإعطائه الصبغة الشرعية[18]، لقد أدرك الأهمية الحيوية التي ترتبط بتكوين جيش يدين له بالولاء حيث اعتمد عليه في فلسفة حكمه، إذ أن سكان المقاطعات وحدهم الذين كانوا يقبلون على الانخراط في الجيش بعد تنظيمه الجديد.

ولكي يُرضي المجلس ترك لهم الأمر ليحاكموا أعضائه الفاسدين إزاء ذلك أذعن المجلس لمطالبه، وألقى بقاتل كمودس الملقب ناركيس (Narcisse)إلى الأسود[19]، كما حاكم كل أتباع وأنصار جوليانوس وقتلة برتيناكس من قوات الحرس الإمبراطوري، واستبدلها بقوة جديدة من جيش الدانوب، وبذلك ضمن لنفسه تأييد حرس جديد انتقاهم بنفسه[20]، وأخيراً وجد سبتيميوس نفسه إمبراطوراً لا ينافسه أحد في الحكم، على إثر انقطاع العلاقة بينه وبين البينوس ونهاية نيجر، نشب الصراع بينه وبين المجلس باعتباره خرج على نظام التبني بعدما قام بإشراك ابنه كاراكلا معه في الحكم[21]، مما اوجب عليه اقتلاع جذور المتآمرين في روما، مستخدماً عنفاً لم يسبق له مثيل، في روما وحدها أعدم تسعة وعشرون عضواً من أعضاء المجلس بتهمة التآمر والخيانة العظمى[22]، ساد الرعب والخوف، وأذعن المجلس لكل مطالب الإمبراطور كما وافقوا على تعيين ابنه كاراكلا كخليفة منتظر(Imperator Designatus)، وهكذا أصبح الجيش لأول مرة ممثلاً لكل شعوب الإمبراطورية عن طريق فتح التطوع أمام الجميع.

في سنة 199م عندما زار مصر أمر بإدخال تعديلات إدارية، منها منح الإسكندرية مجلساً تشريعياً وكذلك باقي مدن مصر[23]، هذه الخطوة كان يقصد بها توحيد النظم في سائر أرجاء الإمبراطورية الرومانية، في هذه الأثناء استغل ملك البارثيين فولوجاكيس الرابع(Volojacis IV) الصراع القائم في روما مستولياً على أرمينيا وشمال بلاد مابين النهرين، وجد الإمبراطور سبتيميوس نفسه في قتال مفروض عليه

وحروب مستمرة منذ سنة 197م للميلاد، قاد الحملة بنفسه ضد الفرس في الشرق، وصل بجيشه شتاءاً (197م-198م) مما أجبر البارثيين على التراجع ورفع الحصار عن قلعة نيسبيس (Nisbis) الرومانية[24]، عندما هاجم سبتيميوس مملكة البارثيين انتهى بسقوط عاصمتهم (طيسفون) على شاطئ دجلة وإنشاء ولاية ما بين النهرين (Mesopotamia)[25]، من بعد هذه الهزيمة زالت مملكتهم وتوارت منذ تلك الفترة[26]، قضى الإمبراطور الفترة مابين سنة (199م-202م) في تجوال دائم، أخمد خلالها نيران التمرد بمقاطعات الشرق كما أجرى إصلاحات إدارية وعسكرية[27].

قضى سبتيميوس مدة عامين بإفريقية ووضع عدة استحكامات على الحدود، كما رفع عدة مدن إلى المساواة في الحقوق مع الرومان،ثم فصل إقليم نوميديا عن إفريقية، ومن الملاحظ أنه كان يتخذ طابع تفتيت الولايات الكبرى حتى يعطيه ذلك فرصة في السيطرة المطلقة وكذلك ليحول دون أحلام التمرد والانفصال الذي كان يراود بعض حكام الولايات، في سنة 208م زار بريطانيا ورد القوات الزاحفة إلى حدود اسكتلندا ثم جعل حائط هادريانوس الشهير حداً فاصلاً بين بريطانيا الرومانية والقبائل الشمالية، بعد هذا أنعم على ابنه جيتا بلقب أغسطس سنة 209م ورفعه من درجة قيصر.

لم يضمن الإمبراطور ولاء الجيش له برفع راتب الجندي فحسب بل سمح له بعقد قران روماني شرعي أثناء مدة خدمته، وبأن يعيش خارج الثكنات ومن ثم يصبح أبنائه مواطنين رومانيين يتمتعون بكافة حقوق المواطنة الرومانية،كما لا يلغي أن يتبع هؤلاء الأبناء حرفة آبائهم،كل هذا العمل من اجل صد الخطر الذي كان يداهم الإمبراطورية[28]، ضرب بيد لاترحم الأرستقراطية الرومانية التي وقفت إلى جانب خصومه، حيث أبيد عدد كبير من أسر الأعيان،كما مكنته المصادرات الوحشية من إشباع خلصائه، ضاعف راتب الجيش وصار من حق الجندي البسيط أن يدخل صف الضباط، كما سرح الفصائل الإمبراطورية المشكلة في إيطاليا، وألف حرساً جديداً اختاره من صفوة جنود الأقاليم، حتى أصبحت روما تغص بالعساكر، وجود أكثر من فرقة قرب روما يجعله يعتمد عليها في محاربة بعضهم البعض عند الضرورة، حشد الألبانيين ليقفوا بالمرصاد للحرس الإمبراطوري، وعساكر التموين في وجه الفرسان الممتازين، كل هذا كان تأهباً في حالة السعي لإسقاط الإمبراطور عن العرش[29]، كما أذن للقوات المعسكرة على الحدود بامتلاك الأراضي، ليعيش الجندي مع أسرته وفي موطنه، ولا يذهب إلى الثكنة إلا لأجل التدريب، كما شرع بوضع الجيش في خدمة سياسة خارجية حازمة[30].

تمكن سبتيميوس من السيطرة على الوضع في الإمبراطورية، وأعاد الأمن والطمأنينة للنفوس عندما دحض أعداء روما المتاخمين على الحدود، خاصة الكاليدونيين الذين اجتاحوا معظم الجزيرة البريطانية مما أضطر الإمبراطور إلى محاربتهم وقيادة الجيش بنفسه،كان إلى جانبه ولديه كاراكلا وجيتا سنة 208م، قام بإعادة بناء سور هادريان الذي حطموه[31]، أصلح سبتيميوس المجال العسكري فعدل

الجيش، وغيّر قياداته لضمان الولاء، قام بإسناد الوظائف الإدارية للجنود المخلصين له، فانفسح المجال أمام الضباط للوصول إلى أعلى المناصب في إدارة الإمبراطورية،كما اعترف بشرعية الزواج الذي يعقده الجنود مع نساء غريبات[32]، أثناء أداء تأديتهم الخدمة العسكرية والاعتراف بشرعية الأبناء الذين يولدون من هذا الزواج(Ex Castris)، بل وسمح للجنود المتزوجين بحق الإقامة مع عائلاتهم قرب المناطق التي تعسكر فيها القوات التابعين لها[33].

وبعد الاستقرار سارع بتوزيع المنح (Congiaria) على الجنود وعلى الشعب، وزاد رواتب الجند بمقدار الثلث تقريباً، يرى البعض أن هذه الامتيازات منحت إجبارياً لا اختياراً وتحت دافع الحاجة الى تأييد الجيش للحكم ولم يعد الإمبراطور قادراً على منح فرقة معينة امتيازاً خاصاً دون الأخرى كما كان يحدث سابقاً.

كانت وجهة نظر سبتيميوس عدم احتكار الحكم من طرف الرومان والإيطاليين والسماح لسكان المقاطعات بالتمتع بهذه الحقوق التي حرموا منها منذ أمد طويل، ولتحقيق ذلك اتبع طريقتين الأولى تقليل من امتيازات إيطاليا، ومعاملة الولايات الأخرى بدون تمييز لتصل في نفس الوضع التي كانت عليه إيطاليا، ظهرت سياسته الداخلية اهتماما لم يسبق له مثيل لمصالح الرعايا الذين يعيشون بعيداً في الأقاليم خاصة مشاكل الإدارة والحكم، ولم يكن له اتجاه قومي معين وهذا ما يلاحظ عند توزيع مهام الإدارة والعمل، خاصة لقدماء المحاربين وقام كذلك بإعفائهم من أداء الخدمات البلدية (Munera)[34]، رغم هذا أتهم بأنه لا يحمل شعوراً وطنياً للإمبراطورية بقدر ما يحمل لولايته الأصلية في إفريقية.

ومن التجديدات التي قام بها سبتيميوس تعيين قائدين لقوات الحرس الإمبراطوري بدلاً من قائد واحد، وصل لهذه النتيجة بعد تجربته مع قائد قواته البرايتوريةجايوس فلوفيوس بلاوتيانوس، الذي استغل زمالته للإمبراطور في تدعيم مركزه، حصل على مقعد في مجلس الشيوخ وتولى القنصلية ونظم زواج ابنته بلوتيلا من كاراكلا رغم معارضة الأم يوليا دمنا[35]، وفي عهد بلاوتيانوس ازدادت مسؤوليات قائد الحرس الإمبراطوري[36]، أصبح يشرف حتى على حصص القمح (Annona)، وينظر في القضايا المدنية الواقعة على مسافة 100 ميل من مركزالعاصمة ونزع هذا الحق من القضاة الذين اضحوا ينظرون في قضايا الأقاليم فقط،كما تولى الاستماع في قضايا الاستئناف والفصل فيها باسم الإمبراطور، أزعج تضخم مركز بلاوتيانوس كل من يوليا دومنا وابنها كاراكلا فدبرا له مؤامرة للقضاء عليه سنة 205 للميلاد، باتهامه بالخيانة العظمى ثم اغتياله فيما بعد، ومن هذه اللحظة تفادى الإمبراطور ماحدث بتعيين قائدين حتى يراقب كل منهما الآخر[37].

كان يسير مبدئياً على سياسة الحكام الذين سبقوه، فلم يكن هناك أي انقلاب ثوري في سياسته هذه، ولكن جعل قيادة الإمبراطورية تعتمد على اسلوب عسكري محض وبصيغة ديمقراطية، كانت هذه السياسة نتيجة لازمة لاغتصاب السلطة وإنشاء ملكية وراثية جديدة، حتى أنه رفع صورته وصورتي ابنيه على تيجان الكهنة (Flamines) في البلديات بدلاً من صور آلهة الكابتول[38].

سياسته الإقتصادية :

الجانب السلبي في سياسته يتسم بازدياد رقابة الدولة على الجمهور ومصالحه وذلك عن طريق أجهزة ذات طابع عسكري بحت، ومن العوامل التي ساعدت على ظهور شخصيته هو التدهور الاقتصادي المفاجئ في الإمبراطورية الرومانية، هذا ما دعاه في اتخاذ سلطات فوق القانون لمواجهة هذا الانهيار، وبالفعل نجح في تحسين الوضع قليلاً بزيادة الضرائب، لكن التدهور غطى على الإصلاح مما أضطر الإمبراطور إلى تخفيض قيمة العملة بالتقليل من وزن الفضة والذهب التي الحقت بالتجارة الداخلية الخراب، كما هدد مستأجرو الأراضي التابعة للإمبراطور بترك الأرض إذا ما استمر إجبارهم على القيام بالأعمال الإلزامية في المدن التي تقع حقولهم في زمامها مما يعطلهم عن فلاحة الأرض التي يدفعون عنها الضرائب والرسوم، حتى أن بعضهم هجر الأرض وانظم إلى العصابات في الجبال، وقد قام بعض الفلاحين برفع التماسات إلى سبتيميوس حول ظلم الأغنياء الذين اغتنموا غياب الفلاح في أداء الواجب نحو الإمبراطورية بالاستلاء على أراضيهم[39]، كما ورث خزانة فارغة بسبب نفقات الحرب قبل وبعد توليه الحكم، لكنه تغلب على العجز عن طريق مصادرة أملاك أعدائه، مما تطلب إنشاء خزينة خاصة (Ratio Privata)[40].

كان كذلك لسياسة سبتيميوس وجهاً آخر، قام بإطلاق الحرية لرجال الشرع والفقه، فظهر القانون في عهده متصف بالنبل والشمول والإنسانية وبرزت فكرة العدالة البشرية، فمن حق الجميع أن ينعموا بالمساواة، هذا مما أدى إلى ظهور تشريعات في عهده اتسمت بالعطف على ضعاف الناس من فقراء وفلاحين تحميهم من ظلم الطبقة الحاكمة وعسف الإدارة الإمبراطورية.

لقد ساس سبتيميوس الإمبراطورية على نحو حقق له التوازن في الولاء من طرف أهل المدن والأرياف على السواء، حيث أظهر تفهمه لسكان المدن وأغدق عليهم مثل ما هو الحال بالنسبة للريفيين، ونالت المدن التي وقفت إلى جانبه ضد خصومه حظاً كبيراً من العناية، مثل مدن إفريقية، سوريا والدانوب التي عمها الرخاء وساد فيها الازدهار وارتقى الكثير منها أعلى درجات السلم الإداري، وخصَها الإمبراطور بالهبات والمباني ذات المنفعة العامة والمنشآت التذكارية، خاصة في إفريقية، أقام بها الصروح والتماثيل وأقواس النصر تعبيراً عن تعلقه بها، وهناك مدن لاقت ضنك العيش وشدة في التسيير

ومضايقة من طرف الحكام، خاصة المدن التي اشتهرت بموقفها العدائي مثل بيزنطة، ليون وانطاكيا[41]، اعتمد سبتيميوس على خيرة الأعلام في التشريع والقانون الروماني كان أحدهما بابنينوس(Papininus)السوري الأصل،كما ضم إلى مجلسه الاستشاري اثنين آخرين من شيوخ الفقهاء القانونيين وهما باولوس والبيانوس(Ulpianus)سوري الأصل[42]،كان هؤلاء متشبعين بالثقافة الهيلينية الشرقية بالإضافة إلى تعليمهم الروماني، كما قام بصد الاستغلال السياسي الذي اتخذه الأغنياء (Humiliores) على حساب الفقراء (Honestiores)، قام كذلك بتعيين مدرسين لتعليم أهل القرى، وضع عدة لوائح إنسانية، منها تحريم الإجهاض وحماية حقوق الزوجات ورعاية الأسر الفقيرة، وفي عهده وزع الدواء مجاناً على المرضى بإشراف الطبيب جالينوس[43].

تدفق الجنود المسرحون(Reterani) على الوظائف في الولايات في فترة حكمه، وشغل الضباط الصغار الكثير من الوظائف التي كان يشغلها رجال طبقة الفرسان التي أحالها محل طبقة المجلس، منح عدة امتيازات للجمعيات والرابطات (الصناع والتجار) (Collegia) مقابل المساعدة في إطفاء الحرائق عند نشوبها بالمدن، أما أصحاب السفن فكانت لهم رعاية خاصة لأن سفنهم تقوم بخدمات هامة نظراً لجمعها ونقلها المؤن أثناء الحملات تم اعفائهم من أعباء البلديات، منح مستأجري الضيعات الإمبراطورية نفس الامتيازات باستثناء التكليف بأداء أعمال خيرية[44].

الجوانب السلبية والإيجابية لسياسته:

اعتبر بعض المؤرخين انعطاف خطير في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، منذ تولي العناصر الدخيلة القيادة والسلطة، لكن بالرغم من ذلك حاول التحلي بمزايا الأباطرة الأولين وهذا ما نلاحظه عندما غير اسم ولده باسيانوس الذي اشتهر باسم كاراكلا، حتى انه كان شديد الإعجاب بسلفه ماركوس أوريليوس،كانت عقليته مزيجاً من البيروقراطية والعسكرية وواقعية التفكير السياسي حسب مشاكل العصر وأخطاره[45].

الجوانب السلبية:

لقد أصاب الروح العسكرية في الصميم بسلوكه هذا الذي اتخذه سبيلاً مع جنوده للحفاظ على العرش وهذا ما يبدوا من خلال مقولته الشهيرة التي أوصى بها ولديه، وهو على فراش الموت حيث قال:"أوصيكما بالاتحاد وإجزال الغنى إلى الجنود وازدراء البقية" أو كما يقول آخرون"اجزل العطاء للجيش ولا تبالي بالآخرين"، لقد أثارت هذه المقولة حفيظة المؤرخين ومنهم من نفاها عنه، ولكنها تطابق سياسته العامة وتعبر بصدق عن المكانة المرموقة التي حظي بها الجيش لديه، تلك المكانة التي ضمنت لأسرته وراثة العرش من بعده[46].

قام بوضع أساس مقدس للأسرة الحاكمة، حيث أصبح الإمبراطور رسمياً يعرف باسم المولى (Dominus)، وروما مقر قصره تعرف بالمدينة المقدسة (Urbs Sacra)، غيَر الحكم من أساسه ليتخذ طابع الأوتوقراطية العسكرية أو الحكم العسكري الانفرادي والمطلق[47]. فرض لأول مرة على إيطاليا تواجد قوات الجيش على أراضيها بالقرب من روما مثلها مثل باقي المقاطعات الرومانية الأخرى.

اعتبر أن الجيش هو جوهر السلطة والحكم ومصدرها، حيث أعطى الجنود وضعاً مميزاً، ولهذا اتهمه المؤرخين بأول من زرع الديكتاتورية العسكرية، ومن المزايا التي تحصل عليها الجنود في عهده، زيادة كبيرة في الرواتب بلغت مقدار الثلث بحجة تعويضهم عن زيادة الأسعار التي ارتفعت في عهدكمودس.

لقد جمع بين يديه ثروة طائلة من العقار خاصة بعد إنشائه مصلحة خاصة التي عرفت باسم (Ratio Privata) والتي من خلالها امتلأت خزانة الإمبراطورية، سخي بهذا المال الذي جمعه من المصادرة والإتاوات في رشوة الجنود ورعاع الرومان لتنمية مصالحه وإرضاء مطامعه الشخصية [48].

نتج عن ذلك ظهور المساكن الحقيرة بجوار الثكنات العسكرية، تقيم فيها زوجات الجنود وأبنائهم، كما أتاح لهم العيش في شكل مجموعات بهدف إنماء عددهم، مما أدى إلى انهيار الروح العسكرية بصفة تدريجية، لدى الجندي الروماني[49].

مصادرة الأراضي عصفت بالحياة الاقتصادية، فرأس المال الخاص والابتكار الفردي استبعدا، وحل محله نظام إداري بيروقراطي جديد، كان رأس الفساد في الإمبراطورية هم العدد الغفير من عمال الإمبراطورية وأكثرهم الجند ومنهم عساكر التموين (Frumentarii) الذين يقومون بواجب الشرطة، وجنود الثكنات (Stationarii) والشرطة الحربية (Colletiones)، الذين كانوا يبتزون الناس، وخاصة في الحروب لم تراعى مصالح الشعب، نجد كذلك التجنيد الإجباري واغتصاب وسائل النقل وخدمة الجيوش القهرية من طرف الشعب (تموين، إيواء، جمع التبرعات...) هؤلاء الجنود الذين كانوا ينقضوا على القرى والمدن سلباً ونهباً، أدى ذلك كله ببعث التماسات إلى الإمبراطور من أجل انصافهم ولكن لم تؤخذ شكاويهم بعين الاعتبار من طرف الإمبراطور، على إثر هذا ظهر الساخطون على موظفي الحكومة ومن هنا ظهرت حالة الفرار من الحقول والانضمام إلى العصابات المسلحة، ولهذا لا يمكن القول أن عصر سبتيميوس كان عصر رخاء ورفاهية[50].

الجوانب الإيجابية: منح لبعض سكان الولايات الحق الإيطالي، هذا الحق يعطي نفس الامتيازات الاجتماعية والتشريعية للمواطنين خاصة بولاية إفريقية وصقلية.

الغى احتكار تجنيد القوات الإمبراطورية من بين الرومان والإيطاليين وفتح الباب لجنود المقاطعات الأخرى حتى يكسر سيطرة الرومان والإيطاليين على هذه القوات التي كثيراً ماكانت تصنع الأباطرة، حتى أنه حرم على الرومان الدخول في هذه القوات ولم يلغى هذا القانون إلاّ في بداية القرن الرابع للميلاد.

كسر احتكار الرومان لعضوية مجلس الشيوخ وفتحها أمام جميع سكان الإمبراطورية حتى أن الإيطاليين لم يعد يشغلون سوى ثلث المجلس.

لقد حطم الطبقة السياسية العازلة بين الرومان والمواطنين في الولايات الأخرى وهدم كل أعمال هادريانوس الذي حاول أن يجعل فاصلاً بين ولايات الغرب والشرق.

فتح الوظائف المدنية امام العسكريين وسهل لهم الترقيات ومنحهم الامتيازات بعد التسريح من الجيش،كما سمح لهم بفلاحة الأرض الواقعة حول المناطق التي كانوا يعسكرون فيها، وإنشاء القرى الدفاعية المسلحة خاصة على الحدود، وزاد من كفاءة الجنود القتالية بتشجيع التخصص في أنواع الأسلحة، ودفع الفرسان لتولي قيادة هذه التخصصات، وانتزع المراكز القيادية من المجلس نظراً لتدهورالروح العسكرية عند هذه طبقة، هذا يعتبر تحطيم للتقليد الطبقي الروماني الذي كان متبعاً بدقة منذ أيام اغسطس، كذلك أنشأ قوة عسكرية متحركة يقودها بنفسه، كما ازداد عدد الفرق في فترة حكمه من 30الى 33 فرقة عسكرية.

يلاحظ كذلك الهبوط المستمر في قيمة العملات الفضية منذ عهد الإمبراطور اوريليوس (161م-180م) الذي أنقص الدينار الى 75 في المائة من الوحدات الفضية، حتى بلغ مقدار النقص 50 بالمائة من قيمتها في فترة حكم سبتيميوس (193م-211م).

غفر معاصروا سبتيميوس له ضروب القسوة التي استهل بها عهده، حين نعموا بالسلم والمجد بعد ذلك ولكن الأعقاب الذين خبروا الأثار الفتاكة لمبادئه ولمن حذا حذوه، اعتبروه حقاً المنشئ أو المخطط الأساسي لاضمحلال الإمبراطورية الرومانية[51].

(1) Suétone, les Ecrivains de l'Histoire Auguste, Trad. M. Nisard, Paris, Garnier Frères Libraires, 1865, I, p. 387.

(2) Ibid, II, p. 388

(3) علي الناصري سيد احمد،تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري،القاهرة،دار النهضة العربية،ط.1991،2،ص. 314.

* بطل اسطوري اتيوبس (Aethiops) معناه بالإغريقية محترق الوجه ورد اسمه في حرب طروادة، كان ملكاً على اقليم اثيوبيا جنوب طيبة المصرية، ورد باسم ممنون امه ربة الفجر(Aurora)، لقي حتفه حيث كان الى جانب الأسيويين ضد الإغريق، البطالمة هم من اختلقوا اسطورة البكاء والنحيب للتمثالين وخاصة عند الفجر. انظر: علي الناصري سيد احمد ، المرجع السابق، ص. 37.

(4) ابو اليسر فرح، تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان، القاهرة، عين الدراسات، ط.1، 2002، ص. 191.

(5) جيبون ادوارد، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تر. محمد علي ابو درة واحمد نجيب هاشم، القاهرة،الألفللكتاب،1997،ط. 1،ص،127.

Dion Cassius, Histoire Romain, Trad. E. Gros, V. Boissée, T. 2, Paris, Librairie de Firmain Didot Frères, 1870,

(6)L.LXXIII, XIV.

(7) ف،دياكوف.س،كوفاليف، الحضارات القديمة،ج.1،تر. نسيم وكيم اليازجي. دمشق،منشورات دار علاء الدين،ط.1،ب.ت، ص.683.

Suétone, X.p. 392. (8)

Ibid, VI.p. 390. (9)

(10) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق، ص.310.

(11)Hérodien, HistoireRomain, Trad. LionHalévy, Paris, Librairie De Firmain Didot, 1860, L, II. XLVIII.

. (12)91Suétone, VIII, p. 3

Dion Cassius, L. LXXIV, VIII. (13)

Hérodien, L, III, XIV. (14)

. (15)92Suétone, XI, p. 3

(16) علي الناصري سيد احمد،المرجع السابق، ص، 312.

(17) شنيتي محمد البشير،التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب اثناء الاحتلال الروماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،1984، ص.16.

(18) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش،تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعيوالاقتصادي، ج.1، تر، زكي علي ومحمد سليم سالم،القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ب.ت، ص. 474.

. (19)93Suétone, XIV, p. 3

(20) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق، ص. 310.

(21) رستفتزفميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.475.

Dion Cassius, L, LXXV, VIII. (22)

Ibid,L, LXXV, XIII. (23)

Dion Cassius, L.LXXV, IX. (24)

Hérodien, L, III, XXVIII. (25)

(26) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق، ص. 323.
(27) الحويري محمود محمد، رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، القاهرة، دار المعارف،ط.1995،3،ص- ص.15-16.
(28) أ. ب، تشارلزورث،الإمبراطورية الرومانية،تر.رمزي عبده جرجس ومحمد صقر خفاجة، القاهرة، مكتبة الأسرة،2003، ص. 182.
(29) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.476.
(30) ف.دياكوف ، س.كوفاليف، المرجع السابق، ص. 686.
(31) شنيتي محمد البشير،المرجع السابق، ص.21.
(32) المرجعنفسه، ص.17.
(33) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.403.
(34) المرجع نفسه، ص.477.
(35) Hérodien, L, III, XXXIV.
(36) علي الناصري سيد احمد،المرجع السابق، ص.320.
(37) المرجع نفسه،ص.319.
(38) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص. 479.
(39) المرجع نفسه، ص.481.
(40) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق،ص.322.
(41) شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص. 18.
(42) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص. 405.
(43) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق،ص.320.
(44) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.484.
(45) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق،ص.315.
(46) شنيتي محمد البشير، السابق،ص.17.
(47) علي الناصري سيد احمد، المرجع السابق،ص.315.
(48) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص.488.
(49) شنيتي محمد البشير،المرجع السابق،ص- ص،16-17.
(50) رستفتزف ميكائيل إفانوفيتش، المرجع السابق، ص- ص، 489- 492.
(51) جيبون ادوارد، المرجع السابق،ص، 125.

وصف تلمسان في نظم الاغتراب
لابن خميس التلمساني
قـراءة تـوثيقيـة

د/بوخاري عمـر، جامعة ابن خلدون تيارت

Abstract : Not the purpose of this study is to talk about hair alienation and follow allen elements of he problem of his style image symbol and connotation no ris it an attempt to highlight the cryind over the ruins and home not bending for left wa home involuntarily butisan attempt to shed light on the nation and show it within the systems format highlighting the qualities collective maly meterial which is often escatteret of text venegar this kind of historical documents often wat clips of events hidden behint poet and fancies or gestures and rhea that vicious circles remained implicit historical periods within the formats the text .

ليس الغرض من هذه الدراسة هو الحديث عن شعر الاغتراب وتتبع عناصر النص المشكلة له من أسلوب، وصورة، ورمز ، ودلالة، ولا هي محاولة لإبراز البكاء على الأطلال والديار، ولا الحنين لمن غادروا أوطانهم مكرهين، بل هي محاولة لتجلية الوطن وإظهاره داخل نسق النظم، وإبراز صفاته الجمالية ومؤثراته المادية، التي هي غالباً أجزاء مبعثرة داخل النص، إن هذا النوع من الوثائق التاريخية، غالبا ما يكون مطعّماً بمقاطع من الأحداث مخبأة خلف هيامات الشاعر وخيالاته، أو إيماءات، بمقدورها أن تُجبر حلقات مفرغة ظلت مضمرة طوال حقب تاريخية داخل أنساق النص بسبب عزوف الباحثين عن مواجهة النص الشعري.

إن ما يهمنا في هذه الدراسة هو وصف الحاضرة الإسلامية تلمسان في نص الاغتراب، وما زاد عن الوصف الذي تفرضه أحيانا لوعة الاغتراب والحنين، فتلك قيمة أدبية مضافة للنص الشعري، وهي في آخر الأمر إسهامات يتفرد بها الأديب في تحليل نفسية الشاعر.

وابن خميس التلمساني واحد من هؤلاء الشعراء الذين تميزت قصائدهم الاغترابية بالصدق والواقعية، واحتوت في مضامينها، وصف الوطن تلمسان الذي يمثل مقدسا في ذاكرته ووجدانه يذكره كلما انتابته نوبة القريض، فيفضي بمفاجعة وشجونه، فتمده ذاكرته بوابل من الذكريات فينبري في وصف بلده الذي عايشه في طفولته وشبابه.

وقبل هذا وذلك فإن الباحث أو المؤرخ هو صانع فعاليات التاريخ بالاستناد إلى الوثيقة التاريخية، وبواسطتها تتم هندسة النص. وبها يعلو صرح البناء التاريخي ومهما كانت قوة الخيال سواء في وثيقة النص التاريخي أو الشعري فهي مقيدة بالشواهد الوثائقية[1].

من هو ابن خميس؟ ولد هذا الشاعر أبو عبد الله محمد بن خميس في حاضرة تلمسان حوالي منتصف القرن السابع وان جل من ترجم له لم يتعرضوا لنشأته أو مشيخته على وفرة عددهم، ومن هؤلاء الرحالة العبدري، ولسان الدين بن الخطيب، والأخوان ابنا خلدون عبد الرحمان ويحي، وأحمد المقري وابن مريم في البستان وغيرهم[2].

وفي ترجمة لابن الخطيب لسان الدين في عائد الصلة: "كان رحمه الله نسيج وحده، زهدا، وانقباضا وأدبا وهمة، حسن المشيبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التصنع، بعيدا عن الرياء...فحل الأوان في النظم المطول أقدر الناس على اجتلاب الغريب...كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيان ثم فر عنهم وقد أوجس منهم خيفة، لبعض ما يجري بأبواب الملوك"[3]وأثناء إقامته بمدينة فاس، اتهم بالمروق والزندقة وهذه التهمة رفع لواءها ابن هدية القريشي[4] الذي اتهمه بالتفلسف والحيد عن الشرع علما وعملا.

والفلسفة عند ابن هدية كفر صريح، وقد أدى ذلك إلى محاكمته بمدينة فاس فانبرى له بعض الأعلام من أعدائه من فقهاء المالكية كالشريف أبي البركات وحاولوا استدراجه إلى الكمين الذي نصب له، لتسجيله في دفتر الزنادقه والخارجين عن الملّة، من الذين أُهدرت دماؤهم.

فخرج ابن خميس من مدينة فاس متوجها إلى بلده تلمسان ومنها وجه رسالة بخط يده إلى مشرف المدينة تلمسان أبي الفضل محمد بن يحي بن عتيق الحيدري، وقد نشرها ابن الخطيب كاملة في كتابة لإحاطة في أخبار غرناطة، [5] وقد شرح ابن هدية القريشي هذه الرسالة تحت عنوان "العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس"

واستفتح أولها بقوله:

"عجبا لها أيذوق طعم وصالها من ليس يأمل أن يمر ببابها"

تعد مدينة تلمسان زهرة الحواضر الإسلامية، في العصر الوسيط وهي المدينة التي سحرت الألباب رواء، وأبرزت أولي النهى بجمالها، وتبارى في إنشادها القائلون والشعراء، وبلغت في الحسن والبهاء ما لم تنله حاضرة في الغرب الإسلامي.

ومما جاء في بغية الرواد في وصف تلمسان "...مدينة عريقة في التمدن لدنة الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت بسفح جبل...عروسا فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين، تطل منه على فحص أفيح معد للفلح، تشق ظهور الأسلحة عن مثل السنمة المهاري...بها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه، ونمقت غروسه...وتخف نجار بها الخمائل الألفاف والألواح الأشبة والحدائق الغلب بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من الفواكه والرمان والتين والزيتون، إلى المنتزهات الرائعة والملاعب الحالية والمعاهد الكريمة وتصب اليها من علٍ أنهار من ماء غير أسن تتجاذبه أيدي المذائب والأسراب المكفورة تلالها، ثم ترسله إلى المساجد والمدارس والسقيات وعليه الدور والحمامات"[6]

ولم يتجاوز في حنينه وصف بلاده، ووصف معاناته بسبب مفارقتها وراح ينسج القصيدة تلو الأخرى، ويستفتح مطالعها بوصف تلمسان.

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ

وداري بها الأولى التي حيل دونها مثار الأسى لو أمكن الحَنق اللّبخ[7]

وإن مما يمكن أن يسجله الباحث من قريض ابن خميس حول أوصاف حاضرة تلمسان، معاهدها العلمية التي كان يتردد عليها طلاب العلم، ويديرها الأساتيذ من العلماء والراحلون اليها.

معاهـــد أنس عطلت فكأنها ظواهر ألفاظ تعمدها النســخ

وهو لا يفتأ يذكر طلاب العلم ومظاهر السمت، والوقار، والانضباط في طلب العلم والترفع عن كل ما يشين أو يعيب.

وإخوان صدق من لداتي كأنهم جآذر رمل عـجاف ولا بزخ

وعاة لما يُلقى اليهم من الهدى وعن كل فاحشة ومنكرة صلخ

هم القوم كل القوم سيّان في العلا شبابهم الفُرعان والشيخة السُّلخُ

ثم يصف شاعرنا ابن خميس مظاهر الاجتهاد، والدأب على التسجيل والحرص على التعلم وما كان للطلبة من البلغة والحرص على التدوين والحفظ .

كأن لم يكن يوما لأقلامهم بها صرير ولم يسمــع لأكعبهم جبخُ

ولم يك في أرواحها من ثنائهم شميم ولا في القضيب من لينهم ملخُ

ثم يشير إلى المؤهلات العلمية والأخلاقية التي كان يتحلى بها العلماء وشيوخ المعاهد، وهي السجايا التي كانوا يحرصون على بثها في طلبة العلم والمدرسين.

يربوننا بالعلم والحلم والنهى فما خرجنا بزُّولا حدنا برخ

ثم يشير إلى ظاهرة الكدّ والجد والتباري نحو شأو المراتب، وأن لا مجال لمن تأخر به سعيه لنيل المراتب.

إذا ما فتى تصدى منهم لغاية تأخر من ينحو واقصر من ينخو

ثم يبدي ابن خميس مشاعر الحسرة على فوات تلك الأيام التي كانت عليها حاضرة تلمسان حيث كان يهفو إليها طلاب العلم والمشايخ الذين كانوا يلقوا بعصى الترحال في هذه المدينة الجميلة.

مضوا ومضى ذلك الزمان وانسه ومرّ الصبا والمال والأهل والبذخُ

ولم يكن في أرواحها من ثنائهم شميم ولا في القضب من لينهم ملخ[8]

ومن القراءة التاريخية في النص الشعري لإبن خميس، ما كانت تزخر به مدينة تلمسان من القداسة، حيث كان يرقد في ثراها جملة من الأولياء، ومنهم القطب الرباني سيدي أبي مدين شعيب، فتحولت قرية العباد المحاذية للمدينة إلى مزار ديني ومقصدا لطلاب العلم والعلماء .

على قرية العباد مني تحية كما فاح من مسك اللّطيمة فائح

وجاد ثرى تاج المعارف ديمة تغص بها تلك الرُبى والأباطح

إليك شعيب بن الحسين قلوبنا نوازع لكن الجسوم نوازحُ

سعيت فما قصرت عن نيل غاية فسعيك مشكور وتجرك رابح[9]

كان الشيخ ابو مدين شعيب قطبا ربانيا، طارت شهرته في العالم الإسلامي، ومما جاء في ترجمته عن كتاب "أنس الفقير وعزّ الحقير" لابن قنفد القسنطيني "الشيخ العارف المحقق الواحد القطب أبا مدين، نفع الله به، هو شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي الأصل من أحواز اشبيلية كان زاهدا في الدنيا عارفا بالله تعالى وخاض بحارا من الأحوال، ونال من المعارف الربانية الآمال. ومقامه الخاص به الذي لا يلحقه فيه أحد، التوكل على الله تعالى، وكان له بسط وقبض، فبسطته بالعالم وقبضته بالمراقبة"[10].

وما جاء به ابن خميس في تعظيم هذا الولي ليس بدعا حيث لا يخفى على أحد، أنّه قلما يذكر اسم حاضرة من حواضر المغرب الإسلامي الكبير من غير أن يشفع بذكر اسم صالح مدفونا فيها، ويعتبره ساكنة تلمسان سادناً لها، وآذناً يزورون قبره، ويقيمون حوله سنويا المواسم، ويتوسلون به عند حلول الكوارث والأزمات[11]. ولم تكن الوثيقة الشعرية التي احتوت هذا الولي الصالح. وقفاً على ابن خميس بل هناك العديد من الشعراء المعاصرين له من الذين احتوت قصائدهم على مآثر تلمسان، ووصفوا معالمها التاريخية، ومن ثم أصبحت هذه القصائد نصوصا تاريخية، تتجلى فيها الصفات والمعالم وطرق العيش، والعلاقات الانسانية في الحاضرة، ولذا فهي تعد وثيقة وأصل تاريخ لا يمكن الاستغناء عنه في الكتابة التاريخية ومن هذه النصوص التي أبرزت مكانة شخصية أبي مدين شعيب الاشبيلي البجائي التلمساني قصيدة الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري الأندلسي[12]

واغدُ إلى العبّاد منها غدوة تصبح هموم النفس عنك بمعزلِ

وضريح تاج العارفين شعيبها زره هناك فحبذا ذلك الــولي

فمزاره للدين والدنيا معــا تمحى ذنوبك أو كروبك تنجلى

ومما قاله الشيخ الطبيب أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي أحد أطباء الحضرة العلمية.

وعبادها ما القلب ناس ذمامه ... به روضة للخير قد جعلت حلا

به شيخنا المذكور في الأرض ذكره ... أبو مدين أهلا به دائمــا أهلا

لها بهجة تزري على كل بلدة ... بتاج عليها كالعـــروس إذا تجلى

ويضيف ابن خميس إلى المكان الديني التاريخي مكانا تاريخيا ضاربا في القدم مما يعني أن مدينة تلمسان من الحواضر القديمة التي شيدت عليها حضارات ولا زالت أثرها بادية للعيان، ومنها ساقية الرومي الأثرية التي كان يقصدها الناس لرواء والتنزه ومنهم ابن خميس القائل.

كتمت هواها ثم برح بي الأسى ... وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح

لساقية الرومي عنــدي مزية ... وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح .

فكم لي عليها من غدو وروحة ... تساعــدني فيها المنى والمنائح

فطرف على تلك البساتين سارح ... وطرف إلى تلك الميادين جامح[13]

مما يعني أن هذا الغدير الروماني كان محاطا بالبساتين الغناء، التي كان يقصدها الناس للاستجمام والراحة ومنهم الشاعر ابن خميس الذي كان يتردد على المكان، ويطلق العنان لطرفه على هذه البساتين الممتدة، ومصغيا لجريان الماء ذاهب السمع والبصر.

ومن الأماكن السياحية التي عرفت بها حاضرة تلمسان، شلال الوريط، الذي ما إن ذكرت المدينة إلاّ ذكر معها، وهي المعلمة التي ظلت عالقة في ذهن شاعرنا ابن خميس.

نسيت وما أنسى الوريط ووقفة ... أنافح فيها روضه وأفاوح

مطلا على ذاك الغديروقد بدت ... لإنسان عيني من صفاه صفائح

أماؤك أم دمعي عشية صدقت ... علية فينا ما يقول المكاشح

لئن كنت ملآنا بدمعي طافحا ... فإني سكران بحبك طافح

إن قراءتنا الوثائقية للنص الشعري، تجعلنا نستنتج الكثير من الحقائق والمعاني المختبئة داخله، فالمكان السياحي الوريط الواقع شرق المدينة فضلا عن كونه مكانا طبيعيا يمدّ الجهات الواقعة جنوب المدينة بمياه السقي لتلك البساتين المترامية، فإنه كان مكانا للتسلية والتخلص من متاعب الحياة. مثلما كان يعانيه الشاعر بن خميس من عطرته والمتربصين والمكاشحين له.

تعددت قصائد ابن خميس حول تلمسان، حتى لا تكاد قصيدة تخلوا من ذكر محاسن تلمسان، ممزوجة بالشوق والحنين، والترجي بالعودة إليها ولم تغنه عنها، محاسن وبهاء حاضرة غرناطة التي كانت هي الأخرى تعج بالصلحاء وطلبة العلم والعلماء، مما يدل على مكانة حاضرة تلمسان ومضاهاتها للحواضر والمدن الاسلامية.

ومما يمكن أن يضاف إلى النص التاريخي، من الشاهدة الشعرية هي أن حاضرة تلمسان تعرضت إلى محنة الحصار التي قاربت عقدا من الزمن وهي حادثة تاريخية أسالت أقلام المؤرخين والرحالة، وسجلوا ما كان يجري على أيدي المرينيين، وما شيدوه بجوارها من قصور ومبادي وأسواق فلا يفتأ ابن خميس يصور هذا المشهد والألم يعصره.

لعشرة أعوام عليها تجرمت إذا ما مضى قيظ بها جاء اهراء

يطنّب فيها عائثون وخرب ويرحل عنها قاطنون وأحياء

كأن رماح الناهبين لملكها قداح وأموال المنازل أبداء

ومما يمكن أيضا أن يستقى من الوثيقة الشعرية، أن حاضرة تلمسان تعرضت إلى حرب ضروس أتت فيها على مباهجها وجمالها، وتحولت أرجاؤها إلى أماكن للنهب والسلب، دون أن تجد الحاضرة من يخلصها من مخالب أمرائها.

فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى ... ترى هل لعمر الأنس بعدك إنساء

وهل للظى الحرب التي فيك تلتظي ... إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء

وهل لي زمان أرتجي فيه عودة ... إليك ووجه البشر أزهر وضاء[14]

لقد عاشت حاضرة تلمسان ظروفا مأساوية عصيبة، ونزلت بها محن أذهبت بهاءها وجمالها وعزلتها عن سائر المدن والحواضر، التي كانت تدر سيلا بشرياً وماديا نحوها وتعرض أهلها إلى محن قاسية، طيلة هذا العقد من الحصار، ولعل العديد من المؤرخين قد تعرضوا إلى هذه الأحداث في إطار الكتابة التاريخية في سياقها الشمولي واغفلوا بعض التفاصيل الهامة في هذا السياق، فلذلك على الباحث ألالّ يغفل على هذا الشتات من الأحداث في النصوص الشعرية التي غالبا ما تحتوي على حقائق ومستندات هامة تكمل بها الصورة والبناء التاريخي الذي قد يقدم صورة ناصعة لهذه الحقبة الحرجة من تاريخ المغرب الأوسط.

إن الوثيقة الشعرية لشعراء تلمسان ومنهم ابن خميس، تعد مرتكزا حقيقيا لمن يروم البحث والتقصي لأحداث حاضرة تلمسان إذ لا تزال بعض الثغرات والفجوات في حاجة إلى ترميم، والى مساءلة تاريخية لجميع أنواع الآثار التي بقيت من هذه الحاضرة.

ان العناية بتوثيق النص الشعري كشاهدة داعمة في البناء والصناعة التاريخية، قدم الكثير من الأقاليد لحلاقات ظلّت مبهمة لحقب زمنية طويلة، أو ربما تكون رُممت بافتراضات وتأويلات بعيدة عن النسج الحقيقي للواقعة التاريخية، هذا فضلاً احتواء النص الشعري وخصوصاً في الفترة الوسيطية على البناء الكامل للواقعة التاريخية من الابتداء الى الاكتمال الى الاختتام .

الهوامش:

1- عبد الرحيم الحسناوي، النص التاريخي، إفريقيا الشرق، 2011، ص 57

2- المهدي البوعبدلي، أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، مجلة الأصالة، عدد 26-1975، ص 128

3- لسان الدين الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424-2003، ص 377

4- ابن هدية القريشي: هو أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القريشي، من أئمة التلمسان والأدب دو بصر الوثائق له تواليف جمة في فنون شتى، وفي المقربة العليا كان أصيل الرأي مصيب العقل مذكر لسلطانه بالخبر عينا عيله كاتب بليغا ينشئ الرسائل المطولة في المعاني الشاردة، ذا خط وافر في علم العربية واللغة والتاريخ، النباهي لما لقي تاريخ قضاة قرطبة أو كتاب المرقبة العليا فمن يستخف القضاء والفتياء تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية بيروت 2006 -1426 ص 146، ابن خلدون يحي بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد المواد تحقيق عبد الحميد حاجيات المكتبية الوطنية 1400-1980، ج1، ص 116

5- لسان الدين يحي الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص 401-42

6- ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ص 86

7- المقري التلمساني، نفح الطيب في غضن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، ج5، ص372.

8- المقري، المصدر السابق، ج5، ص 370

9- ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ص 87

10 - ابن قنفد القسنيطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ص11.

11 - عبد القادر الخلادي، أبو مدين الغوث رفيق تلمسان، 520- 594- 1126/ 1197، مجلة الأصالة، ص284.

12 - محمد بن يوسف القبسي التلمساني، عرف بالثغري لم يعرف عن منقبه وولادته ومماته إلا ما ذكره المازوني في نوازله بالشيخ الفقيه الإمام العالم العلامة الأديب الأريب الكاتب أبو عبد الله أخذ عن الإمام الشريف التلمساني وغيره، ابن مريم الميليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، 2014، ص 311- 392.

13 - ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ص87.

14 - المقري التلمساني: المصدر السابق، ص 377.

الكتابة التاريخية في مصر خلال عصر المماليك ق (7-8هـ/13-14م)

د/ قدور وهراني، جامعة تلمسان

ملخص:

عرفت الكتابة التاريخية في عصر المماليك بمصر خلال القرنين (7-8هـ/13-14م) تطورا كبيرا فظهر مؤرخون كبار، وتنوعت صنوف الكتابات واختلفت أغراضها ومواضيعها، فكانت مادتها جديرة بالدراسة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: المماليك -الكتابة التاريخية -المنهج - المؤلفات - علم التاريخ .

Historical Writing in Egypt during the Mamluk Period (13th -14th centuries A.D., seventh to eighth centuries A.H.)

Historical writing in Egypt during the Mamluk period (7th-8th/13th-14th centuries) witnessed great development. Several major historians appeared, the genres of historical writing were diversified, and different subjects and aims of historical writing developed. This material is worthy of analysis and study.

Key Words: Mamluks, Historical Writing, Method, Works, Historiography

عرفت مصر منذ المراحل الأولى للوجود الإسلامي على أرضها اهتماما خاصا بالكتابة التاريخية، فقد كانت سير الفتوحات الاسلامية على مدى أكثر من قرن قائمة على الرواية الشفهية، ولم تظهر الرواية المكتوبة قبل أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة، وأخذت روايات التاريخ منذ ذلك الحين تنمو وتزدهر، مع ظهور نخبة من المؤرخين[1].

فقد عرف في هذه الفترة عبيد الله بن أبي جعفر (ت: 128هـ/742م)، والليث بن سعد[2] (ت:175هـ/789م)، ويوحنا النقيوس القبطي (ق2هـ/ 7م)، وظهرت في نهاية هذه المرحلة تآليف ومدونات في أخبار الفتح الإسلامي لمصر، وكان ذلك على يدي أبي قبيل بن هانئ المعارفي (ت:199هـ/813م) الذي يُعَدُّ من أقدم الرواة في مصر. كما يجد الإشارة ليزيد بن حبيب (ت:132هـ/746م) الذي كان مصدرا مهما للكثير من الروايات التي نقلت عن الفتح الاسلامي لمصر، نذكر منهم ابن عبد الحكم (ت: 257هـ/ 872م) والكندي (ت: 256هـ/873م)[3].

مهَّد هؤلاء المؤرخون لظهور مدرسة المصرية للتأليف التاريخي وقد كان غالبية مواضيعها في هذه الفترة تتحدث عن أحداث ما قبل الاسلام وتاريخ السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين، وبعض الملاحم والفتن والتنبؤات، وأحداث فتح مصر وأخبارها بعد الفتح، وبعض الروايات عن الخطط وتاريخ القضاة والتنظيمات المالية والإدارية في مصر، وشيء من فتوح إفريقية[4]، ويمكن أن نميز في هذه الفترة بين تيارين مختلفين في الرواية التاريخية[5]:

- تيار الخبر الإسلامي الذي، وهو ما يمكن أن نسميه مدرسة الفسطاط وكانت مادته الأساسية مستمدة من فتوح مصر والمغرب يمازجها الكثير من تاريخ القديم الاسطوري.

- تيار القصص الذي يعتمد على الخرافة والاساطير والملاحم، وقد عرف أصحابه بالقصاص.

وقد كان علم التاريخ في هذه الفترة على صلة واسعة بالعلوم الأخرى كالفقه والحديث على وجه الخصوص، وقد تبلورت ثقافة ثقافة المؤرخين في تطبيقهم لمنهج الإسناد المستعمل في عادة في علم الحديث[6].

ونأتي بعد ذلك إلى القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حيث نلاحظ أن مؤرخي هذا القرن كانت لهم مصنفات في التاريخ أكثر من مؤرخي القرنين السابقين، ومما يميز هذه الفترة هو طغيان التأريخ المحلي المصري على مؤلفات هذه الفترة أمام تراجع الاهتمام بكتابة تاريخ صدر الإسلام، وقد برز في هذه الفترة عميد المؤرخين "أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي[7] (ت: 257هـ/ 872م)، وهو واضع الحجر الأول في تاريخ مصر الإسلامية، لقد وضع ابن عبد الحكم اللبنة الأولى من المدرسة التاريخية المصرية، فلم يكن التاريخ المصري يتعدى شكل الرواية الشفهية، يتوارثها جيل بعد جيل، وكانت الرواية لاتزال حية في صدور الرواه والمحدثين، فكان تدوينها يومئذ أقرب للتحقيق والضبط[8]، وقد استفاد من مؤلفاته الكندي ثم تداولها المصريون تباعا بالنقل، منذ ابن زولاق (ت:387هـ/997م) والمسبحي (ت: 420هـ/1030م)، على ابن وصيف شاه (عاش في القرن7هـ/13م)، وابن دقماق (ت:809هـ/1407م)، والمقريزي (:843هـ/ 1441م)، وابن حجر (:952هـ /1550م) وابن تغري بردي (:874هـ/ 1470م) والسخاوي (:902هـ/1499م) ، والسيوطي(:911هـ/1505م)[9].

ويمكن القول أن مدرسة التاريخ الإسلامي بمصر، قد استكملت أسباب نشأتها ومراحلها التأسيسية بظهور هذا المؤرخ الكبير، وذلك لأن المؤرخين الذين سبقوه تركوا مادة هائلة ولكن كان ينقصها الترتيب والتنسيق، قبل أن تستكمل هذه المدرسة شخصيتها وسماتها على يده[10].

لقد تطورت الكتابة التاريخية في ذلك الوقت تطورا هاما، وقد كان هذا التطور جزءاً من التطور الثقافي العام الذي عرفه المجتمع الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى، وقد كان هذا التطور تطورا إسلاميا خالصاً، بحيث لم يتأثر بمؤثرات ثقافية أجنبية[11].

وبقي الإهتمام بالتاريخ الإقليمي حاضراً، وتفسير ذلك هو الاستقلال السياسي اذي تمتعت به مصر في تلك الفترة، منذ اواسط القرن الثالث.[12]

وقد كان لسهولة التنقل بين أنحاء الدولة الإسلامية، حملت كثيراً من طلاب العلم والمؤرخين خاصة، على الرحلة في طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ زيادة على رغبتهم في رؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها. فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشاهدة والمشافهة[13].

ويمكن القول أن القرن الثالث الهجري يعد مرحلة انتقال بين ما كان في القرنين الأول والثاني الهجريين، وبين ما ظهر من علوم وفنون في القرون التالية[14].

وبما أن الظروف التاريخية هي انعكاس للأجواء السياسية فإن الاضطرابات السياسية التي عرفتها مصر وتحول السلطة، وتغلب بنو إخشيد بعد ذهاب الدولة الطولونية، ثم انتقال الدولة الفاطمية إليها من المغرب، كانت لها تأثير واضح على حركة الكتابة التاريخية وتوجهات المؤرخين.

لقد كانت هذه الفترة موضوع اهتمام جماعة من أعلام المؤرخين والرواة الذين شهدوه، أو عاشوا قريبا منه، وانتهت إليها بعض آثارهم[15]. وكان في طليعة هؤلاء "محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي"[16] (ت: 350هـ/960م)، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "الولاة والقضاة"، ويشتمل كتابه على تاريخ الولاة والقضاة الذين تولوا حكم مصر منذ الفتح حتى زمن المؤلف، ومن كبار مؤرخي المرحلة "أبو محمد بن حسين بن حسن بن زولاق الليثي المصري[17] (ت 387هـ-997م) الذي كتب ذيلا لكتاب قضاة مصر للكندي[18].

كذلك شهدت المدرسة المصرية في كتابة التاريخ خلال القرن الرابع الهجري، تطورا هاما في الكتابة التاريخية، إذ بدأ المنهج التاريخي يأخذ شكلا واضحا تحددت فيه معالمه الأساسية، حيث انتشر التدوين بصفة عامة، وتحرر المؤرخون فبعد أن كان مجرد ناقل للرواية التاريخية ولعب دور الإخباري الذي ينقل المعلومة التاريخية مع ذكر سلسلة الرواة الذين نقلوا هذا الخبر، فأصبح البحث عن ذات الخبر دون التقيُّدٍ بسلسلة الرواة الذين طالت بفعل مرور الزمن، وتمحيص الخبر والتأكد من صحته من خلال المعلومة التي يحملها، وهكذا تحولت المدرسة المصرية إلى محاولة استيعاب الحدث التاريخي، وكان الأمير عز الدين المسبحي في مقدمة أساتذة هذه المدرسة التاريخية الجديدة[19].

واتضح هذا الأسلوب في الأعمال الكثيرة التي عكف القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي[20] (ت: 454هـ-1064هـ) على إنجازها والتي رغم أنها لم تصلنا جميعها ولم نقف على معظمها إلا من خلال أعمال المؤرخين المصريين، الذين ظهروا بعد عصر القضاعي، ويبدو واضحا تزايد عدد المؤرخين في القرن الرابع الهجري، لأن المؤرخين يعتبرون هذه القرن هو قرن الجغرافيا العربية أيضا بالإضافة إلى التاريخ، وقد اعتبر ذلك جزء من النشاط الذي عرفته جميع نواحي الحياة بما في ذلك مختلف فروع المعارف[21].

أما إذا جئنا للقرنين الخامس والسادس الهجريين، فنجد أنه قد حدث للتاريخ نوع من اليقظة حيث عاد المؤرخون يزاحم بعضهم بعضاً، وكان السبب في ذلك هو تلك الأوضاع السياسية والحضارية التي حدثت للشرق الاسلامي، من التحدي الفرنجي الصليبي من ناحية، ثم هجوم المغول من ناحية أخرى، وظهور دول إسلامية تواجه هذا الخطر، وتتصدى له، وكان هذا السبب في ظهور مؤرخين كبار في في مطلع هذه الفترة[22].

نظرا للتطور العمراني الذي عرفته مصر منذ بناء الفسطاط ثم بناء العسكر إلى جانبها ثم بناء القطائع الطولونية ثم القاهرة المعزية وما تقلب عليها من عمران وخراب، قد جعل الاهتمام بخطط مصر ودروبها وأحيائها، ورغم أن المقريزي كان قد بلغ القمة في كتاباته في هذا المجال إلا أنه يمكن الحديث عن كتابات سابقة في هذا المجال قم بها الكندي والقضاعي، وشرف الدين أبي علي محمد بن اسد الجواني.[23]

ولا شك أن من الأوضاع، الحضارية التي ساعدت على العودة إلى الاهتمام بالتاريخ واليقظة الثقافية والعلمية، تلك المدارس التي أنشأها السلاجقة في المشرق لتكون عاملا من عوامل الحفاظ على المذهب الشافعي وتراث أهل السنة والجماعة[24].

أما في القرن السابع الهجري فتمثلت المهمة الكبرى للمؤرخين هو الدفاع الذاتي ضد التحدي الصليبي وتذكير المسلمين بماضيهم العظيم. فظهرت في المشرق على مدى نصف قرن سبع تواريخ عالمية، كتبها مؤرخون كبار منهم: ابن الأثير (ت: 630هـ/1233م)، وسبط بن الجوزي[25] (ت:653هـ/1256م)، وابن نظيف، وابن أبي الدم (ت: 583هـ/ 1186م)، وياقوت الحموي (ت:622هـ/1225م)، والقفطي (ت: 646هـ/1248م)، وابن أبي أصيبعة[26] (ت: 686هـ/1288م)[27].

وكان المؤرخون المصريون في العصرين الأيوبي والمملوكي، يختلفون في نزعاتهم ومذاهبهم، ولقد رتبهم الباحثون طبقات خمس[28]:

- طبقة لكتابة السير الخاصة.
- طبقة التراجم العامة.
- طبقة لتواريخ المدن والبلدان.
- طبقة التاريخ العام.

وقد ظهر في مصر خلال تلك الفترة كل من "ابن العميد" و"ابن ميسر" حيث تكونا في ظل خلافة بغداد وسلطنة الأيوبيين ثم قضيا السنوات العشرين الاخيرة من عُمريها، في ظل المماليك فمثلا جسور الاستمرار في الفكر التاريخي ما بين عصر سياسي وعصر آخر، شكلا من أشكال التأكيد على وحدة ذلك الفكر في منهجه ومساره[29].

ولم تكن القاهرة مركز المؤرخين المصريين بل مثلت الإسكندرية أيضا قطبا مهما في كتابة التاريخ خاصة تاريخ المدن ومن بين المصنفات التي كتبت في هذه الفترة كتاب بعنوان "رسالة في فضائل الإسكندرية" لمؤلف مجهول واشتمل على فتح الاسكندرية، والحديث عن أسوارها ومساجدها، وكتاب آخر بعنوان "الدرة السنية في تاريخ الاسكندرية" لمنصور بن سليم السكندري المتوفي سنة 674هـ/1276م، وكتاب بعنوان "فضائل الإسكندرية" لأبي على الحسين بن عمر بن الحسن الصباغ[30].

لقد كان القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي من أكثر القرون تأليفاً، باختلاف الموضوعات وتنوعها. وقد أحصى الدكتور مصطفى شاكر في مدة مائة عام (أي منتصف القرن السادس إلى منتصف القرن السابع الهجري) نحو ثلاث مائة مؤرخا كتبوا ما يزيد على أكثر من سبعمائة مؤلف في التاريخ، وقد شكل مؤرخو مصر أكثر من ربع مؤرخي المشرق الاسلامي في تلك الفترة، كما أن أعمالهم تقارب ثلث كتب التاريخ التي كتبت فيها[31]، ويمكن القول أن هذا العدد الضخم من المؤرخين ومؤلفاتهم، إنما كان نوعا من الاستجابة للتحدي الحضاري للأمة الإسلامية ومن اليقظة ضد الأخطار التي كادت في تلك الفترة تسحق منطقة الشرق الأوسط كلها[32].

ويمكن تصنيف من عمل في علم التاريخ في مصر خلال هذه الفترة إلى ثلاث فئات:

1- **موظفو الدواوين:** وقد اهتم هذا الصنف بأمرين هما سير الحكام والسلاطين، وتعليم ناشئة الديوان صناعة الكتابة وأدواتها الثقافية، والتي يشكل التاريخ جانبا هاما منها. وهكذا قدمت لنا هذه الفئة من المؤرخين مجموعة من السير السلطانية وغيرها تزيد عن31 سيرة، كما قدمت مجموعة من الكتب بلغ بعضها من الضخامة أن أضحى موسوعات كبرى تصل العشرين والثلاثين مجلداً، ومنها: "نهاية الأرب" للنويري، ومسالك الأبصار" للعمري، و"صبح الأعشى" للقلقشندي[33].

2- **علماء الدين:** وكان شغلهم التاريخي يتجه بخاصة إلى التراجم وعلم الرجال، وتعليم الناشئة كل ما يتعلق برواة الحديث والحُفَّاظ، ويتوسعون أحياناً فيشملون باهتمامهم جميع المعاصرين من كم ساسة وكتاب وتجار وأهل تقى ونسك، وهكذا وصلت إلينا ثروة واسعة من كتب الرجال في شكل طبقات ووفيات ومعاجم، بلغت حوالي مائة كتاب في التراجم، ومائة وعشر كتب في الطبقات، ومائة وتسعة وعشرين في السير المختلفة بما في السيرة النبوية[34].

3- **أولاد الجند:** فإن أولاد الجند المملوكي الذي كان الجيل الأول منه أجنبيا على الثقافة العربية، جديدا في الإسلام، أما الجيل الثاني فقد تبنى هذه الثقافة بعمق، وغلبا ما عاش هذا الجيل ميسور الحال بسبب الثروة التي تركها لهم آباؤهم، فحاولوا أن يتميزوا في الوسط الثقافي، وكان التاريخ أهون العلوم مركبا بالإضافة إلى أنه بسبب طبيعته التراكمية، قابل لإعطاء الجديد على الدوام، مع تجدد الأحداث والأيام، لذلك كان ميدانا مغريا لأمثال "ابن تغري بردي" و"بيبرس المنصور الدواداري" و"ابن أيبك" و"مغلطاي" و"ابن دقمان" وأمثالهم، وكان اهتمامهم منصبا في غالب الأحيان على الأحداث السياسية وأخبار المعارك والسلاطين ونزعات الأمراء والحياة العامة، وبعض ما أنتج هؤلاء كان موسوعات تاريخية ضخمة وقعت في مجلدات كثيرة وصل بعضها إلى عشرين أو خمسة وعشرين مجلدا[35].

عنى المؤرخون المصريون خلال هذه الفترة لتاريخ مصر، وكانت النظرة الإقليمية هي السائدة، ويكمن أن نحصي أكثر من 38 تاريخا لمصر باسمها، زيادة على بعض الأراجيز الشعرية أو شروحاتها هذا كما أحصي أكثر من ثلاثين تاريخا في تاريخ المدن[36].

من هنا يمكن أن نقول أن التوجه الموسوعي الذي ظهر في هذه الفترة هو محاولة لإعادة ثقة الأمة بذاتها والهرب إلى تاريخ سابق رائع من واقع سيئ وفي هذا استمساك بالعمود الفقري للحضارة الاسلامية المهددة، كي لا تنهار أمام الخطر الخارجي، وتذكير لها بالماضي الذي انتصرت فيه على كل الصعاب التي واجهتها[37].

ب -أهم مؤرخي العصر خلال القرن (8هـ/13م):

1- أهم مؤرخي العصر:

أ- **ابن ظافر الأسدي** (ت 613هـ/1216م): وهو جمال الدين أبو الحسن على بن ظافر الأزدي الخزرجي، ولد بمصر سنة 567هـ/1171م، وخلف أباه في التدريس بالمدرسة القمحية المالكية بالقاهرة،

وعمل بعد ذلك للملك الأشرف، ولكن عاد إلى بلده سنة(612هـ/ 1215م)، وتوفي بالقاهرة في منتصف شعبان سنة 613هـ/1215م[38].

أهم مؤلفاته:

- أخبار الدول المنقطعة: وقد رتب فيه على السنين أخبار عدد من الدول الإسلامية كالحمادية والسلجوقية والطولونية والإخشيدية وأخبار الدولة الفاطمية في إفريقية ومصر، ويمكن القول أن كتاب "أخبار الدولة السلجوقية" هو جزء من الكتاب السابق.

- وبدائع البداية: وهو يضم ألوان الحكايات التي انتشرت بعضها في كتب التاريخ والأدب كالأغاني والعقد الفريد والزخيرة والعمدة وغير ذلك[39].

- أخبار الشجعان ويبدو أنه كتاب تاريخي أيضا ومنه نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني بلندن وله مؤلفات أخرى ضائعة[40].

ب- زكي الدين المنذري (ت656هـ/1258م): أبو محمد عبد العظيم بن عبد العظيم بن القوي زكي الدين المنذري، ولد بمصر في غرة شعبان سنة (581هـ/1158م)، وسمع بمكة ودمشق وحران والرها والإسكندرية، ثم درس في الجامع الظافري بالقاهرة، وولي مشيخة الشافعية في دار الحديث الكاملية نحو عشرين سنة، وتوفي رابع ذي الحجة سنة (656هـ/1258م) بالإسكندرية[41].

له عدة مؤلفات يغلب عليها تراجم رجال الحديث وأشهرها كتابه "التكملة لوفيات النقلة"[42].

يعتبر المؤرخ المنذري حافظ عصره دون منازع، وإماما وحجة ثبتا ورعا فيما يقوله وينقله، وناقدا ماهرا في علم الجرح والتعديل بارعا في علم الرجال والإفتاء، واسع الاطلاع على الأدب، ومكثرا من رواية الشعر، هذا إلى جانب الزهد والورع والتصوف[43].

وله كتب أخرى أشهرها[44]:

- ترجمة أبي بكر الطرطوشي وقد ذكره ابن خلكان (ت:681م/ 1281م) في وفيات الاعيان.

- الإعلام بأخبار شيخ البخاري محمد بن سلام السلمي بالولاء البخاري البيكندي المحدث (ت: 255هـ/870م). وذكره صاحب كتاب كشف الظنون.

- تاريخ من دخل مصر، وقد نقل عنه السيوطي في "بغية الوعاة"، كما نقل عنه الكامل الادفوي (ت738هـ).

جـ - المكين بن العميد (ت: 672هـ/ 1273م): وهو جرجيس (أبو عبد الله) بن أبي اليسر بن ابي المكارم المكين بن العميد ولد بالقاهرة سنة (602هـ/1205م) لموظف نصراني لديوان الحرب، وشغل وهو شاب وظيفة مماثلة ولما فقد ولي أبيه والي سوريا علاء الدين طبريس، حضوته لدى السلطان دعى جميع موظفي ديوانه إلى مصر فيهم أبي اليسير وابنه فوضعوا هناك في السجن وتوفي الأب سنة (636هـ/1238م)، غير ان الابن لم يلبث أن استعاد حريته ووظيفته في سوريا ، وبعد أن ثارت حوله الشبهات في سوريا ذهب على دمشق معتكفا وتوفي سنة (672هـ/ 1273م).

ومؤلفه يحمل اسم تاريخ ابن العميد كل عنوان المجموع المبارك والتاريخ الجامع وهو في أخبار العالم من أول الخليقة على عهد الملك الظاهر بيبرس (658هـ/1260م) فهو تاريخ عالمي وقد جعله قسمين[45]:

- القسم الأول من أول الخليقة إلى ظهور الاسلام اختصر فيه التواريخ وذكر ما حدث للأمم وذكر قصص الأنبياء وملوك النصارى الروم إلى ظهور الإسلام.

- القسم الثاني من ظهور الإسلام إلى سنة (658هـ/1260م) وسماه "تاريخ المسلمين" وقد ترجم كتابه إلى عدة لغات[46].

د – ابن ميسر سنة (ت 677 هـ/1278م): وهو تاج الدين محمد علي بن يوسف بن جنب راغب المعروف بان ميسر القاضي الفاضل توفي سنة(677هـ/1278م) والمعلومات عن هذا المؤرخ قليلة جدا وهي تذكر أنه مؤرخ فاضل وبارع له تصانيف عديدة وأنه دفن في المقطم ومن مؤلفاته في التاريخ كتاب قضاة مصر ولا نعلم شيئا عنه سوى انه كان من بين مصادر ابن حجر العسقلاني في "رفع الإصر"[47] وكتاب في تاريخ مصر أو أخبار مصر وهو تاريخ على السنين في مجلدين، ذيل به ابن الميسر على تاريخ المسبحي المتوفى سنة (320هـ/ 1029م) [48] وكان في إثني عشر مجلداً[49].

هـ - المفضل بن أبي الفضائل (ت: 741هـ/1341م): كتب ذيلا باسم "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد" وفيه تراجم بعض السلاطين والمماليك، و"تاريخ البطاركة اليعاقبة" و"تاريخ المسلمين في اليمن والهند والتتر".

و- ابن عبد الظاهر (ت: 692هـ/1293م): وهو أبو الفضل محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي المصري الضرير، كان كاتب الإنشاء وصاحب ديوان الإنشاء في بلاط الملك بيبرس ثم لدى السلطان قلاوون.[50]

له "النظم الفائق والنثر الرائق" وقد ذكره السيوطي، و"شيخ أهل الرسل" وذكره ابن شاكر في "فوات الوفيات"، وقد جاء كلاهما بأسلوب أدبي غني بالبديع[51].

أما التراث التاريخي لابن عبد الظاهر فيتكون من[52]:

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس وهو منظومة شعرية وهو يمتد من أول سيرة إلى سنة (663هـ/1265م)، وقد اختصر شافع العسقلاني (ت 639هـ/1251م) هذه السيرة نثراً.

- "تشريف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور"[53] (قلاوون).

- "الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية المكية الأشرفية" وهي في سيرة الملك الأشرف خليل (ت: 693هـ/ 1293م). ولعلها آخر ما كتبه ابن عبد الظاهر قبل وفاته.

بالإضافة على كتب أخرى في التاريخ، وترجع أهمية مؤلفات ابن عبد الظاهر أنه حفظ لنا الكثير من وثائق العصر في صورتها الأصلية، حيث أعتبر مصدرا هاما للكثير من المؤرخين الذين جاؤوا من بعده

الذين كتبوا عن سلاطين المماليك الأوائل ومنهم بيبرس وقلاوون والأشرف، فقد اعتمد عليه القلقشندي في "صبح الأعشى"، والمقريزي نقل عنه الكثير في كتاب "الخطط"[54].

ز – النويري: (ت:732هـ/1332م): هو أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الوهاب بن عبادة، الشيخ الإمام المؤرخ شهاب الدين، البكري، النويري، الشافعي[55]، يعتبر النووي رأس المدرسة التاريخية المصرية في العصر المملوكي، ولد حوالي سنة 660هـ/ 1262م، درس بالأزهر الشريف، وتخصص في دراسة الحديث والتاريخ والأدب، اشتغل في شبابه مدة في بنسخ الكتب الجليلة، وكان أنيق الخط، كان يكتب النسخة من صحيح البخاري ويبيعها بألف دينار[56]، يقول ابن تعري بردي: "كان فقيهاً فاضلاً، مؤرخاً بارعاً، وله مشاركة جيدة في علوم، وكتب الخط المنسوب، قيل إنه كتب صحيح البخاري ثمان مرات، وكان يبيع كل نسخة من البخاري بخطه بألف درهم"[57].

اتصل النووي ببلاط الملك الناصر بن قلاوون، ونال عطفه وحظوته، وتقلب في عدة وظائف إدارية ومالية ظهرت فيها جميعاً، كفايته وتفوقه، لكن حبه للأدب جعله يعتزل كل هذا ويتفرغ للتأليف، ويمكن القول أن النويري انقطع في الفترة الفاصلة بين 710هـ/ 1310م– 720هـ/ 1320م، إلى العلم والتتأليف فأنتج لنا بعدها أول جزء من موسوعته "نهاية الأرب في فنون الأدب" سنة 721هـ/1321م[58]، فقال عنه ابن تغري بردي في المنهل الصافي: "وكان يكتب في كل يوم ثلاث كراريس، وألف تاريخاً سماه منتهى الأرب في علم الأدب في ثلاثين مجلداً".[59]

لكن موسوعة "نهاية الأرب" لم تعالج الأدب فقط بل تعدته إلى التاريخ والجغرافية، والسياسة الملكية، والبيان والبديع، والأمثال والأوصاف، ويفيض بالكلام على المواد العلمية المحضة مثل الطب والرياضة والكمياء وغيرها، مصممة على خمس أقسام كل قسم ينقسم إلى عدد من الأبواب، وهذه الفنون الخمسة تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين: الأولى تشمل من الفن الأول: إلى الرابع، وتشمل عشرة مجلدات، وتشمل المجموعة الثانية على الفن الخامس فقط، وتشغل واحداً وعشرين مجلداً.[60]

لكن النويري لم يبتكر مخطط الكتاب بل اقتبسه مع بعض التصرف من مؤلف معاصر له هو محمد بن إبراهيم الكتبي المعروف بالوطواط (ت: 718هـ/ 1318م) الذي وضع موسوعة صغيرة عنوانها "مباهج الفكر ومناهج العبر".[61]

وقد وضع النويري خطته على أساس الأقاليم الجغرافية أولاً، ثم على الأساس الزمني، من الأسرات الحاكمة، وتوسع خاصة في السيرة النبوية وفي تاريخ مصر والشام، وخاصة المماليك، وجمع مادته من مختلف المؤرخين الكبار، وحفظ لنا أحياناً كثيرة بعضاً مما ضاع من آثارهم، ومنهم ابن ميسر، والجزري، وابن السباعي، وابن الأثير، وابن واصل، وابن خلكان، وابن عبد الظاهر، والنسوي، وهنا نجد النويري المؤرخ الحقيقي فهو لا يكتفي بما يأخذ عن الآخرين، ولكن يضيف إلى الأحداث رأيه وخبراته ومعلوماته.[62]

ح- **ابن الملقن:** (ت:803هـ/1403م): وهو عمر بن على بن احْمَد بن مُحَمَّد الانصاري سراج الدِّين أَبُو حَفْص المصرى الشَّافِعِي الْمَعْرُوف بِابْن الملقن[63]، توفي أبوه وعمره سنة فنسبه الناس على زوج أمه الذي كان يلقن القرآن، فعرف بابن الملقن، وإن كان يرفض هذا الاسم[64]، اختص في علم الحديث، فجاءت جهوده ومعارفه وإنتاجه في التاريخ من باب خدمة الحديث، قال الزركلي: " من أكابر العلماء بالحديث والفقه وتاريخ الرجال "[65]، بالرغم من أنه اشتغل في كل فن حتى قرأ في كل مذهب كتاباً، وبرع في الفقه وفي الخط وفي الأصول وفي الإفتاء، وكان له عدد كبير من المؤلفات، يقول الزركلي في الاعلام:" له نحو ثلاثمائة مصنف"[66]، وبعضها في مجلدات تبلغ العشرين[67]، ومن أهمها:

1- نزهة النظار في قضاة مصر: وقد وصل فيه المؤلف إلى سنة 780هـ، ورتبه طبقة بعد طبقة، وأورد في آخره منظومات في أسماء القضاة.[68]

2- إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ذكر فيه تراجم كتب ستة هم أحمد بن حنبل وابن خزيمة وابن حبال والدارقطني، والحاكم، ويبدو أن معظمه ضاع حتى أن السخاوي لم يطلع إلا على مجلد واحد منه، وقد ذكره في الضوء اللامع قائلاً"ومن تصانيفه ومما لم أقف عليه إكمال تهذيب الكمال ذكر فيه تراجم رجال كتب ستة وهي أحمد وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم، قلت: قد رأيت منه مجلدا وأمره فيه سهل"[69].

3-العقد المذهب في طبقات حملة المذهب: وهو في طبقات الشافعية، من زمن الشافعي ﷺ، إلى سنة 770هـ، وعدة الأسماء فيه ألف وسبعمائة، أخذ من طبقات الاسنوي وابن كثير والسبكي. وقد رتبه على ثلاث طبقات: الأولى في أصحاب الوجوه وهذه على 34 طبقة، أما الثانية فهي دونهم وفيها ست وثلاثون طبقة، والثالثة على حروف المعجم[70].

4-الاشارات إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والأماكن واللغات[71]: وهو مختصر كتاب "نهاية المنهاج إلى ما استدرك على المنهاج" للإمام النووي، وقد قسمه المؤلف ثلاث أقسام: الأول في الناحية اللغوية، والثاني في الأسماء المشتركة والمترادفة، والثالث في أسماء الأماكن وتحقيقها في مواطنها وضبطها. بدأ في تأليفه سنة 743هـ ثم زاد عليه بقدره سنة 745هـ. ثم لم يزل يزيد حتى 758هـ[72].

5- كتاب الصوفية: وهو في مجلد صغير جمع فيه جملة من طبقات العلماء الأعيان وأوتاد الأقطار في كل قطر وأوان.[73]

خاتمة:

ومجمل القول فقد عرفت الكتابة التاريخية في عهد المماليك تطورا ملحوظاً، خاصة بعد تأسيس ما أصطلح عليه بالمدرسة التاريخية المصرية فنبغ الكثير من المؤرخين في مختلف صنوف التأليف وأنواع الكتابة، فقد ظهرت التأليف في السير الخاصة، والتراجم العامة، وتواريخ المدن والبلدان، وكذا التاريخ العام.

الهوامش:

1 - عبد الله عنان، المرجع، مؤرخو مصر الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة: 1999، ص8.

2 - خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، ج5، ط15، دار العلم للملايين، 2002، ص248.

3 - إبراهيم فرغلي، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، العربي للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2000، ص 86.

4 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص87.

5- مصطفى شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، ط1، ، دار العلم للملايين بيروت، 1990، ج2، ص133.

6 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص90.

7 - الزركلي، الأعلام، ج3، ص313.

8 - عبد الله عنان، المرجع السابق، ص9.

9 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص92.

10 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص92.

11 - نفســـــه، ص95.

12 - نفســـــه، ج2، ص172.

13 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص96.

14 - آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ت: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، ج1، ص332.

15 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص42.

16 - الزركلي، الأعلام، ج7، ص148.

17 - نفســـــه، ج1، ص178.

18 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص98.

19 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص56.

20 - الزركلي، الأعلام، ج6، ص146.

21 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص100.

22 - نفســـــه، ص100.

23 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج2، ص173.

24 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص101.

25 - الزركلي، الأعلام، ج8، ص246.

26 - نفســـــه، ج1، ص197.

27 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص104.

28 - نفســـــه، ص104.

29 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص106.

30 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص109.

31 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص 98.

32 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص110؛ مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج1، ص465.

33 - مصطفى شاكر، المرجع السابق،ج3، ص 98.
34 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ص 98.
35 - نفســــــه، ص 98.
36 - نفســــــه، ص 98.
37 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص106.
38 - نفســــــه، ص113.
39 - نفسه، ص114.
40 - كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص256؛ إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص114.
41 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص114.
42 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 107.
43 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص115.
44 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 108؛ إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص115.
45 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 109.
46 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص116.
47 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 111.
48 - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص117.
49 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص 111.
50 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج7، ص98.
51 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 112.
52 - نفســــــه، ص 113.
53 - محمد بن شاكر بن أحمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1973، ج2، ص179.
54 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 114.
55 - ابن تغري بردي ، المنهل الصافي، ص381.
56 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص70.
57 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص381.
58 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص70.
59 - يوسف بن تغري بردي بن عبد الله أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص381.
60 - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص72.
61 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص120.
62 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص122.

63 - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، الأعلام، ج5، دار العلم للملايين، 2002، ص57؛ إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج1، ص792.

64 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص120.

65 - الزركلي، الأعلام، ج5، ص 57.

66 - نفســـــه، ص57.

67 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص120.

68 - نفســـــه، ص120.

69 - السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص102.

70 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص126.

71 - الباباني، هدية العارفين، ج1، ص791.

72 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص126.

73 - نفســـــه، ص126.

وضع المرأة الريفية ببايلك الغرب الجزائري

د/ كمال بن صحراوي، جامعة ابن خلدون تيارت

الملخص: لم تعالج المصادر المحلية ولا الأجنبية موضوع الريف خلال العهد العثماني بشكل مباشر، لكنها احتوت على بعض المعطيات الأساسية التي تعكس خصوصيات البيئة الريفية وتعطي صورة حول الحياة العامة خارج المدينة، كالعادات والتقاليد والعلاقات العامة وطبيعة التعليم والقضاء ومكانة المرأة ودورها في المجتمع.

ولعل موضوع المرأة الريفية يأتي في مقدمة هذه المسائل ذات الأهمية، ذلك أن هذا العنصر الحيوي أثبت حضوره القوي على مستوى الساحة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي والتفاعل الثقافي والديني، وهو ما يجعل دراسته ضرورية للتعرف على نقاط الظل في حياة المرأة بريف بايلك الغرب الجزائري.

الكلمات المفتاحية: الريف – بايلك الغرب – الجزائر – المرأة.

Abstract:

Historians of the Ottoman era in Algeria, Algerians and foreigners, gave the reader a global picture of women's status in the deep countryside of the Western Beylik, and recalled her role in management of the family's economy, as well as in the cultural activity of rural society. An image that I worked on through this article in order to participate in the study of the algerian social history.

تقديم: مثّل الريف - بكل مكوّناته - الخلفية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، ورغم قلة الحديث عن المرأة ودورها فيه في المصادر المحلية فإنها تركت بصماتها بشكل جلي من خلال تربية أبنائها والمشاركة في عمل الأسرة الفلاحي إضافة إلى شغلها داخل البيت.

كما كان للمرأة حضور ديني واجتماعي حيث ساهمت في الوقف وانخرطت ضمن الطرق الدينية، وتفاعلت مع مقتضيات الحياة العائلية من خلال اهتمامها بنفسها والمحافظة على خصوصيتها، فظلت لذلك كله محترمة موقّرة خصوصا من قبل أقاربها الذين لم يتوانوا في الدفاع عنها.

غير أن حياة المرأة الريفية ببايلك الغرب لم تكن دائما ملأى بعوامل السعادة وحدها فكثيرا ما حُرمت من الميراث والتعلم، وعوقبت لأنها أنجبت بنتا أو لأنها أصلا امرأة عاقر، فانطلقت معبرةً عن مشاعرها عبر ترديد بعض الأناشيد المرتجلة، لتشكو ألامها وتعبّر عما تعانيه من قهر بسبب أمر لا مسؤولية لها فيه. لذلك ارتأينا البحث ضمن هذا المقال لنعالج من خلاله هذه الازدواجية الخطيرة التي مست وضع المرأة الريفية.

1- المرأة والنشاط الديني والاجتماعي:

انخرطت المرأة ضمن الطرق الصوفية فعُرفت النساء المريدات بالخونيات كمؤنث للإخوان[1]، أو الخواتات كمؤنث للخاوة، وهي كلها ألفاظ عامية معناها الإخوة والأخوات. والنساء المريدات مجبرات على اتباع الطريقة وتطبيق ما يأتي من شيوخها خصوصا الأوراد، ولذلك استُحدث منصب المقدَّمات ليصرن حلقة وصل بين الشيخ والمريدات، وبذلك أثبتت المرأة حضورها على مستوى النشاط القائم على مستوى الزاوية[2].

وتشتغل مقدَّمات الطريقة تحت تصرف المقدم، حيث تعملن على إدماج المريدات الجديدات، وتترأسن الاجتماع بهن أو تهيئن الظروف لاجتماع المقدم بهن، وهو أمر لا يتم إلا بصفة جماعية، حيث لا يجتمع المقدم أبدا بامرأة بمفردها[3].

وحين تكون الوعدة في بعض أوقات السنة، يخرج أبناء القبائل إلى حيث مقامات الأولياء والمرابطين الذين لهم بهم علاقةُ "خِدمة"[4]، ومعهم نساؤهم وأطفالهم، وقد أحضروا الطعام واستعدوا للاحتفال الذي ينتظرونه سنة كاملة في الغالب، وتبدأ مسابقات الخيل التي تشاهدها النساء فتشجعن الفرسان بإصدار الزغاريد تعبيرا عن فرحتهن بهذه المناسبة[5].

كما كان للمرأة حضور في الحروب، ففي إطار ثورة درقاوة نزل الباي المقلش بتاسالة ثم رحل "يريد واد الحد ببلد أولاد الزائر، وعيونه ذاهبة وراجعة بأخبار الدرقاوي كما هو شأن أولي العزم والحزم من الملوك، إلى أن تحقق بأن الأعراب بالوادي المذكور يريدون لقاءه مقدمين زياداتهم بين أيديهم، قال والزيادات في عرف العرب بالجزائر بوازل الجمال عليها الهوادج بداخل كل هودج امرأة تولول بين صفوف الحرب يزعمون أن ذلك يشجع الجبان ويزيد في زعامة الشجعان"[6].

أما في عيد المولد النبوي الشريف فإن نساء تلمسان يصعدن - بمجرد بزوغ هلال شهر ربيع الأول - "فوق السطوح ويزغردن عند مشاهدته، ثم تخرج البنات اللاتي هن دون سن البلوغ أفواجا في الأيام الموالية في كل حي من أحياء المدينة وهن ينشدن بأصواتهن الرخيمة الأنشودة التالية:

أمولود أمولود هذا مولود النبي

والملايكة في السما يفرحو بأولاد النبي

أعايشة ولا ترقدي والليلة يزّاد النبي

آسعدي من شاف النبي يعطينا أماراته

عينه كحلة مهذبة والشوشة واتاته"[7]

2- مكانة المرأة:

نقل إلينا دارفيو صورة غريبة عن نساء الجزائر في نهاية ق 17م حيث وصفهن بالبدينات القصيرات اللائي تضع كل واحدة منهن لحافا يغطيها من الرأس إلى القدمين، ولا تُظهر إلا عينا واحدة. وعلى الأذن ثقب يسمح بوضع الحلي، غير أن ذلك كله **"لاقيمة له"** لأنهن متقلباتُ الأمزجة عنيداتٌ كسولاتٌ يأكلن بشراهة[8]. ومن حق أي قارئ لهذا الكلام التساؤل عن مدى واقعيته، خصوصا وقد رافقه معيار التعميم الذي كثيرا ما يتنافى مع عنصر الموضوعية في الكتابات التاريخية.

والواقع أن المرأة في بايلك الغرب كانت محترمة وموقّرة خصوصا من قبل أقاربها، حيث يدافع عنها أهلها حتى وإن بدا منهم أحيانا ما يضايقها، أما استشارتها والأخذ برأيها فأمرٌ لم يكن من السهل قبوله في هذه الفترة، ولم يكن ذكر أسماء نساء البيت أمام الأجانب[9] أمرا مقبولا، ولذلك ترى الرجل حين يَسأل عن أهل صاحبه يسأل عن الدار كناية عنهم فيقول: "**كيف اش دارك**؟" ذكر أسترازي هذه الكلمات الثلاث وكتبها بالعربية توضيحا لها، وجعلها ترجمة للعبارة التالية: "Comment se porte ta maison?"[10].

وقد حرص المجتمع الريفي على المحافظة على الأعراض، ومن ذلك منع النساء من الاختلاط بالرجال الأجانب عنهن، فحين يدخل الضيف ينادي صاحب المنزل منبها إلى ذلك حتى لا تعترض النساء طريقه، وكل من يدخل بيتا دون الإعلان عن ذلك يعتبر سارقا أو راغبا في انتهاك حرمة، ولذلك تسلط عليه عقوبة الموت، فإذا نجا منها تعرض لعقوبات مالية وجسدية[11].

ومن باب هذا الاحترام كانت مجالس النساء تُفصَل عن مجالس الرجال داخل الخيمة الواحدة بستار، أما سكان الريف المستقرون في بيوت مبنية فيَعزِلون غرف النساء عن غرف الرجال لاسيما المخصصة للضيوف. ورغم هذا التحفظ الشديد كانت المرأة تحضر المناسبات الكبرى كرجوع أكابر القبيلة من سفر أو من غزوة مثلا، وتعبّر مع باقي النسوة عن فرحتهن عن ذلك عادةً بإطلاق الزغاريد التي تكون جماعية وبأصوات حادة لا تخلو من الحسن[12].

وحين قدم فرومونتان الفرنسي (1853م)[13] صورة للنظام القبلي الاجتماعي من خلال قبيلة الأرباع المرتحلة في صحراء الأغواط، لاحظ أن الترتيب أثناء السير كان كالآتي:

شيخ القبيلة وأسرته في المقدمة، ثم الفرسان الذين يكلّفون بحماية القبيلة، ثم الفقراء والخدم الذين هم عادة من الزنوج. كما لاحظ فرقا أساسيا يعكس مقتضيات السلم الاجتماعي المعمول به آنذاك، فنساء الطبقة الراقية في القبيلة "الحريم" يسافرن في هوادج مغلقة، بينما تسافر بقية النساء على الأقدام يتبعهن أولادهن[14].

3- العمل النسوي:

كانت المرأة البدوية تتكفل برعاية الأسرة داخل بيتها، كما تتكفل بمساعدة زوجها خارج البيت، فهي تقوم بمهمتها الأولى من خلال تربية أطفالها ومزاولة التدبير المنزلي، خصوصا ما تعلق بتوفير الأفرشة والأغطية و"الجلال" الذي يغطى به الحصان وقت الشتاء.

ولأن معظم الرجال كانوا ينشغلون بمهام الفلاحة والرعي فإنهم تكفلوا بصناعة الأدوات الرئيسية التي كانوا يحتاجون إليها في الزراعة، بينما تكفلت النساء بصناعات حرفية كالغزل والنسيج، حيث تولت حياكة أفرشة المنزل بل معظم لباس الرجل كالبرنوس والقشابية[15]، وقامت بصناعة بعض الأدوات التي تستعمل على مستوى البيت كالمكنسات والأواني الفخارية التي يُحفظ بها كل من الحليب والسمن، بل وصنعت حتى الأفران التقليدية.

أما الرحل فكانت سكناهم في الخيام لأن ترحالهم يقتضي ذلك. والخيمة عادةً سوداءُ مصنوعة من الصوف المخلوط بشعر الماعز ووبر الإبل، ومكونة من مجموعة من القطع يسمى الواحد منها "فليج" عرضه 60 سم تقريبا، أما طوله وعدد قطعه فيختلفان حسب المساحة التي ستغطيها الخيمة. ويتطلب نسج الخيمة 20 يوما، تقوم النساء خلالها بجهد مشترك ليتحول شكلها الخارجي إلى دلالة واضحة على غنى صاحبها أو فقره كما هو الشأن بالنسبة للمنازل.

أما المهمة الثانية الموكلة إلى المرأة فهي مساعدة زوجها في رعي الغنم وسياسة الخيل وجلب الماء في الأواني والقرب، وعادة ما تحمل رضيعها على ظهرها وهي تقوم بهذه الأعمال، حتى إذا صار بحاجة إلى الرضاعة أرضعته[16].

ومن هنا تبدو مشاغل المرأة الريفية كثيرة، فهي تحلب المواشي وتجلب الماء وتقطع الحطب وتجمع خليط العشب وخثي البقر وتجففه بهدف إشعال النار، كما تمخض اللبن وتعجن الدقيق وتطحن الحب وتتبع الحصادين لجمع السنابل المتساقطة، حتى أنها - لانشغالها الدائم وكثرة مهامها- لم تكن لتتمكن دائما من الاعتناء بهندامها فإذا مرضت تمت مداواتها ببعض الأعشاب[17].

في هذا الإطار -إذاً- شكلت العائلة في الريف الجزائري - بمساهمة قوية من المرأة - وحدةً إنتاجيةً ووحدة استهلاكية في ذات الوقت، ذلك أن الإنتاج كان يتم من أجل إشباع حاجات العائلة فإذا زاد بعضه عن حاجتها وجهته إلى السوق.

وبعيدا عن الأسواق ساهمت المرأة في حيوية النشاط التجاري وربط الريف بالمدينة، ذلك أن "الحضري" كان بائعا متجولا يبيع مواد التجميل والعطور والمرايا والمحارم وغيرها مما يُجلب من المدينة، وكان أحيانا يقايض هذه المواد بما يجد عند أهل الريف، ومن هنا كانت المرأة تنتظر قدومه وتستعد لذلك

بتحضير المواد القابلة للمقايضة كالبيض والدجاج والصوف، وبعد جولة يعود الحضري إلى المدينة بستة أو ثمانية مزاود مملوءة يحملها على بغل[18].

4- الزينة:

لم تكن المرأة الريفية ببايلك الغرب تهمل نفسها من حيث الزينة، فرغم كثرة انشغالاتها كانت تضع وشما على الكعب والذراع، وعلى اليد والوجه، والوشم – آنذاك – زينة للفتاة منذ صغرها، ويكون عادة على شكل صليب يوشم بين العينين أو على أحد جانبي الأنف، وهذا طبعا دون قصد من المجتمع ودون تفسير لهذه الظاهرة[19]، ورغم أن الصليب لم يكن هو الشكل الوحيد الذي يأخذه الوشم عند المرأة أو حتى عند الرجل خصوصا في الريف، فإن بعض الكُتاب الفرنسيين حاولوا إعطاء معنًى له كظاهرة اجتماعية بربطه بالفترة البيزنطية وتأثيرها المستمر[20].

ورغم أننا نتحدث هنا عن الوشم كظاهرة اجتماعية انتشرت بشكل كبير في الجزائر في هذه المرحلة وما يليها، ولا نناقش موقع هذه المسألة في الفقه الإسلامي فإنه جدير بالذكر أن "المْرابطينْ" كانوا ينفرون من الزواج من المرأة التي يكون وشمها مبالغا فيه، وذلك استنادا إلى حكم القرآن الكريم في الوشم الذي كان المجتمع آنذاك يسميه "كتابة الشيطان"[21]، ورغم هذا الموقف الواضح لم تمتنع المرأة عن الوشم الذي ظل من أهم أشكال زينتها.

وتكمل المرأة البدوية زينتها بالحناء خصوصا على الأظافر وأطراف الأصابع[22]. وقد لاحظ Chevalier d'Arvieux في النصف الثاني من ق 17م أنها كانت تضع الكحل على حاجبها، أما العروس فتُزين على وجهها - إضافة إلى الكحل - بنقاط سوداء أو حمراء أو زرقاء، وتضع الحناء على يديها ورجليها، أما على ذراعها فتضع طلاء مختلف الألوان تُرسم به مجموعة من الدوائر[23].

وللحناء[24] في المجتمع الريفي على الخصوص مكانة خاصة لها ارتباط بالدين اقتداء برسول الله ﷺ، ولذلك كان كثير من الرجال يصبغون لحاهم باستخدام الحناء، أما النساء فتعتبرن هذه المادة أصل الزينة، وتحس المرأة حين تضعها على يديها ورجليها بشبابها يتجدد. ولا يتعلق الأمر هنا بالفتيات فقط بل حتى بالعجائز، حيث يضعنها خلال الشهر مرة على الأقل، ويكون ذلك يوم الإثنين أو الجمعة، أما وضعها على الرأس فلصبغ الشعر وعلاج سقوطه.

ولا تغيب الحناء عن المواسم الهامة حيث تتزين بها العروس وصديقاتها، ويبعث الخاطب بعضا منها إلى خطيبته، وكانت عادةُ خطبة الأطفال منذ الولادة منتشرة بتلمسان، عندها يبعث والد الطفل لوالد الطفلة 01 كيلوغرام من هذه المادة في منديل وتسمى هذه بحنة الإثبات، كما تحظى النفساء بالعناية من خلال إكرامها بالحناء.

5- الزواج والإنجاب:

ساهمت الظروف الاجتماعية والاقتصادية في ظاهرة التعدد إلى حد كبير، حيث لم يكن الميسورون ليجدوا صعوبة مادية لتغطية مصاريف البيت الثاني، بل حتى الخماس كان على فقره يتزوج أكثر من واحدة لتعينه على أداء مهامه الكثيرة[25] إذ تساعده الأسرة كلها على زرع الأراضي وإنجاز مختلف الأشغال[26].

وهذا ما أشار إليه الرحالة الألماني فون مالتسان بقوله: "وكل بدوي تقريبا يتزوج عدة نساء لأنهن - عوض أن يكلفنه ثمنا - يصبحن على العكس من ذلك مكسبا له، فهن فتيات عاملات يشتغلن في حقله، دون أن يقدم لهن أجرا، أما الحضري فإنه يكاد يقتصر دائما على امرأة واحدة"[27].

وحين تُخطب المرأة الريفية يطلب وليها - إضافة إلى صداقها - هدية معتبرة تتماشى ووضعها وجمالها، وتسمى هذه الهدية بالماكلة، غير أن أهل المدن كانوا ينظرون إليها على أنها شيء غير مشرف[28].

وكان الاتفاق أحيانا يتم على تأخير جزء من الصداق يدفعه الزوج حال تمكنه من ذلك، فإن استطاع ولم يفعل صار زواجه غير صحيح من وجهة نظر الشريعة الإسلامية، وإذا كانت نساء كثيرات قد تمكّنّ من الحصول على مؤخر الصداق فإن نساء أخريات حرمن منه كما حدث بمليانة لزليخة بنت حسن أبو ريشة وكانت زوجة لعلال بن السيد مصطفى المتوفى عنها.

ولم يكن هذا الأمر ليحدث مع الفقراء فقط وإنما مع الأثرياء وموظفي الدولة بما فيهم البايات، وهو ما ورد عرضا في عقد بيع بمليانة متعلق بدار آلت ملكيتها لخديجة بنت ابن سالم آغا زوجة إبراهيم باي الغرب، وقد انتقلت ملكية الدار إلى ولدها الحاج محمد بن إبراهيم باي[29].

ونتيجة لرابطة الزواج تُنجب النساء العربيات - وهن قادرات على ذلك منذ سن الحادية عشرة - وتتوقف أغلبهن عن الإنجاب عند سن الثلاثين، ورغم هذه الخصوبة التي يُتوقع معها ارتفاع مذهل في عدد السكان هناك عوامل كانت تمنع هذه الزيادة منها اجتياح مرض الطاعون للمنطقة، وقلة المعرفة بالأدوية الضرورية لمحاربة أمراض كثيرة[30].

ونظرا لهذه القدرة المبكرة على الإنجاب نشأت ظاهرة ملفتة للنظر في المجتمع خصوصا الريفي، وهي أن السن الوسط الذي يفصل الطفلة عن المرأة صار غائبا، فالشابة آنذاك هي الطفلة التي تُخطب وعمرها 10 سنوات لتزف سنتين بعد ذلك، أما حين يصبح عمرها 16 عاما فإنها تكون قد أنجبت 03 أطفال[31].

وكانت زيارة الأهل والأقارب للمرأة تكثر حين تضع مولودها فتقوم النساء على خدمتها. وقبل ذلك يُنادى على مجموعة من تلاميذ الكتّاب فيبسطوا رداء يشده كل منهم من طرف وتوضع به بيضة، ثم يمضي الأطفال جريا مرددين بعض الدعوات بصوت مرتفع حتى إذا سمعت نساء الحي ذلك خرجت كل

منهن تحمل جرة ماء، ثم أفرغتها على حبة البيض، ومتى انكسرت ولدت المرأة طفلها بسلام. ثم ترتفع الزغاريد مرتين أو ثلاثا معبّرة عن الفرحة بقدوم الولد، ومرة واحدة حين تولد البنت[32].

وكان أهل البادية يحتفلون بالمولود في يومه السابع ويفرحون به، ويقوم الجد أو الأب بالدعاء له والصلاة من أجله ثم يعلن اسمه للحاضرين. وكانت الأسماء تخضع لمراتب[33]:

أ- أسماء الأنبياء

ب- أسماء الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي لدورهم في خدمة الإسلام

ت- أسماء الله الحسنى تسبق بلفظة "عبد"

ث- لفظة "الدين" تسبق بكلمة أخرى تحمل معنى جميلا كمحي، نور، خير وجلال

ج- كلمات تحمل معاني صفات جميلة كحسن، سعيد، رشيد ومصطفى

ح- تعطى للبنات أسماء ذات دلالات حسنة كزهرة، سعيدة، ظريفة وجميلة

أما المرأة العاقر فكانت مأساتها كبيرة حيث لا يكتفي زوجها بالزواج عليها، بل يعرضها للإهانة بشكل دائم لأنه يفضل المرأة الولود التي تثير غيرة الأخريات، فتنطلق مشاعر الواحدة منهن عبر ترديد بعض الأناشيد المرتجلة، لتشكو ألامها وتعبّر عما تعانيه من قهر بسبب أمر لا مسؤولية لها فيه.

إني امرأة هدها العجز والشقاء

لا أب لي ولا أما حنونا!

زوجي ينفر مني لأني عاقر

يلف ظفيرتي حول قبضة يده ويوقعني أرضا

يدوسني بقدميه فترتوي الأرض من دمائي

يخص بالحب نوارة، ويهدي لها المحارم الحريرية

بينما يتركني أنا، أنا المسكينة عارية

هل الذنب ذنبي أن جُعل رحمي عاقرا؟

يا ويلي يا ويلي يا ويلي[34]

6- اللباس:

في الربع الأخير من ق 17م تحدث دارفيو عن لباس الجزائريين فعرج على لباس سكان الأرياف، وذكر أنهم يلتحفون بلحاف أبيض، والبعض منهم يلبسون قمصانا وسراويل، ويشجعهم حر الصيف على الاكتفاء بهذا اللحاف[35]، بينما يولي "المْرابطون" أهمية خاصة للقمصان والسراويل رغبة في الظهور في أحسن حال.

وعوض لحاف الصوف الذي يضعه كثير من الناس يضع المرابط لحافا من الكتان يغطيه من رأسه إلى قدميه، لأنه يرى في ذلك نوعا من الالتزام بالطهارة التي يفرضها الإسلام. أما لباس النساء فلم ير فيه ما يستحق الذكر سوى أنه نسيج كتاني أبيض أو أزرق مركب بطريقة صعُب عليه وصفها[36].

وكانت المرأة تلبس حايك يشبّك بالدبابيس، وهو ينسج من قماش ثم يُكف بقماش آخر أحمر أو أزرق. ويُغطَّى الرأس بقطعة من الكتان أو بمنديل قطني. بينما يرتدي الرجل البدوي لباسا من الصوف على شكل كيس مثقوب في الوسط لإخراج الرأس، وبه ثقبان آخران على الجانبين لإخراج اليدين، ويصنع عادة من الصوف الأسود. ويضيف إليه الأغنياء لباسا آخر هو البرنس، وعادة ما يكفي برنس واحد صاحبه طول حياته لا يفارق جسده[37].

كما تحدث حمدان خوجة عن عادات العرب سكان الأرياف فذكر أن الرجال يلبسون القندورة وهي من قماش قطني على خلاف القماش الصوفي الذي يلبسه الأمازيغ، أما النساء فتلبس الواحدة منهن حايك يُصنع من القطن صيفا ومن الصوف شتاء، كما تضع حزاما من الصوف أو من الوبر الجيد[38].

وقد أكد الفرنسي فرومونتين في رحلته إلى الصحراء الجزائرية عام 1853م أن الرجال والنساء على السواء يشتركون في ارتداء اللباس الواسع الفضفاض، فهو لباس الزاهد المتقرب إلى الله، ولباس الراعي المسكين، وهو أيضا لباس الأمراء، كما أقر أن هذا اللباس يمتلك امتيازا آخر؛ إنه أكثر محليةً وهو بذلك أكثر جمالا من الزي اليوناني[39].

ومن باب المقارنة ذكر هوداس[40] أن المرأة العربية كانت تضع النقاب، أما الأمازيغية فكانت تكشف عن وجهها، وأورد أنها كلما مرت على رجل "أجنبي" أدارت وجهها، فإن لم تفعل ذكّرها زوجها - بضربات خاطفة على رأسها - بأن التخلص من النقاب ما تمّ إلا لدواعٍ اقتصادية[41].

استنتاجات:

- مثلت المرأة الريفية ببايلك الغرب أساس الأسرة وجزءا من المجتمع من خلال مشاركتها في تربية النشء، وتمتعت بمكانة ضمنت لها كرامتها في غالب الأحيان.

- ساهمت في التنمية من خلال نشاطها داخل الأسرة ومساعدتها لأهلها، وهو ما يتضح من نشاطها الدؤوب لتغطية كثير من الحاجات الضرورية.
- رغم خصوصية الظرف الذي عاشت ضمنه المرأة الريفية فإنها لم تغب عن النشاطات الدينية والثقافية التي عرفها المجتمع.
- لم يسلم الرجل الريفي من التضييق على المرأة لاسيما العاقر، حيث حملها مسؤولية عدم الإنجاب.
- ساهم الكتاب الأوربيون في التعريف بالمرأة الريفية الجزائرية، لكنهم تحاملوا عليها كثيرا خصوصا حين تعلق الأمر بزينتها وثقافتها.

الهوامش:

1- Esterhazy, De la Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, Librairie de Charles Gosselin, 1840, p196

2- Octave Depont, Xavier Coppolani, Les confréries religieuses musulmanes, Adolphe Jourdan, Imprimeur, Libraire, éditeur, 4, Place du Gouvernement, Alger, 1897, p196

3- Louis Rinn, Marabouts et Khouanes, Etude sur l'Islam en Algérie, Alger, Adolphe Jourdan, Libraire, éditeur, 1884, pp 88 - 89

4- يُعرف المرابطون وذريتهم بالسادة ويعرف الأتباع بالخُدام الذين يقبلون دفع الترضيات للمرابط وذريته من بعده.

5- Esterhazy, De la domination turque … Op.cit, p301

6- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط 2، 2007، ص 219

7- الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1، 1995، ص 272

8- Chevalier d'Arvieux, Mémoires du Chevalier d'Arvieux, Paris, Libraire Le Fils, sans date, p 287

9- الأجنبي المقصود هنا هو الذي ليس من محارم المرأة.

10- Esterhazy, De la domination turque … Op.cit, p 144

11- Laugier de Tassy, Histoire du Royaume d'Alger, Amsterdam, Henri du Sauzet, sans date, p 113

12 - E, Daumas, Mœurs et coutumes de l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara, Paris, Librairie Hachette et Cie, 1853, p 40

13- ذكرنا هذا من باب المقارنة وإلا فهو خارج عن الإطار الزمني المحدد في العنوان

14 - عيسى عطاشي، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي"صيف في الصحراء" لفرومنتين نموذجا، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005- 2006، ص 67

15 - عيسى عطاشي، نفسه، ص 81

16 - Laugier de Tassy, Op.cit, p 58

17 - حمدان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط 2، 1982، ص 74

18 - أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، 1519 – 1830، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2006 – 2007، ص 244

19 - ظلت النساء إلى وقت قريب تستعملن في غرب الجزائر أشكالا مختلفة منها شكل الصليب والصليب المعقوف عند قيامهن بنسج الزرابي والأغطية المختلفة.

20 - يراجع مثلا:

Octave Depont, Xavier Coppolani, Op.cit, p119

21 - E, Daumas, Mœurs et coutumes de l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara, Paris, Librairie Hachette et Cie, 1853, pp 186 - 187

22 - G, de Lombay, En Algérie. Alger, Oran, Tlemcen, Ernest Leroux Editeur, 1893, p 210

23 - Chevalier d'Arvieux, Op.cit, p 287

24 - سنعتمد في معالجة موضوع الحناء على دراسة نشرت عام 1934 ضمّنها صاحبها تفصيلات هامة:

Vonderheyden, «Le henné chez les musulmans de l'Afrique du Nord» Journal de la Société des Africanistes, 1934, tome 4, fascicule 1, p 41 et suite

25 - حمدان خوجة، مرجع سابق، ص 73

26 - لكن من خلال دراسة معمقة أنجزها دومينيك تابوتان توصّل إلى أن تعدد الزوجات في بلاد المغرب في الفترة الاستعمارية لم يعد ذا أهمية بالغة، حيث كان تأثيره ضعيفا إن لم نقل مهملا، وهذا الحكم ينطبق على الجزائر، ففي إحصاء أجري عام 1911م تبين أن 64 رجلا فقط من كل ألف رجل متزوج (64 ‰) عددوا الزواج. يراجع:

Dominique Tabutin, «La polygamie en Algérie», Population, №2, 1974, pp 313 – 314

27 - هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبي العيد دودو، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 1، 1973، ص 73

28 - Esterhazy, De la domination turque … Op.cit, p 281

29 - Ouddène Boughoufala, «Famille et généalogie à Médéa et à Miliana à l'époque ottomane, Etude d'après les archives ottomanes de l'Algérie», History Stadies, Volume 2/2, 2010, p153

30 - E, Quetin, Guide du voyageur en Algérie, Paris, L. Maison, Libraire-Editeur, 1848, p 134

31 - عيسى عطاشي، مرجع سابق، ص 83

32 - Haedo, «Topographie et histoire générale d'Alger», Revue Africaine, vol № 15, 1871, p 97

ولعل هايدو لاحظ هذا في جهة واحدة فقط لكنه عمم الحكم!!!

33 - Esterhazy, De la domination turque … Op.cit, pp 324 – 325

34 - أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، 1830 – 1855، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1989، ص 206. والقصيدة في الأصل تُغنى بالعامية لكن أحد الرحالة الألمان ترجمها إلى الألمانية، ثم نقلت إلى العربية الفصحى

35 - حين يشتد الحر يضع أهل الريف على رؤوسهم مظلات أسفلها دائري وأعلاها مخروطي، وقد صنعت من السعف وزينت بريش أسود. يراجع:
عيسى عطاشي، مرجع سابق، ص 68

36 - Chevalier d'Arvieux, Op.cit, pp 280 – 282

37 - حمدان خوجة، مرجع سابق، ص ص 70 – 71

38 - حمدان خوجة، نفسه، ص 70

39 - عيسى عطاشي، مرجع سابق، ص 71

40 - طبع كتابه عام 1882م

41 - Houdas, Ethnographie de l'Algérie, Paris, Maisonneuve Frères et Ch. Leclerc Editeurs, 1886, p 83

ربما يقصد خروجها لمساعدة زوجها في إدارة أعماله لكنه في الواقع **لم يوضح طبيعة هذه الدواعي الاقتصادية**، ولذلك يجد القارئ كثيرا من الغرابة وهو يطلع على آراء الأجانب فيما يتعلق بالمجتمع الإسلامي، فهل يعقل أن كل النساء الأمازيغيات كن في ذلك الوقت سافرات الوجوه؟ وهل كانت المرأة أصلا محتاجة إلى من يضربها حتى تنتبه إلى ضرورة المحافظة على عرضها؟ وحتى إن رأى هذا الكاتب أو غيره حالات من هذا النوع فهل يحق له تعميمها أم تبقى حالات شاذة تحفظ لكن لا يقاس عليها؟

التنافس الأوروبي العثماني في ظل الأزمات الدولية خلال القرن التاسع عشر

أ/ قفاف عبد الرحمان، جامعة عمار ثلجيي الاغواط

Abstract

The European-Ottoman rivalry in the so-called Eastern issue, which represented many international crises that shook the throne of the Ottoman Empire in the wake of the rivalry and competing of European powers, embodied their ambitions in successive strikes against an Ottoman entity that was characterized by weakness and regression. Starting with the French campaign in 1801that increased the greed of France and England in addition to the Greek crisis, which highlighted the weakness of the internal structure of the Ottoman Empire and dismantled its links and lost part of its sovereignty, which became apparent from the consequences of the consequences of the Crimean War 1853 of the imposition of European hegemony and the beginning of its control in Politics Which was clearly evident in the Balkan crisis of 1860-1873 and devoted to the Berlin Conference of 1878, which drew a new map of Europe at the expense of the Ottoman Empire, which remained in it only in accordance with the policy and serving the European interests.

مقدمة: تباينت العلاقات الأوروبية العثمانية على مر العصور و تحكمت بها المصالح والتحالفات فعلى مر أكثر من ثلاثة قرون استطاعت الدولة العثمانية فرض سيطرتها وهيمنتها على مناطق الاناظول بالرغم من منافسة روسيا كما استطاعت أن تهيمن على ملاحة المتوسط لفترة طويلة أمام كل التغيرات التي مست أوروبا و لم تكن هذه السيطرة من منطلق القوة دائما ففي الكثير من الأحيان فرضتها المصالح المشتركة و التي رسمت مسرحا للتنافس بين الدول الأوروبية و الدولة العثمانية خاصة في الفترة الأخيرة من تاريخها و التي ميزها نوع من الضعف و التقهقر فتجلى ذالك واضحا خلال القرن التاسع عشر و ما شهده من أزمات دولية تقاربت فيها الوجهات تارة و تضاربت فيها المصالح تارة أخرى و من هذا المنطلق حاولنا التركيز على ابرز الأزمات الدولية خلال القرن التاسع عشر و التي كانت بمثابة مسرحا للتنافس الأوروبي العثماني فما هي أهم الأزمات الدولية التي شهدها البحر المتوسط خلال القرن التاسع عشر وماهي ابرز المواقف الأوروبية و العثمانية التي صورت لنا التنافس العثماني الأوروبي.

ومحاولة منا في الوقوف عند إجابات لما سبق تطرقنا إلى هذه الدراسة التي جاءت كما يلي

المسالة الشرقية في القرن 19م:

يتطابق ما نسميه بالمسالة الشرقية مع جملة من الوقائع والتي تدور بين الفترة الممتدة ما مابين 1774م و 1923م وتتلخص السمتان الأساسيتان لهاته الوقائع في التمزق التدريجي للإمبراطورية العثمانية

وتنافس الدول العظمي بهدف فرض سيطرتها ونفوذها علي أوربا البلقانية [1]، فمنذ أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر بدأ الضعف والانحلال بنهش كيان الدولة العثمانية فأخذت دويلات البلقان التي خضعت لحكمها تتطلع إلي الخلاص من الحكم التركي والي الاستقلال كما تحركت مطامع الدول الأوروبية لتقيم ممتلكات الدولة العثمانية فيما بينها [2]. شغلت الدولة العثمانية وبصفة عامة أو المسالة الشرقية بصفة خاصة أذهان السياسة في أوربا وذلك راجع إلي الوضع الذي ألت إليه وبذلك بدؤوا التفكير في مصير هذه الدولة ومصير أملاكها، فتنافست الدول الأوروبية للظفر بأكبر قدر ممكن من تركة الدولة ، واستند التنافس أكثر مع بدايات القرن التاسع عشر [3].حيث اتفق الكتاب والسياسيون علي تعريف المسالة الشرقية علي أنها: هي مسالة النزاع القائم بين بعض الدول الأوروبية وبين الدولة العثمانية بشان البلاد الواقعة تحت سلطاتها.

فالمسالة الشرقية مدية بوجودها إلى عوامل ثلاثة تكاتفت لإبرازها علي النحو الذي ظهرت به ويمكن تلخيص تلك العوامل فيما يلي : ضعف الدولة العثمانية وظهور الحركات القومية في دويلات البلقان الخاضعة لحكم العثمانية وطمع الدول الأوروبية في ممتلكات الدولة العثمانية ومحاولتها استغلال الحركات القومية لخدمة مصالحها [4].

وبحلول 1875ثارت المسالة الشرقية وبدأت الاضطرابات في البلقان ضد الحكم العثماني [5].بثورة البوسنة والهرسك وكانت روسيا تؤيد تلك الثور ، إما ألمانيا فكانت تفضل سياسة التعاون مع غير عامة الدول لحل النزاع بالطرق السليمة [6].ومن بين أهم الدول الأوروبية الأكثر اهتماما لمصير الدولة العثمانية نجد كل من بريطانيا التي أرادت تامين طرق مواصلاتها إلي الشرق الأقصى والهند خصوصا وتامين تجارتها معها سواء عن طريق السويس أو البحر الأحمر بالإضافة إلي روسيا القيصرية التي أرادت أن نجد لها منفذا من البحر الأسود إلي المياه الدافئة بالبحر الأبيض المتوسط ، وذلك بالاستيلاء علي القسطنطينية ومضايق البوسفور والدردنيل والتي أرادت كذلك أن تكون لها النفوذ الأكبر في شبه جزيرة البلقان، ونجد أيضا فرنسا من بين الدول المتنافسة علي أملاك الدولة العثمانية ، حيث أخذت الأخيرة علي عاتقها ومنذ زمن مبكر حماية مصالح رعايا الدولة النصارى الكاثوليك في بلاد الشام بصفة عامة ،والمارونيين علي وجه الخصوص في لبنان والتي أرادت رعاية مصالحها في المنطقة نع استغلاء نفوذها في أملاك الدولة الأخرى في الساحل الشمالي الإفريقي وبالتحديد في تونس والجزائر وفيما عهدا الدول الثلاثة سالفة الذكر فان دول أخرى مثل النمسا وبروسيا اهتمت بمصير الدولة العثمانية التي بات من المتوقع هلاكها فسميت بالرجل المريض.[7]

-أزمات المسالة الشرقية في القرن التاسع عشر.

كان للمسالة الشرقية انعكاسات في مجرى التاريخ فأخذت العديد من الأزمات مشكلة بذلك خطرا علي وحدة وتماسك الدولة العثمانية بالإضافة إلئ أنها عرضت مبدأ توازن القوى الأوروبية للخطر ومن أهم هذه الأزمات ما نتطرق إليه فيما يلي :

حملة نابليون على مصر (1802 _1798م) :

_ تعتبر هذه الأزمة من ابرز إحداث المسالة الشرقية فهذه الأزمة ظهر مداي الضعف وانحطاطا الذي ألت إليه الدولة العثمانية من ناحية وإمكانية مهاجمتها في أرضها والتغلب عليها هذا ما فتح بالصراع بين الدول الأوروبية حول مصالح ممكنة لها في الدويلات العثمانية [8]، فبعد هذي المماليك في موقعة أسبابه، في مراد بك إلي الصعيد بينما في إبراهيم بك إلي بلاد الشام وبهذا أصارت مصر قطرا مفتوحا إمام الفرنسيين.

_ أهم أسباب الحملة الفرنسية علي مصر

كانت حملة نابليون علي مصر هذه الحملة التي قادتها فرنسا منافسة لبريطانيا علي المصالح الاقتصادية [9]وعلي الرغم من إن الاحتلال الفرنسي لمصر لم يدم طويلا وغير ناجح إلا انه كان حادثة هامة ومشحونة بنتائج كثيرة بالنسبة لمصر [10].واهم أسباب الحملة الفرنسية علي مصر في القرن التاسع عشر ميلادي نلخصها في النقاط التالية :

_ رغبة فرنسا في ضرب المصالح لبريطانيا بعد إن فشلت عسكريا في مهاجمة بريطانيا في أوربا،أو في مستعمراتها مثل الهند وشرق إفريقيا وغيرها .

_ أرادت فرنسا السيطرة علي مصر لخصوبة أرضها واستغلال محاصيلها الزراعية .

_ تأديب ممالك مصر ألاعتداءاتهم المتكررة علي التجار الفرنسيين في البحر الأبيض المتوسط

_ رغبة الحكومة الفرنسية في إبعاد نابليون عن فرنسا لزيادة شعبية نظرا للانتصارات التي حققها في أوربا والتي زادت من شعبية بين الفرنسيين والهدف الاسمي الذي أعلنت عنه فرنسا من خلال هذه الحملة هو حماية التجار الفرنسيين من الممالك وان الحملة ليست عملا عدائيا ضد السلطات العثمانية ولا ضد بريطانيا [11].

– سيرة الحملة :

وجهت فرنسا حملة نحو مصر من جنوب فرنسا باتجاه مصر فاحتلت جزيرة مالطا للتمويه علي المواجهة لحقيقة للحملة واصلت تحديها نحو مصر دون إن يستطيع الأسطول البريطاني تحديد وجهتها الحقيقية ووصل الأسطول الفرنسي إلي الإسكندرية واحتلها وأوصلت الحملة سيرها نحو القاهرة وحصل اشتباك بين الفرنسيين والممالك فيما عرف بمعركة الأهرامات قرب القاهرة والتي انتهت بانتصار الفرنسيين علي المماليك وهكذا تمت السيطرة الفرنسية علي مصر [12]،وفي 1798م أمرت الجمهورية الفرنسية بونابرت بالمسير إلي مصر لفتحها بغير إعلان حرب علي الدولة العثمانية وأوصلته بكتمان الأمر كي لاتصل إلي مصالح انجلترا فسعى في إحباطه مع إن القصد منه هو منع تجارة الانجليز من مصر إلي الهند والعكس كذلك ، فجهز جيش مؤلفا من 36إلف مقاتل وعشرة ألاف بحري وغيرها من الأسلحة والسفن الحربية وتوجه بونابرت بجيشه دون علم احد ووصل الإسكندرية ثم توجه نحو القاهرة ودارت بينه وبين المماليك معركة انتهت لصالح فرنسا [13].

كانت بريطانيا تراقب عن كتب فرنسا وتحركاتها في البحر الأبيض المتوسط لضمان مصالحها وبهذا اكتشفت الأسطول الفرنسي في طريق عودته إلي فرنسا، فحاول القائد الفرنسي وتوجه إلي سيناء أبي قير بالغرب من الاسكندرية، وهناك أدوات معركة بمثابة ضربة قاسية تلقاها نابليون[14].سعى الفرنسيون القرب من السكان المحليين من خلال منشور وزعه نابليون علي الشعب المصري بين فيه الصداقة التي تربط الفرنسيين بالسلطات العثمانية وان مجيئهم لمصر إنما هو الإنقاذ المصرين من ظلم المماليك ، ولكن الإجراءات الإنسية التي اتخذتها فرنسا وتحصيلها للضرائب بالطرق القمعية كشف الوجه الحقيقي للحملة الفرنسية علي مصر فقامت ثورة في القاهرة ضد الفرنسيين إلا انه قضو عليها [15].واجه الفرنسيون في مصر إخطار عديدة منها :

_ وجود الأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط وقطع الإمدادات من فرنسا.

_ الخوف من ثورة المماليك الهاربين إلى الصعيد المصري.

_ التخوف من مهاجمة الدولة العثمانية لمصر لطرد الفرنسيين وعلي اثر ذلك سار نابليون بحملة علي بلاد الشام لقطع الطريق علي الجيش العثماني [16].

نتائج الحملة الفرنسية علي مصر:

لم تحقق تلك الحملة الأهداف العسكرية والاستراتيجية المرجوة لكنها أفرزت مجموعة من النتائج منها :

_ جعلت من مصر محط اهتمام الأوروبيين.

_ إظهار مدى أهمية مصر كجسر يربط الشرق والغرب.

_ إضعاف قوة المماليك في مصر وظهور محمد علي باشا.

_ المساهمة في اهتمام الأوروبيين في مصر بالأخص بريطانيا التي دعمت الدولة العثمانية ضد الأطماع الروسية وضد سياسة محمد علي التوسعية.[17]

الثورة اليونانية

قام أهل اليونان من غالبية نصارى الارثودوكس بثورة ضد الدولة العثمانية بتحريض من روسيا والنمسا فكلف السلطان محمود الثاني محمد علي باشا والي مصر بإخضاع اليونان واصدر السلطان أسرا يعين محمد علي باشا واليا علي شبه جزيرة المروة من بلاد اليونان وجزيرة كريت حيث تعتبر هاتان المنطقتان مركز الثورة اليونانية [18].

وسارت جيوش محمد علي باشا يحدا من الإسكندرية بقيادة ابنه إبراهيم باشا وانطلق إلي شبه جزيرة مورة وسيطر عليها واستطاع إبراهيم باشا أن يحرر النصر لفتح مدينة نافارين عام 1240هـ _ 1840م وان يدخل العثمانيون أسيا عام (1826_1241هـ) ثم تدخلت الدول الأوروبية بحجة حماية اليونان بشكل ظاهر وحقد صليبي واضح ، وعقد صلح مع الدولة العثمانية عام 1242هـ-1826م غير أن القتال مالبث أن تجدد بسبب رفض الدولة العثمانية تدخل هذه الدول في شؤونها الداخلية [19] كما طلبت الدول الأوروبية من إبراهيم باشا التوقف عن القتال لكنه قابل طلبها بالرفض فاجتمعت أساطيل الدول

الأوروبية في ميناء نافرين وقضت علي الأسطول العثماني والمصري معا فأمر محمد علي انه إبراهيم باشا بالانسحاب من اليونان بجنده ورفضت الدولة كل قرارات الدول الأجنبية والخاصة بمنح اليونان استقلاله الذاتي ثم الاستقلال التام [20] وقد واجهت الدولة العثمانية تحديا كبيرا من الدول الأجنبية خاصة روسيا التي أعلنت الحرب عليها واحتلت البغدان والافلاق وعينت حكما من قبلها واحتلت قارص واد رنة من الأناضول وكانت الدول الأوروبية تخشي من روسيا أن تميل لاستانبول لما في ذالك من مصالحها الخاصة فتصدت لروسيا ووقفت في وجهها وعقدت معاهدة أدرنة عام 1829م ومن أهم موادها إعادة الافلاق والبغدان والبلغار والبلقان وقارص وارضروم إلى الدولة العثمانية ويعد نهر بروث الحد الفاصل بين الدولتين وبهذا تكون الملاحة في نهر الدانوب من حق الدولتين بالإضافة الحرية الملاحة الروسية في البحر الأسود وعودة الامتيازات القنصلية [21].

_ كانت ثورة اليونان التي نشبت في عام 1821م في شبه جزيرة المورة قد اتخذت لها طابع ديني وقومي ومن بين أهم الأسباب هذه الثورة نذكر :

_ رغبة مسيحي اليونان في التحرر ولاستقلال من الحكم العثماني والإسلامي

_ الاستياء من ظلم وقسوة الحكام اليونانيين ومن الضرائب الباطنية المفروضة عليهم والجباية القاسية

_ ازدياد الوعي القومي لدى اليونانيين أدى الى ظهور جمعيات قومية ساعدت في انتشار الوعي والثقافة بين اليونانيين وتأثرهم بالثورة الفرنسية بالإضافة إلي دعم روسيا المادي والمعنوي لليونانيين وتحريضهم للثورة ضد الدولة العثمانية [22].

_ سير الثورة :

استغل اليونانيون ضعف الدولة العثمانية فثاروا ضد حكمها وحقق الثوار مكاسب سرية في بداية الثورة بحيث امتدت ثورتهم إلى معظم الجزر اليونانية [23].وبسبب ضعف الدولة العثمانية من الناحية العسكرية طلب السلطان العثماني محمود الثاني من والي محمد علي المساعدة الإخماد الثورة فاستجاب هذه الأخيرة له مقابل منحه جزيرة كريت ، وجهز محمد علي جيشه بقيادة ابنه إبراهيم متوجهين ألانها ثورة اليونان وبحلول 1824نزلت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا في الجزر اليونانية وتقدمت بسرعة داخل اليونان مستخدمة أساليب قمعية لإخماد الثورة ونجح في ذلك.

مواقف الدول الأوروبية من ثورة اليونان:

1- بريطانيا : أبدوا تعاطفهم مع اليونانيين وأيدوا المطالب اليونانية ، إلا إن بريطانيا تخوفت من إن تستغل ، والثورة التدخل في شؤون الدولة العثمانية فعلى اثر ذلك عملت بريطانيا علي سحب القوات المصرية من اليونان .

2- روسيا : أيدت روسيا الثورة اليونانية وقدمت المساعدات العسكرية والمادية لليونانيين خلال الثورة ، وبعد إخمادها علي يد إبراهيم باشا قامت روسيا بإعلان الحرب علي الدولة العثمانية وحليفها محمد علي [24].

3- فرنسا : كان موقفها غامض من الثورة اليونانية وكانت تخشي من روسيا أن تستغل الثورة لتحقيق مطامعها في اليونان .

وعلي أثر ذلك تعاونت كل من روسيا وفرنسا من أجل تهدئة الأوضاع وإخراج قوات محمد علي من اليونان وفي 1827م أنذرت الدول الثلاث السلطات العثماني بسحب قواته من اليونان لكنه قابلهم بالفرض ، وفشلت بريطانيا في إقناع محمد علي على سحب قواته من اليونان ،وبذلك هاجمت الدول الأوروبية الأسطول العثماني والمصري ووقعت بينهما معركة نفارين و البحرية بين الأسطول العثماني والمصر بعد ذلك وافق محمد علي على سحب قوات من اليونان وبذلك انتهت الحرب بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية باتفاقية عرفت باتفاقية أدرنة عام 1829م ونصت علي مايلي :

_ اعتراف السلطات العثماني بالاستقلال الذاتي لليونان.

_سحب القوات العثمانية والمصرية من اليونان .

_عدم تدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة العثمانية .

نتائج وأثار ثورة اليونان :

_ أظهرت الثورة مدى الضعف والانحطاط الذي ألت إليه العثمانية التي خسرت سلطاتها الفعلية علي اليونان.

_ خسارة محمد علي الأسطول البحري وضياع الأموال ومقتل عدد كبير من جنوده ومن جهة أخرى أظهرت الثورة قوة محمد علي مقابل ضعف الدولة

_ ساهمت الثورة في قيام محمد علي بحملة عسكرية علي بلاد الشام وتوسع مناطق نفوذه علي حساب الدولة العثمانية .

حرب القرم 1853_1856م .

سميت بهذا الاسم لوقوعها في شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود حيث نشبت هذه الحرب بين الدولة العثمانية بمساعدة فرنسا وبريطانيا ضد روسيا حيث تعتبر حرب القرم من أهم أزمات المسالة الشرقية بحيث بلغت المسالة الشرقية ذروتها في حرب القرم إضافة إلي ذلك إن الصراع في هذه الحرب أصبح صراع أوربي ووصل إلي حد المواجهة العسكرية بين الدول الأوروبية خاصة بين روسيا وبريطانيا [25].

حيث أن المنافسات كانت قائمة بين الارثودكس والكاثوليك بشان التملك ولإقامة شعائر دينهم في الكنائس المعتبرة عندهم في مدينة اورشيلم معهد الديانة المسيحية حيث كانت فرنسا حائزة علي امتيازاتها لحماية فسوس الكاثوليك فسعت روسيا لتجريد الكاثوليك من هذه الامتياز ومنحه للارثودكس لتمكن من بسط سياستها ونشر نفوذها بين رعايا الدولة العثمانية [26]فشكلت الدولة العثمانية لجنة من رجال الكنائس من

مختلف المذاهب فاقروا بحق فرنسا فقررت روسيا الحرب ومحاولة إعادة معاهدة خنكارسلكسي لكن السلطان رفض ذلك فحاولت روسيا الاستعانة بانجلترا وفرنسا لكنهما لم توافقا علي العرض الروسي بالإضافة إلي رفض السلطان العثماني حق حماية روسيا للنصارى المقيمين في الدولة العثمانية وأعاد السلطان رشيد باشا للصدارة العظمى وهو من المعادين لروسيا [27].

كما حلت انجلترا محل روسيا في النفوذ لدى الباب العالي وصارت وحدها صاحبة الكلمة المسموعة في الأزمة الأخيرة عند رجال الدولة و توصلت إلي إبطال معاهدة خنكارسلكسي مما جعل روسيا تقوم بإرسال جيوشها إلي قلب الدولة العثمانية التي حلت انجلترا محلها [28]في حين هددت روسيا باحتلال الافلاق والبغدان وتحركت الجيوش الروسية وتدخلت الدول الأوروبية ، النمسا بروسيا وانجلترا وفرنسا غير إن وساطة هاته الدول باءت بالفشل [29]ولإيجاد ذريعة لايقاع المشاكل بين روسيا والدولة العثمانية أوغر القيصر "نيفو " الأول إلي "دانيلو" الذي كان حاكما علي الجبل الأسود وتابعا للدولة العثمانية بان يرفع راية العصيان في وجه الدولة وفعلا حرص هذا الأخير للقيام في وجه الدولة العثمانية فلبوا نداءه وثاروا جميعا [30].أما فرنسا فكانت منشغلة بحروبها في الثورة تم الحروب النابليونية لمدة 22سنة تقريبا وبهذا ضعفت الحكومات الملوكية وبعد إن عين نابليون الثالث [31].رئيسا للجمهورية الفرنسية الثانية عين الباب العالي لجنة من عدة أعضاء مختلفي المذهب لفصلها بمقتضي المعاهدات القديمة وبعد عدة اجتماعات للجنة قررت أولوية الكاثوليك في امتلاك عدة كنائس لكن روسيا عرضت بشدة ذلك القرار من الاتفاقية المؤرخة في 06فبراير 1852وهددت الباب العالي بالحرب[32].فاتخذت روسيا ضد الخلافة ذريعة لتنفيذ وصية بطرس الأكبر وأرسلت منشيكوف من سان بطرسبورج الي الاستانة بصفة سفير غير اعتيادي للمخابرة في مسألة الأماكن المقدسة ظاهرا، حيث كان القصد من إرساله إيجاد أسباب الشقاق للتوصل لإعلان الحروب بحجة مقبولة لدى الدول [33].ومن جهة أخرى خابر نابليون الثالث حكومة الملكة فيكتوريا[34].ضرورة الاتحاد مع الباب العالي لتنفيذ العهود السابقة المتعلقة بالاماكن المقدسة.[35]

وفي أواخر أكتوبر1853أرسلت كل من انجلترا وفرنسا قطعا من أسطولها إلي مياه الدردنيل لتدعيم موقف تركيا ولحماية الأستانة لكن هذا العمل لم يحل بين الأسطول الروسي وبين القضاء علي الأسطول التركي في البحر الأسود فثارت كل من انجلترا وفرنسا وأعلنت الحرب علي روسيا في مارس 1854 و بدأ التفكير في القيام بعمل عسكري لوقف اعتداء روسيا علي تركيا في حين قد استولت القوات الروسية علي الافلاق والبغدان (مولدافيا وولاشيا) فقد خشيت روسيا إن يؤدي بقاؤها فيها إلي إغضاب النمسا ودخولها إلي مساندة فرنسا وانجلترا وباشرت بإخراج قواتها منها فعملت النمسا علي إرسال جزء من قواتها للمحافظة عليها [36].

وكان من الممكن أن يؤدي أسحاب روسيا من الولايتين إلي انتهاء الحرب لكن انجلترا وفرنسا وجدتا أن انتهاء الحرب علي هذه الحال ودون القضاء علي التهديد الروسي بصفة نهائية فلابد إذا من استمرار الحرب.

أما عن المفاوضات التي دارت بينها النمسا وفرنسا وفي ذلك الوقت فحددت الأهداف المقصودة من هذه الحرب في النقاط التالية :

أولا : وضع ضمان أوربي لولايتي الافلاق والبعدان ، محل حماية روسيا لهما

ثانيا : تقرير حرية الملاحة في نهر الدانوب

ثالثا : إعادة النظر في اتفاقية المضايق 1841 لصالح توازن القوى في أوربا

رابعا : تنازل روسيا عن ادعاءاتها حق حماية الرعايا المسحيين في الدولة العثمانية [37].

بحيث وافق الروس علي النقاط المذكرة سابقا باستثناء النقطة الثالثة فيما يخص إعادة النظر اتفاقية المضايق 1841 لصالح توان القوى في أوربا ومن أجل هذه أقاست الحرب إذا رأى الحلفاء تفوق قوة روسيا البحرية في البحر الأسود له أثر دون ريب علي تركيا وهذا بدوره سيؤثر علي التوازن الدولي في أوربا[38].

حيث اختارت كل انجلترا وفرنسا وتركيا ميناء سباستيول الروسي ليكون مركزا للعمليات الحربية ضد روسيا للقضاء علي قوتها البحرية[39].

_ اشترطت فرنسا لمواصلة الحرب في ذلك الوقت دخول ، النمسا إلي جانبهم في الحرب فتهديد النمسا لروسيا حربيا سيجبرها علي وضع قوات حربية كبيرة علي حدودها مما سيؤثر تأثير خطرا على الحرب في شبه جزيرة القرم [40]

ومع إن النمسا كانت تميل إلي الضغط علي روسيا لقبول النقاط الأربع ، وبذلك رأت النمسا عقد معاهدة مع انجلترا وفرنسا تنص علي انه إذا لم توافق روسيا علي النقاط الأربع وتوقيع الصلح مع الحلفاء قبل مدة معينة فعلى الدول الحليفة التشاور فيما بينها لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيق ماتصبو إليه ، وما إن وقعت النمسا هذه المعاهدة أعلنت روسيا في 29ديسمبر1854م قبولها للنقاط الأربع المشار إليها[41].

كما حدث خلاف عظيم بين روسيا وفرنسا بشاه الأماكن المقدسة في الشام وذلك أن لفرنسا بمقتضي معاهدات قديمة وحقوق ثانية حماية معنوية في الكاثوليك في الشرق وقد توصلت بهذه الحماية إلي جعل مفاتيح كنائس "اورشليم " بأيدي الكاثوليكين

فإرادة روسيا دفع كلمة الدين الارثوذكس و تسليم مفاتيح الكنائس باووشيلم إلي القسيس الارثودكسي ليزداد نفوذها في الشرق مما يخالف مصالح فرنسا في الشرق ويتضارب مع مصالحها. وبعد تقرير إعطاء حق فرنسا حماية الكاثوليك ومنحهم عدة كنائس وأديرة قررت روسيا مهاجمة الدولة العثمانية لأنها أحلت فرنسا محلها [42].

واستمرت المعركة الحربية بين روسيا والدولة العثمانية ولم تجد محاولات الصلح [43]و.كان موقف فرنسا وانجلترا ضد روسيا خوفا علي مصالحها لأحبا للمسلمين [44].و لكي لا تتمكن الأخيرة من ضم إي جزء من الدولة العثمانية إليها واستمرت روسيا في حربها الا ان إن المساعدات والإمدادات التي وصلت للعثمانية جعلت روسيا تنسحب من المناطق التي احتلتها ونقلت الدول المتحالفة الحرب إلي ارض روسيا وأخيرا تم عقد معاهدة باريس عام 1272هـ / 1856م [45]حيث تم عقد مؤتمر باريس في 25فبراير 1856وهو مؤتمر

الصلح وتم عقده في باريس لتوقيع الشروط التي اتفق عليها فيما ينص أولا احترام استقلال تركيا وعدم المساس بممتلكاتها وتعتبر معاهدة باريس أول معاهدة من نوعها توقع عليها الدولة العثمانية لا تنقص من ممتلكاتها أو تعمل علي إضعاف قدرتها الدفاعية بل أعطتها هذه العاهدة مركزا اكبر من ذي قبل وبها ضمنت وقوف الدول الأوروبية إلي جانبها ضد روسيا واعترفت باستقلالها في إدارة شؤونها الداخلية.

ثانيا : إعلان حيادية البحر الأسود وهذه الحيادية كانت في الواقع حقيقة مسلم بها في ذلك الوقت فلم يعد لروسيا قوة بحرية في البحر الأسود تجعلها تعارض بشكل جدي في موضوع جدي في موضوع الحياد [46].

وبتسليم روسيا بهذا المبدأ لم تعد تهتم كثيرا بالشؤون الأوروبية وذلك لفترة خمسة عشرة عاما وأهملتها إهمالا يكاد يكون تاما وذلك لشعورها بالحرارة من موقف الدولتين الكبيرتين فرنسا وانجلترا منها.

ثالثا : تعتمد الدولة العثمانية بتحسين أحوال رعاياها المسيحيين في البلقان علي إلا تتدخل اية دولة خارجية في شؤونها الداخلية.

رابعا : الاعتراف بحرية الملاحة في نهر الدانوب وكان هذا نجاحا للنمسا فاستطاعت إبعاد الخطر الروسي عن مصب نهر الدانوب لكنها بهذا خسرت صداقة روسيا للأبد.

خامسا : الاعتراف بحق الدولة العثمانية في إغلاق مضيقي البوسفور والدردنيل في وجه المراكز الحربية لسائر الدول.

سادسا : تعديل الحدود بين روسيا وتركيا

سابعا: في حالة حدوث خلاف بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول يجب قبول مبدأ التحكيم لفض الخلاف قبل إن يستفحل خطره ويؤدي إلي نشوب حرب أوروبية[47]

وان تبقى الافلاق والبغدان تحت حماية الدولة العثمانية [48].

أسباب حرب القرم :

اختلف المؤرخون حول أسباب حرب القرم فمنهم من يرى انها ترجع للخلافات الدينية مابين فرنسا حول الأماكن المقدسة في فلسطين ، في حين يرى البعض إلاإن النزاع الديني المذكور ماهو إلا سبب مباشر للحرب،إما السبب الغير المباشر يمكن في المصالح الاقتصادية (تجارة) السياسية والإستراتيجية المتضاربة بين الدول الأوروبية ، فهذه لاتقل أهمية عن الأسباب الدينية حيث اعتقدت روسيا إن الوقت قد حان لتقسيم الدولة العثمانية خصوصا بعدما أخمدت الثورات في أوربا وذلك لتامين مصالحها غير إن ذلك كان يتعارض مع سياسة الدول الأوروبية[49].لكن السبب الحقيقي لهذه الحرب ما هو إلا نتاج النزاعات الدينية والمصالح الاقتصادية التي ادت إلي حدوث حرب القرم [50].

-الأسباب السياسية والدينية :

_ الأسباب السياسية :

روسيا : كانت تخفي مطامعها السياسية تحت عطاء الدين ، وذلك كخطة أولى للسيطرة علي المضايق من خلال الامتيازات التي حصلت عليها في معاهدة كوجك قينارجي، فالحصول على القدس وماجاورها ،

سيعيق بريطانيا من الوصول للمستعمرات الهندية [51].ولا يمكنها تحقيق كل ذلك إلا بقضائها علي الدولة العثمانية ومن ثمة الحصول علي المكاسب الإقليمية المترتبة علي هذا الانهيار بالإضافة إلى الكره الشديد الذي يحمله نيكولا الأول لسياسة فرنسا ، بسبب أفكارها الثورية حيث رفض الاعتراف بنابليون الثالث كإمبراطور على فرنسا كما حرص علي عدم وصول تلك الأفكار الثورية لبلاده [52].

بريطانيا : كانت تسعى إلي حماية طريق الهند ومن ثم السيطرة علي البحر الأحمر الذي يفصل البحر المتوسط علي المحيط الهندي [53]فكانت هذه الطرق بمثابة شريان الحياة لبريطانيا .

فرنسا : فقدت الكثير من نفوذها في المشرق خاصة بعد الأزمة السورية فحاولت استرجاعه هيمنتها العالمية التي فقدتها اثر حروب نابليون الأول (1815 _1800م).

النمسا : كانت تتطلع إلي كسب نفوذها في البلقان والبحر الأسود والممرات لذلك عملت علي الدفاع عن مصالحها ضد الهيمنة الروسية بسبب ماحصلت عليه من خلال معاهدة كوجك فينارجي[54].فالكل بدا متخوفا من التوسع الروسي فعملت تلك الدول علي حماية الدولة العثمانية .

الدولة العثمانية : كانت متخوفة من روسيا لانها كانت مستهدفة ، ولكنها ليس بالدرجة التي كانت عليه الدول الأوروبية لأنها كانت مدركة تماما إن الخطر الروسي لايمسها هي لوحدها ، فالكل أصبح في كفة واحدة لذا سوف نجدها أنها تتعامل مع كل طرف علي حدا فقد كانت محتاجة لضبط أمورها .

-الأسباب الدينية : تعتبر الأزمة البلقانية من أهم الأسباب الغير مباشرة لتفجير حرب القرم فبسببها زاد الصراع الروسي العثماني ، حيث مثلث مسالة الدين السبب الجوهري في إثارة الصراع بينهم [55].وذلك بتأليب روسيا لسكان جبل الأسود ضدا الدولة العثمانية، بالفعل نجحت روسيا في ذلك فقامت فوضي عارمة ، فما كان علي الدولة العثمانية ، سوى إرسال جيش بقيادة عمر باشا الذي الحق بهم هزيمة نكراء ، فقد أحدثت هذه الثورة هلعا كبيرا في أوربا مما أدى إلي تدخل النمسا ، حيث فاقترحت علي الباب العالي بالاعتدال عن انتقامه وذلك بالعفو عن الثوار [56]

لكي لا تترك الدولة العثمانية حجة لروسيا بخلق مشاكل جديدة في المنطقة ، فكل هذا زاد من حقد القيصر الروسي علي الدولة العثمانية [57].

-الأسبابالاقتصادية :

روسيا : كانت تجارة القمح تمثل أهم نشاط تجاري لها حيث كانت تتوفر علي إنتاج وفير يتم تصدير جزء كبير منه لبريطانيا مما أدى إلي تطور ونمو تجارتها، غير إن هناك عوامل أعاقت تجارتها من أهمها دخول الدولة العثمانية بولايتها الدانوبتين (الافلاق والبغدان رومانيا حاليا) السوق الدولية لتجارة الحبوب كمنافس لروسيا فبدا التحول التدريجي لبريطانيا من الأسواق الروسي إلي الأسواق العثمانية هذا ما أزعج روسيا كثيرا وزاد من حقدها عليها خاصة إذا علمنا إن طريق البحر المتوسط لبريطانيا من الأسواق العثمانية إمام المنتجات البريطانية وعليه أصبحت الدولة العثمانية تحتل الصدارة لإستردادها المواد الخام الصناعية من بريطانيا [58].

كما يرى بعض المؤرخين إن هذا التحول التجاري لبريطانيا لدواعي سياسة اقتصادية انه كان المحافظة علي الدولة العثمانية والدليل علي ذلك فقبيل حرب القرم بقليل سنة 1265هـ/ 1849م،عبر وزير خارجية بريطانيا عبر المجلس العموم للدفاع والوقوف إلي جانب الدولة العثمانية ضد روسيا حيث راح يقول :("...إذا كان استقلال تركيا من الناحية السياسية ذات أهمية كبيرة لنا فانه لاتقل عن أهمية بريطانيا من الناحية التجارية..") كما قال الشعراء البريطانيين("...إن انهيار تركيا قد يكون مؤثرا للقضاء علي التجارة البريطانية ...")[59].

هذا أيضا ينطبق علي النمسا التي كانت تهتم بتجارتها مع الدولة العثمانية في استراد القمح .وأصبحت روسيا تعرقل هذه التجارة في نهر الدانوب إذ بعد هذا الأخير الشريان الرئيسي للتجارة النمساوية، لذا كان لزاما عليها إبعاد روسيا من هذا الشريان الحيوي[60]

السبب المباشر لاندلاع حرب القرم :

لقد شكلت الاعتبارات الاقتصادية والإستراتيجية الأرضية الخصبة للنزاعات بين الدول الكبرى والدولة العثمانية ، فكان بإمكان هذان الاعتباران تفجير حرب كبرى لكن في حقيقة الأمر الذي فجر الحرب كان سببه تافها في نظر الدولة العثمانية [61].ولكنها في حقيقة الأمر قدمته هي بيدها إلي الدول الأوروبية[62].علي طبق من ذهب وذلك لضربها في الصميم ونعني بذلك منطقة الأماكن المقدسة في فلسطين بكنيسة القيامة الموجودة بيت المقدس، التي كانت ملكا مشتركا بين جميع الطوائف النصرانية ، ففي صيف عام 1847/1236م فقدت في كنيسة المهد بيت لحم نجمة مزخرفة بالنقوش الفضية فذهب الكاثوليك يتهمون الارثوذكس بسرقتها فراحت فرنسا تحتج عن ذلك طالبة من الباب العالي بان يفضل في هذا الخلاف بمقتض الحقوق والمعاهدات ، فعين الباب العالي لجنة تحقيق مكونة من نصارى الكاثوليك والارثودكس لكي تحقق في هذا النزاع لكنها لم تصل إلي إيه نتيجة [63].

وفي سنة 1237هـ/1848م تم انتخاب نابليون الثالث كرئيس للجمهورية الفرنسية الثانية، حيث عمل علي إعادة إحياء الإمبراطورية مقتربا من الحزب الكاثوليكي لكي يعمل علي تأييده في الحكم ، كما اتخذ من مسالة الأراضي المقدسة مسالة كرامة للرجوع فيها ، ففي سنة 1239هـ/1850م قدمت الحكومة الفرنسية إلى الباب العالي مذكرة تبين فيها مدى تمسك فرنسا بهذه الامتيازات وفق معاهدة 1135هـ/ 1740م وان هذه الامتيازات لا تلغيها امتيازات منحت لغير فرنسا بعد هذا التاريخ لكن الدولة العثمانية كانت مدركة تماما بان القضية ليست مجرد حقوق ولكنها قضية سياسية [64].

مما اثأر غضب روسيا التي راحت تطالب هي الأخرى بحقوقها ،إذا كانت هذه الأخيرة ذريعة مناسبة لخلق اضطرابات بينها وبين الدولة العثمانية [65].فقد حاول الباب العالي لتماطل وعدم الحسم في الأمر لمصلحة فريق أخرى خاصة إذا علمنا إن كل دولة كانت لها القدرة علي استعمال القوة لغرض احترام مواقفها وتدعيم نفوذها ومكانتها ، وعليه انتهي عام 1241هـ/1852م ولم تصل الدولة العثمانية إلي حل نهائي للقضية [66].

نتائج حرب القرم:

من أهم نتائج حرب القرم هو إصدار السلطان عبد المجيد في 18فبراير 1856م الخط الهمايوني وذلك بعد انتصار الدولة العثمانية وحلفاءها انجلترا وفرنسا وايطاليا وعلي روسيا في حرب القرم (_1853 1856م)وذلك قبل أسبوع من انعقاد مؤتمر باريس جاء القانون هدية من جانب الدولة العثمانية للدول الأوروبية التي وفقت الي جانبها في هذه الحربية ضد الإطماع الروسية [67].إن أكثر موارد في الخط الشريف لهمايون هذا الخط يتعلق بحقوق الطوائف غير الإسلامية ومصالحها ، وتأكيد للوعود والمبادئ التي نص علي معاملة جميع تبعة (رعايا) الدولة معاملة متساوية مهما كانت مذاهبهم وأديانهم والإبقاء علي كافة الامتيازات الممنوحة للطوائف المسيحية وكافة الملل غير الإسلامية و قبول جميع رعايا السلطان في الوظائف والمناصب الحكومية والمدارس الملكية والعسكرية دون فرق ولا تميز وسمح للطوائف بانشاء مدارس الملكية وتعليم العلوم والفنون والصناعة وضمن حرية هذه المدارس التعليمية ، ومن القضايا المهمة التي نص عليها نذكر إنشاء محاكم مختلطة للفصل في القضايا بين المسلمين وغير المسلمين ماعدا الدعاوى الخاصة بالأحوال الشخصية والإرث فتحال علي محاكم الشرعية بالنسبة للمسلمين والي المحاكم الطائفية بالنسبة لغير المسلمين وأمر بإصلاح السجون ووضع نظاما للشرطة وحرم التعذيب ، وأوحى بتكوين مجالس للولايات، منع أيضا الموظفين إن يشتركوا في التزام الضرائب وأكد حق الدولة في تجنيد غير المسلمين، مع إعطائهم فرصة دفع البدل العسكرية، كما نص أيضا علي وضع ميزانية مفضلة للدولة ومعاقبة الرشوة والاختلاس علي إنشاء البنوك وإصلاح النقد لتوفير رؤوس أموال تستخدم في تنمية الزراعة والصناعة وكان اخطر بند في المنشور ذلك الذي ينص علي السماح للأجانب بالتملك العقاري في الدول العثمانية وفق شروط معينة وحتم بالقول إن تحقيق هذه الإغراض يكون عن طريق الانتفاع بعلوم أوربة وفنونها ورؤوس أموالها[68].

كما صدرت قوانين مكملة لتنفيذ موارد في المنشور الهمايوني كان أهمها قانون الأراضي عام 1858م الذي هدف إلي تطوير الريف العثماني ليكون في مثال الريف الفرنسي،وإلا إن هذا القانون كانت له نتائج مدمرة اتنه اسيئ تطبيقه ولم ينفذ عمليا إلا علي نطاق ضيق فقد مكن هذا القانون الأغنياء وأصحاب النفوذ من الاستيلاء والاستحواذ علي مساحات واسعة من لأراضي بطرق ملتوية ، كالرشوة والتحايل، بينما كان الفلاح عاجزا علي توفير المال اللازم الذي يدفعه كقيمة لتصرفه بالأرض و وهذا الأمر إن دل علي شي،فإنما يدل إن رجال الإصلاح كانوا غير متبصرين بقوانين إصلاح الأرض مستلهمين بالنظم الفرنسية فقط دون فهم وإدراك للوضع القائم ونتائجه المحتملة [69].

-نجاح بريطانيا في الحفاظ علي ميزان القوى في القارة الأوروبية ومنع تقسيم الدولة العثمانية والوقوف في وجه الإطماع الروسية

-نجاح فرنسا في المحافظة علي حقها في حماية المسيحيين في الشرق وامتلاك مفاتيح الأماكن المقدسة.

-أظهرت حرب القرم مدى ضعف الدولة العثمانية.

-موقف ورد فعل الدول الأوروبية من الحرب :

فرنسا : رأت انه من واجبها التدخل في الحرب والوقوف إلي جانب الدولة العثمانية ضد روسيا وتمثل موقفها بحسب رأي زعيمها نابليون لإرضاء الحزب الكاثوليك لانه دعمه في حكمه فعلى اثر ذلك قامت الأساطير البريطانية والفرنسية باجتياز مضيق الدردنيل و اعلنت عن وقوفها بجانب الدولة العثمانية في الحرب.

بريطانيا :رأت إن التوسع الروسي يهدد مصالحها في الدولة العثمانية ويهدد الطريق إلي الهند فقد كان موقف رئيس الوزراء البريطاني والصحافة مؤيد لتدخل بريطانيا ضد روسيا والوقوف إلي جانب الدولة العثمانية.

النمسا : كان موقفها من حرب القرم حيادي ولم تتدخل ولكنها كانت تراقب الإحداث[70].

كما إن النمسا لم تكن ترغب في مساعدة روسيا لكنها من جهة أخرى لاترغب أيضا في مساعدة الدول العربية بل ترغب في ان يكون لها مكان بينهم وتبدل قصار جهدها في عدم امتداد أملاك روسيا وان تجعل لنفسها سيادة علي جميع البلاد الواقعة علي ضفاف الدردنيل وبهذا تحولت حرب الفرم إلي حرب أوروبية .وكان ضمان حياد النمسا والمجر من أهم أولويات السياسة الروسية [71].

كما إن دخول بريطانيا وفرنسا الحرب إلي جانب الدولة العثمانية كان يهدف لمنع روسيا تنفيذ سياستها الراسية لاحتلال الدولة العثمانية وكانت النمسا تحاول التوسط والضغط علي روسيا والانسحاب من المناطق التي وقعت تحت سلطتها من الدولة العثمانية إلا إن مساعيها باءت بالفشل وبهذا استمر القتال بين روسيا والحلفاء حتى 1855وبعد تدمير أسطولها وافقت روسيا علي إنهاء الحرب ويرجع قرارها هذا إلي سبب رئيس :

- تكبد روسيا خسائر بشرية ومالية كبيرة
- موت القيصر نيقولا الاول .

_ الثورة البلقانية 1875:

عقب انتهاء حرب القرم ازدادت انتفاضات شعوب البلقان للتخلص من الحكم العثماني رغم قيام الدولة العثمانية بمجموعة من الإصلاحات في فترة مابين 1273-1288هـ/1871- 1856م علي يد كبار المصلحين العثمانية من أهمهم مدحت باشا.الذي قام بانجاز الكثير من المشاريع الإنمائية في بلغاريا [72].إلا أن هذا لم يمنع من حدوث ثورات بسبب تداخل عوامل أخرى كعامل الدين وسياسة التعسف والتسلط العثماني إثناء جباية الضرائب.

أما السبب الرئيسي يتمثل في نمو الوعي القومي بتأييد من روسيا خاصة بعد حصول ضريبيا علي استقلالها وعلي هذا الأساس نشأت في البلقان تيارات قومية مناهضة للحكم العثماني تتمثل في الجامعة الصربية والسلافية فلقد أيدت الجامعة السلافية[73]. من طرف النمسا خاصة بعد انهزمنا علي يد بروسيا 1866/1283م استعدت مع روسيا للمطالبة بحق شعوب البلقان في الإصلاحات .

لكن التأييد الكبير كان من طرف روسيا وقد بدأت اولى الاضطرابات البلقانية في البوسنة والهرسك سنة 1875ضد الحكم العثماني [74].بوجود عاملين :

العامل الأول :

المسالة الزراعية :

في السبعينات القرن 13هـ _ 19م كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية متردية بسبب تعرض الفلاحين متاجرين للضرائب الإقطاعيين المسحيين الذين اعتنقوا الإسلام الاسترجاع أراضيهم إضافة إلي زيادة الرسوم والضرائب مماأدى إلي سوء المحصول لسنة 1290 هـ _ 1873م وحدوث المجاعة 1291هـ _ 1874م مما أدى إلي منافسة السلع الأجنبية المتوازن للمنتوج المحلي.

العامل الثاني :

حركة الجامعة السلافية : اثناء زيارة الإمبراطور فرانس جوزيف [75].سنة 1292هـ / 1875م قام بإعطاء أهالي البوسنة والهرسك الانطباع بان النمسا والمجر ستقوم بضم المناطق السلافية مما يؤدي إلي قيام مملكة ثلاثية لتندفع الثورة في الهرسك في جمادي الأخيرة1292هـ جويلية1875بسبب جباية الضرائب حيث تلق الثائرون مساعدات من قبل الصرب لتمتد إلي كل من البوسنة وبلغاريا حيث طالبوا بالانفصال الإداري عن الدولة العثمانية ، وقدموا عريضة الي الباب العالي تتضمن العمل علي تخفيض الضرائب ، وعدم فرض الضرائب جديدة في المستقبل وتشكيل قوة منهم لحفظ الأمن والمساواة في إقامة الشعائر الدينية ، كما الحوا علي ضرورة توزيع ثلث ممتلكات الملاكين علي السكان [76].

وقد تظاهرت روسيا والنمسا بحل الازمة دبلوماسيا ، فقام سفراء دول عصبه الأباطرة الثلاثة تحت الباب العالي إصدار إصلاحات لتحسين أحوال المسيحيين في البوسنة والهرسك والعفو عن الثوار فقد استطاع اغناتيف من إقناع السلطتان عبد العزيز [77] علي القيام بإصلاحات فتم إصدار فرمان في 15ذي القعدة 1292هـ/ 12ديسمبر 1875[78]. يتضمن :

- تخفيض الضرائب عن السكان البوسنة والهرسك.

_ منحهم الحرية الدينية

_ تشكيل لجنة للمراقبة ومجلس استشاري منتخب.

_ بالرغم من إعلانه عن إصلاح في القضاء ونظام الضرائب وغير ذلك إلاإن الثورة ظلت مستمرة حيث أعلن كل من الجبل الأسود والصرب عن استعدادهم لمساعدتهما ولإيجاد حل لهذه المسالة قام كل من بسمارك ووزير خارجية روسيا والكونت اندراسي وزير خارجية النمسا بالاجتماع في برلين 1293ماي 1876 دون اشتراك بريطانيا فقد لقيت موافقة من طرف ايطاليا وفرنسا وتقدما إلي الحكومة العثمانية بمذكرة برلين و أهم ماجاء فيها :

-الإعفاء عن الثوار وإلغاء ضريبة العشر لمدة عام والضرائب الأخرى لمدة عامين

- التعهد ببناء المنازل والكنائس إلي هدمت خلال الثورة

لكن السكان رفضوا هذه الإجراءات وأصروا علي جلاء الجيوش العثمانية عن أراضيهم وان تدفع الحكومة لهم تعويضات عن الخسائر التي تكبروها [79].

_وقد زادت حدة الثورة في هذه الفترة خاصة بعد قيام بلغاريا بتدبير منحة للموظفين المحلين ليليها انضمام الصرب والجبل الأسود إلي الحرب حيث قامتا بتوقيع تحالفات بينهما في 1292هـ/26ماي 1876 تنص علي تقسيم الأراضي في الإقليم في حال الانتصار علي العثمانيين حيث استعانت الحرب بالضابط الروسي نشر فيلق لقيادة الجيش ولما علمت الدولة العثمانية بهذه الاستعدادات كان الرد فعل الباب العالي الرفض وإرسال جيوشه إلي حدود الحرب والجبل الأسود مما أدى إلى أعلان الحرب عليها في 30جوان من طرف الصرب و في20جويلية من طرف الجبل الأسود [80].

_ وكانت نتيجة الحرب انتصار للعثمانيين بقيادة عثمان باشا علي الحرب حيث أصبح مقربة من العاصمة بلغراد وقد دفعت هذه الهزيمة إلي طلب الدولة الأوروبية التدخل لدى الباب العالي لوقف إطلاق النار وعقد الهدنة بين الطرفين.

_ كانت هذه الهدنة تحتوى علي الكثير من المطالب،إلا أنه في الأخير لم يقيل إي طرف وانفض الأمر من دون إن ينالوا شيا مما أدى إلي قطع علاقاتهم بالدولة العثمانية إذا راحت كل دولة تتصرف وفقا لمصالحها[81].

مؤتمربرلين : 1295 هـ 1878م.

_ إن انعقاد مؤتمر برلين يعتبر اعتراف الدول الأوروبية بتفوق النفوذ الألماني [82]، خصوصا بعد الهزيمة التي ألحقتها بفرنسا ، فكانت فرصة سامحة لبسمارك لكي يقوم بدور السمسار الشريف الذي كان يريد إن يصل بالقضية إلي نتيجة مرضية لجميع الإطراف[83].فبذلك يكون قد قام بدور المنفذ العالمي ، فلقد رأي إن الغاية من المؤتمر هو الوصول إلي حل لمشكلات أوربا علي حساب الدولة العثمانية من دون إراقة لدماء الاوروبين[84].لأنه في نظرة إن الدولة العثمانية غير جديرة بتناحر أوربا عليها [85].

ومن جهة أخرى دعا بسمارك رسميا في 12جمادي الثانية هـ / 3 جوان 1878م مندوبي الدول الأوروبية للاجتماع في برلين كما سمح بوجود كل من اليونان والصرب ورومانيا والجبل الأسود والأرمن واليهود لحضور المؤتمر كمراقبين علي إن يحضروا بعض جلساته دون أن يشتركوا في مناقشاته [86].كما شاركت فيه سبع دول كبرى هي الدولة العثمانية بريطانيا فرنسا روسيا ألمانيا ايطاليا والنمسا ، وقد مثل الدول العثمانية كل من قرةفودري باشا والمشير محمد علي باشا وسعد الله بيك الالجي مع العلم انه لم يكن لهم إي نفوذ أو احترام حيث كان بسمارك يسئ معاملتهم ولقد دامت إشغال هذا المؤتمر حوالي02أسابيع عقدت من خلاله 20 جلسه مع العلم انه أثيرت فيه مناقشات عنيفة خلال الجلسات[87] بالرغم من إن كثيرا من المسائل قد سويت قبل عقد مؤتمر فهو لم يكن اجتماعا لإعادة النظر في معاهدة سان ستيفانو بقدر ما كان الموافقة علي الاتفاقيات التي تمت بين روسيا والنمسا من جهة وبين روسيا وبريطانيا من جهة أخرى[88].

وعليه عقدت الجلسة الأولى للمؤتمر في 22جمادي الثانية 1295هـ /13جوان 1878التي نصت علي 64مادة فكانت اهم قراراته :

1_ إن تصبح بلغاريا ولاية لها استقلالها الداخلي عاصمتها صوفيا وتدفع الجزية وتدين بالولاء للسلطان العثماني وتكون لها حكومة مسيحية وقوة قومية .

2_ توضع البوسنة والهرسك تحت الإدارة النمساوية

3_ فصل ولاية الروملي الشرقية عن بلغاريا الكبرى وضعها تحت الحكم العثماني المباشر وبالتالي تقلص بلغاريا

4_ اعتراف الباب العالي والدول الأوروبية بالاستقلال التام للجبل الأسود

5_ تنازل الباب العالي لروسيا في أسيا عن اردهان وقارص وباظوم.

6_ إعادة مقدونيا وساحلها الجنوبي إلي الدولة العثمانية .

7_ الإبقاء علي الغرامة الحربية التي أقرتها معاهدة سان سيتفانوا علي الدولة العثمانية مقدارها حوالي800مليون فرنك.

8_ إعلان الباب العالي عن رغبته في منح حرية الاعتقاد الديني ولا يجب إن يقف الاعتقاد الديني في حماية رعاياهم.

9_ احترام شروط معاهدة باريس بشان المضايق وحرية الملاحة في نهر البحر الأسود[89].

_ نتائج مؤتمر برلين 1229هـ / 1878م:

من خلال بنود معاهدة برلين نجد انه كانت لها انعكاسات علي الدول الأوروبية والدولة العثمانية بحيث إننا نجدها تختلف من دولة إلي أخرى سواء بالإيجاب أو بالسلب فمثلا

روسيا لم تقتنع بنتائج المؤتمر رغم أنها حصلت علي بعض الأجزاء الأسيوية للدولة العثمانية كما فرضت عليها غرامة مالية كبير وأحلت نفوذها في بلغاريا لكن في المقابل وضعت المعاهدة ضد اطماع روسيا في تقدمها نحو العرب ووجهتها بطريق غير مباشر إلي توسع في أسيا[90]. معنى ذلك إن بريطانيا وفرنسا قد نجحتا في الوقوف في وجه إطماع روسيا لكن الأهم من كل هذا إن مشروع الجامعة السلافية التي عملت روسيا علي تنميتها بعد حرب القرم والتي وصلت ذروتها في معاهدة سان ستيفانو أجهضت خلال مؤتمر الذي قام برسم خريطة البلقان الجديدة [91].

_ فكانت صدمة قاسية لمطامع القيصر الروسي ، ففي حقيقة الأمر إن المعاهدة كانت تهدف في مجموعها إلي كسر اندفاع الوحدة السلافية لدى الروس [92].

أما النمسا : فقد تحصلت علي غنيمة كبيرة ، في غرب البلقان لكن أوضاع في البلقان بقيت مضطربة حتى إن البوسنة والهرسك سوف تكون هي الفشل الذي بسببه سوف تندلع الحرب العالمية الأولى1914_ 1918 م[93] .

أما بريطانيا : جرحت منتصرة علي جميع الأصعدة إذ أنها نجحت في توقيف مطامع روسيا التي كانت تهدد مصالحها ،حيث نجحت في احتلال قبرص باعتبارها مواجهة للسواحل الشمالية المصرية ونقطة مراقبة هامة ، استطاعت من خلال الهيمنة علي مصر ومنع إي دولة أوروبية من الاقتراب [94].

أما الدولة العثمانية : فقد كانت الخاسر الأكبر حيث كشفت قرارات مؤتمر برلين عن مدى ضعف الدولة ألانها فقدت معظم أمالكها في أوربا بخسارتها لحوالي210 الف كلم مربع وحوالي55 مليون نسمة هذا منتج عنه خسائر مالية ألانها كانت كلها تقريبا تدفع الحرية للدولة العثمانية . كما أنها خرجت مدانة بمبلغ كبير لروسيا يقدر ب800مليون فرنك ، حيث اكتشفت ان بريطانيا وفرنسا قد تحولتا من شركيين لها إلى أعداء من الناحية الدبلوماسية فقدت هيمنتها وهيبتها علي الصعيد الدولي والكل بات يطمع فيها [95] .لكن من الرغم من ذلك معاهدة برلين مددت من عمر الدولة العثمانية لمدة 35سنة

أما ألمانيا : فقد برزت أمام الدول الأوروبية الكبرى دولة محايدة عن الإطماع كان كل همها هو إصلاح دول أوربا وتحقيق السلام المنشود[96].

ومن هنا يمكن القول :أن مؤتمر برلين 1295هـ_1878م النقطة التي نهت حول كيفية القضاء علي الدولة العثمانية والي ضرورة التعجيل بتقسيم ممتلكاتها وأول من تبنى هذا المبدأ بريطانيا التي عملت هي والدول الأوروبية في إطار المنافسة علي انتهاج سياسة جديدة تخول لها السيطرة علي أراضي الدولة العثمانية تحت عطاء الحماية والانتداب .

الهوامش:

1- مصطفي كامل ، المسالة الشرقية ،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ،2012م. ، ص 9.

2-محمد محمود السروجي ، مصر و المسألة الشرقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،دط،جامعة الإسكندرية،مطبعة المصري مرجع سابق، ص 9.

3- احمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث ،ص28.

4- محمد محمود السروجي،، مرجع سابق ،ص 11.

5- إسماعيل احمد باغي ، مرجع سابق ،ص143.

6- محمد محمود صالح ،تاريخ اوربا في القرن التاسع عشر،دط،دم،دت،ص196.

7-اسماعيل احمد ياغي ،تاريخ اوروباالحديث و المعاصر ،ط3،دار المريخ للنشر،الرياض،السعودية،1993م المرجع السابق ،ص 144 _ 143.

8-محمد سعيد العثماني،تاريخ المصريين (مصر والحملة الفرنسية)، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 1999م ،ص 45.

9-عبد العزيز نوار،الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون . الفرس، بيروت ،دار النهضة العربية،1396هـ-1972م ، ص 79.

10-عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ العربي الحديث والمعاصر (1516-1922م)، دار النهضة العربية ،بيروت،ص 220 _ 221.

11-نفسه،ص 222.

12إسماعيل احمد ياغي ، مرجع سابق ،ص 5.

13- أبو الفضل محمد عبد الفتاح، الصحوة المصرية في عهدة محمد علي، دط،القاهرة،1998،ص 201.

14- محمد سعيد العشماوي، مرجع سابق ،ص 58.

15- نفسه،ص 59.

16- علي عبد المنعم شعيب ،الصراع الايطالي الفرنسي علي بلاد الشام (1941 _1960م)،ط1،دار الفارابي،بيروت ،لبنان2002م،ص77.

17- أمال السبكي ،أوربا في القرن التاسع عشر (فرنسا في مئة عام)،ط1،عالم المعرفة،جدة1405هـ-1980م،ص82.

18- محمود شاكر ،مرجع سابق ،ص 166.

19احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني،ط2،القاهرة1993م ، ص 188.

20- احمد ياغي ، مرجع سابق ،ص 130.

21-نفسه، ص 280 _275.

22-نفس المرجع، ص 204.

23-مصطفي كامل ، مرجع سابق ،ص 40.

24- نفس المرجع ،ص 42.

25- هدى علي بلال،الصراع العثماني المصري علي بلاد الشام والوقف الدولي من 1830_1841، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية 59، المجلد 10، العدد 4، جامعة الموصل 2011،ص355.

26- محمد فريد بك المحامي،ا التيارات السياسية في حوض البحر الابيض المتوسط،ملتزمة الطبع والنشر لجنة البيان العربي،مصر1949م. ص 491.

27- اسماعيل احمد ياغي ،المرجع السابق ،ص 326.

28- مصطفي كامل ، المصدر السابق ،ص 75.

29- اسماعيل احمد ياغي ،المرجع سابق ،ص 35.

30- مصطفي كامل ، المصدر سابق ،ص 76

31-نابليون الثالث :هو ابن لويس بونابرت اخ نابليون الأولنفي هو واسرته من فرنسا من فرنسا سنة 1815موعند قيام ثورة 1848م عاد الى فرنسا مجددا وانتخب عضوا في الجمعية الوطنية بعدها انتخب رئيسا للجمهورية الثانية1848-1852م اتسم حكمه بالديكتاتورية بينما كان يتظاهر بالدفاع عن الديمقراطية وتوج نفسه إمبراطور على فرنسا سنة 1852م.انظر:علي المولا،المرجع السابق،ج7،ص3340.

32- محمد فريد بك المحامي ،المصدر السابق، ص 492.

33- محمد فريد بك المحامي ،نفسه،ص 493.

34-الملكة فكتوريا : ولدت سنة 1819وتولت سنة 1937تزوجت بالبرنس البرت احد امراء المانيا وتوفيت سنة 1901.
35- نفسه،ص 494.
36- محمد محمود السروجي ، مرجع سابق ،ص 19.
37- محمد محمود السروجي ،مرجع سابق ،ص 20.
38- محمود شاكر،المرجع السابق، ص 176.
39- محمد محمود السروجي، مرجع السابق، ص 21.
40- مصطفي كامل، مرجع سابق، ص 92.
41- محمد فريد بك المحامي ،المصدر السابق ،ص152.
42- مصطفي كامل ،المصدر السابق ،ص 87.
43- اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكر الحديث ،بيروت1988م المرجع سابق ،ص 326.
44-عبد العزيز الشناوي،الدولة العثمانية دول إسلامية مفترى عليها ، ج2 ، القاهرة ، د ت المصدر السابق ص 228.
45-نفسه، ص 229.
46- محمد محمود السروجي،. مرجع سابق ،ص 24.
47- نفسه،ص 25.
48- إسماعيل سرهنك، المرجع السابق، ص 326.

49- عبد الرءوف سنو، العلاقات الروسية العثمانية (1687هـ/1878م) سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة ،ح1،مجلة تاريخ العرب والعالم،ع73-74،بيروت1984م. المرجع السابق ، ح 2،ص 26.

50- سهيل محمد طقوش،ا تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ، ط3 ، دار النفوس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2013 . المرجع السابق، ص 379.
51- فريد بك المحامي ، المصدر السابق ،ص ص 493_ 494.

52-صفوت مصطفي محمد، محاضرات في المسالة الشرقية ومؤتمر باريس،دط،معهد الدراسات العربية العالية ،القاهرة 1958،ص 30.
53- روبير مانتران،تاريخ الدولة العثمانية، تر بشير السباعي ، ط 1،ج2،دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة 1993م،ص 5.
54- عبد الرءوف سنو، المرجع السابق ،ح 2، ص26.
55- سهيل طقوش،المرجع السابق، ص 381.
56- كارل بركلمان،تاريخ الشعوب الإسلامية،تر نبيه أمين فارس ،ط 6،دار العلم للطلابيين ، بيروت 1974م،ص 569.
57- مصطفي كامل ، المصدر السابق، ص 72.
58- عبد الرءوف سنو ،مرجع السابق، ح2،ص ص 26_27.
59- نفسه ،ص 28.
60-محمد سهيل طقوش، مرجع السابق ،ص 386.

61- هربرت فيشر،تاريخ اوربا في العصور الحديثة (1789_ 1950م،تراحمد نجيب وغيره، ط 4 ،دار المعارف ، مصر 1964،ص 219.

62-كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص 567.

63- فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص 49.

64- روبير مانتران، مرجع السابق، ص 132.

65- نادية محمود مصطفي ،العصر العثماني من القوة والهيمنة الي بداية المسالة،ط1،المعهد العلمي الفكر الإسلامي، القاهرة 1990م،ص178.

66-احمد عبد الله الجبري ،مشاريع تقسيم الدولة العثمانية وموقف منه 1844_1856م،مجلة جامعة كركوك الدراسات الإنسانية ،مج 7،ع 3،التربية العراق 2012،ص 5.

67- مصطفي كامل، المصدر السابق ،ص 77.

68- الغالي غربي ،دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288_1916م،دط،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص ص153_154.

69- الغالي غربي ،نفسه ،ص 154.

70- محمد فريد المحامي ،المصدر السابق ، ص 502.

71- هاشم صالح الكثولوكي،الصراع بين الكبرى في البلقان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،دط،2008م،ص2.

72- هربرت فيشر ، المرجع السابق، ص ص360_ 361

73- الجامعة السلافية :هي نظرية او حركة تستهدف الي انصهار العلاقة السياسية والثقافية بين جميع الدول السلافية ، تبنتها روسيا في منتصف القرن حينما بلغت القومية اوج نشاطها وقوتها الا انها بقيت منحصرة في الأقطار السلافية انظر:علي المولا،المرجع السابق،ص 11.

74-هربت فيشر ، المرجع السابق ،ص361.

75- فرانس جوزيف:Francis Josef (1830-1916م)،امبراطور النمسا خلال الحكم في اعقاب ثورات عام 1884م،بالاضافة الى كونه امبراطور النمسا اصبح ملكا على المجر خلال المدة ما بين 1867-1916م،لم يكن واثقا بحكومات الاحزاب اذ كان يميل نحو قيام حكومة بيروقراطية تقودها سلالة حاكمة كريمة تعمل من اجل المنفعة العامة حكم بلاده حكما مطلق.انظر:حيدر صبري شاكر الخيفاني وآخرون،نتائج الحرب الروسية العثمانية1877-1878 ،مجلةجامعة كربلاءالعلمية،مج3،ع3،جامعة كربلاء،2015 ،مرجع سابق،ص75.

76- سهيل طقوش،المرجع السابق ، ص 44.

77- السلطان عبد العزيز 1876 1830:حاكم الدولة العثمانية تولي الحكم بعد وفاة اخيه عبد المجيد الاول قام بإصلاحات تحت إشراف وزير فؤاد باشا وعلي باشا شهد عهده حدوث اضطرابات في البلقان انظر :عبد الوهاب الكبالي واخزون المرجع السابق ،ص838.

78- عمر عبد العزيز عمر ،مرجع سابق،ص201.

79- فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص 603

80- محمد سهيل طقوش، المرجع السابق،ص424 .

81-نفسه ،ص428.

82- عمر عبد العزيز عمر ،المرجع السابق،ص207.

83- نوار الدين حاطوم ،تاريخ القرن التاسع في أوروبة والعالم، ط1،ج2، دار الفكر المعاصر ،بيروت 1995، ص334.

84- مصطفي كامل ، المصدر السابق، ص .115

85- ياسر عبد العزيز قاري ،دور الامتيازات في سقوط الدولة العثمانية ، دراسة تحليلية ، رسالة دكتوراء في تاريخ الحديث ،ج 2، جامعة ام القرى،الرياض2000م، ص 569.

86- عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دول إسلامية مفترى عليها ، ج2 ، القاهرة ، د ت .

المصدر السابق،ص 566.

87-كارل بروكلمان ، مرجع السابق ،ص 569.

88- عمر عبد العزيز عمر ،المرجع السابق ،207.

89- محمد فريدبك المحامي،المصدر السابق، ص679.

90- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق ،ص 208.

91- عبد الرءوف سنو،المرجع السابق،ص20.

92- روبير مانتران،المرجع السابق،ص158.

93- عمر عبد العزيز عمر ،المرجع السابق ،ص 250.

94-نفسه،ص250.

95- روبير مانتران،المرجع السابق، ص 161.

96- عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق،ص205.

إسهامات علماء الجزائر في الحياة العلمية بالمغرب الاقصى خلال الفترة العثمانية

أ/ خنفار حبيب، جامعة تيارت

لا تتوقف عملية التأريخ لحركة العلماء على الجانب المادي أي الهجرة، فهي ليست مجرد حركة لطالبي العلم، بل هي تأريخ للحركة العلمية التي صاحبت انتقال وسفر العلماء الجزائريين عبر الأقطار الإسلامية والمراكز والمدارس العلمية الكبرى، وكانت آثارها أكثر اتساعا ووضوحا على الحياة الثقافية والعلمية.

لقد ساهم علماء الجزائر العثمانية في تنشيط الحركة العلمية في الكثير من البلاد الاسلامية، و كان نشاط الحياة الثقافية في هذه البلاد، قائما في جزء كبير منه على جهود العديد من العلماء الجزائريين الذين استقروا في مراكزها العلمية، ولم تقتصر إسهاماتهم الثقافية على التدريس و التأليف حيث تخرج على أيديهم عدد كبير من العلماء والطلبة، وبقيت مؤلفاتهم في العديد من فروع العلوم النقلية والعقلية، مرجعا اعتمد عليه الكثير من العلماء، بل تعدته إلى توليتهم خطة القضاء والخطابة والإمامة والإفتاء ونالوا الحظوة والجاه لدى السلطات السياسية في هذه البلاد.

كانت أول اتجاهات هذه الحركة العلمية هي المغرب ومراكزها العلمية ويأتي في المقدمة القرويين في فاس ثم مراكش وتطوان وتارودانت، ويرجع ذلك إلى العامل الجغرافي وقرب المغرب من الجزائر ثم عامل الوحدة التاريخية بين البلدين، فقد كانت مساحات شاسعة من البلدين تحت سلطة سياسية واحدة لفترات تاريخية طويلة، والاتحاد والتواصل التاريخي بين المغربين الأقصى والأوسط المتمثل في اتحاد السلطة الحاكمة وتعاقبها على المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط، أدى إلى بروز الصلة العلمية المشتركة بينهما.

يمكننا العثور على أسماء الكثير من الطلبة والعلماء الجزائريين الذين انتقلوا إلى المغرب لأخذ ونشر العلم في مراكزها العلمية، وساهموا بذلك في تنشيط الحياة الثقافية ، ولم يكن هذا التأثير العلمي والثقافي مقتصرا على الفترة العثمانية بل كان هذا التواصل مستمرا، فمثلا أول من أشاع "مختصر خليل" في المغرب وفاس بصفة خاصة، هو محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني الملقب بأبي عبد الله (ت 818هـ / 1415م)[1]، ومختصر خليل بن إسحاق سيطر على مختلف الدراسات الفقهية المالكية، فإذا حكمنا على أنواع الشروح و الحواشي التي وضعت حوله كدنا نقول بأنه يأتي في المقام الثالث بعد القرآن وصحيح البخاري[2]، وظل مختصر خليل الذي أشاعه هذا العالم الجزائري التلمساني المولد، ومنذ هذه الفترة مصدرا للفقه والتشريع في الجزائر والمغرب الأقصى ومراكزه العلمية خاصة القرويين في فاس.

شهدت الفترة بين أواخر القرن الخامس عشر (9هـ) والنصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي (10هـ)، هجرة عدد من العلماء الجزائريين الذين كان لهم دور فعَّال في تنشيط الحياة الثقافية في القرويين في فاس.

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ على بن موسى بن على بن هارون أبو الحسن المطغري[3] ولد في مطغرة من أعمال تلمسان سنة 871هـ (1466م) ثم انتقل إلى فاس عام 891هـ ولازم ابن غازي تسع وعشرون سنة، فحصَّل عنه علما جمًا حتى قيل له: خزانة علم لكثرة الفنون عنده وأجازه في جميع ما يجوز له عام 906هـ ، وأخذ عن الونشريسي وغيرهم من العلماء، ثم أخذ عنه عبد الواحد الونشريسي و اليسيتني والزقاق وغيرهم، وكانت إفادته لا ساحل لها حتى أنه لا يتنفس إلا بفائدة، كان غاية في الحفظ، متواضعا منصفا كثير التلاوة.

و يبدوا من كتب التراجم أن المطغري التلمساني ساهم في تكوين وإجازة عدد كبير من الطلبة والعلماء نظرا للمدة التي درَّس فيها في القرويين حيث توفي سنة 951هـ (1544م)، فكانت مدة نشاطه العلمي في ملازمته لشيخه ابن غازي والمرحلة التي درَّس فيها تمتد من 891هـ إلى 951هـ (1486-1544م) أي حوالي ستون سنة من طلب العلم ونشره وبلغ صيته وشهرته الآفاق وحضر جنازته السلطان فمن دونه[4].

و كان للظروف والاضطرابات السياسية في الغرب الجزائري في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (16م)، المتمثلة في الفتنة التي وقعت بين علماء تلمسان والأتراك سنة 1560م[5]دور في هجرة عدد لا يستهان به من العلماء الكبار الذين اشتهروا ببراعتهم في عدة علوم واختصاصات علمية، فساهموا في نمو وتطور الحياة العلمية في المغرب الأقصى، بينما كانت انعكاسات هجرتهم هذه، كارثية على الحياة الثقافية والعلمية في الغرب الجزائري خاصة تلمسان، ومن بين علماء تلمسان الذين هاجروا في سنة 1560م:

- أحمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب العبادي التلمساني أبو العباس، عالم كبير من فقهاء المالكية من أهل تلمسان، وبها نشأ وتعلم ثم انتقل إلى فاس سنة 968هـ في جملة فقهاء بلده، فأكرمه الحكام بها واشتغل بالتدريس[6]، ولم تكن هجرة هذا العالم نهائية حيث رجع إلى تلمسان ثم استقر بمليانة وأخذ عنه عدد من العلماء المغاربة من أمثال محمد بن علي المشهور بابن عسكر الحسني الشفشاوني الذي وصفه بأنه « رجل من فحول العلماء ،كبير الهمة غزير العلم كريم السجية له نفس أبية، وهمة عالية وشجاعة وإقدام»[7]، وأمر له السلطان الغالب بألف مثقال ذهبا وقال (السلطان) «لا تسووه بأحد من الفقهاء وغيرهم فان همته كبيرة». ولما اشتغل بالتدريس قصده الطلبة من كل ناحية وعجب الناس من حسن عباراته وتحقيقه ونقله[8].

ومن العلماء الذين برعوا في تدريس القراءات في القرن السادس عشر الميلادي في فاس، هو العالم علي بن عيسى الراشدي(980هـ / 1572م)، أستاذ القراءات وقواعد اللغة والأدب من أهل تلمسان، استوطن مدينة فاس واستهل عمله فيها بتدريس الكراريس، وهي المنظومات الأولية المتعلقة بضبط القرآن ورسمه وتجويده، وكان بارعا في القراءات السبع، ولا عجب في ذلك فقد عرفت بعض المراكز في الجزائر بالحذق في هذه المادة، مثل زواوة حتى أنها كانت مقصد العلماء للإتقان هذا العلم.

وهناك أمثلة كثيرة عن علماء جاؤوا من المغرب، وقصدوا زواوة لتعلم القراءات السبع على شيوخها[9]، وعلي بن عيسى الراشدي كان من هؤلاء العلماء الذين برعوا في القراءات السبع فأفاد بها الكثير من الطلبة في فاس حيث أسند إليه كرسي الشاطبية الكبرى بمسجد الشرفاء، فدرسها زمنا طويلا وختمها مرات واستخدم شروحها وأخذها عنه المنجور[10]، فكان لهذا العالم دور كبير في تقريب علم القراءات إلى طلبة وعلماء فاس.

أما في علم الكلام فقد اشتهر في فاس العالم الجزائري التلمساني المولد والتكوين محمد بن عبد الرحمن بن جلال أبو عبد الله التلمساني (908-981هـ) (1502-1573م) كان إماما في علم الكلام، قَدِمَ إلى فاس في صدر أيام السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف سنة 958هـ/1551م[11] ونال حظوة كبرى عند السعديين فوَلَوْهُ خطط الفتوى والإمامة والخطابة والتدريس بجامع القرويين، وكانوا يستدعونه في جملة أعيان العلماء إلى مراكش ويصطحبونه معهم في بعض أسفارهم مثل صحبته السلطان عبد الله الغالب السعدي عام 980هـ إلى سوس، فقدمه إلى الإقراء بالجامع الكبير بتارودانت فأخذ عنه علمائها وطالت أيام رياسته العلمية بفاس حتى أسن وأثقله الهرم و انتفع الناس به، وبقي في تدريس الفقه والمنطق والعقائد والبيان والحديث والتفسير لأكثر من عشرين سنة وهي مدة إقامته في فاس إلى وفاته بها سنة 981هـ وأشهر تلاميذه أحمد المنجور[12].

إضافة إلى أحمد بن محمد بن محمد بن يحي المعروف بابن جيدة المديوني الجيزري الوهراني أبو العباس، كان يدرس علم الكلام بفاس، وكان من مناهل الفضل والدين والعلم المتين وأخذ العلم عن فقهاء وهران وتلمسان كالشيخ أبي عبد الله السنوسي والكفيف ابن مرزوق، وهو الذي كان يطالع له وأبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الوهراني، وأخذ عنه العديد من الطلبة في فاس، وتخرج على يديه علماء كبار من أمثال أبو العباس المنجور والشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الخباز القصري وغيرهما، فساهم هذا العالم في تنشيط الحياة الثقافية في فاس بالمغرب وكانت وفاته ما بين 951-955هـ(1544-1548م) عن عمر يزيد عن السبعين سنة قضى أغلبها في بث العلم ونشره[13].

تتجلى أهمية هذين العالمين في تخصصهما في علم الكلام الذي كان يعتبر من أهم العلوم إن لم يكن أهمها، فقد عرفه مصطفى الرماصي في القرن الثاني عشر الهجري بمايلي: «علم الكلام أوثق العلوم دليلا وأوضحها سبيلا وأشرفها فوائدا وأنجحها مقاصد، إذ به تعرف ذات الحق وصفاته ويصرف عنه ما لا يليق به و لا تقبله ذاته»[14]، وتفوَق فيه الجزائريون وكان هذين العالمين من أهم أساتذة هذا العلم في فاس، فتمكنوا خلال حياتهم العلمية الطويلة من تكوين وإجازة عدد كبير من الطلبة و العلماء في هذا العلم وغيره من العلوم، فكانت مساهمتهم كبيرة في مجال التدريس و التعليم في القرن السادس عشر الميلادي(10هـ)

لم يقتصر تواجد العلماء الجزائريين على حاضرة فاس ومركزها العلمي القرويين رغم أهميته، بل انتشروا في كامل المدن الكبرى في المغرب الأقصى وخاصة في العاصمة مراكش، التي استقر بها محمد شقرون بن هبة الله الوجديجي التلمساني[15](908-983هـ) (1502-1576م) الذي لُقِبَ «بمالك الصغير» في وقته، وهو من كبار فقهاء المالكية[16].

قدم أولا إلى حضرة فاس سنة967هـ (1559م)، فقلده السلطان الغالب بالله الفتوى ورياسة العلم بحضرة مراكش وسائر أقطار المغرب، وجعل له كرسيا في قصره كان يحضره السلطان و سائر الأمراء[17]، فكان له نفوذ كبير لدى السلطان و نال احترام وتقدير أعيان الدولة لبراعته وفصاحته، فقد لقبه ابن عسكر بـ« عالم الزمان وفارس المنابر وعروس الكراسي... طلق اللسان واسع العبارة واضح البيان منفسح الصدر كثير المعرفة.»[18].

وكان فقيها نوازليا، بارعا في علم الكلام والمنطق والبيان حيث أخذ عن الشيخ أبي عثمان المنوني علم الكلام، وهو بدوره أخذ عن الشيخ أبي عبد الله السنوسي[19] وعلامة الوقت أبي العباس ابن زكري[20]، واشتهر هذين العالمين بهذا العلم وسيطرة مؤلفات السنوسي في علم التوحيد سيطرة تامة على الدارسين طيلة العهد العثماني[21].

فلا عجب أن يكون شقرون بن هبة الله علامة في هذا العلم، إضافة إلى علوم أخرى تفوق فيها، وله شرح على رجز أبي إسحاق التلمساني في الفرائض، وأخذ عنه الكثير من العلماء والطلبة وساهم في تنشيط الحياة الثقافية في عاصمة الدولة السعدية ما بين 967 إلى 983 هـ (1559-1576م).

قضى هذه الفترة من حياته متنقلا بين المدن المغربية، فقد ذكر صاحب دوحة الناشر- ابن عسكر- أنه سأله عن أشياخه عندما لقيه بمكناسة، فقيَّد له أسمائهم وعلومهم، إلا أنه ضيع هذا التقييد، فلم يقتصر دوره في نشر العلم على مدينة واحدة، بل كان ينتقل عبر مدن المغرب، خاصة فاس ومراكش ومكناسة، وقد رافقه العالم أحمد بن محمد بن قاسم العقباني (ت 980هـ)(1571م) في هذه الرحلات

العلمية المحلية، وهو العالم الذي تصدر للتدريس بالقرويين بفاس وفقيه مالكي مشارك في عدة علوم، من أهل تلمسان[22].

أما **مدينة تطوان** في هذا القرن السادس عشر، فقد نزل بها أستاذ الفقه و المعقولات أبو القاسم بن سلطان القسنطيني (كان حيا 995هـ) (1586م) درس الفقه والمنطق والحساب وغيرها من العلوم العقلية في هذه المدينة، وله مؤلف « الانتصار للسنة و الرد على الطائفة الأندلسية» في مجلدين[23].

في حين الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن اأحمد التلمساني الذي يعرف بابن الوقَّاد، فأصله من تلمسان بها نشأ ثم انتقل منها بعد التحصيل إلى مدينة تارودانت بالمغرب حيث ولي القضاء[24]، ولكنه اصطدم في بداية الأمر ببعض الصعوبات لاستحكام العجمة في أَلْسِنَة السوسيين، فأضطر إلى مغادرتها إلى سجلماسة فعين قاضيا وخطيبا، ثم انتقل إلى مكناسة الزيتون ثم منها إلى فاس فولي الخطابة بجامع الأندلس وبعدها رجع إلى تارودانت و ولي بها الفتوى والخطابة وتصدر لنشر العلم فنفع الله به أمة من الناس، وكان السلطان المنصور يقول فيه "ليس عندنا أخطب من ابن الوقاد إلا أن الله اختاره لتارودانت وكان له وجاهة عند ملوك وقته[25]، وهو أول من قرأ الجامع الصحيح للبخاري بتارودانت قراءة ضبط وإتقان، وخطب بها ببراعة اللسان ،و أول من أحيا بها ليلة المولد باجتماع الناس في منزله وقراءة قصائد مدحه ﷺ[26]، فكان بالغ الاهتمام بعلم الحديث حيث له أبيات يحث فيها على دراسة وقراءة البخاري يقول فيها:

كتاب البخاري واظب على قراءته واروه في الشدائـــد

فهو المجرب تريـــــاقه لدفع سموم الأفاعي الأساود

وكان من الشيوخ الذين يذُّمون العلماء الذين يتقربون إلى السلطان، فهو القائل:

كُلْ التراب ولا تعمل لهم عملا فالشر أجمع في ذلك العمل[27]

فساهم هذا العالم الجزائري في تنمية منطقة تارودانت التي كان أغلب سكانها بربر لا يحسنون اللغة العربية، ويبدوا من رحيله عنها ثم عودته إليها، أنه تجاوز عائق اللغة الذي أجبره على المغادرة في البداية فكان الفضل إلى هذا العالم في نشر علم الحديث والبيان في بلاد السوس من المغرب ، وبعد وفاته سنة 1001هـ / 1592م خلفه ابنه أبو زيد عبد الرحمن في نشر علمه وهديه[28]، وأبرز مساهمات هذا العالم في منطقة تارودانت من السوس المغربي، إحياء السنة النبوية ولغة القرآن الكريم في منطقة كان أغلب سكانها من البربر الأمازيغ.

و آخر علماء القرن السادس عشر في فاس، هو ابن أحد أكبر علماء الجزائر؛ عبد الواحد بن أحمد بن يحي الونشريسي أبو محمد، حيث انتقل أبوه إلى فاس فارًا من ظلم سلطان تلمسان محمد بن أبي ثابت المعروف بالمتوكل سنة 874هـ، فنهبت داره وهدد في حياته[29]، فاستقر في فاس وهناك ولد إبنه عبد الواحد، الذي أكمل مسيرة أبيه في طلب العلم ونشره،[30] إضافة إلى التدريس، واشتهر بمواقفه الصارمة والثابتة على الحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، وكان آخر هذه المواقف سببا في قتله أو استشهاده حيث عندما سيطر السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ الشريف على المغرب، حاصر مدينة فاس، وفشل في دخولها، فقيل له لا يبايعك أهل هذه المدينة إلا إذا بايعك ابن الونشريسي، فبعث إليه وحاول إغراءه، فكان رد الشيخ عبد الواحد الونشريسي أن بيعة السلطان المريني المحاصر في رقبتي ولا يحل خلع ربقتها إلا بموجب شرعي ورفض مبايعة السلطان محمد الشيخ الشريف، فأمر هذا الأخير بعض عيونه ليأتوه بالشيخ عبد الواحد الونشريسي، فذهبوا إليه ووجدوه بجامع القرويين يدرس الجامع الصحيح للبخاري، فأنزلوه عن كرسيه و أخرجوه من المسجد وعند رفضه الذهاب معهم قتلوه فاستشهد لموقفه السياسي و الشرعي سنة 955هـ (1549م)[31].

ساهم عبد الواحد الونشريسي في تنشيط الحياة العلمية في فاس حيث ولي القضاء ثم الإفتاء بعد وفاة الشيخ ابن هارون، ومن جملة من أخذ عنه من العلماء أبو راشد اليدري، وأبو زكرياء السراج، وأبو زيد السلواني، وأبو العباس المنجور، وكان يحضر مجلسه الخاص كبار العلماء من أمثال الزقاق واليسيتني[32].

و أهم ما خلفه من كتب وتأليف نظم قواعد المذهب المسمى "النور المقتبس من قواعد مذهب بن أنس" لخص فيه "إيضاح المسالك" لوالده وزاد عليه زيادات رائقة، وكذلك شرحه على مختصر ابن الحاجب الفقهي في أربعة أسفار وشرحه المطول والعجيب على "الرسالة" لمحمد بن أبي زيد القيرواني، ونظم "تلخيص" ابن البنا في الحساب وله أزجال وموشحات[33].

لقد تركت شخصية هذا العالم بصماتها في الطلبة الذين تكونوا على يديه، حيث تفوق عدد منهم في عدة علوم، ولم يتوقف تأثيره فيهم على المستوى العلمي، بل تعداه إلى الموقف السياسي الثابت مع الحق، فقد قُتل الشيخ عبد الوهاب الزقاق أبو محمد، الذي خلف عبد الواحد الونشريسي في خطة القضاء والإفتاء في فاس، من طرف السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف السوسي لأسباب سياسية كذلك سنة 960هـ[34].

فقد تعددت ميادين إسهاماتهم الثقافية من التدريس و التأليف حيث تخرج على أيديهم عدد كبير من العلماء و الطلبة، وبقيت مؤلفاتهم في العديد من فروع العلوم النقلية والعقلية، مرجعا اعتمد

عليه الكثير من العلماء وطلبة العلم في المدارس التي انتشرت عبر المراكز العلمية في المدن الكبرى، بل تعدته إلى توليتهم خطة القضاء والخطابة والإمامة والإفتاء ونالوا الحظوة والجاه لدى السلطات السياسية في هذه البلاد.

---

1 - عمار هلال، **العلماء الجزائريون في البلدان العربية والإسلامية فيما بين القرنين التاسع و العشرين الميلاديين(3 / 14هـ)**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2 ، 2010، ص 116. - ابن مريم، المصدر السابق، ص 264.

2 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، المرجع السابق، ص 71.

3 - **التنبكتي أحمد بابا:** نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة طرابلس، منشورات دار الكاتب ،2000.، ص 245. – **الحفناوي أبو القاسم محمد:** تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ج2 (الجزائر: دار موفم للنشر 1991)، ص 271.

4 - المصدر نفسه، ص 346.

5 - عمار بن خروف، المرجع السابق،ج2، ص112.

6 - نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، بيروت، ط2، ص65.

7 - محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، دار المغرب، الرباط، ط2، 1977، ص 118.

8 - المصدر نفسه، ص 119

9 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 21.

10 - عادل النويهض، المرجع السابق، ص 72

11 - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 123

12 - عادل النويهض، المرجع السابق، ص ص77-78 - احمد بابا التنمبكتي، المصدر السابق، ص599. – احمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام في مدينة فاس**،دار المنصور للطباعة، 1973، ص ص 324-325.

13 - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 136. - الحفناوي، المرجع السابق، ص 38. – عادل النويهض، المرجع السابق، ص348.

14 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج2، ص96.

15 - عادل النويهض، ص188. – ابن عسكر، ص 116. – احمد بابا التنمبكتي، ص 599. – احمد بن القاضي المكناسي، ص 325.

16 - عادل النويهض ،المرجع السابق، ص 188.

17 - ابن عسكر، ص 116.

18 - المصدر نفسه، ص 117.

19 - من مؤلفات السنوسي في علم التوحيد: "**العقيدة الصغرى**" و"**العقيدة الوسطى**" و"**العقيدة الكبرى**".

20 - كان معاصرا له وأهم مؤلفاته: "**محصل المقاصد به تعتبر العقائد**"

21 - أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، ج2،المرجع السابق، ص ص 98-99.

22 - ابن عسكر المصدر السابق، ص123. – احمد بابا التنمبكتي، المصدر السابق، ص 118. – عادل النويهض، المرجع السابق، ص236.

23 - عادل النويهض، المرجع السابق، ص 263.

24 - الحفناوي، المرجع السابق، ص 350.

25 - المرجع نفسه، ص 350.

26 - عادل النزيهض، المرجع السابق، 343.

27 - المرجع نفسه، ص 354.

28 - الحفناوي، المرجع السابق، ص 351.

29 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج1، ص 119.

30 - عادل النويهض، ص 345.

31 - ابن عسكر، المصدر السابق، ص ص 53-54.

32 - محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، **سلوة الأنفاس محادثة الاكياس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس** ،ص 162.

33 - المصدر نفسه، ص 163.

34 - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 55.

مقتطفات من تاريخ قبيلة العمور ببلاد جبال القصور خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين

د/ مجدوب موساوي، جامعة الدكتور طاهر مولاي سعيدة

ملخص: تعتبر قبيلة العمور من بين القبائل العربية الهلالية المهاجرة إلى الجزائر والتي استوطن بعضها بلاد القصور نتيجة ظروف مختلفة نطمح من خلال مقالنا هذا الكشف عن بعض الجوانب المهمة من تاريخ هذه القبيلة والأدوار المختلفة التي ساهمت فيها.

ABSTRACT: The amur tribe is one of the Arab tribes who migrated to Algeria and some of them have settled in the qsur region due to different circumstances.this paper aims to shed light on some important aspects of the history of this tribe and its contributions.

قد عرفت بلاد القصور[1] بجنوب غرب الجزائر هجرات كبيرة للقبائل العربية الهلالية نتيجة ظروف مختلفة (سياسية واقتصادية) ساهمت بدورها في التغيرات المختلفة التي عرفها المغرب الإسلامي على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي من بين القبائل العربية نجد قبيلة العَمور المنتشرة في كثير من مناطق الجزائر وكذا جنوب شرق المغرب الأقصى والتي كان لها وزنها من خلال أدوارها التي لعبتها في مجالات مختلفة.

ومع ذلك فإن هذه القبيلة لا تزال مجهولة لدى كثير من الباحثين والدارسين كما أننا لم نجد دراسة مفردة خاصة بها.فرأينا من الضروري البحث في هذه القبيلة وبصفة خاصة تلك التي استوطنت منطقة القصور قصد التعريف بها ومعرفة أدوارها وعلاقاتها بالقبائل الأخرى التي تعايشت معها عربية كانت أو بربرية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

هذه وغيرها من التساؤلات سنحاول الكشف عنها من خلال محاولتنا ومداخلتنا هذه والتي نرجو أَنْ تكون لبنة أساسية للباحثين والتي لا بد من المزيد من البحث والنظر فيها قصد الكشف عن كثير من خصوصيات هذه القبيلة.

قبيلة العَمور:(النسب – الفروع والموطن).

أ - نسبهم وأصولهم:

لم نجد ذِكر لقبيلة العمور في كثير من كتب الأنساب التي اطلعنا عليها ولا نعرف سببا لهذا الإغفال باستثناء الإشارة المفيدة التي ذكرها ابن خلدون في تمييز نسبهم الأول؛ إذ قال أنهم ليسوا من الأَثْبَج الهلاليين بإفريقيا الشمالية وإنما لحقوا بهم والغالب إلى الظن أنهم من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال وليسوا من ولد عمر بن أبي ربيعة بن نَهِيكَ بن هلال لأن رياحاً وزغبة والأثبج من أبي ربيعة ولا نجد بينهم انتماء بالجملة، ونجد بينهم وبين قرة وغيرهم من بطون هلال انتماء[2].

انقسم العمور في أول عهدهم إلى بطنين هما: قرة وعبد الله وليس لهم رياسة على أحد من هلال ولا ناجعة تظعن لقلتهم وافتراق ملتهم إنما هم ساكنون بالضواحي والجبال وفيهم الفرسان وأكثرهم رجالة؛ استوطنوا البلاد الممتدة ما بين جبل أوراس شرقاً إلى جبل راشد[3].هذه البلاد محاذية للصحراء حيث القفر والجدب.

فأما بنو قرة منهم؛ فبطن متسع إلا أنهم مفترقون في القبائل والمدن وحداناً[4].بينما توزع عبد الله إلى بطون وأفخاذ تحت رياسة بني عبد الله بن علي ومن تنسل منهم كأولاد محمد وأولاد ماضي[5] ومنهم أولاد عنان بن محمد وعزيز بن محمد ومنهم أولاد شكر بن عنان وفارس بن عنان ومنهم أولاد يحي ابن سعيد بن بسيط بن شكر.

ب - فروع قبيلة العمور:

تنقسم قبيلة العَمور إلى ثلاثة مجموعات كبيرة؛ وكل مجموعة تنقسم بدورها إلى ثلاثة فرق، وقد أفادتنا تقارير بعض ضباط عساكر الاستعمار الفرنسي أثناء تنفيذهم لسياسة فرنسا التوسعية بجنوب غرب الجزائر بأعدادهم؛ حتى ولو أن هذه التقارير لم تعطينا أعداداً صريحة لأفراد هذه القبيلة؛ بل أعطتنا تقديرات لها فقط وفق ما وصلهم من أخبار المخبرين أو استطلاعاتهم الشخصية، إلا أننا نرى أن هذه التقديرات غير بعيدة عن واقع الحال؛ باعتبار أن فرنسا كانت تريد أن تتوسع في الجنوب ومن صالحها معرفة سكان هذه المناطق من قبائل وأعراش مختلفة من جهة؛ ومعرفة تعدادها وتحركاتها من جهة ثانية حتى تحقق مشروعها التوسعي.

كما أفادنا تقريراً للضابط Monthanbery أن مجموعة صغيرة العدد من العمور اندمجت في زمن سابق مع فرق أولاد جرير[6]؛ وأصبحت الآن جزءاً منها؛ ولا نعرف مدى صحة قول هذا الضابط في تقريره.

وحسب تقرير 4 مارس 1912 بأرشيف فانسين[7] تكون قبيلة العمور على النحو الآتي:

1-**أولاد بوبكر** أكبر المجموعات الثلاثة عدداً في القبيلة؛ مجموع أفرادها 1806، يتوزعون على ثلاثة فرق هي:

-أولاد عبد الله يشكلون أكبر فرقة في هذه المجموعة بتعداد 846 فرد.وهم يتفرعون إلى مجموعة دواوير هي: أولاد لعور، أولاد قدور، أولاد علي، أولاد دحمان، أولاد عبو، أولاد عبد الكريم، أولاد السهلي، أولاد نصر، أولاد أمان الله، أولاد بن الدين، أولاد بن دودة، أولاد مصباح.

-أولاد قُطيب بلغ عددهم 600 فرد.ودواويرهم هي: أولاد خريص، أولاد خليفة، أولاد التومي، أولاد ابراهيم، أولاد عمير.

-المَذَابِيح بلغ عددهم 360 فرد.ودواويرهم هي: أولاد موسى، أولاد عيسى، أولاد الجيلالي، أولاد بوترعة، أولاد عبيد، السوالم.

2-**أولاد سْلِيم** ثاني مجموعة في القبيلة من حيث العدد؛ بلغ مجموع أفرادها 1338 فرد يتوزعون هم كذالك على ثلاثة فرق هي:

-المَرِينَات بلغ عددهم 524 فرد.ودواويرهم هي: أولاد سعيد، بوترعة، أولاد عيسى ولد علي، أولاد جلول، أولاد الحجيرة، أولاد بوذن، أولاد ودة، البيايضة، أولاد العوافي، أولاد القدادرة، أولاد بلعام.

-أولاد الشَّحْمِي بلغ عددهم 450 فرد.ودواويرهم هي: أولاد التومي وأولاد أحمد.

-أولاد بُوشَارَب (يعرفون بالشوارب) بلغ عددهم 360 فرد.دواويرهم هي: الرزازقة، الزياتنة، العوابد، جبابرة، حمليلي، المناصرة.

3-**الصوالي** وهي المجموعة الثالثة والأخيرة من حيث عدد أفرادها البالغ 1053 فرد يتوزعون هم كذالك على ثلاثة فرق هي:

-أولاد عَلِيَّاتْ بلغ عددهم 420 فرد.دواويرهم هي: أولاد اعمر، أولاد بوبكر، لقوانة، أولاد موسى، أولاد ميسات، أولاد لعور

-أولاد سْليمان بلغ عددهم 333 فرد.دواويرهم هي: اللبابدة، أولاد نَبُّو، أولاد بوزيان، لهيايكة، أولاد الشيخ.

-أولاد عَامَر بلغ عددهم 300 فرد.دواويرهم هي: أولاد الخشعي، أولاد العيد.

وبهذا يكون مجموع قبيلة العمور خلال التاريخ المذكور ووفق التقرير الفرنسي 4187 فرد[8].

ج - بلاد ومواطن قبيلة العمور:

لقد أفادنا ابن خلدون في تأليفه بمواطن قبيلة العمور الأصلية والتي تبدلت تدريجياً مع مرور الزمن من البلاد الشرقية للجزائر إلى جنوب غربها ببلاد القصور؛ وبصفة خاصة منهم بطن بنو عبد الله.

فأفادنا ابن خلدون بمواطن أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضي بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة قاعدة الزاب متصلين بجوار رياح وتحت طاعتهم خصوصاً الزواودة الذين يجولون بوطنهم؛ وصاحب الزاب وبسكرة عليهم طاعة لقرب جواره وحاجتهم إلى سلطانه.

كما ذكر أن موطن أولاد شكر جبل راشد؛ ثم استقل به أولاد محيا بن سعيد بعد طردهم لأولاد زكرير فصاروا إلى جبل كسال[9] وأوطنوه[10]؛ ومنهم من هاجر إلى المناطق الغربية منه في شمالها وجنوبها وانتشروا بصفة خاصة ببلاد القصور؛ واستوطنوا في واحاتها وقصورها الواقعة بين أحضان سلاسل الأطلس الصحراوية والتي تحيط بها الجبال من كامل الجهات؛ متمثلة في قصور فجيج[11]، بني ونيف[12]، مقرار التحتاني[13]، الصفيصفة[14]، عسلة[15]، عين الصفراء[16]، تيوت[17]، الشلالة الظهرانية[18]، الشلالة القبلية[19]، ومقرار الفوقاني[20] وبوسمغون[21] وأربا الفوقاني[22] وأربا التحتاني[23] والأبيض سيدي الشيخ[24]، سيدي الحاج بن عامر، كراكدة[25]، مشرية الصغيرة[26]، بوعلام[27]، سيدي أحمد بلعباس، المايعة، خلاف، الغسول[28]، بريزينة[29]، سيدي طيفور، سيدي سليمان، الكديان وستيتن[30] [31]؛ بل وصلت بعض فرقهم إلى فندي[32] وموغل[33] وبوكايس[34]؛ وتمكنت من امتلاك ملكيات فلاحية من بساتين وحقول، فمثلاً أولاد عبد الله وأولاد قطيب كانوا يملكون واحات من النخيل بنواحي فجيج أما المرينات فكانت لهم ملكيات بإيش[35] ومغرار، كما أن فرقاً من هذه القبيلة أصبحت في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر تنزل بمواشيها في المجال

الممتد ما بين عين بن خليل[36] إلى العريشة[37] قرب ثنية الساسي بشط تقري تتقاسم مع ساكنة هذه البلاد المراعي ونقط الماء؛ وبصفة خاصة قبيلتي حميان[38] وبني قيل.

وضعية القصور الجغرافية الممتازة وسط جبال سلاسل الأطلس الصحراوي، كانت عاملاً طبيعيًا أساسيًا في توجيه تاريخ المنطقة عبر قرون.إلى جانب عيون الماء المتفجرة وسط قصورها والتي كانت الأساس الذي قامت عليه الحياة في المنطقة مستقطبة عناصر سكانية متباينة متمثلة في العناصر البربرية الزناتية والصنهاجية[39]، التي غلب على نمط عيشها الاستقرار وممارسة الفلاحة، والعناصر العربية كالعمور، وأولاد سيدي الشيخ[40]، حميان، أولاد جرير وذوي منيع[41]،...والتي اعتمدت في حياتها على التنقل والترحال معتمدة على الماشية كمصدر رزق.

وبهذا تكون غالبية أفراد قبيلة العمور قد انتشرت وتمركزت بكافة مجال القصور الصحراوية وجبالها؛ إذ تمكنت من فرض وجودها؛ وبصفة خاصة بقصور تيوت، الصفيصفة، العين الصفراء، المغارين (التحتاني والفوقاني) بالجزائر وقصرا إيش وفجيج بالمغرب الأقصى.

كما أن هذا الانتشار والتوسع كان عاملاً مهماً لها مكن أفرادها من التحكم في طرق ومعابر قوافل التجارة الصحراوية من جهة وقوافل الحجاج إلى مكة المكرمة من جهة ثانية.ونلمس هذا من خلال التآليف التي أشارت إلى هذه القبيلة بعد ابن خلدون ومنها ما ذكره العياشي[42] في رحلته بعد عودته مع ركب الحجاج من أداء فريضة الحج عبر الطريق الصحراوي المألوفة عام 1074 هـ - 1663 م؛ بقوله: " وبلغنا قرية الكراكد، ووجدناها في غاية ما يكون من الغلاء وقد غارت عليهم خيل من خيول العمور بالأمس فأخذت لهم غنماً...وفي الغد ارتحلنا ووجدنا عرب الأغواط[43] الغربية قد فروا أمامنا من العمور..."[44].

كما ذكر الهشتوكي[45] قبيلة العمور في حجته الثانية عام 1119 هـ - 1707 م؛ إذ وقف على قطيع كبير من الماشية لعرب العمور وغيرهم بموضع قريب من بوسمغون.

وبهذا تكون هذه القبيلة قد غيرت مواطن انتشارها الأصلية من شرق الجزائر إلى غربه؛ فبعد أن كانت مواطن هذه القبيلة في عهد ابن خلدون ما بين جبال الأوراس وجبل راشد أصبحت في أواخر القرن السابع عشر ببلاد جبال القصور.

1-الحياة السياسية عند قبيلة العمور:

عرفت الجزائر تطورات سياسية من قيام حكم عثماني وما صاحبه من تغيرات وإصلاحات في مجالات عديدة.وسكان منطقة بلاد جبال القصور عامة؛ ومنها قبيلة العمور خاصة، لم تكن في منأى عنها بالرغم من أنها ظلت متفلتة من السلطة السياسية؛ وهذا ما أشار إليه العياشي في رحلته بقوله: « إن أجزاء كبيرة من البلاد كانت مستقلة لا تخضع للوجود العثماني، بل هي تحت تصرف أمراء محليين...ولأولاد سيدي الشيخ نفوذ على مناطق شاسعة »[46].

فمن خلال قول العياشي نفهم أن بلاد القصور والأطلس الصحراوي التي كانت تمثل مجالاً جغرافياً واحد على ما هو شائع على الألسن لدى أهالي هذه المنطقة ظلت مستقلة عن النفوذ العثماني، لكن يبقى هذا أمرًا ظاهريًا فقط لكون الواقع كان عكس ذلك.إذ جعل الأتراك بينهم وبين أهالي هذه القصور واسطة تمثلت في قبائل المخزن[47] والتي أسندت لها مهام إدارية وعسكرية، ومن هذه القبائل التي تعاونت مع النظام التركي نجد قبائل أولاد سيدي الشيخ.

كما يذكر ناصر الدين سعيدوني: « إن مجموعات سكانية كانت ممتنعة من سلطة البايليك، وكانت تتألف أغلبها من القبائل التي كانت تعيش في المناطق الجبلية الحصينة...أو التي كانت تجوب جهات الهضاب الوهرانية ومناطق الأطلس الصحراوي (أولاد نائل والعمور والقصور)، وتخوم الصحراء...»[48].

كما أن الإدارة الفرنسية بعد العثمانيين لم تتمكن هي الأخرى من إخضاع القبائل العربية أو البربرية تحت سلطتها فالنظام الذي كان سائدا بمنطقة جبال القصور هو نظام الجماعات والمشايخ.

ومما سبق نفهم أن سكان بلاد القصور من العرب البدو الرحل والبربر المستقرين لم يكونوا يخضعون لأي نظام غير نظام القبيلة فهو نظامها السياسي إذ فرض أن يرتبط أفرادها بعضهم ببعض برباط النسب والعصبية الشديدة للقبيلة؛ وهي عصبية فرضتها الحياة في هذا المجال الجغرافي وأصبحت عندهم أساس مجتمعهم، ولدت روحا ايجابية في التضامن والتكافل والاتحاد بين أفرادها[49].

هذه القبيلة كانت فردية في نظامها وفي جميع جوانب حياتها؛ وكانت كل أمورها تسند إلى فرد واحد هو شيخ القبيلة يوليه أفرادها احترامًا وتقديرًا كما أن الجميع ملتزم بتنفيذ قرارته واحترامها.

مأمورية المشيّخة لم تكن تسند لأي شخص كان بل للذي كانت تتوفر فيه شروط؛ كأن يكون الأكثر ثراء في القبيلة وأن يكون ينتمي إلى عائلة ذات صيت ونفوذ وشهرة؛ وأن يتحلى بالشجاعة والأخلاق الحسنة والعلم.هذه المزايا والخصال التي تتوفر في الشخص المقدم إلى المشيّخة جعلته يكونَ راعيًا رسميًا وأبًا روحيًا واجتماعياً لقبيلته، بل أُعتبر كمرجعية أخلاقية وقانونية في الحياة الأسرية القبلية.فهو المدبر لشؤونها وبصفة خاصة الخارجية منها؛ ولا نفهم أن الشيخ في قبيلته كانت له الحرية المطلقة في التصرف والتدبير؛ فالأعراف القبلية تقتضي منه دوما الرجوع إلى التشاور مع جماعته من الأعيان المكونين لمجلس القبيلة؛ وبصفة خاصة في حالات الإحساس بخطر خارجي أو الاتفاق والإجماع على أخذ الثأر أو لتسوية الخلافات والنزاعات الناشبة بين المجموعات المكونة للقبيلة أو توزيع مجالات الرعي ونقط الماء[50]؛ كما يمكن أيضا لأعضاء مجلس القبيلة (الجْمَاعة) بصفة خاصة وأفراد القبيلة بصفة عامة الحق في أن تغير من شيخها ولا يمنعها في هذا شيء إذا ما أساء التصرف أو عرض مصالح القبيلة للخطر[51].

ومن بين الشخصيات التي تولت مشيّخة قبيلة العمور نجد كل من محمد ولد علي وأبو فلجة ولد مبارك؛ وهما شيخان بارزان في فرقة أولاد عبد الله من عرش أولاد بوبكر، ويحظى الشيخ أبو فلجة ولد مبارك

بالخصوص بالأولوية وبنفوذ أكثر إذ كان ناطقاً رسمياً باسم فرقة أولاد عبد الله يتولى مكاتبة السلطان وعماله في المنطقة وترأس وفد فرقته إلى بلاد السلطان مولاي الحسن في صيف 1888.

وإلى جانب لقب شيخ القبيلة اتخذت ألقاب أخرى من صنع القبيلة نفسها للتمييز بين وظائف الأعضاء في فرقها؛ ومن هذه الألقاب نجد لقب المقدم[52] إذ عادة ما كان يطلق على العضو في الجماعة الممثل لإحدى الطرق الدينية في فرقته وفي هذا نجد أمثلة كثيرة لوظيفة المقدم سنتطرق إلى ذكر بعضهم في عنصر الحياة الثقافية والتصوف بقبيلة العمور.كما نجد كذلك لقب الفقير وهو أقل درجة من المقدم، ثم لقب الطالب عادة ما كان يطلق على العضو المتعلم في الجماعة وهم حفاظ القرآن الكريم.

شكل العموريون فيما بينهم اتحادية تتفرع منها جميع عروشهم التي انقسمت بدورها إلى فرق تشكل الوحدات السياسية والحربية في القبيلة؛ لها جماعتها الخاصة متكونة من شيوخ الدواوير[53] والذين هم في نفس الوقت رؤساء العائلات الكبيرة ممن يملكون الثروة أو يتوفرون على مميزات شخصية تجعل منهم قادة الرأي والحرب في دواويرهم، وعلى رأس الجميع يوجد شيخ القبيلة.

أما أحكام القضاء داخل القبيلة أو الفرقة مما لا يرجع البث فيه إلى الشريعة الإسلامية فإن العرف يأخذ مجراه كما هو الشأن لدى جميع القبائل وسكان القصور الصحراوية عبر أحكام عرفية أو شفوية غير مكتوبة سبق الاتفاق عليها وجرت ممارستها من قبل.ففي حالة جريمة القتل يطرد القاتل إلى فرقة أو دوار آخر إلى أن تسوى ديّة القتيل لصالح عائلته وتحددها فيما بين 300 إلى 400 فرنك فرنسي؛ أما السرقة فينتدب لها مجموعة من الأفراد عن كل الطرفين المعنيين بالحادث ويسهرون على رد الأشياء المسروقة ولو باستعمال القوة[54].

2-الحياة الاقتصادية عند قبيلة العمور:

اعتمدت قبيلة العمور كغيرها من القبائل البدوية الأخرى في حياتها الاقتصادية ونمط معاشها على نشاطات مختلفة؛ تمثلت في:

أ-الرعي والترحال:

هو الميزة الأساسية التي تتسم بها حياة البدوي بصفة عامة والعموري بصفة خاصة؛ إذ دوما مرتحل بقطعانه من الغنم والإبل باحثا عن العشب والماء، وهو ما يعرف كنمط حياة بعملية الرعي المتنقل وهو أبسط أنواع الرعي التي عرفها الإنسان.

هذا النمط من الحياة يكون دوما في خدمة الحيوان المَرْعي لقاء ما يوفره له من إشباع لاحتياجاته الضرورية؛ فالماشية عند البدوي هي المأكل والمشرب والملبس والمنزل...؛ فضلا عن أنها مصدرا لثرائه وغناه ومبعث لفخره وتباهيه، لهذا حظيّ هذا النوع من الحيوانات بمكانة كبيرة في نفوس وعقول البدو سواء بالتملك أو بالتطلع أو حتى بمجرد الحديث عنها.

هذا النمط من المعاش عرفته قبيلة العمور ومارسته سنين طويلة إلى يومنا هذا؛ إذ ظلت هذه القبيلة في ترحال دائم، متنقلة من مرعى إلى مرعى آخر، هذه الحياة لم تكن قدرا مكتوبا على العموري، بل حتمته البيئة الطبيعية التي قطنها بجبال وبوادي واحات القصور؛ هذه البيئة المعروف عنها أنها بيئة صحراوية أو شبه صحراوية مياهها قليلة ومراعيها فقيرة.

ففي أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت فرقا من العمور تنزل بمواشيها في المجال الممتد ما بين عين بن خليل إلى العريشة قرب ثنية الساسي.

كما كانت خِيّمها منتشرة بكافة مجال القصور الصحراوية وجبالها ابتداء من عسلة وعين الصفراء في جهة الشرق إلى الواحات القريبة من فجيج في جهة الغرب؛ إذ صاروا يتقاسمون فيها بعض المراعي ونقط الماء إلى شط تقري وعين بن خليل وواحات جنين بورزق وبني ونيف وفندي مع مجموعة من القبائل كبني قيل وحميان وأولاد سيدي الشيخ وأولاد جرير وذوي منيع.

وقد ذكر الحاكم العام في الجزائر في رسالة لوزير الحربية بباريس بمجال تنقل قبيلة العمور؛ وهي البلاد المحصورة ما بين العريشة وسعيدة ومنها إلى الأبيض سيدي الشيخ جنوبا؛ وهو نفس مجال تنقل قبيلتي حميان وبني قيل[55].هذه المنتجعات المقصودة من طرف هذه القبائل المترحلة هي نقط تواجد الماء والتي قد تكون بئر أو عين أو واد أو مشرع من الماء والذي يسمى عند العموريين بِالْغْدِيرْ.

كما عرف على أفراد هذه القبيلة أن تنقلاتهم لم تكن في الغالب بعيدة المدى؛ بل انحصرت في الغالب بين جبالهم المعتادة وقصور الجنوب إلى حد واحة فندي؛ وهو التنقل الذي يعرف عندهم بمصطلح التْخْلاَفْ[56].

وعموما فإن أماكن ظعن قبيلة العمور قبل سيطرة الاستعمار الفرنسي على المنطقة توزعت حسب الفرق وفصلي الشتاء والصيف كالآتي:

-**أولاد بوبكر:** ومنهم:

1-أولاد عبد الله:

كانت تنقلاتهم في فصل الشتاء ما بين الركاني، درمل (حجرات المقيل)، القعادي (الْمَعْذَر لَحْمَر).أما في فصل الصيف فكانوا يتنقلون ما بين إيش، عين سفيسيفة، العنبة، القعلول، تاوسارة، المقرون، وجبل بني سمير.

2-أولاد قطيب:

تنقلاتهم في فصل الشتاء ما بين شبكة التمايد، الأعوج، وادي الناموس[57]، الفيجة، مقرار.وفي فصل الصيف يتنقلون ما بين مكاليس[58]، عسلة والسوم.

3-المذابيح:

تنقلاتهم في فصل الشتاء ما بين بالرماد، القعادي (المعذر لحمر).وفي فصل الصيف يتنقلون ما بين أولقاق، الفرطاسة، نواحي جبل دُوق.

-أولاد سليم: ومنهم:

1-المرينات:

تنقلاتهم في فصل الشتاء ما بين الفيجة، الرويبة وقارة العشوة.وفي فصل الصيف يتنقلون ما بين جبال مير لجبال، مزي، المكثر.

2-الشوارب وأولاد الشحمي:

تنقلاتهم في فصل الشتاء ما بين السدرة، المصيلحة، مخيزن وفوناسة.وفي فصل الصيف يتنقلون ما بين الحيرش، العرنوق، تاوسارة، المقرون، ضاية الذيب، العنبة.

-الصوالي:

تنقلاتهم في فصل الشتاء ما بين بولرفض، الملاحة، خناق الناموس، ثنية الزبوج، الويزدن والمزيرات.وفي فصل الصيف يتنقلون ما بين الرونجي، الطوارق ومَقْطَع الدْلِي.وهو المجال ما بين عسلة، عين الصفراء وقليلا ما تصل إلى مقرار وفوناسة وصفيصيفة.

كما تصل تنقلات العمور خلال فترات السلم والوئام بين قبيلتي حميان وبني قيل إلى عقلة عبد الجبار وشط تقري شمالا وإلى المقرون والنعامة شرقا وإلى فندي جنوب غرب[59].

ب-الإغارة والسلب:

كانت تمثل الإغارة والسلب عند أغلب القبائل البدوية خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ببلاد جبال القصور جزءاً من حياتها الاقتصادية؛ وهي الغارات التي كان يشنها المحاربون على قبائل بعيدة عن موطنهم خصوصا في فترات القحط والمجاعات التي كانت تتعرض لها مواطنهم، ولنا في هذا مثالا عند قبيلة العمور من خلال إشارة العياشي الذي وجد عند وصوله إلى الكراكدة خيولا للعمور قد أغارت على أهاليها وأخذوا لهم عددا من رؤوس الغنم[60].

ج-الزراعة والصيد:

رغم أن قبيلة العمور ظلت مترحلة إلا أن هذا لم يمنعها من ممارسة نشاط الفلاحة؛ إذ اهتم الكثير منهم بحرث أحواض بعض الأودية في مجال تنقلاتهم وبصفة خاصة خلال الأعوام المطيرة[61]؛ كما يظهر ذلك من خلال تقرير الضابط العسكري الفرنسي مون ثبري الذي ذكر أنه في سنة 1879 سجلت 80 عملية حرث واسعة للحبوب وبصفة خاصة الشعير والذرة قامت بها فرقا من قبيلة العمور في كل من أولقاق، عوينة رحو، القعادي (عين المعذر لحمر)، وادي الحلوف، درمل (حجرات المقيل)، الأعوج وفندي.

كما تتحدث مذكرة كتبت في 2 سبتمبر 1885 أنه كان لقبيلة العمور الكثير من الأملاك الزراعية من بساتين ونخيل في واحات القصور وبصفة خاصة بقصر مقرار التحتاني عند أولاد بوبكر وأولاد سليم؛ ولنا في هذا الكثير من النماذج منها:

-أولاد عبد الله: كانوا يملكون نخيلا بواحات فجيج، بني ونيف، فندي، جنين بورزق، درمل (حجرات المقيل)، تيوت، عين الصفراء وصفيصيفة.

-أولاد قطيب: هم أيضا كانوا يملكون نخيلا بواحات مقرار التحتاني وإيش وفوناسة.
أولاد سليم عامة: كانت لهم بساتين ونخيل بمقرار التحتاني وعسلة.
-أولاد الشحمي: أملاكهم من النخيل بواحة فجيج[62].

وما وجب أن نشير إليه وهو أن قبيلة العمور وغيرها من القبائل البدوية الأخرى كحميان وأولاد جرير وذوي منيع وبني قيل عرفت نشاط الفلاحة بسبب استثمارهم لجزء من أموالهم في شراء بساتين القصور أو بسبب إيداع البدوي لماله عند القصوري مقابل رهن هذا الأخير لملكيته الزراعية له وعندما لا يجد من وسيلة ليرد له ماله المودع عنده والذي استهلكه تتحول ملكيته الزراعية مباشرة للبدوي؛ أو بسبب دين اقترضه منه وعجز عن تسديده؛ فبهذه العملية تحولت الكثير من البساتين في القصور إلى ملكيات للبدو ومنهم العمور وتحول معها جزء من القصوريين إلى خماسين يزرعون ويسقون ويتعهدون البساتين والنخيل بخمس الإنتاج لصالح الأولين.

كما احترف البعض من أفراد قبيلة العمور صيد الحيوانات البرية في الجبال وبالأخص الأروي والبقر الوحشي؛ كما تخصص آخرون منهم في استنباط القطران من شجر السرو البري والذي يستخدم كدواء لدى مالكي الإبل إذ تطلى بها مرتين في السنة لتجنيبها الإصابة بالأمراض[63].

د-التجارة:

اتخذت أشكالا متعددة عند العمورين والتي لم تقتصر عليهم فقط؛ بل عرفتها جميع القبائل البدوية القاطنة ببلاد جبال القصور على اختلاف أصولها وفروعها؛ ومن هذه الأشكال نجد:

1-التبادل:

كان يتم التبادل بين البدو الرحل والمستقرين بالقصور قصد تحقيق منفعة متبادلة وتحقيق التكامل فيما بينهما؛ عادة كانت تتم هذه العملية بالأسواق وبصفة خاصة بسوقي عين بني مطهر وفجيج.كانت المبادلات عبارة عن مواد استهلاكية بعضها منتج محليا كالصوف والسمن والماشية وهذا بالنسبة للبدو الرحل؛ والتمر والملابس والأغطية الصوفية (كالسلهام، البرنوس، الحايك، الزرابي...) بالنسبة للمقيمين بالقصور.وبعض هذه المواد مجلوب من المناطق التلية كالحبوب (القمح والشعير) عند المجموعة الأولى؛ والسكر والشاي والبن والزيت والصابون والشمع...عند المجموعة الثانية.

عملية التبادل هذه كانت تتم بالمقايضة مقابل مبالغ نقدية أو عينية من جهة ومن جهة ثانية تتم بالقرض (الدين)؛ والذي غالبا ما كان يوثق في كنانيش إلى آجال معلومة.فالبنسبة للبدو الرحل كان يتم تسديده في فصلي الخريف والربيع (شهري أكتوبر وأفريل من كل سنة)؛ وهي الفصول التي يكثر فيها العشب والماء وتتكاثر فيها الغنم وما ينتج عنها من خير كبير من كثرة الألبان والسمن والصوف.أما بالنسبة لسكان القصور عادة ما يكون التسديد إلى آجال غير محددة وقتما تكون صناعتهم النسيجية جاهزة من فراش وملابس صوفية.

2-الشراكة في تجارة الغنم:

تتم بين القصوري والبدوي من خلال استثمار الأول لأمواله في البادية لأجل الشراكة في تجارة الغنم.

3-التخزين:

يخزن البدوي عند صاحبه في القصر الكثير من المواد كالصوف، السمن، القمح، الشعير؛ كما يخزن السلاح والبارود والنقود والأفرشة وغيرها من مواد أخرى، فكانت القصور بالنسبة له تمثل مخازن حفظ وذلك بسبب عدم استقراره وتنقله بصفة مستمرة[64].فقبيلة العمور بفرقها المختلفة كانت مخازنها بالقصور الآتية:

-قصر إيش: تخزن فيه كل فرق أولاد بوبكر (أولاد عبد الله، الشوارب والمذابيح)[65].

-قصور فجيج: متمثلة في:

1-قصر الوداغير[66]: يخزن فيه أولاد عبد الله، أولاد قطيب والمذابيح.

2-قصر زناكة: يخزن فيه أولاد قطيب وأولاد عليات.

3-قصر المعيز: يخزن فيه أولاد قطيب.

-قصر عين الصفراء: هو مخزن لأولاد عليات والصوالي.

-قصر تيوت: هو مخزن للصوالي.

-قصر صفيصيفة: هو مخزن للمذابيح والشوارب.

-قصر كرزاز التحتاني: هو مخزن لأولاد قطيب، أولاد الشحمي والصوالي.

-قصر كرزاز الفوقاني: هو مخزن المرينات، أولاد الشحمي وأولاد قطيب[67].

3- الحياة الثقافية عند قبيلة العمور:

أ-التعليم:

لم يكن التعليم موجود عند قبيلة العمور بحكم طبيعة حياتها المتنقلة؛ وإِنْ وُجد عِند المحظوظين منهم فإنه كان يتم بطريقة تقليدية وهي مُشارطة معلمي القرآن لتدريس أبناءهم؛ فكانت فجيج وقورارة[68] وتوات[69] خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلاديين مصدرا لعدد من حفظة القرآن الراغبين في تدريسه لأبناء الرحل والإمامة عليهم في الصلوات الخمس وقراءة الحزب والأذكار يعقدون مع شيوخ الفرق أو الدواوير ما يسمى بعقد المشارطة يلتزم هؤلاء الحفظة بمزاولة هذه المهام الدينية – التعليمية خلال مدة زمنية قد تستغرق سنوات مقابل أجرة نقدية وعينية حسب شروط العقد المتفق عليه من الجانبين.وقد تتحول إقامتهم المؤقتة إلى إقامة دائمة أحيانا إذا ما تزوج المعلم بأعرابية من الدوار أو الفرقة المشارط عندها[70]؛ ونجد في هذا مثالا لأولاد خليفي من العمور فجدهم هو الطالب يوسف بن حمو المنتمي إلى توات والذي أتى إلى المنطقة معلما للقرآن الكريم لأبناء سليمان بن صَوْلَة بن سليمان بن موسى، ويحكى أن جيشا قد أغار على مواشي سليمان بن صَوْلَة فقام الطالب يوسف بِصدِّ الجيش الغازي فزوجه سليمان إحدى بناته وهي " زاهية "، لهذا يقول لأولاد خليفي أن أولاد سليمان أخوالهم وكانوا يكونون مع الصَّوالي عرشا واحدا[71].

ب-التصوف:

ساهمت قبيلة العمور في خدمة الدين من خلال ما كانت تقدمه من هبات وصدقات إلى زوايا تمثل طرق صوفية مختلفة عن طريق مقاديمها متمثلة فما تجود به ماشيتهم من خراف، سمن، صوف يستفيد منها طلبة العلم وبصفة خاصة طلاب زاوية الولي الصالح عبد القادر بن محمد المشهور بسيدي الشيخ[72] وزاوية سيدي أحمد بن موسى الكرزازي[73]؛ فالبنسبة للأولى أصبح العموريون خداما لها منذ أن حضر وفد منهم لزيارة سيد الشيخ فخرج إليهم هذا الأخير وخرج في أثره ابنه سيد التاج دون انتباه من والده؛ فلما رآه أفراد الوفد الزائر ظنوه بنتا وتحاشوا النظر إليه لطول شعره، ففطن سيد الشيخ للأمر وأخبرهم أنه سيد التاج ولده ففرح الوفد العموري بالطفل وتفاءلوا به خيرا، ومنذ ذلك أصبح العمور خداما لسيد التاج يقدمون له ولخلفه من بعده الهدايا والزيارات[74].وأصبح الكثير منهم مريداً في الطريقة[75] الشيخية[76].

كما يذكر الأستاذ خليفي أن قبيلة أولاد سيد التاج بعد انتقالها من الأبيض إلى منطقة عين الصفراء استقرت وسط قبيلة العمور إذ كانت لهم مكانة طيبة بينهم[77].

ومن مقاديم قبيلة العمور في الشيخية على سبيل المثال لا الحصر نجد المقدم علال بن أبي بكر وأخاه الفقيه سيدي محمد بن بوبكر[78].

أما بالنسبة للزاوية الكرزازية والقادرية[79] فيذكر الضابط دي لا مارتينار: "...نجد عند العمور بعض إخوان الكرزازية وفي كل قبيلة نجد ثلاثة أو أربعة من خدام سيدي عبد القادر الجيلاني[80]، والمقدم يمثل قبيلته..."[81].

ومن مقاديم زاوية كرزاز خلال النصف الأول من القرن العشرين كنماذج؛ نجد المقدم عيسى ولد أحمد من عرش أولاد قطيب، المقدم بن دودة لحبيب من عرش أولاد عبد الله، المقدم بكير بلعربي من عرش أولاد الشحمي، المقدم حمليلي معمر من عرش المذابيح، المقدم شريط بوجمعة من عرش الصوالي.

أما بالنسبة للزاوية القادرية خلال نفس الفترة المذكورة فنجد المقدم عمار من أولاد إبراهيم من عرش أولاد قطيب، المقدم بن بكير عبد القادر من عرش أولاد الشحمي[82].كما نجد أن العمور كانوا خداما وأتباعا للشيخ بوعمامة[83].ومن مقاديمهم المقدم محمد بن سعيد.

ومن مقاديم الطريقة الطيبية نجد المقدم سكوري مول الفرعة ولد عبد القادر من عرش أولاد عبد الله، المقدم برينيس برينيس من عرش أولاد الشحمي، المقدم بوقرين التوهامي من عرش أولاد بوشارب، المقدم علواني بلعربي من عرش المرينات.كما كان العمور مقاديم للطريقة الدرقاوية وبصفة خاصة أولاد يوسف خليفي كالمقدم خليفي محمد بن بوعزة.

كان للمقاديم دور كبير في أعراشهم من خلال تلقين الأتباع الأذكار والمواعظ والحث على التمسك بتعاليم الدين الحنيف والتذكير بالآخرة هذا التلقين لم يقتصر على الرجال فقط بل استفادت منه حتى النساء من وراء حجاب أو من الزوج إلى زوجته[84].

في الأخير نرجو أن يكون مقالنا هذا قد كشف عن جوانب مهمة من تاريخ قبيلة العمور؛ وأبرز بعضَ خصوصياتها والأدوار المختلفة التي لعبتها على مختلف الأصعدة ببلاد جبال القصور، ونأمل أن يكون إضافة علمية للباحثين والدارسين والمهتمين بتاريخ القبائل الجزائرية عامة، وبصفة خاصة منها تلك التي عمرت في الجهة الجنوبية الغربية.

الهوامش:

1 جمع قصر؛ والقصر يمثل مجموعة سكنية محاطة بسور منيع أو أسوار، وعادة ما ينحدر أغلب سكانها من أصل واحد.

2 عبد الرحمن بن خلدون (732 – 808 هـ / 1332 – 1406 م).**تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحاده، راجعه سهيل زكار، ج6، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، 1421هـ- 2000م، ص 34.

3 يعرف اليوم بجبال العمور نسبة إلى قبيلة العمور التي استوطنته؛ وهي الجبال التي تتوسط جبال القصور وجبال أولاد نايل من سلسلة الأطلس الصحراوي بشمال الأغواط.يقول عنه الأغواطي في رحلته: "...جبل عال جداً وفيه مائة عين جارية...وأرض هذا الجبل صالحة للزراعة...وفيه كل أنواع الخشب.ويقدر طوله وعرضه بحوالي مسافة يومين لكل منهما.والسكان هناك يربون الإبل، وبعضهم يربي المعز والغنم، وهم من أجود الفرسان، ولغتهم هي العربية، ولا يحكمهم أي سلطان...".سعد الله أبي القاسم.**رحلات جزائرية 3 – رحلة الأغواطي الحاج بن الدين – مجموع رحلات**، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 89.

4 ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 34 – 35.

5 ينسب إليهم قصر عين ماضي وهو من قصور الأغواط، به مقر الطريقة التجانية.

- Daumas.**le Sahara Algérien études géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie,** Dubos frères, Alger,1845, PP.23 - 43.

6 قبيلة عربية؛ بطن من بطون دارم بن حنظلة من العدنانية، نسبة إلى الجريري، كما تنسب إليهم تميم وهم بنو جرير.عيسى قوراري.**قبيلة حميان دراسة تاريخية وسوسيو- ثقافية**، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، ص71.

7 التقرير ورد في مذكرة هذا الضابط والمحررة بالعين الصفراء بتاريخ 7 فبراير 1888 نقلاً عن المخبرين.أحمد مزيان.**المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن 19 م (1845 – 1912)**، ج 1، ط.1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 1428 هـ- 2007 م، ص 86.

8 بن عيسى بوحميدة محمد.**مفاتيح عرش المذابيح عادات وتقاليد وأنساب**، العالمية للطباعة والخدمات، 2011، ص ص 12 – 42.مزيان، المرجع نفسه، ص 87.

9 يقع على مسافة كيلومترات قليلة شرق مدينة البيض.

10 ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 34 – 35.

11 عبارة عن ثلاثة قصور في وسط الصحراء تحيط بها عددا كبير من النخيل...نساء فجيج يهتمون بالصناعة النسيجية، في حين الرجال يمتهنون التجارة مع بلاد السودان، ويرحل بعضهم إلى فاس لدراسة الآداب ليتخرجوا منها أئمة وخطباء مساجد...جميع الفكيكين أثرياء، وقصورها تبعد بنحو 250 ميلاً شرقي سجلماسة.محمد الوزان الفاسي المعروف بليون

الإفريقي.**وصف إفريقيا**، تر عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، ط2، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص ص132- 133.

12 قصر من قصور الساورة في جهتها الشمالية؛ به ضريح سيدي سليمان بن أبي سماحة جد سيدي الشيخ.

13 من قصور صحراء تلمسان.يقع أسفل قصر مغرار الفوقاني.أهله مزارعون للخضر والفواكه في بساتينهم.

- Daumas, op.cit, P.251.

14 قصر من قصور العين الصفراء؛ يحدها شمالا جبل مرغاد والذي تنبع منه مياه وادها، والتي تستعمل في سقي البساتين.بها ضريح الولية الصالحة (لالا صفية) عمة سيدي الشيخ.

- ibid, P.250.

15 بها ضريح الولي الصالح سيدي أحمد المجذوب عم سيدي الشيخ؛ وتذكر المراجع الأجنبية على أنها من قصور قبيلة حميان.بنيت عسلة على صخرة، وأخذت اسمها نسبة إلى النهر الصغير الذي يجري بأراضيها.

- Robert GEORGES**. Voyage à travers l'Algérie,** E, dentu éditeur, Paris,1891, P.396.ibid, P.245.

16 من قصور صحراء تلمسان، محاطة بالجبال وبها كثبان رملية في جهتها الجنوبية.

- Daumas, ibid, P.249.

17 قصر من قصور العين الصفراء.شماله عبارة عن جبال وغربه عبارة عن كثبان رملية، يجري بوسطه واد يستغل في سقي البساتين المشهورة بزراعة التمور والتين.

- ibid, P.248.

18 قصر من قصور صحراء تلمسان في جهتها الجنوبية الغربية.بها ضريح والد سيدي الشيخ محمد بن سليمان.أهله مزارعون للخضر والفواكه، ولبعض نخيل التمور، وهي مصدر أرزاقهم إلى جانب ممارستهم للتجارة، كما عرفوا بصناعة التبغ من أشجار العرعار، إلى جانب صناعتهم للصابون.

- ibid, PP.242 - 244**.**

19 قرية صغيرة مبنية على صخور؛ بها مسجد ومدرسة، محاطة بسور به ثلاثة أبواب، بها بساتين كثيرة للخضر والفواكه، النساء بها يمتهنون حرفة نسيج ملابس الصوف كالبرانيس والحياك والجلابيب.

- ibid, PP.241- 243**.**

20 يقع جنوب قصر العين الصفراء بنحو 28 ميل.به بساتين منتجة للخضروات وأشجار الفواكه ونخيل التمور، تسقى من وادها المسمى واد الحَّيمَر والذي يصب في واد الناموس.

- ibid, P.251.

21 يقول العياشي: «...بوسمغون أرخص من كثير البلاد التي مررنا عليها قبل...من عادة أهلها أن يخرجون إلى المصلى بسلاحهم لا يخرج أحد بغير سلاح صغيرًا كان أو كبيرًا، ويبنون في المصلى أحجارًا يتخذونها غرضًا للرمي بالبنادق...وغالب الناس مشتغلون بالرمي حتى في حال الصلاة والخطبة...».عبد الله بن محمد العياشي.**الرحلة العياشية 1661 - 1663 م**، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، م2، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ص ص 548- 549.

22 قصر من قصور صحراء تلمسان، يقع شرق قصر الشلالة الظهرانية.أهله يمارسون الزراعة.

- Daumas, op.cit, P.241.

23 يقع أسفل القصر السابق لهذا أخذ هذه التسمية.

- ibid, P.241.

24 كان يعرف بواحة تانكريت سابقا.ليأخذ هذا الاسم بعدها نسبة للصوفي سيدي الشيخ، أين توجد زاويته وضريحه.أهل الأبيض يمتهنون الفلاحة معتمدين في ذلك على مياه الآبار، ينتجون مختلف الخضروات والفواكه إلى جانب التمور.

- ibid, PP.225 - 240.

25 قرية صغيرة تقع شمال شرق واحة تانكريت (قصر الأبيض سيدي الشيخ).

26 قرية تقع قريبة من قرية ستيتن في جهتها الغربية محاطة ببساتين كثيرة.

- ibid, P.249.

27 قرية صغيرة شرق البيض محاطة ببساتين تسقى من العيون سكانه هم الرزيقات من قبيلة أولاد كسال.

- ibid, P.218.

28 قرية صغيرة تقع شمال شرق واحة تانكريت (قصر الأبيض سيدي الشيخ).

29 تقع شرق واحة تانكريت (قصر الأبيض سيدي الشيخ)، سكانها يحترفون صناعة الأسلحة (البنادق) والبارود، كما يمارسون الزراعة معتمدين فيها على مياه الآبار.

- ibid, PP.221-222.

30 من قرى صحراء تلمسان؛ أهلها يمارسون التجارة في حين تمتهن نساءهم الخياطة.

- ibid, PP.219 - 220.

31 François COMINARDI**.au cœur des monts des ksours, le KSAR de chellala dahrania, in tradition et modernité**, revue d'architecture et d'urbanisme, N°.2,Alger,1995, P.45.

32 من قصور منطقة بشار في جهتها الشمالية.

33 قصر بشمال بشار.

34 من قصور منطقة بشار.

35 قصر صغير بجنوب شرق المغرب الأقصى؛ بُني فوق صخور به بساتين وواحات للنخيل تسقى من واده.

- Daumas, op.cit, PP.252 - 254.

36 بلدية تابعة إداريا لولاية النعامة؛ سكانها من قبيلة حميان (عكرمة والمغاولية) يمتهنون الرعي والزراعة.

37 بلدية تابعة إداريا لولاية تلمسان في جنوبها؛ سكانها موالون وهم من قبيلتي حميان وأولاد انهار.

38 حميان بن عقبة: بطن من زغبة؛ من هلال بني عامر من العدنانية.كانوا يقيمون بإفريقية الشمالية.ابن خلدون، المصدر السابق، ج6 ، ص ص 27-174.أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي.**القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط**، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991 ، ص 39.عمر رضا كحالة.**معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، ج1، ط.2، دار العلم للملايين، بيروت، 1968 ، ص303 .لتفاصيل أكثر عد إلى قوراري، المرجع السابق.

39 يعود أصل زناتة إلى مدغيس الأبتر؛ بينما تنحدر صنهاجة من برنس أخ الأبتر بن برّ، وقبائل زناتة رحل في مجموعهم، يرعون الإبل ويعيشون في الصحراء، يتكلمون البربرية التي لا تزال اللهجة السائدة في وادي ميزاب وورجلة ووادي ريغ وفي جبال الونشريس وفي شرق المغرب الأقصى أهم فروعها ومن أهم أفخاذ زناتة، بني يفرن، وجراوة، ومغراوة.بينما كانت صنهاجة في معظمها من القبائل المستقرة.ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص3 ومابعدها.

40 هم خلف وذرية الولي الصالح عبد القادر بن محمد المشهور بسيدي الشيخ؛ والذي تنتسب إليه الطريقة الشيخية وهي طريقة في التصوف.يشكلون اليوم قبائل كبيرة سواء بالجزائر أو المغرب الأقصى.

41 قبيلة عربية؛ بطن من بطون بني عامر بن زغبة بالمغرب، وهم من بني يعقوب الذين تنسب إليهم أرض اليعقوبية.ويقال لهم أولاد منيع نسبة إلى جدهم منيع بن عامر بن زغبة، تستقر اليوم بإقليم الساورة وما جاوره.عبد القادر المشرفي.**بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر**، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ص14-15.

42 هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي أبو سالم؛ ولد سنة 1037هـ - 1627م.فاضل من أهل فاس، قام برحلة دونها في كتابه« الرحلة العياشية » في مجلدين سماها« ماء الموائد ».ت 1090هـ - 1679م.مخلفا ورائه تصانيف منها: إظهار المنة على المبشرين بالجنة - مسالك الهداية - تحفة الأخلاء بأسانيد الأجلاء.عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني.**فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، اعتناء إحسان عباس،ج2، ط2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1402 هـ - 1982م، ص ص832 - 835.ناصر الدين سعيدوني.**من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي « تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين »** ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999، ص ص376 - 379.خير الدين الزركلي.**الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستغربين والمستشرقين**، ج4، ط.5، دار العلم للملايين، بيروت، آيار (مايو) 1980، ص129.

43 يقول عنها ابن خلدون:«...من نواحي الصحراء، قصرها مشهور ما بين الزاب وجبل راشد، أهلها مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب...».ابن خلدون، المصدر السابق، ص64.

44 العياشي، المصدر السابق، مج 2، ص 548.

45 هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن يبورك الهشتوكي؛ فقيه مغربي من أصحاب الرحلات، من أهل هشتوكة.قال الحضيكي: " اشتهر فضله وصلحت به قبائل وطوائف، وحج أكثر من مرة، ومات في المرة الأخيرة بمصر، ودفن بتربة الشيخ خليل (صاحب المختصر) ".له تصانيف منها الرحلة وكتاب في ترجمة أبي العباس ابن ناصر؛ توفي سنة 1136 هـ - 1724 م.الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص162.

46 مولاي بالحميسي.**الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص28.

47 تنحدر من أصول مختلفة؛ تحالفت مع الحكام الأتراك وتعاونت معهم.كانوا يمثلون الجهاز الاقتصادي والعسكري والإداري الذي تعتمد عليه الإدارة العثمانية لاستخلاص الضرائب وحفظ الأمن والاستقرار وتسيير شؤون المجتمع الريفي.عمار بوحوش.**التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997 ، ص70.

48ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي.**الجزائر في التاريخ العهد العثماني**،ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص109.

49 قوراري، المرجع السابق، ص 38.

50 مزيان، المرجع السابق، ص ص 76 - 78.

51 أبو محمد عبد الله بن محمد التيجاني.**رحلة التيجاني**، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1958، ص 197.

52 تتمثل وظيفة المقدم ومسؤوليته في:

- يأمر بالأعمال الصالحة ويعلمها لعامة الفقراء ذكورا وإناثا بعد استئذان أزواجهن أو محارمهن.- أن يكون عارفاً بأمور الدين، محافظاً على الصلوات والصلاة الوسطى، ملماً بالفقه الضروري ويلقن ذلك للفقراء ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر،

ويأمرهم بمجالسة العلماء ومذاكرتهم، وينهاهم عن مخالطة الفساق والفجار وأهل البدع، وكل ما يشغلهم عن ذكر الله، وشريعة نبيه عليه الصلاة والسلام.- أن يتذاكر بعضهم مع بعض.ومن لم يفعل ذلك، ولم تتعين فيه هذه المسائل فليس مقدماً، وإن زمامه خارج من حزمة الشيخ وأهل العناية والولاية.محمد بوزيان بنعلي.**فجيج في عهد السعديين السياسة والثقافة والمجتمع**، مطبعة الجسور، وجدة، 2005، ص ص 237 - 239.

53 جمع دوار وهو يشكل الوحدة الاجتماعية الدنيا في ترتيب القبيلة؛ تختلف الدواوير فما بينها من حيث عدد أفرادها وممتلكاتها.

54 مزيان، المرجع السابق، ص ص 76 – 78، 257.

55 المرجع نفسه، ص 257.

56 التخلاف مصطلح متداول وشائع بين البدو؛ وهو ترحل جزئي عرفه العموري حيث كان يرحل بخيمة صغيرة بمفرده ويترك من ورائه الأسرة بخيمته في مكانها الأصلي، وهذا النوع من الترحال لم يكن يتجاوز مسافة 30 كلم.

57 قال عنه أبو سالم العياشي: « وادي كبير ملتف بأشجار الطرفا في حلاها قيعان تمسك الماء، وتنبث الكلأ يكفي الأنجاع من العربان إذا أو إليه، وفي أعلاه عند فرضة الجبل الذي منه إلى الصحراء قرية سندانة».العياشي، المصدر السابق، م2، ص 549.

58 قرية صغيرة تقع جنوب بلدية النعامة بنحو 40كلم على الطريق الوطني رقم 6 الرابط بين ولايتي بشار ووهران.

59 De la matinière et Lacroix. **Document pour servir à l'étude du nord ouest – africain**, vol.2, imp.la maison d'anel Lille, 1986, pp.250 – 252.

60 العياشي، المصدر السابق، ص 245.

61 الأراضي التي كان يحرثها المذابيح مثلا من فرقة أولاد بوبكر هي: النُّقَيْخَة – لقْفَيْ – ٱلمَرْفَق الأَبْيَض – رُورَة – ٱلوْدَيْ ٱلبَيَّض – سَهْبَ ٱلحَرْمَل – شقَّة خَدِيجَة – حَوْض الزَّايَر – الدَّشِيرَة – تَالَة – نْسَانِيس – وُدَيْ آلأَل.بن عيسى، المرجع السابق، ص 58.

62 De la matinière et Lacroix, op.cit, pp.250 – 252.

63 مزيان، المرجع السابق، ص ص 103 – 104، 145.

64 المرجع نفسه، ص ص 109، 121.

65 Daumas, op.cit, P.253.

66 قصر من قصور واحة فجيج.الوداغير نسبة إلى الشرفاء الوتدغيريين الذين تدفقوا على فجيج منذ النصف الثاني من القرن الرابع هجري / العاشر ميلادي، كما يعرف أيضا باسم آيت عدي وهو اسم بربري نسبة إلى الولي الصالح الفقيه الإمام عيسى بن سعيد الملقب بعدي من ذرية مخلوف بن خلف الله.بنعلي محمد بوزيان.**واحة فكيك تاريخ وأعلام**، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء،1407هـ-1987م، ص ص 70 - 72.

67 De la matinière et Lacroix, op.cit, pp.253 – 254, 272 - 273.

68 تعرف أيضا بتيكورارين؛ والتي تعني المعسكرات بالبربرية.تسمى اليوم بتيميمون.قال عنها الوزان:«...منطقة مأهولة...بها ما يقرب عن خمسين قصرا وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل، سكانها أغنياء لتجارتهم مع بلاد السودان...لهذه البلاد أراضي كثيرة صالحة للزراعة...».الوزان، المصدر السابق ، ص ص 133-134.

69 تقع في جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية، يشمل على عدد من الواحات والمدن والقصور تزيد عن 350 قصر.ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 76-78.

70 مزيان، المرجع السابق، ص ص 131 - 132.

71 اليوم أولاد خليفي يشكلون فرعا خاصا بهم بعد أن انفصلوا عن عرش الصَّوَالَى، يقول عنهم " ميزو ":

" On trouve dans Cette fraction beaucoup d'hommes lisent et écrivent corramment l'arabe ; alors que la Presque totalité des autres fractions sont illettrées ".**monographie de l'annexe d'Ain sefra 1957**, l.meyson ; chef d'annexe, p.8. - بن عيسى، المرجع السابق، ص ص 42 - 43.

72 صوفي جزائري؛ تنتسب إليه الطريقة الشيخية.لتفاصيل أكثر عن حياة ومسيرة هذا الصوفي عد إلى دراستنا: مجدوب موساوي.**سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد (940 هـ – 1533 م / 1025 هـ – 1616 م) دراسة بيوغرافية**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف الدكتور ودان بوغفالة، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة معسكر، 1432 – 1433 / 2011 - 2012.

73 هو أحمد بن موسى الإدريسي الحسني؛ من أشهر رجال الطرق الصوفية، مؤسس الطريقة الكرزازية الشهيرة، ولد سنة 907 هـ - 1505م، عاش إلى أن تجاوز المائة، تـ 1016هـ - 1608م.اشتهر بالعلم والصلاح والشرف، أخذ عهد الطريقة الشاذلية اليوسفية عن الشيخ أحمد بن يوسف الملياني وأضاف إلى أورادها قراءة البسملة 500 مرة بعد أذكار صلاة الصبح. عبد المنعم القاسمي الحسني.**أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى**، دراسة إحصائية تحليلية،ط.1، دار الخليل القاسمي، 1427 هـ - 2007 م، ص 120.قويدر قيداري.**بستان الأزهار في سيرة سيدي يحي بن صفية ومسيرة أولاد نهار،دراسة تاريخية وأنثروبولوجية**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2009، ص 69.

74 عبد القادر خليفي.**الطريقة الشيخية**، دار الأديب للنشر والتوزيع، السانيا، وهران، 2006، ص 77.

75 الطرقية منهج في السلوك والعبادة استحدث بعد القرون الثلاثة المفضلة؛ ولا أحدا منا ينكر ما كان لهذه الطرق من أدوار في تعليم الناس ووعظهم، والحفاظ على اللغة والثقافة العربية، وإزالة الفوارق الاجتماعية والتدخل لإنهاء الخلافات والخصومات بين الناس ونشر الدين في أصقاع كثيرة من العالم...، إلا أن المنهج الذي سلكوه في العبادة لم يقبله كثير من السلف لأنهم رأوه مخالفا لما كان عليه الرسول - ﷺ -وصحابته - رضي الله عنهم - والذين كانوا أعبد الناس وأتقاهم لله وكانوا أكثر تمسكا بالأصلين: الكتاب والسنة وكل من كان على مثل ما كانوا عليه فقد اهتدى، ومن شد يمينا أو يسارا فقد ضل.

76 طريقة صوفية ظهرت خلال القرن العاشر هجري موافق للقرن السادس عشر ميلادي؛ تنتسب إلى الولي الصالح عبد القادر بن محمد المشهور بسيدي الشيخ، وهي إحدى فروع الطريقة الشاذلية.لتفاصيل أكثر عنها عد إلى: خليفي، المرجع السابق.أحمد بن عثمان حاكمي.**الطريقة الشيخية في ميزان السنة**، الطبعة الأولى، مطبعة مكاتب القدس، وجدة، 1996.

77 خليفي، المرجع نفسه، ص78.

78 المرجع نفسه، ص 135.

79 ظهرت الزوايا القادرية بالجزائر قبل مجيء الأتراك العثمانيين؛ وكان الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي أول من أسس زاوية خاصة بالطريقة القادرية منذ سنة 597 هـ / 1200م بنواحي معسكر؛ وتعتبر أساس كثير من الطرق الصوفية اللاحقة لها كالشاذلية.تتسم بالإصلاح والإرشاد والتسامح ونشر المعرفة والعلم .من أورادها حزب الوسيلة وورد الجلالة.أبو القاسم سعد الله.**تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20 م)**، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص520 – 522.أحمد مريوش و مجموعة أساتذة.**الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص ص 98 – 100.

80 هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن يحي بن محمد الكيلاني الحسني؛ من كبار الزهاد والمتصوفين، مؤسس الطريقة القادرية، ولد بكيلان سنة 471 هـ – 1078 م، دخل بغداد فسمع الحديث وتفقه، تـ 651 هـ - 1166 م، ودفن بمدرسة بباب الأزج، من مصنفاته:جلاء الخاطر في الباطن والظاهر، الفتح الرباني والفيض الرحماني، الغنية الطالبي طريق الحق، سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، وآداب السلوك والتوصل إلى منازل الملوك.عمر رضا كحالة.**معجم المؤلفين وتراجم**

مصنفي الكتب العربية، ج5، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت،، ص 307.الزركلي.المرجع السابق، ج4، ص 47.

81 De la matinière et Lacroix, op.cit, pp.321 – 322.

82 بن عيسى، المرجع السابق، ص ص 146 – 150.

83 De la matinière et Lacroix, op.cit, p437.

84 بن عيسى، المرجع السابق، ص ص 144 – 150.

التحالف الأوربي ونهاية

حكم يوسف باشا القرمانلي 1795- 1832

أ/ بوعناني العربي، جامعة تيارت
طالب دكتوراه بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
بإشراف أ.د/ بوغفالة وذان، جامعة معسكر

Abstract :

Youcef Pacha, the governor of Tripoli, came to the throne and founded the Karamanlian dynasty in international circomstances characterized by the growing pressures on the southern countries of the Mediterranian sea. These pressures compelled this Libyan governor to make concessions for the European great powers.

Among these concessions, he gave up to practice piracy in the Mediterranian. This policy led to the reduction of maritime incomes and the financial crisis. To overcome this crisis, he imposed more different taxes on his country.

Due the refusal of these taxes, Tripoli lapsed in civil wars which ended by the fall of the Karamanlian dynasty

تمثل فترة حكم الأسرة القرمانلية بطرابلس الغرب التي تمتد من سنة 1711م الى سنة 1835م تجربة سياسية هامة ،تمكنت فيها الأسرة الحاكمة من احتكار السلطة مستغلة في ذلك ضعف الدولة العثمانية ،ونجحت في تحقيق الإستقلال السياسي عن الإستانة ، وراحت تنسج شبكة من العلاقات السياسية مع محيطها المتوسطي ،الذي كان يرقب وبحذر هذه المتغيرات الجديدة في البداية على الأقل ،ومن ثم سارع الى المضي قدما في الإعتراف بهذا الكيان السياسي الجديد فعقد معه الإتفاقيات والمعاهدات ،وفتح في حواضرها للقنصليات .

وتزامن وصول يوسف باشا الى الحكم مع عدد من الأحداث والمستجدات ،التي كان لها تأثير بالغ الأهمية على طبيعة وبنية الدول والمجتمعات ،والعلاقات بين الأمم والشعوب ولقد تجلت هذه التغيرات التي طرأت بأوربا في الميادين الاقتصادية والسياسية ،وما إليها من تداعيات تجارية وهيمنة عسكرية ، نتج عنهما انتقال موازين القوى الى الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط ،ان التطور إكتسى دائما طابع المعاكسة في حوض المتوسط .فلا يتقدم أحد الجانبين الا بشرط أن يتأخر الآخر كما لو كان المجال يضيق على إزدهار الإ ثنين معا .[1]

وفي هذه الظروف المليئة بالأحداث والتطورات إستولى يوسف باشا على السلطة ،والذي كان يتميز بالحنكة السياسية والقدرة الفائقة على المناورة ،ويمثل الطراز الأول للملوك المغاربة الصغارالذين انزلوا

الرعب مدة طويلة من الزمن بسفن الدول الأوربية [2].وأصبح يشكل رقما صعبا في المعادلة السياسية ،بالرغم من أنه لم يرث عن من سبقوه في الحكم سوى إيالة ضعيفة في نظر الدول الأوربية قياسا بالجزائر وتونس غير قادرة على مواجهة الأعداء وإقتصاد منهار[3]

وسعيا منا إلى تسليط الضوء على هذه الفترة المتميزة من تاريخ العلاقات الاوربية بباشوية طرابلس وإدراكا منا للنقائص التي مازالت تكتنف بعض جوانبها إنطلاقا من الوثاتق التوفرة لدينا والتي لاتخلوا من معلومات قيمة تفيدنا في إستجلاء كثير من الحقائق وفهم أكثر لطبيعة وخصوصية هذه الفترة الغنية بالأحداث والتطورات خاصة وأنها جاءت في ظروف شعرت فيها أوربا بالقوة وأصبحت مصممة على التخلص من الشروط المذلة التي كانت تفرضها الإيالات المغربية ،وعزم يوسف باشا على تحصيل أكثر للإتاوات والهدايا القنصلية .

فماهي المستجدات التي سمحت ليوسف باشا بإعادة القوة لأسطوله البحري ؟ وكيف تعامل مع الدول الأوربية التي لم تف بإلتزاماتها المالية ؟ وماهوموقف الدول الأوربية من السياسة المنتهجة من حاكم طرابلس ؟ وماهو المصير الذي آلت إليها باشوية طرابلس ؟

هذه جملة من التساؤلات التي سأحاول الإجابة عليها في هذه الدراسة والتي تكشف عن تغير موازين القوى بين ضفتي المتوسط منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ممأدى الى تراجع الإيالات المغربية عن ممارسة الجهاد البحري ،ووقوع الجزائر في قبضة الاحتلال الفرنسي ،وإنهيار حكم الأسرة القرمانلية .

جهود يوسف باشا في تقوية البحرية الطربلسية

.وعند توليه الحكم في جويلية سنة 1795م أكد له السلطان في فرمان صادر في شوال 1211هـ _ 1797م على ضرورة الاهتمام بالبحرية وتنظيمها والإكثار من المراكب الحربية أن تكون طرابلس مثل الجزائر وتونس في هذا المجال [4]. وأدرك في حينها أن مكانة طرابلس تتوقف على قوتها البحرية ،في إقامة علاقات دولية متوازنة تحترم بموجبها الدول الأوربية كامل تعهداتها وإلتزاماتها المالية كشرط أساسي لتأمين سفنها التجارية في البحر المتوسط

فأعاد الإستقرارللبلاد ،وكرس جهده للنشاط البحري الجهادي الذي يعتبره أهم مصدرللولاية وتمكن من إعادة بناء أسطوله البحري ،مستغلا المعاهدات المبرمة مع الدول الأوربية و أمريكا ،ومن خلالها يتم تزويده بكل المواد الضرورية لصناعة السفن والمراكب الحربية

كما إستفاد من الخبرات الفنية التي كانت تقدمها بعض الدول التي كانت لها علاقات ودية مع يوسف باشا كإسبانيا التي أرسلت إليه في سنة 1797م مهندسا متخصصا في بناء السفن ومعه

بعض العمال الأخصائيين ،وسمحت للطربلسيين بإصلاح سفنهم في ميناء قرطاجنة [5]بإسبانيا

ويصف الطبيب جوناثان كودريي في مذكراته التي كتبها عندم وقع في الأسر بطرابلس (1803- 1805) حيث قال (...في 15ديسمبر1803م أنزلت الى البحر سفينة ذات قلاعين

للباشا كان قد بناها النجارون الإسبان وهي رشيقعة جدا وقد أعدت لحمل ستة مدافع.)6 وهكذا إستعاد الأسطول البحري الطرابلسي قوته خلال فترة وجيزة ،ويعود الفضل في ذلك الى صاحب الإيالة الذي لم يتأخرفي دفع هدايا ثمينة للرجال والقادة الذين لهم خبرة ودراية في النشاط البحري من أمثال قائد الترسانة الرايس عمرالشلي [7]، والضا بط الفرنسي إيكارد (Icard) الذي لجأ إلى طرابلس واعتنق الإسلام واتخذ اسم مراد رايس . [8]

علاقة باشاوية طرابلس بدول أوروباالشمالية

لقد رأت الدول الكبرى في عودة الأسطول البحري الطرابلسي نذير شؤم على مستقبل علاقاتها مع إيالة طرابلس فبذلت كل ما في وسعها لتوثيق روابط الصداقة معها [9]، أما الدانما رك والسويد فحاولتا إختبارنوايا الباشا الجديد وتباطأت في تقديم الهدايا له ،مما أغضب يوسف باشا فقامت البحرية الطرابلسية بأسر سفينتين دانمركيتين [10]،ولما حاول قائد الفرقاطة الدانماركية الدخول في المفاوضات مع الباشا لإبرام الصلح ،قام هذا الأخير برفع سقف المطالب ،فإنتهت المفاوضات الى الفشل ،فتلقى قائد أسطولها في البحر المتوسط بيل (Bill) أمر بالتحرك واشتبكى في معركة عنيفة مع الفرقة البحرية الناشئة التيي أراد يوسف إختبارها في أول صدام بحري ،وتكبد الجانبان خسائر فادحة وانتهت المعركة بإبرام الاتفاق الذي تعهدت فيه الدانمارك بدفع مبلغ 75000قرش في الحال ،وبدفع مبلغ سبعة آلاف كل سنة. [11]

أما السويد فقد حاولت الإحتفاظ بعلاقات ودية مع طرابلس الغرب ،لكن يوسف باشا رفض قبول الترضيات التي كانت تقدمها السويد وطالب برفع الجزية السنوية ،فرفضت السويد مطالب والي طرابلس ورأت فيها إخلالا بالإتفاقيات السابقة ،فهاجم الطرابلسيون السفن السويدية واسروا عددا منها ،فرضخت السويد وتم إبرام اتفاق حصل الباشا بمقتضاه على 7700قرش دفعة واحدة ،على أن يدفع له مبلغ 15000قرش كل ثلاث سنوات [12].

مما شجع كل من اسبانيا ونابولي ثم البندقية على تقديم الهدايا والإتاوات السنوية مقابل حصول تلك الدول على أمن وسلامة سفنها التجارية . [13]

وهكذا استطاع يوسف باشا أن يوفرمبالغ مالية هامة في ظرف لا يتعدى ثلاث سنوات من بداية حكمه فدفعت اسبانيا 41000قرش ونابولي 5000قرش وفنيسيا 23000قرش وأمريكا 49000قرش وراجوس4000قرش والدانمارك 97000قرش والسويد 77000قرش [14]

التقارب الفرنسي الطرابلسي

كانت فرنسا تطمح في إقامة إمبراطورية استعمارية قوية ،وقادرة على منافسة إنجلترا في شرق المتوسط ،ولن يتحقق لها ذلك الا من خلال إحتلال مصر وضمها الى ممتلكاتها و الوقوف بحزم أمام إنجلترا ومنعها من الإتصال بالهند . ومن جهة ثانية يضمن لها وجودها بالبحر المتوسط الشرقي مراقبة عن قرب

للأمبراطورية العثمانية .فأصبحت سياستهاتجاه الإيالات المغربية تتفق وغاياتهاالرامية الى توثيق العلاقات والروابط البحرية والبرية مع وادي النيل ،وعليه رأى نابليون [15]،قائد الحملة الفرنسية على مصر ضرورة المحافظة على العلاقات الطيبة مع طرابلس الغرب نظرا لقربها من مصر ومالطا . وفي طرابلس انتشرخبرإحتلال نابليون لجزيرة مالطا ،فأبلغ تاليران Talleyrantوزير خارجية فرنسا القنصل بوسييه Beaussier باحتلال فرنسا للجزيرة ،وإقدام نابليون على إطلاق سراح ألفي أسيرمسلم ويطلب منه إيصال الخبرالى الباشا وحثه على المعاملة بالمثل وذلك بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين والمالطيين الموجودين لديه في طرابلس [16]،والآن بعد احتلال مالطة أصبحت طرابلس تشكل أهمية كبرى بالنسبة للفرنسيين في تزويد الجزيرة بالمواد الغذئية ،وهذا ماجعل يوسف باشا يفكرجديا في المنافع التي سيحصل عليها من توريد كل ماتحتاجه الجزيرة ،لكن هذا الحلم تحول الى كابوس بمجرد نزول الفرنسيين في الإسكندرية وإستشعر يوسف باشا الخطر الذي أصبح جاثما على مقربة من الإيالة ، لكن القنصل بوسييه طمأن الباشا بإقامة علاقات ودية ،رغم معارضة القنصل الإنجليزي ومعاكسته ،مما شجع الباشا على إرسال خطاب الى الجنرال فامبوازVamboise بمالطا بتاريخ 14 صفرسنة 1213هـ الموافق 27 جويلية سنة1798 قائلا .« ... وحرصا منا على راحتكم ،فإننا على إستعداد كامل لتلبية ما تطلبوه منا ،لأنني صديكم في السراء والضراء ،وإنني لعلى أتم الإستعداد مثلكم ،للعمل على تحقيق كامل التفاهم بين بلدينا[17].لكن الآمال التي علق عليها الباشا مستقبل إزدهار المالي للإيالة ،بدأت في التلاشي عندما علم الباشا بأن مالطا حاصرها أسطول برتغالي يعمل في خدمة إنجلترا وكان لهذا الخبر نذيرشؤم بالنسبة للباشا الذي كان يتطلع الى تحقيق مكاسب تجارية من خلال تزويد الجزيرة بالمواد الغذائية .

وفي هذه الأجواء المشحونة بالتوتر،وصل فرمان الى يوسف باشا من السلطان العثماني سليم الثالث يحثه فيه بالزحف على مصر وطرد الفرنسيين منها عقب احتلالهم لها سنة 1798م لكن الباشا رفض الأوامر الصادرة اليه من الباب العالي ،وفضل البقاء على علاقاته الطيبة مع فرنسا [18]وكان حينها يدرك قوة البحرية الفرنسية التي هددت أكثرمن مرة سواحل الإيالة ، ولم يكن في مقدوره معاكسة الوضع الإستراتيجي المتشكل في البحر المتوسط ،ومن المتعذرالدخول في مواجهة مجهولة العواقب ، مع القوى الأوربية وأن كل محاولة من هذا القبيل سيكون لها أضرار بالغة على البلاد والعباد .

علاقات إنجلترا بطرابلس الغرب

لقد أدى ضعف الدولة العثمانية ، وتراجع هيبتها البحرية في البحرالمتوسط ،الى زيادة الصراع بين الدول الأوربية الكبرى وفي مقدمتها فرنسا وبريطانيا ،لإيجاد موقع سيادي يسمح لهما بممارسة نفوذ هما في الإيالات المغربية ، وذلك بالحصول على مكاسب سياسية وإقتصادية

تخدم مصالحهما الإستعمارية ،مما عجل بدخول الطرفين في سلسلة من الحروب التي كانت في نهاية القرن الثامن عشروبداية القرن التاسع عشر وراء إحكام إنجلترا سيادتها على البحر المتوسط . خاصة بعد نجاح الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسن (Nelson)في تحطيم الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير في 1أوت 1798م ،فإنقطع بذللك الإتصال بين جيش فرنسا في مصر وحكومته [19] ،ولم يبق لنابليون من إتصال سوى الأراضي الليبية . وأمام إصرار الباشاعلى توثيق العلاقات مع فرنسا ،سارع القنصل الإنجليزي إلى توجيه خطاب الى الباشا طالبا منه بالتخلي عن علاقاته المريبة مع نابليون والإنصياع لأوامر السيد الكبير .وفي 9ماي 1799م وقعت معركة بين الأسطول الإنجليزي بقيادة الكومودور (د.كامبل Campbell.D)

والبحرية الطرابلسية برئاسة مراد رايس وكشف هذا الصدام البحري عن ضعف القدرات العسكرية ليوسف الباشا الذي إضطرإلى تسليم الرعايا الفرنسيين المقمين ببلاده للأسطول الإنجليزي [20] وتوقيع أول معاهدة سلام مع البرتغال بنفس الشروط التي إنفردت بها إنجلترا والجدير بالذكر أن إنجلترا حاولت أن تستفيد من التغيرات التي حدثت في البحر المتوسط مع بداية القرن التاسع عشرمنها تقلص النفوذ الفرنسي في شرق المتوسط ،وإحتلالها لجزيرة مالطا مماأفسح لها المجال من إقامة علاقات تجارية مع طرابلس الغرب والتزود منها بكميات كبيرة من المواد الغذائية ،لقواتها العاملة في البحر المتوسط فعلى سبيل المثال في سنة 1806م تم تصدير698رأس من الماشية بسعر إجمالي قدره (15000)دولار [21] ،وفي سنة 1808م تم تصدير جوالي 1396رأسا من الماشية بمبلغ يصل الى 30000دولار [22] ،وهكذا أصبح لحضورالأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط دور مهم في رعاية المصالح الاقتصادية مع إياالة طرابلس . وتوفير الحماية لعدة دول أوربية صغيرة ،فأدى ذلك الى تراجع عوائد النشاط البحري الطرابلسي ،وإرتفعت الأصوات المنادية بالقضاءعلى البحرية المغربية وإلغاء القرصنة وتحرير الأسرى المسحيين وهذا ماحدث في مؤتمر فيينا 1815م .

مؤتمر فيينا 1815م .

في الوقت الذي انشغلت فيه أوربا في تسوية مشاكلها الداخلية ، بالتفكير في إعادة رسم خريطة أوربا ،كانت البحرية الطرابلسية تواصل أعمالها الجهادية ضد هولاندا والدانمارك والدول البحرية الإيطالية ،فبلغ عدد الأسرى لديها مالايقل عن 1500أسير [23] .الأمرالذي عززمطالب الدول الصغرى ،وخاصة مملكة سردينيا التي طرح وزير خارجيتها البارون فاليزا (Valleza) مسألة أمن البحر المتوسط [24] .على المجتمعين في مؤتمر فيينا ،ألح فيه على ضرورة وضع حد لمسألة استرقاق المسحيين في البلدان المغربية .[25]

ولما كان سيدني سميث على إطلاع واسع بماكان يجري في البحر المتوسط ابان الحروب النابليونية ،فقد أبدى اهتماما خاصا بمسألة الأمن ،فقد وجه في شهر أوت 1814م مذكرة إلى الدول صاحبة الشأن للقيام بعمل جماعي ضد دول المغرب لتدميرأسطولها البحري .[26]

ولما كانت إنجلترا القوة البحرية العظمى في حوض المتوسط ،فقد أسند إليها المؤتمرون مهمة اتخاذ التدابير اللازمة لذلك ،حيث عقد مؤتمر لندن مع بداية 1816م بمشاركة إنجلترا وهولاندا وفرنسا والدويلات الإيطالية الذي أوصى بتكوين أسطول مشترك لضرب إيالات المغرب .

غيرأن فرنسا رفضت المشاركة لأنها رأت فيه ما يشكل خطرا على مصالحها ولا تحبذ الإنضمام الى تحالف تكون فيه تحت المظلة الإنجليزية [27].وفي مطلع سنة 1816م توجه الى السواحل المغربية اسطول إنجليزي برئاسة اللورد إكسماوث (Exmouth)ووصل الى مياه طرابلس في 27ابريل سنة 1816 م ،فتلقى من الباشا تعهدا يقضي بإطلاق سراح خمسمائة وتسعين أسيرا مقابل فدية مالية [28].وبعد مغادرة اسطول اكسماوث ميناء طرابلس حتى تلقى البحارة الطرابلسيين الأوامر بإستئناف نشاطهم الجهادي وتم الإستيلاء على عدة سفن تابعة لحكومة البابا الأمر الذي أدى الى إعادة طرح مسألة أمن البحرالمتوسط على القادة الأوربيين في مؤتمر إيكس لاشابيل 1818م وفيه إتفقت الدول الأوربية مجتمعة على رد حاسم ومنع المغاربة من ممارسة الجهاد البحري [29]، وفي شهرأكتوبر -سنة 1819م وصل الأسطولان الإنجليزي والفرنسي ،بقيادة الأميرالان (فريمانتلFreemantel) و(جوريان دي لاغرفييرJurien De La Graviere) الى ميناء طرابلس وتسلم الباشا من الأميرالين نص الإنذاروصرح لهما بأنه سوف يترك الغزو . [30]

التفوق الأوربي وإنعكساته على إيالة طرابلس الغرب

إن الإختلال الذي شهده ميزان القوة العسكرية بين أوربا والإيالات المغربية وبصورة حاسمة منذ مطلع القرن التاسع عشر ،كانت له اثارسلبية على النشاط البحرية المغربية ،ولم يكن في مقدور يوسف باشا من فرض شروطه على الدول الأوربية الكبرى ، وأدرك والي طرابلس حقيقة التفوق الأوربي وذلك منذ إحتلال نابليون لمصر ورأى فيه خطرا كبيرا قد يهدد إستقرار حكمه ،هذا ماجعله يغلب منطق الحواروحل المشاكل مع كل من فرنسا وإنجلترا بالطرق السلمية ، وإتقاءا لما يمكن أن يدبرله من مكائد ،لكن عجلة الضغوط ظلت مستمرة،ففي آواخرسنة 1815م قامت البحرية الطرابلسية بالإستيلاء على سفينة كانت تحمل علم هانوفر الألمانية ،فظن وارنجتون أنها سفينة إنجليزية ،الأمر الذي اثار غضبه وراح يطالب لا بإرجاع السفينة وبحارتها وتعويض ربانها فحسب بل بإعدام الرايس الطرابلسي فوق ظهر السفينة الإنجليزية على مرأى من جميع الأهالي[31] ،وحاول الباشا إرضاء القنصل وارنجتون بشتى الوسائل ،لكنه رفض الأمر وأصرعلى ان يتم شنق القرصان، فاضطر على الموافقة مرغما وبهذا العمل تم إذلال يوسف أمام حاشيته ورعيته .ودلت هذه الحادثة عن عجز الطرابلسيين الكبيرفي مواجهة غطرسة القنصل الإنجليزي. وأن ميزان القوة لم يعد في صالح الإيالات المغربية .

كما تدخلت فرنسا سنة 1826م بواسطة قنصلها روسو وضغطت على الباشا بإرجاع السفن البابوية وطالبته بتقديم إعتذار رسمي لقداسة البابا ،ولما رفض الباشا ذلك ،وصلت فرقة بحرية يقودها القبطان (ارنوس دي سولسيه Arnous Des Saulsais) وطلبت تسليم السفن فورا لروما [32]،وكان طلب قائد السفينة بأن تطلق 33طلقة تحية للعلم الفرنسي بدلا من 27طلقة التي كانت تحظى بها الدول الكبرى

،وأمام تهديدات القنصل الفرنسي بضرب المدينة بالقنابل ،رضخ يوسف باشا للشروط الفرنسية ،منها إطلاق سراح الأسرى وإعادة السفن لأصحابها كما يدفع الباشا مبلغ ألفين قرش لروما [33].وكشفت هذه الواقعة مرة أخرى عن شعورالدول الكبرى بإمتلاكها لوسائل القوة التي لم تتردد في إستعمالها لإملاء شروطها وإجبار الإيالات المغربية للخضوع والإستسلام كلما دعت الحاجة الى ذلك .

ويتضح من خلال المراسلات والتقاريرالتي كانت تصل الى حكومات الدول الأوربية أن قوة الإيالات المغربية لم تكن على درجة كبيرة من العظمة ،بل يعود ذلك الى وجود رياس من ذوي أصول مسيحية مثل قائد البحرية الطرابلسية مراد ريس وتوفرها على سفن حربية من صنع أوربي أمريكي تمكنت من حيازتها ،إما عن طريق الحجز او المصادرة وفي هذا الصدد يقول القنصل الأمريكي في أحد رسائله :"إنها حسن الإرادة المسيحية وليست القوة المحمدية هي التي عضدت ولايات القرصنة هذه طيلة هذا الأمد " . [34]

إنهيارالأسرة القرمانلية

ان أسلوب إدارة الدولة المتبع في الإيالات المغربية ،منذ نشأتها كشفت عن مدى تخلفها ،وعدم مواكبتها للتطورات المتسارعة في أوربا التي قطعت أشواطا كبيرة سمحت لها بإحراز تفوق عسكري وإقتصادي وإجتماعي جعلها صاحبة القرار في تغيير التوازنات الإستراتيجية لصالحها ، في حين دخلت إيالة طرابلس في أزمة أخذت ملامحها تتجلى في بعدين أساسيين الأول على المستوى العسكري المتمثل في ضعف الأسطول الحربي وعدم قدرته على منافسة الأساطيل الحربية لدول أوربا وأمريكا والثاني على المستوى الاقتصادي حيث كانت الإيالة تعتمد على موارد مالية جاهزة من إتاوات وهدايا وغصب وضرائب ،فبمحرد أفول النشاط البحري وماكان يدره من أموال حتى بدأت الإختلالات المالية تبرز بشكل جلي ،واصبح موقف الباشا حرجا فتزايدت الإظطرابات الداخلية والضغوط الخارجية ،وإزاء هذه الظروف المتردية إنتهج والي طرابلس مسلكين في التعامل مع الأزمة :إستخدم دبلوماسية العصا الغليظة مع رعاياه في الداخل والدبلوماسية الناعمة مع الخارج ،فعلى الصعيد الداخلي لم يجد يوسف باشا من وسيلة لتعويض خسائره سوى محاولة الزيادة في الضرائب ونهب رعاياه ،فجهزحملتين عسكريتين بقيادة ولديه علي بك وإبراهيم ،من أجل القضاء على ثورة عبد الجليل ،إنتهت هذه المغامرة العسكرية من دون تحقيق نتائج هامة ،ولم تخلف سوى الدمار كقطع أشجار النخيل والزيتون [35] وشجعت القبائل الأخرى على الثورة والتمرد على حكم والي طرابلس .

إن أزمة يوسف باشا القرمانلي وصلت به الى حد تدمير جزء من مدافعه ليستخرج منها نحاسا يستخدمه في صك عملة لا قيمة لها [36]،وقد اشتكى الباشا من ذلك الى مشايخ المنشية قائلا لهم :"أما خير تعطوني على كل سانية ثلاثة دورو وإلا نبيعوا كمالة المدافع.[37]أما على الصعيد الخارجي حيث كان احتلال الجزائر من قبل فرنسا وقع سيء على الباشا الذي إزدادت مخاوفه من أن يلقى حكمه نفس المصير ،فسارع الى إيفاد مبعوثيه الى الدول الكبرى ،من أجل الحصول على إعادة جدولة ديونه ،فأرسل بتاريخ (17 ربيع الأول 1246هـ /1831م) الرايس عمر الشلي إلى إنجلترا لكن توتر الأوضاع الداخلية حالت دون ذلك ،بسبب

دعم القنصل وارنجتون للثوار ،كما أرسل يوسف محمد بيت المال الى فرنسا في مهمة مماثلة الذي يبدو أنه نجح في تخفيض المبلغ الذي إقتصر على ديون الرعايا الفرنسيين .[38]

وفي هذه الظروف الصعبة إزدادت مطالبات الباشا ،وفرض على شركائه من مسلمين ويهود المزيد من المال ،ويتحدث الفقيه حسن عن علاقة هؤلاء بالباشا ،حيث كان لا يكاد يمر شهر أو حتى أسبوع واحد دون يطالبهم بتوفير قسط من المال لتسديد الديون ،وأرغمهم على ذلك مستخدما ضدهم القوة ،فهرب منهم حوالي 370شخصا الى القنصلية الإسبانية ،ثم فرض على 88 من وجهاء المدينة دفع ماقيمته 1500ريال فما كان من البعض منهم سوى الهروب الى منزل القنصل الفرنسي للإحتجاج على ذلك [39].ولما لم تفلح مساعيه في تجاوز الأزمة ولم يكن في إستطاعة أعيان طرابلس تحمل المزيد من الضرائب ،إتجه نحو الكلوغية المعفيين عادة من الضرائب لمطلبتها بتوفير المال لمواجهة أزمة الديون ،وبهذا يكون الباشا قد تحول الى عدو في نظر الكثير وجب التخلص منه ،وفي خضم هذه الأحداث المتسارعة أعلن تنازله عن العرش لإبنه علي الذي دخل مع خصومه في حرب أكلت الأخضروالياس ،ووفرت فرصة مواتية لعودة الحكم العثماني الذي به تم إسدال الستار عن تجربة حكم دامت أكثر من 125سنة وهي تحتاج الى المزيد من البحث والدراسة لكشف الكثير من الخبايا التي تكتنف موضوع الأسرة القرمانلية .

الهوامش:

1- عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار ،التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فيينا ،دار النهضة العربية بيروت 1974م ، ص ،485.

2- رودلفوميكاكي ،طرابلس الغرب تحت حطم أسرة القرمانلي ،نقاهللغة العربية ،طه فوزي ،دار الفرجاني طرابلس ليبيا ،بدون سنة ،ص ،132 .

3- علي مفتاح إبراهيم ، الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والإقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر ،منشورات مركز جهاد اللبيين للدراسات التاريخية طرابلس ليبيا ،ط1، 2005، ص ،296.

4- سامح عزيز،الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ،ترجمة عبد السلام أدهم ،دار الفرجاني ،القاهرة ،طرابلس ،لندن ،ب،ت،ص ،162،هامش رقم واحد .

5- رودلفو ميكاكي ، المصدر السابق ،ص ، 137.

6- كودري ، جوناثان ، يوميات الطبيب جوناثان كودري ،في قلعة طرابلس الغرب (1803- 1805) ،تعريب وتعليق الدكتور عبد الكريم أبو شويرب ،طرابلس ،مركزجهاد اللبيين ضد الغزو الإيطالي،طرابلس ،ليبيا ،1982، ص ،40.

7- امحمد سعيد الطويل ،البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي ،دار الكتاب الجديد المتحدة ،ط1، 2002،ص، 126.

8- نفسه ،ص ، 126.

9- رودلفو ميكاكي ،المصدر السابق ، ص ،137.

10- نفسه ،ص ، 136.

11- نفسه ،ص ،137.

12- نفسه ، ص ،137.

13- فيرو لوران شارل ،الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ،ترجمة وتحقيق محمد عبد الكريم الوافي ،منشورات جامعة قاريونس بنغازي ، ط3، 1994'، ص ، 376.وينظر أيضا :كاميللو مانغروني ، العلاقات البحرية بين ليبيا وإيطاليا تاريخ البحرية الليبية ،ترجمة وتقديم إبراهيم المهداوي ،مراجعة أحمد الجهاني ، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ،ط1، 1992،ص ، 117.وإتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي ، الدار العربية للكتاب ،ط3، 2009، ص ، 375.

15- نابليون : ولد في مدينة أجاكسيو في كورسيكا 1769 أي بعد عام واحد فقط من ضمها الى فرنسا ، تعلم بونابرت في الأكادمية الغسكرية في بريين وعين ضابطا في الجيش كان يهتم بدراسة النظريات السياسية ،وتولى قيادة الحملة الفرنسية على مصر 1798م وبعد رجوعه منها سنة 1799م أقام حكومة القنصلية وأصبح سيد فرنسا الأول .

16- امحمد سعيد الطويل ،المرجع السابق ،ص ،199.

17- نفسه ،ص ،

18- محمد حواش ، باشوية طرابلس من خلال المراسلات القنصلية الأمريكية ، العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية ، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية بالرباط ،سلسلة ندوات ومناظرات رقم 123 ،مطبعة الأمنية الرباط ،ط1 ، 2005، ص ، 205.

19- نيكولاي إيليتش بروشين ،تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين ، ترجمة وتقديم عماد حاتم

20- إتوري روسي ، المرجع السابق ، ص ، 376.

21 - لايان كولافو ،ليبيا أثناء حكم يوسف باشا ، تعريب عبد القادر مصطفى المحيشي ، منشورات ، مركزدراسة جهاد اللبيين ضد الغزو الإيطالي ، طرابلس ، 1988، ص ، 89.

22- نفسه ، ص ، 89.

23- رودلفو ميكاكي ، المصدر السابق ، ص ، 172. وينظر أيضا : امحمد سعيد الطويل ، المرجع السابق ،ص ، 300.

24- نفسه ، ص ، 171 . وينظر أيضا : امحمد سعيد الطويل ، المرجع السابق ، ص ،299.

25-E ,leMarchant ,L'Europe et la conquete d'Alger,d'aprés des documents originaux tires des archives de l'etat ,paris , perrin et cie ,1913,p,21.

26- F,charle- Roux,la France et l'Afrique du Nord avant 1830,les precurseurs de la conquete Paris ,F .Alcan ,1832,pp.496- 498.

27- عبدالجليل،التميمي ،بحوث ووثائق في تاريخ المغاربي (1816-1871)،ط2،الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعية ،تونس :مركز البحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني ،1985،ص ،57. 28- فيرو شارل ،المصدر السابق ، ص ،394. وينظر أيضا :إتوري روسي ، المرجع السابق ، ص ، 390.

29- نفسه ، ص ، 403.

30- فيرو شارل ، المصدر السابق ،ص ص ، 403 – 404. وينظر أيضا : إتوري روسي ، المرجع السابق ، ص ، 394.

31- رودلفو ميكاكي ، المصدر السابق ، ص ، 179. وينظر أيضا : فيرو شارل ، المصدر السابق ، ص ، 397. وامحمد سعيد الطويل ،ص ، 303.

32- نفسه ،ص ،191.

33- نفسه ، ص ، 192.

34- محمد حواش ، المرجع السابق ، ص ، 208.

35- إليتش بروشين ، المرجع السابق ، ص ، 241.

36- المولدي الأحمر ،الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة في ليبيا ، الفرد والمجموعة والبناء الزعامي للظاهرة السياسية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، 2009، ص ، 249.

37- نفسه ، ص ، 249.

38- أمحمد سعيد الطويل ،المرجع السابق ،ص ،346.

39- المولدي الأحمر ،المرجع السابق ، ص ،249.

مجازر الثامن ماي 1945م
ودورها في بلورة الوعي الثوري

د/كيدار عبد الوهاب، جامعة عمار ثليجي الاغواط

الملخص باللغة العربية: شهد العالم المعاصر ثورة تعتبر من أهم ثورات القرن العشرين ضحى فيها الجزائريون بالنفس والنفيس، وكان لها أثرها على الصعيدين الدولي والمحلي، لكن هذه الثورة لم تكن وليدة فترة قصيرة بل سبقتها العديد من الاحداث والمحطات التاريخية الهامة، بالإضافة إلى جهود العديد من أحزاب الحركة الوطنية، هذه الأخيرة التي تفطنت عقب الحرب العالمية الثانية أن حق تقرير المصير والحرية لا يكونان إلا بالعمل المسلح فقط، خاصة بعد أن نكثت فرنسا بعهودها عقب الحرب العالمية الثانية، وقابلت فرحة الجزائريين في الثامن ماي 1945 بمجزرة شنيعة راح ضحيتها الالاف من الشهداء والابرياء، والتي على أثرها كان الانتقال من العمل السياسي الى العمل المسلح عبر محطات وتحضيرات مهدت لاندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر، وفي هذا المقال سوف اتطرق لبعض الاحداث التي سبقت مجازر 08 ماي 1945، وما افرزته هذه الأخيرة من نتائج والتحضير للكفاح المسلح.

الكلمات المفتاحية: مجازر 08 ماي 1945، الحركة الوطنية، الثورة التحريرية، حزب الشعب، حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية، احباب البيان والحريات، المنظمة الخاصة. 01 نوفمبر 1954.

الملخص باللغة الإنجليزية:

The contemporary world witnessed a revolution that was one of the most important revolutions of the twentieth century, in which the Algerians sacrificed themselves and souls, and had an impact both internationally and locally. This revolution was not the result of a short period of time but was preceded by many important historical events and stations, in addition to the efforts of many parties of the national movement, The latter, after the Second World War, realized that the right to self-determination and freedom was not only armed, especially after France had broken its covenants after the Second World War and met the joy of the Algerians on May 8, 1945 with a heinous massacre that claimed the lives of thousands of martyrs and innocents. Which led to the transition from political work to armed action through the stations and preparations paved the way for the outbreak of the revolution of the light of November, and in this article will touch on some of the events that preceded the massacres of 08 May 1945, and the results produced by the latter and the preparation of the armed struggle

مقدمة.

مقدمة عرفت الحركة الوطنية عدة محطات تحضيرية هامة، قبل انطلاق الكفاح المسلح ما ساهم بشكل مباشر في تفجير ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، وبالنظر إلى الفترة التي تبلور فيها الفكر الثوري، والتي ترجع إلى الأحداث التي عاشتها الجزائر خلال الحرب العالمية الثانية (1939- 1945م)، فقد

برز نشاط الحركة الوطنية أكثر بنزول قوات الحلفاء على الساحل الجزائري في 1942م، حيث التقى القادة السياسيين للبحث عن حلول للأوضاع التي يعانيها الشعب الجزائري وللمطالبة بحق تقرير المصير، وعلى إثرها جاء "البيان الجزائري" تلخيصاً للأشواط التي قطعتها فرنسا في الجزائر من جهة، وما عاناه الشعب الجزائري من ويلات الفقر والاضطهاد والتعسف جراء السياسة الفرنسية وقوانينها من جهة أخرى، ولعل أهم حدث كان له الأثر البارز في بلورة الفكر الثوري مجازر 08 ماي 1945، حيث ابانت فرنسا عن نيتها في عدم التخلي عن الجزائر ونقض عهودها عقب نهاية الحرب العالمية الثانية ومقابلة مطالب الجزائريين بالقتل والتنكيل في اكبر مجزرة حدثت في تاريخ الجزائر، عرفت من خلالها الأحزاب في تلك الفترة أنه لا جدوى من العمل السياسي ولابد من العمل المسلح، فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

مقدمات ثورة ماي 1945م:

تماشياً مع ما دعا إليه الحلفاء على لسان الرئيس روزفلت والذي يتمثل في احترام حقوق كافة الشعوب الصغيرة والكبيرة، جاء أهم مطلب وهو إدانة الاستعمار وإلغائه وحق الشعوب في تقرير مصيرها وهو ما طالب به حزب الشعب في امتداده، كما طالبوا بالمشاركة في الانتخابات والحرية والمساواة بين سائر سكان الجزائر دون تمييز عرقي أو ديني، وفي الحقيقة كان هذا امتدادًا لمطالب فرحات عباس، دون أن نسيان المطالب الاصلاحية التي تعود في الحقيقة لجهود جمعية العلماء المسلمين المتمثلة في الاعتراف بالغة العربية واحترام الدين الاسلامي وأحقية التعليم[1].

وقد اعتبر البيان همزة وصل بين مختلف التيارات السياسية وتفاهم أملته الظروف المعاشة تتقدمه مصالح الجزائريين على حد السواء لأول مرة، غير ان ذلك لم يدم طويلاً فقد ظهر الاختلاف من جديد بعد رفض البيان من قبل الحلفاء؛ الذين اعتبروا القضية تخص شؤون فرنسا الداخلية وفي ذلك اعتراف بالجزائر فرنسية وتجاهل لما جاء في البيان الجزائري، وتفنيد لكل ما جاء في حلتها المزعومة من شعارات وكلام معسول، كما واجهت السلطة الفرنسية بالتناوب مطالب الجزائريين بالرفض وأكثر من ذلك حاولت تغييرها بما يتناسب ومكانتها على حد قول الوالي العام الفرنسي "بايورتون"، جاء على إثر ذلك ما يسمى بملحق البيان الجزائري الذي قوبل بالرفض هو الآخر من طرف الجنرال كاترو، ولأن فرحات عباس رفض تغيير ما جاء في ملحق البيان ولم يوافق على تحقيق طلب كاترو في تمكين بعض الجزائريين من المواطنة الفرنسية، فرضت عليه وعلى "عبد القادر السايح" الاقامة الجبرية[2].

حرّكت هذه الأحداث الوسط السياسي فنظّم حزب الشعب المنحل مظاهرات شعبية في بعض المدن مطالباً بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وقد اعتبرت الأحداث الأخيرة ريحاً من رياح التحرر التي ضربت البلاد وساهمت في شحذ النفوس وتعليق الآمال، غير أنه سرعان ما ظهر موقف سياسي جسّد التراجع عن المبادئ حيث أسفر اجتماع المندوبين الماليين يمثلهم "عبد النور طمزالي" مع الجنرال "كاترو" تأكيدهم على موافقتهم على الاصلاحات وفقاً لمثل فرنسا الديمقراطية وأعربوا عن وفاءهم لفرنسا،

وجاءت جملة من الإصلاحات تطبيقاً لخطاب الجنرال "شارل ديغول" فيما يسمى بمشروع قسنطينة في فيفري 1943م[3].

وقد اعتبرها كل من فرحات عباس وعبد القادر السايح امتداداً لمشروع بلوم فيوليت في 1936م، ونوها من جديد بحق الشعوب في تقرير مصيرها وضرورة الاعتراف باستقلال الجزائر وأن تعامل فرنسا الشعب الجزائري معاملة شعب لشعب، كما رفضه البشير الإبراهيمي بدوره نيابة عن جمعية العلماء المسلمين واعتبره هو الآخر محاولة لإحياء مشروع فيوليت، وأكد قناعته بخصائص الشعب الجزائري الذي لا تربطه بفرنسا سوى مجموعة من المصالح، وأضاف أن أي إصلاحات يجب أن تمكن الشعب الجزائري المسلم من تولي تسيير مساجده وأوقافه ولغته، وأن الشعب يرفض بشدة استبدال هويته وشخصيته الإسلامية، في حين جاء على لسان "ميصالي الحاج" أن المشروع ما هو إلا حلة جديدة لمشروع فيوليت الذي حاربه حزب الشعب الجزائري بشدة سنة 1937م، وموقف الحزب لم يتغير بل الأوضاع، التي عبر عنها بالا طبيعية وأكّد على فشل سياسة الإدماج وضرورة أن تحل محلها سياسة تحررية كون الجزائري المسلم يطالب بالمواطنة الجزائرية لا غير، وطالب بممارسة الديمقراطية في جميع المجالس الجزائرية وتحويل المندوبيات المالية إلى برلمان جزائري ينتخب بالاقتراع العام من طرف كافة الجزائريين، في المقابل لم يهتم الجنرال ديغول بعد أن اطلع في الفترة الممتدة من ديسمبر 1943م إلى جويلية 1944م لآراء المناضلين السياسيين ولم يغير من مشروعه، ولم يأخذ بعين الاعتبار التوجه الوطني الجديد على الرغم من أن الحركة الوطنية أخذت أخيراً اتجاها واحداً وصرّحت بعدم نجاعة الإصلاحات الإدماجية وهضم حقوق الجزائريين، وأصدر أمرية في 07 مارس 1944م، جاءت تجسيداً لديكتاتورية المستعمر في مقدمتها أن كل سكان الجزائر فرنسيون[4].

وقد ساهمت هذه الأوضاع في توحد الطاقات السياسية حول برنامج سياسي في إطار تنظيم جديد اسمته "البيان والحرية" تزعمه فرحات عباس بعد موافقة كل من البشير الإبراهيمي و"ميصالي الحاج" على ما جاء في برنامج أحباب البيان والحرية السياسي، جاءت متماشية مع البيان الجزائري ولكن بتعابير لا تثير حساسية السلطات الفرنسية، وقد لقي هذا التجمع إقبالاً من مختلف الفئات الاجتماعية الجزائرية، واستقطب آمال الجزائريين خلال الحرب، حيث عبّر عن رفضهم لقرار 07 مارس 1944م، ورفعت شعارات تعلن (لا للجنسية الفرنسية) (للجنسية الجزائرية) (تسقط الجنسية الفرنسية) (تعيش الجنسية الجزائرية للجميع)، وقد كان لها جريدة أسبوعية تحت اسم المساواة تأسست في 15 سبتمبر 1944م وضلت تدافع عن أهدافهم[5].

وقد تمكن أكثر الزعماء شهرة في اوساط الجماهير الشعبية من الالتقاء حول الخطوط العريضة لبرنامج التجمع لأنه قد عبّر عن طموحات أغلبية افراد الشعب الجزائري، فقد ايقن فرحات عباس بعدم جدوى الإدماج وبات يؤمن بضرورة إقامة الجمهورية الجزائرية والبرلمان الجزائري الذي يتم انتخابه بالاقتراع المفتوح لجميع السكان، وقد اعتبر ذلك مرحلة جديدة في تطور تفكيره السياسي ومبدئه الوطني،

كما لان موقف "ميصالي الحاج" فيما يسمى بالعنف الثوري وساير الأسلوب السلمي، كما أعلن البشير الإبراهيمي صراحة ان جمعية العلماء المسلمين مستعدة لخوض ما أسمته بالمعارك السياسية كما جاء في البيان، كل هذه الدوافع جعلت من أحباب البيان والحرية أكبر تجمع وطني مقبول من جميع أصناف الشعب، الرغم من أنه كان مقرون باسم فرحات عباس إلا أن كل من حزب الشعب الجزائري المنحل وجمعية العلماء المسلمين قد شكلا قلبه النابض[6].

وقد ظهر التفاف الأحزاب حول تجمع أحباب البيان والحرية في نشاط الاتجاهات السياسية، فقد تحرك قادة جمعية العلماء المسلمين في أفريل 1944م في جميع اتجاهات الوطن لدعوة الناس للالتفاف حول المولود الجديد مرّكزين على ضرورة التمسك بالإسلام واللغة العربية، ومؤكدين على توحيد الجهد الوطني لتقويض أركان المستعمر، كما عبأ حزب الشعب الجزائري المنحل كل طاقاته النضالية لهيكلة التجمع الجديد أمثال حسين عسلة ومسطول والشاذلي المكي والامين دباغين، وعملوا على اعطاءه نفساً وطنياً قادراً على سد الطريق في وجه السلطات الاستعمارية، وقد صوتوا في اجتماع للبيان بإطلاق سراح "ميصالي الحاج" [7].

وما إن انتهت الحرب العالمية الثانية في ماي 1945م حتى كانت الأوضاع مشحونة بالتوتر بين الجزائريين والفرنسيين، وما زاد الطين بلة الازمة الاقتصادية التي كانت تعانيها البلاد والتي اعتبرت حطباً زاد من اشتعال حماس الجزائريين وكرههم للفرنسيين، ففي الوقت الذي كان الأوروبي يحقق الازدهار ويحوز على ثروة الجزائريين ويعيش الرفاهية ويسيطر على التقنيات العصرية كان الجزائريون يحسون أن الأجنبي يمتص خيرات البلاد وينهب أهلها دون أن يجد من يقف له بالمرصاد، هذا الاحساس ساهم بشكل كبير في خلق غضب وسخط على السياسة الاستعمارية والانقياد وراء الجهات التي تظهر المواجهة لهذه السياسة[8].

هذا وقد استقبل الشعب الجزائري نهاية الحرب العالمية الثانية وهو يتخبط في وضعية اجتماعية وثقافية مزرية؛ في مظهرها العام مجتمع فقير يعاني البؤس والجوع والأمراض، فالانقسام اللامتساوي لطبقات المجتمع أوجدت فئتين متمايزتين: الفئة القريبة من السلطات الاستعمارية والتي على الرغم من تفانيها في خدمة السلطة الفرنسية ومراعاتها لشؤون الأهالي فلا ترقى إلى مصاف أحط الأوروبيين قدراً، والفئة الاجتماعية الثانية التي يتشكل منها باقي السكان وهم الأغلبية وتعيش حياة مماثلة يسودها الاستغلال والاضطهاد والتعسف، خاصة وأن في هذه الفترة عرفت الجزائر نموا ديموغرافيا، هذا دون أن ننسى التجهيل الذي عملت فرنسا منذ 1830م على تدعيمه بكل الوسائل بما فيها غلق الزوايا والكتاتيب وزج العلماء في السجون ومحاربة اللغة العربية، هذا كله خلّف 19% من المتعلمين الجزائريين فقط ممن يحسنون القراءة والكتابة سواءً بالعربية أو بالفرنسية[9].

ومما زاد في التأثير على الجزائريين ظهور مولود عربي جديد نادى هو الآخر بالقومية العربية واللغة العربية والدين الاسلامي وهو الجامعة العربية التي تأسست في مارس 1945م، والتي حملت على عاتقها محاولة تحقيق رغبات الشعوب المستعمرة بما فيها الجزائر، فقد أظهرت الأهمية الاستراتيجية للمنطقة العربية[10]، كما أعطى تزعزع الإمبراطوريات الاستعمارية وفي مقدمتها فرنسا دفعاً قوياً في هذه الفترة للشعوب العربية لما سمي بموجة التحرر من الاستعمار، خاصة بعد انهزام فرنسا سنة 1940م وانقسام الفرنسيين.

وذلك حمل المؤرخين على عقد مقارنة بين تطور الأحداث في الجزائر وسورية؛ بعد تزامن مظاهرات الثامن ماي 1945م في الجزائر مع مظاهرات في سورية في نفس اليوم من نفس السنة، اجتاحت العديد من المدن السورية مثل حمص حماة حلب ودمشق...، حيث وصفتها فرنسا بأعمال الشغب كبّدت السلطات الفرنسية خسائر كبيرة، وقد جاءت هذه المظاهرات بعد انضمام سورية إلى جامعة الدول العربية[11].

وقد ساهمت المنشورات والصحف السرية في زيادة التوتر؛ حيث باتت حيطان الجزائر لافتات عملاقة يقرأها الصغير والكبير (ليس في الدنيا ما يمكن ان يحول الإنسان العربي إلى إنسان فرنسي) (كلنا فداء الجزائر) (أطلقوا صراح ميصالي)، وأصدر حزب الشعب الجزائري جريدتين إحداها بالعربية (الجزائر الحرة) والأخرى بالفرنسية (L'action Algérienne) صعّدت من تعبئة الجماهير وقد سارت وفق سرية تامة حتى أن السلطات الفرنسية لم تنجح في العثور لا على مكان طباعتهما أو مقر اجتماعاتها[12]، وكثر الحديث عن مقاطعة الانتخابات وحث الجزائريين على عدم الاختلاط بالفرنسيين وظهرت الصيغ الحماسية لشحن النفوس، ومن هذه العبارات: (استعدوا فإن ساعة الصفر قد قربت، فلنعد انفسنا للثورة، أيها الجزائريون حاربوا من اجل الحرية وموتوا اذا اقتضى الأمر...)، حتى أن الأطفال الجزائريون صاروا يستنكرون أن يكون اجدادهم الفرنسيون ويفتخرون بانتسابهم للعروبة والإسلام، كما جاء في أحد التقارير الفرنسية أنه في بجاية كتب احد المعلمين الفرنسيين جملة على السبورة (أني فرنسي وفرنسا وطني) فكتب أحد التلاميذ الجزائريين بدلها (أني جزائري والجزائر وطني)[13].

كل هذه المظاهر تدل على أن الحركة الوطنية ورغبة الشعب على حد سواء قد أخذت منعرجاً جديداً، وعلى الرغم من احساس الفرنسيين بخطورة الأوضاع كما جاء على لسان المجلة الكاثوليكية في مارس 1945م "أن الجزائريون أصبحوا يشكلون خطراً وأن الوضع أصبح صعباً على الفرنسيين"[14]، وبدل أن يتفّهم الفرنسيون الوضع ويحاولوا امتصاص الغضب راحوا يتحرشون بالحركة الوطنية ورجالها، فقاموا بحل الأحزاب السياسية وعملوا على اضطهاد العلماء وزج الزعماء السياسيين في السجون ما اعتبره الوطنيين تحدياً لهم.

وفي يوم 03 مارس 1945م أرسل فرحات عباس لائحة إلى مؤتمر "أحباب البيان والحرية" رفض هذا الأخير المصادقة عليها، لأنها تضمنت دعوى لإدراج الجزائر في النظام الاتحادي مع فرنسا، وفي نفس

الفترة صرّح البشير الإبراهيمي في تلمسان أن الرئيس روزفلت وعد باستقلال الجزائر عن طريق ندوة سان فرانسيسكو المزمع عقدها في نهاية أفريل 1945م، وبالمقابل أصدر المكتب المركزي لأحباب البيان والحرية لائحة في 02 أفريل من نفس السنة، دعا فيها للتمسك بالمطالب الواردة في بيان الشعب الجزائري والعمل على دفع الحكومة الفرنسية إلى الاستجابة لطموحاته في تحقيق الأهداف المسطرة في الوثائق المرفوعة [15].

وقد لاحت في الافق مظاهر الوعي السياسي والغليان الثوري، ففي شهر أفريل من نفس السنة قامت الجماهير الشعبية في قصر الشلالة بمنع السلطات الفرنسية من اعتقال 04 مناضلين في صفوف حزب الشعب الجزائري، وارتاب المعمرون من ما سموه بالحقد الدفين لدى الجزائريين ما دفع 06 مندوبين عامين أوروبيين يتوجهون ببيان إلى عمالة قسنطينة دعوا فيه لأخذ الاحتياطات اللازمة مما قد يحدث من الأهالي ضد الفرنسيين[16]، وفي خضم هذه الأحداث كتب الجنرال "هنري مارتان" أنه بات من المؤكد أن حزب الشعب الجزائري يعمل على تنظيم الثورة الشاملة، كما اصطدمت مراسلات الحلفاء الممثلة في أمريكا الزعماء السياسيين بردود متناقضة بين النظر في القضية ورفض ذلك أثبتت بذلك سوء تقدير الحلفاء وعنجهية الدول الاستعمارية[17].

تمخّض عن كل هذه الأحداث تزايد الوعي الوطني والاحساس بضرورة الخلاص، فشمرت السواعد قصد التصدي للفتور الذي أصاب الأمة ونفض الغبار الذي حجب الرؤية ومحاربة التزييف وإزالة التشويه.

مظاهرات الفاتح ماي 1945م:

قرّر أعضاء مكتب حزب الشعب الجزائري المنحل تنظيم مظاهرات شعبية بمناسبة عيد العمال للتدليل على نفاذها المحكم في الأوساط الجماهيرية، واختبار مدى ثقة الشعب الذي تعمل على تحريره فيها، لذلك قامت بتوجيه تعليماتها في سرية تامة فحضّرت الأعلام الوطنية وكتبت اللافتات بالعربية والفرنسية وحتى الإنجليزية، وحدّدت مراكز الانطلاق والمحطات النهائية، وعينت فرق التأطير فقسّمت الجهات الشعبية إلى فرق وأفواج وفروع ، أما الفوج فيتكون من 06 أعضاء والفرقة تضم 05 أفواج والفرع يتكون من 05 فرق والمجموع 156 عضو بإضافة الفرق، وقد وصل عدد المناضلين إلى أكثر من 400 مناضل إلى جانب عدد كبير من المنخرطين بالإضافة إلى المساعدين في نقل الأخبار والبريد والاتصالات[18].

وقد وزعت عشية الفاتح من ماي آلاف المناشير عبر مختلف أنحاء الوطن، بهدف إعطاء المظاهرات طابع الشمولية، كما جاءت كتذكير بالمطالب؛ فقد حملت المظاهرات في مضمونها احترام للمطالب العادية التي ينادي بها العمال، وحق الجزائر في تقرير مصيرها بنفسها وفي استرجاع سيادتها وإقامة المؤسسات الوطنية المستقلة[19].

وفي صبيحة الفاتح من ماي اجتاحت المدن الجزائرية مظاهرات سلمية هادئة، حمل فيها المتظاهرون لافتات وشعارات من بين ما كتب فيها (تحيا الجزائر مستقلة) (يسقط الاستعمار الغاشم) (إطلاق سراح المعتقلين السياسيين) نادوا فيها بتحرير ميصالي الحاج واستقلال الجزائر، وتقدمت الأمواج

البشرية الأعلام الوطنية، وتعالت الهتافات بحياة الجزائر واسترجاع السيادة[20]. وقد ووجهت هذه المظاهرات السلمية بالقمع الوحشي الاستعماري، في جميع المسيرات في تقتيل جماعي خاصة في وهران استشهد فيها مواطنان وجرح أكثر من عشرين شخص، والعاصمة حيث كانت ساحة البريد المركزي نقطة التقاء الأفواج المتظاهرة، وباستنجاد سكان شارع العربي بن مهيدي بالشرطة تحول الميدان لحمام دماء وسقط الشهيدان "غزالي الحفاف" "عبد القادر زياد"[21]، بينما كانت المظاهرات في مدن سطيف ووهران وعنابة وقالمة وغيرها أقل عنفاً[22].

مظاهرات السابع من ماي 1945م:

أثبتت أحداث الفاتح من ماي 1945م مدى إقبال الجماهير الشعبية على التضحيات القصوى ومدى دعمها للحركة الوطنية، وهذا ما زاد من فزع الأوروبيين الذين تأكدوا من النضج السياسي للجماهير الشعبية الجزائرية، وتأكدت على إثرها السلطة الفرنسية من عدم جدوى محاولات الإدماج والالحاق والمساواة فحاولت احتواء الوضع بأن ألقت القبض على إثرها على مجموعة كبيرة من الإطارات القيادية في حزب الشعب الجزائري المنحل، هذا الأخير الذي صرّح في 04 من ماي 1945م رداً على اتهامات الحزب الشيوعي الذي قال أن الحركة الميصالية لوثت انتصارات الطبقة الشغيلة بدماء الأبرياء، "أن الهتلريين الحقيقيين إنما هم أولئك الذين سلّحوا الشرطة لتقتل إخوان وآباء وأقارب الأجناد الذين ساهموا لتحرير فرنسا وحاربوا في ألمانيا جحافل الفاشية والنازية"[23].

انطلق الاحتفال رسميا في السابع من ماي 1945م بإعلان الحلفاء عن نهاية الحرب العالمية الثانية، ونظّم الجزائريون احتفالات خاصة بهم؛ حيث انتظمت مظاهرات كبيرة سارت تجوب شوارع العاصمة الجزائرية وتطالب بإطلاق سراح رئيس حزب الشعب الجزائري المنحل الذي كان في قصر الشلالة تحت الإقامة الجبرية، وعندما تصّدت الشرطة للمتظاهرين للحيلولة دون مسيرتهم، فلم يستجب المتظاهرون لنداء الشرطة فوقع الصدام المسلح وأطلقت الشرطة الرصاص على المتظاهرين فجرح من جرح واستشهد من استشهد، وبدأ الموقف يتفجر وهذا ما دعا إلى ضرورة اجتماع الجبهة الوطنية أي جبهة أحباب البيان والحرية[24].

مجازر 08 ماي 1945م:

في يوم 08 ماي 1945م وأثناء خروج الجزائريين للاحتفال بنهاية الحرب العالمية الثانية وتعبيراً منهم عن حريتهم التي وعدتهم بها فرنسا، نظير مساعدتهم لها في القضاء على النازية، وعوض أن ينال الشعب استقلاله لتضحياته سقط في شوارع قالمة وسطيف وخراطة[25]....

ومن الثابت أن المظاهرات قد وقعت في مختلف أنحاء البلاد وليس في سطيف وحدها؛ فقد جرت في مدينة الجزائر وبجاية وباتنة وخنشلة وبسكرة وعنابة، وقالمة وخراطة والقبائل الكبرى وغيرها، ولكنها في سطيف كانت أكثر عنفاً لأنها صادفت السوق الأسبوعي في المنطقة، حتى ان البعض قدّر رواد السوق والباعة بخمسة عشر ألف شخص، بالإضافة إلى تواجد معظم الميليشيات التي كوّنها عامل عمالة

قسنطينة السيد "لاستراد كربونال" ابتداءً من ديسمبر 1944م في المحور الرابط بين برج بوعريريج ومدينة سطيف، لذلك يرى بعض المحللين السياسيين أن العنف الذي عرفته المنطقة كان مخطط له في هذه الناحية على وجه الخصوص، ويرجع ذلك لتاريخ الشرق الجزائري الحافل بالأحداث المهمة باعتبارها مركز إشعاع ووعي سياسي مثله نشاط أبناء المنطقة من الحركة الإصلاحية بزعامة البشير الابراهيمي وكتلة النواب بزعامة فرحات عباس [26].

وتذكر الوثائق أن ضباط الشرطة عملوا على استفزاز المتظاهرين؛ من ذلك قيامهم بمحاولة انتزاع الأعلام الوطنية من أيدي المناضلين الذين رفضوا التفريط فيها والامتثال لأوامر ممثلي السلطة الاستعمارية، فبدأ -على إثر تلك الاستفزازات التي باتت حجة للوحشية الاستعمارية- إطلاق النار على المتظاهرين بطريقة عشوائية، فانتقل المتظاهرون من المدن إلى القرى والمداشر لإعلان انطلاق الجهاد في سبيل الله، فتحّولت بذلك المظاهرات السلمية إلى حركة ثورية ضلت متواصلة طيلة شهر ماي[27].

وتشهد الوثائق الفرنسية والجزائرية والأجنبية الأخرى أنه لم يكن هناك مبرر للقمع المبالغ فيه، فقد استعمل الفرنسيون طريقة "العمليات الكاسحة" بمعنى تمشيط المنطقة وتخريب كل ما يعترض الطريق، وقد شاركت في ذلك فرق الميليشيا (الحرس الخاص) وفرقة "الكومندوز" التي ألفها المعمرون، والجيش الفرنسي بأصنافه الثلاثة المشاة والبحرية إلى جانب الشرطة والدرك[28]. واستعملوا عددا كبيراً من الطائرات لضرب المدنيين وفي التقارير الأمريكية عن الحوادث التي صدرت في 28 ماي 1945م، أن قاذفات القنابل الفرنسية قد حطمت قرى آهلة بكاملها، أثناء حملة دامت 09 أيام، ولم يسلم منها حتى الهاربون من الدمار كما نسفت المخابئ التي لجأ لها السكان في الجبال[29].

وأمام هذه العمليات المنظمة والوحشية التي استهدفت السكان العزل، اضطر الجزائريون إلى القيام بعمليات فدائية تلّخصت في مجموعة هجمات على الثكنات العسكرية والمراكز الإدارية بما توفر لديهم من سلاح، مثل ما حدث في قرية "بني عزيز" في اليوم التاسع من شهر ماي؛ حيث قام المناضلون بتطويق الثكنة العسكرية وبعد 03 ساعات من الحصار اجبروا المدافعين الفرنسيون على اللجوء إلى الطابق الأول بعدما اخترقوا الطابق الأرضي، وقاموا بحرق المخازن والاسطبلات ولم يتم التخلص من الحصار إلا بعد وصول الدعم الفرنسي في اليوم الموالي[30].

لم يتوقف القمع الفرنسي والهمجي عند حد معين، ففي نواحي قالمة أمر الجنرال "ديفال" القائد الأعلى للقوات المسلحة في الجزائر والجنرال "فايس" قائد القوات الجوية والبحرية، في الأسبوع الثاني من شهر ماي 1945م بإشعال الأفران المحرقة التي ابتلعت مئات الجثث البريئة[31]، كما أن قادة الميليشيات وضباط الأمن والجيش كانوا يتنافسون حول من يتألق أكثر في ممارسة أنواع التعذيب في حق الجزائريين العزّل.

وقد عمدت السلطات الفرنسية إلى إلقاء القبض على الزعماء السياسيين أمثال: فرحات عباس والدكتور سعدان وقامت بحل "حركة أحباب البيان والحرية"، كما ألقت القبض أيضاً على البشير

الإبراهيمي ورجال جمعية العلماء المسلمين وأتباع الحركات الوطنية الأخرى حتى المحظورة أمثال: مزغنة وحسين عسلة[32] وابقتهم في سجونها إلى أن صدر العفو العام في 16 مارس 1946م[33]، الذي لم يستطع إصلاح الأوضاع في وقت زادت فيها الهوة اتساعاً بين الطرفين الفرنسي والجزائري، أيقن على إثرها كل أفراد الساحة السياسية مدى أهمية التمسك بالأهداف الوطنية وعدم جدوى تنازلات.

وقد خلّفت هذه المجازر ما يقارب 45 ألف شهيد قتلوا برصاص القوات الفرنسية[34] وهو الرقم الذي تبنته الجامعة العربية، غير أن التقارير حملت أرقاما متباينة لعدد شهداء وجرحى وأسرى هذه المجازر؛ فالتقارير الفرنسية تشهد بأن عدد القتلى من الجزائريين يتراوح من 1.200 إلى 1.500 قتيل، أما التقديرات الجزائرية فترجحها ما بين 45.000 و100.000 شهيد[35]، ومثال على هذه التقديرات ما صرّح به النائب "ابن جلول" في 28 فيفري 1946م بأن شهداء هذه المجازر وصل إلى 80.000 شهيد، في حين ترّنحت التقديرات الأجنبية بين هذا وذاك؛ فمنهم من يقّربها إلى نسب الفرنسيين ومنهم من يقربها إلى إحصاء الجزائريين[36].

ولكن بالنظر إلى الأسلوب الذي اتبعته فرنسا في هذه المجازر يتضاعف عدد القتلى، فقط حسب الصحافة الأمريكية أن الطيران الفرنسي نفّذ في ظرف أسبوعين 4500 غارة جوية دمرت 44 مشتى يقطنها 500 ساكن، وبذلك يكون ضحايا الغارات الجوية لا يقل عن 22.500 ساكن، ناهيك عن الهجمات البحرية على سواحل بجاية وجيجل والقل وسكيكدة وعنابة التي قامت بها 16 سفينة[37].

غير أن السلطات الفرنسية حاولت أن تغطي على فعلتها الشنيعة وسياستها الوحشية بأسلوب التضليل؛ حيث أطلقت على ما حدث في 08 ماي 1945م اسم "الحوادث"، وصرّحت أن أسبابها تعود لنقص في وسائل التغذية والمجاعة، وأن الحكومة عازمة على إرسال الطعام للجزائر، في حين أن المنطقة التي اشتدت فيها الأحداث كانت من أغنى المناطق، كما أن الثوار لم يهاجموا مخازن التغذية بالإضافة إلى أن الشعارات التي حملها المتظاهرون لم تحوي عبارات تشير إلى المجاعة والحالة الاقتصادية بصفة عامة بل كانت في الغالب شعارات سياسية ما ينم على أن الدوافع كانت سياسية محضة[38].

وقد اختلفت وجهات النظر الفرنسية حول أسباب المظاهرات: فمنهم من يرجعها إلى الوازع الديني؛ فيرى أنها جاءت كحركة عربية إسلامية قائمة على الانفصال بين الجزائر وفرنسا تزعمتها جمعية العلماء المسلمين ورجّحوا أن تحركاتها اقترنت بقيام الجامعة العربية، ففنّدت بذلك تحكم الأسباب السياسية في الحادثة بحكم جهل سكان القرى والأرياف بالسياسة[39]، ومنهم من يرّجح أنها مؤامرة فاشية أو نازية حيكت ضد فرنسا، التي كانت قد انهكتها الحرب العالمية الثانية[40].

وقد تباينت مواقف الحركة الوطنية من هذه المجازر، فحزب الشعب الجزائري المنحل الذي خطط لها مسبقاً كما أسلفنا تأثر لما حدث وتبنى العمل الثوري على إثرها، في حين أدان أصدقاء فرحات عباس ضمنا ما حدث في الثامن ماي 1945م، ورفض العنف كحل، وقد حاول تشكيل حزب على الطراز الغربي ينتمي إليه البورجوازية الصغيرة، كما جاء أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري الذي لم يفكر

بالانتقال إلى العمل المسلح والثوري؛ فقد بقي على صورة الحزب الشيوعي الفرنسي ولم يهتم بالشعور الوطني للطبقة العاملة الجزائرية وفي الحقيقة فقد كان في تركيبته يدخل في الإطار الاستعماري، بينما لم تحدد جمعية العلماء المسلمين موقفها تجاه العنف، وواصل أعضاءها تحركهم الثقافي ولم يوفروا شيئا من أجل أن يبقوا شرعيين[41]

وبغّض النظر عن الآثار السلبية التي خلفتها هذه المجازر، فقد كان لها جوانب إيجابية؛ حيث أظهرت الوجه الحقيقي لفرنسا وما كانت تبيته للجزائريين الذين انخدعوا بوعودها الزائفة وبذلوا فلذات أكبادهم لتحريرها، ويبقى أهم نتيجة لهذه المجازر هي تبلور الوعي الثوري والتفاف الشعب الجزائري حول كلمة واحدة أن "ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة"، وفي هذا الصدد صرّح فرحات عباس في الـ16 مارس 1946م مخاطباً الشبيبة الجزائرية والفرنسية، وأكّد على أن هذه الجرائم الشنعاء التي ارتكبتها "عصابات من الأوغاد الرجعيين" جاءت ضربة للحركة الوطنية التي مثلتها آنذاك "حركة أحباب البيان والحرية"، ووعد بأن "ملف الثامن ماي لم يغلق بعد"[42]. ذلك ما دفع المؤرخون أن يستنتجوا أن ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م تقررت ساعة مجازر الثامن ماي 1945م.

أعطت مجازر ماي 1945م بعداً جديداً؛ فقد جاءت -رغم بشاعتها وجرمها- بثمارها المتمثلة في ترسيخ الوعي الوطني، وأزهرت فكرة "ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة" بعدما سقيت بدماء 45.000 من الشهداء، وأكدت نزعة الرفض للأوضاع من قبل الجزائريين في مقدمة شرائحهم الفلاحين، فلا عجب أن تكون هذه الفئة فيما بعد نواة جيش التحرير الوطني الذي فضّل التمركز في الأرياف والجبال بدل المدن، كما نبه الفشل الدموي لهذه المظاهرات لضرورة التحضير معنوي وتنظيمي ومادي[43]، واقتنع المناضلون أن التحضير للعمل المسلح سيكون أكثر شمولية وقوة ما جعله يتأخر إلى الفاتح من نوفمبر 1954م.

استئناف العمل السياسي بعد مجازر ماي 1945م:

اقتنع الكثير من المناضلين بعد مجازر ماي 1945م بأنه لا حل إلاّ بالكفاح المسلح لتقويض أركان الاستعمار، وبدأ البحث عن بدائل جديدة لمواجهة السياسة الاستعمارية. في الوقت الذي ظهر التباين في الذهنيات بين مناضلي الحركة الوطنية من جديد، واندثرت جبهة وطنية هي أحباب البيان والحرية على حد قول الأخضر بن طوبال: "الأمين دباغين الذي ذهب باسم حزب الشعب الجزائري ليقترح الحفاظ على الوحدة قد واجه رفضاً قاطعاً...كنا اذن الأوائل الذين عشنا وتحملنا وطأة تفتت أنصار البيان والحرية. لقد وقعت المسؤوليات علينا. وقد كان واضحاً منذ ذلك الحين أنه يجدر بنا شق طريقنا بمفردنا"[44]، وظهر على إثر ذلك حزب الشعب المنحل **(PPA)** بحلة جديدة بعد إطلاق سراح زعيمه "ميصالي الحاج" في أكتوبر 1946م[45].

وقد جاء اجتماع ندوة الإطارات ببوزريعة بالعاصمة الذي عقد في أكتوبر1946م مناسبة لتأسيس "حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية" **(MTLD)** خلفاً لحزب الشعب المحظور، غير أن الخلاف بين اعضاء الحزب الجديد ظهر في هذا الاجتماع؛ فزعيم الحزب مصالي الحاج كان يرى بأن

العمل المسلح لم يجِن بعد، ودعا للمشاركة في الانتخابات ومسايرة السياسية الاستعمارية، أي استمرار العمل داخل الاطر الشرعية والعمل على تدويل القضية الجزائرية، في حين جهرت العناصر الشابة من مناضلي الحركة والمؤمنين بالعمل المسلح بمعارضتهم لأسلوب الذي انتهجه مصالي وجماعته، ودعوا للكفاح المسلح كوسيلة ضرورية لبلوغ الهدف المنشود وتحقيق الاستقلال[46]

للفصل في هذه القضية انعقد المؤتمر الأول لحزب "حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية " في 15 فبراير1947م في "بلكور" بالعاصمة في سرية تامة[47] في جو مشحون بالتوتر وانعدام الثقة، فقد جاء في وقت عمت الحزب الجديد فوضى جراء غياب القيادة القديمة لحزب الشعب المحظور مدة طويلة -قرابة عشر سنوات- عن الساحة السياسية؛ فقد كان بعضها في المنفى والبعض الآخر في السجون[48] هذا من جهة، وانضمام عناصر جديدة للحزب حاملة معها أفكاراً جديدة من جهة أخرى، وهو ما ذكره الحاج مصالي في تقريره حيث قال: "أثناء هذا المؤتمر رأيت بوضوح كبير وشعرت بأن الشخص المسئول عن الحزب ليس له اعتبار كبير، وبحكم ابتعادي عن الحزب مدة عشر سنوات كاملة وجدت نفسي أجهل أغلب المسئولين، ومعزولاً عن الكل تقريباً "[49].

اتضح في هذا المؤتمر أن العناصر الجديدة لحركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية قد شكّلت المعارضة القوية داخل الحزب، لاسيما بعدما رفضت توكيل مهمة تعين قيادة الحزب للحاج مصالي، ما دفع بالمناضلين إلى تكوين لجنة تتولى هذه المهمة، وتألفت لجنة ترشيحات من "الحاج مصالي وأحمد مزغنة والأمين دباغين وأحمد بودة وحسين لحول"، والتي رجحت في الأخير الكفة للأمين دباغين وأنصاره كونه كان على رأس الحزب خلال الفترة ما بين (1939م و1947م)، الأمر الذي سمح له بالتعرف على العناصر المناضلة الجديدة التي انخرطت في الحزب خلال هذه الفترة[50]، وأنهى' المؤتمر أعماله بالموافقة على المشاركة في الانتخابات تحت اسم **حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية** بقيادة أحمد مزغنة، كوسيلة تكتيكية لعرض البرنامج السياسي للحزب مع الالتزام بعدم المشاركة في أي نشاط برلماني مع الإبقاء على سرية حزب الشعب المحظور بقيادة أحمد بودة، وقد جاء فتيل الثورة التحريرية كقرار ثالث تمثل في إنشاء منظمة سرية شبه عسكرية تحت اسم **المنظمة الخاصة** بقيادة محمّد بلوزداد[51].

<u>بوادر التصدع داخل الحركة:</u>

امتد تصدع العمل السياسي لداخل الحزب الواحد وقد ظهر ذلك جلياً داخل الحزب الجديد "حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية" في أول اجتماع لها بين العناصر القيادية القديمة والعناصر الجديدة، وذلك راجع لاختلاف قناعات وأساليب كل طرف عن الآخر، ففي الوقت الذي توجهت فيه أعضاء المنظمة الخاصة لتحضير للعمل المسلح اتجه العناصر القيادية القديمة في الحزب بزعامة ميصالي الحاج للشرعية السياسية والمشاركة في الانتخابات المزمع إجراءها.

وقد انحصرت مهمة المنظمة الخاصة في الإعداد للثورة المسلحة، حيث بدأ على إثر ذلك محمّد بلوزداد في تحريك المنظمة وتهيئتها وقد بلغت بنهاية سنة 1948م درجة عالية من حيث الجانب النفسي وقليلاً من الجانب المادي[52]، كما عمدت إلى القيام بعدة ترتيبات للدخول في مرحلة فعلية جديدة، وتم تقسيم التراب الجزائري إلى مناطق ووضع على كل منطقة رئيسا[53]. وقد استطاعت هذه المنظمة خلال ثلاث سنوات أن توفر الشروط الضرورية للمعركة الفاصلة مع الاستعمار الفرنسي، إلاّ أن اكتشاف أمرها من طرف الشرطة الفرنسية في مارس 1950م فوّت عليها فرصة الإسراع في العمل المسلح، مما أدىٰ إلى اعتقال عدد كبير من أعضائها[54].

في الوقت الذي كان حزب "حركة انتصار الحريات الديمقراطية"(MTLD) يتخبط في مشاكل سياسية غير مبال بأمر المنظمة الخاصة، مما أدىٰ بأعضاء هذه الأخيرة إلى إعادة النظر في كيفية بعثها من جديد، ومواصلة مشوارها عن طريق الكفاح المسلح مرة أخرى، متجاوزة الحزب الذي كان غارقاً في مشاكل لا حصر لها، ولاسيما بعدما أنكر وجود هذه المنظمة العسكرية عند اكتشافها، واتهم الشرطة الفرنسية بتدبير مؤامرة كاملة لحل "حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية"، مما أدىٰ إلى حلها في ربيع 1951م، ورفض إعادة بعثها من جديد من طرف قيادة الحزب، وتجريد أعضائها من ممارسة أي مسؤولية داخل الحزب، وإبعاد معظم مناضليها[55]، وهو ما آثار استياء أعضاء المنظمة.

وفي الوقت الذي احتدم فيه الصراع بين الميصاليين والمركزيين، حاول كل منهما تحميل الطرف الآخر مسؤولية الآثار السلبية لسياسة شارك فيها الجميع سواء على صعيد العمل السري بتأسيس المنظمة الخاصة، أو على صعيد العمل العلني بالمشاركة في انتخابات المجلس الوطني الفرنسي والمجالس البلدية الجزائرية، ثم معالجة عواقب اكتشافها، وهو الحدث الذي أحدث ضجة كبيرة لدىٰ المناضلين، وجعل الجدل يدور حول الجوانب الشخصية والإجراءات بدل البحث في جوهر الخلاف والوصول للأسباب العميقة للأزمة[56].

جاء قرار حل المنظمة الخاصة من طرف الحزب تجسيدا للانشقاق بين الثوريين والحزب، والذي ازداد أكثر بعد انضمام الحزب إلى تنظيم جديد سمي "بالجبهة المشتركة للدفاع واحترام الحرية- Front Commun pour la Défense et le Respect de la Liberté" في نفس السنة، وهو ما اعتبره أعضاء المنظمة الخاصة نكسة سياسة، وقد جاء كمحاولة منها للبحث عن طريق التجمع والتكتل لتعويض نقص التعاطف الذي أبدته الجماهير تجاهها، وكرد فعل إزاء السياسة الاستعمارية التعسفية بجبهة قوية متينة ومتراصة، إلاّ أن ذلك لم يجدي نفعاً، فسرعان ما تصدعت تلك الجبهة المشتركة بسبب تباين اتجاهاتها الإيديولوجية، وأهدافها ووسائلها [57].

التحضيرات الأولى للكفاح المسلح:

في ظل هذه الأوضاع التي وصل الصراع فيها إلى حد المواجهات العنيفة بين أعضاء الحزب الواحد (الميصاليين والمركزيين)، وتجسيداً لفكرة العمل المسلح من جديد بادر كل من "محمد بوضياف"، "مصطفى

بن بولعيد"، "ديدوش مراد" و"العربي بن المهيدي" منذ مطلع سنة 1952م بتشكيل لجنة عمل اتخذت بعد سلسلة من اجتماعات عدة قرارات كان أهمها بعث نشاط المنظمة الخاصة من جديد دون اخذ موافقة "حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية" والشروع في تحضير وسائل العمل من أسلحة وقنابل....، والاتصال بالثوار في كل من تونس والمغرب في إطار مشروع الكفاح المغاربي المشترك، وجاء كحدث هام آخر انعقاد المؤتمر الثاني لـ"حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية" من 04 إلى 06 أبريل 1953م بالجزائر، الذي انتهى بالتصويت على اللوائح والقوانين التي قدمتها اللجنة المركزية[58].

وعبّر عن موقف الحزب من الحياة السياسية وعن أسلوبه الجديد المتمثل في توجهه الشرعي وانتهاجه الإصلاحي، هذا النهج الذي اعتبرته المنظمة الخاصة مضيعة للوقت، في حين كانت متشبثة بفكرة" ما يُؤخذ بالقوة لا يرد إلاّ بالقوة"، ورأت أن ما أفرزه المؤتمر هو موقف غريب من حزب ناضل أكثر من ربع قرن وهو ينادي بفكرة الاستقلال، ليصل في نهاية الأمر إلى مسايرة السياسة الاستعمارية والإصلاحية الإمبريالية، وزاد الشقاق بعدما صارت كل جهة تتعرض للجهة الأخرى معتمدين العنف كمبدأ، واستفحل الأمر خاصة عندما فاجأ الحاج مصالي بإعلان ميلاد "لجنة الإنقاذ العمومي- Comité du Salut Public" (csp) في **11** مارس 1954م، التي أوكل لها مهمة استعادة صلاحيات الإشراف على الحزب، وقام بتوزيع مناشير يوضح فيها أسباب خلافه مع اللجنة المركزية والتشهير بهم، بل تعدىٰ الأمر ذلك واتهم معارضيه من المركزيين بالبيروقراطية وبالنزعة البرجوازية والإصلاحية، ووصفهم بالانتهازية والنفاق، وذهب إلى حد اتهام حسين لحول باختلاس أموال الحزب لمنافع شخصية، ونتج عن ذلك تحول خطير في مسار التيار الاستقلالي الذي لم يسبق له من قبل إشراك القاعدة النضالية بصورة مباشرة في أي خلاف[59].

وأمام هذه الظروف وفي مقدمتها انقسام الحزب على نفسه، ودخول المناضلين في صراع حاد بينهم تاركين آمال الجماهير تتحطم، بادر أعضاء المنظمة الخاصة في مارس 1954م من جديد إلى بعث حركة للحفاظ على وحدة الحزب وتوجيه التيار الاستقلالي نحو الغاية التي وُجد من أجلها، سميت بـ"اللجنة الثورية للوحدة والعمل" (CRUA)، وأصدرت جريدة ناطقة باسمها وهي " الوطني - **Le patriote** "[60]، وتضمن بيانها التأسيسي الاتفاق حول الالتزام بمبدأ المحافظة على وحدة الحزب من خلال الدعوة إلى مؤتمر موسع وحر لحل كل الخلافات، وتعيين قيادة غير متنازع حولها، والالتزام بالحياد بين الحاج مصالي والمكتب السياسي المناصر له وبين اللجنة المركزية[61]، في الوقت نفسه عملت على إقناع المركزيين بتبني العمل المسلح بمنح الحزب قيادة ثورية، واستدعت قدامىٰ إطارات المنظمة الخاصة للبحث عن وسائل العمل وطبيعته.

وجاء اجتماع "**الاثنين والعشرين التاريخي**" في المدنية بالجزائر العاصمة في 25 جوان 1954م برئاسة مصطفى بن بولعيد، بعد فشل عناصر المنظمة الخاصة من تجاوز الخلافات السياسية داخل حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية، جاء على إثره إعلان الثورة التحريرية وتم تعيين ستة قواد

للولايات التي تشكل التراب الوطني، كما تم تعيين وفد خارجي مكون من أحمد بن بلة وحسين آيت أحمد ومحمد خيضر لتمثيل جبهة التحرير الوطني، والدعوة للثورة التحريرية باسمها في الخارج. وقد اجتمع القادة التسعة في 23 ثم 24 أكتوبر 1954 في منزل الإسكافي مراد بوكشورة بحي بالرايس حميدو (بوانت بيسكاد سابقاً)، قبل تفجير الثورة التحريرية بأسبوع واحد، وذلك لإعطاء اسم للحركة الجديدة، وتحديد يوم الانطلاقة، وفي اليوم التالي صيغ بيان إعلان الثورة التحريرية الذي حدّد البرنامج العملي الثوري لهذه الحركة الجديدة من أجل الاستقلال، وقسموا التراب الوطني إلى عدة مناطق مع تعيين مسؤول لكل منطقة [62]، ثم افترقوا على أمل اللقاء بعد ثلاثة أشهر لدراسة نتائج أعمالهم، والتحق الجميع بمناطقهم التي كانت على الشكل التالي:

1. المنطقة الأولى: (أوراس النمامشة) قائدها مصطفى بن بولعيد بمساعدة شيهاني بشير وعباس لغرور وعاجل عجول، بالإضافة إلى مسعود بن عقون .

2. المنطقة الثانية: (الشمال القسنطيني) قائدها مراد ديدوش بمساعدة يوسف زيغود وباجي مختار ولخضر بن طوبال وعمّار بن عودة، بالإضافة إلى زيغود يوسف .

3. المنطقة الثالثة: (القبائل) قائدها كريم بلقاسم بمساعدة اعمر أوعمران وسعيد محمدي، بالإضافة إلى عميروش آيت حمودة وصادق دهليس وعلي ملاح .

4. المنطقة الرابعة: (الجزائر وضواحيها) قائدها رابح بيطاط بمساعدة سويداني بوجمعة، أحمد بوشعيب الزبير بوعجاج، بالإضافة إلى عثمان بلوزداد ومحمد مرزوقي .

5. المنطقة الخامسة: (وهران ضواحيها) قائدها العربي بن مهيدي بمساعدة رمضان بن عبد المالك وعبد الحفيظ بوصوف والحاج بن علاّ، بالإضافة إلى أحمد زهانة.

أما منطقة السادسة الصحراء فتركت فيما بعد. في الوقت نفسه غادر محمد بوضياف الجزائر إلى جينيف يوم 25 أكتوبر في طريقه إلى القاهرة[63].

وهكذا قررت الطليعة الثورية اتخاذ القرار الحاسم بتمردها على الشرعية السياسية في ظل الاستعمار والانتقال إلى الكفاح المسلح، ورغم إخفاقها في إقناع عدد من الوجوه البارزة في التيار الاستقلالي بتولي قيادة الواجهة السياسية للثورة، وفي منع حدوث الانشقاق داخل حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية، كما فشلت في الحصول على تأييد المركزيين للمشروع الثوري، إلا أنها استطاعت تحقيق خلال أشهر قليلة قبل انطلاق الثورة التحريرية جملة من المكاسب لصالح المشروع الثوري؛ فقد نجحت في جمع الشتات ولمّ شمل المنظمة الخاصة من جديد بعد حلها، ثم حشد الرجال وتدريبهم وجمع العدة من ذخيرة وأسلحة[65]، وكان أكبر نجاح حققه الاتجاه الثوري يوم الفاتح من نوفمبر 1954م، الذي اعتبر انطلاقا من اندلاع أول رصاصة بداية لعهد جديد مع الاستعمار الفرنسي، وقد أتمت قوافل الشهداء والمجاهدين صنع الحدث وسقت دماءهم أرضاً عانت ويلات الاستعمار قرابة القرن والربع من الزمن.

الهوامش:

(1)- محمد العربي الزبيري، **تاريخ الجزائر المعاصر**، ج1، منشورات الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص ص33- 35.

(2)- رضوان عيناد تابت، **08 أيار/ماي 45** والإبادة الجماعية في الجزائر، منشورات آنيب (ANEP)، الجزائر، 2005، ص27.

(3)- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص37.

(4)- نفسه، ص ص39-44.

(5)- أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، ج3، ط4، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1992، ص222.

(6)- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص ص45- 47.

(7)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص230.

(8)- رضوان عيناد تابت، المرجع السابق، ص ص39-44.

(9)- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص ص20- 25.

(10)- محافظة علي، **النشأة التاريخية للجامعة العربية**، جامعة الدول العربية الموقع والطموح، دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992، ص ص31- 40.

(11)- رضوان عيناد تابت، المرجع السابق، ص148، 149.

(12)- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص48.

(13)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص230- 232.

(14)- نفسه، ص232.

(15)- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص27.

(16)- نفسه، ص64.

(17)-سعيد عبادو، كتاب الشهيد، الثورة التحريرية الكبرى 1945- 1962م، مجلة الرؤيا، عنابة، العدد الأول، ص56.

(18)- اسماعيل سامعي، **قالمة عبر التاريخ وانتفاضة 08 ماي 1945**، دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر، 1983، ص77.

(19)-محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص69.

(20)- محمد العربي الزبيري، **الثورة في عامها الأول**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت)، ص77.

(21)- محمد بلعباس، **الوجيز في تاريخ الجزائر**، دار المعاصر للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص63.

(22)-أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص234.

(23)- محمد العربي الزبيري، (تاريخ الجزائر...)، المرجع السابق، ص70، 71.

(24)- محمد الميلي، **مواقف جزائرية**، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص177.

(25)- مصطفى طلاس، **الثورة الجزائرية**، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010، ص74.

(26)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص236، 237

(27)- محمد العربي الزبيري، (تاريخ الجزائر...)، المرجع السابق، ص77.

(28)-أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص236، 237.

(29)- نفسه، ص238.

(30)- محمد العربي الزبيري، (تاريخ الجزائر...)، المرجع السابق، ص 79،80.

(31)- نفسه، ص81.

(32)- مصطفى هشماوي، **جذور نوفمبر 1954 في الجزائر**، دار هومة، الجزائر، 2010، ص52.

(33)-أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص239، 240.

(34)- إحسان الطاهر علية، **الثورة الجزائرية أبعاد وبطولات**، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، وحدة الطباعة بالرويبة، الجزائر، 1996، ص11.

(35)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص239.

(36)-محمد العربي الزبيري، (تاريخ الجزائر...)، المرجع السابق، ص83.

(37)- نفسه، ص82.

(38)-أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص241، 242.

(39)- نفسه، ص ص241- 247.

(40)- رضوان عيناد تابت، المرجع السابق، ص117.

(41)- نفسه، ص183.

(42)- محمد العربي الزبيري، (تاريخ الجزائر...)، المرجع السابق، ص83.

(43)- رضوان عيناد تابت، المرجع السابق، ص181.

(44)- نفسه، ص182.

(45)- مومن العمري، **الحركة الثورية في الجزائر**، ط1، دار الطليعة للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2003، ص70.

(46)- عبد الرحمن رزاقي، "الحركة الوطنية وفكرة العمل المسلح"، **مجلة الباحث**، العدد 2، نوفمبر 1984 ، المطبعة المركزية الجيش، ص 26،27.

(47)- يحي بوعزيز، **الاتهامات المتبادلة بين مصالي الحاج واللجنة المركزية وجبهة التحرير الوطني**، 1946-1962، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 30،31 .

(48)- عمّار هلال، "الحركة الوطنية بين العمل السياسي والعمل الثوري 1947 – 1954، ظروف ميلاد المنظمة الخاصة السرية "، **مجلة أول نوفمبر**، العددان1997،153.154، ص41.

(49)- يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 30.

(50)- مصطفى هشماوي، "جذور نوفمبر 54"، المقاومة السياسية، **مجلة أول نوفمبر**، العدد 148، 1996، ص6.

(51)- يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص12.

(52)- وجدت المنظمة صعوبة في التغلب على التسلح والجانب المالي ، فالمالية التي كانت متوفرة عليها لا تزيد عن 400 فرنك بالإضافة إلى تبرعات المناضلين، إلا أنها تحصلت على 300 قطعة سلاح، أنظر: مصطفى هشماوي ، (مجلة أول نوفمبر)، المرجع السابق، ص8.

(53)- أسندت منطقة الجزائر ومتيحة لبلحاج الجيلالي، ومنطقة القبائل أوكلت لعمار ولد حمودة، وهران لأحمد بن بلة، وقسنطينة لمحمد بوضياف أما الصحراء فعين على رأسها أحمد محساس وعين آيت احمد خلفا لمحمد بلوزداد لأسباب صحية.

(54)- من بين الذين نجوا من السلطات الفرنسية و اتجهوا نحو الأوراس زيغود يوسف وعمار بن عودة في أفريل 1951 ، أما بن بلة و محساس ففرا في مارس 1952من سجن البليدة باتجاه القاهرة .

(55)- محمد العربي الزبيري، (تاريخ الجزائر....)، المرجع السابق، ص186.

(56)- أحمد توفيق المدني، **هذه هي الجزائر**، مكتبة النهضة المصرية، مصر، (د.ت)، ص190، 191.

(57)- يحي بوعزيز ، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ج2، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، (د.ت)، ص 113،114.

(58)- العضو الوحيد الذي أمكنه الحضور في هذا المؤتمر هو رمضان بن عبد المالك الذي طرح مشاكل الحزب وضرورة التغيير ومشكل حل المنظمة الخاصة، لكن دون جدوى، فلم يستطيع زعزعة لا اللجنة المركزية ولا المؤتمرين الذين كانوا عاجزين عن إدراك المشاكل التي يجهلون وجودها.

(59)- محمد العربي الزبيري، **(الثورة الجزائرية...)**، المرجع السابق، ص 81.

(60)- صدر عن هذه الجريدة ستة أعداد كان آخرها في 5 جويلية 1954، وشارك في تحريرها العربي بن مهيدي، سيد علي عبد الحميد.

(61)- عبد النور خيثر، **تطور الهيئات القيادية في الثورة التحريرية** 1954-1962، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، إشراف الدكتور شاوش حباسي، جامعة الجزائر، 2006، ص88.

(62)- يحي بوعزيز، (ثورات الجزائر...)، المرجع السابق، ص 123.

(63)- نفسه، ص ص120-123.

(64)- عبد النور خيثر، المرجع السابق، ص 119.

المطالب الإقليمية المغربية
وتداعياتها على الثورة الجزائرية 1954-1962

د/ عسال نور الدين، جامعة بلعباس

الملخص:

بعد اندلاع الثورة الجزائرية في 1954 قررت الدول المغاربية تقديم الدعم الكامل للشعب الجزائري في مقاومته للاستعمار، وتعددت جهودهم من اجل دفع الموقف الفرنسي نحو قبول مناقشة القضية الجزائرية ، هذا الدعم لم يكن محدودا ، بل كان شاملا مما يعني مشاركة كل من تونس والمغرب في هذا الصراع، الأمر الذي نتج عنه تدهور علاقاتهما مع فرنسا، لكن بعد حصول المغرب على استقلاله سنة 1956 بدا في المطالبة بسيادته على أراضيه المزعومة إضافة إلى مناطق أخرى التي كانت جزءا من المغرب التاريخي .وفي نفس الوقت هملت فرنسا غلى وضع حد لهذا الدعم ، اقترحت ديغول عل المغرب بإعادة بعض الأقاليم مقابل منع المجاهدين الجزائريين من التواجد على أراضيه .قوبل الاقتراح الفرنسي بالرفض من قبل الملك محمد الخامس ، واعتبرها طعنة خنجر في ظهر الإخوة الجزائريين، وتوصل إلى اتفاق مع فرحات عباس غي 7جويلية 1961 التي نصت على إعادة النظر في القانون الخاص بمنطقتي تندوف وكولوب بشار وذلك يعد حصول الجزائر على استقلالها.

Abstract:

After the algérien révolution began in 1954 ,the Maghreb countries decided to give their unconditional support to the algérien people in their struggle against french colonialism and multplying their efforts to change the french position .and was large and diversified This active aid desulted from the involvement of the two countries in the algérien conflict and a marked degradation of relations with France ,but from its Independence in 1956morocco claims sovereignty over its territories ,others have been part of historic morocco ,in order to put an end to the support of morocco to the algerian revolution .france proposes the principle of the restitution of these territories ,and prohibit to shelter the algerian moudjahidines ,but the king mohamed 5 see this proposal like a dagger stab in the back of the brother and reaches separately to an agreement on july 7 1961with farhat abbas ,salt one agrees once the algerian indépendance acquired the statue of tindiuf and dove bachar renégocie.

تمهيد: كان لغياب مفهوم الحدود الثابتة في منطقة المغرب العربي أثناء الفترة الاستعمارية الأثر القوي على مستقبل العلاقات المغاربية، فقد تراوحت بين الاتفاق والتضامن من جهة، والتأزم والخلاف من جهة أخرى، مما أدى إلى خلق بؤر توتر، استمرت لما بعد استقلال دول المغرب العربي، على الرغم من توفر عوامل التلاقي والاتحاد، فالمطالب الإقليمية المغربية تعود إلى فترة بعيدة، غير أن الظروف أعاقتها،

ومع اندلاع الثورة الجزائرية حاول المغرب استغلال الظروف المحلية والدولية لصالحة وبالتالي طرح القضية من جديد باسم الحق التاريخي .

لذا يمكن أن نطرح التساؤل التالي:لماذا أعاد المغرب طرح هذه المسألة أثناء الثورة الجزائرية؟وما هي خلفياته؟وكيف أثرت هذه المشكلة عل العلاقات الجزائرية المغربية؟

أ-الطموحات الإقليمية المغربية أثناء الثورة الجزائرية:

أثارت مسألة الصحراء الجزائرية الكثير من المشاكل، فلم تكن المشكلة مع فرنسا فقط والطامعة للاستحواذ عليها من خلال سياسة فصل الصحراء عن الجزء الشمالي، وإنما أيضا مع المغرب الذي كان له أطماع إقليمية، من خلال المطالبة بحقه الجغرافي والتاريخي المزعوم في الصحراء، .هذا التأسيس للتصور المغربي المرتبط بالحقوق التاريخية والمدعم بقاعدة الانتماء الديني هو الذي شكل أساس احتجاجه في النزاع الحدودي، ويمثل المرجعية الأساسية في المطالب الإقليمية[1]، بحيث أن موضوع الصحراء أو قضية الحدود في جزئها الشمالي كانت واضحة المعالم قبل مجيء الفرنسيين بوقت طويل، فمنذ العهد العثماني كان وادي ملوية هو الفاصل الطبيعي من جهة الغرب بين الجزائر والمغرب، وعبره كانت القبائل البدوية تنتقل في رحلاتها الموسمية بالنظر إلى وشائج القرابة التي كانت تربطها، وإلى امتداداتها التاريخية[2].

تظهر الصحراء على أنها محيط واسع، تمتد من ليبيا، الجزائر تونس، المغرب إفريقيا الغربية الإسبانية، موريتانيا ودول إفريقيا السوداء، وتتسع إلى السنغال والسودان من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، وكل هذه الدول أو ما يسمى بالحزام الصحراوي ترتبط بمصالح[3]، وهناك ثلاث أسئلة طرحت فيما يخص قضية الحدود:

- الحدود التي أدت إلى فصل الصحراء عن الدول التي تحيط بها؟
- ما هي المطالب الإقليمية للدول المجاورة فيما يخص الصحراء؟
- كيف تم إدارة الصحراء من قبل السلطات الفرنسية في بداية القرن العشرين؟

لم تكن حدود الصحراء مع بداية القرن العشرين واضحة المعالم، ولم تكن الأقاليم الإسبانية وتونس وليبيا، والسودان والنيجر ومالي، موريتانيا مشاكل مع الصحراء الفرنسية، وبعد مجيء الفرنسيين طرحت قضية الحدود بفضل المقاومة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ففي 18 مارس 1845 عقدت فرنسا مع المغرب معاهدة "لالا مغنية"[4] التي أرست حدود واضحة وفق القانون الدولي بين ثنية الساسي إلى غاية فقيق، وهذه الاتفاقية حددت بداية من القبائل الموالية لفرنسا[5].

بدأت السيطرة الفرنسية على المنطقة الممتدة من فقيق إلى حمادة صغير مبكرا، مما سمح بالتوقيع على معاهدة باريس مع المغرب في 20 جويلية 1901 التي وضعت خطا ما بعد خط المرور المعروف بـ"تدوي مينبا"و"أولاد جنين"، وهذه القبائل عليها أن تختار بين فرنسا والمغرب، وبفعل الثورات المتتالية كثورة المقراني في 1871 التي ساندها أولاد سيدي الشيخ الشراقة والغرابة طيلة السبعينات من القرن

التاسع عشر بقيادة سي قدور بن حمزة وشيخ الشراقة سليمان بن قدور الذي ثار في أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر على رأس أولاد سيد الشيخ الغرابة، وقد تسببت هذه الثورات في متاعب للفرنسيين سواء في الصحراء الصغرى من"ثنية ساسي"إلى فقيق، أو الكبرى في أعماق الجنوب وعندما فشل الفرنسيون في إقناع البلاط الملكي بترحيلهم جميعا إلى مناطق على الأطلسي وتجدد نشاط الشيخ بوعمامة مع مطلع القرن العشرين، كان لابد من مراجعة معاهدة 1845 وتعزيز بروتكول1901 باتفاقيات 1902 التي كانت عبارة عن نظام جمركي لمراقبة الحدود من شمالها إلى جنوبها[6].

وبعد بسط الحماية الفرنسية على المغرب في 30 مارس 1912 تم تحديد خط"فارني Varnier"(اسم المحافظ السامي لوجدة)إلى غاية غرب"حمادة غير"واعترف الظهير البربري في 8 أوت 1912 بهذا الخط على أنه خط الجمارك، وكانت فرنسا قد وقعت في السابق مع المغرب على اتفاقية في 4 مارس 1910 تحدد القصور لمنطقة كولومب بشار، ومنطقة "غير" اللتان توجدان ضمن الأقاليم الفرنسية، ثم قام ضباط فرنسيون بتحديد الحدود بين نقطة التقاء حدود المغرب الإسباني، وحمادة غير والمعروفة بخط"ترنكي TRINQUET"التي تضم تندوف في الأقاليم الجنوبية، لكن تأخر تطبيقها إلى غاية 16 مايو 1938 الأمر الذي جعلها هشة[7]، أما بالنسبة لحدود الصحراء مع المغرب الإسباني فهي كالآتي:

- ريو دوأغرو مع ميناء دوفيلا سينروس Cisnoros.
- منطقة الساقية الحمراء ورأس بوجاور Bojaour.
- منطقة رأس جوبي Juby في المغرب الجنوبي.

وهناك معاهدتان حددتا نطاق هذه الأقاليم مع الصحراء:الحدود بين موريتانيا و"ريوأورو"حددت بموجب معاهدة فرنسية إسبانية في 27 جوان 1900، وتبدأ من رأس بلان إلى حصن فرانكي، عبر أدرار، ومعاهدة جديد في 27 نوفمبر 1912 توضح على أن الصحراء الإسبانية محددة في الشمال بوادي درعة جنوب خط عرض 27°، وفي الشرق خط طول 11° [8]، وطبقا لهذه المعطيات طالب المغرب بجزء من الصحراء على أساس أنها جزء لا يتجزأ من المغرب التاريخي، حيث اعتبرت البيعة الحفيظية التي كتبها بفاس وطنيون مغاربة، ووضح صيغتها السيد "أحمد بن المواز" أحد رجال الفكر، ميثاقا قوميا وهي تشترط على الملك الجديد"مولاي عبد الحفيظ" أن يعمل جهده في استرجاع الجهات المقتطعة من الحدود المغربية، وأن يبادر بطرد الجنس المحتل من الأماكن التي احتلها[9]، وفي سنة 1947 قام علال الفاسي بنشر خريطة التي توضح بحق المغرب في الصحراء من شنقيط إلى غاية السنغال[10]، مؤكدا على أن حدود المغرب التاريخية تصل في أقصى الجنوب إلى حدود سان لويس في السنيغال، بما في ذلك تندوف، والقنادسة، وتوات، وبشار، وموريطانيا كلها، وكل الصحراء الإسبانية، والساقية الحمراء[11]

طرح بعض المتعصبين من حزب الاستقلال خاصة "علال الفاسي"في أواخر 1955 خرافة "المغرب الكبير" التي تعنى الحدود التاريخية والطبيعية للإمبراطورية الشريفية التي تمتد حتى السنغال والنيجر،

وتضم ليس فقط نواحي كولومب بشار، وتندوف، وموريتانيا، لكن مجموع الأملاك الإسبانية بالصحراء، وجزء من السودان الحالي وبالنسبة لزعيم حزب الاستقلال فإن المهمة الأساسية للمغرب بعد استقلاله هو توسعه في حدوده

وكان لهذه الحركة صدى كبير في الأوساط المغربية المثقفة، ويظهر ذلك من خلال إصدار سنة 1956 نشريه معنونة"صحراء المغرب"، وهي عبارة عن أسبوعية وطنية من أجل الدفاع عن الصحراء الطبيعية، نشرت العديد من المقالات موقعة من قبل صحراويين من عمالة الساورة والمستقرين بالمغرب، ومنهم "عبد الكريم محمد تواتي"أستاذ بجامعة القيروان، و"الهادي عبد القادر بن الطاهر القندوسي" أستاذ ثانوي بتازة، وفي 13 مارس 1956 استقبل السلطان المغربي قايد الرقيبة"سيدي علال لحبيب ولد بلال"بعدما غادر تندوف للجوء إلى غوليمين12 نوفمبر 1957 عين السلطان المغربي"عبد الكبير الفاسي"[12] مديرا لشؤون الصحراء والحدود كوزير للداخلية[13].

بعد استقلال المغرب سنة 1956 لم تجد أطروحة المغرب الكبير طريقها إلى أغلبية المغاربة، ولم تعر السلطات المغربية بالا لهذه القضية، وهذا ما أكده "علال الفاسي" في خطابه في 16 أكتوبر 1957 في قبائل"بني مستارة"حيث قال:"كنت الأول الذي فكر بضرورة تحرير الصحراء واستقبل هذا الإعلان بالضحك"[14]، وفي خطاب أخر ألقاه في 29 مارس 1956 أمام حركة الشباب الاستقلالية لفاس صرح قائلا:"ما دامت طنجة لم تتخلص من القانون الدولي، وما دامت الصحراء الإسبانية بالجنوب، وما دامت صحراء تندوف إلى عطار وما دامت الحدود الجزائرية المغربية لم تتخلص من الوصاية القائمة فإن الوحدة الترابية للمغرب لن تتحقق"[15]، وبعد مدة من هذا التصريح أكد لجريدة"لوموند"بمدريد :" يبين تاريخ القرن العشرين كيف استطاعت فرنسا استيلاء فرنسا على مختلف الأجزاء من أقصى جنوب المغرب...اندهاش البعض لا يغير الحقيقة الوطنية التاريخية والجغرافية والعرقية، موريتانيا كانت دائما جزء من المغرب الذي أعطاها هذا الاسم"[16].

لكن وبفعل جهود زعيم حزب الاستقلال، ولاحت بالأفق تباشير انتصار الثورة الجزائرية بدأت هذه الأفكار تنتشر تدريجيا بداية من سنة 1957، ووجدت لها صدى عميق في الأوساط الفرنسية بالجزائر والميتروبول وكانت بمثابة ناقوس خطر بالنسبة لسكان الصحراء.هذه الجرأة لزعيم حزب الاستقلال دفعت بالعديد من الشخصيات المرموقة إلى انتهاج نفس الطريق، ولعل من أبرزها السلطان محمد الخامس، والأمير مولاي حسن وأعضاء جيش التحرير المغربي، والحزب الشيوعي المغربي، وبعض الشخصيات الموريتانية وأبناء "ماء العينين"[17]، نتج عن ذلك تصادم عسكري بين الجيش المغربي والجيش الفرنسي، فقد تعرض موقع "أم الشار" الواقع على بعد 145 كلم شمال تندوف سنة 1955 إلى هجوم مغربي، كما تعرض موكب للتموين إلى هجوم آخر بين بشار وتندوف وتواصلت المضايقات المغربية ضد القوات الفرنسية طيلة سنة 1957، علما أن عدد أفراد جيش التحرير المغربي بلغ 1200جندي في نواحي"فقيق"و2000 جندي في الجنوب، غير أن الحكومة المغربية قررت الدخول في مفاوضات مع فرنسا

قادها "أحمد بلفريج" وحاول المغرب استغلال هذا الظرف لضم قبائل الحدود "أولاد جرير عمران"وفي 30 جويلية من سنة 1958 تتعرض وحدة من جيش التحرير الوطني إلى الخطف من قبل قوات مغربية قرب "ديفليا"[18].

خلال زيارة"محمد الخامس"لمنطقة "زاغورة" التقى بالقبائل الصحراوية الآتية من"محاميد الغزلان"الواقعة في أقصى جنوب المغرب في 25 فيفري 1958 طرح الملك رسميا ولأول مرة مسألة المطالب الإقليمية المغربية مؤكدا إرادته لمواصلة عمله من أجل عودة الصحراء للجنوب في إطار احترام حقوق المغرب التاريخية، ووفق رغبة سكانها[19]، وفي 6 مارس من نفس السنة أعلنت الحكومة المغربية بعدم شرعية استغلال شركة مناجم المنغنيز لمنجم"غتارة"، ثم أنشأت في 25 منه المجلس الوطني الاستشاري المغربي للجنة المصغرة للحدود، واللجنة المختلطة للحدود لدى وزير الشؤون الخارجية المكلفة بدراسة الأطروحات الفرنسية المغربية، ليعين بعدها السلطان المغربي "لغداف" ابنماء العينين و"علي بوعبيدة"كأعضاء في المجلس وممثل الصحراء.

استغل المغرب ظروف الثورة الجزائرية الصعبة نتيجة للعمليات العسكرية الفرنسية ليطالب بمفاوضات مع الحكومة الاستعمارية بغية تعديل حدوده الشرقية، بيد أن جبهة التحرير الوطني نبهت أنه لا وصاية على الأراضي الجزائرية، وأنها هي الوحيدة المخولة للنظر في هذه المسائل[20]، غير أن جيش التحرير المغربي حاول التوغل في المناطق الصحراوية غرض نشر ادعاءات مفادها أن سكان هذه المناطق مغاربة، مما دفع جبهة التحرير الوطني إلى طلب من المغرب بوضع حد لهذه الأعمال المعادية للثورة الجزائرية، وتهديد الوحدة الترابية للجزائر[21].

لم يبال المغرب بالاحتجاج الجزائري فقد قام بتدعيم مراكزه العسكرية بفرق من الجيش المغربي على طول الحدود الجزائرية المغربية، الأمر الذي أدى إلى صدامات مع المجاهدين واللاجئين، وأقام الحواجز للحد من مرور الأسلحة[22]، كما قام بأعمال عسكرية في المنطقة الثامنة من الولاية الخامسة ما بين منطقة "فقيق"و"بشار"وبين "بوذنيب"و"فقيق"وبين"بشار"و"تندوف"، وكان الهدف منها السيطرة على بعض المناطق في الجزائر[23].

تعتبر منطقتي "فقيق بشار"من المناطق الحيوية بالنسبة للثورة الجزائرية، فقد كانت معبرا للأسلحة الآتية من الغرب عبر "جبل عنتر"بالأطلس الصحراوي، وقاعدة خلفية لجيش التحرير الوطني الجزائري، وبالتالي فإن أي عرقلة لنشاطها سيكون له الأثر السلبي على الثورة، وعلى الرغم من علاقات التعاون بين الطرفين، إلا أن حزب الاستقلال المغربي شجع الكثير من القيادات العسكرية على فرض السيطرة على المنطقتين، وأمام عدم اعتراف جبهة التحرير الوطني بذلك، شرعت السلطات المغربية في تنفيذ مخططا في أوساط قبائل "ذوي منيع"و"بني جرير"و"أولاد سيد الشيخ"لإرغامهم على الولاء للسلطان، وإجبار الشباب على التجنيد في أوساط الجيش المغربي[24].

نتيجة لهذه التجاوزات الخطيرة رفعت جبهة التحرير الوطني شكوى للملك المغربي "محمد الخامس"عبرت من خلالها عن رفضها القاطع لهذه الأعمال[25]، ومحاولة منه قرر الملك المغربي قي 08أفريل1958 إنشاء لجنة مختلطة جزائرية مغربية تحت رئاسة "مسعود شيقر"مدير ديوان الملك وعدد من الأعضاء، عقدت اجتماعا في 06مايو 1958وخرجت بالقرارات التالية[26]:

-توقيف جميع التجاوزات مهما كان نوعها ضد اللاجئين الجزائريين.

-رفع جميع الحواجز لتمكين جيش التحرير الوطني من أداء مهامه.

-التزام وزير الداخلية ووزير الدفاع المغربي بالقيام بجولات استطلاعية في كل المناطق الحدودية الجنوبية للاطلاع على كل الصعوبات التي تعيق تنفيذ الاتفاق.

رغم هذا الاتفاق إل أن التجاوزات لم تتوقف الأمر الذي استدعى تدخل الملك الذي علم أن قرارات اللجنة الوطنية واللجان الفرعية لم تجد طريقا للتجسيد، فقام بتعيين محمد العربي الفحصي عاملا جديدا على عمالة تافيلات سنة 1959 لإيجاد الحلول الناجعة لمشاكل الإقليم، وقد ذكر هذا الأخير على أن محمد الخامس قدم توصيات بضرورة إعانة الثورة الجزائرية، ووضع حد لانتهاك الجزائريين للسيادة المغربية[27]، لكن في نفس الوقت لا يمكن أن نجحد الدور الذي لعبه في تدعيم الثورة الجزائرية ماديا ومعنويا وديبلوماسيا، ودعوته لفرنسا بفتح باب المفاوضات مع الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري.

بعدما أظهرت الحكومة الفرنسية رغبتها إجراء تجارب نووية بالصحراء في 4 جويلية 1958 أبدت الحكومة المغربية موقفا رافضا لها، وفي14أوت عبرت عن رفضها منح تراخيص البحث والتنقيب عن البترول في حوض تندوف، وسلمت في 26 فيفري 1959 لسفير فرنسا بالرباط مذكرة احتجاج شديدة اللهجة ضد التجارب الصاروخية"فرونيك""زهرة الحواش"بكولومب بشار، ثم قام المغرب في 3 أكتوبر 1960 بإنشاء قوة صحراوية بقيادة "بن حمو"من المخزن وعضو سابق في جيش التحرير المغربي، والذي وضع تحت تصرفه مبالغ مالية هامة لتجنيد ثلاثة ألاف شخص، وشراء ستة آلاف دبابة، وفي 28 أكتوبر1960وجه مجلس الوزراء برئاسة"محمد الخامس"تعليمات لوزير الخارجية بالنيابة"ادريس محمد"للبدء الفوري في مفاوضات مع فرنسا حول شكل الحدود، وفي الشهر الموالي أي في 3 نوفمبر أصدرت الحكومة المغربية كتابا أبيضا باللغة العربية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية حول موريتانيا، والذي نشر في نيويورك، وفي مختلف الدول الإفريقية، واحتوى هذا الكتاب الذي سلم للوفد الموريتاني في الجمعية العامة للأمم المتحدة على خارطة المغرب الكبير الذي يمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر السنغال، ويتضمن ليس فقط كولومب بشار، توات، رقان، بل كذلك منطقة"تيدكانت، عين صالح والقليعة"[28].

واصل علال الفاسي الترويج لفكرته عندما قام في 3 نوفمبر 1960 وخلال تجمع لحزب الاستقلال بتوجيه تهديدات إلى كل من فرنسا وإسبانيا ورد فيها :"إني أتوجه إلى ديغول وفرانكو للاعتراف باستقلالنا وعليهم أن يعرفوا أن إقليمنا والجزائر لم يتحرروا، سنقطع كل علاقاتنا مع بلدانهما، فديغول وفرانكو يعرفنا جيدا أني لا أتلاعب بالكلمات، وإذا لم تعد إلينا حدودنا الطبيعية، فإننا سنعلن ضد إسبانيا

وفرنسا حربا ضروسا، سنطرد من بلادنا كل الفرنسيين والإسبانيين مدنيين أو عسكريين، ونغلق كل المدارس الفرنسية ونقطع كل العلاقات الثقافية مع فرنسا، ونتعرف في رؤوس الأموال الفرنسية وستكون معركتنا شبيهة بمعركة السويس"[29]، وخلال مؤتمر الرؤساء الأفارقة بالدار البيضاء المنعقد بين يومي 4-7يناير 1961 ألقى محمد الخامس كلمة افتتاحية أشار فيها إلى تفجيرات رقان التي هي جزء من أرضنا، مما دفع بوفد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى التعبير عن رفضه لهذا الطرح، مؤكدة أن رقان ليست إقليما مغربيا[30]، وبعد خطف إحدى عشرة مستكشفا وجه المستكشفون لساقية الحمراء إعلانا عبارة عن تحذير لوزير الإعلام "مولاي أحمد علوي" يدحض الأطروحة المغربية حول استقلال الصحراء جاء فيه:"يجب أن تتخذ عملية استغلال ثروات الصحراء شكلا مشتركا متعدد الجنسيات (الكومنولث الاقتصادي) أي بصيغة رأسمالية مثل ما هو موجود في الشرق الأوسط"[31].

لكن بالنسبة "لأحمد العلوي" يجب أولا حل المشكلة الإقليمية، أي حسب الأطروحة المغربية الدولة الشرعية التي لها الحقوق الكاملة، التي ستحول الصحراء ميدانا للتعاون المثمر بين فرنسا والدول التي تريد الشراكة معها من جهة، والدول المجاورة للصحراء من جهة أخرى، ويذكر أن إنشاء شركات مختلطة بواسطة اتفاقيات بين الدول المهتمة، ومع مساهمة الشركات الخاصة التي تريد الاستثمار في هذا الجزء من إفريقيا، فإن فرنسا في حاجة لمصادر الطاقة التي تحتويها الصحراء، بينما الشعوب الإفريقية من جهتها تريد الرفع من مستواها المعيشي، وبفضل هذا التعاون فإن المصالح الفرنسية والشعوب المجاورة للصحراء ليست متناقضة[32].

ب-من التضامن إلى التصادم:

بعد وفاة الملك محمد الخامس في 26 فبراير1961 خلفه ابنه الحسن على العرش في 03مارس1961 الذي أعلن عن استمرار التضامن المغربي مع الجزائر، ودعا إلى استئناف المفاوضات لاستقلالها، وكان يأمل في كسب اعتراف الجزائريين بالحدود الشرعية للمملكة مع حرصه على تقرير المصير الذي يقوده إلى الاستقلال التام، والسيادة الجزائرية على كامل ترابه ، غير أن المغرب لم يكن ليعترف صراحة بذلك، فقد أكد حينما قامت فرنسا الاستعمارية بتفجيرات رقان الذي اعتبرتها منطقة مغربية

طرح الطرف الجزائري الفرنسي خلال المفاوضات مسالة الصحراء بحدة ، فالمشروع الفرنسي كان هدفه تقسيم الجزائر إلى منطقة شمالية ومنطقة جنوبية، وكان على الحكومة المؤقتة التصدي لهذه المناورات من خلال إرسال مذكرة خاصة بالصحراء وكسب تأييد دول الجوار، غير أن علال الفاسي رد بشكل غامض، فقد قال أن هناك صحراء مغربية و جزائرية وليبية، ناكرا وجود صحراء تونسية، وردا على هذه الإدعاءات قامت جريدة المجاهد في 15 أفريل 1961 بنشر في الصفحة الأولى خريطة الجزائر التي تحتوي على حدود المغرب وتونس، وبالنسبة للقسم المغربي للصحراء الجزائرية ليس هناك إلا مدينتان كولومب بشار، ورقان اللتان يطالب بهما المغرب، ومفتاح الخريطة تحت عنوان "وحدة الشعوب، سلامة

الأراضي"[33]، إلى جانب ذلك تدخل الخطيب عندما انتقد السياسة الفرنسية الساعية إلى إثارة الشقاق بين المغرب والجزائر حيث قال:"إن الصحراء لن تكون مصدر شقاق بين الشعبين المغربي و الجزائري"[34].

ومحاولة منها لطمأنة الطرف الجزائري، أصدرت الحكومة المغربية بلاغا يوم 18 مايو 1961 أكدت فيه وجوب شمول السيادة الجزائرية للصحراء جاء فيه:"إن حكومة جلالة الملك تؤيد تأييدا كاملا وبجميع الوسائل استمرار الكفاح الرسمي إلى أن تسترجع الجزائر العربية حريتها واستقلالها وسيادتها، ومن أجل هذا ستواصل الحكومة المغربية الإعانة المادية والسياسية والمعنوية للشعب الجزائري"[35]، وفي إطار هذا المسعى المغربي أدلى السيد "عبد الكريم الخطيب" وزير الدولة المكلف بالشؤون الإفريقية بتصريح ضبط فيه موقف المغرب من مشكلة الصحراء والمفاوضات الجزائرية فقد صرح قائلا:"إن استقلال الجزائر الذي يعد أمرا واقعا يخرج بعض الدول التي تريد بكل ثمن المحافظة على امتيازات، والتي لم تعد متماشية مع التضامن، ولذلك تحاول تلك الدول بث التفرقة والشقاق في صفوف الشعوب الإفريقية...أما بالنسبة للمغرب فلن تكون الصحراء عنصر تفرقة بين الشعب المغربي والشعب الجزائري الشقيق، بل أن الأمر يتمثل بالنسبة إلينا تحقيق وحدة إفريقية سيكون المغرب فيها عنصرا هاما"[36]، فماكان من الطرف الجزائري سوى حسم الموقف لصالحه من خلال الإعلان في يوم 05 جويلية 1961يوما وطنيا ضد التقسيم للمطالب من الشعوب والحكومات للدول الشقية والصديقة بإظهار في هذا اليوم الدعم الكامل للشعب الجزائري في كفاحه من أجل الاستقلال الوطني و الوحدة الترابية[37]، وقد عبرت الحكومة المؤقتة في بيان لها ورد فيه:"إن الحكومة المؤقتة تؤكد من جديد الحق المقدس الذي يملكه الشعب الجزائري في وحدة ترابه الوطني و تعلن أن يوم 05 جويلية 1961 هو يوم وطني ضد التقسيم ...و توجه نداء لشعوب وحكومات البلدان الشقيقة والصديقة لتعرب في ذلك اليوم بصورة ايجابية عن مساندتها للشعب الجزائري[38].

لكن الملاحظ في موقف المغرب من المسألة الصحراوية تميز بنوع من الازدواجية في الخطاب، فهناك الموقف الرسمي الذي يعبر عنه الملك وبعض الرسميين من جهة، والموقف الغير الرسمي الذي مثله علال الفاسي الذي قدم في 12 جويلية 1961 قائمة للأقاليم التي انتزعت من المغرب، فقد أكد على:"أن الحدود الجزائرية والمغرب تم رسمها وفق معايير إثنية وجغرافية، إن مطالبنا مؤسسة، إنها تتجه إلى إعادة المغرب إلى حقيقته التاريخية والجغرافية والسياسية"[39]، في نفس الوقت قام كل من فرحات عباس وعبد الجفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال ومحمد يزيد بزيارة للمغرب والتقوا بـ الحسن الثاني وعلال الفاسي وبلافريج، لتبدأ المحادثات مع"الحسن الثاني"التي تنتهي بقبول المغرب لموقف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وقد أعطى"فرحات عباس"موافقته المبدئية لبعض التعديلات، مؤكدا بشكل صريح أنه لن يستطيع التعهد بأي شيء قبل الاستقلال، وأصدر الطرفان بلاغا مشتركا في 7 جويلية 1961 أعلنا فيه عن التزامهما ببعض المواقف المبدئية خاصة فيما يتعلق بسلامة الأراضي الجزائرية غير أنه وفي 2 أكتوبر من نفس السنة تسمح الحكومة المغربية ولأول مرة ومنذ جانفي 1960 للحزب الشيوعي المغربي بتنظيم اجتماع عام أين صرح الأمين العام للحزب"علي ياتا"فيما يخص الصحراء قائلا:"يجب على الدولة أن

تعرف بطريقة واضحة وبدون لبس موقفها تجاه هذا المشكل، عليها أن تعلن بدون انتظار وبصفة رسمية بالسيادة المغربية على الصحراء"[40].

لقد تضمنت الاتفاقية على رغبة الحكومتين على إيجاد حلول توافقية ترضي الطرفين ، مع تأكيد الحكومة المغربية على دعم بكل الوسائل لكل المحاولات الرامية إلى تقسيم التراب الجزائري ، ومن جهتها تعترف الدولة الجزائرية المستقلة أن تخطيط الحدود المفروض تعسفا سيجد له حلا في المفاوضات بين الطرف الجزائري والمغربي ولهذا الغرض قررت الحكومتان إنشاء لجنة مختلطة لدراسة المشكل في إطار الوحدة المغربية[41]، كما أكد كل من فرحا عباس ة الحسن الثاني في بلاغ مشترك أن مشكل ضبط الحدود بين المغرب و الجزائر تهمهما وحدهما و لا يمكن تسويتها إلا بين الدولتين لوحدهما وخارج كل مطمح أو مدخل أجنبي[42]، وهكذا نجحت الحكومة المؤقتة في كسب الرهان، وتحقيق نجاح دبلوماسي في تحييد المغرب الذي حاول ديغول جره إلى حلبة صراع لن يخرج منها سالما، وخلق توتر بين الإخوة ليكون هو المستفيد الأول و الأخير، وقد أكد المفاوضون الجزائريون بأن موقف الحسن الثاني كان أكثر تفهما من موقف ابن بركة الذي لم يتجاوب مع الموقف الجزائري ، مما يؤكد أن هذا الأخير قد تأثر بإغراءات ديغول[43].

رغم اتفاق الطرفين بحل المشكل الحدودي بالطرق السلمية، إلا أن المغرب لم يتوان في كل فرصة سانحة بالعودة إلى نقطة الصفر من خلال المضايقات التي تعرض إليها الجزائريون الموجودون في المناطق الحدودية، فقد ورد في تقرير للحكومة المؤقتة أن المجاهدين و اللاجئين يتعرضون لمضايقات في إقليم تافيلالت الجنوبي ووصل الأمر إلى قتل جنديين، مما يؤكد على استمرار المغرب في سياسته الطامحة لتدعيم نفوذه في المناطق الحدودية، وإجبار سكانها على قبول الهوية المغربية[44].

مع بداية سنة 1962 التي قطعت فيها مفاوضات ايفيان مرحلتها الأخيرة شعر الحسن الثاني بأن التيار تسير عكس طموحاته الإقليمية، فسارع في 10يناير1962إلى الاتفاق مع ديغول على تعيين"محمد لغزاوي"ممثلا شخصيا له ووزير الداخلية"أحمد رضا أكديرة"(أفريل 1961-جوان1963) اللذين سافرا إلى فرنسا للاتصال بالزعماء المعتقلين لعله يجد لديهم تأييدا لرغباته، ثم تلته سفريتين أخريين في 10و24 فيفري[45]، وهذه الخطوة تؤكد أن الملك المغربي أراد تجاوز الحكومة المؤقتة التي وقفت حائلا أمامه في تجسيد حلمه المغرب الكبير، والتي عبرت مرارا وتكرارا أنها غير مؤهلة للنظر في المسألة الحدودية إلا بعد حصول الجزائر على استقلالها.

وبمناسبة زيارة الرئيس بن خده للمغرب ابتداء من 2 يناير 1962جرت محادثات مع الملك الحسن الثاني، تضمن جدول الأعمال مسألة الحدود والتعاون في الصحراء، وصدر إثرها بلاغ مشترك للحكومتين يؤكد العمل ببلاغ 7 جويلية 1961، وضرورة الإسراع في تشييد وحدة المغرب العربي بإنشاء لجنة جزائرية مغربية دائمة لتجسيد الفكرة [46]، وبالفعل أعلن إنشاء هذه اللجنة الوزارية المشكلة من أربعة مغاربة وثلاثة جزائريين، غير أنها ظلت حبرا على ورق، ودون أن يظهر لها أثر.

وفي هذه الأثناء اعتبرت يومية" العالم"وهي جريدة حزب الاستقلال أنه لا يمكن التخلي عن اتفاقية 7 جويلية 1961 فقد كتبت تقول:"إن مسألة الحدود بما فيها الحدود المغربية المرتبطة بالجزائر من قبل فرنسا، يجب أن تحل فقط ومباشرة بين الدولتين"[47]، كما كتبت وكالة الأنباء المغربية تعليقا ذكرت فيه بلائحة مؤتمر الدار البيضاء التي قرر فيها الطرفان بدل كل ما في وسعهما لتقرير ساعة تحرير الجزائر، والشروع في تشييد صرح المغرب العربي على قاعدة التشاور الاقتصادي والسياسي وخاصة عن طريق الاستثمار المشترك للثروات الاقتصادية[48]، لكن بعض المصادر أكدت على أن يوسف بن خده قد صرح باستحالة الالتزام بوعود فرحات عباس الذي وقع اتفاقية سرية مع الحسن الثاني المتعلقة بمنطقة تندوف وكولومب بشار، ومباشرة بعد نهاية الزيارة وخلال انعقاد مؤتمر بالمحمدية في 15 يناير 1962 أعلن حزب الاستقلال بضرورة القضاء على الاستعمار الفرنسي في الأقاليم التي تضم عين الصفراء، وكولومب بشار، وتوات، وعين صالح ورقان، وتنزروفت، وتابلبلا وتندوف[49].

بعد التوقيع على معاهدة ايفيان في 18مارس1962 قرر الطرف الجزائري والفرنسي أجراء استفتاء حول استقلال الجزائر خلال ثلاثة أشهر، الأمر الذي أثار حفيظة الملك الحسن الثاني الذي عمل أن لا يشمل الاستفتاء المناطق التي اعتبرها مغربية، فبعث بمراسلة إلى كلمن "عبد الرحمان فارس" ورئيس الحكومة المؤقتة "يوسف بن خده" يعبر فيها عن رفضه هذا الإجراء، لكن جاءه الرد بالرفض[50]، من خلال المشاركة الواسعة لسكان تندوف وبشار في الاستفتاء مؤكدين على انتمائهم للجزائر.

حاول المغرب اللعب على ورقة الزعماء الخمس الذين أطلق سراحهم مباشرة بعد وقف إطلاق النار، فاستقبلهم في قصره وسط احتفالات شعبية، غير انه بدا متخوفا من طبيعة الاستقلال الذي تحقق ، ومن التوجه الاشتراكي لجبهة التحرير الوطني، فما كان عليه سوى المناورة من اجل كسب هذا الطرف لصالحه، وفي هذه الأثناء نشب صراع بين الحكومة المؤقتة وجيش الحدود عرف بأزمة صيف 1962، وبما أن الحكومة المؤقتة وقفت بالمرصاد لمطالب المغرب، فقد ساند جماعة وجدة بقيادة أحمد بن بلة، وقد أرجع وزير الخارجية الجزائري سعد دحلب السر وراء هذا التقارب بعدم تجاوب الحكومة مع المطالب المغربية في موريتانيا وتندوف وبشار، فقد ذكر قائلا:"اعتقد أن الاهتمام الذي أبداه جلالة الملك إزاء هذا الأخير ذا علاقة مباشرة مع هذه المسائل"[51].

بعدما تأكد الحسن الثاني من فشل مساعيه في استمالة بن بلة لأطروحاته سعى لتنفيذ مخططاته لضم الأقاليم الصحراوية عن طريق القوة مستغلا حالة الجيش الجزائري الذي خرج من حرب طويلة أنهكت قواه أو عن طري المناورات من خلال تشجيع قبائل تندوف والساورة للمطالبة بالجنسية المغربية مستندا على فرضية أنها بايعت السلطان، وعشية إجراء الاستفتاء طالب الملك من خلال رسالة بعثها إلى عبد الرحمان فارس نقلها وزير العدل"محمد بوستة"في 19جوان 1962 بعدم شمولية الاستفتاء تندوف، غير أن الهيئة التنفيذية المؤقتة بأنها غير مخولة للنظر في هذه المسألة، أما الحكومة المؤقتة فقد أكدت على

أن الاستفتاء يشمل كل الجزائر بحدودها الجالية وأن مشكلة الحدود ستناقش مع الجزائر المستقلة[52]، وطلب عبد الرحمان فارس من الحسن الثاني بعدم إثارة المشاكل.

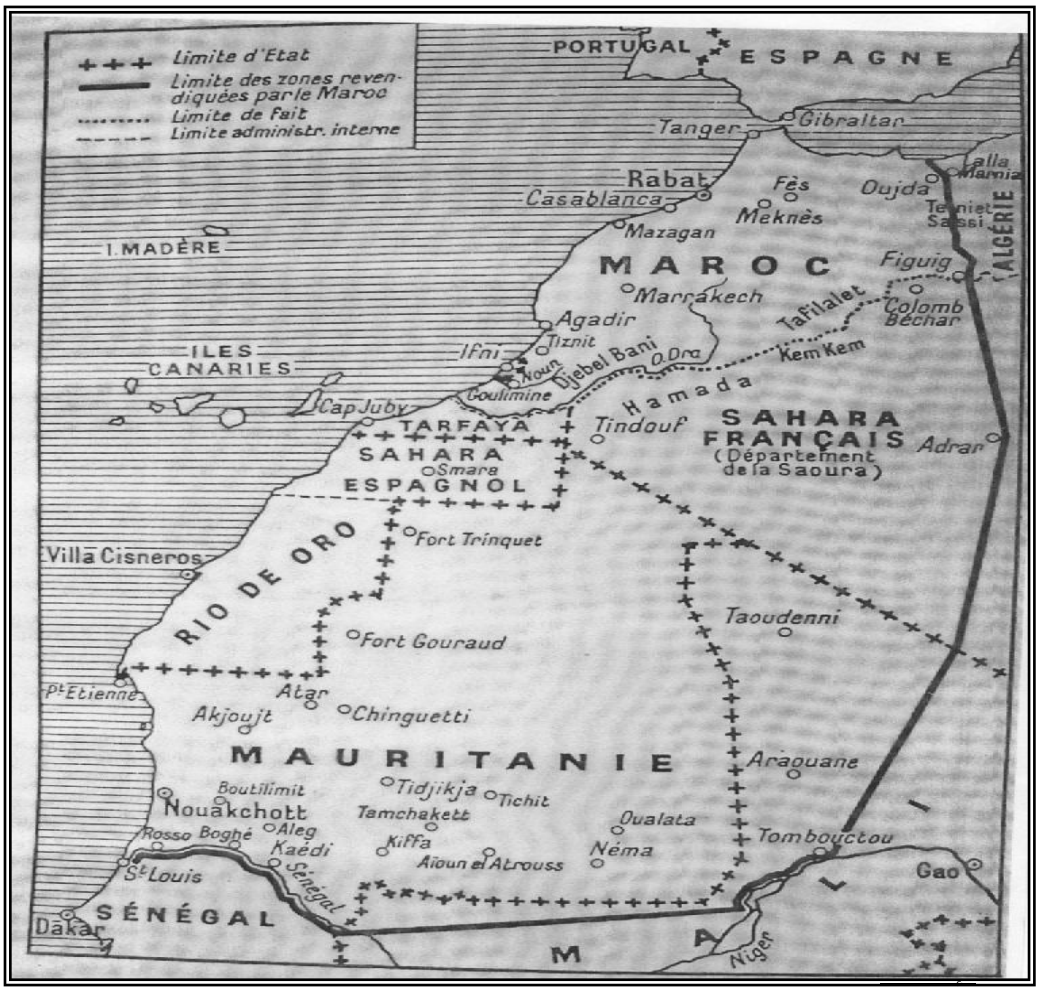
لقد استطاع المغرب إيجاد لنفسه قدم سبق في تندوف عن طريق تنظيم الحركة الذي دعا السكان على عدم المشاركة في الاستفتاء الأمر الذي أوشك أن يدخل المنطقة في حرب دموية، وقد ذكر "بلعيد عبد السلام"انه تم تعيين مناضلين وطنيين للإشراف على مدينتي تندوف وبشار، فعين"عبد المجيد أمزيان"واليا على بشار، وبلقاسم بعطوش"مساعدا له بتندوف[53]، وكانت مهمتهم إقناع السكان بأنهم جزائريون، لكن الأمور لم تكن بهذه السهولة، لان المغرب استطاع أن يغريهم بالمال، فقام بلعيد عبد السلام بحل" منظمة الحركة"المدعمة من حزب الاستقلال، ونصب حراس جزائريين لإجراء الاستفتاء في ظروف حسنة[54].

لكن المغرب لم يفقد الأمل بسبب تأخر وصول وحدات جيش التحرير الوطني ، نتج عن هذه الوضعية انقسام المدينة بين الخاضعين للمغرب والموالين للجزائر، مما كان ينذر بأزمة خطيرة قد تعصف بالعلاقات بين الشعبين إلى ما لا يحمد عقباه، وهذا ما وصفه لنا بلعيد عبد السلام حينما قال:"كيف يمكن لنا أن نخرج المغرب لو أنهم استقروا في تندوف؟هل نحاربهم؟إن ذلك سيكون فظيعا للغاية، كانوا سيكرسون الصبغة المغربية لهذا الجزء من ترابنا"[55].

والجدير بالملاحظة أن جهود الحكومة المغربية ركزت في بداية الأمر حول موريتانيا، بينما بقيت عمالة الساورة بعيدة عن هذه الحملة ولو ظاهريا، لأن المغرب لم يشأ تسليط الضوء على الاختلافات الجزائرية المغربية إضافة إلى أن أطروحة الوطنيين المغاربة فيما يخص ناحية كولومب بشار وتندوف اصطدمت بموقف صارم لجبهة التحرير الوطني الأمر الذي أدى إلى العديد من الصدامات العسكرية منذ 1958، ومنذ ذلك الحين سعت الحكومة المغربية إلى عدم طرح مشكلة الصحراء في علاقتها مع فرنسا، حتى لا تشوش على مطالب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وتأجيلها إلى وقت لاحق، غير أن المؤكد أن هناك اعتبارات أخرى غير هذه التي دفعت بالحزب إلى إصدار التصريحات الرسمية المطمئنة للطرف الجزائري فيما يخص الحدود، التي لم تكن في حقيقة الأمر سوى سياسة ذر الرماد في العيون، وأن المغرب كانت له راغبة جامحة في السيطرة على الأقاليم الصحراوية الجزائرية، لكنه خشي أن يدخل في مغامرة غير محمودة العواقب ضد فرنسا، وسيتأكد ذلك بعد استقلال الجزائر حينما قام المغرب بعمل عسكري سنة 1963 ضد الجزائر.

خاتمة: لقد سعت الثورة الجزائرية منذ بدايتها على تحقيق التضامن ألمغاربي وتنسيق الجهود ضد الاستعمار الواحد من أجل تحرير المغرب العربي، إلا أن الأطماع الذاتية والقطرية ميعت القضية ، مما أدى إلى مشكلات حادة كان لها الأثر السلبي على الحركة التحريرية من جهة، وعلى تدهور العلاقات الجزائرية المغربية أثناء حرب التحرير، وأوجد حساسية مفرطة بين الطرفين مهدت لظهور صراع إيديولوجي وسياسي كاد أن يؤدي إلى حرب مستعرة في الكثير من المرات، وكان من نتائج ذلك أن المغرب العربي ما زال يتخبط في هذه المشاكل التي أوجدها الاستعمار إلى غاية وقتنا الحالي.

خريطة: المطالب الإقليمية المغربية



1-بوزرب (رياض)، النزاع في العلاقات الجزائرية المغربية 1963-1988، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص44.

2-زوزو (عبد الحميد)، المرجعيات التاريخي للدولة الجزائرية الحديثة (مؤسسات ومواثيق)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص33.

3-Journal l'économie N° 596, op.cit. p15.

4-وقع على هذه الاتفاقية بعد معركة ايسلي التي جرت في 14 أوت 1844 بين الجيش الفرنسي والمغربي ، وهي معاهدة وقعها المغرب مع فرنسا بتاريخ 9 ربيع الاول 1260هجرية الموافق لـ 18مارس1845 بمدينة مغنية الجزائرية ، وقد وقع علة المعاهدة من الجانب المغربي أحميدة بن علي الشجعي ممثل الملك مولاي عبد الرحمان، وعن الجانب الفرنسي الكونت دولاري le general comte de Larueممثل الملك لويس فيليب وتضمنت المعاهدة 7 شروط.

5-ANOM. FM. 81F. Boite N° 350, Avenir politique et économique du Sahara.

6- زوزو (عبد الحميد)، مرجع سابق، ص34.

7-ANOM. FM. 81F. Boite N° 350, Avenir, op.cit.

Ibid.8-

9-الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مؤسسة علال الفاسي، الطبعة السادسة مصححة، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص108.

10-Blin (Louis), l'Algérie du Sahara au sahel histoire et perspectives méditerrané, éditions, l'harmattan, paris, 1990,p99.

11- الفاسي (علال)، دفاعنا عن وحدة البلاد، مراجعة وتصحيح المختار باقة ، منشورات مؤسسة علال الفاسي، 2009، ص20.

12- الممثل السابق لحزب الاستقلال بمدريد، ولعب دورا كبيرا في جيش التحرير المغربي، وكان مع علال الفاسي ومؤيد لفكرة المغرب الكبير.

13-ANOM. FM. 81F. Boite N° 350, Chronologie relatives aux différentes prises de position Du Maroc a l'égard du Sahara de 1956-1961.

14-Ibid.

15-Ibid.

16-Ibid.

17-Ibid.

18-Ageron (Charles Robert), la guerre d'Algérie et les Algériens 1954-1962, éditions, Armand colin, paris, 1997 , p 96.

19- ANOM. FM. 81F. Boite N° 350, Avenir, op.cit

20-مقلاتي(عبدالله)، العلاقات الجزائرية المغربية إبان الثورة الجزائرية، الجزءالأول، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص303.

21- غيلاني (السبتي)، علاقة جبهة التحرير الوطني الجزائرية بالمملكة المغربية أثناء الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962، رسالة دكتوراه ، إشراف علي أجقو، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009، ص215.

22-نفسه.

23-بلقاسم (محمد)، وحدة المغرب العربي فكرة وواقعا 1954-1975، رسالة دكتوراه، إشراف شاوش حباسي، جامعة بن يوسف بن خده، الجزائر، صص2009-2010.

24- مقلاتي(عبدالله)، مرجع سابق، ص309.

25-Harbi(Mohamed),les archives de la révolution algérienne, préface de Ageron Charles Robert, les éditions ,jeunes Afrique, paris,1981,p444.

26- غيلاني (السبتي)، مرجع سابق، ص217.

27- مقلاتي(عبدالله)، مرجع سابق، ص315.

28-ANOM. FM. 81F. Boite N° 350, chronologie...op.cit.

29-ANOM. FM. 81F. Boite N° 350, Chronologie….op.cit.

30-Ibid.

31-ANOM. FM. 81F. Boite N°350, extrait d'une déclaration de Mr Alaoui, ministre de l'information du gouvernement Marocain, le 22-03-1961.

32-Ibid.

33-El Moudjahid N° 79-15 Avril 1961.

34- المجاهد، عدد 98، 19جوان1961

35-المجاهد، عدد 96، 22 مايو 1961، الحكومات المغربية تؤكد مساندتها للجزائر، ص2.

36-المجاهد، عدد 98، 22 جوان 1961، لن تكون الصحراء مصدر شقاق...ص2.

37-Chikh (Slimane) , l'Algérie porte de l'Afrique , éditions, casbah, Alger,1999,p122.

38- المجاهد، عدد 99، 03جويلية 1961.

39-ANOM. FM. 81F. Boite N° 350, Chronologie... op.cit.

40-Ibid.

41- مقلاتي(عبدالله)، العلاقات الجزائرية المغربية إبان الثورة التحريرية 1954-1962، رسالة دكتوراه ، إشراف عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008، ص519.

42-المجاهد ، عدد100، 17جويلية 1961.

43-نفسه.

44- مقلاتي(عبدالله)، مرجع سابق، ص521.

45-زوزو(عبد الحميد)، المرجعيات التاريخية للدولة الجزائرية الحديثة (مؤسسات ومواثيق)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، صص 37-38.

46-المجاهد، عدد05، 14فيفري1962.

47-ANOM.FM.81F.Boite N°350, chronologie…op.cit.

48- المجاهد، عدد 112، 8 جانفي 1962، نصف الشهر السياسي، ص2.

49 - ANOM. FM. 81F. Boite N° 350, op.cit.

50- غيلاني (السبتي)، مرجع سابق، ص240.

51-Dahleb(Saad),pour l'indépendance de l'Algérie mission accomplit, dahleb,Alger,1990, pp190-191.

52-Redha (Malek) , l'Algérie a Evian histoire des négociations secrètes, éditions, dahleb, Alger, 1995,p151.

53-Mahfoud Bennoun et Ali ELkenz,les hasard et l'histoire entretiens avec belaid abdesselam, éditions ,ENAG ,tome 2,1990,p198.

54-Ibid,p199.

55-Ibid, pp199-200.

اندلاع الثورة التحريرية بمنطقة بمستغانم (المنطقة الرابعة من الولاية الخامسة) وتطورها ما بين 1954- 1956

د/ بليل محمد، جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص

إن اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية في الفاتح نوفمبر سنة 1954، شكّل اختراقا أمنيا لحركة التحرر الجزائرية للجدار الأمني، الذي ضربته الحكومة العامة في الجزائر على نشطاء الحركة الوطنية ذات التوجه الاستقلالي، من خلال حملات الاعتقالات وتزوير الانتخابات وكبت الحريات، باعتراف التقارير الأمنية الفرنسية نفسها المخزنة في دور الأرشيف الفرنسية.

و تمكنت قيادة الثورة المنبثقة من شبان المنظمة الخاصة، من إرباك قوات الأمن الفرنسية، بتفجير الثورة عبر كل القطر الوطني في نفس التوقيت، حيث كانت منطقة الظهرة بمستغانم مع هذا الموعد التاريخي الهام، لتعبر عن شمولية الثورة، وكانت الأجهزة الاستعلاماتية الفرنسية تعتقد، أنه يمكنها القضاء على الثورة بالمنطقة ؛ ولكن تجددها بشكل قوي سنة 1956 من خلال إعادة تنظيم مناطق الثورة وهيكلة منطقة مستغانم؛ ضمن المنطقة الرابعة من الولاية الخامسة، أعاد الحركة الثورية بالمنطقة إلى الواجهة من خلال المعارك الكبرى التي شهدتها المنطقة باعتراف تقارير الدرك والأجهزة الأمنية، التي كانت تتابع الوضع يوميا وترسل التقارير بشكل مفصل إلى مسؤوليها، وبذلك أضحت منطقة الظهرة تشكل إحدى الجبهات الثورية القوية إلى جانب الونشريس وجرجرة والأوراس وغيرها من مناطق الوطن التي أشعلت فتيل الثورة تجاه فرنسا الاستعمارية .

Abstract

The outbreak of the Algerian liberation revolution in November 1954 represented a security breach for the Algerian liberation movement of the security wall, which was struck by the Algerian government against activists of the independent national movement through arrests, electoral fraud and suppression of freedoms. Stored in the depot of the French archive.

The revolutionary leadership of the youth of the Special Organization was able to confuse the French security forces by blowing up the revolution throughout the entire national territory at the same time. The area of the Dhahra in Mostaganem, with this important historical date, reflected the comprehensiveness of the revolution. It could eliminate the revolution in the region; but it was strongly renewed in 1956 by reorganizing the regions of the revolution and structuring the Mostaganem area; within the fourth zone of the fifth state, the revolutionary movement in the region brought back to the fore through the major battles in the region, The security forces, which were following the situation daily and reporting

in detail to their officials, thus became the Dhahra region is one of the strong revolutionary fronts along with Ouarsenis and Djurdjura, Aures, and other areas of the country that sparked the revolution against colonial France.

مقدمة:

عرفت الجزائر أوضاعا مأسوية في شتى الميادين عقب الحرب العالمية الثانية،التي دفع فيها الجزائريون أرواحهم في سبيل تحرير فرنسا من النازية، ولكن فرنسا لم تحاول أن تعترف بحق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال، حيث عرفت الساحة الوطنية عقما سياسيا بسبب انشغال الأحزاب الجزائرية في ترتيب بيتها الداخلي بهدف التموقع الشعبي .

وكانت أبرز تلك الأحزاب التي مثلت التيار الاستقلالي،ممثلة في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية التي شهدت صراعا داخليا بين أنصار رئيس الحركة "مصالي الحاج"والمجلس الوطني للحركة (المركزيين)، بينما ظلّت نخبة من شباب المنظمة الخاصة التي تأسست سنة 1947 تنتظر إعادة هيكلة الحزب، لكن ذلك لم يجد نفعا، فتحرك هؤلاء الشباب من مختلف مناطق الوطن جماعيا لمباشرة الضغط على الأطراف المتصارعة. لكن اكتشاف المنظمة الخاصة ومحاولة تفكيكها، دفع قيادة المنظمة إلى السباق مع الزمن لتفجير الثورة عبر التراب الوطني، غير أن عمالة وهران ظلّت تفتقر للكوادر ونقص المعدات والأسلحة وصعوبات أخرى؛ لكنها كانت مع موعد اندلاع الثورة المسلحة .

فما هي إرهاصات العمل المسلح بعمالة وهران؟ وفي ما ذا تمثلت صعوبات العمل المسلح للأفواج الأولى، خاصة بمنطقة الظهرة ؟ وما هي الإمكانات التي راهنت عليها قيادة الثورة بالمنطقة؟ وكيف تجاوزت المنطقة الرابعة من الولاية الخامسة هذه الصعوبات ؟و كيف تطورت الثورة بمنطقة الظهرة بعد 1954؟و ماهي أهم المعارك الكبرى التي شهدتها هذه منطقة في سنة 1956؟

1- ظروف اندلاع الثورة التحريرية بمنطقة الظهرة والصعوبات التي واجهتها

إن عمالة وهران كانت تعاني من انقسامات داخلية بين أنصار الزعيم "مصالي الحاج" الذي كان لأنصاره تواجدا قويا في المدن الكبرى مثل تلمسان و وهران ومستغانم وسيدي بعباس وتيارت وغيرها من البلدات الأخرى، في حين أصرّ بعض أعضاء اللجنة المركزية بالوقوف إلى جانب قيادتهم "عبد الرحمان كيوان ولحول حسين"، وفي اتجاه أخر ظلّ العديد من الشباب المتحمس، حائرا ينتظر الأوامر من قيادته المباشرة للانطلاق نحو العمل الثوري.و في هذه الظروف الحساسة، قامت اللجنة التحضيرية لأول نوفمبر بعمل جاد بالمنطقة بتكوين قيادة أركان مصغرة وكسب انخراط أعضاء جدد والتمويل بالأسلحة، حيث تمّ تكليف ثلاثة قادة رئيسيين وهم "العربي بن مهيدي "بوهران وعبدالحفيظ بوصوف "بتلمسان و"بن عبد المالك رمضان" بمستغانم بهذه المهام[1] .

و كان لكل قائد مجموعة خاصة به من القيادات الصغرى المتمثلة في "الحاج بن علا" و'أحمد زبانة" بوهران وسدي بلعباس، و تمّ تكليف "فرطاس محمد" العائد من باريس بعين تموشنت، برفقة بعض

المناضلين أبرزهم "كويني" والاخوة "برجي اعمر وقدور"في ناحية "ويليس بحجاج و"صحراوي عبد القادر"وبومهدي الزروقي"وبلحميتي محمد المدعو بن ذهيبة' في "كساني"(سيدي علي) حاليا [2]؛دون أن ننسى المناضلين الآخرين من الدرجة الثانية في قيادة الثورة.

و قامت قيادة الأركان بالولاية الخامسة برئاسة العربي بن مهيدي إلى تقسيم الولاية إلى خمسة مناطق عسكرية من الحدود المغربية إلى حدود دائرة الأصنام سابقا ثم إلى ثمانية مناطق بعد سنة 1956. والتحضير الجيد لخوض معركة أول نوفمبر والاستعداد الفعال لكي تكون المنطقة مع الحدث البارز وإسماع الآخرين بوجود جزائريين رافضيين للاستعمار، رغم قلّتهم في المنطقة نظرا لعوامل عديدة سنرجع لها لاحقا.

2-العماليات الأولى لفاتح نوفمبر بمنطقة الظهرة.

عرفت منطقة الظهرة بدائرة مستغانم سابقا، نشاطا ثوريا وفدائيا هاما، أنقذ شمولية الثورة حسب تقديرنا، لأن عمالة وهران، كان بها عدد كبير من المعمرين وكانت جد هادئة، بسبب الانقسام الحاد بحركة الانتصار للحريات الديمقراطية وسيطرة أنصار رئيس الحركة على جلّ مكاتبها، وكذا تضاريسها المفتوحة، مقارنة بباقي جهات الوطن، حيث أحدثت صدمة لدى أجهزة الاستعلامات الفرنسية، التي لم تتمكن من إفشال مخطط تفجير الثورة المسلحة، ويرجع الفضل في رأيينا إلى عناصر المنظمة الخاصة، الذين التزموا بالحياد بين الطرفين المتصارعين، ولكنهم في نفس الوقت كانوا في موعد مع هذا الحدث الهام في تفجير الثورة المسلحة بالغرب الوهراني رغم الصعوبات والتحديات .

أ- طبيعته العمليات العسكرية الأولى

سبق لنا ذكر التحضيرات العامة لثورة أول نوفمبر في الجزائر وعمالة وهران من خلال العديد من الدراسات ومصادر معاصرة لتلك الفترة[3]،بأن المنطقة الخامسة، لم تتخلف عن إطلاق الرصاصات الأولى في الفاتح نوفمبر، بل اضطر مجاهدو هذه المنطقة في ناحية الظهرة إلى إطلاق النار في اليوم الموعود وفي نفس الظروف العامة التي شهدتها الثورة، قبل منتصف ليلة الفاتح نوفمبر من سنة 1954. ذلك ما أوردته الجرائد الاستعمارية في الجزائر والمتربول الصادرة يوم الثاني من نوفمبر مثل "إيكو دورون Echo D'Oran "و"ايكو دالجي"Echo D'Algerبحدوث تفجيرات إرهابية من "فيليب فيل " Philipe villeشرقا إلى كساني" Cassaigne غربا[4].

وتم تأكيد ذلك أيضا من خلال شهادة المجاهدين الأحياء والمتوفين منهم في عدّة مناسبات إحياء ذكرى أول نوفمبر [5]. وتناولت أيضا دراسات تاريخية و جرائد وطنية، حدث انطلاق العمليات الأولى بشكل مفصل، مستشهدة بالأرشيف الحي للمجاهدين ووسائل الإعلام التابعة لجبهة التحرير الوطني من خلال البيانات والمنشورات[6] .

وسنتطرق لطبيعة العمليات الأولى وأهميتها في المنطقة، من خلال التقارير الأمنية وتحليلات صحافة المعمرين وشهادة المجاهدين الأحياء،و من هذا المنطلق فالمنطقة، عرفت تحضيرا جيدا لهذا اليوم

المشهود ؛ رغم قلّة الإمكانات اللوجستيكية والبشرية،حيث لم يتجاوز عدد المجاهدين الأوائل عن الستين مجاهد، وعدد قليل منهم بالظهرة، لكن النشاط الدءوب للعربي بن مهيدي في جولاته المراطونية بالاجتماع مع القيادات المحلية بوهران وبالظهرة، أفلحت في تحديد الساعة والمكان .فالعمليات الأولى حددت بدقة وعناية حسب الإمكانات المتاحة، وترك العمل مفتوحا للقيادات المحلية حسب ظروف نشاطها وتحركها الميداني ؛ منها حرق مزارع المعمرين ومحطات البنزين ومهاجمة الثكنات العسكرية ومخافر الدرك الفرنسي وجمع الأسلحة، دون المساس بالمدنيين في المرحلة الأولى .

- أمّا بمنطقة الظهرة بمستغانم، فكلّفت عدّة مجموعات محلية بقيادة أحد قادة أركان الناحية وعضو مجموعة 22 التاريخية، للقيام بعمليات ثورية بالقسم الشرقي لدائرة مستغانم بالبلدية المختلطة ب""كساني"(سيدي علي حاليا) وبالبلدية كاملة الصلاحيات بوسكي (حجاج حاليا). وتمّ تأكيد نجاح بعض العمليات الثورية بناحية الظهرة من قبل والي عمالة وهران السيد"جين لومبار" "Lambert"الذي تلقى مكالمة هاتفية من طرف نائب الوالي لدائرة مستغانم على الساعة الواحدة وأربعين دقيقة صبيحة عيد كل القدسيين المصادف للفاتح نوفمبر بأنه تمّ وقوع الأحداث الآتية[7]: - حرق مزرعتين للمعمرين.- مهاجمة مخفر درك "كساني". - مقتل أوربي واحد.

و يؤكد تقرير استعلاماتي فرنسي أخر خاص بالعمليات العسكرية بالظهرة ما يلي[8] :

- تم قتل المعمر فرنسوا لورانت François laurent وقطع خطوط الهاتف والاعتداء على مزارع الكولون منها مزرعة "موسينقو " monsongo و" جونسون"jonsonفي الفاتح نوفمبر أما ما بين 03 و04 نوفمبر تم القبض على 12 فرد من بين 27 المشكلين لعصابة "كساني "من بينهم قاتل فرانسوا لورانت أما ليلة 04 نوفمبر والخامس منه تم محاصرة ستة ثوار بغابة واد النهيب بين لاباسي(سيدي لخضر حاليا) Lapasset وبيكار (خضراء)picardحيث قاموا بإطلاق النار على موكب من الدرك المتنقل وتم في هذه العملية قتل "سي عبد الله" الملقب ب " بن عبد المالك رمضان" وجرح آخر وهروب البقية وفي ستة نوفمبر تم القبض على الرئيس التاريخي لبن عبد المالك رمضان المدعو ب " بشلغام بن عبد الله ولد قدور المعروف ب"بكتروسي" "و في 07 نوفمبر انتهت العملية العسكرية بتحييد 27 ثائر، حيث قتل أحدهم وجرح آخر والقبض على أربعة منهم.

و قد ألقى الحاكم العام للجزائر خطابا أمام الجمعية الجزائرية يوم 11/16/ 1954، تحدث عن الأحداث المؤلمة التي حدثت بالجزائر ليلة 31 أكتوبر وصبيحة 01 نوفمبر 54 قائلا : "بأن الجرائد قد ذكرت جميع هذه الأحداث، وأنني سأسعى للقضاء على هذه الحركة التمردية من أجل فرنسا وإرجاع الأمن للجزائر وقررت الحكومة الفرنسية إرسال المزيد من القوات العسكرية خاصة المضليين لاسترجاع الأمن على الحدود الجزائرية التونسية ومنطقة الأوراس والاعتماد على الروح المدنية للسكان" .و أضاف روجي ليونار، "بإنني أخاطب هذه القاعة،موضحا لكم بأن أحداث الزلزال أضيفت لهذه الأحداث[9] "، مما يجعلنا نعتقد أن الثورة التحريرية شكلت زلزالا عنيفا بالنسبة للحكومة العامة التي كانت تطمأن نظيرتها

بباريس، ولكنها في حقيقة الأمر فشلت في تحقيق الاصلاحات التي وعدت بها السكان المسلمين ورضخت للوبي الاستيطاني .

و لهذا الأمر طالبت الحكومة الفرنسية، الهيئة التنفيذية في الجزائر باتخاذ الاجراءات السريعة للسيطرة على الوضع وتطبيق القانون على الجميع وأن الرابطة ستبقى مع المتروبول، أما فوجور:vanjour المكلف بالآمن، فقد ذكر في خطابه أمام نفس الجمعية، بأن الوضع الأمني تحت السيطرة من خلال تقارير رؤساء المصالح الأمنية بالعمالات الثلاثة وقدم حصيلة العمليات الارهابية ليلة عيد القدسيين بأنها وقعت بمناطق مختلفة ب[10] :

-الأوراس والمدن الثلاثة المحيطة بها (بسكرة وخنشلة وباتنة) وبالقطاع الجزائري وبلاد القبائل وممنطقة الظهرة وتورغوTurgo، حيث شملت العمليات مهاجمة مخافر الشرطة والدرك وقطع خطوط الهاتف والواصلات، وحسب وجهة نظره فإن جهاز الاستعلامات كان على علم بنشاط وتحركات هذه الجماعات ولكنه لم يستطع رصد والتنبؤ بيوم هذه العمليات، لأن نداء بداية العمليات الثورية حسب اعتقاده حدد للقاعدة (الثوار) إلا في يوم الأحد 31 أكتوبر وبعض المجموعات قدم لها على الساعة 16سا من هذا التاريخ ومجموعات أخرى لم تعرف خبر بداية العمل الثوري إلا ليلا وذلك من خلال عمليات استنطاق المقبوض عليهم، وتطرق أيضا إلى كيفية صنع القنابل من قبل هذه المجموعات وشراء الأسلحة، وقدم معلومات مفصلة عن الثوار وعن نشاط أجهزته الأمنية، لتبرئتها من التقاعس وفصلّ في النظام المحكم للجماعات الثورية التي تتكون من 4 إلى 5 أفراد وأضاف قائلا، فمهما قبضنا على أحدهم فلا يمكنه معرفة المجموعات الأخرى، و بسبب وجود مجموعات من الأفراد تعمل في السرية منذ مدة ؛و تحدث أيضا عن الاعتقالات في صفوف المتمردين. أما بالنسبة لمنطقة "كساني" و"وليس" و"بوسكي" بالغرب الوهراني، فذكر بأن الحصيلة، تمثلت في القبض على 96 فرد وثلاثة قتلى وثلاثة جرحى، بينما تسعة أفراد لا زالوا فارين ؛ حسب نفس التقرير الأرشيفي سابق ذكره.

وحسب روايات المجاهدين الأحياء، بأن العمليات الثورية كانت جدّ ناجحة بالمنطقة نظرا لإشراف"بن مهيدي" نفسه في تحضير الثورة بالظهرة مع "بن عبد المالك رمضان" في اجتماع ضمّ القيادات المحلية أمثال "الأخوين بورجي"و"بلحميتي بن ذهيبة" وآخرين بغار"سدي يوسف ببلدة "أولاد بوزيان" بكساني، حيث تمّ توزيع المهام في جمع الأموال وشراء الأسلحة والتدريب عليها [11] .

إضافة إلى هذا النجاح الذي أحرزت عليه الثورة في الولاية الخامسة، كانت تعرف بهدوئها وسيطرة المعمرين على أوضاعها، وانشغال الأهالي الجزائريين في العمل عندهم، حيث أثار انتبهنا لحادث مميز بإطلاق النار على أحد المستوطنين على الساعة الحادية عشر وخمسة وأربعين دقيقة، وفي روايات أخرى 11سا و30 دقيقة، ويعود سبب ذلك حسب هذه الروايات،بأن ذلك المستوطن شاهد المجاهدين متجهين نحو المزرعة، فحاول الإعلام عنهم فاضطرت المجموعة إلى إطلاق النار عليه ومتابعة إنجاز

مهام إعطاب المولد الكهربائي "بوليس"(بن عبد المالك رمضان حاليا) وحرق بعض مزارع لمستوطنين ومحاصيلهم الزراعية[12] .

وقد اطلعنا بمركز الأرشيف لإكس بروفانس عل وثيقة هامة، توضح بشكل مفصل ملابسات أحداث ليلة أول نوفمبر من خلال مراسلة استعجاليه حول المقبوض عليهم بمنطقة **كساني** خلال هذه الأحداث من قبل المحافظ " موريس بيار "رئيس الشرطة العامة لمستغانم أرسله لعامل العمالة والجهات الأمنية العليا للحكومة العامة في الجزائر يوم 1954/12/31 أبرز فيه الأحداث الآتية[13]:

- هجوم كساني ليلة 10/31و 1954/11/01:تمثل في قطع خطوط الهاتف بين طريق كساني ولاباسي واغتيال السيد فرانسوا لورانت، و مهاجمة ثكنة الدرك بكساني والتعدي على الحارس الليلي "سايح محمد" الذي جرح بطلقة نارية وأيضا مهاجمة عدة مزارع سبق لنا ذكرها وأن عموم المهاجمين تم توقيفهم، حوالي 27 فرد وتم ذكر أسمائهم بالتفصيل في هذه المراسلة.

ب- الصعوبات التي واجهت العمليات الثورية الأولى بالمنطقة الخامسة ومنطقة الظهرة

إنّ تتبعنا لأحداث العمليات الأولى بالمنطقة، تبين لنا أنّ حركة التمرد حسب التعبير الاستعماري، استطاعت اختراق الإجراءات الأمنية الفرنسية وقوانينها الردعية المسلطة على الجزائريين، والتجاوب مع الوضع العام لحركة الثورة في مسارها التاريخي الذي ضبط بيوم 01 نوفمبر 1954م، حيث أصيبت الجرائد الاستعمارية المحلية والباريسية، الصادرة يوم الاثنين واليوم الثاني منه بالهلع والذهول لمجرى العمليات، واتساع نطاقها من خلال ما ورد في البرقيات الرسمية للحاكم العام. وراحت تحلل الأوضاع من وجهات مختلفة، موضحة للرأي العام، ميزان القوى بين الجيش الفرنسي وسيطرة الإدارة الاستعمارية على السكان وتوجيهها لهم من جهة؛و مجموعة قليلة من الخارجين عن القانون من جهة ثانية، ومن هذا المنطلق:" فإنّ الثورة بالمنطقة الخامسة، قد وجهتها عدّة صعوبات، فرغم انطلاقة الثورة الجيدة وانخراط الآلاف فيها،فإن هذا العدد لا يمثل أكثر من حفنة من الرجال إذا ما تمت مقارنتهم بعدد خصومهم،وما يتوفر لهؤلاء الخصوم من إمكانيات"[14] .

ويعود ذلك في نظرنا إلى طبيعة الثورة، التي اعتمدت على قلة من المناضلين الأوائل بسبب الأزمة التي أصابت"حركة انتصار للحريات الديمقراطية" بمنطقة الغرب الجزائري، بسبب سيطرة الطرفين المتصارعين على مكاتب الحزب، حيث آخر ذلك في نظرنا النشاط الثوري بالمنطقة، خاصة بعد اعتقال بعض زعماء المنظمة الخاصة أمثال "أحمد بن بلة"و" بوشعيب" على إثر الهجوم على بريد وهران، ووجود "حمو بوتليليس" في السجن ؛ في حين خرج "زبانة " متأخرا من السجن إلاّ في سنة 1953م.

تبين لنا هذه الوقائع التاريخية، قلة الرجال الممارسين للعمل الثوري في بداية الثورة، مما أدى بقيادة الثورة المنبثقة عن اجتماع جوان 1954م إلى تبني إستراتيجية تعويض هذا النقص بتكليف قادة تاريخيين بارزين مسؤولين على المنطقة الخامسة وهم"العربي بن مهيدي" قائدا و"عبد الحفيظ بوصوف 'بتليمسان و'بن عبد المالك رمضان "بمستغانم نائبين له .

وأن أسباب قلة العمل الثوري وضعفه في بداية الثورة، برجع في نظرنا إلى اكتشاف المنظمة الخاصة و تسليط العقوبات الصارمة على أعضائها من قبل الإدارة الاستعمارية،المتمثلة في سجن العديد منهم ؛ وظلّ آخرون يعملون في السرية بعدين عن أنظار الاستعلامات الفرنسية،ومن جهة أخرى، سيطرة الإدارة الاستعمارية على السكان الجزائريين، لتواجد بلديات كاملة الصلاحيات التي يرأسها رئيس بلدية أوربي، مستغلة الجزائريين بشكل فادح،ومطبقة عليهم قوانين صارمة،رغم انتهاء العمل بقانون الأنديجانا سنة 1944م؛و بلديات مختلطة يرأسها حاكم إداري،كان يرهب السكان من خلال الجهاز الإداري والأمني التابع له من حراس البلدية والقياد بالأرياف وجهاز أمني من شرطة ودرك في البلديات، ومن بين الأمثلة على هذا الوضع، تواجد حاكم بلدي يدعى **"شوارا"** بالبلدية المختلطة **كساني** الذي كان يرهب السكان ويقدم قوائم عن أسماء المناضلين بالأحزاب الوطنية لأجهزة الاستعلامات الفرنسية، حسب شهادة أحد الجزائريين المعاصرين لهذه الفترة [15]، بوجود جهاز استعلاماتي قوي، حيث كان لممثل الإدارة الاستعمارية أعين لها في كل مكان[16].

وواجهت الثورة أيضا بالمنطقة صعوبات لوجيستيكية، منها نقص الإمداد بالأسلحة، وذلك بسبب المراقبة الصارمة للحدود الشرقية والغربية؛بعد اكتشاف أعضاء من المنظمة الخاصة،و تلكؤ الإخوة المغاربة في إمداد بوصوف والعربي بن مهيدي بالأسلحة التي وعدوا بها [17]، أدى ذلك بالوحدات الثورية في المنطقة إلى الاعتماد على النفس، حيث اعتمدت مجموعات الظهرة بمستغانم على صناعة البارود وتحضير القنابل بواسطة أنابيب الماء، وجمع بعض الأسلحة عن طريق الشراء مثل بنادق موزار وبنادق صيد إيطالية الصنع وبعض المسدسات [18].

يدل ذلك في نظرنا على صعوبة التمويل بالأسلحة، والتقليل من حظوظ نجاح العمليات المبرمجة، يضاف إلى ذلك انفتاح المنطقة جغرافيا، رغم تواجد بعض الغابات والجبال والأودية التي كانت درعا واقيا لمجاهدي المنطقة . ولكن تواجد أراضي زراعية واسعة وثروات منجميه متنوعة، سمح بتوظيف يد عاملة جزائرية وتحسين بعض الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، مما أدى إلى صعوبة اختراق القيادات الثورية الأولى للجزائريين المنشغلين بشؤون حياتهم، أو هؤلاء المنغمسين في العمل السياسي العقيم .

ورغم صعوبة هذه الظروف، فإن عمالة وهران قد شهدت أعمالا ثورية ذات قيمة معنوية ونفسية بالنسبة لعموم مناطق الوطن،و أذهلت القيادة الإدارية الحاكمة في الجزائر من حاكم عام ووالي الولاية ونوابه بدوائر العمالة، حيث قام رئيس جهازها التنفيذي المتمثل في الحاكم العام إلى إعطاء تعليمات صارمة لمنع تعاظم الثورة وطمأنة السكان الجزائريين والتقرب منهم محاولا بذلك عزل الثورة عن العمق الشعبي[19]، و يدل هذا الاهتمام الحكومي في إصراره على قمع حركة التمرد بالقطاع الوهراني ومنطقة الظهرة على وجه الخصوص، على نجاح العمليات الثورية الأولى والتنسيق الجيد الذي كان

موجودا بين قيادات الثورة عبر الجزائر كلها من جهة والرد على بعض الدراسات والتقارير التي تحدثت عن تأخر العمليات الثورية بمنطقة وهران من جهة أخرى [20].

ونشرت هذه الإشاعات أجهزة الاستعلامات الفرنسية، للتقليل من شمولية الثورة واعتبارها مجرد أعمال إرهابية متفرقة، قامت بها مجموعات خارجة عن القانون، ولكن رد الفعل الفرنسي تجاه الجزائريين بالمنطقة، من خلال بيانات الإدارة الاستعمارية وأرشيف المجاهدين الأحياء يثبت لنا عكس ذلك .

3- رد الفعل الفرنسي على العمليات الثورية الأولى بالعمالة ومنطقة الظهرة

كانت العمليات الثورية الأولى زهيدة بالمنطقة الخامسة" وهران"، حسب العديد من الدراسات لعوامل عديدة سبق التطرق لبعضها، ولكن قوة رد الفعل الفرنسي على العمليات الأولى برهن لنا انتشار لهيب الثورة بشكل مباشر وألحق خسائر بشرية ومادية في صفوف القوات الاستعمارية، دفع ذلك أجهزة الاستعلامات الاستعمارية إلى شن حملة مداهمة لمعظم العناصر المنتمية لحركة الانتصار واعتقالهم . وفي مرحلة لاحقة، تمكنت هذه الأجهزة من إبطال مفعول انفجار القنابل بالعديد من مناطق المنطقة الخامسة، وتمّ القبض على معظم المنفذين للعمليات الأولى، ففي ناحية الظهرة استشهد "ابن عبد المالك رمضان " يوم 04 نوفمبر 1954م، وقبض على المجاهدين الآخرين وسجنوا في العديد من سجون مستغانم ووهران والبرواقية [21]، وفي نفس الوقت ذكر المرحوم المجاهد (بومهدي زروقي) أحد الأعضاء القياديين في الهجوم على مراكز الاستعمار ليلة الفاتح نوفمبر في ندوة تاريخية، بأن جهاز الاستعلامات الفرنسي عند استنطاقه له ولزملائه ؛ لم يتعرف على هوية المجموعات المنفذة، واعتقد أنها تنتمي إلى حركة الانتصار وأضاف المجاهد قائلا "بأنني حمدت الله على ذلك " وهو يسمع هذا الحديث من أحد المحققين من زنزانته [22].

و تحت وطأة العمليات الكبرى في منطقة وهران والظهرة، سارعت الإدارة الاستعمارية إلى تبني إجراءات صارمة في حق مناضلي التيار الثوري، حسب إحدى النشريات الصادرة في شهر نوفمبر والتي ذكرت بأن قيام فرنسا بإصدار "**قانون** 1954/11/05 الصادر بالجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية القاضي بحلّ حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، كان سببا كافيا لإعادة هذه الحركة للسرية وقيام البوليس الفرنسي في إطار عملية "بيش" putch باعتقال ألاف مناضلي هذه الحركة فأوجد تعاطف شعبي معها"و أدى إلى التحاق الآلاف بالجبال خوفا من سياسة البطش الاستعمارية وبالتالي فإجراءات الإدارة الاستعمارية أججت الأوضاع وجعلت الشعب الجزائري يلتف حول الثورة بشكل فعال، و علقت هذه النشرية على هذه الأحداث من خلال مقولة السيد "بياكس " piex :"لا يمكن تثبيت الأمن في وسط غابة من الحراب baïonnettes و لكن وفق إرساء مبدأ الثقة والصداقة بين الشعوب وإن إرساء مناخ السلم، لا يمكن أن يكون وفق عنف أعمى ولكن وفق سياسة شعبية بناءة تبعا لقاعدة شعبية جزائرية حقيقية " [23].

وقد أوجدت هذه الأوضاع حالة نفسية متباينة بين السكان الأوربيتين والمسلمين الجزائريين الأوربيين بمنطقة الظهرة من خلال تقارير الأجهزة الأمنية، التي حللت هذه الأوضاع من خلال تعليقات صحف المعمرين، نقتبس منها حالتين كالآتي[24]:

- أولا :" تناولت صحف المعمرين الصادرة خلال هذه الأحداث، رضاها من سكان المنطقة المسلمين المتعاونين مع السلطات الأمنية بتتبع آثار الخارجين عن القانون وبالتالي فهم مرتاحون لذلك "،و لكنها أغفلت في نظرنا الحس الوطني المنتشر بمنطقة الظهرة من خلال تعاون سكان المنطقة مع المجاهدين بتنفيذ عملياتهم بنجاح، وأن الأشخاص التي تحدثت عنهم هذه التقارير الصحفية، لا تعكس عموم سكان المنطقة، إنما بعض الأفراد المنتفعين من خدمات الإدارة الاستعمارية، وتبين لنا هذه الأحداث فشل جهاز الاستعلامات الفرنسي في معرفة نفسية السكان الجزائريين.

- ثانيا :تناولت أيضا، تصريحات بعض الاوربيين في كيفية مكافئة المتعاونين معهم ماديا بتقديم مائة ألف فرنك لكل واحد، و هذه هي طبيعة الخائنين لوطنهم أو بواسطة تهنئتهم من قبل الحكومة العامة، ولقد أمضى هذا التقرير المرسل إلى السلطات العليا، المحافظ الرئيسي السيد "فريدي روني " Fredy René".

و بذلك فالإدارة الاستعمارية استخدمت جميع الأساليب القمعية واستعانت بالأجهزة الأمنية المختلفة لقهر الشعب الجزائري وحاولت عزله عن ثورته المباركة، من خلال عمليات الاعتقال التي تحدثت عنها التقارير الاستعمارية السابق ذكرها، وأوجدت جوا من الرعب في أوساط السكان الجزائريين، وحاولت أن تظهر لهم قوة فرنسا، مما جعلها تتحكم مؤقتا على ميدان المعركة بعد الشهور الأولى من اندلاع الثورة التحريرية .

4 - تطور الثورة بعد سنة 1954 بالمنطقة

قامت الإدارة الاستعمارية من خلال أجهزتها الأمنية بعمليات الاعتقالات وترهيب السكان ووضع مخافر أمنية جديدة وبناء معتقلات وأحياء للعسكريين الفرنسيين وتجنيد بعض المرتزقة والمتعاونين من السكان المسلمين الجزائريين والاعتماد عليهم في محاربة الخارجين عن القانون، حسب تصريحات أجهزة الاستعلامات الفرنسية[25] .

إضافة لذلك عدم اكتشاف العديد من العمليات، بسبب السرية التامة التي دخل فيها من تبقى خارج نطاق المراقبة الأمنية وبداية التنظيم الخفي، بعيدا عن أنظار أجهزة الاستعلامات وتأسيس الخلايا الشعبية والمراكز الآمنة وانتظار أوامر القيادة العليا للثورة التي تشتت بعض الشيء، بسبب استشهاد بعض قادة مجموعة الاثنان والعشرين، منهم بن عبد المالك رمضان وسجن كل المشتبهين فيهم، ولكن قيادة الثورة أعطت الأوامر للمتواجدين في المنطقة بالقيام ببعض الأعمال مثل حرق مزارع المعمرين وتنصيب الكمائن دون الدخول في مواجهات مباشرة مع الشرطة الريفية وقياد الحاكم المحلي للبلدية المختلطة، بسبب قلة الإمكانيات، ذلك ما تحدثت عنه "إكو دورون" عن حرق مزارع في الجهة

الشمالية الشرقية من البلدية المختلطة بمنطقة بيكار [26] دعوة المناضلين إلى العمل على انخراط أفراد الشعب في الثورة من خلال تأسيس منضمات شعبية شبه مسلحة، تحضيرا للمعركة الطويلة الي بدأت بعد انعقاد مؤتمر الصومام بإعادة هيكلة الثورة ة والتعامل مع المستجدات الطارئة.

5 - تجدد الثورة بعد مؤتمر الصومام

تشكلت النواة الأولى لجيش التحرير الوطني من المناضلين المنتسبين سابقا لحزب الشعب الجزائري والمنظمة الخاصة التي تأسست في فبراير 1947، وبعد تقوية الثورة وتزايد عدد الملتحقين بها، تم فرض شروط انضباطية على المنخرطين الجدد بقبول المجندين العسكريين والفدائيين والمناضلين المخلصين، حيث شكلت جبهة التحرير الوطني القائدة للكفاح المسلح خلايا شعبية بالدواوير والأرياف[27]، عرفت لدى أجهزة الاستعلامات بالأوبا OPA[28]. وحسب دراسة للدكتور الغربي غالي أن جيش التحرير الوطني، كان يتكون في بادئ الأمر من الفئات الآتية [29] :

"- المجاهدون، منظمون عسكريا ولهم مستوى قتالي وو تكوين ثقافي وسياسي

- المسبلون، و هم أفراد مسلحون يتميزون بارتدائهم للباس المدني غير خاضعين للقوانين التنظيمية

- الفدائيون، شبان من ذوي الإيمان الراسخ بالثورة والتضحية في سبيل الوطن، من أهدافهم : تصفية غلاة المعمرين وبث الرعب وعدم الاطمئنان في نفوس الفرنسيين، وذكرت التقارير الأمنية الفرنسية بأن عددهم ب 22126 فرد، في حين ذكرت تقارير جيش التحرير ب 100000 فرد" .

بعد انعقاد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956، أعيد تنظيم الثورة وبعث إنشاء كتائب ومجموعات لجيش التحرير بمعظم مناطق البلاد، ومنها المنطقة الرابعة بالولاية الخامسة، حيث كانت مجموعات من جيش التحرير موجودة بالمناطق الجبلية، و حسب جهاز الاستعلامات الفرنسي، بأنه كان لها تأثير واضح على السكان، مما جعل حركة التمرد حسب مصطلح هذه الأجهزة يزداد ويدعم بمنخرطين جدد وإقامة مراكز بعيدة عن أعين الجيش الفرنسي [30].

بعد أن تواجد جيش التحرير بشكل فعال بالمنطقة من خلال شهادات مجاهدي المنطقة، وأكدت الوثائق الأرشيفية حقائق الميدان من كمائن واشتباكات وهجمات لجيش التحرير على القوات الفرنسية، بدأت كتائب جيش التحرير تستخدم أساليب قتالية واستراتيجية عسكرية تناسب وضع تواجدها بالمنطقة، فمن خلال شهادة المجاهدين، بأن مراكز جيش التحرير كانت متنقلة وبإعداد قليلة للفوج الواحد، حتى لا تستطيع قوات الاحتلال اكتشافها، وقامت باستخدام أساليب عديدة منها [31]:

- أسلوب حرب العصابات، ولاحظنا ذلك في العمليات السابقة، نتيجة التنوع التضاريسي والطبوغرافي

– الاشتباكات والهجمات الخاطفة المحدودة الزمان والمكان على مراكز عسكرية ثابتة ومتنقلة .

- تخريب منشآت العدو من مزارع ومصانع وطرق السكة الحديدية وكل المصالح التي ينتفع بها الجيش الفرنسي .

- نصب الكمائن المختلفة .

ولهذه الغاية قامت الولاية الخامسة بالمنطقة الرابعة بمحاولات لإعادة هيكلة الثورة بها، وذلك بالتنسيق بالمناطق الأخرى من الولاية الخامسة، من بينها المنطقتين الأولى باعتبارها منطقة حدودية يسهل نفاذ الذخيرة منها، وأيضا المنطقة السابعة بتيارت وما جاورها، حيث لاحظنا تواجد تنسيق ما بينهما من خلال اطلاعنا على الوثائق الأرشيفية الخاصة بدائرة تيارت[32]، وهذا ما جعل القيادة العليا للولاية الخامسة ترسل كتائب قتالية لتنظيم المنطقة، من بينها كتيبة **الشهيد محمد الجبلي** .

أ – معركة سيدي الزقاي بقيادة الشهيد محمد الجبلي: 15- 16 سبتمبر 1956 بسيدي علي (كساني سابقا)

بعد أن استطاعت قيادة الثورة المتبقية من بعض أعضاء المجموعة الاثنان والعشرين والتحاق مناضلين سابقين من اللجنة المركزية وفتح المجال لمناضلين آخرين من الأحزاب الوطنية بالانخراط في صفوف جبهة التحرير الوطني فرادا،ازدادت الثورة متانة وتنظيما وأعيد هيكلة بعض المناطق المتضررة من الضربات الأولى للجيش الاستعماري لخلايا جيش التحرير الوطني وتنظيم صفوف المنخرطين الجدد .

ولهذا الأمر كان تنظيم الولاية الخامسة الشاسعة المساحة أمرا هاما، باعتبار أن لها عمقا جغرافيا مع المغرب الشقيق ومع الولايتين التاريخيتين الرابعة والسادسة المنشأة حديثا بالصحراء، وتم تقسيمها إلى ثمانية مناطق وكل منطقة إلى نواحي وكل ناحية إلى قسمات، وكان نصيب منطقة الظهرة ضمن المنطقة الرابعة، محاذية لنفس المنطقة بالولاية الرابعة، مما جعلها همزة وصل بين الولايتين الخامسة والرابعة واكتسبت أهمية بالغة في المجال الإستراتيجي والقتالي بسبب طابعها الجبلي .

و احتفظت المنطقة ببعض مراكزها المخصصة لخلايا جيش التحرير الوطني من خلال شهادات مجاهدين ووثائق الاستعلامات الفرنسية [33]،التي ذكرت بوجود خلايا نائمة بوليس وبوسكي والبلدية المختلة " كساني " المترامية الأطراف من جبال تزقايت ومنطقة الشواشي إلى غاية واد كرمس وجبال الظهرة الشرقية بالقطاع الأوسط L'Algérois.

ولهذه الغاية كان تحرك جيش التحرير الوطني بالولاية الخامسة شاقا، بسبب التضاريس المكشوفة في غالب الأحيان، وتمركز عدد كبير من المعمرين وانشغال سكان المنطقة بالعمل في مزارع المعمرين، مما أوجد صعوبة هيكلتها، فتم تكليف بعض القيادات الناشئة بالحدود الغربية والملتحقة بالعمل المسلح إلى المجيء لمنطقة الظهرة للضغط على الجيش الاستعماري وتصفية بعض مسؤولي البلديات المختلطة المتعجرفين، الذي مثلهم الحاكم الإداري للبلدية المختلطة "كساني " المدعو "شوارال Choaral وبعض المتعاونين من موظفي اللإدارة ومنتخبين بهذه البلدية من السكان المسلمين [34] .

وانطلاقا من هذه المعطيات، كلفت الثورة شابا مجاهدا من المنطقة الأولى، بتلمسان للقيام بهذه العملية، والمعروف بمحمد الجبلي، مما يجعلنا نطرح عدة استفسارات عن هذا الموضوع، من هو هذا القائد العسكري ؟ وما هي ظروف مجيئه إلى المنطقة ؟ وما هي مراكز المجاهدين المحلية التي اتصل

بها ؟ والأعمال التي قام بها في طريقه الشاق نحو شرق الولاية الخامسة ؟و كيف نشبت المعركة بين وحدته القتالية والجيش الاستعماري المرابط بالمنطقة ؟ وما هي نتائجها على العمل المسلح بالمنطقة ؟

تعود أصول الشهيد محمد الجبلي إلى منطقة "وارسوس " بدائرة الرمشي بولاية تلمسان وإسمه الحقيقي "بداود محمد "مولود في 12 أبريل من سنة 1931، بقرية الجبالية وانخرط في صفوف جيش التحرير الوطني في أواخر سنة 1955هاربا من الخدمة العسكرية وشارك في معارك جيش التحرير بالمنطقة الحدودية وارتقى إلى قائد إحدى كتائب جيش التحرير الوطني . لذلك استدعته قيادة الولاية الخامسة بمهمة " دورية نحو شرق الولاية " للقيام بمهام تنظيمية سرية للاتصال بالأفواج العسكرية المتبقية منذ أول نوفمبر بمنطقة الظهرة وتحقيق عدة أهداف، منها [35]:

- تصفية الحاكم المحلي " شوارال " – ملئ الفراغ بالمنطقة وإعادة هيكلتها بعد استشهاد القادة الأوائل والقبض على معظم مفجري الثورة في الفاتح نوفمبر 1954.

ب – مسيرة محمد الجبلي نحو منطقة الظهرة

تنقل محمد الجبلي مع كتيبة من المجاهدين تتراوح ما بين 80 إلى 100 مجاهد من تلمسان مارا بمنطقة عين تموشنت ومعسكر، حيث قام بحرق العديد من مزارع المعمرين وتخريب ممتلكاتهم، ووصل إلى منطقة مستغانم، حيث تابع سيره في المناطق المحاذية للبحر، فقام بحرق بعض الأكواخ الخشبية للعمال الأسبان وقتل بعض الحراس بمنطقة الصخرة، وتابع سيره بدواوير المزارعة وأولاد يونس والسمارة والسعادية والشواكة بالبلدية الكاملة الصلاحيات " بوسكي " ثم مر بدواري القوايوية والترابة بالبلدية المختلطة "كساني"[36]، وذلك بعد ما التقى ببعض المجاهدين بوليس معقل الأخوين برجي (ثوار أول نوفمبر) وببوسكي بأحد مراكز المجاهدين [37]، ليصل ليلة 14 سبتمبر لدوار القشاقشة المعروف بالبخيتية للالتقاء ببعض مجاهدي المنطقة الذين كانوا في انتظاره، بعد ما قام بتصفية بعض عملاء فرنسا بالمنطقة وحرق مزرعة " بروتون "breton.

ج- وقائع معركة سيدي الزقاي بالقرب من كساني (سيدي علي) 15– 16 سبتمبر 1956

بعدما استطاعت كتيبة الشهيد محمد الجبلي الوصول إلى دوار القشاقشة المعروف بالبخيتية شرق مدينة سيدي علي حاليا ب ثلاثة كلم بالقرب من ضريح الولي الصالح "سيدي الزقاي" أتيا من مزرعة "شعبان"حاليا ومارا على دوار الترابة الجبل، حوالي ثلاثة كلم جنوب سيدي علي، ليلة 14 وصبيحة 15 سبتمبر، للتمركز في المنطقة من أجل إكمال المسيرة نحو شرق العمالة، حيث تعرضت كتيبة المجاهدين لخيانة من قبل أحد حراس مدرسة الدوار، الذي شك في الغرباء، وامتطى درجة هوائية متجها نحو مقر الحاكم العام "شوارال"ليخبر المسؤولين الفرنسيين بوجودهم، وحسب ما نقلت جريدة "إيكو دورون"[38]، بأن أحد المسلمين الفرنسيين أبلغ السلطات بالبلدية المختلطة بتواجد عناصر من الفلاقة (الثوار)، حيث قات القوات الفرنسية في صبيحة يوم السبت 1956/10/15بمحاصرة المنطقة وتتبع أثر المجاهدين الذين استعدوا للمعركة الفاصلة بالشهادة أو العيش أحرارا .

وفعلا قد تمسك الشهيد محمد الجبلي، بالتصدي لقوات الجيش الاستعماري، الآتية من كل حدب حسب تصريح نفس الجريدة سابقة الذكر، التي ذكرت تفاصيل المعركة نقلا عن مصادر عسكرية فرنسية موضحة ما يلي [39] :

"قد تم محاصرة الخارجين عن القانون بكساني تحت عنوان "كتيبة كبيرة من المتمردين تشتبك مع الجيش الفرنسي بالقرب من كساني، وأنه تم القضاء على 32 فردا من الخارجين عن القانون "، ووضحت في هذا المقال بأن الفرقة الرابعة للمشاة الآتية من القطاع الأوسط (عمالة الجزائر)شاركت في محاصرتهم إلى جانب قوات آتية من مستغانم، إضافة إلى القوات العسكرية المرابطة بالمنطقة والمعروفة بالمجموعة 31 المتحركة من الشرطة الريفية والتي بادرت بالاشتباك مع مجموعة الثوار وساعد قوات الاحتلال الكلاب المدربة والطيران الحربي الآتي من مطار السانيا والمعروف ب" بيبر بيبس piper – pubs وحسب جهاز الاستعلامات الفرنسي الذي نقلت عنه هذه الجريدة أخبار المعركة،، فإن قوات المجاهدين تراوحت ما بين80 و100 عنصر مدربين على الأسلحة وبلباس عسكري، مما يجعلنا نستخلص تزايد قوة جيش التحرير الوطني الذي قطع أكثر من 300 كلم وصولا إلى منطقة الظهرة دون تفطن جهاز الاستعلامات الفرنسي له، واستطاع محمد الجبلي بصموده ليومين كاملين من التقليل من الخسائر في صفوف جيش التحرير باستشهاده في نفس المكان، رغم الحصيلة الثقيلة التي تجاوزت استشهاد أكثر من 40 فردا من كتيبته أي نصفها، حسب روايات شهود عيان أحياء من مجاهدين ومواطنين عايشوا أحداث المعركة أو سمعوا عنها، فهذا المجاهد "نعماوي بن عبدالله "الذي لا زال يحفظ أشعار عن معركة الجبلي رغم مرضه، وهو المجاهد الذي روى لنا أسطورة هذه المعركة التاريخية الكبرى على مستوى الغرب الجزائري، لأنها جاءت مباشرة بعد هيكلة الثورة، وجند هو نفسه مباشرة بعدها في المنطقة الرابعة بالولاية الرابعة وتعرض لجروح خطيرة أفقدته الوعي مدة أسبوع في وسط جبال الظهرة، ولكن رعاية الله حافظته من السقوط في يد قوات الاحتلال إلى غاية الاستقلال [40]، و روى لنا أحد شهود العيان المتمثل في الحاج لخضر فيزاري من مدينة سيدي علي، و هو أخو الشهيد **فيزاري علي** الذي استشهد بمنطقة مغنية والذي كان ضمن المجموعة الأولى المجندة في صفوف الجيش الاستعماري في الهند الصينية ثم في ثكنة الصبابنة بتلمسان رفقة الرائد " الزوبير 'المدعو "حمايدية الطاهر من منطقة تيارت واللذين شاركا في التمرد على هذه الثكنة والقضاء على الجنود الفرنسيين والالتحاق بصفوف الثورة، وذلك في سياق حديثه عن أصداء معركة سيدي الزقاي وأن مدينة سيدي علي(كساني سابقا) امتلأت على أخرها بالجنود الفرنسيين وسمع دوي الطيران الحربي وحواماته[41] .

وأكدت لنا جريدة "إيكو دورون " هذ الوقائع بذكرها لأدق التفاصيل عن هذه المعركة في عددها الصادر يومي الأحد والأثنين 16 – 17 سبتمبر، بنزول حوامة على أرضية ثكنة "كلونيا" بوسط مدينة مستغانم محملة بالجرحى وقتلى الجنود الفرنسيين، وتأسفت لهذه الأحداث التي ذهب ضحيتها جنود متروبوليين، وفي عدد يوم الأربعاء 19 سبتمبر من نفس السنة، ذكرت وصول جثامين أربعة جنود من

منطقة العمليات بكساني وذكرتهم بأسمائهم وتابعت في عددها ليوم 09/20/ 1956بأن الجيش وسكان مستغانم والسلطات المحلية للبلدية المختلطة بكساني ألقوا النظرة الأخيرة على قتلى هذه العملية يوم 1956/09/18 [42].

يجعلنا ذلك نستنتج قوة المعركة التي فاجأت قوات الاحتلال، التي ظلت تظن أن المنطقة باتت آمنة بعد القضاء على المجموعات الأولى لثوار أول نوفمبر، ونتج عن هذه المعركة استشهاد قائد الكتيبة الشهيد " محمد الجبلي "مع مجموعة من رفاقه وفرار بقية المجاهدين نحو شرق المنطقة ليتجدد القتال في هذه المنطقة الثورية الي أبت الاحتلال منذ محرقة غار الفراشيح بأولاد رياح في 18 جوان 1845 بنفس البلدية المختلطة [43] وجددت العهد مع الثورة المسلحة حيث ستعرف هذه المنطقة أعنف المعارك بعد هذه المعركة التاريخية.

6 – الحرب النفسية المتبادلة ما بين الجيش الاستعماري وجيش التحرير الوطني بالمنطقة

شهدت منطقة الظهرة بعد هذه المعركة الكبرى في تاريخ المعارك الحربية، بين جيش التحرير الجزائري، المهيكل بعد مؤتمر الصومام وجيش الاحتلال الفرنسي، حربا نفسية وإعلامية بين خلايا جهة التحرير بالمداشر والقرى والبلديات وتواصل الاشتباكات بين مجموعات صغيرة لجيش التحرير وكتائب الجيش الفرسي المدعومة بالطيران الحربي من جهة ولجان خاصة بالاستعلامات والفرق الإدارية المتخصصة، التي شنت حربا نفسية شرسة على الجزائريين بالمنطقة بهدف عزلهم عن الثورة المسلحة وفرض الخناق على تحركات أفراد جيش التحرير .

أ-أساليب الحرب النفسية لجهاز الاستعلامات الفرنسي

استفادت فرنسا الاستعمارية من تجربة هزيمتها في حربها بالهند الصينية، وقامت بتطبيق خطط جديدة في مجال الحرب النفسية، بهدف عزل الشعب الجزائري عن ثورته، وأصدرت تعليمات خاصة بأساليب هذه الحرب وتبني علاقات جيدة مع الجزائريين المسلمين والقيام بحملة دعائية حول الإصلاحات المزمع القيام بها لصالح السكان والتشكيك في هذه الحرب واعتبرت أن العمل العسكري وحده غير كاف، فلا بد من عمل نفسي، لذلك قامت بإنشاء مصلحة للعمل النفسي والاعلامي في شهر مارس 1956 على مستوى قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر[44].

و قامت الحكومة العامة في الجزائر بإنشاء مصالح الاستعلامات لمختلف أسلاك الأمن بالعمالات والدوائر ووحدات الدرك الفرنسي من أجل تتبع حركة الثورة، أما في مجال التأثير على السكان المسلمين قامت بإنشاء مصالح إدارية متخصصة، حيث تواجدت بمنطقة الظهرة العديد من هذه المخافر، التي لعبت دورا بارزا في التأثير على الجزائريين في التعاون مع السكان وعملائها في التقرب منهم وتوفير العمل لهم والمساهمة في الخدمات الاجتماعية والطبية ونشر أكاذيب دعائية ضد جبهة التحرير الوطني من خلال وحدة مكبر الصوت وإلقاء المناشير على الأرياف وسكان المدن وتبليغهم بالمستجدات، و لعبت هذه المصالح دورا خطيرا في التأثير على سكان المنطقة وحاولت توضيح القانون الإداري الخاص بالانتخابات

والإصلاحات المختلفة والرد على مناشير جبهة التحرير؛ وتطرقت هذه المصالح في منطقة مستغانم إلى أهمية المصالح الإدارية الخاصة SASو قللت من تأثير الأزمة الوزارية على السكان وقامت من جهة أخرى بتفنيد الدعاية المضادة، مقدمة معطيات عن الأوضاع في الجزائر، بأنها بخير وأن الجيش الفرنسي يحقق انتصارات على جيش التحرير، وهي في نظرنا مناورة الاستعلامات العامة الفرنسية، التي حاولت بث الفرقة بين السكان؛ بسبب تزايد صدى الثورة، إذ لا بعقل مجيء كتيبة عسكرية من المجاهدين بأسلحتها الثقيلة إلى منطقة الظهرة بدون إسناد شعبي [45].

وقامت مصالح الحرب النفسية الفرنسية باستخدام طرق جديدة، تمثلت في إنشاء فرق متخصصة تدعى " القوة الفرنسية "، و قللت من مخاوف السكان الأوربيين وكانت جرائم هذه الفرقة سوداء على نشاط جيش التحرير حسب اعتقاد التقارير الأمنية الفرنسية، ويرجع ذلك في نظرنا إلى أساليب البطش والتعذيب التي بات يتعرض لها المقبوض عليهم وترويع السكان المسلمين ومنع تسرب الأسلحة نحو الثوار من المغرب وتونس .و في نفس الوقت قامت هذه المصالح بمحاربة الدعاية وتوزيع استبيان على سكان المنطقة، ولنقل استجوابهم من خلال هذه الأجهزة؛ حيث طرحت عدة أسئلة على السكان الأوربيين المثقفين، الذين كانوا واعيين بما يدور عند الساسة الفرنسيين والقادة العسكريين وطالبوا بإجراءات صارمة، أما غير المثقفين المسلمين فقد نجحت الدعاية معهم لأنهم واثقين من السياسة الفرنسية من خلال أجوبتهم العمومية، وهي غير دقيقة حسب هذه المصالح لأنها لا تعكس نواياهم الحقيقية وقد تأثروا بحملة الدعاية الفرنسية، أما المثقفون المسلمون، فهم واعون بمختلف مشاكل المسألة الجزائرية وأحداثها وطرحوا وجهات نظر هم في حل هذه المسألة .و استخدمت أيضا هذه المصالح الحرب النفسية، من خلا وسائل الاعلام الحديثة مثل الراديو" التي أصبح لها تأثير بالغ على السكان من خلال إذاعة "صوت البلاد" والمنشورات والصور والتجمعات وإطلاق الإشاعات بهدف التقليل من دعاية جبهة التحرير وإعادة الأوضاع إلى نصابها، وبالتالي كان لنشأة هذه القوة الدعائية تأثير بالغ على السكان حسب هذا التقرير [4].

وفي سياق الحرب النفسية التي كانت تقوم بها هذه المصالح، وردت عدة شهادات لمجاهدين أحياء عايشوا هذه الحالات من تأثير وسائل الإعلام الخطيرة والارهاب النفسي على السكان المسلمين [47] من خلال تزوير بيانات جبهة التحرير والقضاء على خلايا جبهة التحرير من الشبه المدنيين التابعة للثورة بالدواوير من خلال وضع عملاء لها من الجزائريين ووضع قلاع حراسة منهم لحماية الدوار من نفاذ المجاهدين إليه والتبليغ بالمؤيدين للثورة بهذه المناطق، ذلك ما تناولته حصة تلفزيون النهار الجديد الجزائري في منتدى المجاهد بحضور بعض مجاهدي الولاية الرابعة، بتأكيدهم على الأساليب الفرنسية التي فرضت على الجزائريين بتكوين مجموعات قتالية مناوئة لجيش التحرير في مناطق عديدة من الجزائر لفصل الشعب الجزائري عن الثورة [48].

ب – جرائم فرنسا بالمنطقة انتقاما من نشاط جيش التحرير

حاولنا تتبع النضال البطولي لمجاهدي المنطقة، الذين قدموا تضحيات جسيمة، فمنهم من استشهد ومنهم ما زال حي يرزق، يتذكر جرائم فرنسا خلال عمليات التعذيب والاستنطاق ومحاصرة المناطق وإقامة المحتشدات العسكرية ومراكز تجميع السكان، وتجاوزت أجهزة الاستعلامات كل الأعراف الدولية في مجال حقوق الانسان والمساجين واعتبرتهم مجرمين بدون محاكمة، و ارتكب الجيش الفرنسي بالولاية الخامسة ومناطقها المختلفة، منها المنطقة الرابعة، جرائم حرب وانتهاك القانون الدولي، بمعنى "جريمة حرب هي المخالفة التي يعاقب عليها القانون الدولي والتي يتم ارتكابها خلال فترة العداء ضد أفراد معنيين أو ضد المجتمع الدولي ومنها عدة شروط [49]:

"- الانتهاكات المختلفة لقوانين وأعراف الحرب من جهة ولما تعارفت عليه الأمم المتحدة في حروبها ومن جهة ثانية فهي كذلك تشمل القتل – المعاملة السيئة لأسرى الحرب – ترحيل وتهجير المجتمع في المحتشدات ... ."

و في هذا الإطار، قامت الإدارة الاستعمارية بالبلدية المختلطة كساني، ببناء معتقل **الكربال** الذي أضحى يطلق علية معتقل الموت، بزج جميع المشتبه فيهم بهذا السجن الفظيع الذي كان مقبرة حقيقية لكل زواره وتعرض السجناء لأنواع عديدة من أساليب التعذيب، حيث حوّل فيما بعد إل متحف للمجاهد، يستنطق التاريخ من خلال ما تركه الاستعمار من آلات التعذيب ومقرات السجن والاعتقال، حيث يعتبر شهادة حية للأجيال الحالية والمقبلة عن فضائع وجرائم جيش الاحتلال الفرنسي بالمنطقة .

وقد عرفت منطقة الظهرة هذه الانتهاكات بهدف قمع حركة التمرد في نظر الجيش الفرنسي، فمن خلال تقارير الأجهزة الاستعلاماتية الفرنسية، تعترف بحدوث هذه التجاوزات عندما يتم القبض على المجاهدين وإقامة المحتشدات لسكان الأرياف ومراكز الاستنطاق لكل المشيبه فيهم والسجون المظلمة، بهدف منعهم من الاتصال بالثورة، التي تحدث عنها المجاهدون الذين بقوا فيها لمدة طويلة في ظروف غير إنسانية لا تطاق، حيث استشهد العديد من سكان المنطقة فيها، حيث يذكر الباحث " أحمد منقور" في دراسة له عن مواقف الرأي العام الفرنسي والمحللين السياسيين آنذاك :"يرى المحللون أن الجيش الفرنسي قد أقدم وتورط في الحرب في الجزائر بشكل مباشر منذ سنة 1956عندما تمت الموافقة على قانون السلطات الخاصة « Loi Cadre » التي منحت الدور الريادي للجيش الفرنسي على هذه المستويات [50]. حيث نعتقد من جهتنا، بأن فرنسا الاستعمارية وظفت جميع الإمكانات المتوفرة لديها، لإنهاء حركة الثورة بلجوئها إلى ترهيب السكان والانتقام منهم، لأنهم في نظرها متورطين مع المجاهدين ؛ لذلك استخدمت جميع الأساليب القمعية ضد السكان المدنيين، لأنه ببساطة لم تستطع مواجهة الأبطال المجاهدين الذين كانوا ينشدون الحرية والاستقلال.

لقد اكتشفت أجهزة الاستعلامات لمنطقة الظهرة، تقارير هامة باللغة العربية لدى المجاهدين المقبوض عليهم وقامت هذه المصالح بترجمتها ونشرها على شكل تقارير مرسلة للسلطات العليا في المنطقة الرابعة،

يروي من خلالها هؤلاء المجاهدين وقائع لعمليات القمع والتعذيب الممارسة ضد سكان المنطقة، و ورد أيضا في هذا التقرير ما يلي [51]:

"قيام جيش الاحتلال الفرنسي ببناء معتقلات ثأرية مشابهة لتلك المعتقلات التي أقيمت أيام الحرب العالمية الثانية ضد الفرنسيين، من خلال ما يجري حاليا أثناء الثورة التحريرية بإنشاء المحتشدات العسكرية لمجموعات سكانية وعزلها عن محيطها " ويضيف التقرير، بأنه تم إنشاء محتشد أو معتقل بالقرب من كل موقع عسكري ويوجد بهذه المعتقلات دار للتعذيب والاستنطاق للسكان المدنيين من خلال حملات المداهمة واستخدام وسائل تعذيب غير إنسانية مثل التعذيب بواسطة الكهرباء والحوض المائي واستخدام قارورات زجاجية والضغط على المستنطقين بأسئلة تطرح عليهم منها :

- هل رأيتم الفلاقة " – ما علاقتكم بهم إلخ...، فيطلق البعض ويزج بالأغلبية في معتقلات ومواقع الأشغال الشاقة موثقين بسلاسل للعمل في مزارع المعمرين وبغذاء ناقص يحفظ لهم البقاء على قيد الحياة فقط، كتوزيع خبزة واحدة على أربعة سجناء، وبالتالي كانت الأجهزة القمعية الفرنسية، تهدف من خلال هذه الأعمال، الانتقام من الشعب الجزائري بتحميله ؛دفع ثمن نشاط جيش التحرير في مناطقهم.

و من هذا المنطلق، تعرضت منطقة الظهرة لعمليات بشعة، غير إنسانية ضد السكان الجزائريين لسبب رئيسي، تمثل في نشاط جيش التحرير بمنطقتهم والانتقام منهم، لأنهم في نظر الإدارة الاستعمارية وأجهزتها الأمنية المختلفة متواطئون مع ثوار جيش التحرير الوطني، حيث شكلت معركة سيدي الزقاي نموذجا حيا لتضامن سكان المنطقة مع ثورتهم من خلال شهادة المصادر الفرنسية نفسها من مراسلات وكتابات صحفية سبق لنا الإشارة لبعضها .

خاتمة

شهدت منطقة الظهرة، اندلاع الثورة التحريرية بجدارة في الفاتح نوفمبر 1954و كانت ناجحة رغم قلة الإمكانات وتمركز عدد كبير من المعمرين، بسبب تواجد أحزاب وطنية نشيطة بالمنطقة ؛ مما أدى بشباب المنطقة إلى الالتحاق بالعمل الثوري، وتجلى لنا ذلك من خلال عشرات الشهادات لمجاهدي المنطقة، و أيضا كم هائل من الوثائق الأرشيفية المتواجدة بدور الأرشيف الفرنسية والجزائرية، التي سمحت لنا بالإطلاع على النشاط الثوري بالمنطقة .

وكذلك صحافة المعمرين وجريدة المجاهد لسان حال جبهة التحرير الوطني، قدمت لنا معلومات غنية بأحداث المنطقة ومعاركها الكبرى ما بين 1954 و1956، وبالتالي فمنطقة الظهرة الواقعة في تراب عمالة مستغانم سابقا ببلديتها المختلطة **كساني** وببلدياتها الكاملة الصلاحيات (**بوسكي وبون دي شلف**)و المناطق المجاورة لها بولاتي غليزان والشلف حاليا، كانت مع موعد فجر جديد من أجل ربح معركة الاستقلال ؛رغم الظروف الصعبة التي عايشها سكان المنطقة من خلال عمليات القتل المبرمج والاعتقالات التعسفية في معتقل **الكريال** والمحتشدات الخاصة بتجميع سكان المنطقة في مراكز أمنية شديدة الحراسة بهدف منع الجزائريين من الاتصال بالثورة وكبت الروح التحررية لدى الجزائريين .

الهوامش

1 - -Carlier (Omar),<Le 1er Novembre1954 a Oran , Action Symbolique , Histoire Périphérique et Marqueur, Histographyque > in « la Guerre d'Algérie, 1954-1962 Présente Par Ageron (Ch A), ed, Armand Colin, C .R.N.S, Paris,1996 ,pp.8 -9

2 – بلحميتي بن ذهيبة، مجاهد من منطقة سيدي علي ولاية مستغانم، كان عضوا بارزا في حركة الانتصار والمنظمة الخاصة بالمنطقة، رفيق بن عبد المالك رمضان، وكان من مفجري الثورة بالمنطقة، أنظر الحوار الذي أجرته معه مجلة الظهرة لولاية مستغانم، نشرية شهرية،

نوفمبر 2003، ص ص 10-11

3- محمد بليل : " اندلاع الثورة التحريرية بعمالة وهران في الفاتح نوفمبر 1954، التحديات والصعوبات " مجلة المصادر، دورية سداسية تصدر عن المركز الوطني للحركة الوطنية والثورة التحريرية، المنظمة الوطنية للمجاهدين الجزائر، العدد 24 السداسي الثاني 2011، صص 196-218

4 -Echo D'Oran , 02 /11/1954

5- بلحميتي بن ذهيبة، مصدر سابق ص ص10-11

6-Carlier (O), op cit,p p 12 -13

7 –Bernard(Michel), Histoire du Drame Algérien ,T1, 1954- 1956, ed Gremille , Genève , 1971, p 75.

8- Centre D'Archives D'Outre Mer, Archives Nationale d'Outre Mer (CAOM)ou(ANOM) , boite N° 81 F /878 Rapport sur la Situation de L'Ordre publique en Algérie N°42 .914 , Alger le 07/11/1954coréspondance du G.G de L'Algérie A Mr le Ministre de l'intérieure

9-CAOM,B, N° cab 10/54, gouvernement Général de L'Algérie : « les Evénements de l'Algérie ,discours et Allocution de Mr Roger Léonard A L'assemblée Algérienne, pp, 2-10 Novembre 1954, imprimé officielle, Alger.

10- ibid, discours du vanjour , pp11 -25

11 – بلحميتي بن ذهيبة، مصدر سابق، ص 11

12- Quotidien(L) Oran, 1er Novembre 2008

13- CAOM boite N°10cab/54 ,Préfecture d'Oran ; Rapport du SLNA N°736

14- العماد طلاس مصطفى والمقدم بسام العسلي، الثورة الجزائرية، دار الشورى بيروت، ط1، 1982، ص 86.

15- محمد بليل، حصة إذاعية بمحطة مستغانم، حول الذاكرة الوطنية، في حصة خمسون في اثنان وخمسون من إعداد الصحفي بوعبد الله مروان قدمت بتاريخ 2012/07/05 (الأرشيف الصوتي لإذاعة مستغانم) .

16 – Historia Magazine « L'A.L.N, Armée De Libération Nationale , une Rébellion ,Souscrira »,N°201,10Novembre,1971p 226-234.

17 -Carlier (O), op cit ,p 13

18- بلحميتي بن ذهيبة في مجلة الظهرة، مرجع سابق صص 10- 11

19-Bernard(M), op cit,p p , 105-106

20–العماد طلاس مصطفى والمقدم العسلي بسام، مرجع سابق، ص 228.

21 – محمد بليل، ندوة تاريخية بثانوية سيدي علي في 31 أكتوبر 1994 بحضور مجاهدين منهم الزروقي بومهدي وبلحميتي محمد

22- بلحميتي بن ذهيبة :"مجلة الظهرة "، مرجع سابق صص 10- 11

23- (CAOM) , boite N°10 cab /54 , gouvernement de L'Algérie d'après le document social , périodique N° 1 , L'Algérie en 1954

24-ibid , Rapport adressé par le commissaire divisionnaire d'Alger au Préfet d'Alger , le 07/11/1954

25 –CAOM, B ; N°//167 , la Rébellion a Mostaganem , des Rapports des renseignements Généraux

-Echo d'Oran , sept 1956**26**

27 – الغالي الغربي، فرنسا والثورة الجزائرية 1954 – 1958، دراسة في السياسات والممارسات، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، صص 389 – 390

28- CAOM , Série Continué , Département D'Oran , Boit N° //149, Etude sur la Rébellion à Mostaganem

29 – الغالي الغربي مرجع سابق، ص 392

30 - CAOM , Boite N°7G/1009,bref Exposé sur la Rébellion et son Evolution

31 – شهادة المجاهد بن عبدالله نعماوي خلال المعارك بالظهرة، حوار معه في بيته بتاريخ 2012/09/08

32- CAOM boite N° // 149 département d'Oran

33-CAOM ,B N°// 150 département d'Oran ,

34 -حصة إذاعية،حول الذاكرة التاريخية، خاصة بمعركة سيدي الزقاي بالقشاقشة بسيدي علي (كساني) بقيادة محمد الجبلي ليوم 2012/09/15 (الأرشيف الصوتي لإذاعة مستغانم)

35- شهادة نعماوي بن عبد الله (مصدر سابق) وأيضا الحاج كياس، منار الوالي الصالح في تاريخ سيدي علي، د.ت، ص90 (موجود بمكتبة متحف المجاهد ببلدية سيدي علي) .

36- المرجع نفسه، ص86

37- CAOM ,B,N°//150 rébellion à Mostaganem ;Rapport SLNA,C.V du Bouhassoun qui a héberger djebli

38-Echo d'Oran 16-17 , sept 1956

39-ibid

40- حوار مع المجاهد نعماوي، مصدر سابق

41 - حوار مع لخضر فيزاري في بيته،09 سبتمبر 2012.

42-Echo d'Oran,20 sept 1956

43 -محمد بليل:" محرقة غار الفراشيح بأولاد رياح من خلال المصادر الفرنسية " مجلة مصادر الجديدة، العدد السادس، صيف 2012، صص 53 -69

44 – الغالي الغربي، مرجع سابق، صص 158 – 159

45- Service d'archive de la Willaya de Mostaganem , boite N° 105 , Concernant les SAS , Leurs Objectives et Rôles dan la willaya 5

46-ibid

47-شهادات مجاهدي المنطقة أمثال نعماوي بن عبد الله، مصدر سابق

48- حصة تليفزيونية " منتدى المجاهد " بنهار تفي TV، يوم 2012/08/12، على الساعة 12سا و30 دقيقة، بتطرق الحصة للحرب النفسية الفرنسية المستخدمة ضد جيش التحرير الوطني .و انظر ايضا، الغربي الغالي، مرجع سابق، صص 165 – 185

49- علي نهار، من جرائم الجيش الفرنسي في بعض مناطق الولاية الخامسة خلال الثورة التحريرية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس 2010ص 6

50 – أحمد منغور، مواقف الرأي العام الفرنسي من الثورة الجزائرية 1954 – 1962، دار التنوير، الجزائر، 2008، ص154

51 – CAOM , Boite //149 , département d'Oran , des Rapport du FLN Sur la Torture et les Centres et Camps d'Hébergements

حملة الحقائب خلال الثورة الجزائرية
شبكة جانسون أنموذجا

د/ محمد الزين، جامعة سيدي بلعباس
مسعود بقادي، طالب دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس

ملخص البحث:

لم تحض الثورة الجزائرية بتأييد ومناصرة الدول الصديقة و الشقيقة لها فقط بل حظيت كذلك بتأييد ومؤازرة شخصيات عالمية مثقفة، ولئن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على عدالة القضية الجزائرية وأحقية الكفاح بنوعيه العسكري والسياسي، والملفت للنظر أن بعض مثقفي ومفكري فرنسا هم أنفسهم من أيّدها سواء بدافع إنساني أو إيديولوجي ومن أمثلة ذلك الفيلسوف و المفكر الفرنسي فرانسيس جانسون فما هي أسباب ومظاهر ونتائج تأييد هذه الشخصية الفرنسية للثورة الجزائرية؟ هذا ما يتناوله هذا المقال المتواضع .

summary

Algerian revolution did not incite the support and advocate for the friendly countries and sister have all but benediction as well as support and sustain intellectual world figures, and while this indicates that anything, it shows the justice of the cause Aldzairahoohakah fight the military of both types and political, and striking that some intellectuals and thinkers in France are Onnevshm of endorsed whether motivated by humanitarian or ideological examples include the French philosopher and thinker Francis Jansson what are the causes and manifestations and the results support this personal French Algerian revolution? this is addressed in this article is modest

إن المتتبع لفترة التواجد الفرنسي بالجزائر يلاحظ أنه لم تخل فترة من الفترات من مقاومة مسلحة أو انتفاضة شعبية أو نضال سياسي أو ثورة منظمة. ولقد قام الاحتلال الفرنسي بوضع مخططات للقضاء عليها مستعملا شتى أنواع البطش والقمع أدّت إلى إبادة قبائل بأكملها والى حرق مداشر بما فيها وبمن فيها، والاستحواذ على الأراضي وتوزيعها على المعمرين ...الى أن جاءت ثورة نوفمبر الخالدة سنة 1954 فكانت تتويجا لمقاومة الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي الغاشم، والثورة الجزائرية ثورة جماهيرية إذا ما قورنت بالثورات الأخرى (الفرنسية أو الروسية) ذلك أن قادة هذه الثورة كانوا في معظمهم من عناصر الفلاحين والعمال الذين أصبحوا وطنيين ثائرين على الظلم والاضطهاد تحت النظام الاستعماري[1].

إن عظمة الثورة الجزائرية (1954 -1962) لم تكتسب من تضحيات أبنائها، وبما حققته من تلاحم بين قادة الثورة والشعب فقط،بل كذلك بتعاطف ومؤازرة العديد من قادة الشعوب ومفكريها ومثقفيها،وما يهمنا في هذه المقال هو الفئة الفرنسية المثقفة التي ساهمت بكل ما تملك، في تدعيم

ومساندة الثورة الجزائرية، ممثلة في الأحزاب اليسارية التي كانت تؤمن بمناهضة الاستعمار ومساندة حركات التحرر، ويعتبر الحزب الشيوعي الفرنسي (parti communiste francais) أحد أحزاب تيار اليسار الفرنسي الذي هو عضو في الأممية العالمية الشيوعية إذ ((يجب على كل حزب منضوي تحت لواء الأممية الشيوعية الثالثة أن يكشف بدون شفقة أورحمة عن كل الانتهاكات التي تحدث في المستعمرات الامبريالية ومساندة حركات التحرر على ألا يقتصر ذلك على الجانب المعنوي وإنما ماديا أيضا والعمل على طرد الامبريالية من كل المستعمرات))[2] ورغم تعدد أحزاب اليسار الفرنسي منهم اليسار الاشتراكي،واليسار المتطرف،والحزب الاشتراكي الموحد[3] إلا أن مناضلي اليسار الثوري كانوا أكثر تعاطفا ومؤازرة للثورة الجزائرية فقد طالبوا بمناهضة حرب الجزائر وطالبوا باستقلالها وأدانوا واستنكروا القمع الفرنسي المسلط على الشعب الجزائري[4]ولكن لماذا هذا الموقف ؟؟

لقد أدرك الرأي العام الفرنسي عامة والنخبة المثقفة الفرنسية خاصة بأن الثورة الجزائرية ليست ضده بل هي ضد الاستعمار، وبأن المجاهدين ليسوا متمردين وسفاكي دماء كما كانت تنعتهم السلطات الاستعمارية، بل هم طلاب حق مغتصب ثاروا من أجل انتزاعه من يد المحتل[5]ولعل قوانين الأنديجينا الزجرية[6] ما فتئت تؤنب ضمير كل فرنسي حر يدرك يقينا بأن ما فعلته فرنسا الاستعمارية بالجزائريين هو وصمة عار في جبينها، فكيف لا يمكنه أن يقف في وجه هذا الجبروت والطغيان، ولم تكتف فرنسا الاستعمارية بالقوانين المسلطة على الإنسان الجزائري المغلوب على أمره آنذاك بل كانت تصدر قوانين أخرى للتمسك بالأرض الجزائرية وجعلها تابعة لها[7] ومن المؤسف حقا أن تكون الجزائر ولاية فرنسية، يعيش أبناؤها (حسب مفهوم الفئة المثقفة الفرنسية) أوضاعا لا إنسانية وعندما يثورون على هذه الأوضاع يواجهون بالقمع والتنكيل والاضطهاد وأي اضطهاد ؟؟

سياسة التعذيب في الجزائر:

إن عملية القمع والاضطهاد والتعذيب وكل الأعمال اللاإنسانية المقترفة في حق الشعب الجزائري ليست وليدة الثورة التحريرية (1954 -1962)بل ((إن قوات الاحتلال قامت منذ 15جويلية سنة1830 بعملية نهب وحرق وتقتيل للسكان العزل في العاصمة دون أي مبرر لذلك، سوى رغبة جيش الغزو في إشباع غرائزه الوحشية من جهة ورغبة قيادته في إتلاف الشواهد والأدلة التي تثبت اختلاساتها وسرقاتها في خضم الفوضى المصطنعة من جهة ثانية))[8] ذلك أن العمل على إراقة الدم الجزائري وإسالته بمبرر أوبدون مبرر هي ظاهرة التصقت بتاريخ الاستعمار الفرنسي بالجزائر[9] وأن القتل الجماعي و التعذيب و التشريد أصبحت أعمالا جد عادية للجندي الفرنسي ومجرد متعة و تسلية[10]

لقد أطلق على حرب الجزائر مصطلح "حفظ النظام"[11]وهل يعقل أن حفظ النظام هذا يستدعي تجنيد أكثر من نصف مليون جندي من المحاربين بالإضافة الى 150000 جندي آخر ينتظرون بالمغرب و 20000 في تونس[12]

إن ما قام به الجيش الفرنسي في الجزائر إبان فترة الثورة التحريرية (التي دامت مدة 92 شهرا و 5 أيام)في حق الشعب الجزائري، لا تسعه مجلدات، وها هو ذا الجنرال أوزاريس أو ما يسمى بسفاح الجزائر ما فتئ يردد أنه اقترف ما اقترفه، تنفيذا لأوامر الجمهورية الفرنسية وبتوجيهات من سلطاتها العليا، ويستطرد قائلا : العمل الذي قمت به في الجزائر كان من أجل بلادي معتقدا في ذلك أنني أحسن صنعا، وإن كنت لم أرد أن أقوم به، وذلك أن ما نقوم به ونحن نعتقد أننا نؤدي من خلاله واجبنا لا يمكن أن نندم عليه[13] لقد تطور مصطلح حفظ النظام التي كانت تستعمله السلطات الفرنسية في الجزائر الى ((تمرد وعصيان وبلبلة))ويتوجب على السلطات الفرنسية القضاء عليه (...)ففي 31 دسيمبر 1956 قدّم الحاكم العام للجزائر روبير لاكوست للبرلمان الفرنسي تقريرا عاما حول وضعية الحرب المتوحشة في الجزائر إذ صرّح قائلا بأن عدد القتلى في صفوف الجزائريين بلغ 23189 منهم حوالي 3876 اختفوا و البحث ما زال جاريا عنهم[14]

إنه وبفعل تطور واستمرارية الثورة التحريرية فقد سعت السلطات الاستعمارية الفرنسية إلى وضع حاجز بين الشعب وثورته، وذلك من خلال إقامة محتشدات ((وارتفع بذلك عدد المرحلين من 335الف في سبتمبر 1958 إلى أكثر من مليون في آفريل 1959 وقد استمر المستعمر في سياسة التهجير الى المحتشدات حتى وصلت الى مليون و 600 الف محتشد في ديسمبر 1960 ...وقد سماها المستعمرون بالقرى الجديدة))[15]

لقد عانى أبناء الريف الجزائري آلام الجوع والمرض وتعذيب المستعمر فقد جاء في كراسة ملاحظات الأسقف جاك بومون في 15/14 أكتوبر 1959 ما يلي ((رأيت أطفالا تتميز عظامهم تحت البشرة بوضوح،إنهم أطفال أنهكتهم الحمى والبرد فلم يكتمل نموهم ورافقتهم الشحوب والهزال وأكلتهم الأمراض (...)لقد رأيتهم يرتجفون من الحمى وهم راقدون على الأرض بدون غطاء[16] ولم يكن الوضع الصحي في السجون أحسن منه في الأرياف حتى قبل اندلاع الثورة التحريرية ((ففي سنة 1877 كان عدد المساجين في الجزائر 4611 منهم 148 امرأة وكانت أعمارهم تتراوح ما بين 16 – 60 سنة، وقد أصيبوا بأمراض متنوعة بلغت 51نوعا[17]

انطلاقا مما سبق ذكره(تعذيب –محتشدات- سجون –أمراض...الخ) استنكرت غالبية الفئة الفرنسية المثقفة ما تقوم به سلطات الاحتلال في الجزائر من أعمال بشعة في الجزائر، فسعى بعضها

جاهدا للحيلولة دون استمراره في الجزائر فقد وجّه كثير من الفرنسيين وبخاصة منهم المفكرون نداءات انتقدوا فيها السياسة الفرنسية في الجزائر (خاصة التعذيب)[18] ولا يفوتنا هنا أن نذكر بالهيئات والمنظمات الدولية التي كانت تدافع عن حقوق الانسان وتقرير مصير الشعوب ولعل من أبرزها هيئة الأمم المتحدة التي يرى ميثاقها بأن ((التعذيب هو أي عمل ينتج عنه ألم أو عذاب شديد جسديا كان أو عقليا يلحق عمدا بشخص ما))[19]

لقد تشكلت شبكات الدعم الفرنسي للثورة الجزائرية ابتداءا من عام 1957 واستمرت في نشاطها الى غاية 1962 وضمّت مجموعة من الفرنسيين وقفوا الى جانب القضية الجزائرية وقد كان تاريخ 2اكتوبر 1957 هو التاريخ الفعلي لتأسيس هذه الشبكات، وكانت الانطلاقة من منزل السيد فرانسيس جانسون مؤسس هذه الشبكة إلى جانب صديقه هنري كوريل[20]وكذلك اتيان بولو[21] وهنا حقّ لنا أن نتساءل من هو فرانسيس جانسون ؟وما طبيعة هذه الشبكة التي أنشأها ؟وما نوعية الخدمات التي ساعدت بها الثورة الجزائرية ؟وكيف واجهتها السلطات الفرنسية آنذاك ؟؟

فرانسيس جانسون :francis jeanson هو فرنسي المولد والجنسية[22] من مواليد يوليو/تموز سنة 1922 في مدينة بوردو، تحصل على شهادة الإجازة في الآداب ودبلوم الدراسات العليا في الفلسفة[23] وكانت بداية مساره الفكري و السياسي قبل اندلاع حرب الجزائر ...وفي سنة 1943 هرب من فرنسا ليدخل في كنف العمل السري واعتقل يوم اتمامه الواحد والعشرين ربيعا وارسل الى معتقل ميراندا دي إبرو أشهر المعتقلات في اسبانيا الفرانكاوية(نسبة للحاكم الاسباني فرانكو آنذاك)وعندما أطلق سراحه انخرط في صفوف المقاومة السرية الفرنسية بشمال إفريقيا وأصبح من الأنصار المتحمسين للديغولية[24]

زار جانسون الجزائر لأول مرة سنة 1943 عندما التحق بالقوات الفرنسية المرابطة بالجزائر، وفي سنة 1948 زار الجزائر للمرة الثانية، هذه الزيارة التي غيّرت مجرى حياته تجاه نظرته للسياسة الاستعمارية المطبقة في الجزائر ((إذ مكّنته من قياس مدى الاحتقار الذي كان يمارسه المعمرون الفرنسيون ضدّ الجزائريين، وكذا الظروف غير الإنسانية التي فرضها الاستعمار على الشعب الجزائري))[25] وأثناء زيارته للجزائر احتك بالمعمرين ورأى بأم عينيه الفوارق الاجتماعية الكبيرة جدا بينهم وبين الجزائريين فتساءل في قرارة نفسه أين العدالة والقيم الانسانية التي كانت وما تزال تتغنى بها فرنسا ؟؟وكم هاله الوضع الذي رآه وسمعه أثناء تجواله بمدينة سطيف إذ يقول ((ثم ذهبت الى سطيف حيث قمت بنزهة في المدينة رفقة رئيس الدائرة ولما وقفنا أمام، كومة من الجير قال لي: ها انظر هذا هو المكان[26] ثم أكمل حديثه بلهجة كبرياء لقد أراد العرب التمكن منا ولكننا نحن الذين تمكنا منهم في النهاية (...)ألف قتيل منهم مقابل قتيل واحد منا أجل يا سيدي ألف بواحد))[27]هذه العبارات هي التي أثّرت في فرانسيس جانسون أيما تأثير لأنها

صدرت من مسئول فرنسي عاش هذه الأحداث وكان شاهدا عليها فما هو رأي فرانسيس جانسون في ذلك؟ لقد أجاب بنبرة حادة لا تصدر إلا من فم رجل عميق التفكير بعيد النظر قائلا ((أصبح الأمر منذئذ بالنسبة لي مسألة محسومة ربما يكون هذا الرجل يظن أنني متواطئ معه ولقد كان في كل كلمة تفوّه بها يتحدث باسم فرنسا ولم يدر في خلده قط أن تصريحاته كانت يمكن أن تصدمني،، في ذلك اليوم بالذات تحولت مشاعر الاشمئزاز في أعماقي إلى قناعة تامة بضرورة التمرد))[28] وبذلك يعتبر فرانسيس جانسون من المثقفين الفرنسيين الأوائل الذين عارضوا سياسة بلاده العدوانية على الجزائر،، ولم يتفاجأ باندلاع الثورة الجزائرية في الفاتح من نوفمبر 1954 فقد ((كان يود الانتقال الى عين المكان لمقابلة قادة الثورة وهي في بدايتها إلا أن تفاقم مرض السل ألزمه البقاء بفرنسا فأرسل زوجته –كوليت- نيابة عنه والتي زارت الجزائر ثلاث مرّات في فيفري وماي وسبتمبر من عام 1955 [29]وعندما قطعت الثورة الجزائرية شوطا كبيرا في استمراريتها قرّر جانسون تجاوز مرحلة الكلام والنضال الفكري إلى المساهمة الفعالة في الثورة إلى جانب جبهة التحرير من أجل استقلال الجزائر فوضع بيته وسيارته تحت تصرف مناضلي جبهة التحرير الوطني ذلك((أن الرجال الحقيقيين يقاسون بحسب الثمن الذي يدفعونه من أجل وجودهم ومن أجل الدفاع عن الحقيقة))[30]

شبكة جانسون :

لقد كانت هناك مجموعة من الشبكات تدعم الحركات التحررية في العالم منها شبكة التروتسكيين التابعة للأممية الرابعة والدائرين في فلك ميشال رابتي المعروف باسم بابلو، وكذلك شبكة الدرب الشيوعي[31]غير أن شبكة جانسون هي التي أخذت شهرة كبيرة ومكانة متميزة في تدعيم جبهة التحرير الوطني، ولم يكن تشكيلها اعتباطيا رغم انه كان مجازفة، ذلك أن الأوضاع العامة في الجزائر هي التي أوحت الى جانسون بضرورة تقديم الدعم للجزائر. إذ أنه لما دعي جانسون عام 1950 الى الجزائر لإلقاء سلسلة من المحاضرات حول مسرح سارتر عرف البؤس والمكانة التي أبتلي بها الجزائريون حيث يقول عنها ((إن ما رأيته وسمعته خلال هذه الرحلة يشكل الصفحة الثانية من معلوماتي عن الجزائر))[32] وقبلها كان جانسون قد حذّر الشعب الفرنسي وقال ((إن فرنسا قد استوطنت أرضا بركانية، وهي مستعدة للإنفجار في أية لحظة))[33]

وعلى اعتبار أن جانسون كما أشرنا إليه سابقا،كان فيلسوفا قبل أن يكون مناضلا فإنه رأى ضرورة أن يجسد أفكاره ميدانيا،إذ انه لم يقتنع بالكتابة ((لأنها فعل ضروري لكنها لا تستوفي بمفردها كل صور الفعل ولا سيما أنها قد تعجز عن تحقيق ما تستطيعه الممارسة الميدانية))[34]

اشتغل جانسون سائق طاكسي فنقل المناضلين الجزائريين عبر أحياء باريس، ثم أخذ ينسج روابط الاتصال لتوفير أماكن إيوائهم،ثم جنّد بالإظافة الى زوجته "كوليت"جماعة أخرى أمثال إيتيان بولو أستاذ الفلسفة في ثانويةشابتال وزوجته بولا (...) ولكن نشاط هذه الشبكة كانت تنقصه الاحترافية[35] ويعتبر الثاني من شهر أكتوبر سنة1957 تاريخ تأسيس شبكة جانسون التي أصبحت مهيكلة حقا(...) ولقد تقرر حقا أن يتولى فرانسيس جانسون الإشراف على المسائل المرتبطة بتوفير الإيواء و السلامة للمناضلين، ولقد استحوذت تلكما المهمتان على 75% من وقته[36]، وهذه الشبكة السرية غير الشرعية التي ظهرت في فرنسا في الحقيقة تعتبر ((شكلا من أشكال التعبير السياسي والتمرد والعصيان على السلطة الحاكمة في فرنسا [37]

وبالنظر إلى أهمية ودور هذه الشبكة فإن أعمالا كثيرة كانت منوطة بها خاصة وأنها تنشط في فرنسا بالذات، ومن الأعمال الأساسية التي تقوم بها الشبكة هي جمع الاشتراكات والأموال والألبسة والأغطية والأدوية من العمال المهاجرين الجزائريين و الفرنسيين المؤيدين والمتعاطفين مع الثورة الجزائرية، كما تقوم هذه الشبكة السرية أيضا بتقديم يد العون لتهريب الفدائيين من فرنسا و تسليحهم حسب تصريح جانسون الذي يؤكد ذلك قائلا: (نعم فالأسلحة الممولة قد تكون مصوبة لطعن الجيش الفرنسي من الخلف))[38] ونتيجة لهذا المجهود الضخم التي كانت تقوم به الشبكة فإنه قد بلغ حجم المبالغ المحصلة سنة 1958، ما يملأ ستة أو ثمانية حقائب أي ما قيمته حوالي 400 مليون فرنك فرنسي شهريا،وقد اعترف جانسون نفسه بأن((هذه الأموال تصرف أحيانا في شراء الأسلحة التي قد تستعمل ضدّ عدد من الفرنسيين،وكان ذلك بدون شك وخطؤنا الجسيم في نظر الرأي العام الفرنسي))[39].

إن هذا الكم الهائل من الأموال كان يسبب مشكلة في نقلها إذ كيف يتم نقل هذا الكنز إلى ما وراء الحدود ؟ ((لاشك أن الدبلوماسية كانت نشطة في هذا المجال إذ ساهمت سفارة تونس في ذلك (...) وقد نقلت هذه الأموال إلى بنك سويسري مقابل عمولة، وسارت الأمور دون مزعجات))[40].

لقد ساهمت فدرالية جهة التحرير بفرنسا مساهمة كبيرة في التنسيق مع شبكة جانسون في سرية تامة رغم الاجراءات المكثفة التي كان يقوم بها البوليس الفرنسي في مراقبة ومطاردة أعضاء الشبكة بين الحين و الأخر في فرنسا ناهيك عن مطاردة المناضلين و المناضلات في الجزائر وما تعرضوا له من تعذيب.[41]

ولقد كانت الاتصالات تتم بصفة منظمة وسرية للغاية إذ قام "صالح الوانشي" الذي كان على رأس فدرالية جهة التحرير الوطني بفرنسا لمد المساعدة للجزائريين بصفة منتظمة، وفي صائفة 1957 تولى "عمر بوداود" رئاسة فدرالية جهة التحرير بفرنسا خلفا لصالح الوانشي الذي ألقي عليه القبض.[42]

إنه وبسبب هذا النشاط الدؤوب لأعضاء شبكة جانسون بما فيهم جانسون نفسه فإن ذلك لم يخف عن أعين مصالح مراقبة أمن التراب الوطني الفرنسي،، التي كانت تتعقبهم باستمرار،، وبما أن جانسون بما يقوم به ويصرّح به، فإنه لم يكترث بالاستفزازات البوليسية بل كان يعتبرها مجرد تسلية[43] وبعد ترقب، ومراقبة طويلة لأعضاء الشبكة، تم القبض على عدد هائل من أعضائها يوم 20 فيفري 1960 [44] وفي يوم 05 سبتمبر سنة 1960 شرعت المحكمة العسكرية في محاكمة أعضاء الشبكة،وبينما كانت المحكمة تجري كان جانسون في سويسرا إذ أنه قد أفلت من الشباك المنصوبة له من طرف قوات الأمن[45] وفي اليوم التالي للمحاكمة أصدر مجموعة من المثقفين الفرنسيين بيانهم الشهير الذي عرف باسم بيان 121 المتضمن إعلان حق المجندين في العصيان ضدّ حرب الجزائر، وهذا البيان يجسد رفض الفرنسيين لحرب الجزائر، وهو كذلك تعبير عن التضامن التام مع شبكة جانسون[46]وفي أول أكتوبر أصدرت المحكمة العسكرية أحكامها في حق شبكة جانسون[47]

أهمية كتابات جانسون في دعم الثورة التحريرية، :

إنه وعلاوة على مهام جمع الأموال وتنظيم عمليات عبور الحدود وتزوير الوثائق وتوفير المسكن ...فإن الدعم المعنوي للثورة الجزائرية جاء من طرف جانسون بواسطة مجموعة من كتاباته سواء مقالات في الجرائد أو كتب والتي وإن كانت قد أنارت فئات كثيرة من المجتمع الفرنسي حول حقيقة الحرب في الجزائر من جهة وحول السياسة الفرنسية الاستعمارية المطبقة من جهة ثانية فإنها ساهمت بشكل كبير في تطور الثورة الجزائرية من خلال الصحافة الفرنسية نفسها وكسب تأييد أكبر شريحة من المجتمع الفرنسي، ومن هذه الكتابات نذكر ما يلي :

- كتاب : **الجزائر الخارجة عن القانون** (L'Algerie hors la loi،) حيث صدر في ديسمبر سنة 1955 إذ اشترك في تأليفه مع زوجته كوليت جانسون " Colette jeanson "والذي أكّدا فيه شرعية المقاتلين الجزائريين في جبهة التحرير الوطني[48]وقد مارس هذا الكتاب تأثيرا هاما على المناضلين ضدّ الاستعمار، ويكاد جميع من انخرطوا في الشبكات المتضامنة مع الجزائر ينهلون منه[49] وكان لهذا الكتاب تأثير كبير على الوطنيين الجزائريين الذين كانوا يتحصلون عليه بشق الأنفس (...) ولقد ساهم قرار حظر ذلك الكتاب في تأكيد طابعه التحريضي، ثم إن قصة الكتاب تعكس أيضا تحوله تدريجيا الى مرجع لا يستغنى عنه[50] ويبدو أن هذا الكتاب وكأنه متسابق منفرد في هذه الكوكبة من الكتب المنددة بالتعذيب، وذلك لأن كتاب جانسون ليس إدانة للتعذيب فقط بل هو تنديد بالحرب الاستعمارية ذاتها فحين نشر هذا الكتاب في ديسمبر 1955 ظهر أن الأفكار التي يتظمنها سابقة لزمنها بالنظر الى مستوى تطور الذهنيات آنذاك[52] وقد (انتقد جانسون في كتابه هذا بشدة الاستعمار الفرنسي(...) وهو أول كتاب يتطرق

إلى الثورة الجزائرية وأبعادها السياسية إذ حاول أن يبين فيه مبادئ ثورة أول نوفمبر 1954 على الرغم من الانتقادات التي وجهت إليه فيما بعد).[53]

- ، **كتاب :حربنا :"notre guerre"**

ألفه في جوان 1960 و((الذي هو بمثابة إعلان عن مبادئ الشبكة، ولقد انكبّ على تأليفه في كنف السرية خلف ستائر إحدى الشقق بشارع، ديبون، دي، لوج "Rue dupont-des loges"، بالدائرة الباريسية السابعة، وكانت الشرطة حينذاك تبحث عنه في كل مكان(...) انتهى من تأليف الكتاب يوم 6جوان 1960 ونشره في 22 من الشهر نفسه (...) ولقد دحض جانسون بكل قوة في هذا الكتاب حملة العتاب والاستهجان التي بدأت تتدفق على أمواج الأثير وعلى صفحات الجرائد منذ أن كشف النقاب عن وجود شبكته[54]

نشرية " Verités pures" (حقائق نقية)

لقد تعددت كتابات جانسون وشملت في بداية مشواره مقالات فلسفية، خاصة وأنه كان متأثرا ومتعاونا مع الفيلسوف الفرنسي الشهير "جون بول سارتر "وأشهر المجلات التي كتب فيها جانسون هي مجلة الأزمنة الحديثة التي كان أسسها "سارتر "وقد تولى مهمة إدارتها جانسون بتكليف من سارتر في الفترة ما بين 1951 -1956،، فتفتقت عندئذ أفكاره، وكانت هذه المجلة ((سلاحه الفعّال الذي استعمله لإذاعة أفكاره وترويجها))[55] وعندما أينع فكره واكتملت الرؤيا لديه قرّر إنشاء نشرية يديرها هو نفسه ويصبح بذلك حرا طليقا، ومناضلا مغوارا، ديدنه في ذلك إظهار الحقيقة وكسب أكبر عدد من الفرنسيين المثقفين المؤيدين لتوجهاته، فكانت مجلة حقائق نقية "، vérités pures" هي سلاحه الجديد والتي ((أضحى تحريرها وتوزيعها وجها مبتكرا من أوجه نشاطات شبكة جانسون يغذي في أعماق ذاته قناعة راسخة بأن فرنسا هذه الأمة التي نوّمتها الحرب سوف تنبذ موقفها التسويفي المخجل حين تكتشف أن في رحمها رجالا ونساءا يرفضون الحرب الاستعمارية)).[56]

ويتواصل تدعيم جانسون وشبكته للحرب التحريرية الجزائرية بشتى الطرق والوسائل،ولقد صرّح في أكثر من موقف بأن ((الدعم لجبهة التحرير الوطني سيستمر طالما استمرّ الكفاح المسلح))[57] لقد لعبت نشرية "فيريتي بور" vérites pour" دورا هاما في البحث عن المعلومات وجمعها وتمحيصها بغرض توفير وتوزيع مادةاعلامية صحيحية،(...)ولم تكن تسمية هذه النشرية بهذه التسمية خيارا اعتباطيا[58]وفي سنة1959 تدعمت نشرية، فيريتي بور بانضمام شخصية هامة لها وزنها لدى المجتمع الفرنسي إنها شخصية الفيلسوف "جون بول سارتر " الذي ((أعلن على رؤوس الأشهاد بأنه يناهض الحرب الاستعمارية الدائرة رحاها في الجزائر(...)ولئن لم ينشط سارتر أبد كعضو في فريق حملة الحقائب، لأن مكانته **كشخصية عمومية تمنعه من ذلك فإنه عبّرلجانسون عن تضامنه الكامل معه))**[59].

خاتمة: وخلاصة القول أنه وبعد نضال مرير لشبكة جانسون الداعمة للثورة التحريرية فقد كان ثمة ضغط عليها ليس في فرنسا فقط من طرف اليمين المتطرف والتي انضوت تحت لوائه منظمة "اليد الحمراء"[60]التي لم تكن ضد الثورة الجزائرية، بل كانت ضدّ حكومة فرنسا نفسها ولم يسلم جانسون نفسه من تهديدات هذا التنظيم الارهابي[61]، وبعدما أخذت الجزائر استقلالها سنة1962 ظل جانسون متفائلا باقتراب موعد العفو عنه ولم يتحقق ذلك إلا في جوان 1966 .

إنه ومن خلال هذا العرض السريع، تتضح لنا جليا أن الفئات المثقفة الفرنسية أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن القية الجزائري باعتبارها قضية انسانية بالدرجة الأولى، وقد ساهم نضال هذه الفئات المثقفة المنتمية الى شبكة جانسون وغيرها في دفع عجلة الثورة الجزائرية وطرحها على مستوى المحافل الدولية ومن ذلك مطالبة المنظمة الآفروآسيوية في نوفمبر من عام 1955 بإدراج المشكلة الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة، وفي فيفري سنة1956 تم بالفعل تدويل القضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة واعلنت عن أملها في إيجاد حل سلمي للقضية الجزائرية، وقد صوّت ثلثي أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة بحق تقرير مصير الشعب الجزائري في ديسمبر من عام 1959 هذه الانتصارات للثورة الجزائرية لم تكن لتتحقق لولا ذلك التآزر والمساندة التي اكتسبتها الثورة الجزائرية من طرف هذه الشبكات الداعمة وعلى رأسها شبكة جانسون المعروفة بحملة الحقائب" les porteurs de valises "

الهوامش :

1-أبوالقاسم سعد الله،أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول،ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1981،ص،48

2- زبير رشيد، موقف أحزاب اليسار الفرنسية من القضية الجزائرية،، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية،، جامعة الشلف، عدد 09، 2013، ص،144،، نقلا عن :

René dany.la partie et le tout. Le P.C.F et la guerre franco-algerienne ;syllepse.1990.p.36

3 - زبير رشيد،، المقال السابق،، الصفحات، 145، 146، 147، 148

4- نفسه،، ص، 149

5 - أزغيدي محمد لحسن،، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956 -1962، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،، 1989، ص214

6- حول هذه القوانين التعسفية و أهميتها، ينظر، يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري و الحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1954،، ديوان المطبوعات الجامعية،، بن عكنون الجزائر، ص.ص،، 41، 42، 43

7-من أبرز القوانين، قانون 1834، مرورا بقانون 1848، اللذين بموجبهما اعتبرت السلطة الفرنسية الجزائر امتدادا طبيعيا لها، الى قانون 10 جانفي 1957 و 21 جوان من نفس السنة،، وانتهاءا بمرسوم 7 أوت 1957 لمزيد من المعلومات ينظر، عميراوي احميدة، فواصل من الفكر و التاريخ، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، 2002، صص،123، 124،

8-جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1994، ص،114

9- جمال قنان، المرجع السابق، ص،115

10 - عبد المجيد عمراني، جون بول سارتر و الثورة الجزائرية، مكتبة كنزة، باتنة، بدون تاريخ، ص،83

11-الجنرال أوزاريس، شهادتي حول التعذيب -مصالح خاصة-الجزائر 1957 -1959، ترجمة مصطفى فرحات، دار المعرفة،، باب الوادي، الجزائر، بدون تاريخ، ص،12

12- عبد المجيد عمراني، جون بول سارتر و الثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص،86

13- الجنرال أوزاريس، شهادتي حول التعذيب، مرجع سابق، ص،5، 6 حول الشهادات بعض الجنود الفرنسيين الذين شهدوا التعذيب، ***ينظر كذلك***،، مصطفى طلاس وبسام العسلي، الثورة الجزائرية، طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، 1984، ص،197،196 (مذكرات مظلي)**وكذلك:**

Boualem Nedjadi,Les tortionnaires,1830-1962 ,Editions ANEP ,Alger، ،

14- عبد المجيد عمراني، جون بول سارتر و الثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص،92،

15 - أزغيدي محمد لحسن، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956 -1962، مرجع سابق ص،181 نقلا عن :عثمان بن طاهر، كيف تحررت الجزائر، مجلة أول نوفمبر، عدد، 44، الجزائر، 1980 ص،55، ،

16 - أزغيدي محمد لحسن، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956 -1962، مرجع سابق ص،181 نقلا عن الجمهورية الجزائرية، وزارة الأخبار للحكومة المؤقتة، حرب الإبادة، مراكز التجمع، ديسمبر1960 ص،23

17-عميراوي احميدة، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر و التوزيع، عين اميلة 2005 ص،171 نقلا عن :

M,michon,Statistiques des prisons,imprimerie administrations de paul dupont, Paris ,1880,pp,106,123

18- عميراوي احميدة، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص،171

19 - المرجع نفسه، ص 168

20-كان نشطا سياسيا مصريا فرنسيا، ولد في 13 سبتمبر 1914 وهو أحد مؤسسي الحزب الشيوعي المصري، ساهم في دعم عدة حركات تحررية الى أن تم اغتياله في باريس يوم 14 ماي 1978،، ويكيبيديا الموسوعة الحرة يوم 10/22 /2014 الساعة 16 :36

21 -هو أستاذ الفلسفة وعضو بارز في الحزب الشيوعي الفرنسي،، يعتبر من المؤسسين الأوائل لشبكة جانسون، وأحد أعضائها البارزين الذين واجهوا سياسة بلادهم من أجل نصرة القضية الجزائرية مما اضطره الى مغادرة فرنسا و الاستقرار في المغرب الأقصى،، عاد الى بلده فرنسا وباشر نضاله في الشبكة فألقت السلطات الفرنسية القبض عليه يوم 18 /09 / 1960 وبقي في السجن دون محاكمة الى أن أطلق سراحه بعد وقف اطلاق النار يوم 19 /03 /1962 .ويكيبيديا الموسوعة الحرة يوم :22 /10 / 2014 .الساعة :42 :16

22 -جريدة صوت الأحرار الجزائرية العدد 4357، ليوم السبت 09 جوان 2009،

23 -صحيفة الوسط البحرينية، عدد 2531 ليوم الثلاثاء 11 أوت 2009

24 -ماري-بيار اولوا، فرانسيس جانسون الفيلسوف المناضل من مقاومة الاحتلال النازي لفرنسا الى مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار القصبة للنشر الجزائر 2009، ص21

25- جريدة صوت الأحرار الجزائرية العدد 4357 ،، مقال سابق

26- هي مجازر 8ماي 1945 التي ارتكبتها السلطات الاستعمارية الفرنسية في حق الشعب الجزائري بالشرق الجزائري، وراح ضحيتها أكثر من 45000 شهيد وآلاف المعتقلين، لتفاصيل أكثر **يراجع**، جمال قنان، المرجع السابق، ص.ص،203، الى207

27- ماري-بيار اولوا،فرانسيس جانسون الفيلسوف المناضل من مقاومة الاحتلال النازي لفرنسا الى مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر،، مرجع سابق، ص 95

28- ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 95

29 - نفسه، ص 96 .لقد لعبت كوليت جانسون دورا هاما في هذه الزيارة إذ أنها التقت مع عدد من المناضلين في صفوف الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري من بينهم علي بومنجل، و الدكتور فرانسيس ... وعند عودتها الى فرنسا أخبرت جانسون (**بأن ماحدث في ليلة عيد القديسين ليس مجرد حدث عارض**) أي ماحدث ليلة اول نوفمبر 1954 هو ثورة منظمة وليس عمل مجموعة من المتمردين كما كانت تدعي السلطات الفرنسية،، المرجع نفسه ص،97،

30- جريدة صوت الأحرار الجزائرية العدد 4357، ليوم السبت 09 جوان 2009،، هذه العبارة الأخيرة أخذناها من مقال له :إيمان غير المؤمن la foi d un incroyant، Van Riet Georges، Revue Philosophique de Louvain ، Année ، 1964، Volume ، 62 ، Numéro ، 73 ، pp. 184-186 ، ،

31-، ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 132

32-، هيرفي هامون و باتريك روتمان، حملة الحقائب المقاومة داخل فرنسا للحرب الاستعمارية في الجزائر 1954 -1962، ترجمة حسين العودات و نور الدين سكوتي، ط2، دار الكلمة للنشر بيروت، لبنان، 1983، ص 24

33-، عبد المجيد عمراني، جون بول سارتر و الثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص 59

34-، ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، صص 113، 114

35-، المرجع نفسه،، ص 117

36 - المرجع السابق، صص 119،118

37 - عبد المجيد عمراني، جون بول سارتر و الثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص 62

38-، المرجع السابق، 63 نقلا عن :

Francis, jenson: la Révolution Algériennes problèmes et perspectives (millons,feltrinelli,1962)p,19

39- ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 120

40-، هيرفي هامون و باتريك روتمان، حملة الحقائب المقاومة داخل فرنسا للحرب الاستعمارية في الجزائر 1954 -1962، مرجع سابق، ص77

41-، من أبرز الشهادات حول التعذيب ما صرّحت به المجاهدة لويزات إيغيل أحريز التي نددت به وقد سلط عليها طيلة ثلاثة أشهر سنة1957 في مقر قيادة الفرقة العاشرة لقوات المظليين التابعة للجنرال (ماسو) وقد أشادت بالطبيب العسكري الفرنسي الذي أنقذها من موت كاد يكون محققا على أيدي جلاديها، لتفاصيل أكثر ينظر، ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 9، **ينظر كذلك:**

Boualem Nedjadi,Les tortionnaires,1830-1962 ,Editions ANEP ,Alger,p,p 229,238

، وكذلك المقال الهام للصحفية مسعودة بوطلعة في جريدة الخبر الجزائرية ليوم الثلاثاء 20مارس 2012

42- ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 116، 117

43-، ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص158

44-، نفسه، ص 161

45 - هيرفي هامون و باتريك روتمان، حملة الحقائب المقاومة داخل فرنسا للحرب الاستعمارية في الجزائر 1954 -1962، مرجع سابق، ص 291،

46- ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 208، 209 .وقد جاء في نص البيان "إننا نقدر ونثمن موقف أولائك الذين يرفضون حمل السلاح ضدّ الشعب الجزائري، كما أننا نقدر ونثمن موقف الفرنسيين الذين يعتقدون أن من حقهم توفير الدعم و الحماية، باسم الشعب الفرنسي للجزائريين المقهورين " المرجع السابق نقلا عن :

((déclaration des 121intelectuels)), reproduite in vérités pures ,N18 ,26 septembre,1960

47- كانت هذه الأحكام كالتالي :تبرئة ذمة ثمانية فرنسيين وجزائري واحد، الحكم بالسجن في حق ثلاثة أعضاء من الشبكة مدتها على التوالي:خمس سنوات، ثلاث سنوات ثمانية شهور،، اما العقوبات القصوى فصدرت في حق 14 متهما :من بينهم حداد حمادة و هيلين كوينا و جون كلود بوبير و سيسيل ماريون وجاك فينيي ودومينيك داربوا وفرانسيس جانسون، مدة العقوبة عشر سنوات سجنا وغرامة مالية قيمتها :70000 فرنك جديد بالإظافة الى حظر الإقامة لمدة خمس سنوات، وحرمانهم من الحقوق المدنية، لتفاصيل أكثر ينظر : ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 217 وما بعدها

48-، صحيفة الوسط البحرينية، عدد 2531 ليوم الثلاثاء 11 أوت 2009

49- هيرفي هامون و باتريك روتمان، حملة الحقائب المقاومة داخل فرنسا للحرب الاستعمارية في الجزائر 1954 -1962،، مرجع سابق، ص 26

50 - ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص110

51، - المرجع نفسه، ص 111

52- عبد المجيد عمراني، جون بول سارتر و الثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص 60

53 -ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 166

54- ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 27

55- المرجع نفسه، ص 131

56 - هيرفي هامون و باتريك روتمان، حملة الحقائب المقاومة داخل فرنسا للحرب الاستعمارية في الجزائر 1954 -1962،، مرجع سابق، ص 330

57- ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، صص 132،، 133، جاء في العدد الأول لهذه النشرية الذي صدر يوم 20 سبتمبر سنة 1958 مايلي:"كل الناس يحبون الحقيقة وكلهم يودون الاطلاع عليها، ولكن ما جدوى معرفتها إن كنا لا نفعل بها شيئا أو اذا كانت تجلياتها تدهشنا وتلقينا في شبه غيبوبة أو تدفعنا إلى التسليم بالحتمية والجبرية (...) فيربتي بور أجل إنها التعريف بالحقيقة من أجلنا ومن أجل مستقبلنا ومن أجل النضال الذي ينبغي أن نخوضه من الآن ضد جميع القوى التي ما فتئت تهدم كل ما هو إنساني " لتفاصيل أكثر ينظر، ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 133 وما بعدها،

58 - ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص .ص 141، 142، 143

59 - لمعرفة أشياء دقيقة ومفصلة حول هذه المنظمة ينظر:

Jean Jacques Susin : Histoire de L'O.A.S ,T1, editions de château,Geneve,1963

60 - ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 293 .قامت هذه المنظمة بتنفيذ الاغتيالات والاعتداءات فوق التراب الأوربي ضدّ بعض المناضلين المطالبين باستقلال الجزائر، وقد وقعت أول عملية اغتيال من طرف هذا التنظيم في 28 سبتمبر1956 في مدينة هامبورغ (ألمانيا) في محل تابع للسيد " itto schlutter" أحد الذين كانوا يزودون جبهة التحرير الوطني بالأسلحة، وفي 5 نوفمبر 1958 تعرض محمد آيت أحسن، مندوب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لنيران مسدس في قلب مدينة بون bonn (ألمانيا)، لتفاصيل أكثر ينظر: ماري-بيار اولوا،، المرجع السابق، ص 293 .

واقع مؤسسات العبادة الإسلامية وكوادرها

في مدينة تلمسان و أحوازها 1917-1952

أوسليم عبد الوهاب، طالب دكتوراه علوم، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

بإشراف د/حمدادو بن عمر، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

Abstract :

The archives of the Islamic Worship of Tlemcen and its environs, 1917-1952, showed the extent of the obstacles and problems that some mosques knew from the lack of water.

It also showed the contradictions and differences between the employees of this sector, and then in the confrontation of new intellectual currents, especially the ideas of the Association of Muslim Scholars

Key words:

Mufti Bin Dahman Abdul Salam - the Great Mosque in Tlemcen - Mosque Sabdou - Muezzin – coran reciter-

مقدمة:

لا شك أن أرشيف مؤسسات العبادة الإسلامية، وموظفيها، من المسائل المهمة، في تاريخ الشعوب و الأمم، لأنها ترتبط بحياة هذه الشعوب و بعقائدها ، و تتشابك هذه العلاقة ، وتتعقّد، إذا ما ارتبطت بمسؤولية الموظفين، و المسؤولين عنها، غير أنّها سوف تزداد أهمية، و إثارة، إذا ما كان الأمر متعلقا بهذه الشؤون، و بموظفيها، في مدينة كتلمسان، أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، و خاصة في النصف الأول من القرن العشرين، و منه تكمن أهمية هذا الموضوع، ألا و هو واقع مؤسسات العبادة الإسلامية، و كوادرها في مدينة تلمسان و أحوازها، خلال النصف الأوّل من القرن العشرين- 1917-1952.

و للإجابة على واقع مؤسسات العبادة الإسلامية، و موظفيها خلال تلك الفترة، كان من الواجب طرح الإشكالية التالية:

1- كيف كان واقع المؤسسات الدينية الإسلامية بتلمسان و أحوازها؟

2- ما هي العراقيل التي كانت تعيق تلك المؤسسات؟و ما هي المشاكل التي كان يتعرّض لها موظفوها ؟

3- ما هي نوعية العلاقة، التي كانت تربط موظفي المؤسسات الدينية ببعضهم البعض، وبالإدارة الاستعمارية المحلية؟

4- هل استطاعت الإدارة الاستعمارية اختراق هذه المؤسسات الدينية؟وفى حالة اختراقها كيف استطاعت توظيفها لخدمة أجندة هذه الأخيرة؟

5- ما هو الدور الذي لعبته الجمعيات الثقافية الإسلامية لاختراق المؤسسات الدينية والسيطرة عليها؟

أمكننا تصنيف أرشيف شؤون العبادة الإسلامية، وكوادرها ما بين 1917 و 1952، إلى أربعة أصناف موضوعاتية رئيسة، وهي كالآتي:

أ- مطالب بتهيئة المساجد وترميمها أو باستعادة المؤسسات الدينية

1- مطالب أعيان و سكّان "الرمشي" باستعادة مسجد بالمدينة 1917-1922

تقدّم أعيان، و سكّان مدينة "الرمشي"، بعريضة إلى الإدارة الفرنسية، ممثلة في والي عمالة وهران، باستعادة نشاط مسجد، و الصلاة فيه، بعدما بقي مغلقا، مدة طويلة، بل حُول نشاطه، إلى غير النشاط الديني الإسلامي. حيث سجلّت العريضة في جانب منها " إن هذا الصرح، الذي تم بناؤه قبل أكثر من إثني عشرة سنة ، و بعد بقائه مغلقا لمدة طويلة، وجد تحويلا آخر، غير ذلك، الذي تم تحديده منذ البداية.بالفعل فإن البلدية، قد فتحت أبوابه، لأبنائنا من أجل تعليمهم (...) وبما أن الدين مرتبط بحياتنا الخاصة، و هذا أمر لا نقاش فيه، فإننا لا نستطيع، تلبية الفرائض التي يأمرنا بها القرآن، بسبب عدم توفر المسجد"[1].

أوضح رسالة المتصرف الإداري بـ الرمشي، لوالي عمالة وهران، كرونولوجيا هذا المسجد، الذي بقي حتى سنة 1919شاغرا، لكن تم تحويلة في الوقت ذاته، إلى مبنى للراهب Presbytère، فقد إستأجره الراهب "كاريل"Carrel لبعض الوقت، في أوت 1920، قبل أن يوصي بإعادته، إلى أصحابه، أمّا الإدارة الاستعمارية، فقد رأت تهيئة هذا المبنى ، إلى أقسام للأهالي، و مسكن للمعلم[2].

لم تكن الإدارة الاستعمارية، راغبة في إعادة المسجد ، إلى نشاطه الأول، و إلا لفعلت، فقد كانت تتحجج دوما، بشغور المبنى، تم بتحويله إلى مبنى الراهب، فتحويله إلى مدرسة بمجموعة أقسام، وفي الأخير، ربطت تسليم المسجد إلى سكان المدينة، بشرط هو "لا يمكن للمسجد أن يُعاد إلى تعيينه الأول، إلا بعد بناء مجموعة مدرسية، حيث أن مبنى الراهب حاليا، يخضع للدراسة"[3].

لا شك أن مثال مسجد "الرمشي"، دليل لا غبار عليه، لسياسة تعقب دور العبادة الإسلامية، وإعاقة نشاطها، من طرف الإدارة الاستعمارية، رغم أن هذه الأخيرة، قد تنفي مسؤوليتها، عن أي ترميم ، أو تهيئة، تحت طائل، أن المساجد للمسلمين، و هم أحرار في إدارتها.

2- مطلب ترميم مسجد أولاد الحاج، دوار الشولي، البلدية المختلطة لـ سبدو 1929-1930

توصلت الإدارة الاستعمارية، ممثلة بالحكومة العامة برسالة من سكان المنطقة، قامت على الفور بتبليغها إلى والي عمالة وهران، بتاريخ 18 نوفمبر 1929، و كان سكان المنطقة، قد وضحوا في رسالتهم، "حالة الخراب لمسجدهم، و الذين يتمنون رؤيته مرمما، و التماس، رفع المنحة، التي يستفيد منها الأمام الملحق بهذا الصرح"[4].

لكن الإدارة الاستعمارية، و سعيا منها، لرفع كل لبس، أو إحراج، طالبت بفحص وضعية هذا المسجد، فإن تأكد خضوعه للأملاك العامة Domaines، فإن قانون فصل الدين عن الدولة، يقرر أعمال صيانة فقط، و يستثني الأعمال الجديدة، إلا بعرض أولي تقريبي Devis، يُبين النتائج الناتجة عنه[5].أما إذا كان ملكية للبلدية، فإنه سوف يستفيد من دعم، من أجل أشغال إصلاح عادية، يتم اقتطاعها، من الصندوق المشترك للدواوير[6].

و عن مسألة رفع منحة إمام المسجد المذكور، فقد طلبت رسالة الحكومة العامة، من والي عمالة وهران، رأيه، ومشورته، حول مآل ، المطلب الثاني لـ دوار الشولي[7].و حتى يتم حسم الأمر بشكل جدي، تم تكليف المهندس "بولي" Pellet، صاحب مكتب للهندسة، بشارع سيباستبول بوهران، بتتبع وضعية المسجد، حيث سجل في جانب من تقريره، المؤرخ في 04 ديسمبر 1929 "كما تشير إليه مصلحة القناطر و الطرق من قبل، (فإن المسجد)، ليس على عاتق الميزانية الاستثنائية، إنه لا يظهر ضمن كشف البناءات العامة، التي زودتنا بها الحكومة العامة، فالمبنى إذن، طابعه بلدي، و يجب اقتطاع المبلغ الضروري للإصلاحات، من الصندوق المشترك للدواوير[8].

توصل تقرير المهندس"بولي" أيضا ، إلى سبب عدم استفادة مسجد أولاد الحاج، من الميزانية الاستثنائية للجزائرBudget spécial de L'Algérie، و المتمثل أساسا، في أن المسجد، لم يكن ضمن لائحة البناءات الدينية، كما أكدت ذلك مصلحة القناطر و الطرقات، و أنه لم يستفد من أي أعمال صيانة، رغم قدم هذا الصرح[9].بينت عملية البحث التي قام بها المهندس "بولي"، في أرشيف مصلحة القناطر و الطرقات، أن هذه الأخيرة، كانت قد تلقت عريضة من سكان دوار "الشولي"، مؤرخة بـ 16 أكتوبر 1900، تطالب بدعم من الدولة، من أجل ترميم المسجد[10].

و يظهر أن هذه العريضة، لم تنل من الدعم إلا 2000 فرنكا، من الحكومة العامة آنذاك، بتاريخ 22 فبراير 1901، و بقي ذلك المسجد، يصارع أنياب الطبيعة و الزمن، و في حالة إهمال، من طرف مصالح الإدارة الاستعمارية، المخولة بذلك، خاصة تلك الراعية لشؤون الدين الإسلامي[11]. اقترح مهندس مصلحة القناطر والطرقات، بعد مضي ربع قرن، على الترميم الأول، كشفا ماليا يقدر بـ 3000 فرنكا، لترميم

المسجد، خاصة قاعة الصلاة، و التي كانت تستغل أيضا كمدرسة قرآنية ، على أن تكون حصة الإدارة الاستعمارية منها، 2000 فرنكا، أما البقية ، أي 1000 فرنكا، فستكون على عاتق مريدي المسجد، نصفها نقدا، و نصفها الآخر، على شكل مواد بناء، من رمل، و حجارة صغيرة، و جير [12].

عاد المهندس "بولي"، في رسالته الموجهة ، إلى والي عمالة وهران، إلى توضيح، سبب عدم نيل هذا المسجد، لأي دعم من أجل ترميمه، موجها الاتهام المباشر للدولة الفرنسية ، التي كانت تعيد نقل (كشوف)المباني، التي كانت محل دعم، من سنة إلى أخرى، لهذا كان من المنطقي، أن يتواجد اسم مسجد أولاد الحاج بدوار الشولي ، في الميزانية السابقة لسنة 1929.

رفضت الإدارة الاستعمارية في الأخير، تقديم أي دعم، أو منحة مالية، لترميم هذا المسجد، مادام هذا الأخير، خارجا عن تصنيف الأملاك العامة، وقد كانت هذه حجة الإدارة، و مخرجها المشرف، حتى تنفض غبار المسؤولية عن أيديها، ووجهت اهتمامها، صوب مريدي المسجد، وعماره، مانحة إياهم، الضوء الأخضر، من أجل جمع الأموال الضرورية، لتنفيذ الأشغال المرتقبة، و لأن الإدارة الاستعمارية، ممثلة بالحكومة العامة، كان يستهويها الشكل، أكثر من المضمون، فقد دعت السلطات المحلية للسهر، على ألا يتم تحويل المبالغ التي تم جمعها، عن مرادها [13].

أما فيما يخص، رفع منحة إمام المسجد، و التي مثلت، مسألة ثانوية للإدارة الاستعمارية، المحلية، و المركزية منها، فإن ردود الإدارة على هذا المطلب، كانت مراوغة جدا، فقد تضمنت رسالة الحكومة العامة، إلى والي عمالة وهران، جملة مفادها " إن هذه المسألة، ستكون فيما بعد، موضع فحص" [14].

3- مطلب تزويد مبنى مقام سيدي عبد القادر بـ سيدي بومدين بالكهرباء 1946

طالب السيد "مسلي الغوتي"، عبر رسالته الموجهة إلى الحكومة العامة، والمؤرخة في 14 جانفي 1946، بالإفراج عن الهبة المالية، التي أوصت بها السيدة، "بدرة بنت دحو ولد العيد"، لتهيئة مقام سيدي عبد القادر، حيث أوضحت رسالته، أن السيدة المذكورة، "تبعا لعقد حرر، يوم 19 جوان 1934، أمام السيد : دوفيزين لاري Devesinne larue، موثق بالجزائر، فإن السيدة بنت دحو ولد العيد ، مالكة و صاحبة ايرادات، ساكنة بالجزائر، قد وهبت للحكومة العامة بالجزائر، مبلغ مائة ألف فرنك (...)و الذي سوف يذهب ريعه، لصيانة مقام سيدي عبد القادر"[15].

و بعد أكثر بقليل من الشهر، تم تحويل فحوى الرسالة، إلى نائب والي العمالة بـ تلمسان، هذا الأخير، الذي وضح لوالي العمالة، صحة ما جاء في رسالة السيد:"مسلي"، لكنه أكد، أن السيد: الحاكم العام للجزائر، و

بقرار مؤرخ في 22 نوفمبر 1935، قد رفض انتقال هذه الهبة، وقد تم إعلام السيد: "مسلي الغوتي" بهذا القرار، عدة مرات، خاصة لآخر مرة، بتاريخ 28 ماي 1945[16].

و بهذا الشكل، رُفض تمويل هذا المشروع التهيئ، لكن هل تم الإفراج عن الهبة فيما بعد؟الحقيقة أن الأرشيف لا يجيبنا عن هذا السؤال.

4- تزويد مسجد سبدو بالمياه الصالحة للوضوء 1950

تقدم جمع من أعيان منطقة سبدو، و أحوازها، برسالة شكوى إلى نائب والي عمالة تلمسان، وقع عليها أكثر من عشرين شخصا، بعد انقطاع المياه عن المسجد لشهرين كاملين لأن "الأنبوب القديم، الذي كان يقوم بملء حوض الوضوء، تم قطعه، من طرف مصلحة البلدية للمياه، في انتظار أعمال تجهيز المياه، من موارد جديدة، لكن منذ ذلك الوقت، لم يتم تنفيذ أية أشغال"[17].وقد استعرضت الرسالة الشكوى، مأسوية الوضع داخل المسجد، بعد نفاذ مياه الحوض، حيث أصبح المصلون، يضطرون إلى الذهاب إلى الحمامات العربية للوضوء، وبالتالي ممارسة صلواتهم المتأخرة[18].

ويبدو أن حلول شهر رمضان الكريم، قد عجل بهذه الشكوى، نظرا لتزايد طقوس العبادة خلال هذا الشهر، من صلوات خمس، إلى صلاة التراويح، و التهجّد، و قد عبرت رسالة الشكوى، عن هذه الرغبة قائلة :" نحن نرفع نداءنا إلى كرمكم، حتى ترغب في تجهيزنا بالماء، في أقرب الآجال، هذا الماء الضروري لعبادتنا" [19].

ساهمت عدة عوامل، في تقبل الإدارة الاستعمارية، و بسرعة لتجهيز مسجد سبدو بالمياه، أولها، رسالة "حجاج أول أحمد"، نائب المفتي بـ تلمسان ، المؤرخة بـ 02 مارس 1950، وثانيهما، رسالة إمام المسجد، الموجهة إلى نائب والي العمالة، و المؤرخة في 11 مارس 1950، و التي وجدت سندها، لدى نائب المفتي، حيث شرحت هذه الأخيرة، كيف أن المتصرف الإداري لـ سبدو، أخبر إمام المسجد، بضرورة توصيل قناة جديدة، و أنه لن يستطيع تحت مبادرته التعهد بهذه الأشغال[20]. تم تحويل شكوى الأمام، من طرف المتصرف الإداري لـ سبدو، نحو نائب والي العمالة، و معلقا حولها، فقد أكد، أن مسجد سبدو، تابع في تهيئته لميزانية العمالة، و أن إنشاء توصيل جديد(للماء)، أصبح مفروضا[21].

ب- المطالب المهنية و الشخصية لموظفي شؤون العبادة الإسلامية 1931-1946

تراوحت مطالب موظفي شؤون العبادة الإسلامية Le Culte Musulman، من المطالبة برفع أجورهم الشهرية ، و منحهم التعويضية، إلى تسوية العالق من الأجور، و تسهيل الاندماج الوظيفي، داخل هذا القطاع، بعد انتهاء فترة الجندية.

1-عريضة موظفي شؤون العبادة الإسلامية بـ تلمسان 10 مارس 1931

تقدم مرشدو ، و أعوان العبادة الإسلامية Ministres et Agents du Culte Musulman، بعريضة موقعة، من طرف ثلاثة و ثلاثين، من الأئمة، و المفتين، والمؤذنين والحزّابة.[22] للمطالبة برفع أجورهم الشهرية، تبعا لمقال صادر بجريدة "النجاح"، في 17 ماي 1930، يؤكد هذا الأمر، إذ تحدثت الجريدة، عن تسبيق يقدر بـ 300 فرنكا، للمفتين، والأئمة، و200 فرنكا للمؤذنين، و الحزّابة، في انتظار التحديد النهائي لرواتبهم[23].

خاصة، و أنهم رأوا، أن نظراءهم من مدن أخرى، قد صرفت لهم هذه المنح، و كان هذا هو السبب المباشر، في مخاطبة الإدارة الاستعمارية، و المطالبة بالحقوق المتأخرة، حيث جاء في جانب من الرسالة :"لأننا لم نرى أي شيء آت، في حين أن زملاءنا، من بقية المراكز، كانوا قد تلقوا (منحهم) " [24].

أما الملاحظة التي يمكن الإشارة إليها، أنّ نهاية الرسالة، قد حفلت، بالدعوة لنائب العمالة، بطول العمر، و الارتفاع عن الخطايا، و الثقة في شخصه، في القدرة على الإقناع، و انتزاع حقوق هذه الفئة !.

2- المطالبة بصب الراتب الشهري لإمام مسجد "الثلاثاء" دوار بلدية عزايل-البلدية المختلطة لـ سبدو 17 فبراير 1936-1فبراير 1937

حفلت رسالة إمام مسجد "الثلاثاء"، السيد: "عميري عبد القادر ولد أحمد"، إلى الإدارة الاستعمارية المحلية، بمطلب واحد، هو صب الراتب الشهري لهذا الأخير، الذي أصبح يعيش ظروفا اجتماعية صعبة، بعدما لم يلتق راتبه لعدة أشهر، يُلح فيه على المتصرف الإداري لبلدية سبدو، أن يتم تعويضه شهريا "و بهذا الشكل، لن يكون هناك أي تأخير في الدفع، و لن أكون مجبرا على استدانة المال من الغير، من أجل إطعام أطفالي[26].

كان إمام المسجد (حسب ما تواجد في الأرشيف)، قد أرسل برسالتين، الأولى بتاريخ 17 فبراير1936، و الثانية بتاريخ 01 فبراير 1937، يشتكي فيها عدم انتظام صب الراتب الشهري، ففي الرسالة الأولى، اشتكى عدم تلقيه راتبه لشهر نوفمبر، ديسمبر، و جانفي، و في الرسالة الثانية، اشتكى عدم تلقيه راتبه ، منذ جانفي 1936، أي ما يقارب عاما كاملا [27].أما الإدارة الاستعمارية ، فقد كانت استجابتها لمطالب هذا

الإمام، نسبية جدا، فقد كان كل مرة، يشتكي من انقطاع صب الراتب، و يطالب بصبه بشكل شهري، و ليس بحصة جزافية سنوية، و هذا منذ تسميته في المنصب، شهر أوت 1935، لكن الإدارة الاستعمارية في سبدو، و من جانبها، فقد فضلت، صب التعويضات السنوية للوظيفة، المقدرة بـ 1000 فرنكا، على شكل حوالة إغاثية Mandat de secours، كون أن مطلب هذا(الأخير) كان مبررا بالنتيجة [28].

3- إدماج الموظف "باغلي الحاج" برتبة حزاب في وظيفة بالجامع الأعظم بـ تلمسان 15 نوفمبر 1945

تلقت الإدارة الاستعمارية المحلية، في شخص نائب والي العمالة، بتاريخ 15 نوفمبر 1945، رسالتين خطيتين، نابعتين، المعني بالأمر، السيد: "باغلي الحاج ولد الداودي"، و عن السيد:"بن دحمان عبد السلام"، مفتي تلمسان، و قد شرحت الرسالة الأولى، كيف أن السيد: "باغلي"، قد تمت تسميته حزابا، في الجامع الأعظم بـ تلمسان، شهر مارس 1944، و كيف أنه انقطع عن وظيفه، بسبب الالتحاق بالخدمة العسكرية الفرنسية، حتى يوم 14 نوفمبر 1945، تاريخ تسريحه النهائي، حيث اتصل بالمفتي، وقد جاء في جانب من رسالته:" لقد اتصلت بالمفتي، هذا الأخير، الذي أعذرني بأداء المهام التي سميت فيها، أعلمكم سيدي نائب الوالي، أنني سآخذ حيازة المنصب، هذا اليوم 15 نوفمبر 1945" [29].

أما المفتي "بن دحمان"، فقد ساند هذا الموظف، برسالته القصيرة ، الموجهة إلى نائب والي العمالة، بلغة عربية ركيكة، جاء في جانب منها " أخبر سيادتكم العالية، بأن باغلي الحاج ولد الداودي، الذي كان جنديا، بعدما ربح في الامتحان بوهران، فإنه كمّل أيامه، مع دولتنا الفرنصوية نصرها الله، فإنه دخل وظيفه التي تسمى فيه"[30].

لم تسع الإدارة الاستعمارية، إلى عرقلة هذا الموظف، بتعمد تغيير مكان عمله الأصلي، مثلا، أوبالتماطل في تسميته، بل علي العكس من ذلك، تقدم نائب والي العمالة، بمذكرة تفصيلية إلى الوالي بوهران، بعد ثلاثة أيام، بها جميع الأدلة المادية، و أوصى بتحرير أمر الصرف، لهذا الموظف، ابتداء من 15 نوفمبر 1945 [31].لا شك، أن فترة الجندية خلال الحرب العالمية الثانية، قد أفادت السيد :"باغلي" ، و أرضت عنه الإدارة الاستعمارية.

4- مطالب شخصية لمرشدي العبادة الإسلامية 1936-1939

تمثلت هذه المطالب الشخصية عموما، في طلب عطلة استثنائية، أو ترخيص غياب، لكبار مرشدي العبادة الإسلامية، و خاصة ، أئمة الجوامع، و قد نال حسب الأرشيف الفرنسي، "حجاج أول أحمد"، إمام الجامع الأعظم بـ تلمسان، حصة الأسد من هذه العطل، فقد تم تسريحه، بطلب شخصي منه، ثلاثة مرات، ما بين 29 جوان 1936، و 05 ديسمبر 1938، بحصيلة قدّرت، بـ 70 يوما.

أما إذا أحصينا، آخر تسريح له بالعطلة، والذي كان يوم 07 أفريل 1934، حيث أُذن له بالغياب، لمدة خمسة أيام ، فإن المجموع، سوف يصير75 يوما، ما بين 07 أفريل 1934، و 05 ديسمبر1938، و كان سبب هذه العطل دائما، أمورا شخصية، تمحورت أساسا، حول زيارته لنجله الدركي بـ فاس بالمغرب، أو بمرافقة زوجة ابنه، و أطفالها، من تلمسان إلى المغرب، وكانت هذه التصاريح، خاضعة لموافقة المفتي أولا، ثم تعرض على نائب والي العمالة، صاحب القرار الأول و الأخير، الذي عادة ما يوافق، إذا وجد موافقة المفتي[32].

كان الشرط الأول في الحصول على العطلة، عدم تعطيل طقوس العبادات، و تكليف إمام آخر، للإنابة عن الإمام الغائب، وعادة ما يكون هذا بالتراضي، فقد أناب عن "حجاج أول أحمد"، إمام مسجد "لالة الغريبة"، السيد مستاري أحمد، في تسريح 29 جوان 1936، و الأمر نفسه في تسريح 13 سبتمبر 1937، أما التسريح الأخير، 05 ديسمبر 1938، فقد كان النائب، "بوب غالم حسين"، الإمام الثاني بالجامع الأعظم، لمدينة تلمسان [33].

كان آخر ترخيص بالغياب (حسب الأرشيف الفرنسي)، من نصيب السيد: "ميراوي مصطفى ولد رابح"، إمام بمسجد "الرمشي"، بتاريخ 06 أوت 1939، حيث طلب عشرين يوما، للذهاب إلى وهران ، غير أنه لم يحدد أسباب الغياب بدقة، مفضلا تسجيل عبارة "لأسباب شخصية"، حيث أناب عنه، السيد: "صديقي محمد صغير بن محمد"، و لم يحدد الترخيص، ما إذا كان هذا الشخص إماما، أو عارفا بشؤونها[34].

و على خلاف السيد:"حجاج أول أحمد"، فإن إمام مسجد "الرمشي"، قد تقدم بطلبه، مباشرة إلى والي عمالة وهران، و ليس إلى نائب الوالي لدائرة تلمسان، ولا نعلم حقيقة، مدى استفادته من هذا الترخيص، لأن الرسالة لا تحمل ختما، ولا ملاحظة للمفتي، ولا لأي سلطة فرنسية محلية، أوجهوية .

ج- طعون إدارية و شكاوى رسمية و كيدية ضد أعوان العبادة الإسلامية لمدينة تلمسان 1924-1947

كانت الإدارة الاستعمارية، في متابعة حثيثة لكوادر العبادة الإسلامية، وحساسة لأي حكم قد يقع عليهم، حساسية المناصب التي كانوا يتقلدونها، كما كانت ترد الإدارة، شكاوى رسمية، خاصة من طرف مفتي المدينة، الحريص دائما، على تزويدها بالمعلومات االدقيقة، و الأمنية كما كانت ترد إليها، رسائل أخرى، غير موقعة باسم شخص معين، و إنما تتحدث باسم جمهور المدينة.

1- قضية قلايجي عبد القادربن أحمد مؤذن بالجامع الأعظم 26 أوت 1924

راسل السيد نائب والي عمالة تلمسان، والي عمالة وهران، مصلحة الشؤون الأهليةAffaires Indigènes ، بتاريخ 26 أوت 1924، ليعلمه بأن السيد: "قلايجي عبد القادر بن أحمد"، مؤذن بالجامع الأعظم، قد صدر في حقه، من طرف قاضي محكمة الجنح بـ تلمسان، حكما بالسجن، لمدة 15 يوما، مع وقف التنفيذ، وغرامة بـ30 فرنكا، دون وقف التنفيذ، بسبب الضرب، و الجرح العمدي، على شخص زوجته، و نجله[35].

و إذا كان هذا الحكم، يسيء إلى شخص مسلم عادي، فإنه إذا ما تعلّق بمؤذّن ، فإنه يخدش وظيفة سمحة، كلها إيمان، و رفق ، و تسامح مع الناس، لكن حسب ما يظهر، من تقريرنائب والي العمالة، فإن انزعاج الإدارة الاستعمارية بمدينة تلمسان، لم يكن فقط، لصدور الحكم القضائي وحده، ذلك أن هذا الموظف، كان معروفا بالتسيّب، و الإهمال في وظيفته، لدرجة أن نائب الوالي، اقترح على والي وهران، دراسة إمكانية، طرده من هذه الوظيفة، طردا نهائيا [36].

2- رسالة كيدية ضد بعض موظفي مسجد سيدي بومدين أكتوبر 1926

وصلت الإدارة الاستعمارية، في شخص والي عمالة وهران، رسالة غير موقعة، ولا تحمل تاريخا، وكتبت بلغة عربية ركيكة جدا، لكنه من المؤكد، أنها تعود إلى أكتوبر 1926، لأن والي العمالة، لم ينتظر كثيرا لإيفادها إلى نائبه بـ تلمسان، تدعى الرسالة، أنها تتحدث باسم سكان المدينة، و الخيرين فيها، و أن سبب كتابتها، هو الظلم السائد، في مسألة توظيف الأئمة، والحزابة، والمؤذنين، إذ لم يعد يفوز بهذا الوظيف، إلا الفسدة منه [37].

ركزت هذه الرسالة اتهاماتها، صوب الحزّاب "زروقي"، متهمة إياه بالجهل، و صوب "سيدي يعقوب الميسوم"، الذي اتهمته بعلاقاته المشبوهة مع بعض رجالات السياسة، و النفوذ المحليين، الذين يوفرون له الحماية، كما اتهمته بالفساد، و سوء الأخلاق قائلة: " هذا رجل يتمس دايم في الخلاط ، أو خدمة مش مليحة ، يخدم هذك الخدم القديم فى الصبيان " [38].

حاولت الرسالة أيضا، التلاعب بوالي عمالة وهران، و إعطاء الانطباع، بأن ما حدث من تجاوزات في شؤون العبادة الإسلامية في مدينة تلمسان، ناتج عن عدم معرفة نائب الوالي، بخفايا الأمور، طالبة من الوالي "تفطن سيدنا السوبريفي، ماراهش عارف، على خاطر جديد" [39].

تعاملت الإدارة الاستعمارية بحكمة مع تلك الرسالة، إذ اعتبرتها رسالة كيدية، و هي عارية عن الصحة، كون أن الحزاب "سيدي يعقوب"، قد تمت تزكيته، من طرف أربعة موظفين، محليين ساميين، و أن نائب والي العمالة، هو الذي اختاره بعناية لهذا المنصب.أما عن مآل هذه الرسالة، فقد اعتقد نائب والي العمالة " أنها مطلب غير مؤسس، ينبغي إيقاف البحث فيهاIl convient de classer" [40].

3- رسالة نائب مفتي تلمسان "بن عصمان الغوتي" ضد المؤذن "خلوي عبد الله" 10 مارس 1933

تلقت الإدارة الاستعمارية، رسالة شكوى من نائب مفتي تلمسان، السيد:" بن عصمان الغوتي"، مؤرخة في 10 مارس 1933، ضد السيد :"خلوي عبد الله بن عبد القادر"، مؤذن بالجامع الأعظم بـ تلمسان، و بدل أن تذهب الشكوى، إلى عرض الأسباب المباشرة لها، و التي تمثلت في " غلق الجامع الأعظم، ليلة 27 رمضان، ظلما، و عدوانا، كما أخبرك به سابقا الشيخ المفتي، والجماعة كلها، بغضته على غلق الجامع، و يدعون عليه كلهم بالشر "[41].

أمعنت هذه الأخيرة، في ذكر الخصال السيئة للمشتكى ضده، مع الناس، و سخطه على الإدارة الفرنسية، و علاقاته المشبوهة، مع بعض رجالات جمعية العلماء المسلمين، و خاصة البشير الإبراهيمي، متهمة إياه، بالتخابر مع هذا الأخير، جاء في جانب منها "باغض لدولة، و كثير إجتماعاته مع حزب أهل السياسة، و دايما يسهر في النوادي، مع الشيخ الإبراهيمي الذي جاء من بلده أصديف(سطيف هكذا)، و يطلعه على حالة أهل البلاد، و على أمورها(...)و فعله قبيح، ويغتب في الناس كثير، و يسوء الأدب مع المفتي " [42].

و كان الهدف من ذلك، على ما يبدو، إعطاء كل الحجج للإدارة الاستعمارية، لمعاقبته، العقاب الذي يستحقه، و يشفي غليل أعدائه.أرسل نائب الوالي، مذكرة بهذه الشكوى لوالي العمالة، يقترح فيها، نقل المؤذن إلى مسجد "سيدي الحلوي"، و هو الاقتراح الأول للمفتي "بن عصمان"، واستبدال "خلوي"، بمؤذن المسجد المذكور، السيد: "تشوار محمد ولد العربي"[43].وإن كان المفتي قد ذكر مسجد "سيدي الحلوي"، بالاسم في رسالته، لكنه لم يأت على ذكر، السيد: "تشوار محمد ولد العربي"، و هذا يحيلنا إلى أمرين، وجود مؤذن واحد في مسجد "سيدي الحلوي"، أو أن اقتراح اسم السيد:"تشوار"، قد جاء بعد صياغة الشكوى.

4- شكوى مفتي الجامع الأعظم بـ تلمسان ضد السيد: "بن منصور عبد الوهاب" 15 جويلية 1945

لا شك أن تواجد جمعية العلماء المسلمين، بقوة في مدينة تلمسان، و تأسيسها لـ "مدرسة دارالحديث"، قد أزعج الكثير من علماء الدين الرسميين، و من بينهم مفتي الجامع الأعظم "بن دحمان عبد السلام"، فلمجرد تناقل الناس لإشاعة مفادها، أن أحد علماء "دار الحديث"، و هو السيد: "بن منصور عبد الوهاب"، على أهبة تقديم، دروس بالجامع الأعظم، بمناسبة حلول شهر رمضان، رفع هذا المفتي قلمه، و خطّ شكوى إلى نائب والي العمالة، بلغة عربية في غاية الركاكة، جاء في جانب منها "وبعد، فأخبر سيادتكم العالية، بأن عبد الوهاب، الذي هو يقرئ الوهابيين في مدرستهم، التي يسموها دار الحديث، سمعت كلاما من بعض الناس، خرج منه، فإنه يدرس في المسجد الأعظم، أول رمضان بعد صلاة العصر، كل يوم إلى

تمام رمضان (...)و إذا أتى يقرئ ، يقوم الخلاط بين الناس، لأنه هو من جهته مع طائفة الوهابيين، و محمد بوقلي حسن من جهة، مع كباقية السنيين"[44].

لم يأخذ هذا المفتي، عناء التأكد من هذه الإشاعة ، معتقدا أن مجيء "عبد الوهاب بن منصور"، إلى الجامع الأعظم ، سوف يُخل بنظام الدروس، التي كان قد كُلّف بها، كل من "بوقلي حسن"، و "إبرير"، قبل، و بعد صلاة العصر.محذرا من أن الصراع داخل المسجد، سيكون ما بين الفكر الوهابي، و السني، الذي تتبعه الطائفة الغالبة من سكان تلمسان، و الأولى أن يبقى كل طرف في مدرسته [45].

طالب المفتي بن دحمان، من الإدارة الاستعمارية، إرسال قوة من الشرطة ، إلى الجامع الأعظم، أول أيام رمضان، على الساعة الخامسة مساءا، تجنبا للنزاع، و العراك ، داخل حرم الجامع، قائلا:"فالجود من سيادتكم الشامخة، أن تبعث إلينا، أول رمضان، على الساعة 5 عشية (هكذا) ، 3 بلنس، يحضر فيه، ربما يقع نزاع بيننا، و أجركم على الله، و عليكم السلام" [46].

إنها أمثلة عن ذلك الصراع الخفي، الظاهر، ما بين رجال الدين الرسميين، المواليين للاستعمار، والمستقوين به، والعلماء المسلمين، المحسوبين فكرا، و ولاءا على الخارج، كما كان يعتقد خصومهم.

د - الجمعيات الدينية و الثقافية وعلاقاتها بشؤون العبادة الإسلامية 1930-1952

تزايدت مع نهاية النصف الأول من القرن العشرين، نشاطات الحركة الجمعوية في مدينة تلمسان، و في الرمشي على وجه الخصوص، أعطى إيحاءات مهمة لعل أبرزها، أن هذه الحركة تريد أن يكون لها ضمن مؤسسات العبادة الإسلامية، بكوادرها على أرض الواقع مكانا، و بمواقف سياسية أقل ما يقال عنها أنها كانت جريئة، و لا تعترف بالحياد لغة.

1- الجمعية الثقافية الإسلامية بالرمشي و محاولة السيطرة على مسجد المدينة1930

اتصل المتصرف الإداري للبلدية المختلطة بالرمشي، بالسيد نائب والي العمالة، يعلمه فيها، بأنه تلقى أمنيةvœu ، من القايد بوعزة عبيد جلول، مفادها جعل مخصصات موظفي المسجد على عاتق المستعمرة (الاستيطانية) [47].وأن اللجنة البلدية، لا ترى أي معارضة، خاصة وأنها، ستقدم رأيا إيجابيا لدعم هذه الأمنية، إذا ما كان تدخلها ضروريا [48].

ومن جانب آخر، لم يتوان المتصرف الإداري، عن تذكير نائب والي العمالة، بأمر في غاية الأهمية، ألا وهو" عدم صدور أي قرار، بخصوص وضع مسجد الرمشي بين يدي (الجمعية) الثقافية الإسلامية" [49].

2- تأييد الجمعية الثقافية الإسلامية لقانون منع المشروبات الكحولية على المسلمين الجزائريين 4 نوفمبر1941

كانت تتخذ هذه الجمعية من "دار الحديث" بتلمسان مقرا لها، كما كان "طالب عبد السلام" رئيسا لها، ولا شك أنها تتبع في أفكارها وأهدافها، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هذه الأخيرة التي لطالما، اعتبرت المسكرات آفة، يجب إبعاد الجزائريين المسلمين عنها، وكانت هذه الجمعية، قد حيت بحرارة، قرار حكومة "فيشي" سنة 1941، بتفعيل قانون منع المشروبات الكحولية للمسلمين الجزائريين[50].

انتهت هذه الجمعية في الأخير، إلى إعلان ارتباطها الكامل بفرنسا "بيتان"، وثقتها فيها، هذه الأخيرة التي أصبحت تعيش، وضعا صعبا، سوف يحدد معالم العاالم برمته[51].

3- مطالبة الجمعية الثقافية والإسلامية للرمشي وسبدو باستحداث منصب "مؤذن" بمسجد المدينة 1946_ 1952

وقفت مداولات اللجنة البلدية للرمشي بالإجماع، مع مطلب الجمعية الثقافية للمدينة، فيما يخص استحداث منصب مؤذن، للمسجد الوحيد بالمدينة، علما بأن رئيس هذه الجمعية، كان في الوقت ذاته، إمام هذا المسجد. ورأت اللجنة البلدية، أنه من الإنصاف كله، إشراكه بمؤذن[52].

وقع اختيار اللجنة البلدية، على شخص "بدي سي جيلالي"، وقد كان من ساكني الرمشي، تبعا للمطلب المعبر عنه، من طرف مصلحة العبادة service du culte [53]. وفي الأخير، فإن اللجنة البلدية، طالبت بإلحاح بدعم السيد الوالي préfet، بسلطته العالية، الأمنية المعبر عنها، من طرف اللجنة البلدية، حتى تتحقق في أقرب الآجال[54].

جدد رئيس الجمعية الثقافية للرمشي، مطلب استحداث منصب "مؤذن"، من خلال رسالته للحاكم العام الفرنسي، مديرية الإصلاحات، مذكرا أن هذا الاقتراح، يحضى بدعم اللجنة البلدية، وأن مطلبا سابقا، تم التقدم به بهذا المعنى سنة 1944 [55].

ذكّر السيد والي عمالة وهران، الجمعية الثقافية، في مراسلته نهاية ديسمبر 1952، عبر السيد نائب الوالي، بأنه تبعا للأمنية المصادق عليها، في 13ديسمبر1951من طرف لجنة العبادة الإسلامية، بالمجلس الجزائري Assemblée Algérienne، فإن السيد الحاكم العام، لا يستطيع منح اعتماد لأي مرشد، أو عون العبادة الإسلامية، حتى قرار منفّذ من الجمعية [56]. كما ذكّر والي العمالة مجددا، نائبه في تلمسان،

بجمعية ثقافية أخرى، على مستوى سبدو، تطلب تعويضا عن الوظيفة، لصالح السيد بن طالب محمد ولد لخضر، الذي شغل منذ عدة سنوات وبالتطوع، مهنة مؤذن في مركز سبدو[57].

خاتمة: أماطت كمية الأرشيف الفرنسي، الخاص بشؤون العبادة الإسلامية لمدينة تلمسان، و بعض أحوازها، خاصة سبدو، و الرمشي، و سيدي بومدين، عن عدد من المشاكل ، التي كانت تعيق الأداء الحسن، لهذه المؤسسات الدينية، والتحرك الدائم لسكان تلمسان، للمطالبة بكل ما هو أحسن، كما بينت، جانبا من إخفاقات الإدارة الاستعمارية، في مواكبة هذه الشعبة الحساسة، و في الاختيار الجيد دائما، للرجال المناسبين، الذين يسهرون على شؤون العبادة الإسلامية.

و على العموم توصلنا إلى النتائج التالية:

1- بيّن الأرشيف الخاص بالعبادة الإسلامية، لتلمسان و أحوازها، المستويات الدنيا، لبعض من يجدر بهم، أن يكونوا علماء للأمة، و مصابيح تضيء سماء الجهل، و الأمية، بعد أن فشلوا، حتى في كتابة رسالة سليمة اللغة، في حين كانوا في هرم العبادة الإسلامية، يتقلدون مناصب عليا ، و حساسة، كمنصب مفتي المدينة.

2- أظهر لنا الأرشيف، مدى التناقضات الاجتماعية، و الفكرية، و المذهبية، التي سيطرت على رجال الدين الرسميين، و أعوان العبادة الإسلامية، و نيتهم الوقوف، ضد رجال جمعية العلماء المسلمين، ذات التواجد الثقيل بالمدينة، إلى درجة الاستقواء بالاستعمار الأجنبي ، عدو الدين الإسلامي، و المشاكل المعقدة داخل هذا القطاع، من أحقاد، ومصالح، و جماعات ضغط.

3- ضعف مرتبات الأئمة، ما جعل بعضهم يطالب برفع هذا الأخير، ثم إن ضعف إدارة هذه الشعبة، قد جعل بعض الأئمة، يتسولون مرتباتهم تسولا، بعد أن نسيتهم الإدارة الاستعمارية، و ذكروها مرارا و تكرارا، و ما قيمة الإمام الذي يتوسل الموظف الإداري الاستعماري، و هو الذي يعلم الناس أمور دينهم، و دنياهم.

4- حاولت بعض الجمعيات الثقافية الإسلامية في تلمسان، خاصة في بعض أحوازها، اختراق الإدارة الاستعمارية، المخولة لتنظيم العبادة الإسلامية، تمهيدا للحلول مكانها، كما حاولت بعض الجمعيات، التحدث باسم مؤسسات العبادة الإسلامية، كما حدث زمن الرئيس الفرنسي "بيتان"Pétain ، ربما رغبة في نيل الحضوة، و المكانة، لدى المستعمر.

الإحالات و الهوامش:

[1-]Anom.2U.Boite N°21,lettre des notables indigènes de Montagnac,a propos d'une mosquée à Mr : le Préfet ,montagnac,17 Avril 1917.

[2-] Anom.2U.Boite N°21, Délégations financières, vœu de la délégation arabe relatif a l'affectation de la mosquée de montagnac, lettre de l'administrateur de montagnac au préfet ,16 novembre 1922.

[3-]Ibid.

[4-]Anom.2U.Boite N°21,Au sujet de la mosquée des ouled el hadj du douar chouly et de l'imam attaché a cet édifices culturelle , Alger,18 novembre 1929.

[5-]Ibid.

[6-]Ibid.

[7-] Anom.2U.Boite N°21,bâtiment civil, entretiens des mosquées, des ouled el hadj du douar chouly commune mixte de sebdou, rapport de l'architecte H.Pellet, Oran 04 Décembre 1929.

[-8]Ibid.

[9-] Anom.2U.Boite N°21,Au sujet de la mosquée des ouled el hadj du douar chouly et de l'imam attaché a cet édifices culturelle , Alger,18 novembre 1929.

[-10]Ibid. و لو أن رسالة المهندس "بولي" إلى والي عمالة وهران، تؤكد عدم صرف أي اعتماد مالي لترميم المسجد، ما قد نفهمه، بأنه تم تخصيص اعتماد، لكنه لم يصرف في الأخير، و هذا ما يفسر، الوضع المؤسف للمسجد سنة 1929، Anom.2U.Boite N°21,lettre de l'architecte H.Pelet à Mr le préfet D'Oran, Oran 17 Décembre 1929.

-11Ibid.

-12 Anom.2U.Boite N°21,lettre de l'architecte H.Pelet à Mr le préfet D'Oran, Oran 17 Décembre 1929.

13- Anom.2U.Boite N°21, A/S de la mosquées des ouled sidi el hadj du douar chouly commune mixte de sebdou, lettre du gouverneur général au préfet, Alger 30 Janvier 1930.

14-Ibid.

15- Anom.2U.Boite N°22, lettre de Mr Mesli Ghaouti Mokadem Marabout Sidi Abdelkader au gouverneur général d'Algérie, 14 Janvier 1946.

16- Anom.2U.Boite N°22,Installation éléctrique dans les locaux du Marabout Sidi Abdelkader,lettre du sous-préfet au préfet D'oran, service des reformes, 19 Mars 1946.

17- Anom.2U.Boite N°21,lettre des musulmans de Sebdou à Mr le sous-préfet, 06 Mai 1950.

-18Ibid

19- Anom.2U.Boite N°21,lettre des musulmans de Sebdou à Mr le sous-préfet, 06 Mai 1950.

20- Anom.2U.Boite N°21,Lettre de l'Imam de Sebdou Lachghar hadj Djilali à Mr le sous-préfet,sebdou 11 Mars1950.

21- Anom.2U.Boite N°21,Lettre de l'administrateur principal de la commune mixte de sebdou au sous –préfet, 23 Mars 1950 .

22- من يشتغل بقراءة القرآن، في المناسبات الدينية وغيرها، فمنهم الحزاب، وباش حزاب.

-23 Anom.2U.Boite N°22,lettre des ministres et Agents du Culte musulmans de l'arrondissement de Tlemcen, à Mr le préfet de Tlemcen,10 Mars 1931.

24- Ibid.

-25Ibid.

26- Anom.2U.Boite N°21,Lettre de Amiri Abdelkader ould Ahmed Imam a la mosquée Tléta, à Mr l'administrateur de la commune mixte de sebdou ,Tafesra 17 Février 1936.

-27 أنظر الرسالتين :- Anom.2U.Boite N°21,Lettre de Amiri Abdelkader ould Ahmed Imam a la mosquée Tléta, à Mr l'administrateur de la commune mixte de sebdou ,Tafesra 17 Février 1936.

- Anom.2U.Boite N°21,Lettre de Amiri Abdelkader ould Ahmed Imam a la mosquée Tléta, à Mr l'administrateur de la commune mixte de sebdou ,Tafesra 01 Février 1937.

28- Anom.2U.Boite N°21,Culte Musulmans requête du sieur Amiri Abdelkader, Imam de la Mosquée de Tléta, Douar Commune Azails ,Lettre de l'administrateur de la commune mixte de Sebdou ,à Mr le sous-préfet de Tlemcen, 12 Octobre 1936.

29- Anom.2U.Boite N°22,Lettre de Baghli Mohammed ouled Daoudi, à Mr le sous-préfet de l'arrondissement de Tlemcen, Tlemcen 15 Novembre 1945 .

30- Anom.2U.Boite N°22,Lettre du Muphti de Tlemcen à Mr le sous-préfet de Tlemcen ,Tlemcen 15 Novembre 1945.

-31 Anom.2U.Boite N°22, Culte Musulmans démobilisation du Hazzab Baghli El hadj la grande mosquée de Tlemcen, Tlemcen 17 Novembre 1945.

-32Anom.2U.Boite N°22, lettre de Mr Hadjadj Aoul Ahmed à Mr le sous-préfet de l'arrondissement de Tlemcen,Tlemcen 29 Juin 1936.

Anom.2U.Boite N°22, lettre de Mr Hadjadj Aoul Ahmed à Mr le sous-préfet de l'arrondissement de Tlemcen,Tlemcen 13 Septembre 1937 .

Anom.2U.Boite N°22, lettre de Mr Hadjadj Aoul Ahmed à Mr le sous-préfet de l'arrondissement de Tlemcen,Tlemcen 05 Décembre 1938.

-33Ibid.

-34Anom.2U.Boite N°21, lettre de L'Imam de la mosquée de montagnac (Rémchi) à Mr le préfet du département D'Oran, montagnac 06 Août 1939.

35- Anom.2U.Boite N°22, Culte Musulman, A/S du nommé kalaidji Abdelkader ben Ahmed Moueddine a la grande mosquée de Tlemcen, Tlemcen 26 Août 1924.

-36Ibid.

-37Anom.2U.Boite N°22, lettre en arabe Anonyme adressé au préfet D'Oran, Tlemcen Octobre 1926.

38-Anom.2U.Boite N°22, lettre Anonyme adressé au préfet D'Oran, Tlemcen Octobre 1926.

39-Ibid.

40-Ibid.

41- Anom.2U.Boite N°22, Lettre en arabe du Muphti Ben osman ghouti à Mr le sous –préfet, Tlemcen 10 Mars 1933.

42-Ibid.

-43 Anom.2U.Boite N°22, A/S du Nommé Khaloui abdellah Ben Abdelkader,Lettre du sous-préfet de l'arrondissement de Tlemcen à Mr.le préfet du département d'oran (Affaires indigènes), Tlemcen 23 Mars 1933.

مع ملاحظة أن نائب والي العمالة، أخطأ في تسجيل اسم البشير الإبراهيمي، فقد سجّل بدل ذلك إبراهيم بشير، Ibid.

44- Anom.2U.Boite N°22, Lettre en arabe du Muphti Ben Dahmane Abdelslam au sous-préfet,Tlemcen 15 Juillet 1947.

-45Ibid

46- Anom.2U.Boite N°22, Lettre en arabe du Muphti Ben Dahmane Abdelslam au sous-préfet,Tlemcen 15 Juillet 1947.

47 _ Anom.2U.Boite N°21 , Lettre de l'administrateur de la commune mixte de Remchi au sous_ préfet de Tlemcen, Remchi 20 Mars 1930.

48_ Ibid .

49_ Ibid .

50_ Anom.2U.Boite N°22, télégramme de mr Taleb Abdeslam président de la culturelle a mr le sous_ préfet de la ville de Tlemcen, Tlemcen 4 Nouvembre1941.

51 -Ibid .

52_ Anom.2U.Boite N°22, création d'un poste de muezzin a la mosquée de Montagnac , commission municipale de Montagnac , séance du19 Avril 1946.

53_ Ibid.

54_Ibid.

55_ Anom.2U.Boite N°21, Lettre de secrétaire général de l'association culturel au Gouverneur général,Oran 15 Mai 1946. . Ibid ذكرت هذه المراسلة برسالة 2 فبراير و 3ماي 1944 السابقتين، أنظر

56_ Anom.2U.Boite N°21, lettre du préfet d'Oran au sous_ préfet de la ville de Tlemcen, Oran 23 Décembre 1952 .

57_Ibid .

منهج البحث الوثائقي

من خلال المصادر المتاحة على الواب

خيرة روابحي، طالبة دكتوراه، جامعة وهران1 أحمد بن بلة

أ.د/ محمد صاحبي، جامعة وهران1 أحمد بن بلة

ملخص: تتوفر الانترنت علي أدوات للبحث مثل محركات البحث و الأدلة وغيرها، وتتطور أساليب الوصول إلي ما توفره الشبكة من تقنيات جديدة للتخزين والحفظ والمعالجة والاسترجاع ،ذلك أن كل التحدي القائم في البحث على الشبكة يتمثل في عملية سرعة ودقة استرجاع المعلومات وبالتالي الوصول إلي مصادر المعلومات الالكترونية ،وكانت البداية بتحديد هذه المصادر بفضل تطبيقات استطاعت الشبكة توفير المصادر الكثيرة والمختلفة بفضل أنظمة التكشيف والميتاداتا. إنها دقة عالية و تطور كبير بفضل ظهور التقنيات الالكترونية الحديثة التي تنظم المعرفة و المعلومات على الشبكة .

تدعمت المناهج العلمية للبحث هي الاخرى بفضل تطور الوسائط و اصبحت تمثل احدى اساسيات البحث الوثائقي وترتب عنها منهجية البحث من خلال الواب وأولها هي معرفة أنواع مصادر المعلومات الالكترونية المتاحة على الشبكة ونذكر من بينها غلى سبيل المثال لا الحصر التساؤلات المشتركة المطروحة على الشبكة ،مواقع المنظمات و الصفحات الشخصية ، ايضا مواقع الصحافة و الاعلام، مواقع النشرات الرسمية او الحكومية ، مواقع المؤسسات ، المتاحف ،مواقع المعايير و التقنين، اضافة الى المواقع الاحصائية و تسمى بالمصادر الاولية اما الثانوية فنذكر منها ادلة البريد الالكتروني، البيبليوغرافيات والفهارس ومواقع القواميس و الموسوعات و ادوات البحث و البوابات و قواعد المعطيات للواب غير المرئي وغيرها ...وهناك ايضا المصادر من الدرجة الثالثة و هي تمثل كل المواقع التيتوجه الى المصادر الثانوية . ان منطلق البحث هو كيفية طرح السؤال للوصول الى المصادر وهنا على الباحث معرف كيفية البحث على الواب وأدوات الوصول إلى المعلومات كالأدلة الموضوعية ومحركات البحث و محركات البحث الذكية وتمييز كل اداة عن اخرى من خلال ما تقدمه من معلومات .بل وعلى الباحث التعرف على المبادئ الاساسية للبحث البيبليوغرافي من خلالها و كيفية وصف هذه الوثائق الالكترونية ،هذه الاخيرة التي تتوفر بشكل ضخم و في كثير من الاحيان غير منظم، لان التحدي القائم مع التقنيات الحديثة هو عملية

تنظيم المعرفة و توزيعها على اساس تحقيق اكبر قدر من الاسترجاع و اكثر دقة في الاجابات و الوصول الى مصادر المعلومات ، كلما اتجه هذا التنظيم الى تطبيق قواعد الفهرسة أثناء نشر الوثائق الالكترونية بواسطة الميتاداتا بمراجعاتها الحديثة كلما توحدت ادوات البحث في تقنيات البحث و الوصول الى المعلومات .

الكلمات المفتاحية: البحث البيبليوغرافي، المصادر الالكترونية، أدوات البحث، مناهج البحث، الفهرسة الالكترونية .

Abstract The Internet is available on search tools such as search engines, directories and others, and develops Automatic access methods what provided by the network of new technologies for storage, preservation, processing and retrieval, so that all the challenge in the search on the network is in the process of speed and accuracy of information retrieval and thus access to information sources, these sources thanks to the applications of indexing Mechanism , The network has also been able to provide many different sources thanks to the systems of indexing and beyond the data. It is high accuracy and great development thanks to the emergence of modern electronic technologies that organize knowledge on the network.

The scientific methods of research have also been supported by the development of the media and have become one of the fundamentals of documentary research and resulted in the methodology of research through the web and the first is to know the types of sources of electronic information available on the network, including, but not limited to the common questions put on the network, organizations and personal pages, also press and media sites, official publications , websites or governmental institutions sites, museums, sites and rationing standards, in addition to statistical sites and called primary sources either secondary including evidence of e-mails,and indexes sites and encyclopedias and search tools and portals and databases and others. .. There are also sources of the third class, representing all sites Altiuge to secondary sources. The purpose of the research is to ask the question to get to the sources and here the researcher to identify how to search on the web and access to information tools such as objective evidence and search engines and smart search engines and distinguish each tool from another through the information provided. But the researcher must identify the basic principles of bibliographic research through which and how to describe these electronic documents, the latter which are available in a huge and often unorganized, because the challenge with modern technology is the process of organizing knowledge and distribution on the basis of achieving the greatest of retrieval and more accurate in the answers and access to information sources, as

this organization tends to apply the rules of indexing During deployment The electronic documents by the so - called metadata whenever unified search tools and techniques in the search and Access to information.

Key words: bibliographic research, electronic resources, research tools, research methods, electronic cataloging

المقدمة:

أدى تطور الوسائط الحاملة للمعلومة عبر التاريخ الى الاهتمام الاكبر بطبيعة الوسيط ودوره في نشر المعلومات وكيفية تحقيق الوصول الى المصادر المتنوعة من تقليدية الى الكترونية، ان اي شكل من اشكال التخزين الجديدة تخضع للوصف المادي والموضوعي للوقوف على مصادر المعلومات وتحقيق الغاية العلمية والموضوعية والمادية لأصحاب هاته الاعمال المنشورة عبر هذا النوع من الوسائط.

وللوصول إلى المعومات كان من الضروري إن تكون كل هذه المصادر خاضعة للوصف المقنن من طرف المتخصصين في البيبليوغرافية وعمليات الفهرسة والتكشيف، والفضل الكبير يعود إلى تظافر جهود لمنظمات ومكتبات عالمية منها المنظمة العالمية للمعايير، مع ظهور كل مصدر جديد يتم اصدار مراجعات جديدة تحمل معايير للوصف الدقيق يحافظ على مصدر المعلومة وذلك بتقديم أهم العناصر البيبليوغرافية الجديدة للوصف والمتعلقة بطبيعة الوسيط وخصوصيته مع الأخذ بعين الاعتبار أهم التعديلات التي تطرا على القواعد الأساسية، مثلما هو الحال بالنسبة (ISBD(er وMARC21 وRDA. ...الخ

الهدف: ان التحول من التقليدي الى الالكتروني وضع المجتمع العلمي امام تحد في التعامل مع وثائق رقمية، طبيعتها تختلف تماما مع الانواع السابقة لذلك كان على عاتق نخبة المتخصصين ضبط ايطار الوصول للمصادر الرقمية والتوثيق لها، وهذه الخصوصية في التوثيق للمعرفة والمعلومات من خلال الانترنت يجب ان يبرز المعايير الحقيقية التي تثبت وجود المصدر والتعريف بالوثيقة وتحقيق غرض البحث لهذا النوع من الوثائق، لذلك كان من الضروري فهرستها لان الباحثين هم بحاجة لتوثيق اعمالهم اضافة الى ان منهج البحث والوصول الى المعلومات هو الاخر اصبح ضروريا لتحديد تقنياته وتوضيح معالمه مما سياتي في هذا المقال.

التساؤلات: _ما هو البحث الوثائقي على الواب ؟

_كيفية الوصول الى المعلومات عبر الشبكة ؟

_ماهي معايير الوصف للوثائق المتاحة على الشبكة ؟

1_ إستراتجية البحث الوثائقي على الواب:

1-1 _ **نظرية البحث:** تضعنا الانترنت امام تجد كبير نظرا لما توفره من الكم الكبير للوثائق، تحد يفرض واقعا حقيقيا حول امكانية الوصول للمعلومة من عدمه. ان فكرة البحث الوثائقي تبدا في اولها في طرح موضوع معين انطلاقا من مجموعة الافكار التي يكسبها الباحث الى ضرورة دعمها بمجموعة من المعلومات والمصطلحات والمعارف المتوفرة عن الموضوع من خلال الوثائق، ان الانترنت بحر واسع من الافكار والمعلومات والوصول اليها من خلال الشبكة او غيرها من الوسائط الالكترونية يكمن في دقة المعلومات وتحديد مصدرها ويكمن ايضا في قدرة سرعة الوصول اليها والاجابة عن الموضوع الاساسي للبحث. تعتبر الانترنت مكتبة ضخمة متنوعة اكثر ثراءا وتحمل من الوثائق ذات النشر القريب والحديث وهي مستودعات للأرشيف، تعتبر: " في مجال المعلومات تعرف الشبكة بانها عبارة عن مركزين او اكثر للمعلومات، تربط بينها علاقات متداخلة عن طريق وسائل وتكنولوجيا الاتصالات المختلفة، ولكل مركز مستفيدون تقدم لهم خدمات المعلومات في الوقت المناسب وبالشكل المناسب "1، توفر كل ماهو جديد وجاري من اخبار ومعلومات ووثائق بلغات متعددة من اماكن كثيرة من العالم ووثائق متخصصة في مجالات دقيقة جدا تخدم البحوث المتخصصة، وتحوي ايضا وثائق كثيرة لا نجدها بمراكز التوثيق والمعلومات ونذكر فوائد البحث عن طريق الشبكة بانها: "الوصول المباشر الى مجال واسع من مصادر المعلومات، ويكون البحث اكثر فعالية بسبب الامكانات المناسبة والواسعة والمتحددة للوصول الى المعلومات المخزنة، حداثة اكثر في المعلومات، امكانية البحث في قواعد للمعلومات غير المتوافرة بشكل مطبوع، ويكون البحث اسرع ويصل الى5% من الوقت الذي يحتاجه البحث اليدوي"2.

ان صفحات الواب هي صفحات متعددة الوسائط تقدم النص والنص الفائق، الصورة الثابتة والمتحركة، الصوت وغيرهم واستخدام هذه الوسائط يكسب المستفيد منهجية للبحث وادوات خاصة بذلك هي ضروري للوصول الى مصادر المعلومات مثلما توفره قواعد البيانات على الواب وما تقدمه شركات النشر في ذلك من واجهات للبحث وتتنافس عليه بل اتجهت نحو محاولة توحيد هذه الواجهات لتوفير اكثر لتقنيات السؤال الذي يسمح بالوصول الدقيق لعدة عوامل: "نمو المجموعات الالكترونية، الاشتراك في العديد من قواعد البيانات البيبليوغرافية، الاشتراك في المئات من الدوريات الالكترونية، تسمح للمكتبيين بتوجيه المستفيدين، واتاحة الربط بين الاستشهادات المرجعية وقوائم المحتويات والنصوص الكاملة. .."3.ان توفير التقنيات وخاصة ما هو قائم على مفهوم التداخل يدفع بالمتخصصين الى استخدام وسائل جديدة في تنظيم المعرفة على الانترنت بفضل تقنيات التكشيف وفهرسة الوثائق اثناء النشر الالكتروني؟.ان التحدي الذي تواجهه التكنولوجيا هو هذا الكم الهائل للمعلومات والمعارف مع صعوبة الوصول اليها من المستعملين لذلك كان على عاتق الوثائقيين واللغويين وخبراء الاعلام الألى

وغيرهم ممن ترتبطهم عملية تنظيم المعرفة على الشبكة للتفكير في وضع نظم جديدة لتمثيل المعلومة وهيكلتها لتحقيق سرعة الوصول اليها.

1_2 كيفية البحث وصياغة الطلب:

وهنا يجب تحديد ما يجب معرفته لان كيفية طرح السؤال تفرض علينا اختيار الادوات المناسبة للبحث وايضا اعتماد تقنيات صياغة السؤال مهمة جدا للوصول الى اكبر قدر من الاجابات المناسبة للموضوع المدروس او ما يسمى الطلب بالنسبة لتقنيات الاعلام الالي.

ان التفكير في التوثيق لأي موضوع معين يتطلب الكم الكبير من المصطلحات والافكار التي تتوفر من خلال مواد متنوعة تقليدية والكترونية، لذلك كل باحث ملزم بالوصول اليها وبفضلها يتم تحرير افكار هي الاخرى جديدة ومهما تنوع المصدر وحامل المعلومة من نصوص وصور، نص فائق، وسائط متعددة. ..الخ، كلها يجب ان تخضع لمنهج الوصف البيبليوغرافي في عملية التوثيق لها ويبقى المنطلق العام لاستخدام هذه المصادر هو فهم صحيح لمصطلح الوثيقة في ظل البيئة الجديدة للتواصل العلمي على انها انها تتميز باللغة المستعملة والتواصل مع فاعلين يحققون وجودها.

يتجه الباحث بطلبات " requettes" ليسال من خلالها النظام الوثائقي المتوفر ليتم البحث عن الاجابة في كافة البطاقات البيبليوغرافية باستخدام الواصفات ليتحصل الباحث على اجابات متوسط دقتها مرتبط بنمط السؤال المطروح وفي كثير من الاحيان واثناء عملية البحث يتم صياغة الطلب على شكل مركب او ما يسمى مجموعة الواصفات مع معامل منطقي وفي ذلك نماذج متعددة.

في كل بحث وثائقي نحن امام رصيد من المفاهيم والمعارف حول الموضوع اضافة الى ما يتم التوصل اليه بفضل عملية البحث ليتم جمعه واحصاؤه واخضاعه للانتقاء كمادة اساسية تدعم موضوع الدراسة، هذه المادة تخضع للتحليل لكي يستطيع الباحث الاجابة عن مختلف تساؤلات البحث، ويكون قد استطاع الباحث تكوين مكنز شخصي للبحث يستعان به في انتقاء المادة العلمية من المكتبات العامة ومراكز المعلومات والتوثيق لانتقاء المعلومات المتخصصة من مواقع الواب للدوريات المتخصصة وغيرها.

و في الاخير يصل الباحث بعد الدراسة والبحث الى اخراج عمله في اي اسلوب من اساليب النتاج الفكري بعد تحليل البيبليوغرافية وترجمة المعطيات وتفسير النتائج.

ان تحديد صياغة الطلب وجدت لأجل تحقيق غرض البحث الذي ينطلق من خلال طرح الاسئلة التالية المعروفة من؟ كيف؟ اين؟ متى؟ لماذا؟، "بالرغم من وجود معايير كثيرة لتقييم مصادر المعلومات، الا ان اكثر هذه المعايير تطبيقا واسهلها هي باستخدام ما يسمى بالأسئلة الخمسة 5"4 ويسمح طرح مجموع

الاسئلة السابقة بتحديد الكلمات المفتاحية لحقل المفردات والمعاني والنصوص الموجودة. هذه الكلمات المفتاحية هي منافذ للوصول الى المعلومات الدقيقة باستخدام ادوات البحث.

3_1 معايير صحة ودقة المعلومات على الشبكة:

"هناك معايير يمكن من خلالها يتم تقييم الوثيقة الالكترونية من حيث محتواها المعلوماتي وكذلك التقنية المستخدمة في انشائها وقيدها ومعالجتها واتاحتها" 5و عليه يجب مراعاة ما اذا كان يسمح الموقع بمجموعة الروابط بين الوثائق والتحديثات ، وامكانية الاتاحة والوصول والتوثيق الجاري والمستمر للمواقع و لذلك يجب:

- يجب ملاحظة ما اذا كان المؤلف يعبر عن رايه او راي الهيئة وخاصة السيرة الذاتية له.
- هل يعتمد المؤلف بيبليوغرافية.
- هل الكاتب يفتح نقاشات حول الموضوع اي الوقوف على كيفية النشر الالكتروني.
- هل يركز الكاتب على معطيات منشورة مسبقا.
- ومن المهم للباحث معرفة بعض المناهج الاساسية للتوثيق منها معايير الوصف البيبليوغرافي وخاصة المصدر وتاريخ الوثائق الاصلية وطبعا معرفة كيفية الاقتباس والتوثيق لذلك.

ويذكر كل من ربحي مصطفى عليان وحسن احمد المومني ان اساليب ومعايير التقييم في بيئة الانترنت هي اكثر صعوبة وتتطلب اكثر دقة ذلك ان ا النوع من المصادر تختفي فيه الصفات الاتية: "المراجعة. .. وهذا لا يتم غالبا في المصادر الالكترونية، صلاحية المعلومات، الشكلوالتصميم"6.اما عن معايير تقييم مصادر المعلومات الالكترونية (الانترنت نموذجا) حسب الباحثان فيجب ان يشمل: " الهدف، المسؤولية، التبعية، نوعية المستفيدين، الحداثة، ثقة ودقة المحتوى والشكل والمضمون"7

ولكن هناك معايير علمية واكثر منهجية في تقييم المواقع والمصادر المتاحة على شبكة الانترنت، وهناك مؤسسات علمية عديدة وهيئات كثيرة تقدم امكانية لذلك وعلى سبيل المثال لا الحصر معايير التقييم لجمعية الكليات والمكتبات البحثية وهي تابعة لجمعية المكتبات الامريكية (ALA) ونذكر المعايير كالاتي 8:

- دقة وثائق الواب ويشتمل هذا المعيار على عدة اسئلة: من كاتب الوثيقة؟ وهل يمكن الاتصال به؟ما الغرض من الوثيقة ولماذا كتبت ؟هل كاتب الوثيقة مؤهل للكتابة ؟
- المسؤولية الفكرية للوثيقة: من هو ناشر الوثيقة وهل هو منفصل عن مدير الموقع ؟من خلال التدقيق في مجال الوثيقة مانوع المؤسسة الناشرة ؟هل تدرج مؤهلات الناشر ؟

- موضوعية وثائق الرابط: هل يتضح هدف وغرض الصفحة ؟هل المعلومات مفصلة ؟ما الأراء التي يبديها المؤلف ؟
- حداثة وثائق الواب: متى كتبت الوثيقة ؟ متى اخر تحديث لها ؟ما مدى حداثة الروابط ؟
- تغطية وثائق الواب: هل الروابط تغطي كافة جوانب موضوع الوثيقة ؟هل المعلومات تقدم استشهادات صحيحة؟

4_1 قاعدة البحث البيبليوغرافي على الشبكة:

أ_ تحديد مصادر المعلومات: توجد المعلومات بالمكتبات ومراكز المعلومات والتوثيق، وجود هذه الأخيرة هو لخدمة مستعمليها في توفير المعلومات والتوثيق.ا يتجه الباحث للوصول للمعلومات من خلال بوابات الدوريات الالكترونية ، مواقع لمصادر الأشخاص الباحثين، مواقع هيئات مرتبطة بالبحث، مواقع الوصول الحر للوثائق الأرشيفية، النشرات العلمية لكن يجب على الباحث الوقوف على حداثة الموقع وإن النشر جاري أو دوري دون انقطاع، يجب أن تحفظ المواقع كافة أرشيف المعلومات لديها لأجل الرجوع إليها لأنه غالبا ما نجد اختفاء بعض الوثائق الالكترونية بعد مدة من الزمن . يجب الإشارة أيضا انه في كثير من الأحيان إن بعض الوثائق الالكترونية لا تحتمل الدقة ونكون في بحث الكتروني يهدر وقتا كبيرا للدراسة. يجب تحديد مصدر المعلومة على الشبكة بتسجيل العنوان url هذا الأخير يسمح بتحديد المكان. انطلاقا من أن المصادر على الشبكة هي كيانات موجودة بمستودعات ضمن مجموعات وعليه كبدايات أولى على الباحث الانطلاق من الفهارس الالكترونية التي توفرها المكتبات الالكترونية وكيفية البحث من خلالها، وللوصول إلى النصوص الأصلية يتجه إلى بنوك المعطيات الخاصة بذلك والمواقع الخاصة بالدوريات المتخصصة أين توفر المعلومات المتخصصة، ويتأتى ذلك بقراءة ما توفر من العناصر البيبليوغرافية والبحث باستخدام الروابط المنطقية. إن الغاية من البحث هو توفير مخرجات هي أساسية للبحث لدى المستفيدين، "فالكثير من الباحثين يعتقدون إن التحكم في المصطلحات ضروري للغاية لضمان الصلاحية في بيئة استرجاع المعلومات الالكترونية وإذا كان المكنز يستخدم في بيئة استرجاع المعلومات، فسيتم ذلك مع مزجه في نظم التكشيف التي تستعين بالآلات وكذلك مع نظم استرجاع النصوص، وفي معاونة المستفيدين على تحديد مصطلحات البحث. .."9

ب_معرفة تقنيات البحث والعمل بها: لتفادي كثير من الاخطاء والمسار غير الصحيح للبحث وضياع الوقت الكثير

كل ذلك يرتكز على كيفية طرح السؤال وصياغته لأنه يسمح في التحكم في ادوات البحث التي تقوم بمسح شامل ومتحكم فيه لكم كبير من المعطيات، وصياغة الطلب هو احد العناصر الاساسية للبحث ويسمح

بتحديد افضل المصادر البيبليوغرافية وكبدايات اولى للبحث بإمكان الباحث الاستعانة بالإرشادات المكتبية على الموقع، توجيهات الباحثين والمكتبيين، الاطلاع على فهارس للدوريات، الانطلاق من الكلمات المفتاحية للبحث. ..الخ.تقدم مواقع البحث إجابات هي بمثابة مادة توثيقية لكن في كثير من الاحيان يصطدم الباحث بعدم توفر الاجابات الدقيقة او ما يسمى بالصمت والعكس ايضا قائم على نتائج تسمى الفوضى والضجيج وتكون الوثائق في هذه الحالة اغلبها غير مهمة للموضوع قيد الدراسة.

يقدم البحث الالكتروني مجموعة من النتائج فكثيرا ما نسال قاعدة معطيات لنجد بعد ذلك ان الرصيد غير كاف ولذلك اعتماد تقنيات البحث مهمة لتحقيق النتائج المرجوة.

والافضل ان يجمع الباحث بين الطريقتين السابقتين وذلك بسؤال قاعدة المعطيات للمقالات المتخصصة وهذا يتوفر كثيرا على الشبكة، اضافة الى الانطلاق اولا من بيبليوغرافية المكتبات ثم التوجه الى البحث من خلال الفهارس التي توفر المعايير الاساسية لوصف الوثائق، ايضا الدوريات الخطية التي توفر كم كبير من المجلات المتخصصة وايضا ما توفر بالمكتبات ومراكز التوثيق. ان الانترنت تدعم البحث الوثائقي بشكل كبير جدا من ناحية الكم والنوع والتقنيات التي تساعد في سرعة الوصول للإجابة.انها توفر المصادر الالكترونية المتنوعة وهنا على الباحث فهم وتحديد انواع هاته المصادر من او اولية والمصادر من الدرجة الثانية والمصادر من الدرجة الثالثة لتحديد مستوى البحث واسلوب العمل.

بعد توفر المادة العلمية مع مجموع الوثائق، على الباحث حصر المحتويات والمراجع والمصادر حسب طبيعة الوثيقة او طبيعة النشران كان عاما او متخصصا، ايضا تحديد اشكال هذه الوثائق (مقالات، اطروحات. ..) ووصفها بالمعايير التي تحفظ حقوق الملكية الفكرية لأصحابها من المؤلف الى العنوان، الطبعة، وبيانات النشر والوصف المادي الى الترقيم الدولي المعياري. بعد ذلك يقوم الباحث بإخضاع المادة العلمية المتنوعة للقراءة والبحث لأجل الانتقاء ووضع بيبليوغرافية الدراسة، هذه الاخيرة تعتبر بمثابة بداية اساسية للبحث والخطة الاتية له. بعد تحليل احتياجات الدراسة من جانب زماني ومكاني وموضوعي وفاعلين في ذلك. ...الخ يمكن التوجه بالبحث نحو فهارس المكتبات الرقمية للحصول على اجابات وفي ذلك نماذج كثيرة.

2_مصادر المعلومات الرقمية والمتاحة على الشبكة العنكبوتية:

يجب على الباحث التعرف على كافة انواع المصادر الالكترونية وكيفية تحديد المصدر، " تتنوع مصادر المعلومات الرقمية على الانترنت لتضم قواعد النصوص الكاملة (الكتب، و الدوريات واعمال المؤتمرات او اجزاء من كل منهما، والمطبوعات الحكومية وبراءات الاختراع . ..الخ)، وقواعد البيانات البيبليوغرافية (الفهارس، ونشرات الاستخلاص) وبرامج الكمبيوتر"10.

هناك العديد من التقسيمات لأنواع المصادر المتاحة على الشبكة، منها ما وضعه مهندسي النشر الالكتروني او مصممي المواقع او الوثائقيين او بالاشتراك بين هؤلاء جميعا وهنا نختار تصنيف احمد بشر ويشمل ثلاثة انواع هي:

2-1 المصادرالاولية: نجد بها ما يلي:

2-1-1 التساؤلات المشتركة المطروحة: توفر الشبكة مجموعة الاجابات لأسئلة كثيرة ومشتركة بين جميع المرتبطين بالأنترنت وتكون هذه الاجابات متوفرة للجميع من طرف خبراء متخصصين وتكون احدى مصادر البحث ولذلك يجد الباحث نفسه يستخدم كثير من هذا النوع من المعلومات والتي يشترك هو بدوره مع الاخرين في طرحها. وعند تقييم هذا الاسترجاع للمصطلحات ترى ناريمان اسماعيل متولي ان "تقدير الاستدعاء عن طريق التعرف على مخرجات الكثير من البحوث لنفس السؤال ثم تجميع مجموعات التسجيلات المتعلقة، نحن نحصل في هذه الحالة على استدعاء نسبي وليس استدعاءا مطلقا. .." 11رغم هذه النسبية الا انه تبقى التساؤلات احدى مصادر البحث يعتمدها الخبراء على الشبكة.

2-1-2 مواقع المنظمات: إن مواقع المنظمات مهمة توفر المعلومات الدقيقة، المعيارية، المناسبة لكل من ينضوي تحت منظمة معينة، معلومات من مستوى متقدم جدا، هناك منظمات دولية ووطنية تقدم مواقعا تتوفر على معلومات هامة للباحث والقارئ والمهتم ودقيقة المصدر وموثوق منها إضافة إلى المادة الكبيرة للمعلومات والتوثيق حول محور العمل الذي تعمل عليه هاته المنظمات، هذا النوع من المواقع يرمز له ".org"

2-1-3 مواقع الصفحات الشخصية: وهنا يجب الاشارة الى ان هذا النوع من الصفحات قائم على المعرفة الدقيقة لشخصية وهوية هؤلاء ومجموعة النشاطات ودقة الاتصال معهم وكل المعلومات المرتبطة بأصحاب هاته المواقع ، ذلك ان منها ما يظهر ثم يختفي فيما بعد، بعض المواقع هي خاضعة لإدارة اصحابها.

2-1-4 مواقع الصحف ووسائل الاعلام: تعتبر هذه الصفحات رسمية لهذا النوع من الاتصال الجماهيري الذي بدا يتجه في تحقيق وجوده على الشبكة ، اصبحت هذه المواقع توفر المعلومات الدقيقة وحديثة وموثوقة بل واكثر انها مساحات الكترونية وبفضل الميلتيميديا توفر المعلومات المتعددة بالصورة والصوت والنص وملفات كثيرة من الارشيف، ايضا كل ما هو حديث مع ملخصات لكل المقالات. انها بحق مصدر سريع ودقيقة للمعلومة لكن لا ننسى ان الاعلام موجه وعلى الباحث ان يتقصى الحقائق بدقة.

2-1-5 مواقع النشرات الرسمية او الحكومية: من اولويات البحث ان يكون الباحث نفسه ملما بالوثائق الرسمية والقوانين ومجموعة التقارير التي تصدر عن الجهات الرسمية للدولة وعلى كل المستويات وكل ما ارتبط بالبحث، فهذا النوع من المواقع يوفر المعلومة الدقيقة والموثوقة بل وتتوفر على كل المعلومات التي لها علاقة بالمجتمع وبإمكان الباحث تحميل ما يحتاجه للبحث، انها مواقع معروفة على الشبكة وهي لاتختفي وتعتمد التحديث عند كل مستجد.

2-1-6 مواقع المؤسسات: نجد حاليا كل مؤسسة تملك موقعا الكترونيا لعرض منتوجاتها بكل الانواع، هي مواقع رسمية ثابتة توفر عرضا دقيقا لطبيعتها، الانواع، الاسعار، . ....انها مواقع توفر بطاقات تقنية تجارية للبيع والشراء وجلب المستهلك بالوسائط المتعددة وتمثل مظاهر التسوق الالكتروني، يعتمد الباحث من خلال هذه المواقع على معلومات المتعلقة ببحثه مثل الارقام الاقتصادية، تطور المنتوجات. ...، تعتمد كل المؤسسات الاقتصادية والتجارية وذات الطابع الاجتماعي على المواقع الالكترونية لتحقيق نشاط التسويق لديها، انها مواقع توفر الارقام والاسماء والاماكن للباحث، انها معطيات اجتماعية يحتاجها في بحثه للتفسير.

2-1-7 مواقع خاصة بالمتاحف: تعرض كل المؤسسات الثقافية هي الاخرى منتوجاتها على المواقع الالكترونية خاصة المتاحف والتي تعتبر الواجهة الثقافية للمنطقة جغرافيا ومن الناحية الاثرية والتراث المعماري على المستوى التاريخي، لذلك يعتبر هذا النوع من المواقع اكثر توفرا على الشبكة ويقدم خدمات كبيرة لمستخدمي هاته المواقع وخاصة الباحثين في العلوم الانسانية. تقدم رصيدا من المعطيات والمعلومات عن المنطقة في خدمة البحث العلمي.

2-1-8 مواقع حول المعايير العالمية والتقنين الموحد: يوفر الاقتصاد العالمي المفتوح التنافسية لمختلف المؤسسات هاته الاخيرة تعمل على التخطيط لمستقبل عملها من خلال اعتماد المعايير والمواصفات العالمية وهذا يمس كل المجالات وخاصة البحث العلمي وهذا ما نحن بصدد تحليله في هذا المقال ، فعلى الباحث اعتماد المعايير العلمية للبحث الوثائقي وايضا يستطيع ان يوثق لموضوع بحثه من خلال ما توفره المنظمات العالمية من معايير وهي معروفة (ISO، AFNOR، IFLA، ANSI، UNESCO. ...).انها توفر كل المراجعات الجديدة خاصة للمؤسسات المرتبطة وتقدم الاشتراكات.

2-1-9 مواقع المعلومات الاحصائية: هناك منظمات عالمية ومحلية، تقوم بتوفير احصاءات معينة، عامة ومتخصصة ساء كانت اجتماعية، ثقافية وغيرها في أي بلد. تقدمها للباحثين لأجل الدراسة والبحث وللمؤسسات لأجل التخطيط، بل ان المنظمات العالمية اساس عملها قائم على هذا الكم الكبير من

الاحصاء الذي يوضح لها الاستراتيجية القادمة لعملها في المستقبل، وايضا تعتبر الاحصاءات ارقام للثقافة بشكل عام، من بين المنظمات التي توفر الاحصائيات (ONU، OCDE، OIT، FMI، OMC. ...)

2-2 المصادر الثانوية: نجد بها ما يلي:

2-2-1 ادلة البريد الالكتروني: " ان البريد الالكتروني من اقدم الخدمات على الانترنت وهو من التطبيقات الاكثر استخداما. ..و المهم في الذكر انه يوفر سهولة كبيرة في تبادل المعلومات المتعددة الوسائط. ..انه وسيلة قوية في الحصول وارسال المعلومات وتبادل الآراء "12. اذا كان الباحث مهتم لنقاشات ومداخلات مشتركة بين المرتبطين بالشبكة، يستطيع بفضل هذه الادلة استعادة الروابط والمعلومات المرتبطة بالتواصل الالكتروني وهناك الكثير من المحركات توفر البحث عن البحث عن طريق البريد الالكتروني وتكشف المداخلات في المناقشات، لكن مع الخبرة المتطورة لبعض المرتبطين بالشبكة يبقى التساؤل حول امكانية هذه المحركات في استرجاع كافة الاتصالات Emails.

2-2-2 مواقع البيبليوغرافيات والفهارس: هذا العنصر ضروري وعلى الباحث الإلمام بفهم الطبيعة والأنواع والأهداف من وجود هذا النوع من المصادر لأنها تعتبر أهم المواقع التي تعمل على توفير التوثيق بمعايير الوصف العالمي، يقف الباحث على مصادر دقيقة لملايين الوثائق الموجودة على الشبكة، هي على شكل قواعد معطيات بيبليوغرافية أو قوائم إحصائية، في ملفات HTML، هناك خوادم تجارية كبرى توفر الولوج إلى هذا النوع من البيبليوغرافيات مثل (Questel، Datastar، Dialog، ASE، Orbit، STN، BRS، . ..) تقدم هذه الخوادم الربط بالأنترنت ليجد الباحث نفسه امام كم هائل من البطاقات البيبلبيوغرافية والملخصات وحتى النصوص الاصلية لكن يخضع الربط للاشتراك واسم المستخدم وكلمة السر. "هناك الالاف من فارس المكتبات العالمية الوطنية والجامعية والبحثية المتاحة على شبكة الانترنت، مثل مكتبة الكونجرس، بالاضافة إلى الوصف المادي المطلوب للكتب والمواد الاخرى، وكذلك تامين رؤوس الموضوعات او الواصفات المطلوبة والضرورية لها" 13 . يرى المتخصصين ان هذا النوع من المواقع هو من الصعوبة بمكان على المبتدئين نتيجة الواجهة الالكترونية للبحث لهذا النوع، ايضا صعوبة استخدام واجهة السؤال لقواعد المعطيات نتيجة تعدد الوظائف والمتوفرة لتقنيات البحث. لكن تعتبر قواعد المعطيات للبيبليوغرافيات والفهارس بالنسبة للباحثين احدى اهم الادوات نتيجة التحديث الدوري، وتغطيتها لكل المجالات المعرفية المتطورة في العالم وهي ادوات بحث دقيقة وموثوقة ودورية وتعتبر افضل ما يدعم خطوا ت البحث في دراساته الجارية من مادة معرفية مناسبة. وتجدر الاشارة الى ان هذا النوع من قواعد المعطيات البيبليوغرافية هي صفحات غير مرئية لا يتم تكشيفها من طرف ادوات البحث للواب، والقوائم البيبليوغرافية هي الاخرى صعبة الوصول لأنها تعتمد فهارس خطية لمكتبات او فهارس مكتبات تجارية لذلك هي ليست متاحة للوصول الحر من طرف المستخدمين.

2-2-3 القواميس: تعتبر الانترنت اهم مصدر لهذا النوع من الوثائق لكثرتها ووفرتها وامكانية تحميلها مجانا، فهي تقدم نسخا مشابهة لما هو موجود على الشكل المطبوع لكن النسخ الالكترونية بالنسبة للقواميس هي الاكثر استخداما من بين مختلف الوسائط الاخرى لسهولة البحث والوصول للمصطلح نتيجة الوظائف الالكترونية العديدة خاصة مع ظاهرة الميلتيميديا، وخاصة طرق البحث اللغوي المتطورة، وتتوفر الانترنت على الكثير من انواع القواميس الاصطلاحي، المترجم، المرادفات، المتخصص وغيرها. ...

2-2-4 الموسوعات: هي الاخرى عرفت انتقالا من المطبوع الى cd ثم dvd لتنتشر مواقع الواب في هذا النوع من النشر، انها الموسوعات الالكترونية، اين لازالت الموسوعات الكبرى محافظة على نشر صفحاتها على الواب مثلbritanica وغيرها مع توفير الوصول الحر. ان نشر صفحات الموسوعات على الشبكة يتطور ليعتبر هو الاخر هندسة حقيقية لتمثيل المعلومات ليتم استغلال الايجابيات التقنية مثل التفاعلية التي يوفرها الكمبيوتر مع الوسائط الالكترونية وقد عرفت الانترنت نوعا اخر من نشر الموسوعات المفتوحة على القارئ، هذا الاخير بإمكانه ان يصبح مؤلفا وتنشر مداخلته الشخصية لقراءتها من طرف الاخرين مثل Wikipédia.

2-2-5 مجموعات النقاش وقوائم النشر: اغلب المواقع للمؤسسات والصحف والشركات ذات الطابع الاقتصادي، الاجتماعي، الثقافي، . .... وغيرها تفتح النقاش وندوات للحوار والتواصل مع جمهور خاص وتعتمد صفحات من هذا النوع من النقاشات لتحديد الاجابات المشتركة للوقوف على اتجاهات الراي، الإبداعات، و المواقف تجاه قضايا معينة، انها تعتبر احدى اهم المصادر في ذلك.

2-2-6 ادوات البحث: وهنا يمكن الاشارة باختصار ليأتي تفصيلها في المحور الثالثلمعالجة تقنيات البحث. ونقول ان ادوات البحث تقوم بتكشيف كل المواقع، والندوات والملفات والخوادم FTP وغيرها من الصفحات بطريقة الية، ويبقى على الباحث ان يقوم بعملية البحث من خلال اختياره لإحدى ادوات البحث او حتى جميعها حسب طبيعة البحث ومجاله وكم المعطيات والمعلومات المطلوبة ولغته. على الباحث الوقوف على مختلف الادوات من ادلة موضوعية ومحركات بحث ومحركات بحث ذكية، في خضم عملية البحث تواجه المستخدم مشكلة الفوضى والصمت حول الاجابات المطروحة بواسطة الطلب مسبقا. ولتوجيه البحث بنتاج مناسبة للسؤال نعالج ذلك في المحور الرابع من تقنيات البحث على الشبكة. هناك ادوات بحث اخرى تسمح بعمليات بحث دقيقة تسمى" المعامل او المنفذ الذكي " انه يستخدم الكثير من المحركات العالمية للقيام بالطلب، ويمكنه عرض البحث من خلال محرك بحث متخصص في مجال معين، يقدم نتائج دقيقة، مع امكانية تحميلها، وتوفير الوثائق بشكلها الاصلي

وقدرة تحميلها على القرص الصلب لذلك على الباحث الإلمام بهاته الأدوات لتفعيل عملية البحث في اسرع وقت.

2-2-7 ملفات المستخلصات (Brevets): تقدم لنا شبكة الانترنت الكثير من المعلومات تأتي على شكل مستخلصات وهي منظمة وثرية بالمعلومات، بل وهي مجموعة على شكل قواعد معطيات تسمح بالوصول الى هذا النوع من الوثائق.

هناك الكثير من الدول توفر لمستعملي الشبكة هذا النوع من الوثائق، انها توفر معلومات اكثر مهنية ودقيقة وعلمية، وبعض البوابات عند التسجيل توفر الوصول الى المستخلصات الوطنية وحتى الدولية المتعددة المجالات مثل (Derwent)

والوصول الى النص الاصلي للمستخلصات الاوروبية (European Portents) وايضا المستخلصات الامريكية (us Patents Full text).

2-2-7 البوابات: يتجه هذا النوع من المواقع الى فئة معينة لتحقيق قدر كبير من التفاعلية وتوفير المعلومات والروابط لنصوص فائقة وملفا ت تشمل موضوعات متخصصة، انها تعمل على توفير الكثير من المعلومات الحديثة والمتنوعة من معلومات عامة الى معلومات اعلامية، ايضا معلومات عن هيئات بعينها، منتديات للنقاش وغيرها. ....يسمى هذا النوع من المواقع البوابات، انها تعمل على التوجيه للمرتبط بالشبكة والمشتركين بهذا النوع يتم تصنيفهم بهذا النوع من الارتباط. يكمن دورها في جلب اهتمامات المشتركين وتلبية رغباتهم من خلال البوابات وخاصة توفير مصادر المعلومات لهؤلاء المشتركين ليكونوا اكثر وفاءا لهذا النوع من المواقع.

2-2-8 ملفات المحاضرات: يقدم هذا النوع من المواقع المعرفة بالمؤتمرات الدولية، ان البحث من خلال الموقع يتم بالكلمات المفتاحية او بالمرور من فئة لأخرى لتظهر النتائج على شكل بطاقات وصفية لكل محاضرة او مؤتمر بالمكان والزمان وعنوان الموقع " url " اي توفر كل العناصر البيبليوغرافية لوصف المحاضرة.

2-2-9 ملفات الاطروحات: اصبح يتم تخزين هذا النوع من الوثائق وحفظها على الشبكة ويعرض على اشكال كثيرة من الاتاحة، فكثيرا ما نجدها كنص اصلي على الشبكة، تعرض على شكل ملفات مضغوطة (. tar، . Zip) وايضا تعرض على الشبكة مثل (PDF ، HTML، RTF. ..) ان تطور تقنيات التكشيف والوصول من خلال ادوات البحث ساهم في هذه الاختيارات المتعددة للعرض، يتم نشر هذا

النوع من الوثائق على مواقع لأشخاص مصادر كالدكاترة او مشروع جامعي او تجاري وتكون قواعد المعطيات في هذه الحالة تختلف من الوصول الحر ليتم الدخول اليها بفضل الاشتراك.

2-2-10 ملفات ارقام الهواتف على الخط: ان مصالح الاتصالات السلكية واللاسلكية حاليا تقوم بوضع ادلتها التقليدية للهاتف على الشبكة وهنا يمكن توجيه الباحث الى هذا النوع من المواقع للحصول على ارقام تهمه ولتسريع وتيرة البحث والوصول الى مصدر المعلومة والدراسة.

2-2-11 خوادم FTP: تحتوي الخوادم على الملفات مع امكانية تحميلها او وضعها من طرف المستعمل، ويتم قراءة وعرض المعلومات التي تم تحميلها على القرص الصلب عن طريق ملفات بنسق متسلسل.

2-2-12WEB rings عقد المواقع: انها تقنيات جديدة لتنظيم المعرفة والمعلومات، والفكرة الاساسية تأتي من خلال جمع الكثير من المواقع المتنافسة لتكون مرتبطة ببعضها البعض عن طريق عقدة او مسار للتبحر. ان فكرة المشاركة من خلال موقع مشترك يسمى العقدة ويسمح بجمع الروابط العديدة مع مواقع اخرى، يحرر كل موقع صفحة HTML ويكون مرتبط مع الاخرين بعقدة الموقع، وفي الاخير يمكنه وضع الروابط وصفحة الاستقبال والمواقع الاخرى المتربطة، انها فرصة كبيرة توفرها التقنية الحديثة للرفع من مستوى المشاركة مع كل المواقع. ان هذا النوع من المواقع العقدة تحمل الملايين من المواقع المشاركة.

2-2-13 قواعد المعطيات للواب غير المرئي: ان عدم امكانية الدخول والوصول الى المعلومات على قواعد المعطيات والتي تحوي الكثير من الصفحات والوثائق هي من الصعوبة بمكان على شبكة الانترنت لان هذه الوثائق لم يتم تكشيفها من طرف ادوات البحث، ذلك اننا عندما نقوم بالبحث من خلال محرك بحث على موقع ما لانستطيع الدخول نتيجة واجهة البحث للمحرك، وهذا يعتبر مشكل حقيقي على الانترنت لان ادوات البحث لا تقوم الابتحليل مضمون صفحات HTML والروبوتات لا تستطيع استخراج محتوى بنوك المعطيات. ان اغلب هذه المواقع المحترفة منظمة على شكل بنوك معطيات غنية بالمضمون المعلوماتي.

اضافة الى قواعد المعطيات هناك الكثير من ادوات البحث تجهل مصادر المعلومات المنشورة على الواب مثل:

_شكل النشر: (.Rar، .Zip، .Tar، PDF، Postscript، RTF، Word، Excel...)

_محدودية الروبوتات في التكشيف وهنا لا يمكن الوصول الى بعض الوثائق الا من خلال مستوى معين، والوصول فقط الى الروابط الخارجية، وتجاهل الوثائق ذات الحجم الكبير)

_استحالة الوصول لبعض الصفحات الديناميكية généré من طرف بعض الخوادم (CGISCRIPTS، ASP، PAP)

_يمنع المؤلف تكشيف وثائق HTML بالاشارة لذلك عن طريق HTML Balise.

_هناك ايضا كل الوثائق التي يتم تحديد مصدرها بالنسبة لأدوات البحث، ولايستطيع اي نص فائق الوصول اليها.

ان الوصول الى بعض قواعد المعطيات يكون عن طريق خدمة TELNET، هذه الاخيرة تتطلب خبرة وتجارب تقنية في استخدام التعليمات لان الباحث المرتبط بتخصصات غير تقنية لن يستطيع الاعتماد عليها ذلك انها تعتمد الاستخدام النحوي المعقد.

2-2-14 ملفات الصحف: كل الاحداث السياسة والاقتصاد والثقافة والادب وكل الاجتماعيات وغيرها هي متوفرة على مواقع الشبكة، انها ملفات الصحف، انها ملفات توفرها الصحافة كمصدر لمقالاتها وتكون مدعمة بروابط من مواقع اخرى. البوابات هي الاخرى توفر ملفات صحف تكون قد جمعتها من مقالات مختارة لجرائد مختلفة. تتغير ملفات الصحف مع مرور الزمن ويمكنها ان تختفي او يتحول مضمونها. انها غير قارة. لذلك على الباحث دائما تحميل ما يتوفر لديه لاحتمال عدم وجوده مستقبلا.

3-2 المصادر من الدرجة الثالثة: وتتمثل في مجموعة الروابط نحو فئة من المصادر الثانوية للمعلومات بعض الهيئات مثل الجامعات، ومنفذي الشبكات، تقدم لمستعمليها وزبائنها صفحة HTML، لتجمع حسب الفئات مجموعة من الروابط نحو المصادر الثانوية للمعلومات مثل: _ادوات البحث (ادلة، محركات بحث، محركات بحث ذكية)

_مصادر حول المعايير.

_ الوثائق للواب غير المرئي.

_ الفهارس الخطية للمكتبات. ..الخ

"الانترنت ي المصدر الرئيسي للحصول على المعلومات المتاحة عبر الانترنت وتتيح الشبكة الوصول الى مجموعة متنوعة من مصادر المعلومات بكافة صورا واشكالا وتتميز شبكة الانترنت عن كل من المصادر المطبوعة ورقيا والمصادر الالكترونية المتاحة على اسطوانات الليزر من حيث مدى الحدثة وسهولة الاستخدام ونمط مصطلحات البحث عن المعلومات في هذا المصدر واستراتيجية البحث المتاحة " 14

3- ادوات البحث عن المعلومات الالكترونية: تنقسم ادوات ابحث الى ثلاثة انواع:

1-3 الأدلة الموضوعية: وهي مواقع متخصصة تجمع مجموعة مواقع اخرى موجودة على الشبكة لتنظمها هاته الادلة. يتم استرجاع المعلومات من خلال البحث ضمن الدليل الموضوعي باستخدام الكلمات المفتاحية، تعمل الادلة في استرجاع المعلومات على قائمة رؤوس موضوعات تصف مختلف المجالات والوثائق الالكترونية الموجودة. "يغطي الدليل الموضوعي الواحد جزءا صغيرا مما يتوافر من مواقع بالإنترنت فعلى سبيل المثال فان "ياهو" الذي يعد اكبر دليل موضوعي والأكثر شعبية يغطي اقل من 1% من الويب والأشخاص الذين ينشؤون الدليل الموضوعي هم الذين يحددون الفئات الموضوعية التي يجب أن تكون على رأس القائمة " 15 وهذا يؤكد فرضية نسبة الوصول إلى المعلومات بشكل كاف من خلال شبكة الانترنت. ونتيجة الطابع التنافسي التجاري في هذا المجال لم يصل المتخصصون في تنظيم المعرفة على الشبكة إلى لغة موحدة أو ترتيب معياري لكل المصطلحات أو الواصفات، نحن نجد أدلة موضوعية تجمع المعلومات الأكاديمية مثل " INFOMINE " وللوصول إلى المعلومات الطبية يمكن استخدام الدليل " medmatrix " أما دليل "**ياهو**" فهو يقدم مجموع المعلومات العامة ويعطي مجالات متعددة.

يجد الباحث في استخدامهللأدلة الموضوعية هذا التفاوت بين دليل واخر بل نفس الدليل هناك من الايجابيات والعوائق للبحث مثل ياهو: 16_انه احد اكبر ادلة الموضوع على الشبكة

_يغطي الموضوع بشكل واسع

_تنظيم هرمي للموضوع يساعد في عملية التصفح بشكل جيد

_اهم عوائق الدليل:

_يقبل اي موقع يقدم له ويضاف الى قواعده بدون عمل اي نوع من التقييم لقيمة ودقة محتويات المادة.

_لا يقوم بعمل اي توازن بين المواضيع

_قد لا تجد المواقع الجيدة مكانا لها في دليل ياهو بسرعة

_يكشف فقط الصفحات الاساسية

_التصنيف الموضوعي غير مفيد عادة

_البحث في ياهو يكون في العناوين فقط مع وصف بسيط للموقع بينما قد تجد في محركات اخرى النص الكامل للوثيقة المطلوبة.

2-3 محركات البحث: هو برنامج يتيح للمستفيدين البحث عن كلمات محددة ضمن مصادر الانترنت المختلفة (مواقع الواب، مواقع FTP، تلنت Telnet) ويتألف محرك البحث من ثلاثة اجزاء رئيسية هي:

برنامج العنكبوت لأجل اضافة صفحات جديدة لمحرك البحث، والبرنامج المفهرس او المكشف الذي يعتبر قاعدة معطيات تصف صفحات الواب معتمدة في ذلك على ما يقدمه لها برنامج العنكبوت اما البرنامج الثالث فهو برنامج محرك البحث الذي يقوم بأخذ الكلمات المفتاحيةللبحث في قاعدة المعطيات ليقدم في الاخير نتائج البحث للمستفيد وتعتبر محركات البحث كشافات شاملة للأنترنت وهنا يرتبط الامر بالحوسبة الموجودة وايضا تصميم المواقع وبنية قواعد البيانات. " تعد محركات البحث اهم ادوات استرجاع المعلومات على الواب والتي تعتمد في البحث على الكلمات، هي خدمة استرجاع تتكون من قاعدة بيانات تصف المصادر الموجودة على الواب، اما صفحات البواب فتحتوي معلومات متعددة الاوعية مصممة باستخدام لغة علامات الهيبرتكست (HTML) ويمكن ان يوضع لها عنوان من خلال محدد المصادر المنتظم (URL) "17.

3-3 محركات البحث الذكية: تعمل محركات البحث الذكية كادة وسيطة بين المستفيد ومحركات البحث ذلك انه عند طرح السؤال من طرف المستخدم تقوم محركات البحث الذكية بتحويله الى كافة محركات البحث التقليدية لتقدم قائمة واحدة بنتائج البحث للمستفيد. والاصل في عملية البحث هو كيفية بناء هذا النوع من المحركات ليترتب عليه صياغة السؤال وغالب الاحيان تجيب محركات البحث الذكية على الاسئلة نتيجة نموذج البحث المعتمد، وهناك نوعان محركات بحث هي بمثابة ادوات بحث عادية ومحركات بحث تعتبر كأدوات بحث ذكية. يقوم النوع الاول بإرسال السؤال الى محركات البحث والادلة الموضوعية، اما النوع الثاني فيقوم بإعادة صياغة الطلب بما يتوافق مع نموذج البحث ليصبح اكثر فهما ومقبولا مع اي اداة للبحث يتم استخدامها. تحاول بعض محركات البحث التخلص من بعض المعاملات المنطقية وتقوم بتمرير السؤال في صيغته الاصلية لكن من سلبياته ان النتائج يسودها الكثير من الضجيج والفوضى ولذلك يجب العودة الى محرك البحث الذكي وفهم نموذج البحث المعتمد والذي سيسمح للباحث بالوصول الى الاجابات الدقيقة، تأتي النتائج والاجابات حسب نوع محرك البحث الذكي المستخدم فمنها ما يقدم الاجابات منفصلة اي نتائج كل اداة على حدة وهناك اخرى تقوم بتنظيم النتائج تحت كلمات مفتاحية او عبارات. "مع ايجابيات محركات البحث الذكية الا انها تواجه مشكلات وعوائق في طرح السؤال ذلك ان اثناء وضع الطلب وفي عملية التكشيف نجد ان مستويات التكشيف وانظمة البحث تختلفان، ولذا يجب تطبيق معادلات للبحث حسب نوع ادة البحث "18.لذلك وجب التعرف على انواع محركات البحث الذكية وكيفية البحث ضرورية لأجل الوصول الى نتائج دقيقة حول موضوع البحث.

4- نماذج البحث عن المعلومات: بفضل الانظمة الوثائقية الموجودة على مستوى المكتبات ومراكز المعلومات والتوثيق يتمكن الباحث من توفير مادته العلمي وذلك بالبحث والسؤال من خلال الفهارس وقواعد البيانات وقوائم رؤوس الموضوعات وغيرها من الادوات. تسمح الانظمة الوثائقية التقليدية وخاصة الالكترونية حاليا للباحث بتحقيق بحثه بفضل عمليات الاطلاع على الرصيد الوثائقي والانتقاء للدراسة والبحث، يتم ذلك بصياغة الطلب اي بطرح السؤال باستخدام مفردات تعبر عن لغة التكشيف ومجموعة العناصر البيبليوغرافية المعروفة للوثائق مثل المؤلف، العنوان. ..

تتوفر كافة الفهارس الالكترونية على البطاقات البيبليوغرافية والتي تحوي هذا النوع من العناصر ويتم استخدام المفردات في صياغة الطلب لسؤال العنوان او المؤلف، الكلمات المفتاحية او الملخصات. ..ان اختيار الكلمات المفتاحية من خلال كلمات الموضوع او الواصفات يجب ان يتوافق هذا الاختيار مع موضوع البحث، انها بمثابة احدى المراحل الاساسية للبحث. ان البحث من خلال الفهارس بالكلمات المفتاحية يسمح بتحديد كل ادبيات الموضوع وما يتعلق به من نظريات وافكار واراء ومراجع. و الفضل في الاجابات الدقيقة يعود الى جهد الوثائقيين في عملية تكشيف كل الوثائق بالواصفات وكثيرا ما تقدم في شكل قوائم متوفرة على المواقع وهنا يستطيع المستخدم الانطلاق من خلالها صياغة السؤال لكن في كثير من الاحيان يبدا بكلمات مفتاحية هي عبارة عن محاولات او تعبيرات تحمل من الخطاء الكثير لذلك على الباحث مراعاة الاتي:

_الانطلاق من كلمات العناوين لأنها الاقرب للبحث وهي تمثل مفردات متخصصة في المكنز.

_البحث في البطاقات البيبليوغرافية لبعض الاجابات وبعض الوثائق المرتبطة بالموضوع لتساعد الباحث على التعرف اكثر على مجموع الكلمات المفتاحية.

_التعرف على نماذج البحث لاستخدامها مثل المعامل البوليني وغيرها. هذه النماذج هي على شكل برمجيات بواجهات مختلفة رغم انها تخضع لنفس المعايير الوحدة عبر العالم والتي تسمى الحقول، من خلال هذه الواجهات يمكن وضع الطلب على النماذج التالية:

1-4 النموذج الاحادي: مثلما يشير اليه هذا النوع يتم طرح السؤال من خلال حقل واحد من كافة الحقول المقترحة لتتم عملية البحث بفضل كشاف يشمل كافة الحقول وهو وسيط ومحدود النتائج، "في اي نظام وثائقي يسمح بتسيير معطيات بيبليوغرافية، احدى النماذج البسيطة هي البحث بالحقول، على احدى الميزات: العنوان، المؤلف، السلسلة، ..الخ"19.

2-4 النموذج الخبير: انه يستخدم النحو والمفردات اي اللغة اساسية في طرح الطلب، يقدم للباحث فرصة البحث الدقيق، يطرح نموذج الخبير ادوات متعددة للبحث يمكن استخدامها لتفعيل نتائج البحث وهي المعامل البوليني، المعامل الجانبي، الحذف والاخفاء. ..هي تقنيات بحث وثائقية تساعد في الوصول الى المعلومات الدقيقة بمصادرها مع كم كبير يشمل الموضوع المبحوث.

1-2-4 يستخدم هذا النموذج "و"، "او"، "الا" بالفرنسية "et "، "ou "، "sauf " وبالإنجليزية "and"، "or"، "not "، اما المنفذ "و" فيسمح بتقليص الاجابات بمعنى يقدم التقاطع بين المفردتين او الصيغتين او اكثر لمجموع البطاقات الموجودة على قاعدة المعطيات وتكون الاجابات متمثلة في كل البطاقات البيبليوغرافية المشتركة والتي تجمع الموضوعين.

اما المنفذ "او" فيسمح بتقديم عدد كبير من الاجابات للطلب المطروح من طرف الباحث اي انه يجمع بين الاجابات المفردة الاولى مع الثانية ليتحصل الباحث على مجموع البطاقات البيبليوغرافية للطلب.

في حين المنفذ "الا" يستخدم لإقصاء بعض الاجابات، وهنا يقوم النظام بحذف كافة البطاقات البيبليوغرافية غير المرتبطة بالإجابات المطلوبة.

2-2-4 المعامل الجواري: يسمح ذلك بوضع مجموعة الكلمات الواحدة تلوى الاخرى وهناك طريقتان للبحث بواسطة هاته المجموعة وهي تستخدم في البحث من خلال قواعد معطيات وثائقية ضخمة ويكون البحث من خلال النصوص والملخصات. "ان المعاملات الجوارية تسمح بتحديد تواجد كلمتين وعلاقة الاولى بالثانية، ويتوفر هذا المعامل في مجموعة من ادوات البحث، انه يساعد كثيرا بالنسبة لمفردات مرتبطة ببعضها البعض ولكنها تتواجد في اماكن متفرقة من النص "20و الطريقتان هما كالاتي:

ا- المنفذ ADJ ويسمح بتقديم الاجابات لمجموع كلمتين او اكثر مع الغاء الاجابات التي تحوي فقط احدى الكلمتين ؟

ب-المنفذ NEAR: يسمح بالبحث عن طريق طرح السؤال دون الاخذ بعين الاعتبار بترتيب كلمات الطلب وتكون الاجابات بحالات متعددة.

3-2-4 الحذف والاخفاء: في حالة الحذف يتم طرح السؤال بحذف عدد من الحروف والابقاء على جذر الكلمة للوصول الى اثراء المصطلحات المرتبطة بالموضوع وتوسيع دائرة البحث والدراسة ويتم طرح السؤال بوضع الجذر مع "* " او الرمز "$ " وهي مهمة جدا للوصول الى اسماء الهيئات والاشخاص.

اما الاخفاء فهو تقنية كتابة الكلمات بإخفاء احد حروفها استبدالها بعلامة استفهام ليتمكن الباحث من اختيار المفردة المناسبة لموضوع بحثه بعد تقديم مجموع احتمالات الكلمات بالحروف السابقة.

تعتبر هذه مجمل التقنيات وفنيات صياغة السؤال والتي تساعد الباحثين في وضع الطلب او سؤال قاعدة البيانات البيبليوغرافيةاو الفهارس الخطية ويترتب عن ذلك اجابات دقيقة وشاملة لموضوع الدراسة، يستطيع ايضا الاعتماد على البحث في النصوص الفائقة اين يوفر للمستفيد البحث بكلمة واحدة لتقدم له النصوص الاصلية مباشرة لانتقائها، و الاهم ان الباحث بعد فترة بحث متطورة يستكشف اهمية البحث من خلال استخدام رؤوس الموضوعات والكشافات، وكثيرا ما تتوفر الشبكة على ذلك، ان استطاع الباحث الانطلاق من مجموعة واصفات فيكون قد حقق لبحثه مكنزا شخصيا منهجيا للبحث والدراسة.

تساعد الانظمة الوثائقية بتوفير تاريخ لعمليات البحث التي يقوم بها كافة الباحثين وبذلك تسجل تكرار كل مفردة او واصفة ليستخدمها النظام مستقبلا كادة بحث وهكذا فهي تعمل بمعدل التكرارات لتحديد تقنيات البحث.

5- نتائج البحث: تترتب عن كيفية البحث باستخدام تقنيات صياغة السؤال نتائج يمكن تصنيفها بالصمت او توصف بالفوضى او الضجيج. ان الفوضى التي تصاحب اجابات البحث هي نتيجة اعتماد احدى ادوات البحث عن غيرها بمعنى يجب استخدام المعامل "و" لتحقيق اجابات هي اضافية للبحث والمعامل "الا" لإلغاء الاجابات غير المرتبطة بموضوع البحث. و الاهم كخطوة منهجية هو استخدام المكنز، اذا توفر للباحث مكنز شخصي على علاقة ببحثة فيكون قد حقق اهم اداة للبحث. ايضا استخدام جذور الكلمات واجزائها لكي يتصف البحث بالشمولية والدقة.

اما الاجابات التي توصف بالصمت فهي تحمل مادة معرفية قليلة جدا وتقدم المادة الاساسية للدراسة، كل ذلك يعود لعدم استخدام لغات التوثيق المتعددة والكثيرة ولتفادي الصمت في الاجابات يجب استخدام المرادفات في صياغة السؤال واستخدام المصطلحات المشتركة في المكنز، ايضا استخدام نص المصطلح بلغات مختلفة واستخدام المعامل "او" تساهم هذه الصياغة في تفادي ما يسمى منهجيا بالصمت.

يجب على الباحث صياغة السؤال او الطلب بأكثر من فرصة تسمح لمحركات البحث والادلة والمحركات الذكية بتقديم اجابات مناسبة ومرتبطة بموضوع الدراسة اي تتصف بالدقة والشمولية. على الباحث الاخذ بكثير من الكلمات لتوجيه البحث ووضع العبارات بين علامتي التنصيص واستخدام احدى المعاملات مثل البولياني والجواري والحذف والاخفاء وغيره. ..، ايضا يجب استخدام احدى الرموز

المرتبطة بأوامر البحث مثل ~ للحصول على المرادفات و*داخل الجمل للوصول بالكلمات المفقودة، ايضا استخدام الكلمة "link " مع عنوان الموقع urlليصل الباحث الى الروابط والمواقع التي لها علاقة بموضوع البحث. استخدام الكلمة " related " بفضلها يتوفر لديك كل الصفحات المرتبطة بالموضوع وهكذا بالنسبة لاستعمال اوامر البحث انها كثيرة وتدفع بالدراسة نحو الدقة وحصر كافة المادة البيبليوغرافية المرتبطة بالموضوع، من بين المفردة التي تعتبر اوامر بحث الكلمة" define " والتي تقوم بجمع كافة المفاهيم من مواقع متعددة للكلمة المطلوبة، هناك ايضا التعليمة " cache " والتي تضع الكلمة المطلوبة بلون مختلف عن كلمات النصوص في الاجابات.

هناك ايضا تعليمة "author " وتجيب عن اسماء المؤلفين، وتعليمة "intile " والتي تبحث عن كلمة بعينها داخل عنوان الصفحة url والتعليمة "allintitle " والتي تحبث عن عدة كلمات داخل عنوان الصفحة url ، والتعليمة "allintext " التي تبحث عن الكلمة داخل نص الموقع وغيرها من التعليمات او اوامر البحث المفيدة لدقة الوصول للمعلومات ومصادرها.

5- قواعد الوصف البيبليوغرافي للوثائق الالكترونية: توفر المنظمات المختصة بالوصف البيبليوغرافي مراجعات لفهرسة الوثائق الالكترونية وهي كالاتي:

_ التقنين الدولي للوصف البيبليوغرافي للمصادر الالكترونية ISBD(ER) 1997.

_القواعد الانجلو-امريكية للفهرسة الطبعة الثانية الفصل التاسع AACR2-Chap9 2002

لقد اخذت بعين الاعتبار تطوير قواعد الوصف البيبليوغرافي لاحتواء كل انواع الوثائق ومميزاتها، وتهدف لوضع مراجعات جديدة لتوحيد وتحديد القواعد المستخدمة في عملية فهرسة المصادر الالكترونية لحاجة الباحث في توثيق مادته العلمية وضبط المصادر والمراجع الالكترونية من خلال الانترنت وأيضا لأنها أصبحت أساسيات النشر الالكتروني. وهنا يمكن تحديد نوعان وهما البيانات والبرامج والمصادر الالكترونية المتاحة عن بعد، جاء تعديل المراجعة ISBD(CF) الى المراجعة ISBD(ER) وذلك بتعديل مجال القواعد من ملفات الحاسب الالي (CF) الى المصادر الالكترونية (ER) وهنا يجب توضيح مفهوم المصادر الالكترونية حسب ما توفره هذه القواعد "انها المواد التي تعتمد على الحاسب الالي في استخدمها وتنقسم الى نوعين البيانات والبرامج "21.من خلال هذا التعريف هناك المصادر الالكترونية المتاحة محليا والمصادر المتاحة عن بعد هذه الاخيرة يتم اتاحتها من خلال الاتصال بإحدى الشبكات.

لقد تم تبني التعديلات التي جاءت في المراجعة ISBD(ER) مع بعض الاضافات الطفيفة وعلى الرغم من صعوبة الاعتماد على AACR2 بوضعها الحالي لفهرسة المواد المتاحة على شبكة الانترنت، الا انها قد

استخدمت في المشروع التجريبي الذي قامت عليه OCLC والمسمى بـINTERCATالفهرسة المصادر المتاحة على شبكة الانترنت وقد نتج هذا المشروع صدور "فهرسة مصادر معلومات الانترنت: دليل الاستخدام والمرشد التطبيقي ". اعتمد المشروع بشكل رئيسي على القواعد الانجلوامريكية مع توسيع مجال بعض التعليمات بالاعتماد على ISBD(ER).

ساعد وضع هذه القواعد في تطبيقها في النشر الالكتروني للوثائق اين تم تضمين عملية النشر عناصرا بيبليوغرافية للفهرسة الالكترونية ISBD(ER) وهذا يساعد في عملية استرجاع الوثائق الالكترونية بسهولة. تم تدعم نظام مارك الذي اعتمد التعديل الخاص بمصادر المعلومات الالكترونية واقترح إضافة مارك في كل الموقع الالكترونية. ايضا اعتمدت التعديل الخاص بعناصر الوصف البيبليوغرافي من خلال اعتماد هذه البيانات داخل كل ملف لاسترجاعها فيما بعد ويتم بوضع تيجان tags اضافية الى ملفات HTML او ما يسمى بما وراء البيانات مثل: دوبلن كور Dublin Core والمشروع الدولي لإعداد وتبادل النصوص الالكترونية والارشفة الالكترونية.

والجدير بالذكر أن هناك قواعد جديدة التي ظهرت بعدISBDاوAACR2 والمتمثلة في RDAسنة 2009 وهي تعتبر ثورة جديدة ومتطورة في عمليات الوصف للوثائق الالكترونية لما لا من قدرة في استيعاب كل أنواع الوسائط خاصة الواب الدلالي، تستمد RDA اغلب قواعدها من القواعد السابقة مع أكثر مرونة واحتواء لكل مميزات الوثائق بأنواعها، لكن يبقى أنها لم تصل إلى التكوين والتطبيق في المؤسسات الوثائقية والجامعات العربية.

خاتمة: ان عملية تطبيق القواعد الاساسية لفهرسة المواد الالكترونية له من الاهمية البالغة كالتوثيق والتثبيت وتحديد المصدر وخاصة الاسترجاع السريع والمباشر للوثائق من هذا النوع ولا يجب الوقوف على فهرستها بعد استرجاعها فقط بل التحدي الحقيقي للوثائقيين هو امكانية تطبيقها من خلال البرامج والبيانات التي هي اساس النشر الالكتروني لنصل الى تحقيق نجاعة البحث بتقنياته السالفة الذكر.

الهوامش:

1- ربحي عليان مصطفى، حسن احمد المومني. اساسيات المكتبات والمعلومات والبحث الاكاديمي. اربد: عالم الكتب؛ عمان: جدارا للكتاب العالمي، 2009، ص.217.

2- ريا احمد الدباس. خدمات المعلومات في المكتبات التقليدية والالكترونية. عمان: دار البداية ناشرون وموزعون، 2012، ص.297.

3- مصطفى احمد حسنين. قواعد بيانات النصوص الكاملة وأثرها على خدمات المعلومات. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2008، ص.218.

4- المرجع السابق. ربحي مصطفى عليان، حسن احمد المومني، ص.294.

5- اشرف محمد عبده. ادارة الوثائق الالكترونية، دار الجوهرة للنشر والتوزيع، 2015، ص.377.

6- المرجع السابق. ربحي مصطفى عليان، حسن احمد المومني، ص234

7- نفس المرجع، ص235.

8_عبد الرشيد بن عبد العزيز حافظ هناء علي الضحوي. مصادر المعلومات المتاحة على شبكة الانترنت: معايير مقترحة للتقويم cybrarians journal_1. ع10، [على الخط] ، 2006 (2016/11/02)، ص4

http://www.journal.cybrarians.org/index.php?option=com_content&view=article&id=430:-2-&catid=128:2009-05-20-09-47-41&Itemid=54

9_ ناريمان اسماعيل متولي. " الانترنت وبحوث الوصف والتحليل الموضوعي والاسترجاع في الانتاج الفكري الحديث للمكتبات والمعلومات ". الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات. (يناير 2002)، مج19، ع 17، ص111.

10_متولي النقيب. مهارات البحث عن المعلومات واعداد البحوث في البيئة الرقمية. الدار المصرية اللبنانية، 2008.ص.186

11_ المرجع السابق. ناريمان اسماعيل متولي، ص. 104.

12_ Ahmed A.Bachir. Stratégie d'informaton sur internet ,p45

_13http://kenanoline.com/users/ahmedkordy/posts/203980) (20AOUT 2017 [enligne]

_14http://kenanaoline.com/users/ahmedabdellah/posts/192825) 09 OCTOBRE 2017([enligne]

15_المرجع السابق. ناريمان اسماعيل متولي، ص105.

16_المرجع السابق. متولي النقيب، ص266.

17_المرجع السابق. ربحي مصطفى عليان، حسن احمد المومني، ص230.

18_ Ibid.AhmedA.Bachir. p94

19_Claude Morzio.la recherche d'information.Paris: Armand Colin ,ADBS,p27.

20_Ibid. Ahmed A.Bachir. p79

21_رندة ابراهيم ابراهيم. "فهرسة مصادر المعلومات الالكترونية"."الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات"(يناير 2002)، مج09، ع17، ص 93.

علم التفسير من دور التأصيل إلى العصر الحديث

أ/ بن عمر عوف، الجامعة اللبنانية

الملخص:

إن علم التفسير من العلوم الإسلامية الأساسية والضرورية بحكم اتصاله الوثيق بالقرآن الكريم، فبواسطته يفهم كلام الله تعالى، وقد تميز كغيره من العلوم بمراحل عدة حتى أصبح علما مستقلا بذاته، تأصل هذا العلم على مدى قرون عديدة، وألفت فيه المئات من التفاسير، ولا يزال إلى قيام الساعة، لذا سلط الضوء على جانب من مراحل نشأته منها: مرحلة التأصيل إلى طور التفريع إلى مرحلة التجديد وختاما إلى التفسير في العصر الحديث.

Summary:

Exegesis is one of the Islamic sciences, the most ineffective because of its close relationship with the Koran, this science of establishing the correct interpretation of the sacred text is marked by evolution until it became a discipline As a whole, and expected to flow from the anchor by several specialists until today, we will highlight the major phases experienced by exegesis in its evolution including: the phase of rooting, branching, of renewal and exegesis in the modern era.

المقدمـــــــة:

لقد مر علم التفسير كغيره من العلوم الإسلامية بمراحل مختلفة تمثلت في مرحلة الوجود الواقعي والتأسيس إلى مرحلة التدوين ثم التأصيل وما يهمنا في هذه المقالة مرحلة التأصيل وما بعد حتى إلى العصر الحديث، مروراً بـ: مرحلة طور التفريع إلى مرحلة طور التجديد وصولا إلى التفسير الحديث

هل حافظ التفسير على منهجية القدماء من السلف أم طوّر أدواته ومقارباته ؟

1- هل بقي التفسير في طور التأصيل وفياً لمنهجية السابقين؟.
2- ما هي المدارس التي ظهرت في طور التفريع؟.
3- أنواع التفسير التي برزت في طور التجديد ؟.
4- ما الذي أضافه المحدثون والمعاصرون في علم التفسير؟.

التفسير في طور التأصيل:

في نهاية القرن الثاني للهجري، بدأت المرحلة في التأصيل الموضوعي المنهجي لعلم التفسير، بعد أن أصبح علما مستقلا بحد ذاته ، ممثلة في شيخ المفسرين ، وأمامهم العلامة : ابن جرير الطبري من خلال تفسيره العظيم جامع البيان في تأويل آي القرآن و في هذا السياق

يقول المستشرق إجنتس جولد تسيهر : "ولدينا في هذا الكتاب دائرة معارف غزيرة الثروة من التفسير بالمأثور يقدمها لنا الطبري نفسه" [1]

ويقوم تفسيره العظيم على ثلاثة أسس منهجية موضوعية هي:

1- تفسير القرآن بالمأثور

2- تفسر القرآن على أساس فقه اللغة، وبيان معاني الكلمات، والجمل، والآيات و الإستشهاد بالشعر

3- تقديم استنباطاته وتأويلاته وآرائه .[2]

فالتفسير في هذه المرحلة أي مرحلة التأصيل إنتقل من مرحلة التأسيس والوجود مرورا بالتدوين إلى طور التأصيل بحيث اصبح علما مستقلا وقائما بذاته له منهجيته الخاصة به .

التفسير في طور التفريع:

وتمتد هذه المرحلة من بداية القرن الرابع هجري إلى غاية ظهور مجلة العدل الدولية سنة (1286 ه)، وقد انتقل من المفسرين بعد الإمام بن جرير الطبري إلى التفريع والتنويع، فقد كان كل مفسر يفسر القرآن حسب العلم الذي مهر فيه.

وفي هذا الصدد يقول مناع القطان : " وصنف بعد ذلك قوم برعوا في شيء من العلوم، منهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن، واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه، كان القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء"[3] .

وقال أيضا: " فالنحوي تراه ليس له هم إلا الإعراب، و تكثير أوجهه المحتملة فيه، وإن كانت بعيدة...كأبي حيان، و الإخباري همه القصص واستيفاؤه عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة، ومنهم الثعلبي، والفقيه يسرد فيه الفقه جميعا... كالقرطبي، و ما صاحب العلوم العقلية خصوصا الفخر الرازي قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء و الفلاسفة...و المبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات و تسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أن لو لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعا له فيه ادنى مجال سارع إليه "[4]

إن المفسرين في هذه المرحلة نحو بالتفسير مناحي عديدة حسب اختصاص كل واحد منهم كالنحو و اللغة و الفقه و التاريخ و القصص و العلوم العقلية و الفلسفية و غيرها

أشهر مدارس التفسير في هذه المرحلة:

1- مدرسة التفسير بالمأثور، وذلك بذكر و إسراد الأقوال المأثورة (أحاديث، أقوال الصحابة أو التابعين، أو علماء سابقين)

2- مدرسة التفسير الفقهي: و ذلك بذكر المذاهب الفقهية المختلفة في فهم الآيات و استنباط الأحكام الشرعية.

3- مدرسة التفسير البياني: و التي يغلب عليها التحليلات البيانية، و اللغوية، و البلاغية،

4-مدرسة التفسير العقلي: و يغلب على هذه المدرسة المباحث العقلية و المسائل الكلامية.

التفسير في طور التجديد:

في هذه المرحلة انتقل التفسير الى مرحلة التجديد القائمة على الإبداع، والتحسين و الجده، و ذلك بطلاوة الأسلوب، وحسن العبارة، والإهتمام بالنواحي الاجتماعية، و الأفكار المعاصرة، و المذاهب الحديثة، و تبدأ هذه المرحلة بظهور الإمام محمد عبده، وتلميذه محمد رشيد رضا، و محمد مصطفى المراغي، و سيد قطب، وجمال الدين القاسمي، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد الأمين الشنقيطي وعبد الحميد بن باديس و الشيخ محمد متولي الشعراوي، ومحمد الطاهر بن عاشور و غيرهم.

أقسام التفسير:

ولم يبق التفسير حسب الرواية و الإسناد و النقل، وإنما تنوع إلى أقسام كثيرة أجملها في ثلاثة أقسام هي كما يلي:

أولا(التفسير بالرواية): و هذا الذي يسمى التفسير بالنقل، أو التفسير بالمأثور.

ثانيا (التفسير بالدراية): وهذا الذي يسمى التفسير بالرأي.

ثالثا (التفسير بالإشارة): وهو الذي يسميه العلماء (التفسير الاشاري)"[5]

فأما التفسير بالرواية(المأثور): هو أن يفسر المفسر القرآن بالقرآن، أو بالسنة، أو بكلام الصحابة والتابعين، مثاله قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ**﴾ المائدة: (1) فقد جاء تفسيرها في سورة أخرى ذلك فيقوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾ المائدة: (3).

ومثال يفسر القرآن بالسنة قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾ يونس: (26) فقد فسرها، الرسول صلى الله عليه و سلم بأنها: النظر الى وجه الله الكريم.

أما بخصوص تفسير الصحابة وهو من التفسير بالمأثور فقد قال فيه النيسابوري"إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي و التنزيل له حكم المرفوع."[6]

أما تفسير التابعين، فقد اختلف فيه العلماء والذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية"أنه حجة إذا اتفقوا"[7]

حكم التفسير بالمأثور :

ان التفسير بالمأثور يعتمد على الرواية و السماع والأخذ عن الرسول صلى الله عليه و سلم و الصحابة والتابعين وعليه قال مناع القطان : التفسير المأثور هو الذي يجب إتباعه، والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة، وهو آمن سبيل من الزلل ، و الزيغ في كتاب الله"[8]

فلا مَحيد للمفسرين من الإعتماد على التفسير بالمأثور و الأخذ به.

أشهر كتب التفسير بالمأثور :

1- جامع البيان في تفسير القرآن : لابن جرير الطبري (ت 310 ه)

2- بحر العلوم : لابن الليث بن محمد السمرقندي (ت 375 ه)

3-الكشف والبيان عن تفسير القرآن : لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (ت 427 ه)

4- معالم التنزيل: لأبي محمد الحسين بن مسعود المعروف (بالفراء) اللغوي (ت 510 ه)

5- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت 546 ه)

6- تفسير القرآن الكريم: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت 774 ه)

7- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لأبي زيد عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي(ت876 ه)

8- الدّر المنشور في التفسير بالمأثور: لأبي الفضل عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي (ت911 ه)

ومن المعاصرين :

1- محاسن التأويل: لعلامة الشام جمال الدين القاسمي(1332ه/1914م).

2- تفسير القرآن الكريم : لمحمد رشيد رضا (1354ه/1935م).

3- فتح البيان في تفسير القرآن: للعلامة صديق حسن خان القنوجي (1307ه).

4- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن : لمحمد الأمين الشنقيطي(1397ه) وغيرهم

التفسير بالرأي:

التفسير بالرأي عبارة عن تفسير القرآن بالإجتهاد بعد معرفة المفسر للكلام العرب و مناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية، ووجوه دلالاتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آي القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.

حكم التفسير بالرأي:

إذا كان التفسير بالمأثور يجب اتباعه والأخذ به فهل ينطبق هذا على التفسير بالرأي؟ ولذلك قال: محمد حسين الذهبي "اختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي ووقف المفسرون إزاء هذا

الموضوع موقفين متعارضين، فقوم شددوا في ذلك فلم يجرؤوا على تفسير شيء من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم ، وقالوا لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالما، أديبا، متسعا في معرفة الأدلة، و الفقه، و النحو، و الأخبار، والآثار، وإنما له أن ينتهي إلى ما روى النبي ﷺ، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم ، او عن الذين أخذوا عنهم من التابعين"[9]

القول الراجح: يقسم محمد علي الصابوني التفسير بالرأي الى قسمين:

تفسير محمود وتفسير مذموم

التفسير المحمود: ما كان موافقا لغرض الشارع، بعيدا عن الجهالة، والضلالة، متماشيا مع قواعد اللغة العربية، معتمدا على أساليبها في فهم النصوص القرآنية الكريمة، فمن فسر القرآن برأيه (أي باجتهاده)، ملتزما الوقوف عند هذه الشروط، معتمدا عليها فيما يرى من معاني الكتاب العزيز، كان تفسيره جائزا سائغا، جديرا بأن يسمى (التفسير المحمود)، أو التفسير المشروع .[10]

أما التفسير المذموم : فهو أن يفسر القرآن بدون علم، أو يفسره حسب الهوى، مع الجهالة بقوانين اللغة، أو الشريعة، او يحمل كلام الله على مذهبه الفاسد، وبدعته وضلالته، أو يخوض فيما أستأثر الله بعلمه و يجزم بأن المراد من كلام الله هو كذا وكذا، فهذا النوع من التفسير هو (التفسير المذموم)، أو التفسير بالباطل.[11]

ونتيجة لذلك فإن التفسير بالرأي ليس مذموما كله ولا محمودا، وإنما يخضع لشروط وقواعد وضوابط إن توفرت فيه أخذ به، وإلا ردّ على صاحبه.

أهم كتب التفسير بالرأي الجائز:

1- مفاتيح الغيب : لأبي عبد الله محمّد بن عمر الرازي الملقب (بفخر الدين)(ت606هـ)

2- أنوار التنزيل وأسرار التاويل: لأبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي (ت 685و69 هـ)

3- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت 701 هـ)

4- لباب التأويل في معاني التنزيل: لأبي الحسن علي بن محمد المعروف(بالخازن)(ت 741 هـ)

5- البحر المحيط : لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي(ت745هـ)

6- غرائب القرآن ورغائب الفرقان : لنظام الدين ابن الحسن بن محمد بن الحسن النيسابوري (من علماء رأس المائة التاسعة).

7- تفسير الجلالين : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت 864 هـ) وجلال الدين بن ابي بكر السيوطي (ت 911 هـ)

8- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت 982 هـ).

9- روح المعاني : في تفسير القرآن والسبع المثاني : لأبي الثناء شهاب الدين محمود أفندي الألوسي (ت 1270هـ) [12].

التفسير الإشاري :

من أقسام التفسير المنتشرة والمشهورة التفسير الإشاري وهو : تأويل القرآن على خلاف ظاهره لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك، والمجاهدة للنفس، فمن نور الله أبصارهم، فأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو أنقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة، بواسطة الإلهام الإلهي، أو الفتح الرباني، مع إمكان الجمع بينهما وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة [13].

موقف العلماء من التفسير الإشاري :

اختلف العلماء في التفسير الإشاري وتباينت آراؤهم، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، ومنهم من عدّه من كمال الإيمان ومحض العرفان ومنهم من اعتبره زيغا وضلالا، وانحرافا عن دين الله تبارك وتعالى.

قال ابن القيم الجوزية " وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول، تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، والتفسير على المعنى وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة ، وهذا الذي ينحو إليه كثيرٌ من الصوفية وغيرهم وهذا لا بأس به بأربعة شروط :

1- ألا يناقض معنى الآية

2- وأن يكون المعنى صحيحا في نفسه .

3- أن يكون في اللفظ إشعاراً به.

4- وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة، كان استنباط حسن[14] .

أشهر كتب التفسير الإشاري:

1- تفسير التستري : لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري(ت 383ه)

2- حقائق التفسير: لأبي عبد الرحمان محمد بن الحسين بن موسى السلمي الأزدي (ت 330ه)

3- غرائب القرآن و رغائب الفرقان: لنظام الدين بن الحسن بن محمد الحسن النيسابوري (من علماء راس المائة التاسعة)

4- تفسير ابن عربي: لأبي بكر عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الحسن الحاتمي الصوفي الفقيه المشهور بابن عربي (638 ه)

5- عرائس البيان في حقائق القرآن لأبي محمد روزبهان بن ابي النّصر، البلقي الشيرازي، الصوفي (ت 666ه)

6- لطائف الإشارات: لأبي الفتح القشيري (ت465ه)

7- روح المعاني: لشهاب الدين محمود افندي الألوسي (ت1270ه)"[15]

التفسير في العصر الحديث:

يبدأ العصر الحديث من نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أو بداية القرن العشرين الى يومنا هذا، وقد شهد هذا العصر تحكم المادية الغربية في العالم لتقدمها علميا ، و ماديا وتكنولوجيا ، وانتشرت في هذا العصر الأفكار و الفلسفات المادية والإلحادية، و بالمقابل فقد أصاب المسلمين الانحطاط، والتخلف بسبب ابتعادهم عن دينهم ، وتفشي الجهل فيهم، و التخلي عن الأخذ بأسباب الرقي و الازدهار والتواكل ، وإهمالهم الأخذ بأسباب الحضارة والعلم ممّا سهل على المستعمرين الغربيين غزو البلاد العربية والإسلامية و احتلالها، فنهبوا خيراتها ، واستعبدوا أهلها، وساسوهم سوء العذاب، وجاسوا خلال الدّيار ، وألغيت الخلافة الإسلامية سنة 1924 على يد مصطفى أتاتورك ، فدبّت الحياة من جديد في جسد الخيّرين من أبناء هذه الأمة ، تدعو الى التحرر من الهيمنة ، والتبعية ، والعودة بالأمة إلى سالف عهدها ، وذلك بالرجوع إلى الإسلام ، وتطبيق شريعته ، فظهر في هذا العصر الحديث دعاة مصلحين يدعون الى التمسك بالإسلام ، وتطبيق شريعته ، والإقبال على القرآن ، دراسة وتدبرا ، وحفظا ، وتفسيرا، وكانت جهود المصلحين منصبة على إصلاح أحوال المجتمع على أساس القرآن ، فظهرت اتجاهات عديدة في تفسير القرآن الكريم نذكر منها:

1- الإتجاه الأثري: وهذا الاتجاه يركز على تفسير القرآن بالمأثور (التفسير بالرواية) وهو تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة ، وتفسيره بأقوال الصحابة التابعين "[16]

ومن أمثلته:

-تفسير القرآن الحكيم، والمشهور بتفسير المنار: لمحمد رشيد رضا.

- محاسن التأويل : لجمال الدين القاسمي .

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : لمحمد الأمين الشنقيطي.

- التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة .

- أيسر التفاسير : لأبي بكر الجزائري.

2- الإتجاه العلمي: وهو تفسير الآيات تفسيرا علميا ، وفق قواعد العلم الحديث.

ويبينون المضامين العلمية للآيات وفق مقررات و تحليلات العلم الحديث ، وذلك سبب التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل ، مع حدوث نظريات و كشوفات علمية عديدة في مختلف العلوم (الفضاء-النجوم والكواكب، الإنسان ، الحيوان، النبات...)[17]

ومن أمثلته: -تفسير الجواهر في القرآن الكريم، المشتمل على عجائب بدائع المكونات، وغرائب الآيات الباهرات: للشيخ طنطاوي جوهري.

- التفسير الفريد للقرآن المجيد : محمد عبد المنعم الجمال.

- التفسير العلمي للآيات الكونية : لحنفي أحمد.

- البرهان: لمحمود شكري الألوسي (حفيد الإمام الألوسي)

- الإسلام والطب الحديث: عبد العزيز إسماعيل

- القرآن والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل

- الكتب المقدسة على ضوء العلم الحديث : موريس بوكاي

3- الاتجاه الاجتماعي: يركز صاحب التفسير ذي الاتجاه الاجتماعي على مجتمعات المسلمين، ويحرص على إصلاح تلك المجتمعات على أساس القرآن ويعالج أمراض المجتمع المختلفة. ومن أمثلته :

- تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا.

- تفسير المراغي : لأحمد مصطفى المراغي.

- مجالس التذكير لكلام الله الخبير : لعبد الحميد بن باديس.

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة و المنهج : د، وهبة الزحيلي.

4- الاتجاه البياني:

ظهرت تفاسير حديثة تهتم ببيان بلاغة القرآن الكريم و نحوه وصرفه وغير ذلك، ومن أمثلته:

- التفسير البياني: للدكتورة عائشة عبد الرحمان المعروفة (بنت الشاطئ).

- الجدول في إعراب القرآن: لمحمود صافي

- إعراب القرآن وبيانه: لمحي الدين الدرويش

5- الاتجاه الدعوي والحركي: ويركز هذا الاتجاه على الدعوة والحركة ، وعلى التربية والتزكية، والجهاد والمجاهدة، ودعوة المسلمين للحركة بالقرآن"[18].

ومن أمثلته: في ظلال القرآن لسيد قطب.

- الأساس في التفسير: لسعيد حوي

6- **الإتجاه العقلي:** يركز هذا الإتجاه على إعمال العقل، وعلى التحليلات العقلية النظرية، و على تقديم الرأي المحمود.

ومن أمثلته:

- تفسير القرآن الحكيم: لمحمّد رشيد رضا.

- تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي.

- تفسير جزء عمّ: لمحمّد عبده.

الخـــــــاتمة: وفي الأخير خلص هذا البحث إلى جملة من النقاط نذكرها كالتالي:

1- الإبقاء على الإسناد في مرحلة الرواية.

2 – كثرة الخلافات في التفسير بعد عصر الصحابة.

3- تأثير تفسير الطبري على باقي المفسرين.

4- الإبقاء على الإسناد و الرواية حتى منتصف القرن الخامس هجري.

5- التخلي عن نقد المرويات وتمحيصها في المرحلة الثالثة، وذلك بداية من القرن الرابع هجري في الاغلب الاعم.

6- أهمية تفسير الطبري على باقي المفسرين.

7- بروز مدارس تفسيرية مختلفة منها التفسير بالمأثور وبالرأي، و الإشاري.

8- موقف العلماء المسلمين من التفسير بالرأي والتفسير الإشاري، فمنه المحمود ومنه الذي يؤخذ به والمذموم الذي يطرح ولا يلتفت إليه.

9- تفسير كل عالم القرآن حسب العلم الذي مهر فيه.

10- ظهور توجُّهات تفسيرية حديثة متأثرة بالحركة الإصلاحية التي قادها جمال الدين الأفغاني و محمد عبده.

11- ميلاد تفاسير معاصرة متأثرة بالثورة العلمية و التقنية الغربية.

الهوامش:

1 - جولد تسيهر : مذاهب التفسير الإسلامي، تعريب : عبد الحليم النجار – دار إقرأ- بيروت، لبنان، ط 3، 1985م ص: 517.

2- ينظر كافي منصور: مناهج المفسرين في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق- دار العلوم للنشر والتوزيع – عنابة، الجزائر، ب، ط، ب، ت، ص: 80 .

3- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن – مؤسسة الرسالة ناشرون – بيروت، لبنان ط35، 1426هـ/2005م، ص : 315 .

4- مناع القطان: المرجع نفسه، ص: 316 .

5- ينظر محمد علي، الصابوني: البيان في علوم القرآن – مطابع البعث- قسنطينة، الجزائر، د، ط، 1407ه/1986م ص: 63، و محمد عبد العظيم ، الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن- دار الفكر- بيروت، لبنان، ط1 1424ه /2004م ، ج 2، ص: 11.

6- ينظر محمدبن صالح، العثيمين: شرح أصول التفسير، وشرح مقدمة التفسير لابن تيمية، إعتنى به محمد عبد الله المعري – المكتبة الإسلامية- القاهرة، مصر، ط1، 1426ه/ 2006م، ص : 347.

7- ينظر مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص: 311.

8- المرجع نفسه، ص : 320.

10- محمد حسين، الذهبي: التفسير و المفسرون- مكتبة مصعب بن عمير- مصر، د، ط ، 1424ه/2004م ج 1، ص: 183. وينظر، الزرقاني : مناهل العرفان، مرجع سابقن ج2، ص: 36 فما بعدها.

10- ينظر، الذهبي : مرجع سابق، ج1، ص: 183فما بعدها. و الصابوني : البيان في علوم القربن، ص: 155.

11- ينظر، الصابوني : المرجع نفسه، ص: 155.

12- الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق ج 1، ص: 205.

13- ينظر، الزرقاني، مناهل العرفان، مرجع سابق، ج2، ص: 54.

14- مناع القطان : مباحث في علوم القرآن ن مرجع سابق، ص: 327.

-15

ينظر، الذهبي : التفسير والمفسرون، مرجع سابق، ج2، ص: 112فما بعدها و الزرقاني: مناهل العرفان، مرجع سابق، ج2، ص: 58. و القطان : مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص: 327.

16- ينظر، كافي منصور، مناهج المفسرين في العصر الحديث، مرجع سابق، ص: 112.

17- كافي منصور: المرجع نفسه، ص: 113.

18- كافي منصور : المرجع نفسه، ص: 114.

ضوابط ومقاصد السلوك الاستثماري في الاقتصاد الإسلامي

الدكتور واثق عباس عبد الرحمن محمد
قسم الاقتصاد الاسلامي، كلية العلوم الاسلامية والعربية
جامعة وادي النيل، السودان

ملخص:

تتناول هذه الدراسة ضوابط ومقاصد السلوك الاستثماري في الاقتصاد الاسلامي حيث تشكل ضوابط المنهج الاسلامي طريق من بيده المال وتوجهه الى استثماراً طيباً حلالاً من خلال الضوابط السلوكية الذاتية، والضوابط الشرعية الثابتة، والضوابط الاقتصادية، والتي تنظم النشاط الاقتصادي، بينما تشكل مقاصد الشريعة في الاستثمار تنويرا وفهما سليما للنصوص وتطبيقها، ولقد خرجت هذه الدراسة بعدة نتائج منها أن التزام المستثمر بهذه الضوابط يعد نجاحاً وفلاحاً في العملية الاستثمارية، وهو من باب التوسعة والرحمة وتنظيم المعاملات بين الافراد في المجتمع.

Abstract :This study considers the Islamic controls for seats of power investment in economy, where it turns out that Islamic economy constitutes forms and principle for the capital owner investor. The way for the investor is directed in a way that goes in accordance with sharia fixed principles, which organize the economic activity. It actually conducts the self-behavior control, as it represent a reasonable way for the comprehension of the text in investment.
The study concluded that stick to these investmental principle achieves great success in the process for both the individual and the society.

مقدمة: وضع الإسلام منهجاً واضحاً متكاملاً لاستثمار المال، ونظم بذلك عملية الاستثمار مما يضمن سيرها على المستوي الكلي والجزئي بطريقة واضحة وسلسة. فضوابط المنهج الاسلامي للاستثمار ليست من باب تقييد الحرية بل هي توضيح لمعالم الطريق المؤدى إلي الربح بالطرق المشروعة وحوافز وضمانات له. والفرد حين يلتزم بهذه الضوابط والمقاصد في النشاط الاقتصادي، فهو يلتزم بها امتثالاً لأوامر الحق عز وجل، أي كجزء من العقيدة الإسلامية فهي تعكس السلوك العقائدي للفرد، أي أن الإسلام ينظر إلي النشاط المتعلق باستخدام الملكية والتصرف فيها "الاستثمار" على أنه ممارسة للعقيدة، أي أن الامر في الاستثمار ليس فقط مقدار العائد المادي وحده، وإنما الأمر مرتبط بالعقيدة وبالسلوك.

مشكلة البحث: تكمن مشكلة البحث في توضيح:

- ضوابط السلوك الاستثماري.
- مقصد الشريعة من الأوامر والنواهي.

أهمية البحث :

تنبع أهمية البحث في كونه يشرح مقصد الشريعة من ضوابط الاستثمار والتي يعتبرها الكثيرين تقييداً للنشاط الاقتصادي.

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة الى الاتي:

بيان منهج الإسلام في استثمار المال.

صياغة الضوابط التي تنظم العملية الاستثمارية.

توضيح الحكمة من هذه الضوابط.

فرضيات البحث:

ان للمنهج الاسلامي في استثمار المال منهج متكامل منظم متعدد الفرص والاختيارات.

منهجية البحث:

لضمان انجاز ومتابعة البحث وإيجاد الحلول للمشكلات القائمة على ضوء الفروض يستخدم الباحث المنهج الوصفي والمنهج الاستقرائي.

تنظيم الورقة:

1. ضوابط الاستثمار.
2. مقاصد الشريعة في الاستثمار.
3. النتائج والتوصيات.

1. ضوابط الاستثمار

ضوابط السلوك الاستثماري في الاسلام نابعة من داخل ثلاث، مدخل ذاتي يجب ان يفهمه ويوعها كل مسلم فهو جزء من تكوين الفرد المسلم، ودخل تشريعي ثابت يحدد وينظم التصرفات الاستثمارية للمسلم، ومدخل يتعلق بالحياة الاقتصادية.

1.1. الضوابط السلوكية الاولية

1.1.1. القيم الانسانية

ان الله قد كرم بني ادم وجعله خليفة له في هذه الارض، ويستدعي ذلك معاملته بمقام الخلافة التي عرضها الله على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وحملها الانسان، مما يعني أن الكرامة الإنسانية قيمة يجب أن يحسب لها حساب، وأن يعلن صراحة أن الخلافة لا تكون إلا بحفظ هذه الكرامة الإنسانية، وذلك يكون بقيمة إسلامية أخرى وهي العدل وخاصة الاقتصادي والاجتماعي، وقيمة ثالثة هي شرف العمل والكسب الحلال، وقيمة رابعة هي الإحسان، فيما يعمل ويؤدي وفي جميع أوجه المجالات، وناتج هذه القيم "الكسب"، فيعامل بقيمة أخرى هي التزكية والتطهير والإنفاق والتوجه بكل ذلك إلي الله سبحانه وتعالى(1: د.ت، ص33).

والاسلام يهدف إلي تحقيق اكبر قدر من التنمية لصالح الشعوب وتحقيق العدالة والمساواة والتعاون بين بني البشر كقيم عامة، والإسلام بمنهجه المتكامل الخاص بالتعامل بين أفراد المجتمع، نجده ماثلاً في عدة صور منها قوله تعالي: "وتعانوا على البر والتقوى ولا تعانوا على الإثم والعدوان"(سورة المائدة: الآية2)، ولا شك على أن التعاون لمصلحة التنمية هو تعاون على البر وعلى الأمر المحمود الذي يأمر به الإسلام(14: 1985، ص70).

1. 1. 2. التنمية الشاملة.

الإسلام يعمل على أن تكون التنمية شاملة لكل الجوانب الروحية والخلقية والمادية للفرد والمجتمع مما يؤدي إلي تحقيق أقصى رفاهية اقتصادية واجتماعية ممكنة، إذن فالتنمية الاقتصادية في الإسلام جزء من مشكلة تنمية وبناء الإنسان، فهي تسير جنباً إلي جنب مع التنمية الاجتماعية، وهي تشمل الجوانب المادية والروحية والخلقية(26: 1992، ص255).

والهدف الأساسي لأي مستثمر هو تحقيق اكبر منفعة ممكنة، منفعة تشمل تعظيم الربح المادي للفرد والمجتمع واي منافع اخري للمجتمع، فتحقيق منافع المجتمع المسلم ليست مجرد مكاسب مادية قصيرة الأجل للمستثمر فقط، وانما هي منافع تنموية تتصدي لقضية التنمية بإبعادها المختلفة، ومن هذه النظرة لا يكون هدف تنمية المجتمع متعارضاً مع الربح المادي للمستثمر، فنماء المال مطلوب في المنهج الإسلامي للاستثمار لأنه يعكس مدى سلامة التخطيط والتنفيذ وهو ما يعبر عنه بالإتقان، فيمكن للمستثمر أن يوائم بين تحقيق عائد مجزي من استثماراته وتقديم خدمات للمجتمع، بل وفي ظل المنهج الإسلامي يجب التضحية بجزء بسيط من العائد حتى يمكن تقديم هذه الخدمات(5: 1986، ص59).

اذن الاستثمار في المنهج الإسلامي له صفة عقدية مستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية، وصفة استثمارية وهي تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع.

1. 1. 3. العائد الاجتماعي

يهدف الإسلام من وراء الاستثمار الي ضرورة تحري مصلحة ومنفعة المسلمين العامة ويشهد لذلك ما رواه أبو عبيدة وغيره من أن رجلاً بالبصرة يقال له نافع أبو عبد الله وكان أول من افتلى الفلا بالبصرة، أتى سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: إن بالبصرة أرضاً ليست بأرض الخراج ولا تضر بأحد من المسلمين، وكتب أبو موسى الأشعري ﷺ إن كنت لا تضر بأحد من المسلمين، وليست من أرض الخراج فأقطعها إياه(16: 1999، ص211)، إذن فالإسلام يهدف من وراء الاستثمار إلي العائد الاجتماعي بصورة عامة إي لا يكون الاستثمار هدفه الأول والأخير هو الربح والفائدة أي لا يكون محكوماً ببعض المتغيرات الضيقة ولا بالمكاسب الخاصة، بل يجب أن يهدف إلي الفائدة الجماعية للمجتمع(22: 1990، ص117).

1. 1. 4. تحديد الحقوق والواجبات

الإسلام يقيم نظامه على أساس تحديد الواجبات والحقوق، فحين يعطي الأفراد الحرية الاقتصادية ملكاً واستثماراً، يحملهم مسؤولية رعاية الفقير، واجتناب الحرام والاستقلال، وإذا كانت

الحضارة المعاصرة تعتبر بعض المبادئ كالحرية والمساواة والعزة والشرف حقوقاً للإنسان يتمتع بها إن شاء، فإن الإسلام جعلها فروضاً واجبة، وهي ما يسمي "المكلف" فلكل إنسان عاقل بالغ ذكراً كان أو أنثى "مكلف" أي مسؤول دون اعتبار لأي فارق من الغنى أو اللون أو الجنس سواء كان حاكماً أو محكوماً أنه مكلف من الله تعالى يعمر هذا الكون(12: 1992، ص116)، كما أن الشارع أوضح أن المباحات للإنسان كثيرة، والمحاذير التي عليه اجتابها كثيرة أيضاً وواضحة وهي تمثل ضوابط لضبط تصرف الإنسان(17: د.ت، ص113).

1. 1. 5. السلوك الاستثماري الحميد.

السلوك الاستثماري في الاسلام حميد، فالإسلام يقوم على الصدق وعدم الغش خاصة في التجارة ومثال لذلك الدعاية والإعلان للسلعة، فالإسلام ينهي عن تدليس الحقيقة في كافة الأمور، فلا يبالغ البائع في مزايا سلعته على غيره، بغرض حثهم على الشراء، ولا يحلف كذباً حتي وان ظن انه مسبب لرواج السلعة إلا أنه يكون سبباً في ضياع الأجر من الله على العمل في مصالح المسلمين وفي محق الربح(21: 1981، ص215)، كما أن عملية تغليف وتعبئة وعرض السلعة يجب أن تكون من السهولة بمكان للتعرف على السلعة وحقيقة مواصفاتها، حتى يكون التعامل مانع للضرر بين البائعان، فقد قال ﷺ: "من باع عيباً لم يزل في مقت الله ولم تزل الملائكة تلعنه"، أي يجب أن تكون الوحدات المتبادلة من السلعة معروفة الوزن أو المقدار دون غش في ذلك حتى تسود المجتمع الثقة في التعامل كما نهى الإسلام عن البيوع التي فيها تدليس أو جهالة أو غش(19: 1999، ص215).

فالإسلام حين أعطى الإنسان حرية التصرف في الملكية، أحاطها بالاحترام وعدم العدوان عليها يقول تعالى: "يأيها الذين امنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل"(سورة النساء: الآية28)، ويقول عليه الصلاة والسلام: "لا يأخذ أحدكم متاع أخيه جاداً ولا لاعباً، وإذا اخذ أحدكم عصا أخيه فليردها له"، فصلاح السلوك الاستثمار يكون بالالتزام بالضوابط المانعة للتعدي على حقوق الآخرين، بل ووضع لها عقوبات لضمان الالتزام بها(11: 1995، ص150).

1. 1. 6. العدالة

العدالة في الاسلام شاملة لكافة مراحل العملية التجارية، لطرفي التعامل، وحجم المنتجات، والتقدير العادل للرسوم.

فمن العدالة أن لا نبخس الناس أشياءهم، قال تعالى: "ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين"(سورة هود: الآية80)، والعدالة تشمل حماية المستثمر وماله، حتى ولو مات فماله مصون يجب رده لأصحابه لأنه أمانة، وتشمل العدالة أيضاً كفالة حقوق المسلمين أنفسهم فيجب عدم إلحاق الضرر أو المفسدة فيهم بالنسبة للسلع والمنتجات المصدرة أو المستوردة فلا تصدر السلع التي يحتاج إليها المسلمين ولا يستورد السلع التي تفسد العقل أو البدن مما يحرمه الإسلام.

1. 2. الضوابط الثابتة:

1. 2. 1. منع الحصول على الثروات بالطرق غير المشروعة.

فالإسلام يمنع من الحصول على الثروات بالطرق غير المشروعة، مثل الربا والاحتكار والغش والاستغلال، لأنها أمراض تهدد الكيان الاجتماعي للعلاقات بين الأفراد والمجتمعات، وتخل بحالة المسلم والاستقرار فيه، ولقد شاعت كثير من هذه المظاهر في التعامل الدولي الحالي فمعظم الصفقات التي تعقد بين الدول يشوبها وسيلة منها إن لم يكن أكثر من تلك الوسائل غير المشروعة نظراً لعدم التكافؤ في العلاقات بين الدول المتعاقدة ولعدم وجود القواعد القانونية(14: 1985، 289).

1. 2. 2. منع افساد الموارد.

من المعلوم أن الموارد الطبيعية ملك للجميع، أي أنها لا يمكن أن تستثمر إلا برضا وبعدالة للفرص، فمثلاً يجب أن لا يكون هنالك تدمير للأرض، أي استعمالها استعمالاً سيئاً لدرجة تدهورها فتنزع منه ويعاقب، فإفساد الموارد جريمة كبري واصلاحها من أكبر الحسنات، لأن الموارد ملك للجميع، فيجب استغلالها بما يعود بالنفع على الفرد والمجتمع (15: 2005)، لذا فالشارع الحكيم عنى بالحفاظ على المال وعدم اكتنازه وحفظه يكون باستثماره، فقد رسم الشارع الحكيم مجموعة من التدابير الكفيلة بالحفاظ على هذا المقصد، ومنها اعتبار الاستثمار واجباً شرعياً يثاب المكلف على فعله ويعاقب على تركه بلا عذر(28: 2000، ص65).

1. 2. 3. منع التصرفات غير الرشيدة.

حرم الشارع جملة من التصرفات التي تحول دون تحقيق هذا المقصد في أرض الواقع كما في تحريم الاكتناز، فالاكتناز يحول دون الحفاظ على تنمية المال وزيادته، فهو يعطل المشاركة في النشاط الاقتصادي، مما قد يؤدي إلي زيادة نسبة العطالة في المجتمع، فتحريم الاكتناز يعد تدبيراً من التدابير الرشيدة التي اتخذها الشارع الكريم للحفاظ على مقصد استدامة تنمية المال وزيادته، وهنالك وسائل أخرى للحفاظ على المال وتنميته حرمها الشارع مثل الربا والغش والإسراف والتبزير.

1. 2. 4. منع الاحتكار.

تنمية المال واستثماره لا تنحصر في أيدي فئة قليلة من المجتمع، بل تكمن في إشراك عدد كبير من الأيدي العاملة في العمل الاستثماري من أفراد المجتمع لقوله تعالى: "كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم"(سورة الحشر: الآية7)، لذا حرم الشارع الاحتكار، من منطلق أنه يؤدي إلي عدم تداول المال وتقلبه في أيدي متعددة، فالمحتكر يتحكم في السوق ولا يسمح لسواه أن يجتلب ما يجتلبه أو يصنع ما يصنعه، ويحدد الأسعار فرضاً، فيشق على المجتمع، ولهذا لعن الإسلام المحتكر، قال ﷺ: "الجالب مرزوق والمحتكر ملعون"، ويمكن القول أن عدم استمرار تداول المال بسبب الاحتكار يقود المجتمع إلي الطبقية ويفضي إلي شيوع الجرائم والاستقراء في المجتمعات(28: 2000، ص74).

1. 2. 5. سلامة العملية الاستثمارية.

المستثمر هدفه مرضاة الله، فتصرفه محكوم بطاعة الله واجتناب نواهيه في السر والعلن، فالحلال والحرام لا ينطبق على نوعية الاستثمار فقط، وإنما يشمل أيضاً أساليب وطرق الاستثمار، أي أن كل العملية الاستثمارية تكون سليمة من الناحية الشرعية، جاء في تفسير الآية "يأيها الذين امنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم"(سورة النساء: الآية29)، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن التجارة المشروعة التي تكون عن تراض بين البائع والمشتري(30: 1990، ص247).

1. 3. الضوابط الاقتصادية:

إن ضوابط الإسلام المتعلقة بجوانب الحياة الاقتصادية سواء في مجال الإنتاج والعمل أو المعاملات المالية والتجارية أو بالنسبة لعلاقات الأفراد مع بعضهم البعض وعلاقاتهم بالمجتمع في دائرة النشاط الاقتصادي فحدودها واضحة وشاملة فهي لم توضع لذاتها وإنما وضعت للبشرية ولتنظيم حياة البشر في المجال الاقتصادي(8: 1993، ص25).

1. 3. 1. المال وسيلة وليس غاية.

ينطلق المستثمر في الاسلام من مفهوم ان المال ليس وسيلة للتعالي والبغي والطغيان، كما في قصة قارون في القران الذي آتاه الله من ماله فتعالى على الناس، فهلك، فالطغيان بالمال وسيلة للدمار والخراب، قال تعالي: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليه القول فدمرناها تدميرا"(سورة الاسراء: الآية16)، فنظرة الفرد للمال أنه لله وأنه وسيلة وليس غاية، فالنظرة الخاصة تولد الانانية والطغيان ثم الهلاك (29: د.ت، ص84).

1. 3. 2. أولوية المسلم في التجارة الدولية.

في مجال التجارة الدولية لابد أن تكون للدول الإسلامية الأولوية والأفضلية في التبادل التجاري والاقتصادي، بحيث تكون العلاقة مع الدول غير الإسلامية إلا للضرورة، ووفقاً لما يقتضيه الصالح العام للمسلمين في إدارة شؤونهم وسد حاجاتهم، فالدول الإسلامية أولى بالتبادل والتعاون في المنافع، وفي قصة أهل سبأ دليل، فقد كانوا في نعيم فلما جحدوا أصيبت زروعهم وأشجارهم ولم يبق لهم إلا ما يسد جزء يسير من حاجتهم مما اضطروا إلي الاستيراد من الخارج وجههم الله تعالى أن ينشدوا ذلك ابتداءً في بلاد مؤمنة وموحدة بالله سبحانه وتعالى وهي من القرى التي "باركنا فيها" فهذه دلالة على وجوب التعاون التجاري والاقتصادي بين الجماعات الإسلامية.

1. 3. 3. تحقيق مصلحة المسلمين.

ان اباحة تعامل المسلمين مع غيرهم يكون في اطار ما يحقق منافع ومصالح أساسية للإسلام والمسلمين، أي أن إباحة التعامل الاقتصادي معهم منوطة بجلب المنفعة أو دفع المضرة عن الدولة الإسلامية، وعدم تمكينهم من السلع الاستراتيجية أي لا توضع في الأولوية(23: 1996، ص84)، أي عدم تمكينهم على كل ما فيه قوة على أهل الإسلام، وأن يكون النشاط في حدود المنفعة العامة، ورفض أي

نشاط لا يسهم في حفظ الضرورات الخمسة "الدين والنفس والعقل والنسل والمال"، أو يخل بتوازنها وتماسكها أو يؤدي إلي الفساد(31: د.ت، ص312).

2. مقاصد الشريعة في الاستثمار

2. 1. أولويات الاستثمار

أن من مقاصد الشريعة للاستثمار، إتباع الاستثمار لمنهج الأولوية في الاستثمار لتحقيق المقاصد الشرعية، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام أحدها أن تكون ضرورية والثاني أن تكون حاجيه والثالث أن تكون تحسينية(3: 2001، ص7)، أما الضرورية فهي ما لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجد مصالح الدنيا على استقامة، وأما الحاجيات فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلي الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، وأما التحسينات فهي الأخذ بما لا يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسة التي تأنفها العقول الراجحات(6: 2003، ص286).

فتوجيه الاستثمار يجب ان يكون نحو الانشطة التي تحقق وتحافظ على المستوي الضروري من الحياة وصوناً للأركان الخمسة وهي الدين والنفس والنسل والعقل والمال، فحفظ الدين يتطلب تخصيص قدر كافي من الاستثمار ولإنشاء المساجد والمعاهد الخاصة بالعلوم الإسلامية، وحفظ النفس يتطلب توفير المأكل والملبس والمشرب والمسكن .. الخ، وحفظ العقل يتطلب بُعد الاستثمارات من المجالات المحرمة التي تضيع العقل كالمسكرات وغيرها، وحفظ النسل في أن تكون المشروعات موجهة للتنمية المستقبلية للنسل، أما حفظ المال فالمال هو لله وحده والإنسان خليفة في استخدامه فهو أمانة في يد البشر، والمحافظة عليه تكون في ترشيده وتوجيهه في ما شرع الله تعالى فحفظ المال يكون بنموه بالبحث عن أفضل المجالات الاستثمارية، وبعد إشباع الضروريات يأتي إشباع الحاجيات وهي تشمل الأشياء والأفعال التي تطلبها الحاجة لأجل التوسعة ورفع المشقة كالتمتع بالطيبات، والحاجيات مكملة للضروريات، ثم إشباع الكماليات أي الاهتمام بالتحسينات والكماليات، وهي تلك الأمور التي لا تصعب الحياة بتركها، ولكن مراعاتها مما يسهل الحياة ويحسنها أي في هذه المرحلة توجه الاستثمارات إلي تحسين نوعيات المنتجات وتحسين الراحة والرفاهية للإنسان مثال ذلك الاستثمار في إنتاج سلع وخدمات راقية لا تتعدى نطاق الطيبات من الرزق التي أحلها الله لعباده(9: 1990، ص118).

2. 2. مقصد التحريم.

يتضح من الآيات الدالة على تحريم الربا أنها تنطوي على أحكام قطعية الدلالة في التحريم فضلاً عن أنها لم تشفع بقيام حالة الضرورة كاستثناء يرد على هذا الأصل العام في التحريم، كما هو الشأن بالنسبة لتحريم أكل أطعمة معينة كالميتة والدم ولحم الخنزير، أو بالنسبة لحالة الإكراه الذي يتعرض له المسلم في دولة غير إسلامية، فالحكم في الآيات والأحاديث المتعلقة بالربا مماثل – في قطعيته وعمومه وإطلاقه – للحكم الخاص بتحريم دخول المشركين منطقة المسجد الحرام للإتجار مع المسلمين

حتى مع تيقن الضرر المادي للمسلمين من جراء الالتزام بهذا الخطر، فالواجب الابتعاد عن الحرام في كل اوجه المجال الاستثماري.

2. 3. مقصد الضرورة

وهي مشتقة من الضرر وهو النازل بما لا موضع له، قال المالكية الضرورة هي الخوف على النفس من الهلاك قطعاً أو ظناً أو هي خوف الموت، ولا يشترط أن يصبر حتى يشرف على الموت، وإنما يكفي حصول الخوف من الهلاك ولو ظناً، قال الشافعية من خاف من عدم الأكل على نفسه موتاً أو مرضاً مخيفاً أو زيادته أو طول مدته أو انقطاعه عن رفعته أو خوف ضعف عن مشي أو ركوب ولم يجد حلالاً يأكله ووجد محرماً لزمه أكله، والضرورة تكون أو يصح الأخذ بها أو بحكمها وتخطي القواعد العامة في التحريم والإيجاب بسببها عندما تكون فعلية قائمة، أي أن يكون خوف الهلاك أو التلف على النفس أو المال يغلبه الظن حسب التجارب، أو أن يتحقق المرء من وجود خطر حقيقي على إحدى الضروريات الخمسة(6: 2003، ص286).

ومقصد الشرع عندما جعل للمضطر إباحة بقدر ما تحفظه من الهلاك ويستطيع أن يعيش بدونها أو بدون أكل المحرم إلا بقدر ما يشفي رمقه لا أكثر، سواء كان على المستوى الفردي أو الجماعي، هو حفظ النفس البشرية التي كرمها الله سبحانه وتعالي وحتي تقوي علي اداء الفرائض والقيام بعمارة الارض وواجب الخلافة، فواجب الوالي اذا اضطر المجتمع، بأن يُمَيِّز في الاستثمار بما يكفل الحياة بالقدر والكيفية المعلومة .

2. 4. مقصد التكليف.

إن الشارع لم يقصد من التكليف المشقة، وفي ذلك آيات دالة على ذلك، قوله تعالى: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"(سورة البقرة: الآية185)، وقوله تعالى: "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها"(سورة البقرة: الآية 286)، ولو كان قصد الشارع المشقة لما كان مريداً لليسر ولا للتخفيف، وما ثبت من مشروعية الرخص، وهو أمر مقطوع به، ومما علم من دين الأمة ضرورة كرخص القصر والفطر والجمع وتناول المحرمات في الاضطرار، فإن هذا نمط يدل قطعاً على مطلق رفع الحرج والمشقة وما جاء من النهي عن التعمق في التكليف لما كان ثم ترخيص ولا تخفيض(2: 1991، ص93).

2. 5. لا ضرر ولا ضرار.

لقد وضع الرسول ﷺ القاعدة الخالدة التي لا تخطي في تشريع مال أو اجتماع أو علم، يقول ﷺ "لا ضرر ولا ضرار"، وهي أساس إجماع فقهاء الشريعة على أن كل ضرر مؤكد مرفوع، وكل مصلحة مؤكدة مجلوبة وأن أحكام النصوص مشتملة على مصالح العباد ودافعة لأضرارهم، وما تكثر منفعته وتقل مضرته يكون مندوباً، وما يكون الضرر فيه مؤكد فهو حرام وما يغلب الضرر فيه يكون مكروهاً على مقدار ضرره، وما يتساوى فيه النفع والضرر يكون مباحاً، وعند التعارض بين الواجبات يقدم أقواها نفعاً وما لا يقبل التأجيل، وعند التعارض بين المحرمات والأضرار أي واحدة يقدم أقلها ضرراً فمن تردد

بين الموت جوعاً وأكل مال الغير أكل من مال الغير ولو بالإكراه(24: 1994، ص15). حتى أن الضرر وكما يرى ابن القيم أنه من الحالات التي يجبر فيها الوالي بحكم ولايته المالك على بيع ما يملكه منعاً للضرر، يقول ابن القيم "أن عملية نزع الملكية من الأفراد لصالح الشعب أمر واجب، ويأثم الحاكم إن لم يقم به. قال إذا قدر قوماً اضطروا إلي السكن في بيت إنسان لا يجدون سواه أو النزول في خان مملوك أو غيرها وجب على صاحبه بذله لا نزاع"(4: 1986، ص184).

2. 6. الضرورة تقدر بقدرها.

ومعنى القاعدة أن التسهيلات الشرعية الاستثنائية لا تقتصر على حالات الاستثناء من قواعدها العامة للاحتياج إليها، فقد ورد في السنة أن النبي ﷺ نهى عن بيع ما ليس عند الإنسان ورخص في السلم، فترخيص الشريعة في السلم مع أنه بيع المعدوم الذي منعه النص العام، إنما هو نظراً لحاجة كثير من الناس إلي بيع منتجاتهم واستلاف أثمانها قبل إنتاجها للاستعانة على الإنتاج، وجميع الأحكام التي قدر الفقهاء تبدلها لتغيير الزمان أو لفساده، إنما تقرر أحكامها الجديدة وتتبدل تبعاً للحاجة، واعتبار العرف عاماً كان أو خاصاً وتحكيمه في الأحكام إنما هو استجابة لرأي الحاجة، ومن هنا يقدر الفقهاء أن الضرورة تبيح المحظور سواء كان الاضطرار حاصلاً للفرد أو للجماعة، والحكم الاستثنائي الذي يتوقف على الضرورة هو إباحة مؤقتة لمحظور ممنوع بنص الشريعة وتنتهي هذه الإباحة بزوال الاضطرار وتتقيد بالشخص المضطر(18: د.ت، ص168)،(10: 1988، ص456)، وقد قرر فقهاء الحنفية والشافعية أن الحاجة في حق الناس كافة تنزل منزلة الضرورة في حق الواحد المضطر، يقول الجويني "أن الحرام إذا طبق الزمان أهله، ولم يجدوا إلي طلب الحلال سبيلا فلهم أن يأخذوا منه قدر الحاجة، ولا تشترط الضرورة التي نرعاها في إحلال الميتة في حقوق آحاد الناس، بل الحاجة في حق الناس كافة تنزل منزلة الضرورة في حق الواحد المضطر فإن الواحد المضطر لو صان ضرورته ولم يتعاط الميتة لهلك، ولو صابر الناس حاجتهم، وتعدوها إلي الضرورة، لهلك الناس قاطبة، ففي تعدي الكافة الحاجة من خوف الهلاك ما في تعدي الضرورة في حق الآحاد"(13: 1990، ص171).

2. 7. اولويات اللوازم الخمس

أن إشباع الحاجات يكون تبعاً لمدى أهمية السلع والخدمات في تحقيق اللوازم الخمس، إلي أنه يتعين المزج بين الأوزان المعبرة عن الأهمية للمجتمع وفقاً لترتيب اللوازم الخمس، فالاستثمار والعمل والإنتاج يكون وفقاً لترتيب اللوازم الخمسة يجعل الدين ثم النفس ثم العقل ثم النسل، يقول الله تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة "(سورة التوبة: الآية111)، فالدين قبل النفس والنفس قبل المال ، ويقول تعالى: "اعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم"(سورة الأنفال: الآية 28)، فمحبة الله قبل محبة المال والولد، أي أن الدين أيضاً قبل المال والولد، أي أن الهيئات الشرعية أو المختصة بمراجعة الاستثمارات المختلفة تضع هذه اللوازم الخمسة نصب أعينها، فالمشروع يقيم من ناحية حفظ الدين ثم النفس ثم العقل ثم النسل ثم المال(20: 1991، ص75).

2. 8. التعامل مع الاجنبي.

اباح الاسلام التعامل مع الاجنبي بقصد الاستفادة من الخبرات النادرة في العالم الاسلامي، والمتوفرة عند الاجنبي، فمثلاً عقد الرسول ﷺ اتفاقاً مع يهود خيبر للاستفادة من خبراتهم الفنية والمالية فقد كانت الدولة الاسلامية تمتلك الأرض الخصبة كمورد من مواردها، وكانت في اشد الحاجة إلي توفير الطعام لمواطنيها وجيشها إلا أنها كانت عاجزة عن الاستغلال الأمثل لهذه الأرض بسبب قصور الامكانات المالية والفنية، وفي المقابل كان اليهود يملكون الامكانات الفنية والخبرة(16: 1999، ص135)، فالواجب التعامل مع الاجنبي فيما ندر وجوده في العالم الاسلامي ضرورةً ومصلحةً عامة، واذا انتفت الندرة قُدم المسلم على غيره، والدليل على ذلك أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أجلاهم عندما أصبحت الدولة الإسلامية في قدرة على الاستغلال والاستثمار.

كما أن التعاون وحسن المعاملة على الخير والمحبة بين المسلم وغيره، ليست معناها أن يضحي المسلم بعقيدته وإيمانه، وإنما القصد تمهيد السبيل لحياة عملية قائمة على رعاية المصالح العامة للجميع، لأن ما يصيب الأمة بمجموعها من خير يؤثر على الجميع وتصيبهم منافعة وما تصيبها من شر ومأثم وكوارث تؤثر على الجميع أيضاً(7: 1989، ص29).

2. 9. جلب المصالح ودرء المفاسد

يقوم التشريع الإسلامي على مبدأ عظيم وهو رعاية المصالح وجلبها والنهي عن المفاسد والمضار، والمصلحة تفسر بالمنفعة، والمفسدة تفسر بالمضرة، سواء كان خاصاً أو عاماً عاجلاً أو آجلاً، فالعلم والربح والراحة والمتعة والصحة ونحوها كلها مصالح في ذاتها نافعة لأصحابها بأي طريق حصلت، أما الجهل والخسارة والتعب والمرض كلها مفاسد في ذاتها مفسدة بأصحابها(30: 1990، ص58)(25: 1987، ص58)، والمصلحة كما يقول الإمام الغزالي "هي المحافظة على مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة هو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم"، وأشار الإمام الشاطبي إلي احتمال تغيير وجه المصلحة في الشؤون الدنيوية، بتغيير الظروف المحيطة بالمجتمع فقال: إنا وجدنا الشارع قاصراً لمصالح العباد، والأحكام العادية تدور معه حيثما دار، فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كانت فيه مصلحة جاز(18: د.ت، ص158)، فالأولي للدول الاسلامية تقديم الاستثمارات التي من شأنها جلب المصالح للعباد عن تلك التي قد تكون أقل مصلحة او تجر مفسدة.

2. 10. تحقيق مقاصد الخلق.

وهذه المقاصد لا تعدو ثلاث أقسام : ضرورية وحاجيه وتحسينية.

فمصلحة الإنسان الضرورية هي ما كان راجعاً إلي مصلحة الإنسان مع غيره كانتقال الأملاك بعوض أو بغير عوض بالعقد على الرقاب أو المنافع أو الامتاع، ومصلحته الحاجيه المتعلقة بالمعاملات مثل القراض والمساقاة والسلم وكل المعاملات التي لا يتوقف عليها حفظ النفس وغيرها من الضروريات الممكنة، أما المصلحة التحسينية في المعاملات مثل المنع من بيع النجاسات وفضل الماء والكلأ.

ويجوز الإسلام التميز في المعاملات مع الدول غير الإسلامية طبقاً لقاعدة المصلحة ورفع المفسدة، فالإمام يجوز له الأخذ بذلك استناداً إلي صنيع – سيدنا عمر – فلقد روى ابن شهاب عن سالم عن أبيه أن عمر بن الخطاب، كان يأخذ من النبط من الحنطة والزيت نصف العشر يريد بذلك أن يكثر الحمل إلي المدينة وسبب ذلك ما لمسه سيدنا عمر ﷺ من حاجة المسلمين إلي الحنطة والزيت، فقرر للنبط معاملة مميزة بأن أجرى لهم تخفيضاً من شأنه أن يشجعهم على توفير احتياجات المسلين من الطعام، وكثرة دخولهم إلي ديار الإسلام، وهو يقودنا إلي المعاملة التفضيلية بين الدول الإسلامية وغيرها من الدول بناءاً على مصلحة متبادلة خاصة للمسلمين(14: 1985، ص287).

2. 11. تحقيق المصلحة للمفاهيم الاقتصادية.

إن المفاهيم الاقتصادية إذا كانت تحقق مصالح معتبرة شرعاً فهي من الحكمة وهي فكر إنساني مشترك، والشريعة الإسلامية تأخذ موقفاً ايجابياً من هذا النوع من المفاهيم وهو أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها وفي رواية فهو أحق بها.

وأما إذا كانت تهدف إلي ما اعتبرته الشريعة مفسدة، سواء كان مفسدة محضة أو مما فيه نوع مصلحة مع مفسدة غالبة، فإن الشريعة تأمر بتجنب ذلك وتهدد اعتباره، فهنالك مفاهيم اقتصادية مقبولة فالقاعدة الشرعية تقول بأن الأصل في الأشياء الإباحة وفي المعاملات الصحة ما لم تتعارض مع نص شرعي أو قاعدة مستمدة من نص شرعي فهي تكون مفاهيم غير مقبولة ومثال ذلك مفهوم الندرة النسبية وهو يقوم على اعتقاد ندرة الموارد أو ندرة السلع بمعنى أن الندرة هي الأصل في الكون ولا غرابة في هذا القول عندما ينكرون وجود الله تعالى(27: 2000، ص47).

3. النتائج والتوصيات

3. 1. النتائج

3. 1. 1. مقاصد الشريعة الاسلامية في الاستثمار ان يكون في جميع الانشطة التي تحقق وتحافظ على المستوى الضروري من الحياة، بصيانة اركانها الخمسة (الدين، النفس، النسل، العقل، المال).

3. 1. 2. الإسلام يعتبر شمول الاستثمار للأنشطة الاقتصادية الضرورية للمجتمع فرض كفاية، يجب القيام بها لحاجة المجتمع إليها، وضرورتها في عملية التنمية، ولذا تعطى الأولوية في خط الاستثمار لهذه الأنشطة دون المشروعات الثانوية التي يتحقق من جراءها أرباح كبيرة.

3. 1. 3. الاستثمار في الاقتصاد الاسلامي يقوم على أساس المشاركة في الربح والخسارة وليس على أساس الفوائد الربوية الثابتة المحرمة وفق قاعدة الغنم بالمغرم.

3. 1. 4. الاستثمار في الاقتصاد الإسلامي له ابعاد متعددة، فيها البعد الاقتصادي الذى يتمثل في تحقيق رغد العيش، وفيها البعد الروحي والنفسي والاجتماعي الذى يتمثل في سيادة القيم الروحية، وتحقيق الاستقرار والتوازن النفسي.

3. 1. 5. المسلم المستثمر يراقب نفسه خوفاً وخشيةً ورضوانا لله عز وجل.

3. 2. توصيات البحث :

3. 2. 1. توجيه الاستثمار الى المجالات التي تخدم المجتمع ولا تخرج من دائرة الحلال، ورفض كل المشروعات ولو ذات ربحية عالية تتاجر في شئ حرام.

3. 2. 2. رفع مستوى التعامل بالصيغ الإسلامية وذلك بإظهار القيم الحقيقية للإسلام ومدى المرونة التي يتمتع بها، واشاعة التطبيق الصحيح لتلك الصيغ.

3. 2. 3. تطبيق محلية الاستثمار حيث يكون الاستثمار لنفس المنطقة وما زاد للمناطق التي تحتاج الى انعاش النشاط الاقتصادي فيها.

3. 2. 4. عمل مراكز متخصصة في كل دولة كمرحلة أولي تقوم بعمل بحوث في الاقتصاد الإسلامي وتقوم بجمع هذه البحوث لاستخراج خلاصة تكون لبنات أساسية وبداية لأساس في تجميع واستخلاص نظرية الاقتصاد الإسلامي.

المصادروالمراجع:

إبراهيم أحمد عمر: فلسفة التنمية رؤية إسلامية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، د. ت.

إبراهيم بن موسي "أبو اسحق الشاطبي": الموافقات في أصول الشريعة، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م.

إبراهيم بن موسى "أبو اسحاق الشاطبي": الموافقات في أصول الشريعة، المجلد الأول،(دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001م.

أحمد الخضيري: السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الفقه الإسلامي، دار الكتاب العربي، ط1، 1986م.

أحمد محي الدين أحمد حسن: عمل شركات الاستثمار الإسلامية في الأسواق العالمية، بنك البركة الإسلامي، ط1، البحرين، 1986م.

أحمد مصطفى عفيفي: الاحتكار وموقف الشريعة الإسلامية منه في إطار العلاقات الاقتصادية المعاصرة، ط1، (مكتبة وهبه، القاهرة، 2003م).

المجمع المالكي "ماب": معاملة غير المسلمين في الإسلام، ج1،(مؤسسة آل البيت، المجمع المالكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، 1989م).

السيد على شتا: النظام الاقتصادي في المجتمع الإسلامي، (مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993م).

جليلة حسن حسين: الأسلوب الإسلامي لتكوين رأس المال والتنمية الاقتصادية، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، 1990م.

جميل محمد المبارك: نظرية الضرورة الشرعية حدودها وضوابطها، ط1، (دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، 1988م).

يوسف كمال محمد: الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، ط1، (دار الوفاء، المنصورة، 1995م).

يوسف كمال محمد: الإصلاح الاقتصادي رؤية إسلامية، ط1، (دار الهداية، 1992م).

يوسف كمال محمد: فقه الاقتصاد العام، ط1، (ستايرس للطباعة والنشر، 1990م).

محمد الشحات الجندي: قواعد التنمية الاقتصادية في القانون الدولي والفقه الإسلامي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985م.

محمد هاشم عوض: جامعة الخرطوم، كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، قسم الاقتصاد، مارس 2005م.

محمد محمد سيد أحمد عامر: البديل الشرعي لمصادر التمويل الدولي المعاصر في العالم الإسلامي، ظافر للطباعة، ط1، القاهرة، 1999م.

محمد نجيب عوضين المغربي، الوجيز في المعاملات الشرعية "النظريات الفقهية"، دار النهضة العربية، القاهرة، د. ت.

محمد عبد الله العربي: محاضرات في الاقتصاد الإسلامي وسياسة الحكم في الإسلام، مطبعة الشرق العربي، ج1، د.ت.

محمد عبد المنعم عفر واحمد فريد مصطفي: التحليل الاقتصادي الجزئي بين الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999م.

محمد عبد المنعم عفر: المتطلبات الاقتصادية لتحقيق مقاصد الشريعة في اقتصاد إسلامي، مؤسسة مكة للطباعة، مكة المكرمة، ط1، 1991م.

محمد عبد المنعم عفر: نحو النظرية الاقتصادية في الإسلام الدخل والاستقرار، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، 1981م.

محمد عمر شابرا، نحو نظام نقدي عادل، دراسة للنقود والمصارف والسياسة النقدية في ضوء الإسلام، ترجمة سيد محمد سكر، مراجعة رفيق المصري، (دار التبشير للنشر والتوزيع، 1990م).

نادية محمود مصطفي: الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام "وقت السلم"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1996م.

عبد السميع المصري: مقومات الاقتصاد الإسلامي، مكتبة وهبة، ط4، القاهرة، 1994م.

على أحمد السالوس: المعاملات المالية المعاصرة في ميزان الفقه الإسلامي، ط2، (مكتبة الفلاح، الكويت، 1987م).

على حافظ منصور: مبادئ الاقتصاد الوصفي ومن منظور إسلامي، 1992م.

عثمان بابكر: وقائع ندرة التطبيقات الاقتصادية الإسلامية المعاصرة، ط1، (البنك الإسلامي للتنمية، جدة، 2000م).

قطب مصطفي سانو: الاستثمار أحكامه وضوابطه في الفقه الإسلامي، دار النفائس، ط1، الأردن، 2000م.

رفعت السيد العوض: في الاقتصاد الإسلامي المرتكزات التوزيع الاستثمارات النظام المالي رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، ط1، قطر، د.ت.

خالد بن عبد الرحمن المشعل: الجانب النظري لدالة الاستثمار في الاقتصاد الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1990م.

خديجة النبراوي: تحريم الربا ومواجهة تحديات العصر، تقديم على جمعة، (النهار للطبع والنشر والتوزيع).

التحليل الحجاجي لبنية الخطاب والنص القرآني
"محمد أركون أنموذجا"

د/لكحل فيصل، جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص المقال: يفرق محمد أركون في مستوى فهم القرآن بين "الخطاب القرآني" و "النص القرآني"، يمثل "الخطاب القرآني" الكلام الشفاهي الموحى به، أو لحظة تلقى الوحي، ويمثل "النص القرآني" المدونة النصية المكتوبة للقرآن في شكل المصحف، يسعى المشروع الفكري عند أركون إلى قراءة التاريخ الإسلامي ككل إنطلاقا من هذا التفريق متسائلا عن التغيرات التاريخية التي طالت الخطاب و النص القرآني، إنطلاقا من تحديده الاختلاف والفرق بين "الحدث القرآني" و"الحدث الإسلامي"، حيث غير الحدث الإسلامي" مضمون "الحدث القرآني" من خلال التفسيرات والتأويلات الخاطئة له من طرف المفسرين والفقهاء ورجال الدين. ولهذا يعمل أركون على تحليل بنية الخطاب والنص القرآني من خلال بيان وجه الإختلاف بين الإثنين.

إن هدف هذا المقال يكمن في مساءلة الفكر الأركوني حول حول مدى معقولية ومشروعية الإنتقال من التفريق بين "الخطاب القرآني" والنص القرآني" إلى التفريق بين "الحدث القرآني" والحدث الإسلامي".

الكلمات المفتاحية : الخطاب القرآني ، النص القرآني، رجال الدين، التأويل، الإسلام، العقل الإسلامي، العقل العلمي، الإسلاميات التطبيقية.

Abstract : Muhammad Arkoun distinguishes between the Quranic speech and the Quranic text. The Qur'anic speech discourse represents the inspired oral speech or the moment of revelation. The Quranic text represents the written text of the Qur'an in the form of the Mus-haf, The intellectual project at Arkoun seeks to read Islamic history as a whole, based on this differentiation, asking about the historical changes that have taken place in the Quranic speech and text. From the definition of difference and the difference between the "Quranic event" and the "Islamic event", where the Islamic event changed the "content of the Qur'anic event" through misinterpretations and interpretations by the interpreters, scholars and clergy, Statement of the difference between the two.

The aim of this article lies in the accountability of the Arconist thought about the reasonableness and legitimacy of the transition from the distinction between the "Quranic speech " and the Quranic text "to differentiate between the" Quranic event "and the Islamic event.

key words: Quranic speech, Quranic text, clergy, interpretation, Islam, Islamic mind, scientific mind, applied Islam.

مقدمة: إن المحاججة التي يتبناها فكر محمد أركون في قراءته للخطاب/ النص القرآني تكمن في التوجه التأويلي الذي يمثل الكثير من مواقفه وآراءه النقدية الفلسفية، والمفارقة الحجاجية تطرح في قضية فهم

القرآن في علاقته بالواقع الإنساني، أي متى تسألنا عن اللحظة الأولى للخطاب القرآني، ووجه نشوء هذه المفارقة الحجاجية هو كون أن القرآن وفق ما حددته الأفاهيم التفسيرية والفقهية كان في البداية عبارة عن ألفاظ شفاهية مخاطب بها[1]، أي لم يتشكل في البداية كنص خالص داخل التاريخ، لأن القرآن كان في البداية عبارة عن ظاهرة خطابية موجهة وليس نصا مكتوبا.

يبدو أن محمد أركون لا يقصد من فهم القرآن التوجه إلى النص القرآني بإعتباره كلام الله أو النص الموحى به بقدر ما أنه يركز على البعد اللغوي، أي على الخطاب القرآني في علاقته بالنص المكتوب حيث يفرق بين مستوى التلفظ الأول "الشفاهي" ومستوى الكتابة "النص المكتوب"، ووجه المفارقة التي يركز عليها هو أن الكلام الشفاهي ظل يفرض نفسه على الرغم من أن القرآن أصبح نصا مخطوطا، يعبر أركون عن هذه المفارقة بالتفريق بين "الظاهرة القرآنية" و"الظاهرة الإسلامية"، أو ما يسميه أركون بالوضع المعرفي للقرآن، أي ظاهرة "الحدث القرآني" التي تتعارض في نظره مع "حدث الإسلام" لكن هل المقاربة الحجاجية التي يرتكز عليها فكر محمد أركون تتوجه إلى نقد السياقات الإجتماعية والسياسية والتاريخية التي جاءت متضمنة في بنية الخطاب/ النص القرآني؟ أم أنها تطال خصوصية الخطاب/ النص القرآني؟

1- القرآن، الخطاب، النص، الحجاج "المفهوم والعلاقة":

إن فهم خلفيات وأبعاد الحجاج في فكر محمد أركون يقتضي أولا التحديد المفاهيمي لعناصر البحث، ذلك أن هناك تداخلا وافتراقا بين مفاهيم القرآن والخطاب والحجاج، ولضرورة منهجية فإننا سنقارب المفهوم من زاوية النظر الأركوني دون الدخول في جينيالوجيا المفهوم السائدة تاريخيا وطبيعة الاختلاف بينها.

إن لفظ القراءة في القرآن جاء يدل على فعل التلاوة، لأن القرآن ذاته جاء شفاهيا وتلقيه من طرف النبي محمد ﷺ كان شفاهيا ولم يكن تلقيا كتابيا في صورة النص، ويبين محمد أركون باستناده على العلوم والمعارف الحديثة في مجال الألسنيات اللغوية والسيميائيات أن القرآن قد حدد كمدونة نصية في شكل المصحف على أنها الكتاب الرسمي الذي يمثل الدين الإسلامي، ولما كان القرآن يمثل التعاليم الإلهية التي جاءت من أجل البشر فإن أسلوبه ولغته جاءت حجاجية، أي تعتمد على الحجاج والجدل والإقناع والبرهنة وغيرها، "إن القرآن ذو أسلوب حجاجي وأن الحجاج فيه ناشئ عن طريقة له في القول مخصوصة فضلا عن نشوئه من مضامين هذا القول كما كان يدرسه القدماء أمثال الزركشي وابن القيم والسيوطي، تحت عنوان الجدل أو الحجاج أو الجدل والحجاج ومن ثم أصبح يمثل خاصيته الأسلوبية"[2]، ويتبين من خلال المقاربة التاريخية للقرآن على أن الأسلوب الحجاجي فيه جاء فريدا من نوعه، لأن مستوى البلاغة والأسلوبية والحجاج الذي تضمنه قد أبهر العرب القدماء على الرغم من ما كان فيهم من بلاغة وفصاحة، ولهذا فـ "الحجاج في القرآن لا يمكن إلا أن يكون حجاجا خاصا به دون غيره من سائر الخطابات، إذ الحجاج فيه خصائص أسلوبية تسمه بميسم خاص وتطبعه بطابع مميز لا يكاد يشاركه فيه غيره"[3]

وتبدو خاصية القرآن الحجاجية في كونه يتميز في نصه وخطابه على بقية الخطابات والنصوص الإنسانية، إذ لا نكاد نجد نصا تاريخيا يضاهيه أو يشابهه في البلاغة والإعجاز اللغوي، ومن ثم كانت هته الخاصية الميزة التي انفرد بها القرآن والتي فتحت المجال أمام بلورة الكثير من التفاسير والتأويلات الإنسانية التي سعت على اختلافاها إلى محاولة فهم القرآن من خلال إضفاء المناهج الإنسانية عليه، لأن "القرآن جاء حجة الحجج ومعتمدا كل حكم وأصل كل قضية ومرجعها بمنطوق نصه وظاهر حكمه إلا ما أشكل وأحوج إلى التأويل فأقر الحجة من خارج النص لا من النص وأقام نصا حجة على نص سبيل ذلك النقل والرواية"[4]

إن النظر إلى القرآن بهذا الشكل قد أدى إلى وجود الكثير من التفاسير والتأويلات الإنسانية التاريخية التي سعت على اختلافها إلى محاولة الربط بين ما هو الهي وما هو بشري من خلال إيجاد التفسير أو التأويل الأنسب له أو الذي يقترب من مستوى أحكامه وتعاليمه التي لم تستنفذ من حيث الدراسة والفهم، وبالتالي التأويل بالشكل الكلي والنهائي التام، وهذا لما في القرآن من مستوى بلاغي وحجاجي، وقد ورد في القرآن الكريم معنى الحجة في قوله تعالى" قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ"، كما وردت كذلك في قوله تعالى أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ"[5]، وكذلك في قوله تعالى" وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ" [6]

ولقد ألح القرآن إلحاحا شديدا بينا على صفات ثلاث له هن على صلة متينة بالحجاج، فأما الصفة الأولى فهي كونه "قرآنا عربيا"، أي أنه بلغة العرب الذين نزل فيهم، وإن كانت الرسالة إلى الناس كافة أما الصفة الثانية التي وصف بها القرآن وجعلتنا نعتبره كتاب حجاج أساسا في صفة التغيير بإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى ومن التنطع إلى التعقل ومن الغواية إلى التقوى فهو كتاب إصلاح وهل الحجاج إلا إصلاح يكون على وجه ما، وأما الصفة الثالثة التي تقرب القرآن من قطب الحجاج فهي ذكره في مواضع كثيرة لما ينشأ عن قوله من تأثير في النفوس سامعيه"[7].

إن مسألة الحجاج في القرآن تأخذ أبعادها ودلالاتها العميقة من لغة القرآن ذاتها، وقد بين محمد أركون بالكثير من التفصيل أهمية ودور اللغة العربية في توضيح وتبيين معان ودلالات القرآن التي جاءت فائقة من حيث الأسلوبية والبلاغ والمحاججة، واللغة العربية حمالة للكثير من المعان والدلالات العميقة التي يمكنها أن توضيح المقاصد والأهداف والغايات من وراء الخطاب الإلهي للبشر من خلال النص الصريح والمثبت كتابيا في شكل المصحف، "ومن المنطلقات الأولى في الخطاب القرآني تصحيح المسار الفكري لمبدأ الحوار أو الجدل وتوجيهه بما يحقق للإنسان إنسانيته وللمجتمع ديمومته في التعايش والتعارف القائم على الحسنى بعيدا عن الحجاج السلبي وقصد إلغاء الآخر وتسقيطه من خلال تزييف قناعاته وتشويهها"[8]، ومن ثم فإن الحجاج القرآني جاء ايجابيا وهادفا وليس سلبيا وهداما، من ذلك أن القرآن لا يقصي الإنسان أو يحط من قيمته الإنسانية لا من حيث جوهره ولا من حيث مظهره، بل أعطى للإنسان

قيمة عليا وكرمه على سائر المخلوقات، وأعطى له الحق في الفهم والحوار والجدال والتأويل بما لا يتعارض مع مقتضيات العقيدة الإلهية التوحيدية والتعاليم الإلهية، وفي "شأن الكلمة القرآنية وهي أنها كلمة يحويها ويحققها خطاب، وهو ككل خطاب غايته التأثير وهدفه الإقناع، فلزم عن ذلك النظر في مدى وقوع الكلمة الحجاجية في القرآن بالفحص عما أسميناه عند تعريف الكلمة تعريفا حجاجيا"[9]

ولكن مستوى الحجاج عند محمد أركون لا يتوقف عند التحليل اللغوي والبلاغي للقرآن كما توقفت عنده التفاسير الكلاسيكية، وإنما هو يحاول أن يجدد تحليلا تأويليا من خلال الاعتماد على المناهج العلمية الحداثية التي ظهرت في الغرب والتي طبقها الغرب في فهم تراثه اللاهوتي والإنساني القديم، إذ تتضح ملامح القراءة التأويلية الجديدة للقرآن من خلال محاولة فهم الخطاب والنص بدلالة المنهج، ومن المعروف بأن المناهج الغربية الحديثة لا سيما في مجال الألسنية والبلاغة والسيميائيات والأنتروبولوجيا والتحليلي النفسي وغيرها، تأخذ بأولوية الانفتاح في المعنى والدلالة في ما يخص أي خطاب أو نص ومن ثم شكل هذا الأمر هاجسا بالنسبة لمحمد أركون الذي سعى إلى محاولة مقاربة النص القرآن بمستوى تلك المناهج، وذلك من خلال التعرض للخطاب ثم النص القرآني من حيث اللغة والكلمة والمفهوم والعلاقة والحجة وغيرها، ومن الملابسات التي تطرح نفسها في هذا المستوى من التحليل الحجاجي مثلا أن "الكلمة يمكن أن تكتسب سمات دلالية إضافية من خلال المقال والمقام، لا يتصور أن ندرس كلمة ترد في خطاب معين وهذا الخطاب منجز في مقام معين دون أن نأخذ في الاعتبار ما اكتسبته تلك الكلمة من معان سياقية ومقامية إضافية"[10]، ويفهم هنا بأن المناهج العلمية واللغوية الحديثة يمكنها أن تضعنا في المستوى العلمي اللائق بالقرآن، ذلك أن المناهج العلمية تراعي انفتاح المعنى والدلالة من خلال إيمانها بأحقية وأولوية الفهم المتجدد والمنفتح للنص، وفي مستوى فهم وتأويل القرآن فإن القرآن لا ينغلق عند فهم بشري واحد أو تأويل خاص، وإنما جاء حمالا لأوجه، ومن هنا تظهر أهميته الحجاجية، وفي ما يلي من البحث نتطرق إلى التحليل الحجاجي للنص القرآني من خلال المقاربات المنهجية التي قدمها محمد أركون.

2- التحليل الحجاجي للخطاب/ النص القرآني وفق المقاربة المنهجية الأركونية:

إن "الحدث القرآني" هو المجال المعرفي والسياقات المختلفة الناشئة عنه التي تتعارض مع "حدث الإسلام" الذي يشمل التفسيرات والتأويلات السائدة تاريخيا، لا يمثل "الحدث الإسلامي" بالضرورة "الحدث القرآن"، لأن هناك تغيرا طال الإسلام تاريخا جعل أمر فهم القرآن محصور في زاوية ضيقة جدا لا تتعدى البعد الفقهي التيولوجي له، ولكن النص القرآني يحمل الكثير من المعاني والدلالات والأسرار التي لا يمكن أن تتوقف عند حدود الفهم التيولوجي له، "لقد سرق الحدث الإسلامي معنى الحدث القرآني ومضمونه، بعد أن قام بنشر اعتباطي أو بالأحرى إيديولوجي للمحايث بدلا عن المفارق وللشريعة بدلا عن الفكر وللنظام المغلق بدل الرسالة المفتوحة"[11]، ويفهم هنا أن الحدث الإسلامي شوه مضمون الحدث

القرآني، لأن هناك إختلافا طال النص بين لحظة دخول النص التاريخ وتحول النص إلى سياق إجتماعي وتاريخي في الإسلام، "فلم يعد بنفس الشكل الذي جاء به، ليس من حيث الشكل والكلمات والألفاظ الظاهرة، بل من حيث المعاني والمقاصد التي تخص مجال فهم وعمل الفاعلين الاجتماعيين، (...) ومن ثم فإن أية علاقة يمكن أن يعقدها الفهم الإنساني في الوصول إلى معنى النص إلا وهي محاطة بأطر تفسيرية وتأويلية متعددة تتحدد من خلال طبيعة الفضاء النفسي والاجتماعي التاريخي"[12]، على عكس القراءات التيولوجية التي تبقى حبسة النظرة النصية الضيقة، فإن القراءة الجدلية للقرآن وفق جدلية الخطاب/ النص هي التي يمكنها أن تغذي عملية الفهم والتأويل الجديد والمستمر ولذا يعمل أركون على "تدشين القراءة الجدلية والدياليكتيكية للفضاء الاجتماعي التاريخي تتراوح بين الثقافة الشفاهية والثقافة الكتابية، أي ظاهرة الكتابة"[13]

يفهم هنا أن النص القرآني ليس نصا مفارقا للبنية الإجتماعية والتاريخية التي يتحدث عنها، بل أن النص القرآني جاء محملا بالكثير من الوقائع والقصص التي تعبر عن السياق الإجتماعي السياسي والتاريخي ولكن هناك مفارقة صعبة تطرح متى تسألنا عن اللحظة الأولى للخطاب القرآني، أي كما "لفظ لأول مرة بعبارات شفهية في مجتمع بدون كتابة أو لا يكتب إلا قليلا، أو في مجتمع يعتمد أساسا على النقل الشفهي"[14]، ووجه نشوء هذه المفارقة هو كون أن النص القرآني وفق ما حددته الأفاهيم التفسيرية والفقهية كان في البداية عبارة عن ألفاظ شفاهية مخاطب بها، أي لم تتشكل كنص خالص داخل التاريخ ولذلك كانت بداية النص كظاهرة خطابية موجهة وليس كنص مكتوب[15]، وهنا يطرح السؤال حول الخطاب الشفهي و النص المكتوب والفارق بين اللحظتين، أي هل يمثل النص القرآني المثبت في شكل المصحف الخطاب الشفاهي الموحى به لأول مرة؟ هل هو تأويل معين له؟ أم أنه انعكاس مباشر له بدون تأويل أو تغير في الفهم والتفسير؟

لا شك أن الدراسات الإستشراقية تعتبر السباقة في طرح مثل هذه الأسئلة، لأنها شككت في أن يكون النص المثبت في هيئة المصحف هو الخطاب الشفهي ذاته الذي أوحي به إلى النبي محمد ﷺ، ومن ثم أثرت هذه الدراسات على الجيل الجديد من مفكري الفكر الإسلامي المعاصر،"إن الإسلاميات الكلاسيكية هي خطاب discours غربي حول الإسلام. ذلك أن كلمة (ومصطلح) الإسلاميات (l'islamologie) أي الخطاب الذي يهدف إلى العقلانية في دراسة الإسلام- هي في الواقع من إختراع غربي"[16]، ولعل محمد أركون استفاد من الدراسات الإستشراقية في هذا المجال، فهو قد تتلمذ عند المستشرقين الكبار كما اطلع على الكثير من مواقفهم وأرائهم حول الإسلام، لكن ولئن كانت دراسة أركون للفكر الإسلامي تستند على الخلفيات الإستشراقية إلا أن منحى التوجه الفكري الذي يتبناه من خلال الاعتماد على المناهج الغربية ينتقد ويتجاوز الإسلاميات الكلاسيكية والفكر الإسلامي ليؤسس للإسلاميات التطبيقية.

لقد ثبت الخطاب القرآني كنص نهائي في مدونة مكتوبة أصطلح عليها بالكتاب أو المصحف وهذا يقتضى من كل دراسة تخص النص القرآني أن تكون على علم ودراية كبيرة بالمناهج الألسنية واللغوية الحديثة التي ينبغي مراعاتها في كل دراسة تهدف إلى فهم وتفسير وتأويل، "لقد إرتبطت ظاهرة الإسلام منذ نشأتها، بكلام أصبح نصا، وهذا يعني أنه ينبغي على علم الإسلاميات أن يكون مختصا بالألسنيات بشكل عام، وليس فقط متطفلا على أحد أنواعها، فالإسلام كأي دين آخر، هو جسد مؤلف من عدة عوامل لا تنفصل: العامل النفساني والبسيكولوجي (أي محل الإسلام ضمن ((نظام العمل التاريخي)) لكل مجتمع، وإنعكاس مصير هذه المجتمعات على الإسلام كدين) والعامل الثقافي (فن-أدب-فكر)"[17]، تشترط كل عملية فهم وتفسير للنص القرآني الإهتمام أولا بالبعد اللغوي الألسني له ومعرفة علاقته بمختلف السياقات النفسية والإجتماعية والتاريخية التي تبلور فيها في شكل المدونة النصية التي هو عليها اليوم.

يقصد أركون بالمدونة النصية في علم الألسنيات "مجموعة من العبارات الشفهية اللغوية التي جمعت لكي تشكل وحدة ما، وهذا الأمر هو ما فعله الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي تحول القرآن في عهده إلى مدونة نصية رسمية مغلقة ومسيجة"[18]، إن القرآن لم يبقى منحصرا في الثقافة الشفاهية الأولى التي جاء بها الوحي، بل أنه دون بشكل رسمي ونهائي مع الخليفة عثمان بن عفان، ومنع على المسلمين الزيادة أو النقصان في مضمونه.

لا يعترض أركون عن النص القرآني المثبت في عهد عثمان في شكل المدونة النصية التي سميت بالمصحف، بقدر ما يتوجه بالنقد والإعتراض عن السياقات التاريخية التي تبلور فيها في ما بعد، وهو يقصد التيارات والمذاهب والفرق التي إدعت كل منها أن لها الحق دون غيرها في الفهم والتأويل الصحيح للنص القرآني، بل أن "هناك تيارات عديدة في المجتمعات العربية والإسلامية تحاول كل من جهتها أن تسحب القرآن إلى صفها بحسب مصالحها وحاجياتها الإيديولوجية تماما كما حصل في الماضي، وبالتالي فإن أهم واجب مطروح على المفكر المسلم أو العربي اليوم هو التالي: كيف يمكن أن نقرأ القرآن من جديد اليوم؟ كيف يمكن أن نعيد التفكير بالتجربة التاريخية للإسلام طوال أربعة عشر قرنا من الزمن؟"[19]

يكشف التاريخ الإسلامي عن وجود صراع بين الأفهام والتأويلات، لأن التضارب في المصالح والحاجيات الإيديولوجية هو الذي كان يحرك عمل العقل في كل عملية فهم وتأويل للنص، وبالتالي لم يكن الغرض هو الإقتراب من بنية النص ومحاولة الكشف عن ممكناته المعرفية والعملية بقدر ما كان تغليبا للمصالح الإيديولوجية، بل إن "كل التفاسير السائدة تاريخيا في الإسلام لم تكن بريئة من النزوع الإيديولوجي لأنها ارتبطت بشخصيات محددة وهذه الشخصيات تمثل فئات اجتماعية متنافسة على الأملاك والأرزاق والسلطة"[20]، وكل اتجاه تأويلي أو لاهوتي مرتبط حتما بمصالح إيديولوجية، والفئة التي تنتصر تفرض خطها التأويلي والمذهبي على فئات المجتمع كافة دون استثناء، إن "مصادرة الفكر الحر تكبل الإبداع

الثقافي والحضاري، بل وحتى الخطاب الديني حيث أنه لا يمكن تأسيس قاعدة للفكر والثقافة أيا كان دينيا أو سياسيا أو اقتصاديا إلا من خلال مناقشة الآراء والأفكار الناجمة عنها داخل تصورات الأفراد الذين يعتقدون بها، ومحمد أركون ذاته يرى أن كل ما ساد في تاريخ الإسلام هو عبارة عن معتقدات دينية أرثوذكسية جامدة، لأنها خضعت لتوظيف إيديولوجي معين"[21].

ينخرط الخطاب الإسلامي المعاصر في تقييد حرية العقل والإقرار بتبعيته للنص، فيكون العقل والحالة هذه خاضع لمعتقدات ثابتة تمنعه من ممارسة حريته في الفهم والتفسير والتأويل، وهكذا كرس الخطاب الإسلامي المعاصر المتمثل في سلطة رجال الدين والفقهاء وحتى من نحى نحوهما من الساسة والمثقفين للجمود الفكري في الإسلام، فلم يصبح العقل الإسلامي قادرا على مواكبة الحضارة الغربية المعاصرة في مجال العلم والمعرفة ومن ثم فإن أمر إصلاح شؤونه الإجتماعية والاقتصادية والسياسية يطول في سبيل هذا الهدف.

إن المسألة الأساسية التي يعطيها أركون الأولوية هنا هي أنه "ينبغي عدم فرض أي حدود على حرية التفحص الفكري والنظر العقلي"[22]، لأن حرية الفكر في نظره أمر مشروع ومكفول للفكر الإنساني ولكن توظيف حرية الفكر من أجل أغراض تجعل من النص القرآني أداة طيعة في يد المصلحة والإيديولوجيا البشرية أمر يخل بفهمنا للظاهرة القرآنية ذاتها وللظاهرة الإسلامية معا[23]، وهذا ما يستدعي البحث عن تأويلات جديدة يمكنها أن تقدم قراءات موضوعية عن النص القرآني تخلو من التحيز والذاتية وتغليب المصالح والإيديولوجيا. يحتاج النص القرآني بحسب أركون إلى "تأويل مستمر حتى أيامنا هذه، وذلك نتيجة المفارقة التي تنشأ بين النص كحقيقة شاملة متجاوزة للتاريخ والمعطيات النصية التي لها سياق تاريخي. وهذا ما يقتضي فتح باب الاجتهاد وإخضاع الجهد التراثي لشروط نقدية منهجية علمية جديدة"[24]، إن إعادة قراءة وفهم الخطاب/ النص القرآني لا يمكنها أن تكون بهذا المنظور إلا عملية نقدية للموروث التاريخي الذي تشكلت فيه عملية الفهم والتفسير والتأويل الكلاسيكية، وذلك يعني تصحيح مسارها من خلال الكشف عن تناقضاتها والعمل على إضفاء الموضوعية في قراءة الأحداث والوقائع الإسلامية التي جاء النص القرآني مبينا لها.

وهكذا فإن إعادة فهم مقتضيات النص القرآني تتطلب من العقل الإسلامي إعادة مراجعة ذاته من خلال العودة إلى تصحيح المسار التاريخي له وهذا من خلال انفتاحه على مستجدات العلم والمعرفة البشرية وهكذا فإن كل عملية فهم للنص القرآني تحتاج إلى تحرر العقل من بقايا التيولوجية الأرثوذوكسية المترسبة في البنى التاريخية له التي ثبتها رجال الدين والفقهاء في الخطاب الإسلامي المعاصر.

من هنا يتبنى أركون الموقف الذي يأخذ بإنجازات العقل العلمي الحديث الذي يرتضيه بديلا عن العقل الفقهي والديني، "لقد إعتعقدوا أني أقصد من بلورة العقل الإسلامي إلى التأكيد على وجود عقل خصومي في الإسلام أو ما يدعونه هم بالإسلام بالمعنى الأقنومي والمثالي المهيمن: أي بالفرنسية إسلام بالحرف الكبير لا بالحرف الصغير Islam / islam. لقد إعتقدوا أني بلورت مفهوم ((العقل الإسلامي)) لكي أتخذه كمضاد للعقل الغربي. وهذا خطأ فاحش وثمين جدا في آن معا"[25].

إن نقد العقل هو نقد الممارسات التاريخية السائدة لهذا العقل في التاريخ الإسلامي، ومن ثم فإن الهدف من التأسيس لمشروع نقد العقل الإسلامي ليس هو مواجهة العقل الغربي بمفهوم أخر مضاد له في السياق الإسلامي كما إعتقد المستشرقون، كما أن نقد العقل داخل السياق الإسلامي ذاته ليس هو التأسيس لعقل بديل، وإنما غاية أركون نقد ممارسات العقل الإجتماعية والتاريخية من خلال مواجهة هذا العقل لنفسه وإعادة تصحيح مساره من خلال التساؤل عن القطائع التارخية التي منعته من أداء مهامه العلمية والتاريخية، ومن ثم السعي إلى إعادة بعثه من جديد من خلال الإستفادة من ما وصل إليه العقل الغربي في علوم الإنسان والمجتمع والتاريخ.

خاتمة : إن المقاربة الحجاجية التي يتبعها أركون في قراءة الخطاب والنص القرآني أدت إلى وقوع التباس خطير في فهم أعماله فهو يتكلم في بعض الأحيان عن النص الديني الإسلامي أو ما يسميه "الظاهرة الإسلامية" وفي بعض الأحيان عن النص القرآني أو ما يسميه "الحدث القرآني"، وبعض ما يصدق على النص القرآني يمكن أن يصدق على النص الإسلامي التاريخي، ولكن هناك ما يصدق على النص التاريخي الإسلامي ولا يصدق بالضرورة على النص القرآني، ومثل هذه الالتباسات أمر واقع وناشئ لا يمكن إنكاره، ولكن حسبنا أن نبين بأنه ولئن كان الفكر الأركوني مشبعا بالمناهج العلمية الحديثة، إلا أنه لم يقتصر عليها كما جاءت في الفكر الغربي، وإنما سعى إلى تكييفها مع مقتضيات الموضوع المبحوث فيه، أي التراث الإسلامي بشقيه النص التأسيسي القرآن والسنة والفكر التاريخي الفقهي والأصولي[26].

ويمكن القول أن التحليلات الحجاجية التي وظفها محمد أركون في فهم وتأويل بنية الخطاب والنص القرآني كانت تتوجه في أغلبها إلى تحديد علاقة النص القرآني بالسياق التاريخي والاجتماعي الحامل له.

لكن نقد السياقات التاريخية التي تبلور فيها الفهم الإسلامي عن النص القرآني ستجر معها حتما الوصول إلى خصوصية النص، يظهر هذا الأمر في محاولة أركون البحث عن تاريخية النص من خلال البحث في ما قبل النص، أي لحظة الخطاب الشفاهي التي ظهر فيها الوحي لأول مرة، وكذلك في مقارنته بين الخطاب والنص، بالتشكيك في أن يكون النص متضمنا لكل ممكنات الخطاب. بدعوى أن البشر قد تدخلوا في عملية تثبيت النص من خلال مجموع التفسيرات والتأويلات التي طالت الخطاب حتى ثبت في شكل المدونة النصية النهائية في شكل المصحف. إن مقاربة النص القرآني وفق السياقات البشرية المختلفة

يبين أن النقد الأركوني لا يتوقف عند حدود النص بل أنه يطال النص من خلال بحثه عن اللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه أو الذي لم يفكر فيه بعد في النص القرآني.

الهوامش:

[1]- لكحل فيصل، "النص القرآني في فكر محمد أركون"، مقال ضمن مجلة التربية والإبيستيمولوجيا، تصدر عن مخبر التربية والإبيستيمولوجيا المدرسة العليا للأساتذة الجزائر، بوزريعة، العدد الثامن، السداسي الأول، 2015، ص158.

[2]- عبد الله صوله، "الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية"، ط2، دار الفارابي بيروت، لبنان، 2007، ص53.

[3]- يحصر ابن فارس مادة الحجاج في أربعة معان كبرى قال "الحاء والجيم أصول أربعة: فالأول: القصد، وكل قصد حج ثم اختص بهذا الاسم القصد إلى البيت الحرام للنسك، قال من باب المحجة، وهي جادة الطريق وممكن أن تكون الحجة مشتقة من هذا، لأنها تقصد أو بها يقصد الحق المطلوب. يقال حاججت فلانا فحجته أي غلبته بالحجة وذلك الظفر يكون عند الخصومة والجمع حجج والمصدر الحجاج، والأصل الأخر الحجة وهي السنة، والأصل الثالث الحجاج وهو العظم المستدير حول العين، والأصل الرابع الحجحجة النكوص يقال حملوا علينا ثم حججو أنظر هنا: - لمهابة محفوظ ميارة، "مفهوم الحجاج في القرآن- دراسة مصطلحية"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد7 . الجزء3، ص2.

وكذلك :- عبد الله صوله، "الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية"، مرجع سابق، ص5.

[4]- حمادي صمود، "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم"، د-ط. (كلية الآداب، منوبة تونس)، ص26.

[5]- قرآن كريم، البقرة، آية 257

[6]- قرآن كريم، الأنعام، آية 57

[7]- عبد الله صوله، "الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية"، مرجع سابق، ص615

[8]- هادي حميد السعيدي، "وظيفة الحجاج في نهج البلاغة قراءة في الأنماط والدلالات"، جامعة ذي قار، مجلة كلية الآداب، العدد 98، ص03

[9]- عبد الله صوله، "الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية"، مرجع سابق، ص84.

[10]- المرجع نفسه، ص68.

[11]- رون هاليبر، "العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار في الغرب، الجهود الفلسفية عند محمد أركون"، ص193.

[12]- لكحل فيصل، "النص القرآني في فكر محمد أركون"، المرجع نفسه، ص159.

[13]- محمد أركون، "العلمنة والدين، الإسلام، المسيحية، الغرب"، مصدر سابق، ص48.

[14]- محمد أركون، "العلمنة والدين، الإسلام، المسيحية، الغرب"، دار الساقي، ط3، 1996، ص27، ص28.

[15]- لكحل فيصل، "النص القرآني في فكر محمد أركون"، المرجع نفسه، ص 158.

[16]- محمد أركون، "تاريخية الفكر العربي الإسلامي"، تر: هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، ط2، 1996، ص51.

[17]- محمد أركون، "تاريخية الفكر العربي الإسلامي"، تر: هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، ط2، 1996، ص57.

[18]- المصدر نفسه، ص92، ص93.

[19]- محمد أركون، "الفكر الإسلامي نقد واجتهاد"، مصدر سابق، ص230. وكذلك: - **محمد أركون، "قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم"، تر: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1998.**

[20]- محمد أركون، "الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي"، ترجمة وتعليق هاشم صالح، ط١، (دار الساقي، بيروت، لبنان، 1999، ص18.

[21]- لكحل فيصل، "محمد أركون ونقد الثقافة الإسلامية المعاصرة قراءة في المشروع ومآلات النقد"، مقال ضمن مؤلف جماعي بعنوان "فلسفة الثقافة السياقات الأبعاد والرهانات"، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية بالتعاون مع جامعة إبن خلدون تيارت، تحرير وإشراف: د/ لكحل فيصل، 2015، ص193.

[22]- محمد أركون، "الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد"، ترجمة وتعليق هاشم صالح، د-ط، (لافوميك، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1993) ص240، ص241.

[23]- لكحل فيصل، "محمد أركون ونقد الثقافة الإسلامية المعاصرة قراءة في المشروع ومآلات النقد"، مرجع سابق، ص190.

[24]- رون هاليبر، "العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار في الغرب، الجهود الفلسفية عند محمد أركون"، ص44.

[25]- محمد أركون، "الفكر الأصولي وإستحالة التأصيل نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي"، تر: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت لبنان ط1، 1999، ص351.

[26]- لكحل فيصل، "النص القرآني في فكر محمد أركون"، مرجع سابق، ص165، ص166.

دور الأرغونوميا

في تحقيق جودة حياة العمل

د/عرقوب محمد ،جامعة ابن خلدون تيارت
أ/ يوسف خوجة عادل، جامعة بجاية

ملخص:

إن الورقة الحالية تصب إلى طرح معرفي يغدو في محاولة توضيح جودة حياة العمل كمفهوم يستند على فلسفات مختلفة، وبناء نموذج فكري يتناول المتغيرات المهمة في تحقيق جودة حياة العمل، وذلك من خلال الخوض في المجالات التي يجب أن يعنى بها في الأوساط المهنية. ولتحقيق ذلك، ظهرت الأرغونوميا كعلم كان له إسهامات عديدة في الاعتناء برفاهية الإنسان عامة والعامل على وجه الخصوص من خلال التدخل في مختلف المجالات التي تحقق له بيئة عمل آمنة وصحية تسمح له من تطوير مهاراته ونجاعة المنظمة عن طريق الآداء الفعال والشعور بالراحة من خلال الجو الذي توفره له هذه الأخيرة. تحاول هذه الورقة تحقيق هدفين، يتمثل الأول في إدخال مفهوم الأرغونوميا في تحسين جودة الحياة في العمل إلى الأدبيات المحلية والعربية، والثاني دعوة المؤسسات إلى الاهتمام بالجانب الصحي والنفسي للعامل، وتهيئة الظروف الملائمة للعمل، لنصل إلى مفهوم جودة حياة العمل.

الكلمات المفتاحية: الأرغونوميا-جودة حياة العمل.

The present paper is based on a conceptual approach that attempts to clarify the quality of life of work as a concept based on different philosophies, and to construct an intellectual model that addresses the important variables in achieving the quality of working life by exploring the areas that must be addressed in professional circles. To achieve this, ergonomic has emerged as a science that has made many contributions to the welfare of the human being in general and the worker in particular by intervening in various fields that achieve a safe and healthy working environment that allows him to develop his skills and the effectiveness of the organization Through effective performance and a sense of comfort through the atmosphere it provides his last. This paper attempts to achieve two objectives. The first is to introduce the concept of ergonomic in improving the quality of work life into local and Arabic literature, and secondly to call upon institutions to pay attention to the health and psychological aspects of the worker and to create conditions for work.

Key words: ergonomic- quality of work life

مقدمة: بدأ الاهتمام بموضوع جودة حياة العمل منذ بداية خمسينات القرن الماضي، ومازال حتى الوقت الحاضر في تطور ملحوظ في مختلف مجالاته وقد وجد من خلال الاطلاع على أدبيات الموضوع إن كل باحث تناول مفهومه بمنظور يختلف عن الآخر، فالباحث (Suttle, 1977) أوضح إن جودة حياة العمل تعني الدرجة التي عندها يستطيع العاملون إشباع جميع حاجاتهم ورغباتهم المهمة فيها .أما (Flippo) فقد أشار تحديدا في عام 1977، إلى إن موظفي المركز الأمريكي لنوعية حياة العمل قد طوروا تعريفا له تمثل بقولهم بأنها مجمل الأنشطة الساعية نحو زيادة فاعلية المنظمة وعلى مستوياتها كافة، من خلال تعزيز جهود العاملين وتطويرها، وتبني حلقات نوعية العمل، وتحديد التغيرات الحاصلة في موقعه [1]، وعلى هذا النهج أوضح (Kast and Rosenzwieg) [2]، أن جودة حياة العمل تتحدد بثلاثة مستويات تتمثل بالأفراد، المديرين، وجماعات العمل .فعلى مستوى الأفراد يشار إلى مفهوم جودة حياة العمل بديمقراطية الإدارة، وتزايد فاعلية العاملين للمشاركة في اتخاذ القرارات. وأما على مستوى المديرين، فيعبر عنه بالجهود الرامية لغرض زيادة الإنتاجية من خلال تحسين جو العلاقات الإنسانية أكثر من الأنظمة الأخرى .وأخيرا على مستوى جماعات العمل فيمكن أن تمثل جودة حياة العمل بالمشاركة العادلة في الدخل والمكافآت وظروف العمل الجيدة، فضلا عن السلامة المهنية للعاملين في العمل ولعل مما يلاحظ انه عند الأخذ بالمستويات الثلاث مجتمعة والمذكورة آنفا نؤكد إن تحسين جودة حياة العمل يعد عامل ضروري لتحقيق الكفاءة في المدى القريب والفاعلية في الأمد البعيد.

1.جودة حياة العمل:

لقد أطلق على القرن الحادي والعشرين بأنه قرن النوعية لما فيه من أبعاد هادفة نحو جعل النوعية (الجودة) الميدان الأكثر حسماً في تحقيق أهداف المؤسسات الإنسانية المختلفة سواء الإنتاجية أو الخدمية على حد سواء[3]، وبالنسبة لموضوع جودة حياة العمل فالاهتمام به تضاعف أثناء السنوات الأخيرة. ومن بين الذين زاد اهتمامهم بجودة حياة العاملين، وطبيعتها الاختصاصيون النفسيون في مجال العمل[4]، وتتعلق جودة حياة العمل بتنظيم العلاقة ما بين الإدارة والعاملين وترشيدها من خلال فرق العمل[5]. إن هذا المدخل قريب جداً من المدرسة الإدارية السلوكية التي تعتمد على العلاقات الإنسانية بالإضافة إلى حقل السلوك التنظيمي وتصميم المنظمة. ويعتبر نموذج فرق العمل أحد المفاهيم الأساسية لهذا النهج بالإضافة إلى الشفافية والتمكين في إدارة القوى العاملة [5]. وحسب (ريجيو) فإن حركة جودة العمل التي قادها اختصاصيون نفسيون في المجال الصناعي ساعدت على إبراز هدفين لعلم النفس الصناعي والتنظيمي، هما، أولاً: تحسين الظروف الاجتماعية والطبيعية في بيئة العمل من أجل زيادة رضا العاملين، ورفاهيتهم، ونوعية حياة العمل لديهم. وثانياً: ساعدت حركة زيادة الإنتاجية، وجودة العمل، وتخفيض معدلات التغيب والاستقالة من خلال زيادة مشاركة العاملين في عمليات المؤسسة، ونشاطاتها وإخلاصهم لها.[4]

أشار(العنزي والملا) [6] أن التركيز على أهمية نوعية حياة العمل ظهر ولأول مرة، من خلال انعقاد أول مؤتمر دولي عنه عام (1972) ، وذلك بحضور أكثر من (55) متخصصا أغلبهم من الأكاديميين، وتلاه بذلك المؤتمر الثاني المنعقد عام 1982 ، والذي حضره تقريبا ما يقارب أكثر من (150) متخصصا، فكان نتيجة هذه المؤتمرات هو تعزيز الدعم المتزايد لاسيما من الأجهزة الحكومية والنقابات والإدارات إلى برامج نوعية حياة العمل، لأنها أكثر من برامج تستخدم لتطوير وتحسين الإنتاجية، وكذلك تهتم بتحسين مجالات العمل وذلك، من خلال الاهتمام بما يأتي:

1-جعل ظروف العمل أكثر إنسانية.

2-خلق بيئة عمل توفر القناعة الشخصية لدى العاملين فضلا عن إشباع الجانب الاقتصادي لديهم.

أشار (Schuler) [7]، أن تباطؤ الإنتاجية الراهنة في الولايات المتحدة، هو النتيجة الحتمية للافتقار في برامج جودة حياة العمل، وإلى التغيرات الكبيرة في الحاجات والقيم للأفراد، والتي يعدها العاملون ذات أهمية كبيرة للسير والتواصل في حياتهم، فعندما لا يستطيعون إشباع حاجاتهم الضرورية، فسيفقدوا بذلك الاهتمام بأعمالهم الوظيفية، مما سيؤدي بالنتيجة إلى تدني وانخفاض واسع في الإنتاجية. وللسعي إلى تطبيق برامج جودة حياة العمل بصورة صحيحة وناجحة في المنظمة، وكما أشار لذلك كلا من (Feldman and Arnold)بأنه ينبغي على الإدارة أن تقوم بتطبيق أسلوب مختلف عن ما هو مطبق بالماضي، لأن برامج جودة حياة العمل لا يمكن فرضها بشكل أحادي، بل تتطلب الكثير من الأموال لإدخال بعض التغيرات التنظيمية عليها.[8].وتوصل (Kast) [2]، إلى أن تحقيق جودة الحياة في العمل يمكن الوصول إليه من خلال:

- ديمقراطية الإدارة
- العدالة والمكافأة
- السلامة والأمان في أماكن العمل
- إشراك العاملين في اتخاذ القرار
- ظروف عمل إنسانية
- التعاون وألفة الفرد مع الآخرين
- زيادة إنتاجية المنظمة
- نوعية حياة العمل

تهتم جودة الحياة في العمل أولا بالعمل، ظروف العمل، وإمكانية مساعدتها للعامل للقيام بعمل جيد في ظروف جيدة في إطار مؤسسته.

طرح لاوتن (Lawton) [9] مفهوم طبيعة البيئة (Press Environmental)، ليوضح فكرته عن جودة الحياة ، والتي تدور حول الآتي :

إن إدراك الفرد لنوعية حياته يتأثر بظرفان هما:

-الظرف المكاني، إذ أن هناك تأثيراً للبيئة المحيطة بالفرد على إدراكه لجودة حياته ، وطبعة البيئة في الظرف المكاني لها تأثيران أحدهما مباشر على حياة الفرد كالتأثير على الصحة مثلاً ، والآخر تأثيره غير مباشر إلا أنه يحمل مؤشرات إيجابية مثل رضى الفرد على البيئة التي يعيش فيها.

-الظرف الزمني، إن إدراك الفرد لتأثير طبعة البيئة على جودة حياته يكون أكثر إيجابياً كلما تقدم في العمر، فكلما تقدم الفرد في عمره كلما كان أكثر سيطرة على ظروف بيئته، وبالتالي يكون التأثير أكثر إيجابية على شعوره بجودة الحياة.[10]

يرى المنظور الإنساني أن فكرة جودة الحياة تستلزم دائماً الارتباط الضروري بين عنصرين لا غنى عنهما:

- وجود كائن حي ملائم.
- وجود بيئة جيدة يعيش فيها هذا الكائن ، ذلك لأن ظاهرة الحياة تبرز إلى الوجود من خلال التأثير المتبادل بين هذين العنصرين، فهناك البيئة الطبيعية والتي تتمثل بالموارد الطبيعية التي تشكل مقومات حياة الفرد، وهناك البيئة الاجتماعية وهي التي تضبط سلوك الأفراد والجماعات طبقاً للمعايير السائدة في المجتمع ، فجودة البيئة الاجتماعية تتحقق بمقدار امتثال الأفراد لهذه المعايير وعدم خروجهم عنها . كما أن هناك البيئة الثقافية، التي تقاس جودتها بقدرة الفرد على صنع بيئة حضارية مادياً أو معنويا. ويضيف رايف (Ryff, 1999) حول مفهوم السعادة النفسية، أن شعور الفرد بجودة الحياة ينعكس في درجة إحساسه بالسعادة Psychological happiness التي حددها (رايف) بستة أبعاد يضم كل بعد ست صفات تمثل هذه الصفات نقاط التقاء لتحديد معنى السعادة النفسية الذي يتمثل في وظيفة الفرد الايجابية في تحسين مراحل حياته.[11]

2.الأرغونوميا:

وكأحد العلوم التي اهتمت بالجانب الإنساني في إطار العمل، جاءت الأرغونوميا من أجل تحسين ظروف وبيئة العمل من أجل الحفاظ على صحة وسلامة وراحة العمّال وتحسين مردود يتهم وبالتالي نجاعة المؤسسات والمجتمع. وتعرف بأنها الدراسة العلمية للعلاقة الهندسية بين الإنسان ومحيط عمله، ويمثل محيط العمل الظروف التي يعيشها الفرد وما يستخدمه من معدات ومواد في مواقع العمل. أما العلاقة الهندسية فتعني توافق وانسجام بين مقاييس الجسم البشري وقدراته العضلية والحسية وما يستخدمه من المعدات والمواد بهدف تكييف كل ما يحيط بالإنسان بمقاييس جسمه وقدراته كوحدة إنتاجية متكاملة.[12]

ويشير البعض إلى دور الهندسة البشرية أو ما يسمى أحيانا بهندسة العوامل البشرية human factors engineering في تحسين مؤشرات الإنتاجية والأداء من خلال تصميم مواقع العمل والمعدات اليدوية التي تأخذ بنظر الاعتبار قدرات الإنسان.[13] إن السبب الرئيسي في احتياجنا إلى المعرفة المتخصصة في مجال

الأرغونوميا يكمن في تحقيق الأمان والراحة في كل ما يتناوله أو يتعامل معه الإنسان وذلك إذا ما كانت هناك رغبة حقيقية في التطوير لصالح الإنسان.

يمكن تمثيل حالة العمل في الأرغونوميا من قبل نمط ثلاثي القطب حيث يتم تسجيل النشاط التنفيذي للتعامل مع هذا الوضع، حيث يشير" القطب النظام " لأهداف وموارد المؤسسة ويتعلق بتعدد الأبعاد :الهيكل الهرمي، وتنظيم العمل، والأدوات والمواد والمعدات، وأيضا القواعد والتعليمات والإجراءات والمبادئ التوجيهية للعمل، وباختصار، كل وسائل تنظيم المجموعة من قبل المؤسسة لتحقيق أهدافها الإنتاجية، مع العلم أن المؤسسة نفسها هي تحت تأثير عوامل المنبع. ويشير" قطب الآخر " إلى المشاركين الآخرين والجوانب الجماعية للعمل (العلاقات مع الزملاء وأعضاء التسلسل الهرمي) التي تؤثر في طرق فعالية وتوزيع وأداء العمل. أما" قطب الذات " فيشير للعامل مع أهدافه الخاصة، تكوينه ومعارفه الخاصة بالمجال الذي يعمل فيه أو غيره، إمكانياته الفسيولوجية والنفسية والصحية والاحتياجات والقيم والدوافع، والمشاركة، وكل ما يوجه المعنى الذي يعطيه لعمله، والخيارات التي أدلى بها وكيف يعيد تعريف مهامه ونشاطه الخاص بتعديل وضعيات العمل. [14] يرى (Chapanis) أن الأرغونوميا " تجمع المعلومات حول سلوك الإنسان وقدراته وحدوده وخصائصه الأخرى التي تستخدم في تصميم الأشياء والآلات والأنظمة والمهام والأعمال والمحيط للحصول على تصميم آمن ومنتج ومريح وفعال ".[15] 3.**مظاهر الأرغونوميا:**

لتحقيق الملائمة بين الفرد والعمل فإن الأرغونوميا يجب أن تأخذ بعين الاعتبار مجموعة من الاعتبارات وهي:

1.3.الاعتبارات العامة:

- يجب إنجاز الأعمال المختلفة بما يتناسب والطلبات للعاملين
- استخدام المعدات (أحجامها، أشكالها، وكيف تتناسب مع المهام)
- استخدام المعلومات (كيف تقدم، وتغير وتنجح)، كاختيار وسائل العرض الذي يجب أن يتوفر على شرطي السرعة في نقل المعلومات والدقة المتناهية. [4]
- البيئة المادية (الحرارة، الرطوبة، الإضاءة، الاهتزازات)
- البيئة الاجتماعية (مثل فرق العمل والمشرفين الإداريين)

2.3.الاعتبارات المادية للأفراد:

- حجم الجسم وشكله.
- الملاءمة والقوة.
- حركة أعضاء الجسم.

- الإحساسات وخاصة الانطباعات، السمع، اللمس، والضغط، والإجهاد والقوة العقلية والأعصاب.

3.3.الاعتبارات الفسيولوجية :

- القابلية الذهنية
- الفردية
- المعرفة
- الخبرة

وبتوفير هذه الاعتبارات الثلاثة للأفراد والأعمال والمعدات وبيئة العمل والتداخل بينهم فإن الهندسة البشرية تستطيع تصميم أنظمة الأمان والصحة وفاعلية وكفاءة العمل.

ولتحقيق المطابقة بين الأفراد وأعمالهم فإن هناك جملة من النقاط ينبغي أخذها بعين الاعتبار وهي:

- استخدام المعدات (أحجامها، أشكالها وكيفية ملاءمتها للفعالية).
- القيام بالأعمال والطلب على العاملين.
- استخدام المعلومات (كيفية تقديم المعلومات والتغيرات).
- البيئة المادية (الحرارة، الرطوبة، الإضاءة، الاهتزازات).
- البيئة الاجتماعية (مثل فريق العمل والإشراف الإداري أو الدعم الإداري).

4.مجالات تدخل الأرغونوميا في تحقيق جودة الحياة في العمل:

وتتدخل الأرغونوميا لتحقيق جودة الحياة في العمل من خلال المجالات التالية:

1.4.جودة الالتزام على كافة مستويات المؤسسة:

-الأخذ بعين الاعتبار تحديات الحياة الفردية للموظفين من طرف مسؤولي المؤسسات على كافة المستويات، وأيضا من طرف الشركاء الاجتماعيين وكذا كل ما يهم محيط المؤسسة، من طرف السلطة والجماعات المحلية.

-طريقة إدماج العمال بما في ذلك التأطير.

2.4.جودة المعلومات الموزعة على مستوى المؤسسة:

-المحيط الاقتصادي

-الأهداف والتوجهات الإستراتيجية (لابد من فتح نقاش مهني حول عصرنة الخطاب الاجتماعي)

-القيم المرجعية للمؤسسة

-خصائص الموظفين

3.4.جودة العلاقات الاجتماعية وعلاقات العمل:

يصدر هذا السلوك من علاقة الشخص بالآخر بحيث هناك عدة عوامل تؤثر في ترسيخ هذه العلاقة[16] :

أ. التكامل، فالتكامل في إشباع الحاجات يؤدي إلى انجذاب الرجل نحو الأنثى مثلاً.

ب. الحاجة إلى تقدير الذات، فصفات مثل الخوف، الشجاعة، القلق، الصداقة ، النجاح، والفشل وغيرها لا يمكن تقدير الذات عليها إلا في وجود الآخرين.

ت. التشابه ، ويتمثل في ميل الناس إلى الآخرين الذين يشبهونهم، ففي أي تجمع نجد أن النساء يتقربن فيما بينهن سوياً والاطفال كذلك ، والكبار يتجاذبون فيما بينهم.

ث. التقدير الضمني، فالشخص حينما يعرف أن هناك من يمتدحه ويعجب به فإن هذا يؤدي إلى الإنجذاب نحوه.

ج. التقارب المكاني، إذ أنه يزيد من التجاذب بين الناس، فالجيران تزداد بينهم فرص الإتصال مما يتيح فرصة للشعور بأوجه التشابه ونواحي التكامل.

ح. المظهر الجسمي، فالمظهر الحسن يعكس ترتيباً في التفكير والمشاعر الحسنة، ويكون صاحبه أكثر جاذبية من شخص لا يبدو كذلك.

خ. الاعتقاد في عدالة العالم، ويتمثل في ميل الأفراد العمومي إلى العيش في عالم يمنحهم ما يستحقونه في الحياة.[16]

ويمكن إدراج النقاط التالية التي تسهم في تحقيق جودة علاقات العمل :

- معرفة مضمون العمل
- المساواة بين النساء والرجال في العمل
- احترام وسماع الموظفين
- خلق فضاء للنقاش والتعبير للعمال
- تكييف المعلومات حسب تحديات العلاقات الإجتماعية وعلاقات العمل
- فتح نقاش على مستوى مختلف المستويات (إدارة، مؤسسة، مجموعات)
- الدور الإيجابي للهيئات الممثلة للعمال
- طرق المشاركة في اتخاذ القرارات

4.4.جودة مضمون العمل:

- تحديد المهام حيث يعتبر عبء العمل المفروض سواء كان كمي أم نوعي يعتبر من العوامل الفزيائية التي تؤدي إلى الإجهاد البدني والفكري، وفي هذا السياق يؤكد (أوبير، 1989) على طبيعة المهمة كمصدر رئيسي للضغط الذي يتعرض له العامل.

- إثراء المهام والكفاءات، حيث أن تكليف العامل بمهام بسيطة أقل من قدراته وكفاءته، يجعله لا يوظف كل طاقاته مما يشعره بالرتابة في العمل وهو ما عبر عنه (Graen,and Scandura) بالعلاقة ما بين العمل والموارد الفردية لإنجاز هذا العمل.[17]

- قدرة وجرأة العمال على التعبير وذلك بغية تحديد المشكلات، الأمر الذي يتطلب التحدث إلى العاملين والبحث عن توجهاتهم ومعرفتهم الجيدة عن العمل وتحديد فيما إذا كان الفرد مرتاح من عمله أم لا. وهل أن الواقع العملي للفرد غير مريح، وهل هناك إجهاد عصبي أو ضغط أو ألم أو صداع أو تعب ؟ وهل أن الفرد راضي عن العمل؟ كذلك ضرورة اختيار الظروف المحيطة واختبار الظروف المحيطة لتكرار الأخطاء وتقارير الحوادث والأسباب المحتملة وتسجيل والبحث عن الحالات المرضية ومستوى دوران العمل.
- الاستقلالية وترك روح المبادرة للعمال في اقتراح طرق عمل وحلول للمشاكل المتعلقة بالعمل خاصة ذوي الخبرة العالية في المؤسسة.
- درجة المسؤولية
- المعنى المعطى للعمل

5.4.جودة المحيط الفيزيقي للعمل:

- تحقيق الأمن والسلامة المهنيين
- خلق جو فيزيقي خال من المخاطر المهنية التي تؤدي إلى الإصابة بحوادث العمل والأمراض المهنية

6.4.جودة تنظيم العمل:

جودة القيادة إذ تعتبر العلاقة بين الرئيس و المرؤوس من العلاقات المهمة في بيئة العمل والتي يوجد فيها العديد من المدخلات (الثقة، الاحترام المتبادل، العدالة، الخ...). والعديد من المخرجات سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المنظمة. من أكثر النظريات شيوعا والتي بحثت موضوع العلاقة بين المشرف والموظف نظرية التبادل بين القائد والأتباع (Leader-Member Exchange Theory LMX) والتي تم وضع أسسها من قبل كل من (Graen, and Scandura).[17] وفقا لهذه النظرية يكوّن المشرفين علاقات متبادلة مع موظفيهم، وتختلف نوعية العلاقة بين القائد و كل موظف من أتباعه حيث يقيم علاقات وثيقة مع بعض الأفراد و يهمل البعض الآخر. العلاقة الوثيقة بين القائد والموظف تتميز بوجود ثقة عالية متبادلة، احترام عالي، التزام وطاعة عالية. وفي هذا النوع من العلاقات يعلم كل من القائد و الموظف أنه يستطيع الاعتماد على الآخر خصوصا من ناحية الدعم والتشجيع والمؤازرة. كنتيجة لهذا، يتم تطوير الشعور بالشراكة ما بين الشخصين بحيث تتطور العلاقة من التركيز على الاهتمامات الذاتية لتصبح أكثر تركيزا على الاهتمامات المشتركة بين الطرفين.[18] على النقيض مما سبق، فإن العلاقات ذات النوعية الرديئة بين القائد و الأتباع توصف على أنها علاقات لا تحتوي على الكثير من الاتصال، فيها عدم الثقة، وعدم الشعور بالأهمية من قبل الموظف. مما يؤدي إلى نشوء علاقة ضعيفة لا تحتوي على أهداف أو اهتمامات مشتركة. كنتيجة لذلك، تصبح العلاقة بين الطرفين علاقة تهدف إلى استغلال كل شخص للآخر، وتركز على الاهتمامات الفردية ولا تأبه باحتياجات الطرف الآخر، فيحاول كل طرف أخذ أكبر قدر من حقوقه من الآخر مع تقديم أقل قدر من الواجبات.[18] وتشير نظرية التبادل بين القائد – الأتباع (LMX) إلى

مجموعة من المخرجات الفردية و التنظيمية المرتبطة مع العلاقات ذات المستوى النوعي العالي. على سبيل المثال، العلاقات ذات الجودة العالية بين القائد والأتباع ترتبط بشكل عالي مع الرضا الوظيفي[19] ، الالتزام بالمنظمة[20] ونسبة منخفضة من ترك العمل.[21] تتميز العلاقة ذات الجودة العالية المتبادلة بين القائد و الأتباع بوجود ثقة عالية و انفتاح كبير على الآخر. وكمحصلة لذلك، يتمتع المشرفون و أتباعهم باتصال أكثر انفتاحا على الآخر من حيث الكمية، النوعية، و مناقشة مواضيع أكثر تنوعا وذلك مقارنة مع الأفراد الذين يعيشون ضمن علاقة ذات مستوى نوعي منخفض.[21] و في نفس هذا الإطار، أوضحت دراسة قامت بها (ديمورتي وآخرون، 2001) كيف أن بعض ممارسات المدراء تسبب الإجهاد العاطفي للموظفين (emotional exhaustion) وتسبب الشعور بعدم الارتباط بالعمل (disengagement) مما يؤدي إلى إرهاق الموظفين و شعورهم بالاحتراق النفسي (Burnout).

- قدرة تأثير التنظيم في إيجاد الحلول
- دور وقدرة تأثير التسيير
- عواقب تأثير تعميم التكنولوجيا الحديثة في الإعلام والاتصال.
- توقع آثار ونتائج التحويل وإعادة هيكلة المؤسسة حول جودة الحياة في العمل من خلا الأرغونوميا التصحيحية لمناصب ووضعيات العمل، والتفكير في طرق حديثة للتأقلم والتكيف مع العمل ومحيطه.

7.4.جودة إمكانات تحقيق وتطوير الكفاءات:

- التكوين وذلك من خلال اقتراح دورات تكوينية تساعد العمال على التكيف مع أحدث الوسائل التكنولوجية وطرق العمل عليها، بالإضافة إلى التعاقد مع الهيئات المختصة في التكوين من جامعات ومعاهد مختصة في الأمن والسلامة المهنية.
- اكتساب الخبرة
- تطوير الكفاءات

8.4.جودة إمكانية التوفيق بين الحياة المهنية والحياة الشخصية: وذلك من خلال :

- وتيرة وساعات العمل وتخصيص فترات للراحة من أجل استرجاع العامل لقواه البدنية خاصة المنظومة العظم- عضلية ليتمكن من متابعة عمله في أحسن حال دون إجهاد أو تعب.
- الانتباه إلى الأوقات الاجتماعية للعمال من خلال الأخذ بعين الاعتبار(وسائل النقل، أوقات التنقلات من وإلى أماكن العمل، التنقلات بين مختلف مصالح ومديريات المؤسسة).

خاتمة:

إن فهم خصوصيات العامل سلفا ومعرفة قدراته، وإمكاناته، وشعوره نحو العمل من خلال ما يعرف بالمقاربة الأرغونومية يساعد على التنبؤ والتدخل في الأوقات الصحيحة، ويجنب المؤسسات الكثير من المشاكل التي ظلت وما تزال تتخبط فيها ويحقق لها الفعالية التي تنشدها دائما، ويجعلها تسعى إلى تطوير

جودة الحياة في العمل وتحقيق الرفاهية. فعلى مسؤولي المؤسسات، والمختصين في مجال صحة وسلامة العمال، بالإضافة إلى أصحاب القرار إصدار قوانين ونصوص تشريعية تحقق الرفاهية في العمل.

الهوامش:

1-Flippo, E. B., (1984). Personnel Management, 6th ed., McGraw-Hill Book Company, University of Washington, New York.

2-Kast, F. E., Rosenweig, J. E., (1985). Organization Management SystemContingency Approach, McGraw-Hill, New York.

3- آل ثاني فيصل. (2008). إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية: بالتطبيق على قناة الجزيرة الفضائية في الفترة من 2004 – 2006م (ط1). بيروت: المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

4- ريجيو رونالد. (1999). المدخل إلى علم النفس الصناعي والتنظيمي. ترجمة: فارس حلمي. عمّان. دار الشروق للنشر والتوزيع.

5- العلي محمد عبد الستار. (2008). تطبيقات في إدارة الجودة الشاملة (ط 1). عمّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.

6- العنزي، سعد، الملا عبد الرحمن. (1998) . قياس نوعية حياة العمل في المنظمات المصرفية الخاصة، مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية – بغداد.

7-Schuler, R. S., (1987). Personnel andHuman Resources Management, West Publishing Company, New York.

8-Feldman, D. C., Arnold, H. J., (1983). Managing Individual and Group Behavior In Organization, McGraw-Hill International Book Co., New Delhi.

9-Lawton, C. A,. (1994). Gender differences in way-finding strategies: Relationship to spatial ability and spatial anxiety .Volume 30, Issue 11, pp 765–779.

10- مبارك، بشرى عناد. (2012). جودة الحياة وعلاقتها بالسلوك الاجتماعي لدى النساء المتأخرات عن الزواج. مجلة كلية الآداب. المجلات الأكاديمية العراقية العلمية. العدد .99

11- الموسوي ، عباس نوح سليمان. (2002). السلوك الاجتماعي وعلاقته بالشعور بالذات والأمن النفسي لدى طلبة جامعة الموصل، رسالة ماجستير منشورة. كلية التربية . جامعة الموصل.

12- إبراهيم يحيى. (1978). الهندسة البشرية وأثرها في رفع إنتاجية العمل. المركز القومي للاستشارات والتطوير الإداري.

13- العلي محمد عبد الستار. (2000). إدارة الإنتاج والعمليات: مدخل كمي. دار وائل للنشر الطبعة الأولى. عمان.

14-Wisner. A. (1995). A quel homme le travail doit-il être adapté ? In A.Wisner Réflexions sur l'ergonomie .Toulouse Octares éditions.47- 56.

15-Chapanis, A. (1985). Human Factors Methods for Design: Making Systems Human-Centered.CRC Press.

16- Hayes, J. (2002). Interpersonal Skills at work. 2nd ed. Rutledge. East Sussex, UK.

17-Graen, G., Scandura, T. (1987). Toward a psychology of dyadic organizing. Research on Organizational Behavior. 9, 175-208.

18-Graen, G. (1995). Development of Leader –member exchange theory of leadership over 25 years. Applying a multi-level multi-domain perspective. Leadership Quarterly. 6, 219-247.
19-Jones, F., Fletcher, B. (2003). Job control and health. In M. Schabracq, J. and Winnubst ,A. and Cooper, C. Handbook of work and health psychology. 2 edi. John Wiley : New York.
20-Johnson, J., Hall, E. (1988). Job strain, work place social support and cardiovascular disease: a cross –sectional study of random sample of the working population. American Journal of Public Health. 78, 1336-1342.
21-Khan, R., Katz, D. (1960). Leadership practices in relation to productivity and moral. In D Cartwright and A Zander (Eds.). Group Dynamics: Research and theory (2nd ed.). Elmsford, NY: Row, Perterson and Co.

الوشم التقليدي على الجسد الأنثوي: جمال وهوية
قراءة أنثروبولوجية في الدلالات الرمزية

ساري وهيبة، طالبة دكتوراه جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم
د/ قريصات الزهرة، جامعة ابن خلدون تيارت

الملخص: إن دراسة ظاهرة الوشم على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي تأتي ضمن دراسة الثقافة المحلية الغنية بالمعاني والدلالات الرمزية التي أنتجتها الثقافة الجزائرية على مر الأزمنة انطلاقا من تصورات الأفراد وأفكارهم حول الجسد الأنثوي ومن هنا تبرز أهمية دراسة موضوع الوشم التقليدي على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي على اعتبار انه من الموروث الثقافي المادي للمنطقة الآيل للزوال والذي يحمل في طياته جملة من الدلالات الرمزية التي تعكس الهوية الثقافية للمجتمع المحلي وعلى هذا الأساس كان الهدف من هذه الدراسة الكشف عن الدلالات الثقافية التي يحملها الوشم التقليدي واستجلاء معانيها للوقوف على المنظومة الثقافية التي تتحكم في سلوك الأفراد وتميزهم عن غيرهم.

الكلمات المفتاحية : الوشم- الجسد الأنثوي – الرمز .

Abstract : The study of the phenomenon of tattoo on the female body in the local community comes within the study of the local culture rich in symbolic meanings produced by the Algerian culture over the years based on the perceptions of individuals and their ideas about the female body .Hence the importance of the study of traditional tattoo on the female body in the local community as it is the cultural heritage of the area near the demise ; which carries with it a set of symbolic signs that reflect the cultural identity of the community and on this basis was the purpose of this study to reveal the cultural connotations carried by the traditional tattoo and the clarification of its meanings to identify the system that controls the behavior of individuals and distinguish them from others.

Tags : tattoo - female body - symbol

المقدمة: منذ أن خلق الله الكون كان لكل جزء فيه لغته الخاصة التي يعبر بها ، فكان للحيوانات لغة تتجسد في أصواتها المختلفة التي تعبر بها عن حالة الفرح والسرور أو الحزن والوهن فكان للنحل رقصاته وحركاته الجسدية التي من خلالها توصل رسالة ببعد أو قرب مكان تواجد الرحيق وبذلك كان للغة المنطوقة كالأصوات واللغة الحركية كالرقصات مهمة تنظيم الرسائل المنبعثة .

لقد تميز الإنسان عن باقي مكونات المملكة الحيوانية **بالعقل** وكرمه الله بالنطق ليتمكن من إيصال أفكاره إلا أن اللغة لدى البشر لم تنحصر في الكلام فقط إنما تعدته إلى الحركات والإيماءات والرموز التي جسدها عل الصخور والتحف والزرابي بل على جسده، فاحتلت اللغة الرمزية مكانة مرموقة لدى

الإنسان في إيصال ما يختلجه من أفكار فكان الرمز الوسيلة التعبيرية التي أوصل بها الفرد أفكاره وعبر بها عن ثقافته ، هذه الأخيرة التي كانت المرتكز الابستيمولوجي للدراسات الانثروبولوجية والتي ينفرد بصناعتها الفرد وانطلاقا من كونه صانعا للثقافة وجب مساءلته لفك شفراته ومن ثمة الوصول إلى تمثلاته .

لقد كان الجسد الإنساني أول ما فكر فيه الإنسان أن يكون حاملا لهذه الرموز فجسدها عليه متحملا الألم لدوافع ذاتية جعلته يسم هذا الجسد ويلبسه ثوبا من الرموز فالتقت هنا الرمزية مع التعبيرية لتخلق لنا جسدا مشفرا يحمل العديد من المعاني الثقافية .فنجد الأنثى في المجتمعات المغاربية عموما والمجتمع الجزائري خصوصا تبدع وتتألق في الكتابة على جسدها بالوشم منذ القدم لتجعل من هذا الأخير نصا قابلا للقراءة والتأويل لأنه مليء بالمعاني المستترة التي تعكس لنا الخلفية الثقافية والهوياتية للمجتمع المحلي .

ومن هذا المنطلق نتساءل هل يصح لنا أن نفهم الوشم في حدوده المادية الجسدية أم انه يتجاوز ذلك إلى ما هو ثقافي ؟

الإشكالية: لقد ظل البحث في موضوع الجسد الأنثوي حبيس الأفكار الدينية والأخلاقية ما جعل الخوض فيه من الطابوهات إلا انه مع ظهور الانتروبولوجيا كحقل معرفي مستقل بذاته نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أسهم بشكل كبير في فهم ثقافات المجتمعات من خلال رفع الستار عن بعض المواضيع التي كان البحث فيها محرما وقد أسهم في ذلك بزوغ العديد من الفروع التي انضوت تحت هذا التخصص ومن بينها الانتروبولوجيا الثقافية والانتروبولوجيا الرمزية .

ومن هذا المنطلق نتناول موضوع الجسد كمتن مفتوح على القراءة فهو موضوع قديم قدم الإنسان ذاته ومرتبط بوجوده فوجود الإنسان هو وجود جسدي والجسد حاضر بقوة في الرمزية الاجتماعية من خلال جملة الممارسات المرتبطة به والطقوس الاحتفائية التي احتضنت الجسد لفترة طويلة لذلك نتناوله باعتباره بناءا رمزيا ناتجا عن نظام قيمي وثقافي معين ووعاء يحمل العديد من التمثلات الثقافية .إن المجتمع الجزائري مثله مثل باقي المجتمعات يمتاز بخصوصيته الثقافية ذات البعد الرمزي والتي تتجلى في مختلف الممارسات والسلوكات ، ولفهم هذه الخصوصية وجب الكشف عن الدلالات والمعاني التي يبقيها أفراد هذا المجتمع على هذه الممارسات من خلال تحليل طبيعتها الرمزية .

إن من أبرز هذه الممارسات الكتابة على الجسد وما يعرف بالوشم ، فالمرأة لا تكتب على الورق فقط لأنها تبدع في الكتابة على جسدها لتجعل هذا الأخير عالما من الرموز يحوي دلالات من نوع خاص لان اللغة الرمزية يتميز بها الإنسان .

يعتبر الوشم من بين الممارسات التي عرفتها المجتمعات الإنسانية على اختلافها منذ القدم بما فيها المجتمعات المغاربية التي عرفت هذه الممارسة قبل ظهور الإسلام استمرت بعده رغم تحريمه لها لقول عليه أفضل الصلاة والسلام "لعن الله الواشمة والمستوشمة ....." والحجة فيذلك ما يتركه الوشم من تغيير في خلقة الله سبحانه وتعالى لكن قوة العرف جعلت هذه الممارسة من الرواسب الثقافية مما ساهم في بقائها واستمراريتها رغم التحولات الثقافية التي طرأت على المجتمع الجزائري هذا الأخير الذي مارس الوشم منذ حقب زمانية بعيدة بحيث لا تزال صوره المختلفة حاضرة على أجساد النساء إلى يومنا هذا .

ونظرا لهذا الحضور الملفت للانتباه للوشم على الجسد الأنثوي في المجتمع الجزائري عموما والمجتمع المحلي خصوصا وقع اختيارنا له كموضوع للدراسة انطلاقا من جملة من **الأسباب ذاتية وموضوعية** تمثلت **الذاتية** منها في محاولة فهم دلالات الرموز الموشومة وكيف تنظر لها المرأة داخل المجتمع المحلي (مدينة الشريعة ولاية تبسة) لان المرأة في هذه المدينة تلعب دورا أساسيا في إعادة إنتاج بعض الممارسات ومنها الوشم .

- حضور الظاهرة بصورتها التقليدية عند بعض القبائل البدوية وأبرزهم فرقة " الفراحنة " المتمركزين ببلدية ثليجان "بادية الظهر " الذين مازالوا يمارسونه إلى يومنا هذا وخاصة للأطفال .

- الرغبة في جمع الموروث الثقافي للمنطقة الذي هو في طريق الزوال .
- أضف إلى ذلك كوني من أفراد هذا المجتمع مما يسهل التغلغل فيه والكشف عن خباياه لمحاولة الإحاطة بتصوراتهم تجاه الظاهرة المدروسة

أما عن **الأسباب الموضوعية** تجلت في :

- تدوين الموروث الثقافي للمنطقة واستجلاء المسكوت عنه واللامفكر فيه باعتبارها أرضية هامة في البحث الانثروبولوجي المهتم بالموروث الشعبي
- تحفظ الكتابات العربية فيما يخص موضوع الجسد الأنثوي لأنه عادة ما يصنف ضمن المدنس والمحظور
- الكشف عن الأسباب الكامنة وراء اللجوء للوشم عل الجسد الأنثوي والدلالات التي تحملها هذه الممارسة في المجتمع المحلي .

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق **هدفين** ، الأول يتمثل في إلقاء الضوء على الموروث الثقافي للمنطقة الذي هو بدوره جزء من الموروث الثقافي الجزائري الذي يستدعي الدراسة والعناية الخاصة لأنه يحمل في طياته الهوية الثقافية لهذا المجتمع .

أما الهدف الثاني تمثل في الوقوف على المنظومة الثقافية الرمزية التي أنتجتها الثقافة المحلية من خلال استجلاء الدلالات والمعاني التي يحملها الوشم التقليدي على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي .

إن اختيارنا لموضوع الوشم على الجسد الأنثوي من منظور انثر وبولوجي في المجتمع المحلي انطلق من جملة من التساؤلات التي إثارتها إشكالية هذه الدراسة التي تمحورت في **التساؤل المركزي** التالي :

ما هي الدلالات الثقافية والرمزية التي يحملها الوشم التقليدي على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي؟

تفرع عنه تساؤلات فرعية بمثابة فرضيات لهذه الدراسة تمثلت في :

1- **للوشم على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي وظيفة وقائية علاجية .**
2- **للوشم على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي وظيفة تزيينية .**
3- **الوشم على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي هو تملك للجسد الثقافي بعد هدم شكله الطبيعي .**

ولاختبار هذه الفرضيات ميدانيا تم الاطلاع على جملة من المراجع التي تناولت هذه الظاهرة بالدراسة والتي تنوعت بين كتب ومقالات علمية منشورة .منها :

كتاب -"**الاسم العربي الجريح** " لعبد الكبير الخطيبي ترجمة محمد بنيس والذي تناول موضوع الجسد الأنثوي في الثقافة المغربية وركز على مفهوم الوشم باعتباره من أهم الممارسات السائدة في المغرب واهم أشكاله ورموزه ومعانيه لدى المرأة المغربي .

-ودراسة عبد الجليل الطاهر المعنونة بـ: **المجتمع الليبي دراسة انثروبولوجية واجتماعية** .الذي تحدث عن الوشم من حيث المفهوم والنشأة وبعض العادات لدى المجتمع الليبي بالإضافة إلى دراسة الكاتبة الفرنسية M.GAUDRY الموسومة بـ: la femme chaouia des Aures التي تحدثت فيها باستفاضة عن أشكال الوشم لدى المرأة الشاوية بمنطقة الاوراس وأماكن وشمها دون الغوص في معاني هذه الرموز .

-ودراسة الزهرة إبراهيم المعنونة بـ: **الانتروبولوجيا و الانتروبولوجيا الثقافية "وجوه الجسد** " التي خصص فيها فصلا كاملا يتحدث فيه عن الجسد الأنثوي باعتباره حاملا ثقافيا من خلال الحديث عن ممارسة الوشم مركزا على التمثلات والتصورات إزاء هذه الظاهرة

-كما لا ننسى دراسة الباحثة صوفية السحيري بن حتيرة الموسومة بـ: **الجسد والمجتمع "دراسة انثروبولوجية لبعض المعتقدات المتعلقة بالجسد** " بحيث تحدثت عن مجمل الممارسات المتعلقة بالجسد الأنثوي في المجتمع التونسي ومن بينها الوشم وبعض أشكاله وتمثل الأفراد له هذه الدراسة التي تتطابق في كثير من الأحيان مع المجتمع المبحوث حتى في تسمية بعض الأشكال .كما لجانا إلى بعض المقالات **"وشوم الحنك"** للكاتب ليث الخفاف .ومقال **"الوشم في الفن الشعبي** " للكاتبة سوسن عامر **"تطور مفهوم الجسد من التامل الفلسفي الى التصور العلمي "**ليوسف تيبس الذي وضح لنا المقابلة

بين الجسد والروح في الفكر الفلسفي وكيف انتقل هذا المفهوم ليكون محل دراسات اجتماعية.بالإضافة إلى رسالة ماجستير للأستاذ بن سليمان إدريس المعنونة بـ: **الممارسات المغيرة لجسم الانسان** .الوشم انموذجا

إلا أن هذه الدراسات ركزت على كيفية الوشم واختلافها بين الشعوب والمراحل التاريخية لهذه الممارسة دون أن تغوص في الدلالات التي تحملها الرموز الموشومة لذلك ارتأينا إلى إكمال الدراسة بالخوص في معانيها وتمثلاتها في المجتمع المحلي .

المقاربة المنهجية :

يعرف كليفورد غيرتز الثقافة بأنها : " نمط من المعاني المتضمنة في الرموز والمتداولة تاريخيا وهي نسق من التصورات المتوارثة التي يعبر عنها في أشكال رمزية من خلالها يوصل وينمي الناس معرفتهم بالحياة واتجاهاتهم نحوها ".

فالرمز لدى غيرتز هو مفهوم واسع يشمل أي شيء يمثل معنا معينا لدى الأفراد [1] ، وانطلاقا من المفهوم الذي يعطيه قيرتز للثقافة وللرمز ونظرا لطبيعة الدراسة الانثروبولوجية فقد تم تبني المقاربة التأويلية الرمزية كمقاربة أساسية مؤطرة للبحث كونها ترى أن الثقافة هي نسق من الرموز القابلة للتأويل وعلى هذا الأساس فهي تبحث في الدلالات الاجتماعية والثقافية للرمز ومن هنا كانت الممارسات المرتبطة بالجسد الأنثوي عموما والوشم تحديدا تنطوي على دلالات رمزية نبحث عن المعاني التي يضفيها الأفراد عليها وبناءا على هذه المقاربة فإننا سنعمل على مستويين :

المستوى الأول : جمع المعلومات (التقارير) من المجتمع المحلي عن ظاهرة الوشم على الجسد الأنثوي وتدوينها وفق رؤى أفراد المجتمع المبحوث وهذا ما يسمى بـ: التجربة عن قرب .

المستوى الثاني : التفكير والتأمل بإمعان في الأسس المعرفية والفكرية لمل تم جمعه في المستوى الأول بغرض الوقوف على المعاني التي تحملها تلك الرموز والبحث عن الأسباب الكامنة وراء هذه المعاني .

وانطلاقا من هذه النظرة فان أفعال الأفراد تصبح عبارة عن نصوص قابلة للقراءة .

المفاهيم النظرية :

قد أطر هذه الدراسة مفهومين أساسيين هما الوشم والجسد

1- **مفهوم الجسد :**

لقد أخذ مفهوم الجسد أشكالا مختلفة لاختلاف الحقول المعرفية التي تناولته بالدراسة وبناءا على ذلك أضحى تحديد مفهوم الجسد من وجهة نظر واحدة أو داخل حقل معرفي معين أمر صعب كون هذا المفهوم يتجاوز ما هو محسوس إلى ماهو مجرد أن يجمع بينهما [2] .

لغة : الجسد le corps آت من الكلمة اللاتينية corpus أي الجزء المادي للكائنات الحية ، الجسم البشري بمقابل مع العقل والروح esprit.

أما في لسان العرب ورد أن الجسد هو جسم الإنسان ولا يقال لغير الإنسان جسد [3] والجسد هو بدن الإنسان [4] .

لقد أخذ موضوع الجسد في القرن العشرين اهتمام علماء الاجتماع الانثربولوجيا معتبرين أن هذا الأخير هو مرآة للحياة الاجتماعية والثقافات والسلوكات وبذلك أصبح الجسد وعاء للعادات الثقافية ما فتح الباب لدراسته لاعتباره بناء اجتماعيا وثقافيا وهذا ما أكده مارسال موس فأصبح بذلك أجمل مواضيع استهلاكنا على حد تعبير جون بود ريار [5] .

وغالبا ما اقترن الحديث عن الجسد بالجسد الأنثوي الذي ظل محل تساؤلات العلماء عبر حقب زمنية طويلة .

2- مفهوم الوشم :

وردفي لسان العرب وشم يشم ، وشم اليد أي غرزها بالإبرة ثم بالنؤور وهو دخان الشحم [6] ويبقى سواده ظاهرا .

أما من الجانب الاصطلاحي : يعتبر الوشم طقسا احتفائيا بالجسد يدل تغير حالة فرد ما (ولادة ، بلوغ ، زواج ....الخ) ما يعكس خصوصية هذا الفرد وهويته الاجتماعية ما يجعل تلك الرموز الموشومة ذات معنى للمجتمع المعني ما يجعل هذا الجسد حاملا لرموز وكتابات متباينة المعنى (الدلالة والوظيفة) فيصبح هذا الجسد فضاء خالصا للكتابة المتحررة من القيود النظرية والمنهجية

وتعني أيضا كلمة وشم : stigma في اليونانية أي الوخز بواسطة أداة حادة ساخنة حسب روايات هيرودوت الا أن هذه الكلمة آيلة للزوال في اللغة الفرنسية لتفسح المجال لكلمة trace (اثر) وmarque (سمة) .[7]

والوشم : tatouage اسم بولونيي أصله tatou أو tatahoo و ta معناها رسم وتحولت في اللغة الانجليزية إلى الفعل tatoo وهي قليلة الاستعمال في الفرنسية خارج معناه الضيق [8] والوشم هو : ان يجرح موضع من البدن حتى يسيل الدم ثم يحشى بالكحل فيزرق أثاره أو يخضر والوشام هي العلامات التي يخلفها الوشم [9] .

الدراسة الميدانية :

1-الأدوات والتقنيات :

وانطلاقا من هذه المقاربة التأويلية الرمزية ارتأينا إلى تحديد الأدوات البحثية للدراسة المتمثلة في :

- **الملاحظة بالمعايشة :**

إن طبيعة الموضوع المتعلقة بالوشم على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي قراءة انثروبولوجية فرضت علينا استخدام ملاحظة بالمشاركة باعتبارها أهم الأدوات المستخدمة في البحث الانثروبولوجي كونها تسمح للباحث بالمشاركة الحقيقية في الحياة اليومية وفي الأوقات الخاصة الاستثنائية وفي هذا

الصدد يقول فرانز بواس "لفهم ثقافة المجتمع لا بد من العيش فيه ومعرفة لغة الأهالي [10] وهذا لا يتحقق إلا عن طريق استخدام الملاحظة بالمعايشة كونها الوسيلة الأساسية في العمل الحقلي أضف إلى ذلك أن معرفة التصورات والمعاني الكامنة وراء الممارسات لا تتحقق إلا بالتغلغل والاندماج مع المجتمع المبحوث لذلك اعتبرت هذه الأداة من أساسيات البحث الانثروبولوجي التي استخدمها الانثربولوجيون في دراسة المجتمعات لأنها تمكن الباحث من الاطلاع على أدق التفاصيل والكشف عن حقائق الظواهر كما يراها ممارسوها فليس هناك وسيط بين الباحث ومجتمع البحث أثناء المعايشة[11]

- **المقابلة :**

لما كان هدف الانثروبولوجي هو الكشف عن المعاني الكامنة وراء الظواهر وتصورات الأفراد تجاه بعض الممارسات كان علينا من الضروري استخدام المقابلة كوسيلة أساسية في تحقيق هذا الهدف ونظرا لطبيعة الموضوع المتعلق بالوشم على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي تم اختيار المقابلة الغير الموجهة كونها تفسح المجال للحديث عن هذه الممارسة وتراعي خصوصية المبحوثين "كونهم مسنات اغلبهن غير متعلمات " بحيث تم توجيه أسئلة مفتوحة تتيح للمبحوث التحدث عن بعض خبايا الممارسة والوصول إلى تمثلاتهم الحقيقة تجاه الظاهرة وهذا ما أكده مالينو فسكي بقوله أن المقابلة غير الموجهة هي في حقيقة الأمر موجهة بأسئلة تفرض ذاتها على الباحث من خلال الحوار المرن الذي يدور بينه وبين المبحوث لان مرونة هذه الأداة تظل دائما ضمن الإطار الذي يضعه لها الباحث بما يحقق مصالح الدراسة.

- **الإخباريون :**

يعتبر الإخباريون من أهم التقنيات الأساسية لجمع البيانات في البحوث الانثروبولوجية لأنهم حلقة الاتصال بين الباحث ومجتمع البحث طول فترة الدراسة ، ونظرا لطبيعة البحث المتعلقة بالوشم على الجسد الأنثوي للمجتمع المحلي تم اللجوء إلى هذه الأداة كوسيلة جمع بيانات أساسية بحيث كان الإخباريون هم العجائز اللاتي يحملن وشوما على أجسادهن (الوجه اليد –الرقبة- الساعد- الرجل) فتمكنا من خلالهن من الحصول على أهم الرموز التي كانت توشم وسن الوشم ومعاني بعض رموز الوشم خاصة الوشم الفالي والوقائي .

لذلك كان الإخباريون في البحث حلقة وصل أساسية ومصدرا للمعلومات الخاصة بثقافتهم بالإضافة إلى ذلك فقد تم الاستعانة ببعض القائمات على الممارسة (الواشمات) على اعتبار أنهن يتمتعن بثروة معلومات حول الممارسة رغم صعوبة الحوار معهن على اعتبار تحريم الممارسة من الجانب الديني .

2- **الفضاء البشري :**

إن العلاقة بين الموضوع والمنهج علاقة متبادلة كون طبيعة الموضوع تفرض وتحدد المنهج الملائم لدراسته من جهة ومن جهة أخرى فان المنهج حتى يفعل لا بد من اختيار الأدوات والوسائل البحثية التي

تمكن من الوصول إلى الأهداف المسطرة وذلك لا يتسنى إلا باختيار وتحديد الأشخاص الذين لهم علاقة من قريب او بعيد بموضوع الدراسة .

وحتى نتجنب الوقوع في منزلقات العينة المحدودة بعدد والتي من شانها أن تغفل بعض الجزئيات التي يمكن ان تكون بالغة الأهمية في الدراسة الانثروبولوجية فان الفضاء البشري في هذه الدراسة بقي مفتوحا (والمقصود ليس مسحا شاملا) ليشمل الواشمات "القائمات على وضع الوشم " والمستوشمات "اللاتي يخضعن أجسادهن للوشم " والى غاية اليوم قد تم الاتصال والاحتكاك بـ 10 واشمات و86 مستوشمة داخل المجتمع المحلي ليكون العدد الكلي الذي تمت معه هذه الدراسة 96 امرأة .

الملاحظ في الخصائص المميزة في هذا الفضاء البشري هو السن فالواشمات مسنات تتراوح أعمارهم بين 65و70 سنة أما المستوشمات فقد صادفنا في هذه الدراسة 32 امرأة تتراوح أعمارهن بين 30 - 45 سنة أما البقية 54 فهن عجائز تتراوح أعمارهن بين 55-75 سنة فركزنا على متغير السن في هذه الدراسة وأهملنا متغير التعليم لأنه من خلال الدراسة الاستطلاعية التي أجريت توصلنا إلى أن الأم هي التي تشم ابنتها وبالتالي فان المستوشمة تصبح مفعولا به بناء على طلب الأم كما أن التعليم في الدارس لم يكن منتشرا في البوادي وفي الوسط النسوي تحديدا لأنه يتطلب التنقل من الريف إلى المدينة وظاهرة الوشم كما سيتبين لاحقا أنها ولدت في الريف وانتقلت إلى المدينة بفعل النزوح الريفي نحو المدن .

3-**الفضاء المكاني** :

أجريت الدراسة الحقلية ببلدية الشريعة الواقعة بالجنوب الغربي لولاية تبسة وهو مجتمع محلي مصغر خصب للدراسات الانثروبولوجية نظرا لتمسك أفراده إلى درجة معينة بالموروث الشعبي يقدر عدد سكانها بـ 75784 نسمة يتوزعون بمعدل 291 نسمة /كم وتتربع على مساحة تقدر بـ 267 كم2.[12]

لقد تم اختيار هذا الفضاء المكاني تحديدا كونه مازال يحافظ على العديد من الممارسات التقليدية بالإضافة إلى انه غني من الناحية الانثروبولوجية بالظواهر والممارسات التي تستدعي الدراسة والتمعن لرسم صورة عن طريقة تفكير أفرادها ما يسهم على مدى بعيد في نجاح التنمية المحلية انطلاقا من الخصوصية الثقافية للمنطقة .

تاريخية الوشم : (الوشم عبر العصور)

إن الحديث عن الوشم على الجسد الأنثوي يقودنا إلى التساؤل تاريخية هذه الظاهرة فمتى ظهرت ؟وكيف ظهرت ؟ وكيف مورست ؟ وهل بقيت على شكلها الأول أم تغيرت ؟ وما هي دواعي التغير إن حدث ؟

في حقيقة الأمر انه بين "الجسد- الجلد" و" الجسد- اللباس " نجد " الجسد- الوشم" هذا الأخير الذي ظهر بعد بلوغ الإنسان درجة من الرقي في آليات الاعتناء بالجسد يعود إلى التاريخ القديم عندما كان الناس يعيشون حياة "بدائية " يقدسون فيها بعض الحيوانات ويخشون بعض مظاهر الطبيعة فصار بذلك الجسد فضاء يشكل عليه الإنسان طوطمه الحيواني أو النباتي لمواجهة أو لصد مخاطر الطبيعة[13] .

لقد حظيت ظاهرة الوشم باهتمام خاص في الحضارة الفرعونية حيث كانوا يقدسون الموتى من الاغنياء والحكام فيضعون تحت تصرفهم كل ما يرغبون فيه عند عودتهم مرة ثانية للحياة وهذا ما تمليه عليهم عقيدتهم آنذاك فكانوا يضعون على ظهر الميت رمزا يشمونه به لون أحمر[14] .

. كما أن الحفريات كشفت عدة موميات تعود إلى 2000 سنة قبل الميلاد تحمل وشوما –تحافظ على جماليتها – عبارة عن نقاط موضوعة في أشكال متوازية .

أما عند اليونان فقد أقر هيرودوتس المؤرخ اليوناني الشهير أن الوشم من رموز الشرق التي يتباهى بها النبلاء[15] .

كما أن الصينيون عرفوا الوشم في العصور القديمة وكان الغرض منه تجميليا وهذا ما أكده الرحالة **ماركو بولو** من خلال ما أتى به المؤرخ الصيني (**ما- تيان- لين**) ق 12 م حيث أكد أن المرأة الشريفة التي تنتمي إلى عائلة غنية تضع ليلة زفافها وشوما خاصة لتتزين بأحسن الرسومات فكانوا بذلك يستخدمون لغرضين أولهما الزينة والجمال وثانيهما هو الجراحة ولقد وجد الوشم أيضا أيام القرطاجيين في عهد حنبعل حيث عثر على أقنعة طينية تحمل رسومات لرجال ونساء يضعون على أجسادهم وشوما مختلفة الأشكال كالهلال والخطوط العمودية والدوائر تتركز في وجوههم[16] .

لقد عرف العرب في الجاهلية الوشم وكانوا يطلقون عليه اسم الكتابة بالنقط حيث كان النساء يشمن على الوجه واليدين والزند أما الرجال يشمون على الصدر وقد تغنى الشعراء آنذاك بالوشم كقول زهير ابن ابي سلمى :

ديار لها بالرقمتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم

وقول طرفة بن العبد :

لخولة أطلال ببرقة تهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

أما في العصور الوسطى فقد لقي الوشم عناية خاصة في أوروبا واسيا فظهر وشامون محترفون أمثال :**ماك دونالد** في انجلترا وجورج يورشت في روسيا .

وبلغ الوشم ذروته في الفترة بين القرن 17 والقرن 19 حيث ازدهر الوشم اليانباني فوجدت تحف فنية تحمل أشكالا حيوانية تتميز بالقوة والشجاعة (كالتين ، الأسد ، الصقر) وغيرها الموشومة على أجساد السكان الذين يحتفلون بيوم المطافئ تمجيدا لرجالها .

أما في شمال إفريقيا فقد كان الوشم ولا يزال قائما عند بعض المجتمعات كمصر ، تونس ، المغرب ، ليبيا والجزائر .

لقد عرف المجتمع الجزائري كباقي مجتمعات المغرب العربي ظاهرة الوشم التي لفتت اهتمام الباحثة وخاصة الغربيين منهم الذين كرسوا وقتا طويلا لدراسة هذه الممارسة والاطلاع على أسرارها وخاصة العسكريين منهم أمثال : **الملازم بيجو** bijot الذي قام بدراسة حول الوشم نشرت في باريس 1920 في مجلة الانثربولوجيا وعلم الاجتماع . والباحثة **ماتيا قودري** التي ألقت الضوء على هذه الممارسة في

مؤلفها المرأة الشاوية بالأوراس . وكل هذه الدراسات تكشف عن تجذر الممارسة وقدمها والذي سنكشف عن أهم أشكاله والغاية منه في المجتمع المحلي لاحقا.

***- انواع الوشم في المجتمع المحلي :**

مما لا شك فيه أن الوشم نشأ في البادية وانتقل بفعل النزوح الريفي إلى المدن أين أضيفت عليه تقنيات جديدة فيقال أن فلانة عصرية وفلانة بدوية نظرا لوجود الوشم على جسدها وخاصة الوجه ومن خلال الدراسة الميدانية التي قمت بها في مدينة الشريعة –مجتمع البحث- خلصنا إلى وجود أنواع عديدة من الأشكال التي تشمها المرأة ولكل شكل من هذه الأشكال دلالة معينة تصب في وظيفة ما واستنادا إلى ذلك تم تقسيم أنواع الوشم استنادا إلى الوظيفة التي يؤديها كل رمز موشوم فنجد :

01-الوشم الاعتقادي "الفالي ":

نسبة إلى كلمة (فال) ويقصد بها المجتمع المحلي " التفاؤل والبركة " وهو كثير التواجد في المناطق المحافظة على تقاليدها حيث يعتقد سكان هذه المناطق أن الوشم يجنب المرأة الترمل لدى (الهنود) ويعطي الرجل القوة والطول لطرد الشؤم لدى (البرازيل) أما أفراد المجتمع المحلي فإنهم يفسرون العديد من الظواهر أو الأحداث سواء كانت مفرحة أو محزنة استنادا إلى المثل الشعبي القائل " نواصي وعتب وبعض من الذرية " فالنواصي هي جمع مفرد ناصية أي الجبهة أو الجبين وعتب أي عتبة المنزل والذرية هم الأبناء . فهذه العناصر الثلاث يعزى إليها النجاح أو الفشل وانطلاقا من هذا المثل تلجأ الأمهات أو النساء عموما إلى وضع الوشم الفالي اعتقادا منهن بمفعوله السحري القادر على جلب المسرات وإبعاد الأحزان ومن أهم أنواع التي كانت توشم للفال

*** وشم العياشة** : [17]

وهي مشتقة من العيش أي الحياة ، كانت تشمه الأمهات على الذقن أو الخد وغالبا على الجبين بواسطة الإبرة أو مشلطة ثم نضع غنجا بواسطة إصبعها على المنطقة الدامية فبعد 03 أيام يظهر اللون الأخضر للوشم ويسمى العياشة اعتقادا بأنه يحفظ الحياة وهذا النوع من الوشم لا يزال يمارس إلى غاية يومنا هذا .

ومن جهة أخرى يوضع هذا النوع من الوشم على جبين الطفل الذي توفي المولود الذي بعده كما يسميه أفراد المجتمع المحلي الاحرش[18] أو الحرشة "بمعنى النحس" فتشم الأم الابن الاحرش إما في جبينه أو في ساقه استنادا إلى إجابته عن السؤال تنطح (بمعنى الضرب بالجبين) وإلا تصك (الضرب بالرجل) اعتقادا منها بان هذا الوشم هو الذي سيحمي الأبناء الذين يأتون بعد هذا الطفل الاحرش من الموت وهنا تظهر لنا قيمة الاعتقاد في العادات والأعراف التي تطغى على الجانب الديني المجتمع المحلي بحث تعمد الأم إلى وضع الوشم مبتدئة باسم الله عليك توكلنا يا الله مؤمنة أن هذا الوشم هو الذي يعطي الحياة للأبناء .

أما عن شكل هذا الوشم فيكون على شكل علام (+) أو ما يسمى الصليب الليبي [19] لكن حسب آراء المبحوثين (الواشمات) فان هذا الرمز لا علاقة له بالمسيح لان هذا التقاطع يمثل تغلب قوى الخير على قوى الشر وبالتالي تمنح الحياة لهذا الفرد.

إذن من المستحسن أن يوشم الجبين لأنه موضع النظر حسب المثل فكل شيء يوجد أو يكتب على هذه الناصية فلما توشم سيعمل هذا الأخير على إبعاد الشر والأحزان وجلب الأفراح .لذلك يقال (نواصي وعتب) فالأمهات يتبركن (محط خير وبركة) بالوشم على الجبين لأنه يحمل مسار حياة الفرد من ميلاده إلى وفاته وهذا ما يصدقه المثل الشعبي القائل (المكتوب على الجبين تشوفو العين) بمعنى أن ما سيحدث للفرد خلال مسار حياته مدون على جبينه لذلك يوشم هذا الجبين اعتقادا من الأمهات إن هذا المسار إن كان يحمل أحزانا ستبتعد بفعل هذا الوشم لان إبعاد الأذى والشؤم لا يكمن في الوشم كرسم أو شكل إنما في عملية إسالة الدم هذا الأخير الذي كان منذ الأزل وسيلة لاقتران والتحام المقدس بالمدنس وكطقس من طقوس العبور كما يقال في المثل الشعبي "جرى الدم زال الهم" .

إن وشم العياشة يمكن أن يكون أيضا عبارة على نقطة بين الحاجبين . كما أكدت الدراسة الميدانية أنه يمكن أن يكون خطوط متوازية طوليا وعلى هذا الأساس كان الوشم الاعتقادي أو الفالي ذا مفعول سحري انطلاقا من الأشكال التي تضمنها والمتمثلة حسب تصريحات بعض نساء المجتمع المحلي – محور الدراسة – فيما يلي :

السبولة أي السنبلة : تدل على الخصوبة ووفرة الإنتاج تعويذة ضد العقم فالمرأة تضع السنبلة دليل على خصوبتها وقدرتها على الإنجاب (وبذلك تجلب الرجال من خلال هذا الوشم الذي ينقل خطابا أنثويا بامتياز إلى الآخر الرجل .

لا طالما كانت السنبلة رمزا للعطاء والخير والاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية لذلك كانت منذ القدم فال خير ونظرا لطبيعة المجتمع المحلي الذي يعتمد على الفلاحة بالدرجة الأولى خلدت هذه السنبلة عن طريق وشمها في اماكن مختلفة من الجسد الأنثوي إلا أن دلالتها اختلفت عن المعنى الاقتصادي لتتعداه إلى الخصوبة الأنثوية والتي تعني القدرة على إنجاب أكبر عدد من الأطفال اقتداء بعدد حبات القمح الموجودة في السنبلة وبالتالي تضع المرأة الجزائرية عموما ونساء المجتمع المحلي خصوصا هذا الرمز لتمرر للآخر الرجل القدرة على الإنجاب وهو خطابها الأنثوي بامتياز .



وشم السبولة "السنبلة "

2-الوشم العلاجي الوقائي "الجسد المريض ":

وهو من بين أهم أنواع الوشم لان له وظيفة علاجية ووقائية من الأمراض في المجتمع المحلي ، لقد ظل وسيلة علاجية وتمارس تحديدا على الأطفال الذين يعانون من الألم أو ما يعرف بمرض "الخيال " حسب المنطوق الشعبي الجزائري وغالبا ما يكون هذا الوشم على الجبين على شكل خط : أو على ظهر اليد على شكل خطوط متوازية (شلطات متوازية) وهو على العموم ليس الغرض منه الوشم إنما هو وسيلة علاجية بمعنى الهدف هو علاج المرض بواسطة هذا الوشم وتعتبر هذه الطريقة من أهم طرق التداوي الشعبية

*- **الخيال**: مرض يصيب الأطفال الأقل من عامين من أبرز أعراضه بريق العينين والفرار من مكان النوم ليلا .

إن هذ ا النوع من الوشم لا يزال يمارس إلى يومنا هذا ويظهر على جباه بعض الرجال والنساء من خلال الخط المجسد على الجبين كما هو مجسد على الصورة المرفقة . فيتجلى أن الوشم هنا هو تعويذة ضد المرض وصادفنا في بحثنا هذا العديد من المبحوثات الأتي يضعن وشوما ذات أشكال مختلفة مثل الدائرة وعلامة +والخطوط المسننة في أماكن مختلفة من أجسادهن وكلن السبب وراءها هو العلاج مثل ما هو موضح في الصور التالية :



لعلاج ما يعرف بالصفرا لعلاج ألام الزندة"المعصم" لعلاج ألام الركبة



لعلاج آلام الزندة"المعصم لعلاج ألام المعدة

3*الوشم التذكاري : (الجسد - الذاكرة)

وهو الوشم الذي يضعه صاحبه رغبة منه ، فكلما ينظر إليه يتذكر الظروف التي وضعه فيها ومضمونه لذلك هذا النوع من الوشم هو تدوين للحوادث المهمة لحياة الفرد أو الجماعة على أجسادهم [20] وتكون هذه الاوشمة في بعض المناسبات كالزواج مثلا وغالبا ما نجد هذه الاوشمة لدى العشاق فتشم الشابة اسم الرجل الذي رأته وأحبته أول مرة أو الحرف أول من اسمه ويكون في الساعد أو الصدر وهذا النوع قليل التواجد في المجتمع المحلي نظرا لقيم الحياء والحشمة التي عرفت بها المرأة داخل هذا المجتمع المصغر والتي يجبرها العرف الاجتماعي على التحلي بها .الا انه وجدنا في فضائنا البشري أفرادا وضعوا وشوما أثناء الحقبة الاستعمارية والتي تدل على الظروف التي كانوا يعيشونها مثل وشم الرومي "العسكري الأجنبي " ووشم الطيارة "الطائرة "كما هو موضح في الصور أدناه :



وشم الرومي وشم الغارة "الطائرات العسكرية "

04- الوشم الجمالي التزييني : (الجسد- الجمال)

غالبا ما نجد الوشم على الجسد الأنثوي يستخدم للزينة ويتم في أماكن مختلفة من الجسد بحيث ينسب الوشم إلى المكان الموجود به فنقول وشم الخد ووشم الذراع ووشم العنق ووشم الجبهة ...الخ واهم الأعضاء التي توشم نجد : اليد ، الذقن ، الصدر ، الكتف ، الذراع ، البطن (العانة) ، الفخذ ...الخ وهذا ما نجده على الكبيرات سنا[21] .

وقد كشفت الدراسة الميدانية أن هذا النوع من الوشم الأكثر شيوعا في المجتمع المحلي لذا تغنى به منذ القديم الشعراء عموما وسكان المنطقة خصوصا في بعض الأغاني الشعبية مثل أغنية لعيسى الجرموني تقول :

حدة ياحدة ويجيك الوشام
يوشم الزندا ويحط الذبان
ينقط بالنقطة خطوة لغزال
ينطع في نفطة وواد الزيتون[22]

وهنا يبين لنا المغني عيسى الجرموني في "حدة ياحدة ويجيك الوشام " إن الوشم كان يمارس كمهنة يقتات منها الوشامون فكان يجوبون القرى والأرياف حاملين الأدوات الأساسية للوشم (سكين أو مشلطة حادة أو ابر ومادة النؤور أو كما يسميها أفراد المجتمع المحلي الغنج الذي يملا به موضع الوشم ليعطي له اللون الأزرق أو الأخضر بعد ذلك وعشب يسمه أهل المنطقة "الرمرام " يطحن ويحك على المنطقة الموشومة) كما يوضح في البيت الثاني "يوشم بالزندا ويحط الذبان " بمعنى يشم معصم اليد وهو من أهم الأماكن التي تتباهى بها المرأة في المجتمع المحلي باعتباره قادرا على القيام بمجمل المهام التي تسند إليه ومن ثم يدل على قدرة المرأة على القيام بأشغال البيت فتتباهى المرأة في هذا المجتمع بكبر معصمها ومن ثم ذهبت تزينه بالوشم ومن ابرز ما يرسم عليه الذبان بمعنى حشرة الذبابة التي تمثل بشكل هندسي تتخلله نقاط أما في البيت الثالث "ينقط بالنقطة خطوة لغزال" يضع نقطة نقطة بواسطة الإبر مشبها المسافة بخطوة صغير الغزال فهو يوضح لنا طريقة من طرق الوشم وهي الوخز بالإبر بحيث تكون النقاط جد متقاربة مثل تقارب خطوات صغير الغزال أما في قوله "ينطع في نفطة واد الزيتون " وهو كناية عن بروز هذا الرسم الذي وضعه الوشام والذي يظهر من أماكن بعيدة مثل نفطة المجاورة حدوديا (منطقة تونسية) للمجتمع المحلي. وفي موضع آخر يقول:

لاتحلفي لايدقوك (لا تحلفي يمينا لانه ينعكس عليك)
ولاتمرضي طول عامك (لا تمرضي على مدار السنة)
لا سبد من الموت تديك (لا بد ان تاخذك الموت)
والدود يوكل وشامك (وتاكل الديدان وشمك)

نستنتج من البيت الأخير أن الوشم هو كتابة ترتبط بالجسد وتتحدى الزوال وتزول فقط بفناء هذا الجسد .

كما تغزل شعراء المغرب العربي في مواضع عديدة بالوشم الذي يضفي زينة وجمالا على المرأة كقول أحدهم :

وشمة على البزول يامزرقها (وشم على الثدي شديد الزرقة)
حرقت قلبي قبل ما نلحقها (حرق قلبي قبل أن أصل إليه)

انت طويلة والهواء في طولك (أنت طويلة طول الهواء)

يا ليتني وشام على بزولك[23] (يا ليتني أصبح وشما على ثديك)

تغنى الشاعر هنا بموضع آخر من مواضع الوشم وهو الصدر وتحديد الثدي مبينا القيمة الجمالية التي يضفيها هذا الأخير على الجسد الأنثوي متمنيا أن يكون موضع ذلك الوشم ومن هنا تتجلى لنا الوظيفة الاغرائية التي يؤديها الوشم على جسد الأنثى .

أشكال الوشم :

لا تعد ولا تحصى الأشكال الموشومة على الأجساد الأنثوية كما أنها في ذات الوقت تختلف من مجتمع إلى آخر وداخل المجتمع الواحد من قبيلة إلى أخرى ويمكن تقسيمها إلى مايلي :

- **أشكال حيوانية** : تؤكد لنا هذه الأشكال عن العلاقة القائمة بين الإنسان والحيوان منذ القدم من خلال اتخاذه لحيوان معين طوطمه الخاص ومن ابرز أشكال الحيوانات التي لاحظناها على أجساد عينة الدراسة الحمامة والأفعى **فالحمامة** رمز للحرية والسلام أما (الشكل 02) **الأفعى** فرمز للشر والغدر أو بالأحرى المرأة الشريرة (الشكل 01).





وشم الأفعى على ظاهر االيد وشم االحمامة على الساعد و بين السبابة والابهام

- **أشكال نباتية** : من ابرز واهم الأشكال النباتية التي كانت توشم على الجسد الأنثوي في المجتمع المحلي نجد :

. **سعف النخيل** : من أكثر الرموز المتداولة منذ القدم يوشم على الجبين ،يأتي بشكل خط مستقيم تتفرع منه خطوط صغيرة من الجهتين وهو من ابرز رموز الزينة والانتصار في المغرب العربي إلا انه في الجزائر كان دليلا هوياتيا يفرق بين الأهالي والأجانب ومن هنا تظهر الدلالة الأخرى للوشم بانتقاله من سمة جمالية إلى ما هو ابعد من ذلك انه حامل للهوية الاجتماعية فأصبح الجسد نصا قابلا للقراءة من طرف الآخر المغاير والمختلف الذي يتمكن من التعرف على الشخص الموشوم من خلال ما يحمله جسده من وشوم وهذا ما كان سائدا أيام الثورة التحريرية حيث كانت النسوة تضعن الوشم لهدفين الأول هوياتي يتجلى في التفريق بين الأهالي والأجانب والثاني تحصيني دفاعي لإبعاد المستعمر الذي كان ينتهك عرض الجزائريات وبالتالي لجأن النسوة إلى الوشم في الحقبة الاستعمارية بغرض حماية العرض والشرف من المغتصب وهذا ما أكدته الدراسة الميدانية .




وشم النخلة "سعف النخيل "

●**الأشكال الهندسية** : لقد أضحى الجسد الأنثوي لدى مجتمعات المغرب العربي حقلا للزخارف والرسومات الهندسية العفوية ، لقد بدا الوشامون بوضع النقطة وهي شكل هندسي وتحولت الى خط مستقيم ثم إلى معين ودائرة ....الخ [24]

ولقد عددت لنا الكاتبة الفرنسية M.GAUDRY في كتابها La femme chaouia des Aures مجمل اشكال الوشم التي تضعها المرأة الشاوية بالأوراس ومن بينها الأشكال الهندسية كما هو موضح في الصورة أدناه .[25]

وهنا تلفت الانتباه إلى أن هذه الوشوم سواء كانت خطوط مستقيمة او منكسرة فانها توضع لاضفاء جانب جمالي على الجسد الأنثوي المرغوب فيه من طرف الرجل .

وهنا تجدر الإشارة إلى الدلالة السيميائية للخط ، فمن المنظور الهندسي هو مجموعة غير منتهية من النقط بمعنى آخر انه ليس له حدود [26] إلا أن الخط الموشوم سواء على ذقن أو جبهة المرأة فانه محدود له نقطة بداية ونقطة نهاية ما يوحي بان هؤلاء النسوة لهن حدود تقيدهن ولا يجب الخروج عنها.

ويسمى الوشم الذي يكون على شكل خطوط **بالسيالة** ، ولقد لوحظ من خلال الدراسة الميدانية أن هذا الأخير تشمه الأمهات على جباه بناتهن بعد فترة البلوغ بغرض التزيين ومن خلاله تمرر رسالة للآخر بانها بنت ناضجة وبلغت سن الزواج ، بالإضافة إلى الأشكال الهندسية تلك فان المرأة في المجتمع المحلي تضع وشوما مستوحاة من الطبيعة كالهلال والنجمة والشمس .



وشم السيالة

فالنجمة : من أقدم الأشكال التي استعملها العرب في وشم الزينة بحيث كانت توشم لدى أفراد المجتمع المحلي على ظهر اليد بين السبابة والإبهام وتكون هذه النجمة خماسية وهذا ما يتوضح في الشكل رقم 15 الذي وضحته الكاتبة ماتيا كودري ان هذه النجمة في اعتقاد أفراد المجتمع المحلي تبعد العين الحاسدة والشريرة لاحتوائها على خمسة رؤوس فلطالما اعتبر العدد خمسة مقدسا لقدرته السحرية لإبعاد العين الحاسدة .

يوضح لنا الدكتور عبد الكبير الخطيبي في تصنيفه لبعض أشكال الوشم (المرأة – العدد) فلطالما كانت الأشكال الهندسية الموشومة ذات خمس مركبات إذ يحظى العدد خمسة بتقديس هائل منذ زمن بعيد لدى شعوب المغرب العربي فيذهب الخطيبي إلى إعطائه تفسيرا دينيا مستوحى من لفظ الجلالة الله أ.ل.ل.ه لكن هذا العدد ظهر قبل ظهور الإسلام فيرجعون العدد خمسة إلى يد فاطمة المنبسطة التي من شأنها صد العين والأذى.

وعموما فان جميع الأشكال التي توشم وتكون خماسية أو تحتوي خمسة أجزاء فإنها توشم للزينة ووراء تلك الزينة معنى مستتر تقديره صد العين والأذى وإبعادهما عن المرأة .

وقد تأخذ موضعا آخرا وهو الغالب لدى نسوة المجتمع المحلي وهو الخد لمعنيين الأول وهو صد العين والثاني لغرض تزيين الخد الذي يضفي عليه الوشم بلونه الأزرق أو الأخضر جمالا أخاذا كما هو مبين في الصورة أدناه والمأخوذة من إحدى المبحوثات :



وشم النجمة على الخد الأيمن

أما الشمس : تأخذ نفس الموضع الذي تأخذه النجمة أي بين السبابة والإبهام أو الخد وتشمه نساء المجتمع المحلي للزينة كما أن دلالتها الرمزية تنطوي على معنى الحرية والسلام فلطالما كانت الشمس إلها لدى العديد من الشعوب التي عبدتها ولقد أثبتت الدراسة الميدانية أن أفراد المجتمع المحلي يقومون بالممارسة تعكس لنا هذه القيمة التي تأخذها الشمس في حياتهم فأثناء سقوط سن أو ضرس احد الأطفال فان الأم أو الجدة تقول له أن يقابل موضع الشمس ثم يرمي تجاهها ذلك السن أو الضرس ويخاطبها قائلا "هاكي سن الداب وأعطيني سن الغزال " بمعنى أنه يدخل في علاقة طلب معها وكأن الشمس هي التي تهب .



وشم الشمس على الخد الايسر

نتائج الدراسة :

من خلال الدراسة الميدانية لظاهرة الوشم على الجسد الأنثوي للمجتمع المحلي نخلص إلى ما يلي :

1- الوشم هو ظاهرة أو ممارسة قديمة تنطوي على جملة من المعتقدات التي عرفت تطورا ملحوظ عبر الحضارات الإنسانية .

2- يعكس لنا الوشم مرحلة من الرقي التي عرفها الإنسان والتي أدت به إلى الاهتمام بجسده مما جعله يفكر في وشمه بغرض تزيينه وتجميله .

3- إن غالبية الأشكال الموشومة مستمدة من الطبيعة وهذا دليل بين على العلاقة الوطيدة بين الإنسان وبيئته وقوة اعتقاده في بعض النباتات .

4- الجسد كان ولا يزال فضاء تشكيليا من خلال ممارسة الوشم التي كان هدفها في أغلب الأحيان الزينة والجمال لهذا الجسد الأنثوي المطلوب من قبل الآخر الرجل .

5- للوشم وظيفة وقائية من خلال اعتقاد أفراد المجتمع المحلي في بعض الاوشمة التي من شانها العلاج والوقاية من الأمراض، وطقسية من خلال عملية سيلان الدم الذي اعتبر منذ القدم طقس عبور " سال الدم راح الهم " فقوة الاعتقاد بالمفعول السحري لهذا الطقس جعل أفراد المجتمع المحلي متشبثين به إلى يومنا هذا رغم تحريم الإسلام لهذه الممارسة ومن هنا تتجلى غلبة العرف الاجتماعي الذي تم تشربه عبر مراحل التنشئة الاجتماعية على النص الديني ،أي أن هذه الممارسة فرضت وجودها وهيمنتها لفترات طويلة حيث نافست هذه المعتقدات الغيبية بوجودها واستمرارها وهيمنتها ما جاءت به العقيدة الدينية وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى المرأة التي تكرس هذه الممارسة حفاظا على تراث آبائها .

6- تلعب الأنثى في المجتمع المحلي دورا بارزا في إعادة إنتاج (على حد تعبير بورديو) وتفعيل الثقافة الشعبية لأنها الأكثر تمسكا بالتقاليد وهي القائمة على عملية الوشم فهي الأم التي تحمي أبنائها من الموت عن طريق وشم العياشة وتصرح بجاهزية ابنتها للزواج بوشم السيالة وتحافظ على نسلها من الموت من خلال وشم الحرشة وتصرح على قدرتها على الإنجاب وبكثرة من خلال وشم السنبلة وتزين زندها وصدرها ووجهها لتغري بجمالها الرجل فيقدم على التغني بها والزواج منها ...الخ ومن هنا كانت المرأة تحتل مكانة اجتماعية توكل إليها مختلف المهام الوقاية من المرض وعلاجه ،الزواج ، الإنجاب ....الخ

7- إن الوشم إذن ظاهرة أنتروبولوجية تعبر عن خصائص الإنسان الحضارية والثقافية، من خلال الطقوس التي يمارسها ، والعادات التي تعود عليها.بمعنى أن الوشم طقس أنتروبولوجي تعرف عليه

الإنسان منذ العهود الغابرة، ومازال يمارسه بشكل يومي. فضلا عن ذلك، يعتبر الوشم علامة سيميوطيقية رمزية تعبر عن هوية هذا الإنسان وكينونته وإنسيته وإثنيته العرقية والهوياتية، وتميزه بشكل جلي عن شعوب العالم، وتبين مدى اختلافه الشديد عنهم ، كما يعبر الوشم عن انتقال الفرد من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد والانتماء إلى الجماعة القبلية

8- الوشم علامة سيميائية للهوية، ورمزا للكينونة والإنسية. بمعنى أن الوشم مؤشر حضاري وثقافي على تواجد الإنسان في الزمان والمكان.لذلك، لذلك نجد بعض الجمعيات توظف بعض رموز الوشم في كثير من التظاهرات الأدبية والثقافية، على أساس أن الوشم هو علامة دالة على وجود هذا الإنسان محافظا على موروثه الثقافي ، انه يحيلنا إلى المقولة التالية التي تشبه الكوجيطو الديكارتي:" أنا موشوم إذاً أنا موجود".

الهوامش:

1 السيد حافظ الاسود : **الانثروبولوجيا الرمزية "دراسة نقدية مقارنة للاتجاهات الحديثة في فهم الثقافة وتأويلها "**، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، مصر ، د/ط ، 2001.ص.11.

2 الزهرة ابراهيم : **الانثروبولوجيا والانثربولجيا الثقافية "وجوه الجسد"** ،النايا للدراسات والنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، 2009 .ص.81.

3 ابن منظور : **لسان العرب** ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ج3 ، ط2 ، 1992 .ص.120.

4 نفس المرجع ج13، ص.47.

5 يوسف تيبس : **"تطور مفهوم الجسد من التأمل الفلسفي الى التصور العلمي** " مجلة عالم الفكر ، مجلد 37 ، العدد 4 ، 2009 .ص.36-37.

6 ابن منظور : **لسان العرب** ،ج 15 ،مرجع سبق ذكره ، ص220.

عبد الكبير الخطيبي : **الاسم العربي الجريح** ، تر : محمد بنيس ، منشورات الجمل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2009، ص.63-64. 7

8 عبد الكبير الخطيبي : المرجع السابق ، ص .65.

9 ابن منظور : **لسان العرب** ،، دار صادر ، بيروت ، لبنان ج 15. ص.220.

10 نخبة من أعضاء هيئة التدريس :**الانتروبولوجيا مداخل وتطبيقات** ،دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر ،الإسكندرية ،مصر ، د/ط ، 2005.ص .15.

11 فتيحة محمد ابراهيم ومصطفى حمدي لشوانتي "**مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان الانثربولوجيا** ، دار المريخ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، د/ط 1988.ص.185 -186

جدول الاحصاء السكاني لمدينة الشريعة ومناطقها الريفية سنة 2008،مقر بلدية الشريعة . 12

13 الزهرة ابراهيم : **الانثروبولوجيا والانثربولجيا الثقافية** مرجع سبق ذكر ،ص .ص.127-128.

14 عبد الجليل الطاهر : **المجتمع الليبي دراسة انثربولوجية واجتماعية** ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ، 1969 .ص.187.

15 عبد الجليل الطاهر : **المجتمع الليبي دراسة انثروبولوجية واجتماعية** ، مرجع سبق ذكره .ص.189.

16 .بن سليمان عبد النور : **الممارسات المغيرة لطبيعة الجسم الوشم لنموذجا** ، رسالة ماجستير ، معهد الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان ، الجزائر ، 1997-1998.ص.19.

صوفية البحيري بن حبيرة : **الجسد والمجتمع ، دراسة أنثربولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد** ، دار محمد علي للنشر ، تونس ، ط1 ،2008 ،ص.225 17

مقابلة مع مخبر رقم 01 18

19 مقابلة مع مخبر 04

20 .بن سليمان عبد النور : **الممارسات المغيرة لطبيعة الجسم الوشم انموذجا** ، رسالة ماجستير ، معهد الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان ، الجزائر ، 1997-1998.ص.59-61.

21 مفقودة صالح : **المراة في الرواية الجزائرية** ، دار الشروق ، الجزائر ، ط2 ، 2009 ، ص.331.

22 مقابلة مع المخبر 4

23 صوفية السحيري بن حتيرة : **الجسد والمجتمع "دراسة لبعض التصورات والمعتقدات المرتبطة بالجسد** "، مرجع سبق ذكره ،ص.227-228.

ليث الخفاف : "**وشوم الحنك** " ،مجلة التراث الشعبي ،العدد03، دار الجاحظ للنشر ، بغداد ، 1979.ص.45. 24

Mathea Gaudry **: la femme chaouia des Aures** ;etude sociologie berbere ;ed /paul geuthner ; 25 paris ;France ;1929. p43.

26 بن سليمان عبد النور : **الممارسات المغيرة لطبيعة الجسم** ، مرجع سبق ذكره ص 81

بناء مقياس المساندة الاجتماعية لأمهات الأطفال المعاقين عقليا

أ/ ابن الطيب فتيحة، جامعة ابن خلدون تيارت

تحت اشراف أ.د/ محمد الصغير شرفي، جامعة سطيف2

ملخص: اهتمت الدراسة الحالية بإعداد مقياس مقنن يقيس مستوى المساندة الاجتماعية لدى أمهات الأطفال المعاقين عقليا ،بعد الاطلاع على الادب النظري لموضوع المساندة الاجتماعية ومقاييسها والدراسات السابقة في الموضوع، تم بناء مقياس مكون من (78) بند موزعة على ستة أبعاد تمثل مصادر المساندة الممكنة لأم الطفل المعاق عقليا هي: بعد المساندة الأسرية أي الزوج واخوة وأخوات الطفل المعاق ،بعد المساندة العائلية والمقصود بها والدي الأم الإخوة والأخوات ،جمعيات أولياء الأطفال المعاقين عقليا، المراكز النفسية البيداغوجية ،الجيران ،الاصدقاء ،ولتحقيق هذا الهدف سعت الباحثة للتحقق من صدق وثبات هذا المقياس ،حيث عرض المقياس على مجموعة مكونة من(12) أستاذ محكم من جامعة ابن خلدون تيارت ،وبعد اجراء التعديلات التي اشاربها الاساتذة المحكمون تم الحصول على مقياس مكون من (70) بند لخمس أبعاد ،بعد دمج بعد الجيران مع بعد الأصدقاء نظرا للتغيير الاجتماعي الحاصل على المجتمع الجزائري وتقلص دور الجيرة، وتراوحت نسبة الاتفاق بين (90-95%) ،تلت هذه الخطوة عملية التحليل الاحصائي لحساب الاتساق الداخلي للمقياس والثبات وقد طبق المقياس على عينة مكونة من (70) أم طفل معاق عقليا ممن أبناؤهن مسجلين بالمركزين البيداغوجيين لمدينتي تيارت وتيسمسيلت ،وقد تم الحصول على اتساق داخلي لكل البنود ماعدا البندين رقم(11) و(47) فتم حذفهما ،وبلغ الثبات الكلي للمقياس بحساب معامل الفا كرو نباخ (0.906) ،كما تم حساب الثبات بالتجزئة النصفية وتراوحت قيمه بين (0.808-0.867) وبعد التأكد من الصدق والثبات يمكن اعتماد هذا المقياس لقياس مستوى المساندة الاجتماعية لأمهات الاطفال المعاقين على البيئة الجزائرية .

الكلمات المفتاحية :مقياس المساندة الاجتماعية ، الاعاقة العقلية ،ام الطفل المعاق عقليا.

Abstract : The récent study were interested in preparing a standard scale that measusures the level of social support to mothers of mental handicaped children , and after seeing the theoretical literature of social support and the previous study ,we have fownded a scale formed of(78) items devided on six dimensions which represents the resouses possible of supports to the mother of handicapped mental child its :1/ the dimension of small family(the husband and other children), 2/ the dimension of the big family (the grand father,uncles ,aunts ,3/ associations of the handicapped parents ,4 /psychological and pedagogical centers for children with mental disabilities , 5 / the neighbours , 6/the friends ,in order to achieve that objective researcher tried to verify the internal consistency

and reliability of this scale that showed them to(12) experts from ibn khaldoun university , these professors have made some remarkes wich lead the researcher to some modification in the study , the main modifications was in the number of the items from (78) to (70) and dimensions from (6) to(5) after combing the dimensions of friends and neighbours ,as a result of the differences happening in algerian, sociaty the porcentage of agreement ranged between(90__ 95%) .

After the statics analysis to measure the scale was practiced on (70) mothers whose children were registered in the centres of tiaret and tissmsilt , we has been obtaind internal consistency for all items except the item(11) and (47) which have been cancelled , the total reliability of the scale was calculated by the alpha karonbach coefficient (0,906) ,as was calculated the reliability also by half division its value ranged between (0, 867__ 0,808) .

Once verified this scale can be used to measure the level of social support for mothers of children with mental disabilities in algerian environment .

مقدمة : بالإضافة الى التحديات التي تواجهها الأسر جميعا تواجه اسر العاقين عقليا تحديات اضافية ،ترجع طبيعتها الى الإعاقة العقلية للطفل والحاجات الخاصة التي تنجم عنها .

فهذي الحالة تجعل الأم تواجه مشكلات يصعب تخطيها فالمعاق عقليا يتميز بتأخر نمائي ملحوظ في جميع المجالات ،ضعف في القدرات، احيانا تشوهات في مناطق متعددة من الجسم ،تأخير في النمو الحركي واللغوي وفي الحالات الشديدة انعدامهما،ضعف في الذكاء الذاكرة ،الانتباه والادراك كل هذا القصور يعيق تعلمه وتدريبه ،أما من الناحية الاجتماعية، فهو يتصف بضعف القدرة على التكيف نقص الميول والاهتمامات، عدم تحمل المسؤولية، مع وجود سلوكيات غير اجتماعية، كالانسحاب والعدوان ,صعوبات في بناء العلاقات الاجتماعية مع الاخرين ،أما من الناحية العاطفية والانفعالية فهم يتميزون بعدم الاتزان الانفعالي ،عدم والهدوء، سرعة التأثر وعدم القدرة على التحمل القلق والإحباط .[1]

فكل هذه الخصائص تجعل هذا الطفل غير قادر على اكتساب الاستقلالية في تلبية حاجاته وحماية ذاته بالإضافة إلى أنهم عرضة للأمراض المختلفة ،هذا ما يتطلب استمرارية رعايته لساعات طويلة في اليوم الواحد وسبعة ايام اسبوعيا،مما ينهك الأم فهي من يتحمل المسؤولية الأكبر في رعاية هذا الطفل [2]

فضلا عن ذلك الضغط الذي تفرضه تكاليف الرعاية الطبية والنفسية والتربوية للطفل المعاق والوصمة الاجتماعية للإعاقة العقلية في معظم المجتمعات ،والشعور المرير بالحرج، والحساسية نتيجة سوء أداء المعاق عقليا مقارنة بأداء اقرانه من نفس الفئة العمرية، غموض المستقبل وما ينجم عنه من قلق وخوف.[3]

ومع كل ما سبق التطرق له من خصائص مختلفة يتميز بها الطفل المعاق وما يترتب عليها من صدمة وضغوطات متعددة تواجهها أم هذا الطفل .إلا أن فئة من البحوث اظهرت ان بعض الامهات لديهن ميل نحو التغلب على ضغوطاتهن الناجمة عن حالة الاعاقة الذهنية لأبنائهن بفضل السند الاجتماعي الذي يلعب دور الواقي من الضغوط المتجددة للإعاقة، عن طريق مستودع العلاقات مع الاشخاص ذوي الدلالة، وكذا المساندة الاجتماعية الآتية من خارج العائلة، التي تعتبر كعامل حماية ضد إجهاد الإعاقة العقلية، (باترسون،قارويك،1994، Garwick،Patterson)

ومن هؤلاء الاشخاص كذلك مهنيو الصحة، المراكز الاجتماعية والبيداغوجية والتي يجب على الوالدين طلب مساعدتهم وتلقيها منهم فالمعلومات المقدمة عن حالة الطفل ، البرامج التعليمية والتدريبية التي يتلقاها الطفل و الأولياء ،تعمل على التغلب على الوضعية الضاغطة للإعاقة العقلية ,كما ان بعض الاولياء يرغبون في مشاركة التجربة مع أولياء آخرين لديهم أطفال ذوي احتياجات خاصة فهؤلاء يقومون بالدفاع عن حقوق ابنائهم (ريز،2004،Riez) ،التساند في البحث عن رؤية بناءة للوضعية، التعبير عن معاناتهم، وعمل علاقات خارج الاسرة ما يسمح بالتكيف الإيجابي مع الحالة.[4]

ولقد حاول كل من(ديزن، Dyson ،1996،فاول،Fawell)(دونست،1982،Dunst ،توضيح اهمية المساندة الاجتماعية في وصول الوالدين لحالة السوية ،من خلال التكامل بين الزوجين ومساندة الاسرة والتي تؤدي الى تحسين ادراك الإعاقة وأداء الطفل بفضل هذه الشبكة الغير رسمية التي تعمل على خفض مشكلة الإعاقة العقلية وتأثيراتها السلبية على الأم، كما ان العديد من الأمهات أقرو دور الأصدقاء والأقارب كالوالدين وأفراد العائلة الممتدة في الادراك الايجابي للوضعية والمساعدة على تجاوزها و أنهن يعقدن أهمية بالغة على أسرهن خاصة معاضدة الزوج, فحالتهن العاطفية تظهر مرتبطة بقدرة الشريك على تقديم الدعم المادي والمعنوي لهن[5]

ومما سبق ذكره عن مشكلة الإعاقة العقلية للطفل وأهمية تلقي المساندة الاجتماعية لها ومن مصادر متعددة وبأشكال مختلفة العاطفية،المادية،والمعلوماتية،تتضح اهمية تناول هذا الموضوع الجدير بالدراسة ومنه أهمية تطوير مقياس مقنن يحدد مستوى المساندة الاجتماعية التي هي من اهم عوامل التكيف الإيجابي لأم هذا الطفل ذو الحاجات الخاصة مع وضعية إعاقته العقلية .

مشكلة الدراسة:

إن أهم تحدي يواجه البحوث التربوية والنفسية هو الحصول على أدوات قياس مقننة، تؤدي إلى الوصول الى نتائج دقيقة سواء أكان ذلك بغرض الوصف أو التشخيص أو التقويم أو بناء البرامج

العلاجية أو الارشادية،إذ تحتل أدوات القياس مكانة هامة في جميع هذه المجلات ،وإن عملية بناء أو تكييف المقاييس ودراسة خصائصها السيكوميترية من صدق وثبات هو من أهم خطوات البحث العلمي.

ونظرا لعدم توافر مقياس للمساندة الاجتماعية لأمهات المعاقين عقليا معد خصيصا للبيئة الجزائرية ، سعت الباحثة لتطوير أداة مقننة تعمل على قياس هذه العملية التي تعد أحد أساليب المواجهة الخارجية التي تعمل على الوقاية من الضغوط المتجددة للإعاقة الذهنية ذات الأثر السلبي على الام التي لديها طفل مصاب بها ، كما أن المساندة الاجتماعية من العناصر التي تحكمها المتغيرات الثقافية الخاصة بكل بيئة اجتماعية، ومن خلال كل هذا فان مشكلة البحث الحالي تتمثل في تطوير مقياس صادق وثابت يسمح بقياس هذه الظاهرة وفقا لمتغيرات البيئة الجزائرية.

-ومن هنا يمكن طرح التساؤل التالي: ماهوا صدق مقياس المساندة الاجتماعية لأم الطفل المعاق عقليا ؟

- ما هوا ثبات مقياس المساندة الاجتماعية لأم الطفل المعاق عقليا ؟

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة الحالية الى اعداد مقياس صادق وثابت يقيس مستوى المساندة الاجتماعية لأمهات الأطفال المعاقين عقليا معد للبيئة الجزائرية.

3.اهمية الدراسة:

***الاهمية النظرية:**

الحصول على وسيلة قياس تساهم في قياس مستوى المساندة الاجتماعية لا مهات المعاقين عقليا في محاولة لسد النقص الموجود في الدراسات النفسية الخاصة بأسر المعاقين عقليا فمعظم الدراسات التي تناولت موضوع الإعاقة العقلية ركزت على الطفل المصاب واهملت والداه، وخاصة الأم التي هي محور العلاقات الأسرية ومن يتحمل أعباء هذه الحالة.

*** الاهمية التطبيقية:**

- التعرف على مصادر وأشكال المساندة الاجتماعية المتوافرة في البيئة المحلية ،وقياس مستواها من أجل القيام بتدخلات عياديه فعالة.

- الاصغاء لهذه الفئة المهمشة من المجتمع من خلال مجريات الدراسة، التعرف على معاناتهم وحاجاتهم، تقديم بعض المعلومات عن الاعاقة العقلية وبعض الارشادات والتوجيهات.

- تحسيسهم بضرورة تحريك مصادر المساندة الاجتماعية وطلبها من مختلف أفراد شبكاتهم الاجتماعية الرسمية والغير رسمية.

- توفير اداة قياس مقننة وموضوعية لقياس الظاهرة.

4.مصطلحات الدراسة :

***الإعاقة العقلية :**

تشير سحر (2013) إلى أن الاتجاه الحديث في التربية الخاصة يميل إلى استخدام مصطلح الإعاقة العقلية بدلا من مصطلحات التخلف، التأخر العقلي، الضعف العقلي، فهذا المصطلح الذي ظهر مع بداية (2007) في منشورات الجمعية الأمريكية للإعاقة العقلية التي تعتبر من أقدم الجمعيات في هذا الميدان وذلك التعبير جاء استنادا الى تعريف الإعاقة العقلية على أنها : "قصور في وظائف الفرد والبيئة مع إعطاء الأهمية لمساندة الفرد في تحسين ادائه".[6]

***ا لمساندة الاجتماعية:**

تعرفها ساراسون(1983sarason) « بأنها إدراك الفرد ان البيئة تمثل مصدر للتدعيم الاجتماعي الفعال ومدى توافر أشخاص يهتمون بالفرد ويرعونه ويثق فيهم ويأخذون بيده ويقفون بجانبه عند الحاجة ومن ذلك الأسرة والأصدقاء والجيران »[7]

*** التعريف الإجرائي لمقياس المساندة الاجتماعية :**

تعرفه الباحثة أنه: الأداة التي يتم بها قياس مستوى المساندة الاجتماعية لأم الطفل المعاق من مصادر مختلفة من أقارب وأصدقاء وجيران ومؤسسات اجتماعية متمثلة في المراكز البيداغوجية النفسية للأطفال المعاقين عقليا ، جمعيات أولياء الاطفال المعاقين عقليا ،واشكالها المتعددة المتمثلة في الدعم المعنوي والمادي والمعلوماتي، الرعاية والاهتمام بها وبطفلها المعاق عقليا.

*** أم الطفل المعاق عقليا :**

هن الأمهات التي لديهن أطفال مصابين بإعاقة عقلية ،وهم الأطفال المعاقين عقليا الملتحقين بالمركزين البيداغوجيين النفسيين لولايتي تيارت وتيسمسيلت ،والخاضعين للتشخيص الطبي والنفسي والتربوي والذي أكد إصابتهم بالإعاقة العقلية بمختلف درجاتها والذين تتراوح أعمارهم من 5 الى 18 سنة.

أدبيات الدراسة :

1. تأثير الأطفال المعاقون عقليا على أسرهم :

تشير معظم الدراسات إلى أن الطفل المعاق عقليا من خلال عجزه وحاجته إلى المساعدة في كل نشاطات الحياة اليومية العناية المستمرة ، بالإضافة إلى سلوكياته الغير متكيفة وكل ما يتميز به من خصائص غير مقبولة ، ما يترك آثار نفسية واجتماعية واقتصادية على الأسر التي ينتمي إليها وتحديدا على الأم نظرا لأنها هي من يتحمل العبء الأكبر في رعايته بالإضافة إلى المهام الاخرى التي بتطلبها دورها كمحور للعلاقات الأسرية.

ومن العوامل التي اشارت لها البحوث بأنها تؤدي الى الضغط النفسي على الأسرة هي حالة وجود طفل معاق عقليا داخل هذه الأخيرة [8].

2. مصادر الضغوط النفسية لأسر المعاقين عقليا :

يتعرض والدا الطفل الغير عادي إلى ضغوط متعددة ناجمة عن التأخر النمائي الملحوظ لهذا الطفل في معظم المجالات والقصور الكلي والتبعية الكاملة للوالدين ، بالإضافة إلى نقص البرامج التعليمية المتخصصة والتكفل الطبي والنفسي وكذا الوسائل والدعم المادي ويمكن اجمالها فيما يلي :

-ضغوطات متعلقة بالمشكلات المعرفية للطفل .

-ضغوطات متعلقة بمشكلات الأداء السلوكي للطفل .

-ضغوط متعلقة بالأعباء المالية للإعاقة الذهنية.

-ضغوط متعلقة بالمشكلات الأسرية والاجتماعية والشعور بالحرج الاجتماعي.

-ضغوط تتعلق بالخوف على مستقبل الطفل .[9]

3. المساندة الاجتماعية :

فمن خلال ما سبق التطرق إليه من مشكلات وتأثيرات سلبية للإعاقة الذهنية والضغوطات المرتبطة بها ،يتضح جليا أهمية المساندة الاجتماعية لأمهات هؤلاء الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة ،فلكل طفل ذو حاجات خاصة أسرة ذات حاجات خاصة ، هذا ما أكدته العديد من الدراسات العربية والأجنبية فيما يخص دور المساندة الاجتماعية كعامل وسيط وقائي في مواجهة ضغط الإعاقة (كرنك 1983 Crinc ، كوب 1976 Cobb ، بكمان وبوركورني 1988 Bekman, porkorni) والذين أكدوا أن المساندة الاجتماعية تعتبر كأسلوب مواجهة خارجية تقلل من الضغط الأسري الناجم عن الإعاقة .[10]

3-1مفهوم المساندة الاجتماعية :

تعريف (هاوس 1981، Hawse): تشير المساندة الاجتماعية إلى العلاقات المتداخلة بين الأفراد وتقوم على الأسس الآتية : الاحترام والتقدير الذاتي والمشاعر الوجدانية ، المساعدات المالية ، تقديم المعلومات .[11]

2-3 أهمية مساندة أمهات الأطفال المعاقين عقليا :

إن الطفل ذو الإعاقة العقلية من خلال عجزه فهو بحاجة إلى مساعدة في كل نشاطات الحياة اليومية ،من عناية جسدية تغذية ،تنقل ، عناية طبية ، استثارة الطفل المعاق، شغل وقت فراغ ، إلخ... فهذه بالأم بحاجة إلى المراقبة المستمرة لأمنها راحتها فالأم التي يقع عليها هذا العبء لديها زوج ، إخوة وأخوات هذا المعاق وبالتالي وقت قصير لهؤلاء، لممارسة مهنتها التسابق من أجل الوفاء بحاجات الأسرة ، مجهودات مضاعفة لتنمية قدرات هذا الطفل ، فهي غالبا في قمة الإنهاك وفي حاجة لأوقات راحة ، من اجل مواصلة دورها اتجاه اسرتها وتجاه هذا الطفل (لبراك ،Labreque ، كوال Cowell ، ريوم ، 2008 Réaume).[12]

هذا اكده كل من (وايسبران،1980،Waisbren) و(مارش 1983،Marsh)عن اهمية الدعم الاجتماعي في تحسين المشاعر الايجابية للوالدين تجاه ابنائهم المعاقين ،فهو يعمل على خفض بعض التأثيرات الأكثر قساوة للعجز، فكلا من الدعم الرسمي من مثل مراكز الخدمة الاجتماعية والغير رسمي المتمثل في (العائلة ،الأصدقاء)،يمكن ان يساعد في القدرة على المواجهة.

3.3.مصادردعم والدي الطفل المعاق عقليا:

لقد احصت الدراسات عدة انماط للمصادر التي يمكن ان يحصل فيها الوالدين عن الدعم، بمن فيهم اخصائيو الصحة اعضاء الأسرة ، جماعات المجتمع، العائلة الممتدة الجيران.

اذ يؤكد (قارويك،Garweick) أن السند الاجتماعي خارج العائلة هو من أهم عوامل الحماية التي تساعد على مواجهة الضغط الناجم عن الإعاقة، فمن خلال الاتصال بالمختصين الذين يقومون بالوفاء ببعض الحاجات كالإمداد بالمعلومات التي يحتاجها الأولياء للتعرف على كيفية نمو الطفل ومآل حالته في المستقبل، والإرشادات حول كيفية التعامل بفاعلية مع المشكلة، تعمل على خفض مشاعر العجز وانعدام الحيلة.[13]

وترى (شيل 2001 ،Scelles) ان الوالدين محتاجين الى تأكيدهم من طرف من حولهم سوآءا كانوا مهنيين أو أقارب فالطريقة التي يكونا بها اولياء هي ثمرة التفاعل بين ماهوا داخلي والاتجاهات العلائقية الإيجابية للمحيط الإنساني للوالدين.[14]

كما أقرت بعض الأسر ان الأصدقاء والأقارب كانوا جد متعاونين ومساندين ، و اشارت كذلك العديد من الدراسات لدور الجمعيات في مساعدة الأولياء في مختلف المجالات، وأن على الوالدين ان يبحثوا عن هذا الدعم من خلال مقابلة اولياء في مثل وضعيتهم، فمجموعات الدعم المكونة من اسر ذوي الحاجات الخاصة. تؤدي عدد من المهام كالتخفيف من المعاناة،فك العزلة، تقديم المعلومات، الاستفادة من نماذج والدية، تقديم اساس للمقارنة.

ومن كل ما تقدم ذكره فإن السند يمكن ان يكون العنصر الإيجابي الأكثر معنى للخروج من الأزمة التي تفرضها الإعاقة العقلية على الأم.

3 -4. حاجات الدعم لأولياء المعاقين عقليا:

يحتاج اولياء المعاقين عقليا الى أشكال متعددة من المساندة ومن مصادر متعددة ويمكن تلخيص هذه الحاجات في ما يلي :

* الحاجة الى السند المعلوماتي :

ان الوالدين في حاجة مستمرة للمعلومات عن الإعاقة ،فهم يعيشون في قلق مستمر لتحديد تشخيص لحالة طفلهم المعاق، وعن ما سيكون عليه في المستقبل ،فمعظم الآباء يكونون مهتمين بصفة خاصة فيما اذا كان طفلهم المعاق قادرا على المشي او الكلام او الذهاب الى المدرسة ،الزواج، الحصول على مهنة فلقد لاحظ(باكستر Baxter،1986) ان العامل الأساسي في كل تعبيرات القلق الوالدي هو عدم التأكيد والبحث عن معلومات عن معنى حالة طفلهم ،وهي حاجة يجب ان يسدها المختصون .. ولقد أكد (باكستر وأخرون Baxter&al، 1986) ان هذا النمط من المساعدة هو أكثر اهمية من التعاطف والدعم المعنوي.(باكستر Baxter،1986 ،سيميلاري Similary،1993 ،دارلينج وباكستر Darling &Baxter، 1996).[15]

- فهم بحاجة الى معرفة قدرات وإمكانيات هذا الطفل التي يمكن تطويرها.

- الحاجة الى معرفة المراكز الخدماتية التي يمكن اللجوء اليها.

- الحاجة الى معرفة حقوق الطفل المعاق.

*الحاجة الى السند السيكولوجي:

يلعب هذا النوع من السند دورا في مساعدة الأولياء نتيجة الضغوط المتعددة للإعاقة ،والسلوكيات الصعبة لهذا الطفل فهم بحاجة الى تجديد طاقاتهم لمواصلة العناية بهذا الطفل ،دعم الوالدين وتفهم

عواطفهما تجاه صدمة الإعاقة ومشاعر الحزن، الخجل الغضب، و غيرها من المشاعر السلبية ، الرغبة في تحسين اداء الطفل ،الذي هو اهم متغير لتكيف الأمهات مع الإعاقة العقلية.[16]

وفي دراسة قامة بها (كرنك واخرون1983،Crinc&al) تتمثل في فحص الدعم الاجتماعي في اطار ثلاث مستويات ايكولوجية وهي:

1)- العلاقات الحميمة المتمثلة خاصة في العلاقة الزوجية.

2)- الصداقات.

3)- الجيرة والدعم المجتمعي، حيث وجد هؤولاء.ان الزوج يلعب دور مهم في تقليل الضغط الواقع على الأم ،وان الأمهات كن أكثر ايجابية في سلوكياتهن اتجاه الطفل نتيجة التأثيرات الإيجابية للزوج، وكما سبق ذكره اهمية تدريب الأمهات من اجل تنفيذ البرامج التربوية والإرشادية لتنمية قدرات أطفالهن. وتكييف سلوكاتهم،فهذا العمل المشترك بين الوالدين والمتخصصين يجعل الوالدين قادرين على مواجهة تحديات الإعاقة التي تنتظرهم .

ومن خلال جمعيات اولياء المعاقين ،وخلايا الإصغاء التي توجد بها ،يتبادل الأولياء التجارب. بحث مشاكل الإعاقة مع أولياء عايشوا نفس التجربة، تخفيف من حالة القلق،والخوف،فك العزلة، تحقيق نمو أطفالهم، الدفاع عن حقوقهم،فالخدمات الجمعوية يمكن اعتبارها قاعدة مهمة للمساندة والتربية التي تحضر للعمل البعدي للمراكز البيداغوجية ،هذه الأخيرة التي يعمل المهنيون المتواجدين بها على وضع اليد على المشاكل والصعوبات التي يواجهها الأولياء من خلال الفهم والإصغاء للأمهات، الخدمات التقنية والطبية المقدمة لهم ولأطفالهم. محو اثار الإعاقة ...الخ.(لمبارت Lambert 1978. كول Col، 1976،امانسيا،Armenia ، تيرشن Turchin 1974) ، فأهمية هذه الخدمات تأتي في المرتبة الثانية وراء الأهمية المعطاة للدينامية العلائقية.[17]

* الحاجة الى السند المادي :

اكدت العديد من الدراسات ان حاجات أسر المعاقين الى المساعدات المادية أكثر من الأسر الأخرى التي ليس لها طفل معاق، فكثيرا ما يحتاج الأولياء الى تعديل وتكييف المنزل من اجل التسهيل على المعاق، تكاليف العلاج، التدريب المتخصص العلاج اللغوي و العلاج الطبيعي، التنقل للحصول على الخدمات التعليمية، الطبية وغيرها ،الترويح والراحة، بالإضافة الى هذه التكاليف المباشرة ،تعاني الأمهات خاصة من ضياع وقت العمل، او خسارة عملهن بسبب إعاقة الطفل.

وأخيرا يمكن القول ان حاجة الأمهات الى الدعم حاجة مستمرة بالنسبة لهن ، وهذه الحاجات تأتي من مصادر متعددة وذات اشكال متنوعة تهدف في مجملها الى تكيف الام والطفل اتجاه الإعاقة العقلية.

الدراسات السابقة والمقاييس التي تم الاعتماد عليها في تصميم الأداة :

***الدراسات :**

1) -**دراسة محمد حامد ابراهيم الهنداوي**: قام الباحث ببناء مقياس للدعم الاجتماعي للمعاقين حركيا بغزة فلسطين احتوى هذا المقياس على (44) فقرة مكررة على ثلاث مصادر للدعم وهي :

- الأسرة والأقارب

- الأصدقاء

- مؤسسات المجتمع

وهي موزعة على بعدين هما،1) البعد الاجتماعي والاقتصادي ،2)البعد النفسي والانفعالي وفقا للبدائل التالية: - مطلقا تقدر ب (1) ،نادرا تقدر ب(2) ،الى حدما (3) ،كثير تقدر ب(4) درجات : على عينة مكونة من (63) فرد وقد تمم التحقق خصائصه السيكوميترية . حيث تراوح صدق الاتساق الداخلي بين (0.464-0.993) –لكل بعد مع المصدر الذي تنتمي اليه .وقدر معامل الثبات الف اكرو نباخ للمقياس بمصادره ودرجاته بين (0.959-0.981) وهي قيم مرتفعة .[18]

2) -**دراسة كل من (ريبوم وأخرون ،2008 ، Rhéaume& al**) : تحت اشراف مجلس العائلة والطفولة الكندي في منطقة الكيباك بحيث كان الهدف منها هو معرفة رأي العائلات التي لديها طفل معاق ،في المساندة المقدمة لهم وكذا البحث عن حاجاتهم لهذه المساندة، وقد تم تصميم دليل للاحتياجات طبق على (35) عائلة بأكملها مع صبر للآراء بلغ(836) مشاركة من اولياء ومتدخلين مهنيين متخصصين مع هذه الفئات وقد احتوى هذا الدليل على عدة محاور اهمها : الحاجة للمساندة النفسية، الخدمات الطبية، الحاجات المادية، الراحة والترفيه، مراكز_تعوض_العائلات في حالة الطوارئ، الحاجة الى السند الجمعوي.[19]

*** المقاييس:**

1) -مقياس المساندة الاجتماعية ل ساراسون : وضع هذا المقياس ساراسون واخرون (1983) وقام بتعريبه وتقنينه على البيئة العربية محمد الشناوي وسامي ابيه (1990)،ويشمل المقياس(27) فقرة

تقييس بعديين رئيسيين هما:

1- عدد الاشخاص المتاحين للمساندة، أي اقرب الأشخاص المتاحين في النسيج الاجتماعي للفرد .

2- وقد تم بناء هذا المقياس على اساس مجموعة من المواقف عددها (27) موقفا، ويطلب من المفحوص في اجابته على كل موقف ان يذكر عدد الأشخاص الذين يمكنهم ان يقدموا له المساندة او العون في مثل هذا الموقف ، وذلك في حدود تسعة اشخاص يحددهم باستخدام حرفيين مشيرا لاسم كل فرد مثل (س،ع) ثم يطلب من المفحوص ان يحدد مدى رضاه على علاقته بهؤلاء الأشخاص ،وذلك باختيار اجابة واحدة من بين ست اجابات هي:

1)- غير راضي على الإطلاق .2)- غير راضي . 3)-غي راضي لدرجة قليلة .

4)- راضي بدرجة قليلة. 5)- راض. 6)- راض بدرجة كبيرة.

ثبات المقياس : تم تقدير ثبات المقياس على عينة مكونة من(67) فرد باستخدام معامل ثبات ألفاكرونباخ والتجزئة النصفية.

أبعاد مقياس المساندة الاجتماعية	معامل التجزئة النصفية	معامل الفا كرو نباخ
البعد الأول	0.92	0.95
البعد الثاني	0.92	0.94

يتضح من الجدول أنه يتمتع بثبات مرتفع على كافة ابعاده.

- صدق المقياس :

* صدق المحتوى: تم استخدام طريقة استطلاع اراء المحكمين وقد تراوحت معاملات الاتفاق بين اراء المحكمين للفقرات بين (85-100%)

* طريقة الاتساق الداخلي :

تم تقدير الصدق ايضا عن طريق الاتساق الداخلي بين الفقرات والدرجة الكلية للأبعاد المنتمية اليها كما في الجدول:

ابعاد مقياس المساندة الاجتماعية	معامل الارتباط
البعد الأول	(0.84)**
البعد الثاني	(0.80)**

** دالة عند مستوى الدلالة 0.001 .

يتضح من الجدول السابق ان جميع معاملات الارتباط دالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.01) اي انه يتمتع بدرجة عالية من الصدق .[20]

2)- **مقياس احتياجات اولياء امور المعاقين** اعداد زيدان السرطاوي، عبد العزيز الشخص،(1998):

قام الباحثان بإعداد هذا المقياس بالاستناد الى مراجعة الأفكار والآراء والنظريات والدراسات حول احتياجات أولياء الأمور عامة وتلك التي تتعلق بوجود طفل معاق في الأسرة ومقاييس الاحتياجات ، وتم بناءا على ذلك صياغة (34) عبارة تحوى :

(1) – الاحتياجات المعرفية تضم الفقرات من 1 الى 11 وتخص المعلومات المقدمة للأولياء عن الإعاقة ،و توفير البرامج الإرشادية والتدريبية للأولياء.

(2)- الدعم المادي: وتضم الفقرات من (12-16) وتخص حاجة اولياء امور المعاقين الى الوسائل والألعاب التعليمية والعلاج الطبي ووسائل الترفيه للأطفال المعاقين ،بالإضافة الى تخصيص منح للمعاقين وأسرهم .

(3)- الدعم الجمعوي وتضم الفقرات من (17-21) وتشير الى مدى حاجة اسرة الطفل المعاق الى الدعم المجتمعي المتمثل في المراكز البيداغوجية ، والجمعيات التي تقدم الخدمات للأطفال المعاقين وأوليائهم .

(4)- الدعم المجتمعي: وتضم الفقرات من (22-25) وتشير إلى الدعم الاجتماعي المتمثل في مساعدة الأقارب في رعاية الطفل المعاق ، وجود الأصدقاء لطلب النصح والمشورة ،لإتاحة فرص التقاء بأسر المعاقين لتباد ل المشورة والخبرة بالإضافة الى اهمية الأسرة الممتدة في توفير الدعم والمساندة لأولياء الأمور.

صدق المقياس :تم التأكد من صدق هذا المقياس عن طريق :

* الصدق العاملي :بحيث تم تحديد اربعة عوامل تشبع لها خمس وعشرون فقرة من فقرات المقياس زادت تشبعاتها عن 0.30 وتم استبعاد ثلاثة فقرات بسبب عدم انتمائها لأي من الأبعاد الأربعة .

* الاتساق الداخلي : تراوحت قيمة معاملات الارتباط لانتماء الفقرات مع درجات الأبعاد التي تنتمي إليها فكانت معاملات الارتباط تتراوح بين (0.45-0.89) وهذا يعني ان المقياس يتمتع بدرجة مقبولة من الصدق .

ثبات المقياس: بلغ المعامل الفا كروبناخ 0.94 وهذا يعني ان المقياس ثابت.[21]

اجراءات الدراسة الميدانية:

1.منهج الدراسة : تم الاستعانة بالمنهج الوصفي الذي يناسب موضوع الدراسة.

2 .العينة: تمثلت عينة الدراسة في أمهات الأطفال المعاقين عقليا المسجلين في المركزين النفسيين البيداغوجيين لمدينة تيارت وتيسمسيلت ،حيث قامت الباحثة بتوزيع المقياس عليهن و البالغ عددهن (70) ممن حضرن وقبلن المشاركة في هذه الدراسة واتممن الاستجابة على عبارات المقياس ككل .

وقبل التطبيق تم مراسلة الامهات واستدعائهن للحضور للمركزين من طرف الإدارة ، ولقد قامت الباحثة بشرح اهداف البحث ، وبعد اخذ موافقتهن على المشاركة ، طلب منهن الاستجابة على عبارات المقياس بشكل فردي لمن لديهن مستوى تعليمي يسمح بذلك ،و يتم الاستجابة للعبارات عن طريق الباحثة او الأخصائيين النفسانيين العاملين بهذين المركزين لمن ليس لديهن أي مستوي تعليمي أو مستواهن ابتدائي ، بحيث يتم قراءة العبارات كما هي وفي حالة عدم فهمها يتم اعادة صياغتها باللغة العامية .

3. خطوات بناء المقياس:

تم تصميم هذا المقياس عن طريق الرجوع الى أدبيات الموضوع والدراسات السابقة ومن اهمها (الهنداوي، 2012) (ريوم،واخرون،2008 ،Rhéaume &al) وكذلك تم الاطلاع على بعض مقاييس في هذا المجال ومن اهمها،مقياس المساندة الاجتماعية(ساراسون 1983،Sarason) ومقياس احتياجات اولياء امور المعاقين زيدان السرطاوي و عيد العزيز الشخص(1998).

تم كذلك اجراء دراسة استطلاعية حيث قامت الباحثة بإجراء مقابلات حرة عن مصادر المساندة واشكالها التي تتلقاها الأمهات بالمركز البيداغوجي لمدينة تيارت وكذلك مقابلات مع المختصين النفسانيين والأرطفونيين بالمركز البيداغوجي بحكم احتكاكهن الدائم بالأمهات.

-الخصائص السيكوميترية للأداة:

1)-**الصدق:** قامت الباحثة بعرض الأداة الأولية على مجموعة تتكون من (12) محكما من أساتذة علم النفس بجامعة ابن خلدون تيارت ، ولقد احتوت الاداة في صيغتها الأولية على (78) بند ،تنتمي الى 6 ابعاد وهي ،بعد المساندة الأسرية اي الزوج والإخوة وأخوات الطفل المعاق ،البعد الثاني هو المساندة العائلية المقصود بها والدي الأم الإخوة والأخوات لهذه الأم، البعد الثالث يخص المركز البيداغوجي الموجود به الطفل، البعد الرابع يخص جمعيات أولياء الأطفال المعاقين عقليا ، والبعد الخامس يخص الأصدقاء والبعد السادس تمثل في الجيران ، وبعد الأخذ بآراء المحكمين ،تم الاستغناء عن بعد الجيران ودمجه مع بعد الأصدقاء نظرا للتغير الاجتماعي الحاصل على المجتمع الجزائري حاليا وتقلص دور الجيران .

- اعادة الصياغة اللغوية لبعض البنود.

- وقد تم الاحتفاظ بالبنود والأبعاد التي حظيت بنسبة اتفاق تراوحت بين (90-95%) من طرف السادة المحكمين وتكون المقياس في صورته النهائية من 70 بند ممثلة ب(05) ابعاد المذكورة اعلاه ماعدا بعد الجيران. وقد احتوى:

* بعد المساندة الأسرية (الزوج والأبناء)على (21) بند موزعة على بنود ايجابية وهي:

.67,66,65,63,58,54,50,46,42,38,35,30,25,15,06,01

السلبية هي: 70,69,68,61,20.

* بعد المساندة العائلية يحتوي على (13) بند موزعة على بنود ايجابية وهي: 39,36,31,26,16,11,07,03، 43 51 ،55. وبنود سلبية هي : 47,21.

* بعد مساندة الجمعيات يتكون من (13) بند موزعة بنود إيجابية :59,48,44,40,33,28,23,18,13,09,02.

البنود السلبية وهي:56,52.

* بعد مساندة المركز البيداغوجي : يتكون من (15) بند موزعة على بنود إيجابية : 04 ،10 ،29,24,19,14,41، 45 ،53,49، 60 ،64,62 .

بنود سلبية : 34,57

* بعد مساندة الأصدقاء ويحتوي على (08) بنود منها الإيجابية وهي: 37,32,22,17,12,08,05. وبند سلبي هو 27.

* واقل درجة يمكن ان تتحصل عليها الأم هي 70 واعلى درجة هي 280 درجة وفق سلم رباعي التدريج (1 - 4) موافق دائما تعطى 04 ، موافق احيانا تعطى 3 0،حيادي تقدر ب02،غير موافق تقدر ب 01وتنقط البنود السلبية بعكس ذلك .

صدق وثبات المقياس:

1)- الصدق:

- **صدق المحكمين** : لقد تم عرض المقياس على (12) محكما من اساتذة علم النفس لجامعة ابن خلدون تيارت، تم القيام ببعض التصويبات اللغوية التي قدمها السادة المحكمون، وقد حصلت الباحثة على نسبة اتفاق تراوحت بين (90-95 %) على(70)فقرة من أصل(78) لخمسة أبعاد المذكورة اعلاه ماعدا

بعد الجيران الذي اشار المحكمون بدمجه مع بعد الاصدقاء نظرا لتقلص دور الجيران في وقتنا الحاضر، وتم الاحتفاظ بالأبعاد والبنود التي رأى المحكمون انها تقيس ما أعدت لقياسه ويعتبر هذا اول مؤشر للصدق.

-الاتساق الداخلي:

تم التأكد من صدق الاتساق الداخلي من خلال حساب معامل الارتباط بيرسون بين درجة كل بند و الدرجة الكلية للبعد الذي ينتمى اليه ، وبين البند والدرجة الكلية للمقياس ككل وهذا ما توضحه النتائج الأبعاد الخمسة .

صدق الاتساق الداخلي لمقياس السند الاجتماعي:

البعد الأول: المساندة الاسرية(الزوج واخوة الطفل المعاق)

البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل	البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل
1	,578**	,360**	54	,698**	,441**
6	,682**	,323**	58	,582**	,459**
15	,371**	,269*	61	,412**	,220
20	,607**	,363**	63	,795**	,534**
25	,385**	,120	65	,714**	,540**
30	,336**	,169	66	,791**	,426**
35	,336**	,161	67	,841**	,523**
38	,742**	,520**	68	,506**	,387**
42	,655**	,313**	69	,410**	,414**
46	,741**	,453**	70	,190	,310**
50	,512**	,288*			

البعد الثاني: الجمعيات

البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل	البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل
2	,643**	,437**	40	,736**	,443**

9	,691**	,491**	44	,846**	,524**
13	,843**	,491**	48	,854**	,549**
18	,648**	,369**	52	,399**	,339**
23	,696**	,398**	56	,485**	,272*
28	,804**	,485**	59	,810**	,442**
33	,617**	,201			

البعد الثالث: العائلة

البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل	البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل
3	,219	,407**	36	,313**	,496**
7	,136	,366**	39	,244*	,536**
11	,220	,216	43	,203	,552**
16	,154	,529**	47	,049	,182
21	,378**	,449**	51	,226	,387**
26	,254*	,406**	55	,163	,463**
31	-,003	,444**			

البعد الرابع: المركز البيداغوجي

البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل	البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل
4	,660**	,287*	45	,613**	,296*
10	,720**	,400**	49	,548**	,228
14	,642**	,454**	53	,548**	,228
19	,650**	,390**	57	,491**	,303**
24	,662**	,168	60	,411**	,254*
29	,601**	,319**	62	,647**	,497**
34	,309**	,162	64	,528**	,142
41	,562**	,285*			

البعد الخامس: الصديقات

البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل	البند	الاتساق مع البعد	الاتساق مع المقياس ككل
05	,729**	,270*	**22**	,763**	,341**
08	,772**	,295*	**27**	,396**	,140
12	,883**	,418**	**32**	,408**	,334**
17	,680**	,358**	**37**	,741**	,318**

من خلال النتائج أعلاه يتضح أن كل أبعاد مقياس المساندة الاجتماعية مرتبطة ارتباطا دالا احصائيا ،إما مع الدرجة الكلية للبعد الذي تنتمي اليه ، أو الدرجة الكلية للمقياس ككل أو مع كليهما، ماعدا البعدين 11و47 وقد تم حذفهما .

2.الثبات : تم حسابه بطريقتين هما :

1)- باعتماد معامل الفا كرو نباخ لقياس الاتساق الداخلي للمقياس ككل ومختلف ابعاده والجدول رقم 01 يوضح ذلك :

جدول رقم 01 :معامل الفاكرونباخ لمقياس المساندة الاجتماعية

المتغيرات	معامل ألفا كرو نباخ
الاسرة (الزوج ،الأولاد)	0.895
العائلة (والدي الأم، الاخوة والأخوات)	0.897
الاصدقاء	0.833
جمعيات أولياء المعاقين عقليا	0.913
المركز البيداغوجي	0.847
الثبات الكلي للمقياس	0.906

من خلال الجدول يظهر أن قيم ألفا كرو نباخ لمقياس المساندة الاجتماعية بمختلف أبعاده ودرجته الكلية مرتفعة ،هذا ما يدل على أن المقياس يتمتع بثبات جيد .

ومن خلال التأكد من الصدق والثبات يمكن القول أن مقياس المساندة الاجتماعية يتمتع بخصائص سايكوميترية جيدة ،وعليه يمكن اعتماده في قياس مستوى المساندة الاجتماعية لأمهات الأطفال المعاقين عقليا على البيئة الجزائرية .

الهوامش :

1-عبد الحليم عربيات ،2011،ارشاد ذوي الاحتياجات الخاصة واسرهم، دار الشروق،عمان،الاردن .

2- حمال الخطيب ،1998،مقدمة في الاعاقات الصحية والجسمية ، دار الشروق ،عمان الاردن ،ص 264.

3-عبد المطلب امين القريطي،1996،ذوي الاحتياجات الخاصة وتربيتهم،القاهرة،دار الفكر العربي ص 289-290 .

4- Claude N, gigiere, L, 2009, processus et stratégies d'adaptations positives des parents face à la déficience intellectuelle de leur enfants ,revue francophone de la déficience intellectuelle ,vol :20,p 5-16

5- Pelchat . D lefebre ,H ,levert ,J , 2005 , l'expérience des pères et des mères ayant un enfant atteint d'un problème du santé etat actuel des connaissances.. p 60

6- سحر عبد الفتاح خير الله ، الكفاءة الاجتماعية لذوي الإعاقة العقلية، برامج الآباء والمعلمين، دار صفاء ، ط1 عمان ،الأردن ،ص 20-21 .

7- ايمان فؤاد كاشف ،هشام ابراهيم عبد الله ، 2009 ،القياس النفسي ،تقويم وتنمية المهارات الاجتماعية لذوي الاحتياجات الخاصة دار الكتاب الحديث ،ط1 القاهرة ،مصر ،ص 190

8- عوني معين شاهين ،2008 ،الاطفال ذوي متلازمة داون مرشد الآباء والمعلمين، دار الشروق ،عمان الأردن ،ص 76 .

9- اسامة فاروق، السيد كامل الشربيني،2014، التوحد – الأسباب - التشخيص – العلاج، دار المسيرة، ، عمان الأردن ،ص262-265.

10-سليقمان ، دارلينج .2001 ،إعداد الأسرة والطفل لمواجهة الإعاقة ،ترجمة إيمان فؤاد كاشف ،دار قباء القاهرة، مصر ص 82-83.

11 -علي عبد السلام علي، 2005،المساندة الاجتماعية وتطبيقاتها العملية في حياتنا اليومية ،مكتبة أنجلو المصرية ص12.

12 -Réaume , R ,Labreque,M,Cowell ,J ,2008 ,Avis sur le soutien Aux familles avec enfants Handicapées ,conseil dela famille et de l'enfance Québec ,Bibliothèque national du Québec , p11.

13- هدى حسن محمود محمد ، ،ماهر حسن محمود محمد، 2008،الترويح واهميته في التوافق النفسي والاجتماعي مع متحدي الإعاقة الذهنية ،دار الوفاء، ط 1 ،الاسكندرية ،مصر ،ص 56 .

14-Scelles ,R 2001 processus de résilience dans les familles de personne Handicapée "In figure et traitement du traumatisme. sous la direction de Marty ,F , paris ,Ed Dunod

15سليقمان،دارلينج ،2001،مرجع سابق ص 79-80.

16عوني معين شاهين ،2008،مرجع سابق ،ص 79.

17-Elizabath,Z, 1982,Familles et Handicap dans le mande ,analyse critique de travaux de la dernière décennie ,les publications du centre technique national d'études et recherches sur les Handicaps et inadaptations ,paris ,p93 .

18-محمد حامد ابراهيم الهنداوي ،2011،الدعم الاجتماعي وعلاقته بمستوي الرضا عن جودة الحياة لدى المعاقين حركيا بمحافظات غزة ،رسالة ماجستير في علم النفس ،الجامعة الاسلامية غزة .

19Réaume R ,Labreque,M,Cowell ,J ,2008 , OP CIT , p 15-28.

20 -قدور بن عباد هوارية ،2014،المساندة الاجتماعية في مواجهة أحداث الحياة الضاغطة كما تدركها العاملات المتزوجات ،أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علم النفس العمل ،جامعة وهران ص120-123.
21 -السيد كامل منصور الشربيني ،وليد السيد أحمد خليفة ،2013،الاتجاهات الحديثة في التربية الخاصة ،دار الوفاء ،ط1 الاسكندرية مصر ,ص 238-243.

دور إدارة الموارد البشرية في تحسين الأداء التنظيمي في المؤسسة الاقتصادية الجزائرية

دراسة ميدانية بمؤسسة.ك.بلاست .K.Plast لصناعة وتحويل البلاستيك بسطيـــــف

د/ هيشور محمد لمين، جامعة ابن خلدون تيارت

أ/ عيبود زيتوني، جامعة سطيف2

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة دور إدارة الموارد البشرية في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة، وانطلقت هذه الدراسة من تساؤل رئيس مفاده: ما هو دور إدارة الموارد البشرية في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة ؟ من هذا التساؤل انبثقت هذه الفرضية العامة: تلعب إدارة الموارد البشرية دورا هامًا في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة، وبقصد التأكد من صحة الفرضية العامة والفرضيات الجزئية استعملت الدراسة أداة الاستمارة وتم توزيعها على 133 عامل وبنسبة استجابة100%. كما تم الاعتماد على المقابلات لدعم تفسير النتائج، وبعد اختبار الفرضيات تم التوصل إلى مجموعة من النتائج أهمها: ضعف دور إدارة الموارد البشرية في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة، لذا تم وضع مجموعة من التوصيات من بينها: رفع مستوى الوعي الثقافي والتنظيمي للمديرين لإدراك أهمية إدارة الموارد البشرية في دعم قدرات المؤسسة على تحسين الأداء التنظيمي والتمّيز والإبداع، وضرورة الاستفادة من تجارب المؤسسات الناجحة في تحسين الأداء التنظيمي.

الكلمات المفتاحية: إدارة الموارد البشرية، الأداء التنظيمي، نظام التقييم، البرامج التكوينية، أنظمة الحوافز المؤسسة الاقتصادية.

Abstract: This study aims to know the role of human resources management in improving organizational performance in the institution of the study.It started from the main question: What is the role of human resources management in improving organizational performance in the institution of study?It is from this question that this general hypothesis emerged: Human resources management plays an important role in improving organizational performance in the institution of study.In order to ascertain the validity of the general hypothesis and the partial hypotheses, the study used the questionnaire form, which was distributed to 133

workers with 100% response rate.Interviews were also used to support the interpretation of the results,and after testing the hypotheses, a number of results were reached, the most important of which was: the weak role of human resources management in improving organizational performance in the institution of study,and a number of recommendations were made, including: raising the cultural and organizational awareness of the managers of the importance of human resources management in supporting the organization's capabilities to improve organizational performance, excellence and creativity, and the need to benefit from the experiences of successful institutions in improving organizational performance.

Keywords: human resources management, organizational performance, evaluation system, training programs, incentive systems, economic institution.

1. الإشكالية

تميّزت الأوضاع السّوسيو اقتصادية الحالية بالحركية والديناميكية، حيث أصبحت الموارد البشرية العنصر الحاسم في إدارة قواعد اللعبة التّنافسية. ولم يعد أمام المؤسسات الاقتصادية إلا العمل المستمر على تحسين مركزها وقوتها في الأسواق، اعتمادا على ما تمتلكه من كفاءات بشرية، باعتبارها الوسيلة الفعالة والمصدر الحقيقي لإنجاز أي تطوير في أساليب العمل والإنتاج وخيارا لرفع التحدي ومسايرة التقدم التنظيمي.

ولضمان الوجود الاقتصادي للمنظمات في الوقت الذي لا يسمح فيه ببقاء مؤسسات ضعيفة التسيير والإنتاج، نجد أن الإدارة تولي اهتماما بالغا بعناصر تحسين الأداء للأفراد بوضع برامج خاصة لها وتنفيذها بدقة من قبل المتخصصين حتى يتسنى الحصول على موارد بشرية لها الصفات المراد توفرها، إذ اقترنت كفاءة الأداء التنظيمي بكفاءة أداء العنصر البشري، وأصبح الأفراد ينظرون أن الرضا وإشباع رغباتهم ليس فقط من خلال العمل وإنما عن طريق الأداء الفعلي فيه .

إنّ تحقيق النجاح التنظيمي وتفعيل إستراتيجية المؤسسة والمحافظة على الكفاءات البشرية يستند إلى وضع نظام محكم لتقييم الأداء داخل المؤسسة،كونه مقياسًا لمدى تقدم الفرد والحكم على كفاءته وفعاليته، ويعمل هذا النظام على توجيه وتعليم الموارد البشرية نوعية الأداء المتوقع منهم، وبالتالي تحسين مهاراتهم وقدراتهم ورفع مستوى أدائهم، إضافة إلى أن الإدارة الذكية لن تحقق هذا إلا إذا كانت لها سياسة تكوينية تتبعها المؤسسة للقيام بوضع خطط وبرامج تكوينية تزيد من قدرات ومعارف الأفراد ، وإبراز كفاءتهم ومواهبهم وبالتالي تتمكن المنظمة من المحافظة على جودة منتجاتها، كما ينبغي لها وضع نظام جيّد للحوافز يسمح بخلق هوية تنظيمية وترسيخ ثقافة الولاء والإحساس بالانتماء للمؤسسة.

ومن هذا المنطلق تسعى المؤسسات الاقتصادية الجزائرية إلى تكثيف الجهود لتغيير سياستها في تسيير مواردها البشرية، بالاعتماد على الطرائق الحديثة في الإدارة، ومواكبة التغيرات السائدة، والتحسين من أداء أفرادها، باعتمادها على معايير تنظيمية ترفع من كفاءات أفرادها.

وممّا سبق سنحاول في هذه الدراسة معرفة دور إدارة الموارد البشرية في تحسين أداء العمال بمؤسسة ك.بلاست K.plast ميدان البحث، انطلاقا من الإجابة على التساؤل الرئيس التالي:

ما هو دور إدارة الموارد البشرية في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة ؟

وبناء على التساؤل العام نطرح التساؤلات التالية:

- ما هو دور نظام تقييم الأداء في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة ؟
- ما هو دور البرامج التكوينية في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة ؟
- ما هو دور أنظمة الحوافز في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة ؟

2. **الفرضيات:** بناءً على سؤال الإشكالية نورد الفرضيات التالية:

الفرضية العامة: تلعب إدارة الموارد البشرية دورًا هامًا في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة ؟.

الفرضيات الجزئية:

- يؤدي وعي الأفراد بنظام التقييم إلى تحسين أدائهم التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة.
- تُسهم نوعية البرامج التكوينية في تحسين الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة.
- يُسهم رضا الأفراد بأنظمة الحوافز المقدمة في تحسين أدائهم التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة.

3. **أهمية الدراسة :** تكمن أهمية الدراسة في النقاط التالية :

- ✓ تزايد الاهتمام بموضوع إدارة الموارد البشرية في عالم المؤسسات الحديثة.
- ✓ أصبحت إدارة الموارد البشرية في الآونة الأخيرة خيارا استراتجيا للمؤسسات الراغبة في التميّز التنظيمي.
- ✓ بروز مداخل تنظيمية جديدة في عالم الأعمال تهتم بزيادة الأداء التنظيمي.
- ✓ يقترن نجاح الأداء التنظيمي في كثير من الحالات بإدارة الموارد البشرية .

4. **أهداف الدراسة :** تهدف الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف كالتالي :

- ❖ معرفة دور إدارة الموارد البشرية في تحسين الأداء التنظيمي للعمال بالمؤسسة مجال الدراسة.
- ❖ التعرف على دور إدارة الموارد البشرية في تحقيق أهداف المؤسسة.

- ❖ محاولة معرفة مدى اهتمام المؤسسة بالعنصر البشري والإستراتيجية المتبعة نحوه.
- ❖ محاولة كشف التطبيق العملي لوظائف إدارة الموارد البشرية من خلال تقيم الأداء، وطرق التكوين بها والتحفيز.

5. تحديد المفاهيم:

1.5 إدارة الموارد البشرية :

يقصد بإدارة الموارد البشرية كل الإجراءات و السياسات المتعلقة باختيار وتعيين وتدريب العاملين ومعاملتهم في جميع المستويات والعمل على تنظيم القوى العاملة داخل المؤسسة، وزيادة ثقتها في عدالة الإدارة وخلق روح تعاونية بينها و الوصول بالمؤسسة إلى مستويات إنتاجية[1].

كما تم تعريفها بأنها: الإدارة التي تختص بكل الأمور المرتبطة بالعنصر البشري، من حيث البحث عن مصادر القوى العاملة واختيارها وتهيئتها، وتدريبها وتنميتها، وتهيئة ظروف العمل الملائمة التي من شأنها أن تدفع الموارد البشرية إلى بذل الجهود داخل المؤسسة[2].

وتعرف أيضا إدارة الموارد البشرية بأنها: تنطوي إدارة العنصر البشري على تلك النشاطات المصممة لتوفير القوى العاملة ، حسب التخصصات المطلوبة في المنشآت، وذلك للمحافظة على الكفاءات وتنميتها وتحفيزها بما يمكن المنظمة من بلوغ أهدافها بكفاءة وفعالية[3].

بناءً على هذه التعاريف يمكن بناء **التعريف الإجرائي** التالي: إدارة الموارد البشرية هي عبارة عن نشاط إداري يهدف إلى توطيد العلاقة بين الأفراد و المنظمة التي يعملون فيها حسب مختلف مستوياتهم ومجالاتهم المهنية في ممارسة العملية الإدارية، من تخطيط و تنظيم وتوجيه ورقابة، وإعداد البرامج والوظائف و الأنشطة المصممة لتنظيم أهداف الفرد و المنظمة.

2.5 الأداء التنظيمي:

يعرفه **نيكولاس F,w,Nicolas** بأنه :نتاج السلوك ،فالسلوك هو النشاط الذي يقوم به الأفراد ،أما نتاجات السلوك فهي النتائج التي تمخضت عن ذلك السلوك ،مما جعل النتيجة أو المحصلة النهائية مختلفة عما كانت عليه نتائج ذلك السلوك[4] .

ويعرف الأداء التنظيمي بأنه: وسيلة لمعرفة مدى تحقيق العامل للأعمال المطلوبة منه إلى جانب ما يوفره من معلومات إضافية عن سلوك الفرد في العمل، وجديته وفقا لطريقة محددة وتتم عملية تقييم إنجازه في ضوء المعيار المحدد[5].

ويرى **Judy** بأن الأداء التنظيمي هو: المرآة العاكسة التي تعكس استخدام المنظمة لمواردها البشرية والاقتصادية واستثمارها بالشكل الذي يجعلها قادرة على تنفيذ المهمات المطلوب تحقيقها وفق سياسة المنظمة، وأن يتم تجسيد ذلك بكفاءة وفعالية عالية [6]

وقد تم تعريفه أيضا: بأنه "قيام الفرد بالأنشطة والمهام المختلفة التي يكون منها عمله[7].

ويُعّرف **الباحث توفيق عبد الرحمان** الأداء التنظيمي بأنه: ذلك المستوى الذي يحققه الفرد عند القيام بعمل ما، فالأداء يرتبط بتحقيق مستويات مختلفة للمهام المطلوب إنجازها والأداء يكون نتيجة امتزاج عدة عوامل كالجهد المبذول وإدراك الدور ومستوى القدرات التي يتمتع بها الفرد[8] .

بناءً على هذه التعاريف يمكن بناء **التعريف الإجرائي** التالي: الأداء التنظيمي هو قدرة المؤسسة على التماشي مع العمليات النظامية التالية: المدخلات، والمخرجات، والتغذية العكسية، أي يعكس قدرة المؤسسة على تحقيق التوافق والمواءمة مع البيئة التي يشتغل فيها العمّال، كما أنه وسيلة لقياس الأداء الفردي والجماعي وتقدير عدد وحدات العمل اللازم إنجازه في المؤسسة بمستوى من الكفاءة والفعالية، ويكون ذلك في وحدة زمنية معينة وفق معدلات ومعايير أداء تضعها المنظمة لبلوغ أهدافها.

6. الدراسات السابقة

الدراسة الأولى: للباحث **نور الدين شنوفي** الموسومة بعنوان: **تفعيل نظام تقييم أداء العمال في المؤسسة العمومية الاقتصادية**[9]، تهدف هذه الدراسة إلى معرفة فعالية نظام تقييم الأداء المطبق داخل المؤسسات العمومية الاقتصادية، ومحاولة معرفة المعايير التي تتبعها المؤسسة في تطبيق نظام تقييم الأداء، انطلق الباحث من التساؤل التالي: هل استطاع النظام الحالي لتقييم أداء العامل في المؤسسة العمومية الاقتصادية أن يحقق أهدافه، من توفير الرضا الوظيفي للعامل، و الحصول على المعلومات السليمة في مراجعة وتنمية سياسات شؤون العمال المختلفة؟ وللإحاطة بجوانب الإشكالية طرحت مجموعة من الفرضيات الفرعية، وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أبرزها :

- غياب الأهداف المحددة بدقة والمعايير المناسبة لقياسها وملاحظتها .
- التركيز على تطبيق نظام التقييم (إن وجد) على المستويات الإدارية الدنيا وإعفاء المستويات العليا.
- اعتماد دورية التقييم السنوي التي يعاب عنها عدم كشفها عن الانحرافات في أوقاتها لتجنبها في حينها بل تتركها تتمادى وتزداد آثارها.

الدراسة الثانية : للباحث **شوقي قبطان** بعنوان: **دراسة العلاقات بين سياسات تسيير الموارد البشرية وأداء المؤسسات الصناعية**[10]، انطلقت الدراسة من التساؤل التالي: **كيف تساهم وظائف إدارة الموارد**

البشرية في الارتقاء بمستوى أداء المؤسسة عن طريق مساهمتها في رفع أداء العمال بها؟ انبثقت عن هذا التساؤل فرضيتان فرعيتان وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

- ✓ تكوين صورة حقيقية عن أداء المؤسسة، أن تُقيّم هذه الأخيرة من عدة جوانب، وعلى هذا الأساس حث المختصون عند تقييم أداء المؤسسة أن يأخذ بعين الاعتبار أربعة جوانب رئيسية هي : الجانب المالي والإنتاجي، والتجاري، والسلوكي ؛ والتي تعكس قدرة المؤسسة على اكتساب صفة الفعالية.
- ✓ تلعب إدارة الموارد البشرية بوظائفها المختلفة دورا مهما للارتقاء بمستوى أداء العمال ، بحيث تساهم هذه الوظيفة في التأثير إيجابيا على قدرات الفرد أو دافعيته ورغبته في العمل، أو على إدراكه لمتطلبات منصبه.
- ✓ بينت الاختبارات بالنسبة لسياسة الأجور أن جلّ المؤسسات المدروسة تفتقد في سياسات الأجر التي تطبقها على عنصر التحفيز ،والسبب ضعف إمكانياتها المالية وبالتالي صعوبة مكافئة الإنجازات و المجهودات الإضافية التي يقوم بها العمال.
- ✓ لسياسات إدارة الموارد البشرية تأثير على أداء المؤسسات، بحيث بينت نتائج الاختبارات أن المؤسسات ذات الأداء العالي تمارس بشكل أوسع مختلف إجراءات السياسة مقارنة بالمؤسسات ذات الأداء الضعيف.

الدراسة الثالثة: دراسة **علاوي عبد الفتاح** الموسومة بعنوان: أثر التغيير التنظيمي على أداء الموارد البشرية دراسة حالة شركة سونلغاز الأغواط[11] ، هدفت الدراسة إلى دراسة مدى تأثر والتزام العاملين بعمليات التغيير التنظيمي، وللإجابة على سؤال الإشكالية تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، ومنهج دراسة الحالة عن طريق المسح الاجتماعي باستخدام الاستبيان، وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

- للتغيير التكنولوجي دور إيجابي، إذ لا يمكن إنكار دور التكنولوجيا المتطورة في تحسين أداء المنظمة

فهي تساعد على سرعة الأداء والاقتصاد في التكاليف .

- يسعى التغيير التنظيمي إلى إجراء تحسينات في المنظور الإنساني،لأن رفع ثقة المرؤوسين بأنفسهم وتفويض سلطات إنجاز الأعمال والمهام، والعمل على إشباع حاجاتهم ورغباتهم تزيد معدلات رضاهم الوظيفي.

الدراسة الرابعة: للباحث سعود ضيف الله الدالة الموسومة بعنوان: **أثر الحوافز على أداء الأطباء السعوديين**[12]، تمحورت إشكالية الدراسة على مجموعة من الأسئلة كانت الانطلاقة ب:

- ما أكثر أنواع الحوافز أهمية من وجهة نظر الأطباء السعوديين في مستشفى قوى الأمن بالرياض؟
- ما مدى توفر الحوافز في مستشفى قوى الأمن بالرياض؟
- ما أثر الحوافز بين اتجاهات الأطباء السعوديين في مستشفى قوى الأمن بالرياض؟

وبعد الدراسة التي قام بها الباحث والإجراءات المنهجية التي اتبعها في دراسته، توصل إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

- أن أكثر الحوافز المادية أهمية بين الأطباء السعوديين العاملين في مستشفى قوى الأمن بالرياض هي

(الترقية والعلاوات المعنوية، الحوافز التشجيعية المقدمة)، وأكثر الحوافز المعنوية هي (اهتمام الإدارة بتطبيق الجودة الشاملة، الثناء الشفوي، خطابات الشكر، شهادات التقدير)

- هناك أثر لمنح الحوافز في مستشفى قوى الأمن بالرياض على أداءهم ويبرز ذلك من خلال ميل مجتمع الدراسة إلى الموافقة على العبارات التالية: إتاحة الحرية، الاستقلال في مجال العمل ، تلقي الثناء من الرئيس المباشر في العمل عند قيامه بعمل جيد، إتاحة فرص إبداء الآراء والمقترحات، إتاحة الفرص في المشاركة في اتخاذ القرارات.

7. مجالات الدراسة:

1.7 التعريف بالمؤسسة:

يقع مجمع **k .Plast** لصناعة وتحويل البلاستيك في مقرها الرئيسي ببلدية مزلوق دائرة عين أرنات، والتي تبعد عن مقر الولاية ب 11 كلم، حيث تأسست مؤسسة ك. بلاست سنة **1998م** وكانت أول انطلاقة لها في ممارسة نشاطها في العمل بداية من سنة 1999 م، حيث أصبحت اليوم من بين رواد الصناعة في الجزائر، ومن بين العديد من المؤسسات ذات الطابع الصناعي في المنطقة، وذلك برأس مال يقدر ب: 371.700.000دج

وقد تحصلت المؤسسة على معيار الايزو العالمي **ISOO.9001version 2000** منذ ديسمبر 2003 للجودة والنوعية في المنتوج ، وتتكون مؤسسة **k. plast** من وحدتين رئيسيتين في الإنتاج ،وتعتبران المول الأول لكل نشاطات المؤسسة .

الوحدة الأولى: والتي تختص بصناعة مادة **plystyrène expansé** عزل وتمسيك البنايات والتي توجد في المقر الرئيسي ببلدية مزلوق من الجهة الجنوبية، والتي تتربع على مساحة مغطاة تقدر ب: 5000م^2 على 4500م^2 وأهم ما تنتجه هذه الوحدة : صناعة الصفائح للعزل والتثبيت التي تستعمل في البنايات

والعمارات، وتغليف وتعليب الآلات والأجهزة الالكترونية والكهرومنزلية ، لوقايتها وحفظها من الصدمات والكسور.

الوحدة الثانية : والتي تختص بصناعة وتحويل الأنابيب البلاستيكية (pvc) **plychlorue de virgle** بنوعيه :

- ✓ أنابيب من نوع **polyéthylène haute densité (pehd)** الخاصة بالماء والغاز .
- ✓ أنابيب من نوع **polyéthylène haute basse densité (pebd)** والتي تختص بالري والسقي وتصريف المياه .

هذه الوحدة تقع في المنطقة الصناعية لولاية سطيف **zone industrielle** والتي تتربع على مساحة مغطاة تقدر ب: 1300م^2 على 5000م^2 .

2-7 المجال البشري: تضم مؤسسة إنتاج الكهرباء بسطيف 453عاملا، يتوزعون على الفئات التالية:

الجدول رقم 1: يوضح توزيع الفئات السوسيومهنية في المؤسسة.

الفئات المهنية	الوحدة الأولى	الوحدة الثانية	المجموع
الإطارات العليا	02	01	03
الإطارات المسيرة	05	01	06
الإطارات المتوسطة	14	05	19
عمال التحكم	74	17	91
عمال التنفيذ	190	144	334
المجموع	285	168	453

3-7 المجال الزمني: دامت الدراسة من 19 فيفري 2017 إلى غاية 22 جوان 2017، حيث قام الباحثان أثناء الدراسة الميدانية بالتعرف عن قرب على مختلف مصالح المؤسسة، وشرح أهداف الدراسة ومقاصدها،كما تم إجراء بعض المقابلات مع الإطارات المسيرة للمؤسسة بهدف الحصول على معلومات تفيد البحث، وبعد الانتهاء من جمع المعلومات حول كيفية سير وعمل المؤسسة، تم بناء استمارة وتوزيعها على الفئات السوسيومهنية.

8. المنهج المستخدم: إن اختيار الباحث لمنهج دون آخر يختلف حسب طبيعة الموضوع والإشكالية المدروسة، لأنه هو الذي يُبرز للباحث الخطوات التي يجب الاعتماد عليها من أجل الوصول إلى النتائج المراد تحقيقها، أو الطريقة التي يسلكها الباحث للوصول إلى نتيجة معينة[13] . وانطلاقا من طبيعة الموضوع المراد دراسته، اعتمدنا على **المنهج الوصفي التحليلي** الذي يهتم بجمع الحقائق وتحليلها وتفسيرها عن المشكلة موضوع البحث والوقوف على دلالاتها، وقد استعملنا هذا المنهج في دراستنا لأنه منهج يهدف إلى التحليل الكمي للظاهرة المدروسة، بقياسها وترجمتها إلى أرقام ذات دلالة إحصائية توفر مجالاً للتحقق من الفرضيات المتعلقة بالبحث.

9. أدوات جمع البيانات :

1-9 الاستمارة : تعتبر الاستمارة من الأدوات المستخدمة في جمع البيانات اللازمة للبحث من خلال طرح مجموعة من الأسئلة يطلب من المبحوثين الإجابة عليها، حيث يرجع اختيارنا لهذه الأداة كون موضوع الدراسة دور إدارة الموارد البشرية في تحسين الأداء التنظيمي، وذلك لا يكون إلا من خلال الكشف عن أراء ومواقف العينة المختارة.

2-9 المقابلة : حيث استعملنا هذه الأداة للحصول على معلومات لم نتمكن من الحصول عليها عن طريق الاستمارة، والتي تتعلق بآراء واتجاهات المسيرين والمديرين لدور إدارة الموارد البشرية، فيما يتعلق بأساليب تحسين أداء أفرادها من خلال فعالية نظام تقييم الأداء، والمعايير المعتمدة في طرق التقييم، وكذلك في معرفة مدى تطبيق المؤسسة لعملية تكوينية ذات برامج تزيد من كفاءة وفعالية أفرادها، وكذلك لمعرفة أنظمة الحوافز المعتمد في كيفية خلق الدافعية للعمل والذي يؤدي إلى تحسن الأداء التنظيمي.

10. العينة وكيفية اختيارها : بالنظر إلى مجتمع البحث غير المتجانس، فقد تم اختيار **العينة العشوائية الطبقية**، وتنحصر خطوات اختيار هذا النوع من العينات في عدة مراحل تتمثل في :تقسيم مجتمع الدراسة الأصلي إلى طبقات، ثم تحديد نسبة أفراد العينة من كل طبقة بما يتناسب مع عددها الكلي، وتليها طريقة الاختيار العشوائي لأفراد العينة من كل طبقة. وتضم عينة الدراسة فئة الإطارات المتوسطة وفئة عمال التحكم وفئة عمال التنفيذ، وهذا لأهمية كل منها في موضوع دراستنا، ومنه تم اختيار العينة على هذا النحو:

كما هو معلوم أن مجتمع البحث الذي نحن بصدد دراسته يتكون من وحدتين وتضمّان 453 فردا من مختلف المستويات المهنية موزعين كما هو مبين في الجدول السابق ، ومن خلال الجدول الموضح لمختلف الفئات المهنية لمجتمع البحث، تكون طريقة اختيار العينة وذلك عن طريق أخذ الفئات المهنية من الإطارات المتوسطة،وعمال التحكم، وعمال التنفيذ، حيث تم توجيه أداة الاستمارة لهم لأن أفراد هذه

العينة هم الذين يدلون بالبيانات الميدانية حول الدور الذي تقوم به إدارة الموارد البشرية في الزيادة والتحسين من أداء أفرادها من خلال العمليات التي تقوم بها عن طريق النظام المتبع في تقييم أداء الأفراد بالمؤسسة، ومدى فعاليته داخل المؤسسة، وكذلك معرفة نوعية البرامج التكوينية التي تعتمد عليها المؤسسة في تكوين عمالها، ومعرفة طبيعة نظام الحوافز المطبق بالمؤسسة كلها، سنجد لها تفسيرات عن استطلاع آراء واتجاهات هذه الفئات.

وتم الاستغناء عن فئتي الإطارات المسيرة والإطارات العليا في استمارة البحث، والتي تعتبر هي المركز في العملية التسييرية للمؤسسة في صنع واتخاذ القرارات ، حيث أجري مع هذين الفئتين دليل المقابلة الموجهة، ووجهت لهم مجموعة من الأسئلة وذلك لاستطلاع اتجاهاتهم حول عملها الذي تقوم به في تحسين أداء أفرادها وأداء المؤسسة، والقرارات التي تتخذها اتجاه مواردها البشرية والاستراتيجية المتبعة في ذلك، حتى تحقق الفعالية و الكفاءة المطلوبة.

قمنا بأخذ نسبة 30% كنسبة ممثلة عن مجموع العمال، وتكون هذه النسبة عبارة عن عينة تمثيلية للمجتمع الكلي، وذلك عن طريق إجراء العملية الحسابية التالية:

$$\text{مبحوث } 133 = \frac{30\times444}{100}$$

وعلى اعتبار أن خصائص مجتمع البحث يتكون من فئات سوسيومهنية غير متجانسة، فإن العينة التي اعتمدنا عليها هي **عينة عشوائية طبقية** وبنفس النسبة نختار عينة من كل طبقة (الإطارات المتوسطة، عمال التحكم ، عمال التنفيذ) لتتحقق العينة الطبقية العشوائية المحددة في هذه الدراسة، وحتى يظهر كل فرد من أفراد مجتمع العينة والتي تكون محسوبة كالآتي:

الفئة	العدد	نسبة العينة 30%		عدد أفراد العينة
الإطارات المتوسطة	19	$\frac{30\times19}{100}$	=	06
عمال التحكم	91	$\frac{30\times91}{100}$	=	27
عمال التنفيذ	334	$\frac{30\times334}{100}$	=	100
المجموع	444	$\frac{30\times444}{100}$	=	133

إذن، يصبح لدينا 133 مبحوث يمثلون المجتمع الكلي للبحث، ليتم بعدها توزيع أداة الاستمارة وتجرى عليهم الدراسة.

11. : تبويب وتحليل وتفسير نتائج الفرضيات:

الجدول رقم 02: يوضح الجنس لأفراد العينة .

الفئة المهنية / الجنس	الإطارات المتوسطة	عمال التحكم	عمال التنفيذ	المجموع
ذكور	03 %50	22 %81,5	100 %100	125 %94
إناث	03 %50	05 %18,5	/ 	08 %06
المجموع	06 %100	27 %100	100 %100	133 %100

من خلال قراءتنا للجدول يتبين لنا:أن نسبة الذكور عند فئة عمال التنفيذ تقدر 100% وهي النسبة الغالبة مقابل نسبة 81,5 %عند فئة عمال التحكم تليها نسبة 50% عند فئة الإطارات، بينما نجد الفئة الثانية وهي فئة الإناث بنسبة 50% عند فئة الإطارات تليها نسبة 18,5% عند فئة عمال التحكم.

ومن خلال هذه المعطيات نستنتج أن غالبة مجتمع العينة هم ذكور، وهذا راجع إلى طبيعة عمل ونشاط المؤسسة الذي يتطلب القوة البدنية والجسدية، واستعمال الآلات والمعدات الثقيلة في العمل، لذا يقل إقبال العنصر النسوي على النشاط الإنتاجي الصناعي ،وأيضا لبعد المؤسسة عن المدينة إذ تتواجد بالمنطقة الصناعية للولاية التي يقل فيها النقل، وراجع أيضا إلى كون المؤسسة تعتمد على نظام العمل بالتناوب (8.3).

الجدول رقم 03: يوضح فئات الأعمار لدى مجتمع البحث

الفئة المهنية / السن	الإطارات المتوسطة	عمال التحكم	عمال التنفيذ	المجموع
(أقل من 25سنة)	01 %16,7	03 %11,1	05 %05	09 %06,8
(25-36) سنة	50 %83,3	20 %74,1	76 %76	101 %75,9
(37 فما فوق)	/ 	04 %14,8	19 %19	23 %17,3
المجموع	06 %100	27 %100	100 %100	133 %100

يتبين من الجدول أن سنّ أغلبية المبحوثين يتراوح من (25-36) سنة بنسبة83,3 %عند فئة الإطارات مقابل نسبة 76% عند فئة عمال التنفيذ، تليها نسبة 74,1 %عند فئة عمال التحكم، بينما نجد سنّ الفئة الثانية أكثر من 37 سنة بنسبة 19% عند فئة عمال التنفيذ، تليها نسبة 14,8 % عند فئة عمال التحكم

في حين الفئة الثالثة التي سنها (أقل من 25 سنة) بنسبة 16,7 %عند فئة الإطارات، تليها نسبة11,1 % عند فئة عمال التحكم، تليها بنسبة 5% عند فئة عمال التنفيذ.

ومن هذه المعطيات نستنتج أن المؤسسة تتميز بطابع الشباب والذين سنهم من (25-36) سنة، وبالتالي توظيف نسبة شباب أكثر مما يوفر متوسط أعمار لا بأس به، والاستفادة من طاقاتهم الذهنية والجسدية وحماسهم للعمل والعطاء وخصوصا وأن عملها يقتضي فئة شابة يافعة.

الجدول رقم : 04 يوضح البيانات الخاصة بالمستوى التعليمي :

الفئة المهنية / المستوى التعليمي	الإطارات المتوسطة	عمال التحكم	عمال التنفيذ	المجموع
ابتدائي	/	/	04 %04	04 %03
متوسط	/	05 %18,5	52 %52	57 %42,9
ثانوي	/	12 %44,4	39 %39	51 %38,3
جامعي	06 %100	10 %37	05 %05	21 %15,8
المجموع	06 %100	27 %100	100 %100	133 %100

من خلال قراءتنا للجدول الإحصائي نجد أن أكبر نسبة تعود إلى المستوى التعليمي الجامعي بنسبة 100% عند فئة الإطارات، مقابل نسبة 37% عند عينة عمال التحكم، تليها نسبة 5% عند فئة عمال التنفيذ، بينما نجد الفئة الثانية ذو مستوى تعليمي متوسط بنسبة 52% عند فئة عمال التنفيذ، تليها نسبة 18,5 %عند فئة عمال التحكم، أما الفئة الثالثة فنجد أن مستواها التعليمي ثانوي بنسبة 44,4 %عند فئة عمال التحكم، مقابل نسبة 39% عند فئة عمال التنفيذ، بينما نجد الفئة الأخيرة التي لها مستوى تعليمي ابتدائي بنسبة 4% عند فئة عمال التنفيذ، ومنه نلاحظ من خلال المعطيات الموضحة أن المؤسسة فيها تنوع واختلاف في المستويات التعليمية، وهي لا تراعي بدرجة كبيرة المستوى التعليمي، وهذا راجع في طبيعة العمل والنشاط الذي تنشط فيه، الذي يلزم أن يكون العمال على درجة من القدرة الجسدية والبدنية، إذ نجد أحد المسؤولين يصرح بأنه يجد القدرة والكفاءة للذين لديهم مستوى تعليمي متوسط أو ثانوي لأن المؤسسة تحتاج إلى عمال تلقوا تكوين تطبيقي في كيفية عمل الآلات والمعدات وإصلاحها.

النتائج العامة للفرضيات:

بالنسبة **للفرضية الأولى** التي تتمحور حول: **يؤدي وعي الأفراد بنظام التقييم إلى تحسين أدائهم التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة** يمكن القول أنه من خلال الرجوع إلى إجابات المبحوثين المبوبة في الجداول رقم : 6،5، 7،8 الدالة على متغير تقييم الأداء سلبية من طرف العينة المبحوثة، حيث توصلنا إلى أنه لا توجد طريقة معينة في تقييم أداء العمال بالمؤسسة وليس هناك قواعد وأسس علمية تعتمد عليها في اختيار الطريقة المناسبة لتقييم أداء العمال، كما أنه يجب أن يراعى في عملية التقييم الظروف التي يعمل فيها العمال وعلى حسب طبيعة العمل أو المنصب الذي يشغله الفرد بالمؤسسة ودرجة خطورته وصعوبته ،وإعطاء الأهمية للتقييم للوظائف التي يكثر فيها العمل المكثف والجهود المبذولة. ودور العمال في هذه المؤسسة هو العمل فقط لا غير ولا تهمه أن تكون هناك طريقة في تقييم الأداء أو وجود أسس وعناصر يقيم عليها، فالمؤسسة تستخدمه لتحقيق أهدافها وزيادة مردوديتها، كما توصلنا إلى أن أغلب المبحوثين يفضلون التقييم المستمر واليومي في إنجازهم لأعمالهم وهذا لعدم ثقتهم بمسؤوليهم، فضلا على أنه ليس هناك معيار محدد تعتمد عليه المؤسسة في تقييم أداء عمالها وهذا ما وجدناه في تعدد الإجابات حول المعيار الحقيقي التي يجب أن يقيم وفقها العامل. غياب ثقافة التقييم بالمؤسسة، أي عدم وعي كل من المقيم والعامل من الهدف الرئيسي من تقيم أدائه، في تبيان نقاط القوة والضعف فيه وتحسين أدائه وإتاحة الفرصة للتكوين وتطوير قدراته وكفاءته، وبالتالي يمكن القول أن الفرضية الأولى **لم تحقق.**

أما فيما يخص **الفرضية الثانية** والتي تتمحور حول: **تُسهم نوعية البرامج التكوينية في رفع الأداء التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة**، فإنه يمكن القول أنه من خلال الرجوع إلى الجداول رقم: 11،10،09 وبالاستناد إلى إجابات الفاعلين التنظيميين فإنه: فعلا يؤدي التكوين دورا حيويا ومهما بالمؤسسة، حيث تقوم بتكوين أفراده في بداية عملهم مباشرة وإكسابهم المعارف والمهارات والقدرات التي تساعدهم على تحسين مستواهم وزيادة مردودية المؤسسة وجودة الإنتاج. والمؤسسة تعتمد بدرجة كبيرة في تكوين عمالها بالتطبيق مباشرة على الواقع بإنزال أفرادها مباشرة إلى ميدان العمل، وتخصيص مكونين ذوي خبرة وتخصص يتابعونهم، كما أن الغرض الذي تهدف إليه المؤسسة من تكوين عمالها هو تحسين مستواهم بزيادة الانتاج واكتساب تقنيات جديدة في العمل وذلك من أجل مواكبة العمال للتغيرات الاقتصادية والتكنولوجية الحاصلة حتى يكونوا ملمين بكل التجديدات خاصة وأن المؤسسة تعتمد على معايير عالمية في الإدارة والجودة لمنتوجاتها، وبالتالي يمكن القول أن الفرضية الثانية **قد تحققت** .

أما فيما يخص **الفرضية الثالثة** والتي تتمحور حول: **يُسهم رضا الأفراد بأنظمة الحوافز المقدمة في تحسين أدائهم التنظيمي بالمؤسسة مجال الدراسة**، فإنه يمكن القول أنه من خلال الرجوع إلى الجداول

رقم: 14،13،12 وبالاستناد إلى إجابات المبحوثين فإن الحوافز التي تقدمها المؤسسة لا تتناسب مع المجهودات والقدرات التي يبذلها العمال، وعجز المؤسسة في إيجاد طريقة تقيس بها عملهم، لقلة موارد وإمكانياتها وكثرة العمال بها، كما أن الحوافز تمنح على أساس الأقدمية والتصنيف المهني، لكي تضمن بقاءهم في العمل والاستفادة من كفاءتهم وخبراتهم في تكوين العمال الجدد، وتراعي السلم الوظيفي في منحها حتى يشعر العمال بالعدالة والمساواة، كما أن الحوافز تؤثر بالإيجاب على مستوى الأداء للأفراد والمؤسسة معًا، من خلال ذلك الأثر الذي تتركه في نفسياتهم، وارتفاع روحهم المعنوية وزيادة دافعيتهم إلى تحمل مسؤولية العمل، ولهم كيان ووجود بهذه المؤسسة. وبالتالي يمكن القول أن الفرضية الثالثة **قد تحققت.**

الخاتمة:

لقد كان الهدف الرئيسي من هذه الدراسة هو معرفة دور إدارة الموارد البشرية في تحسين الأداء التنظيمي، ومما لا شك في أن للموارد البشرية أهمية كبيرة وتأثير واضح وبارز على نشاط أي مؤسسة في تحسين أدائها وكفاءتها، وهذا ما تسعى إليه كل مؤسسة، إضافة إلى مهمة تحسين وجودة الإنتاج وزيادته كمًا ونوعًا، وذلك في ظل سياسة وإستراتيجية تسير الموارد البشرية، ويتوقف ذلك على مدى فعالية عمليات نظام تقييم الأداء المعمول به، وطريقة التكوين وتصميم البرامج التكوينية وكذلك إلى طبيعة الحوافز التي تمنحها.

وقد أوضحت الدراسة أن المؤسسة لا تهتم بوضع نظام سليم ومتوازن لتقييم أداء العمال ، ولا تستخدم الطرق العملية والمعايير والأسس السليمة والصحيحة في التمييز بين مستويات الأداء للأفراد. كما تغيب معايير أخرى في اعتماد طرق التقييم التي تتناسب وطبيعة العمل،كما اتضح أن للتكوين الذي يتلقاه الأفراد دور حيوي في تنمية واكتساب مهارات وقدرات فكرية وجسمية، وتهذيب سلوكياتهم وتصرفاتهم تزيد وترفع من أدائهم، والذي يمكن من تحقيق الكفاءة والفعالية وزيادة الإنتاجية . اتضح أيضا من خلال الدراسة الميدانية عجز المؤسسة عن توفير حوافز مادية تضمن الارتياح النفسي وتغطية متطلبات عمالها ،ونقص كبير في توفيرها لكل عمال المؤسسة ، والإمكانيات التي لديها، مما تؤثر سلبا في انخفاض وتدني مستوى الأداء.

ومن خلال تبيان وتوضيح صدق أو نفي الفرضيات السابقة، نصل إلى أن لنظام تقييم الأداء والتكوين والحوافز عمليات هامة ورئيسية لإدارة الموارد البشرية، وتأثيرها واضح على تحسين أداء الأفراد وأداء المؤسسة، لأنّها تعمل على تنمية وتطوير إستراتيجية المؤسسة ، وذلك من خلال التطبيق السليم والمحكم لهذه العمليات في طريقة تقييم الأفراد وإتباع نظام تقييم أداء فعال وفق الأساليب الحديثة، وتصميم

برامج تكوينية تكون تتماشى والتحولات ومواكبة التغيرات الاقتصادية، وإيجاد نظام جيد في طريقة منح الحوافز على أسس ومعايير مدروسة حسب طبيعة الوظائف والنشاط الممارس والإمكانيات المتاحة، وبالتالي تحقيق الفعالية والكفاءة في الأداء للمؤسسات خصوصا في ظل المنافسة العالمية من قبل المؤسسات الاقتصادية ودخول أنظمة ومعايير يعتمد عليها في نوعية الإنتاج وجودته ودخول نظام إدارة الجودة الشاملة، حتى تحقق التميز وضمان بقائها.

ولهذا فلا بد على كل المؤسسات الاقتصادية الجزائرية أن تزيد من جهودها في الاعتناء والاهتمام بالعنصر البشري وتطويره وتنميته واستخدامه والاستفادة منه، فيجب أن توفّر له كل الإمكانيات والظروف الملائمة لرفع أدائه وتحسينه، من خلال وضع طرق تقييم تجعله محفزا وفاعلا وتكوينه وتدريبه حتى يكون قادرا على التكيف والاندماج مع كل التغيرات، وتحفيزه ودفعه للعمل أكثر وإطلاق طاقاته ومواهبه على الجهد الذي بذله. ويكون ذلك من خلال قيام إدارة الموارد البشرية بالتسيير والتنظيم الجيد في طريقة اختيارها وتعيينها ودراسة الأبعاد الإستراتيجية التي قد تصل إليها.

توصيات الدراسة:

- رفع مستوى الوعي التنظيمي للمديرين بأهمية إدارة الموارد البشرية في دعم الأداء التنظيمي.
- تعزيز نظام موضوعي وعادل لتقييم الأداء بالمؤسسة الاقتصادية.
- تطبيق العدالة في توزيع الحوافز وتشجيع الأفراد واستثمار ما لديهم من طاقات ومعارف لفائدة المؤسسة.
- تعزيز وتثمين دور البرامج التكوينية لزيادة القدرات والمهارات الفردية والجماعية..
- إجراء المزيد من البحوث العلمية فيما يخص إدارة الموارد البشرية والأداء في مؤسسات اقتصادية أخرى.
- الاستفادة من تجارب المؤسسات الناجحة في تحسين الأداء التنظيمي.

الهوامش:

1- علي السلمي: **إدارة الموارد البشرية**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص30 .

2- إبراهيم العمري: **الأفراد والسلوك التنظيمي**، دار الجامعات المصرية، القاهرة، مصر، 1989، ص43 .

3- حنا نصر الله، **إدارة الموارد البشرية**، دار زهران للنشر والتوزي، عمان الأردن،2001، ص03

4- الباتول علوط : الثقافة التنظيمية وأثرها على الأداء الوظيفي للمرأة العاملة في المؤسسة العمومية الاستشفائية ،دراسة ميدانية ببعض المؤسسات العمومية الاستشفائية بولاية الجلفة ،**أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في علم الاجتماع التنظيم والعمل** ،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ،جامعة الجزائر 2 ،2012- 2013 ،ص 57 ،غير منشورة .

5- جمال الدين محمد المرسي، **الإدارة الإستراتيجية للموارد البشري**، الدار الجامعية، جامعة المنوفة، الإسكندرية، 2003، ص344.

6- جواد محسن راضي ،أحمد عبد الناصر حسين :تأثير ممارسات إدارة الموارد البشرية في الأداء الاستراتجي ،دراسة تحليلية لأراء القيادات الجامعية في كليات جامعة القادسية ،**مجلة الكوت للعلوم الاقتصادية والإدارية** ،كلية الإدارة والاقتصاد ،جامعة واسط ،العراق ،العدد 16 ،2014 ،ص 12.

7- أحمد صقر عاشور، **السلوك الإنساني في المنظمات**، الدار الجامعية، بيروت، لبنان،1989، ص33 .

8- توفيق عبد الرحمان، **قيمة الأداء**، دار اليرموك، الطبعة العاشرة، مصر، 1988، ص221.

9- نور الدين شنوفي، **تفعيل نظام تقييم أداء العمال في المؤسسة العمومية الاقتصادية**، أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة تخصص علوم التسيير، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2004-2005

10- **دراسة العلاقات بين سياسات تسيير الموارد البشرية وأداء المؤسسات الصناعية**، رسالة ماجستير، تخصص إدارة الأعمال، قسم علوم التسيير، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة البليدة، 2006.

11- **علاوي عبد الفتاح**: أثر التغيير التنظيمي على أداء الموارد البشرية، دراسة حالة شركة سونلغاز الأغواط، أطروحة دكتوراه في علوم التسيير ،تخصص إدارة أعمال ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر3 ،2012-2013.

12- سعود ضيف الله الدالة، **أثر الحوافز على أداء الأطباء السعوديين**، رسالة ماجستير، تخصص علوم إدارية، أكادمية نايف العلوم الأمنية، الرياض 2003.

13- عمار بوحوش، **دليل الباحث في المنهجية وكتابة الرسائل الجامعية**،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،الطبعة الثانية،1990،ص 27.

الأم المتعلمة والتنشئة الاجتماعية للطفل
(دراسة ميدانية لعينة من الأمهات المتعلمات بولاية تيارت)

أ/بن براهيم دليلة ، جامعة ابن خلدون تيارت
طالبة دكتوراه، جامعة الجزائر2
تحت إشراف الأستاذة الدكتورة عمروني بهجة، جامعة الجزائر 2

ملخص الدراسة:

هدفنا الرئيسي يكمن في الرغبة لإبراز مدى وعي الأم المتعلمة بدورها ومدى مساهمتها في عملية التنشئة الاجتماعية من خلال توظيفها المستوى التعليمي الذي يمكنها من المفروض من توظيف أنجع الأساليب التربوية للقيام بهذه العملية، وهذا لمحاولة التعرف على نوعية القيم التي تبثها في أبنائها ومدى مساهمتها في تحصيلهم الدراسي أي محاولة الكشف عن أحد الأسباب المؤدية إلى التحصيل الدراسي وهو أسلوب التنشئة و الاهتمام بتربية الأبناء دون إهمال المرحلة العمرية، ولبلوغ هذا الهدف اعتمدنا على عينة قوامها 70 أم مبحوثة ، منها 34 أم هن ذوات مستوى تعليمي ثانوي أي بنسبة 48,57 % و36 أم هن ذوات مستوى تعليم جامعي أي بنسبة 51,42% أما عن تقنيات البحث المستعملة فكانت الإستمارة والمقابلة.

فللأم المكانة الاجتماعية والأساسية داخل الأسرة، وخاصة إذا ربطنا دور الأم هنا بالدور التربوي، فالأم المتواجدة مع الأطفال باستمرار تجعل دورها اكبر من دور الأب، فما القول عنها سيما أن كانت ذات مستوى تعليمي مرتفع فإنها تساهم بشكل فعال وايجابي في عملية التنشئة الاجتماعية فهي ملمة بكل الأساليب التنشئوية الحديثة الناجعة لأطفالها، ومنه تكون أفراد متزنين صالحين لأنفسهم ولمجتمعهم.

الكلمات المفتاحية:

الأم المتعلمة، أساليب التنشئة الاجتماعية، الأسرة، التحصيل الدراسي للطفل.

Summary:

Our main goal is to demonstrate the mother's awareness of her role and the extent of her contribution to the process of socialization through the use of the educational level that enables her to employ the most effective educational methods to carry out this process, to try to identify the values that broadcast in her children and the extent of their contribution to their academic achievement One of the reasons leading to the achievement of education is the method of raising and interest in raising children without neglecting the age stage, and to achieve this goal, we relied on a sample of 70 mothers or those 34 with a level of secondary education48,57%, ie 36 or those with a university education level of 51,42%. The research techniques used were the form and the interview.

Mother has the social and basic status within the family, especially if we link the role of the mother here with the educational role. The mother who is constantly with the children, especially if she has a high level of education, contributes

actively and positively to the process of social upbringing. She is familiar with all the modern methods that are effective for her children. They are good fit for themselves and their community.

المقدمة:

وكون الأسرة هي أول بيئة تستقبل الطفل في هذا العالم وهي مسؤولة عن تنشئته اجتماعيا وتعتبر النموذج الأمثل للجماعة الأولية التي يتفاعل الطفل مع أعضاءها ويعتبر سلوكهم سلوكا نموذجيا ، فهي بذلك تكتسي أهمية بالغة دونا عن مؤسسات التنشئة الأخرى التي يلتحق بها الطفل بعد 5 سنوات غالبا (روضة، مدرسة، جماعة الرفاق،.....الخ)، وتظهر خطورة هذه الأهمية في تكوين شخصية هذا الطفل في الخمس سنوات الأولى، فشخصية الابن وأهليته تتكون منذ الأيام الأولى من حياته نظرا لعلاقته مع أبويه ومنتوج ذلك نلاحظه في السنوات بين الخمس والسبع، فيما بعد نتيجة لجو التفاعل بين الآباء والأمهات ويحتفظ الأبناء بالنماذج السلوكية التي يلاحظونها على أبائهم في خيالهم ونفسيتهم ، ثم تغدو سلوكا تلقائيا في حياتهم، وتكمن الخطورة هنا في نوعية النماذج التي سيقلدها الابن.

مما سبق نحاول من خلال موضوع بحثنا هذا الذي يدور حول التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة الجزائرية بصفة عامة، وعلى دور الأم المتعلمة بصفة خاصة -أي نحاول معرفة الدور الذي تقوم به الأم المتعلمة في تنشئة أطفالها- كطرف أساسي من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي تمدها لأطفالها، على غرار دور الأب كذلك في الأسرة الذي يعتبر عميدها الأول والأساسي، ولان دور الأم يظهر جليا داخل الأسرة وليس خارجه، لان هذا الدور أساسا هو دور خاص بالأب، ورغم أن الأم الجزائرية المتعلمة حاليا، أصبح من حقها أن تعمل خارج البيت كزوجها، فإنها لا تزال تعمل بفطرتها ألا وهو الدور الأساسي الذي خلقه الله فيها وهي الأمومة.

وعلى أساس ذلك فالأم المتعلمة هي تلك التي لها مستوى تعليمي معين، ومن خلال هذا المتغير الأساسي للتعليم الذي منح امتيازات خاصة للأم المتعلمة، من خلال الأساليب الحديثة التي يمكن أن توظفها في تنشئة أطفالها، وكذا في مدى مساهمة مستواها التعليمي في التحصيل الدراسي لأطفالها.

1- الإشكالية:

وتقوم الأسرة بعملية التنشئة الاجتماعية منذ لحظة ولادة الطفل، وتبذل في سبيل ذلك جهودا متواصلة لتشكيل شخصيته الفردية والاجتماعية، فمنها يكتسب الطفل لغته، وعاداته، وتقاليده، وقيمه، وعقيدته، وأساليب ومهارات التعامل مع الآخرين، والالتزام بالعادات وطرق التصرف الملائمة والآداب الاجتماعية، والانضباط والتعود على التوقيت المنظم ، والقيام بأدوار معينة، وأهمها ذلك الدور الذي يحدده جنسه ، أي ما إذ كان ذكرا أو أنثى، بالإضافة إلى ذلك فالأسرة هي التي تجعله قادرا على التوافق مع مطالب المجتمع وقيمه، والأسرة كمجتمع صغير عبارة عن وحدة حية، ديناميكية تضطلع بوظائف مختلفة ومهمة في تنشئة الطفل.[1]

ويؤكد العلماء دور الأم الرئيسي والمركزي في تنشئة الطفل وبخاصة في السنوات الأولى من حياته، فالأم هي أول وسيط للتنشئة الاجتماعية وهي أول ممثل للمجتمع يقابله الطفل وهي الكافلة الأولى لحاجاته ورغباته، وهي التي تكسبه الرموز المختلفة، وهي التي تمنحه الحب والحنان والأمن والطمأنينة وهي مركز تدور حوله انفعالاته، فالمرأة أساسا هي الحنان و العطف والاطمئنان، فالحضانة تكون دائما للأم وهذا في جميع الثقافات و الأديان.

وعلى صعيد الرموز و التقليد هو مركز السلطة و المسؤولية أما في الواقع فان الزوجة هي التي تمارس السلطة اتجاه أولاده وتصنع القرارات المهمة التي تؤثر في حياتهم و تقرر مصير العائلة" [2]، لكن ما نقوله يبقى دور الأب كمساعد وتأثيره محدودا وبدرجة اقل من الأم فهي الأساس والعمود الفقري للأسرة.

أما حاليا و بعد التغير الاجتماعي الذي أصاب المجتمع الجزائري.

و فيما يخص تمثل الأدوار و المكانات فيها قد تغير نوعا ما، خاصة من حيث دور ومكانة الأم فيها، فان اقتحامها لميدان التعليم و حصولها على مستويات تعليمية معينة و على شهادات عليا و كذلك خروجها للعمل كالزوج و مشاركتها في ميزانية الأسرة ،و في قرارات وقضايا الأسرة مع الزوج، و مشاركة الزوج لها أصبح من الأمور العادية حاليا كل هذا يجعلنا نتساءل هل بعد اقتحام المرأة مجالات التعليم المختلفة ومشاركتها الزوج في ميادين العمل المختلفة كذلك قد غير حقيقة من وضعيتها و مركزها الاجتماعي وبالتالي في دورها داخل الأسرة والاهتمام بشؤون الأسرة وفي رعاية الزوج ؟

أي ما مدى وعي الأم العصرية المتعلمة بدورها في عملية التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة؟ أي ما هي الأساليب التربوية الممارسة من طرف الأم الجزائرية المتعلمة باختلاف مستوياتها التعليمية في عملية التنشئة الاجتماعية؟

وبطرح أكثر عمقا هل يلعب المستوى التعليمي العالي للأم دورا مهما في اختيار نوع الأساليب التربوية المستعملة في التنشئة الاجتماعية للطفل ؟ وهل تتأثر العلاقة التي تكون بين الأم وأطفالها بدرجة كبيرة بالمستوى التعليمي للام ؟

وهل تقوم الأم المتعلمة بتوظيف مستواها التعليمي من خلال المتابعة المستمرة وتوجيهها ورعايتها لأطفالها خاصة في تحصيلهم الدراسي؟

ولمحاولة الإجابة على هذه التساؤلات قمنا بإجراء هذه الدراسة و ذلك بانطلاقها من ثلاثة فرضيات.

2- <u>تحديد الفرضيات:</u>

- يلعب المستوى التعليمي العالي للأم دورا مهما في اختيار نوع الأساليب التربوية المستعملة في التنشئة الاجتماعية للطفل.
- العلاقة التي تكون بين الأم وأطفالها تتأثر بدرجة كبيرة بالمستوى التعليمي للام.
- توظيف الأم المتعلمة لمستواها الدراسي والتعليمي له علاقة بالتحصيل الدراسي لأطفالها.

3- <u>تحديد المفاهيم:</u>

1-3 التعريف الإجرائي لمفهوم التنشئة الاجتماعية:

فيمكن أن نعرفها إجرائيا بأنها "العملية المعتمدة والمستمرة التي تبدأ منذ لحظة الميلاد و لا تنتهي إلا بوفاة الشخص،ليتحول من خلالها الطفل إلى كائن اجتماعي قادر على العيش والتأقلم مع ظروف الحياة الاجتماعية، وليست الأسرة هي المؤسسة الوحيدة و القائمة على هذه العملية، بل تشاركها في ذلك مؤسسات أخرى "[3].

و هذا من خلال العملية التربوية و التنشئوية التي تقوم بها الأم الجزائرية المتعلمة داخل الأسرة الجزائرية، في تربية أبنائها من خلال الأساليب التربوية و التي تستعملها و المتمثلة في نوعية القيم الاجتماعية – الأخلاقية التي تسعى أن تظهرها في سلوكاتهم اليومية . و هذا كله نابع من وعيها الكامل في تحقيق أفراد صالحين و مندمجين في المجتمع، وفي اكتسابهم بمكانة اجتماعية لائقة بهم.

2-3 المفهوم الإجرائي للمستوى التعليمي:" هو نصيب الفرد من التعليم أي درجة التحصيل الدراسي للفرد و هو القدر العلمي الذي وصل إليه أثناء حياته الدراسية، و تزويده عبر عدة مراحل تعليمية، بدءا بالمرحلة الابتدائية إلى المرحلة الجامعية إن أمكن، و التعليم بصفة عامة من محددات دور الأم الناجحة في تنشئة أبناءها، مما قد يساعدها على تفهم أطفالهم ومعاملتهم معاملة تتناسب مع هذه المرحلة و التي تعد أساسية في حياة الفرد.

4- الدراسات السابقة:

1-4 دراسة سيرز (Sears) و ماكوبي (Maccoby):"أساليب التنشئة الاجتماعية للطفل":

أجريت هذه الدراسة سنة 1957 بالولايات المتحدة الأمريكية، و تهدف إلى معرفة الأساليب التي تستخدمه الأمهات الأمريكيات خلال السنوات الأولى و آثارها (الأساليب) على سلوك الطفل و شخصيته، كذا التعرف على الدوافع التي تجعل الأم تستخدم هذا الأسلوب في عملية التنشئة الاجتماعية دون غيره من الأساليب الأخرى، و تكونة عينة الدراسة من (372) أما أمريكية كلهن أمهات لأطفال في عمر الخامسة من البنين و البنات و قد تم توزيع العينة حسب الانتماء الطبقي (الطبقة المتوسطة و بلغ عددها(190)أما) و(والطبقة العاملة بلغ عدد الأمهات فيها(174) أما)، و المستوى الثقافي (الأمهات الأكثر تعليما بلغ عددهن(192) أما)، و(الأمهات الأقل تعليما وعددهن (180) أما).

توصلت إلى النتائج التالية:

- عدم وجود فروق بين أمهات الطبقتين المتوسطة و العاملة فيما يخص الأساليب المتبعة مع الأطفال في مواقف التغذية.

- إن أمهات الطبقة العاملة يقابلن عدوان الطفل بالعقاب البدني، كما تتبع أمهات هذه الطبقة في طرق التأديب التي تتبعها مع الأطفال الحرمان من الامتيازات مع العقاب البدني عكس أمهات الطبقة المتوسطة فكثيرا ما تتغاضى عن مثل هذا السلوك فهن أكثر دقة و ليونة و دفئا مع الأطفال.

- إن الأمهات الأكثر تعليما أقل تشددا مع الأطفال في آداب المائدة و في النظافة بالمقارنة مع الأمهات الأقل تعليما.
- إن الأمهات الأكثر تعليما يستخدمن المناقشة كأسلوب في التدريب أكثر من الأمهات الأقل تعليما.
- أن الأمهات الأكثر تعليما قليلا ما يلجأن إلى الثواب المادي كأسلوب في التدريب مقارنة مع الأمهات الأقل تعليما.[4]

5- إجراءات الدراسة:

5-1- المناهج المتبعة:

و لأن هدفنا من الدراسة يكمن في الرغبة لإبراز مدى وعي الأم المتعلمة بدورها ومدى مساهمتها في عملية التنشئة الاجتماعية من خلال توظيفها لمستواها التعليمي، و كما هو وارد في الإشكالية فإننا اعتمدنا في بحثنا هذا على تحليل كمي و كيفي من خلال تحويل المعطيات الكيفية التي تمثل إجابات المستجوبين إلى معطيات كمية و تبويبها في جداول، ثم محاولة قراءة هذه المعطيات الكمية قراءة سوسيولوجية.

5-2- التقنيات المستعملة:

من بين التقنيات التي تم استخدامها في دراستنا:

قمنا بإجراء المقابلة كمرحلة أولى من الدراسة الميدانية، وكانت المقابلات حرة وغير رسمية مع مجموعة من المستجوبين، واقتصرت المقابلة على مجموعة من الأسئلة الحرة والمفتوحة وأيضا على التبادل اللفظي مع المبحوثين الذي تميز بالصراحة، إضافة إلى تقنية الاستمارة تضمنت 49 سؤال.

5-3 العينة و مواصفاتها:

فيما يخص تحديد عدد (الأمهات) فهو تحديد عشوائي لكنه يفي بالمطلوب في حين أنه يوفر خصائص عينتنا وأنه يحقق أهداف هذه الدراسة بحيث موضوع بحثنا كان يتطلب الأمهات اللواتي لديهم أطفال متمدرسين، وكذلك فان المستوى التعليمي للأمهات المتعلمات قد كان (ثانوي- جامعي).

فقد تم توزيعنا لـ 70 استمارة على أفراد العينة والتي تم تحديدها حسب مجتمع الأم (وهي عبارة عن أمهات) من أسر الواحدة مستقلة عن الأخرى تضم أسرة نووية وأخرى تابعة لأسر ممتدة.

جدول رقم(01): يبين توزيع أفراد العينة حسب المستوى التعليمي للأم

مستوى الأم	ك	%
ثانوي	34	% 48,57
جامعي	36	% 51,42
المجموع	70	% 100

التعليق: يتضح لنا من خلال الجدول أنه من بين 70 أم مبحوثة هناك 48,57% أمهات ذوات مستوى تعليمي ثانوي و51,42 % أمهات ذوات مستوى تعليمي جامعي(أهملنا المستويات الأخرى لأنها لاتخدم دراستنا)، وهذا المستوى يجعل من الأمهات المبحوثات يولين العناية التامة في تربية أطفالهم وترقية جوانبهم الثقافية أي هذا المستوى يسمح لهم بممارسة عملية تنشئة أبنائهم تنشئة صحيحة وسليمة.

4-5 عرض وتحليل ومناقشة نتائج الدراسة:

5-4-1- المستوى التعليمي للأم ودوره في اختيار أساليب التنشئة الاجتماعية للطفل:

جدول رقم(02): يوضح الأسلوب المختار عند الأم في عملية التشئة الاجتماعية وعلاقته بمستواها التعليمي:

مستوى الأم / نوع الأسلوب المفضل	ثانوي		جامعي		المجموع	
	ك	%	ك	%	ك	%
الشـــدة	14	%41,17	2	%5,55	16	%22,85
المناقشة والإقناع	9	%26,47	18	%50	27	%38,57
ترك الطفل وشأنه (اللامبالاة)	2	%5,88	/	/	2	%2,85
التدليـل	5	%14,70	1	%2,77	6	%8,57
أسلوب آخر (الموازنة بين الشـ واللين)	4	%11,76	15	%41,66	19	%27,14
المجمـوع	**34**	**% 100**	**36**	**%100**	**70**	**%100**

عند مستوى الدلالة 0,05 = α أي درجة الارتياب 5% ودرجة الحرية V=4 9,48 =x2 ($كا^2$) الجدولية

x2=25,20 ($كا^2$) المحسوبة

التعليق: عند دراسة هذا الجدول والمتعلق بالأسلوب والمفضل عند الأم في تنشئة الأطفال وعلاقته بمستواها التعليمي، حيث نقرأ نسبة 38,57% من صرحن ويفضلن باستعمالهن لأسلوب المناقشة والإقناع، وتتوزع هذه النسبة على الشكل التالي:

لدينا اكبر نسبة هي 50% ممثلة في الأمهات ذوات المستوى التعليم الجامعي اللواتي يصرحن بتفضيلهن وباستعمالهن أسلوب المناقشة والإقناع في تنشئة أطفالهن، تليها نسبة 26,47% من الأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي واللائي يستعملن ويفضلن أيضا أسلوب المناقشة والإقناع أثناء تنشئتهن لأطفالهن.

أما الأسلوب الثاني المفضل عند الأمهات واللواتي يصرحن باستعماله أثناء تنشئة أطفالهم هو الأسلوب الآخر والمحدد في (الموازنة بين الشدة واللين) وهذا انطلاقا من مناقشة الطفل واقناعه وتشجيعه بطريقة ديمقراطية متسامحة مع بعض العقاب الخفيف في الحالات الضرورية فقط بعيداً عن الشدة والتدليل والإهمال حيث كانت نسبة 27,14%،و تتوزع هذه النسبة حسب المستوى التعليمي للام على الشكل التالي:

لدينا اكبر نسبة هي 41,66% ممثلة أيضا في الأمهات ذوات المستوى التعليم الجامعي اللواتي يستعملن أسلوب الموازنة بين الشدة واللين في تنشئة أطفالهم، تليها نسبة 11,76% من الأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي واللواتي يستعملن ويفضلن أيضا هذا الأسلوب في تنشئة أطفالهن.

ولدينا أيضا نسبة 22,85% من الأمهات اللواتي يصرحن بتفضيلهن أو بالأحرى استعمالهن أسلوب الشدة في تنشئة أطفالهن حيث يكون هذا التشدد عن طريق العقاب الجسدي والترغيب والترهيب والتهديد والقمع السلطوي بسبب عصيان الأطفال، حيث نجد هذه الفئة تتوزع على الشكل التالي وذلك حسب المستوى التعليمي للأم:

لدينا أكبر نسبة هي 41,17% ممثلة في الأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي اللواتي يستعملن أسلوب الشدة في تنشئة أطفالهم وهذا طبعاً يعود إلى قلة انتشار الوعي الثقافي لديهن، تليها نسبة 5,55% من الأمهات يستعملن أيضا هذا الأسلوب في تنشئة أطفالهن إذا كانت الأم ذات مستوى تعليمي جامعي.

ولدينا أيضاً نسبة 8,57% من الأمهات واللائي يصرحن بتفضيلهن لأسلوب التدليل في تنشئة أطفالهن وذلك بتحقيق كل الرغبات المادية والمعنوية للطفل، حيث نجد هذه الفئة تتوزع على الشكل التالي وذلك حسب المستوى التعليمي للأم:

حيث نجد أن 5 مبحوثات بنسبة 14,70% ممثلة في الأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي واللائي يستعملن أسلوب التدليل في تنشئة أطفالهن، في حين نجد أن نسبة 2,77% وهي نسبة أقل بكثير من الفئة السابقة والتي تستعمل أيضا أسلوب التدليل في تنشئة أطفاله وهن من الأمهات ذوات المستوى التعليمي الجامعي.

وأخيرا نجد نسبة 2,85% من الأمهات اللواتي يصرحن بتفضيلهن واستعمالهن لأسلوب آخر غير الأساليب المذكورة وهو أسلوب اللامبالاة ترك الطفل وشأنه في أثناء تنشئته وذلك بإهمال الأمهات لأطفالهن والتخلي عن القيم بمهامهن في التربية والتوجيه، نظراً لانشغالهم بالجري وراد أدنى المطالب لأفراد الأسرة، حيث نجد هذه الفئة تتوزع على الشكل التالي وذلك حسب المستوى التعليمي للأم:

5,88% إذا كانت الأم ذات مستوى تعليم ثانوي، في حين نجد نسبة 0% أي معدومة بالنسبة للأمهات ذوات المستوى التعليمي الجامعي.

فمن خلال قراءتنا السابقة للجدول اتضح لنا أن الأسلوب الأكثر تفضيل واستعمال من طرف الأمهات هو أسلوب المناقشة والإقناع حيث وجدنا أن اكبر نسبة استخدمت هذا الأسلوب هن الأمهات ذوات المستوى الجامعي وذلك لوعيهن الثقافي الكامل لما ينجر عن استخدامه من ايجابيات تعود على الطفل بالدرجة الأولى(بناء شخصية متوافقة جسميا ونفسيا واجتماعيا) ثم على الأسرة وهذا ما يؤكده لنا علي أسعد وطفة حيث يقول: "أن الأفراد الذين ينشئون في جو كهذا هم أفراد يتميزون بالتلقائية، نشطون، همجيون، غير خوافين، فضوليين، ميالون إلى التزكم ، قادرون على مواجهة الضغوط وتقبل المعايير الاجتماعية "[5]

حيث أثبتت دراسة لسيرز أن أساليب التنشئة لأطفال الوالدين المتعلمين أو الأكثر تعليماً اقل تشدداً مع أبنائهن كما أن الوالدين المتعلمين يستخدمان أسلوب المناقشة والحوار في هذه العملية بالإضافة إلى ذلك فأنهما قليلا ما يلجآن إلى أسلوب الثواب المادي مقارنة مع الوالدين الأقل تعليماً.[6]

وأيضا من خلال ملاحظاتنا نرى أن الأسلوب المفضل والأكثر استعمالا عند الأمهات ذوات المستوى الثانوي هو أسلوب الشدة في تنشئتهم لأطفالهم وطبعاً يفسر بقلة الوعي الثقافي حيث تشير لنا الدراسات انه كلما ارتفع المستوى التعليمي للأبوين، كلما كانت طريقة معاملة الأبناء ديمقراطية وعلى العكس من ذلك يميل الأبوان إلى استعمال الشدة أو الإهمال كلما تدنى مستواهما التعليمي[7].

وعليه نستنتج أن هناك علاقة وطيدة بين المستوى التعليمي للأم وأساليب التنشئة الاجتماعية الأسرية، حيث نجد انه كلما ارتفع المستوى التعليمي للأم كلما كان ميلها أكثر إلى استخدام أسلوب المناقشة والحوار والأساليب العلمية الجديدة وابتعادها أكثر من استعمال التشدد والعقاب البدني ومنه تضمن توجيه الأبناء توجيهاً سليما وبناء شخصية سليمة ومتوازنة تعي المسؤولية التي تلقى على عاتقها وتتقبل نتائج العمل الايجابية والسلبية، عندما ينمو الفرد أو الطفل بصفة عادية ومتزنة في جميع جوانبها ، وتنفجر لديه القدرات الخاصة، ويطور المواهب، ويصير الفرد فعالا في المجتمع ومساهما في تغييره للإيجاب وذلك حسب الوظيفة والدور الذي يحتلها[8]، في حين نرى انه كلما قل المستوى التعليمي للأم كلما كان ميل الأم أكثر إلى استخدام التشدد والابتعاد نوعاً ما عن استخدامها لأسلوب المناقشة والحوار وهذا بدوره يؤثر لبيا في توجيه وتقويم تصرفات الطفل، وفي هذا الصدد نجد العلامة ابن خلدون:"ما كان مرباه بالتعسف والقهر... سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ومال الفرد إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث.. وصار عيالاً على غيره متواكلاً ... فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ألا يستبد عليهما في تأديبه.[9]،وهو بذلك يقدم نموذجا لأساليب تربية الطفل برفض أسلوب العقاب الذي حذرت منه دراسات عديدة والذي يترك آثاراً وخيمة جسدية ونفسية ويؤكد على أسلوب الثواب للطفل في تنشئته.

وقد اثبت اختبار كا^2 وجود علاقة ارتباطيه طردية قوية ذات دلالة إحصائية بين المتغيرين بحيث كا^2 المحسوب (25,20) > كا^2 الجدولي (9,48) وقوتها = 0,60.

ولمحاولة استكمال النتائج الخاصة بالفرضية رقم (1)

أي حول تأثير المستوى التعليمي للأمهات على الأسلوب المتبع في تنشئة أطفالها، فقد أثبتت النتائج أيضا أن التأثير الكبير للمستوى التعليمي للأمهات على أسلوب التنشئة الاجتماعية لأطفالها، ويظهر ذلك من خلال اهتمام الأمهات ذوات المستوى التعليمي المرتفع(الجامعي) باستخدام أسلوب المناقشة والحوار والأساليب العلمية وابتعادها أكثر عن استعمال التشدد والعقاب البدني، وذلك طبعا من خلال ذلك التفاهم الكبير بينها وبين الزوج حول طريقة تربية وتوجيه وتنشئة الأطفال، بنسبة 80,55% وهذا ما بيناه في الجدول رقم (02) ومن خلال أيضا قلة حدوث النزاع أمام الأطفال وذلك بنسبة 5,55%وذلك يعود لوعيها بمعرفة

خطورة هذه النزاعات في حدوث تأثيرات سلبية على شخصية الطفل، كالخوف مثلا وتأثيراته السلبية على الطفل، وهو أكثر رد فعل نجده عند هؤلاء الأمهات دون حدوث عزلة أو تذبذب في التحصيل الدراسي لأنها تستطيع كيف تسيطر وتتحكم في الموقف هذا طبعا في حالات قليلة عند حدوث النزاع أمام الأطفال،"فكلما كانت العلاقة بين الوالدين غير منسجمة يعد سببا رئيسيا في جنوح الأحداث"[10] ونرى أيضا التأثير الكبير الذي يمارسه المستوى التعليمي على الأساليب التنشئوية للأمهات، وذلك من خلال استعمال الأمهات ذوات المستوى المرتفع (جامعي) للضرب إلا في حالة تكرار الخطأ عدة مرات بنسبة 94,44% "لأن التربية الحديثة تقر بعدم لجوء المربي الى العقاب البدني الا في الحالات التي يتعذر فيها جعل الطفل على اتباع الفضيلة والاقلاع عن الرذيلة بطريقة النصح والارشاد والتي يظهر فيها اصرار الطفل وعناده[11]" واللواتي تلجأن إليه كآخر حل طبعا بعد المناقشة والإقناع، عن الابتعاد عن الخطأ وبعد تكراره يضرب الطفل مباشرة لكن مع وجود شروط لهذا الضرب، واللواتي تستعملنه بقلة، لأنهن مقتنعات بسلبياته على الطفل ولا يأتي بأي نتيجة.

بينما نجد انه كلما قل هذا المستوى التعليمي من جامعي إلى مستوى تعليمي ثانوي وجدنا إتباع هؤلاء الأمهات لهذه الأساليب بنسب اقل وأحيانا العكس.

وتفسر هذه النتائج، بأن فئة الأمهات اللواتي لديهن مستوى تعليمي مرتفع(جامعي) يكون اهتمامهن بأطفالهن أكثر من خلال إتباعهن لأساليب تنشئوية ناجعة والتي تتبعنها في تنشئة أطفالهن وفي تعديل سلوكهم، وذلك راجع لدرجة إلمامهن بأساليب التنشئة الاجتماعية السليمة ووعيهن الكبير والتراكم المعرفي والثقافة التربوية الواسعة السليمة التي تكتسبها هذه الفئة من الأمهات والتي تساعدهن على تنشئة اجتماعية صحيحة سليمة ومنه بناء شخصية متزنة ذات نمو اجتماعي سليم في حين نرى أن نسب الأساليب المتبعة من طرف (ذوات المستوى التعليم الثانوي) تكون اقل وأحيانا العكس.

مما يحتم علينا القول بان فرضيتنا قد تحققت إلى حد كبير لاعتبارات موضوعية سبق ذكرها.

5-4-2- تأثيرات المستوى التعليمي للأم على العلاقة التي تكون بين الأم وأطفالها:

جدول رقم(03): يوضح العلاقة الموجودة بين الأمهات وأطفالهن، وعلاقته بالمستوى التعليمي للأم.

مستوى الأم / نوع العلاقة	ثانوي		جامعي		المجموع	
	ك	%	ك	%	ك	%
عادية	7	%20,58	/	/	7	%10
حميمية	17	%50	26	%72,22	43	%61,42
تبادل الاحترام	1	%2,94	4	%11,11	5	%7,14
السمع والطاعة قبل الأبناء	9	%26,47	6	%16,66	15	%21,42

المجمـوع	34	% 100	36	%100	70	%100

عند مستوى الدلالة 0,05 = α أي درجة الارتياب 5% ودرجة الحرية V=3 x^2 = 7,81 ($كا^2$) الجدولية

x^2=11,00 ($كا^2$) المحسوبة

التعليق: يتضح من خلال هذا الجدول المبين لنوع العلاقة التي تسود التعامل بين الأم وطفلها، والتي كشفت عن النتائج التالية:

لدينا أكبر نسبة 61,42% من الأمهات المبحوثات صرحن بوجود علاقة حميمية بين الأم وأطفالها، وتتوزع هذه الفئة على الشكل الآتي:

لدينا أكبر نسبة وهي 72,22% يمثلن الأمهات ذوات المستوى الجامعي، واللواتي تعرف علاقتهم بالحميمية، تليها نسبة 50% من الأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي.

لدينا نسبة 21,42% من الأمهات المبحوثات صرحن بوجود علاقة السمع والطاعة من قبل أطفالهم، وتتوزع هذه الفئة على الشكل التالي:

أكبر نسبة تمثلها الأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي بـ 26,47% منهن صرحن بوجود علاقة السمع والطاعة من قبل أطفالهم تجاه الأم، تليها نسبة 16,66% من الأمهات ذوات المستوى الجامعي واللائي صرحن بنفس العلاقة بين الأم وأطفالها.

ولدينا نسبة 10,00% أيضا من الأمهات المبحوثات اللواتي صرحن بأن العلاقة بين الأم وأطفالها هي عادية وهذه النسبة تتوزع على 7 مبحوثة من فئة الأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي فقط دون غيرهم ذلك بنسبة 20,58%.

وفي الأخير لدينا نسبة 7,14% أيضا من المبحوثات اللواتي صرحن بان العلاقة بين الأم وأطفالها هي تبادل الاحترام وهي نسبة نجدها تتوزع على الشكل التالي:

أكبر نسبة تمثلها الأمهات ذوات المستوى التعليم الجامعي 11,11% تليها نسبة 2,94 % من الأمهات ذوات المستوى الثانوي واللائي صرحن بوجود علاقة تمتاز بتبادل الاحترام.

وما نستنتجه من خلال هذه القراءات هو وجود علاقة بين المستوى التعليمي للأم ونوع العلاقة بين الأم وأطفالها، فكلما ارتفع المستوى التعليمي للأم، كلما سادت علاقة الأم بأطفالها علاقة حميمية ودية وحارة دائمة بين الطفل وأمه المتشبعة بالعطف والحنان والمحبة، بعيدا عن الإهمال واللامبالاة وهذا ما يساعد على وجود جو من التفاهم السليم من الأمهات وذلك لوعي الأمهات لأهمية هذا العامل في تنشئة الأطفال تنشئة اجتماعي سليمة إضافة إلى وجود نسبة قليلة تقول بوجود علاقة السمع الطاعة من قبل الأطفال ونسبة اقل تقول بتبادل الاحترام، وكلما كان المستوى التعليمي أقل، كلما قلت العلاقة الحميمية بين الطفل وأمه وازدادت علاقة السمع والطع من قبل الأطفال، "فهؤلاء الأمهات يعتقدن أن البنت أو الولد ليس لهما شأن عظيم، وأنهما تحت رحمتها، فلا تسمح لهما الأم بانتقاد سلوكها أو رأيها، وليس لهم في نظرها إلا الرضا والطاعة العمياء لكل أوامرها ونواهيها[12]، فخوف الأطفال من الأمهات بسبب استخدام القمع والترهيب والترغيب والسيطرة التامة عليهم مما يجعلهم يرضخون إلى طاعة الأمهات بسبب العامل الوراثي الذي يسيطر عليهم أكثر فهناك من الأمهات من تطبق نفس الأسلوب الذي تلقته من أبويها، وهذا ما يؤدي إلى انتشار ظاهرة الاتكالية والخضوع عند بعض الأطفال في حين نجد بأن بعض الأمهات ذوات المستوى المرتفع (الجامعيات) يغرسون في أطفالهم مبدأ السمع والطاعة من اجل تعليمهم احترام الغير.

إضافة لهذه العلاقة نجد العلاقة العادية التي توجد بين الأم وطفلها وهذا يعود إلى الإهمال واللامبالاة من طرف الأمهات، وكذلك نقص العامل العاطفي بالإضافة إلى القلق المتزايد من طرف الأمهات تجاه الواقع الاجتماعي المتأزم وهذا ما يؤثر سلبا على تنشئة الطفل لان إهمال الطفل وحرمانه من العطف والحنان والمحبة يعتبر عائق أمام الطفل في إقامة علاقات مع غيره، وهذا ما يهدد كيانه بالخطر، وهذا كله يعود إلى قلة الوعي بأهمية العلاقة بين الوالدين والطفل كما تدركها الأمهات ذوات المستوى التعليمي المرتفع وذلك لأنه "تعد العلاقة الايجابية بين الوالدين والطفل من العوامل المهمة والمؤثر في التنشئة الاجتماعية السوية للطفل إذا تشير الدراسات المنشورة إلى أن الجو العاطفي للأسرة الذي يسدوه التقبل والتسامح والمودة والحب والثقة والمشاركة والتعاون والديمقراطية ...الخ، يعد من العوامل المؤثرة ايجابيا في تكوين شخصية الأبناء ونموهم النفسي والاجتماعي وأساليب تكيفهم، حيث تشير الدراسات المقصودة أيضا إلى أن الحب الدفيء والعاطفة الصادقة التي يمكن أن ينعم بهما طفل من الأطفال تعزز ثقته بنفسه وطمأنينة وتكيف شخصيته، وتمكنه من مجابهة الظروف القاسية والجيدة على نحو سواء وأيضا أن هناك ارتباط قوي بين النزوع إلى العدوان الاجتماعي ونقص المحبة والحنان في البيت، وأظهرت دراسات أخرى أن الأطفال العدوانيين والمضطربين عاطفيا والمتأخرين دراسيا قد تعرضوا للقسوة والنبذ من الوالدين، وان (80-90%) من الأطفال الجانحين في طفولتهم هم ضحايا سوء معاملة الوالدين والنبذ الذي عاشوه في طفولتهم"[13]

وقد اثبت اختبار كا^2 وجود علاقة ارتباطيه طردية ذات دلالة إحصائية بين المتغيرين بحيث كا^2 المحسوب (11,00) > كا^2 الجدولي (7,81) وقوتها = 0,397 أي بالتقريب 0,40.

ولمحاولة استكمال الفرضية الثانية فقد أثبتت النتائج على التأثير الكبير للمستوى التعليمي للأمهات على كيفية المعاملة والعلاقة التي تكون بين الأم وأطفالها، ويظهر ذلك من خلال اهتمام الأمهات ذوات المستوى التعليمي المرتفع بان تكون علاقتهن بأطفالهن حميمية ودية وحارة دائمة بين الطفل وأمه المتشبعة بالعطف والحنان والمحبة بعيدا عن الإهمال واللامبالاة أي في غالبيتها تميل إلى الحب والاحترام، وهذا ما أكدناه في الجدول رقم (3)، وأيضا في علاقة الطفل بإخوته تتسم أيضا بالحميمية بنسبة 72,22%، وفي كيفية معاملتها لأطفالها نجد أن معظمهن يعاملن أطفالهن بالنصح التوجيه نسبة 50%والذي ينجم عنه أسلوب ثاني ألا وهو أسلوب الموازنة بين اللين والشدة، وأيضا تتسم علاقة الأم ذات المستوى الجامعي مع أطفالها بالحوار والنقاش لاسيما في الجانب التربوي بنسبة 91,66% أي 33 مبحوثة، وعدم وجود تفرقة وتمييز أثناء معاملتها لأطفالها 99%، أما فيما يخص تلبيتها لجميع طلبات أطفالها فيكون أحيانا وهذا لمدى وعيها الكامل بما تفعل 69,99%، فهي تقوم بتوفير جميع الطلبات ولكن فيه طلبات خيالية أحيانا من طرف الطفل هي تقوم بمنعه حتى لا يتعود على تلبية جميع الطلبات ويتعود على الصبر وحتى لا يستسهل الحياة ولا يصاب بالإحباط عندما يصطدم بالواقع المعاش في المستقبل.

ومن خلال هذه النتائج يتحتم علينا بان فرضياتنا قد تحققت لاعتبارات موضوعية.

5-4-3- توظيف الأم المتعلمة لمستواها التعليمي وعلاقته بالتحصيل الدراسي لأطفالها.

<u>جدول رقم(04)</u>: يوضح اهتمام ومتابعة ومراقبة الأمهات لدراسة أطفالهم وتغيرها حسب المستوى التعليمي للام

مستوى الأم / طريقة المراقبة	ثانوي		جامعي		المجموع	
	ك	%	ك	%	ك	%
باستمرار	14	%41,17	28	%77,77	42	%60
فقط عند الامتحانات	16	%47,05	8	%22,22	24	%34,28
عدم الاهتمام	4	%11,76	/	/	4	%5,71
المجموع	**34**	**% 100**	**36**	**%100**	**70**	**%100**

عند مستوى الدلالة 0,05 = α أي درجة الارتياب 5% ودرجة الحرية V=2 x^2 = 5,99 (x^2 كا) الجدولية

x^2 =11,26 (x^2 كا) المحسوبة

<u>التعليق</u>: يتضح من خلال هذا الجدول الذي يوضح لنا كيفية اهتمام ومتابعة ومراقبة الأم لدراسة أطفالها حسب المستوى التعليمي للأم ، حيث نجد نسبة 60,00% من الأمهات المبحوثات اللواتي صرحن بأنهن يراقبن دراسة أطفالهن باستمرار ، وتتوزع هذه النسبة حسب المستوى التعليمي للأم على الشكل التالي:

لدينا أكبر نسبة هي 77,77% ممثلة للأمهات ذوات المستوى التعليم الجامعي اللواتي صرحن بأنهن يراقبن دراسة أطفالهن باستمرار، تليها نسبة 41,17% ممثلة للأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي واللائي يصرحن أيضا بأنهن يقمن بمراقبة أطفالهن باستمرار .

ولدينا أيضا نسبة 34,28% من الأمهات المبحوثات اللواتي صرحن بأنهن يراقبن دراسة أطفالهن فقط عند الامتحانات ، حيث نجد هذه النسبة تتوزع حسب المستوى التعليمي للأم كالآتي:

لدينا اكبر نسبة 47,05% ممثلة للأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي اللواتي صرحن بأنهن يراقبن دراسة أطفالهن فقط عند الامتحانات ، تليها نسبة 22,22% ممثلة للأمهات ذوات المستوى التعليم الجمعي واللائي صرحن أيضا بأنهن يقمن بمراقبة أطفالهن فقط عند الامتحانات.

ولدينا أيضا نسبة 5,71% وهي أدنى نسبة من الأمهات المبحوثات اللواتي صرحن بأنهن لا يقمن بمراقبة أطفالهن الدراسية أو وجود الإهمال واللامبالاة وعدم الاهتمام من طرف الأمهات وهي ممثلة فقط في 4 مبحوثات وذلك بنسبة 11,76% من الأمهات ذوات المستوى التعليم الثانوي دونا عن غيرها من المبحوثات.

من خلال الدراسات السابقات يفسر ذلك طبعا لوعي الأمهات بضرورة المتابعة المستمرة لنشاطات الأبناء المدرسية والاهتمام بما يقومون به وتشجيعهم عليه وبضرورة تخصيص مدة زمنية على الأقل ساعة في اليوم للاهتمام ومراقبة أعمالهم، وبضرورة المتابعة الجادة والمستمرة وتعويدهم على الاعتماد على النفس

وذلك بتشجيع مبادراتهم وتوجيهها خاصة في أبحاثهم واستقصاءاتهم حتى وان كانوا كبارا وهذا طبعا ما لمسناه من خلال تصريحات المبحوثات ذوات المستوى التعليم الجامعي لاطلاعهن الكبير على كل صغيرة وكبيرة تخص الجانب الدراسي لأطفالهن.

ويتفق الخبراء على أن هناك عدة طرق لمتابعة النشاط المدرسي للأبناء بحسب طبيعة المتمدرسين، فهناك من يحتاج إلى الدعم المعنوي والمراقبة من بعيد فقط، وهناك من يحتاج إلى المساعدة الفعلية، أن متابعة عمل الأبناء تعتبر فنا ينهل من الاطلاع والاحاطة بنفسيات الأبناء، فقد تكون مساعدة ومتابعة الأبناء قليلة الفاعلية إذ نحت منحى الأوامر بدل التوجيه.

نستنتج من خلال القراءات السابقة وجود علاقة بين المستوى التعليمي للأم وطريقة مراقبة الأم لدراسة أطفالها وهذا يختلف حسب المستوى التعليمي للأم، فعلى المستوى العام أي عموما نجد نسبة 60,00% تقوم بمراقبة أبنائها باستمرار لكن هذا نجده يختلف بحيث نجد كلما ارتفع المستوى التعليمي للأم كلما كانت المراقبة باستمرار إلا نسبة قليلة في الامتحانات، والبيانات الإحصائية مؤشر ودليل واضح على أن الأمهات يحرصن كل الحرص على التحصيل الجيد لأطفالهم، أن هناك علاقة قوية بين المستوى الثقافي لأسر التلاميذ وحرص الوالدين على معرفة المستوى الدراسي وتحصيل أبنائهم التعليمي بالمدرسة ومعرفة نوعية المشكلات التي يواجهها أبنائهم بالمدرسة والسعي لحلها مما يؤدي إلى زيادة معدلات النجاح ومنه فهناك علاقة ايجابية بين المستوى التعليمي للوالدين ودرجة اهتمامهم بأولادهم[14].

فمن خلال الجدول رأينا انه كلما ارتفع المستوى التعليمي للأم كلما كانت فيه مراقبة باستمرار أكثر من غيرها وهذا دليل على أن الأمهات ذوات المستوى التعليمي الجامعي يسعين جاهدين حتى يسلك أطفالهم نفس السبيل الذي سلكوه، ودليل آخر على أن القيمة العلمية مازالت تحتل مكانا بارزا في التنشئة الأسرية لأنها تعتبر رمزا لتفاخر لدى بعض العائلات والأسر سيما أن الأسرة التي تتميز بمستوى تعليمي جيد لازالت تحضى بنوع من التقدير والاحترام والتي كثيرا ما يلجأ إليها ذوي المستوى المنخفض للمشورة وأخذ الرأي في الكثير من القضايا والمسائل.

كما أن الاهتمام بالنتائج المدرسية للأطفال يعني الاهتمام بمستقبل أبنائهم المرتبط بمستواهم التعليمي والشهادة المتحصل عليها والتي تمكنهم من اعتلاء أرقى المناصب، أي هم واعين بما سيقدمه التعليم كقيمة اجتماعية أساسية في إطار تحقيق مستقبل زاهر، بمكانة اجتماعية لائقة، وبقيم أخلاقية وأدبية عالية.

وما نستنتجه انه عموما كلما ارتفع المستوى التعليمي للأم كلما كان الاهتمام بتعليم الأنباء ومراقبة دراستهم باستمرار وكلما قل المستوى التعليمي يقل هذا الاهتمام والمراقبة إلا في اقتراب الامتحانات ونسبة اقل باستمرار وهذا لعدم وعي الأمهات بان المتابعة الوالدية المتواصلة منذ دخول الأبناء إلى المدرسة حتى الجامعة لها دور كبير في نجاح الأبناء، ورفع مستواهم حيث يشعر الأبناء باهتمام وانشغال والديهم عليهم وحرصهم على نجاحهم وتفوقهم.

وقد اثبت اختبار كا^2 وجود علاقة ارتباطية طردية ذات دلالة إحصائية بين المتغيرين بحيث كا^2 المحسوب (11,26) > كا^2 الجدولي (5,99) وقوتها تساوي 0,41.

ولمحاولة استكمال النتائج الخاصة بالفرضية رقم (03) من خلال أن الأمهات ذوات المستوى الجامعي يعتبرن قيمة التعليم من أهم القيم الاجتماعية ولهذا فهي تساهم في التحصيل الدراسي الجيد للأطفال، وهذا طبعا من خلال اهتمامها بالمطالعة المتنوعة من الكتب الثقافية فالعلمية فالدينية فالأدبية بنسبة 77,77%، ومنه تنمية قيمة وروح المطالعة لدى أطفالهم وتشويقها إليهم أكثر، ومنه الزيادة على التشجيع في تحصيل دراسي جيد من خلال أيضا اقتناءها لهم كتب دراسية إضافة لمختلف الكتب المتنوعة الأخرى حسب سنهم ومستواهم الدراسي، كما اتضح ذلك التأثير الكبير للمستوى التعليمي للأم أيضا من خلال المراقبة المستمرة لدراسة أطفالهم، من خلال منعهم من اللعب في الشارع ومشاهدة التلفاز أثناء فترة الامتحانات بنسبة 99,99% لكن طبعا مع إتباعها دائما للأساليب اللينة دون الشدة والقسوة عليهم وذلك من خلال مناقشتهم وحوارهم بما يفيدهم وما لا يفيدهم، وأيضا توفيرها للجو الملائم في فترة الامتحانات سواء ماديا أو معنويا، وهذا طبعا ما ينتج عنه نتائج جيدة في التحصيل الدراسي لأطفالها.

من خلال حثهم على المراجعة ومساعدتهم ومناقشتهم، وأيضا من خلال وجود صلة واتصال بين المدرسة والأمهات للاستفسار عن أحوال أطفالهم الدراسية فان كانت جيدة يعملن على تعزيزها وان كان فيه اتجاهات نحو الضعف والانخفاض يتداركن الوضع في الوقت المناسب من خلال دائما اتباعهن للأساليب اللينة ومنه الوصول إلى نتائج ايجابية.

بينما نجد الأمهات اللواتي لديهن مستوى تعليمي أقل هنا فوجدنا أن اهتماماتهن بالنسبة للجوانب السابقة الذكر يكون بنسب أقل (وأحيانا العكس) من ذوات المستوى المرتفع (الجامعي).

من خلال النتائج يتحتم علينا بأن فرضيتنا قد تحققت لاعتبارات موضوعية سبق ذكرها .

خاتمة: وعموما فان موضوعنا يكتسي طابعا مهما وذلك من خلال مدى تأثير المستوى التعليمي على النمط القيمي الذي تريد غرسه وبثه في أطفالها، وعن طريق أيضا تأثير هذا المستوى التعليمي على الأسلوب التنشئوي وعن طريق أيضا كيفية معاملة وعلاقة هذه الأم المتعلمة مع أطفالها.

وعلى هذا الأساس حاولت هذه الدراسة التعرف على دور الأم المتعلمة في التنشئة الاجتماعية، لاسيما في وقتنا الحاضر أي مع وجود التطورات والتغيرات الاجتماعية في جميع المجالات.

والدراسة هذه والنتائج التي توصلت إليها لا يمكن تعميمها على المجتمع إلا أن هذه النتائج تبقى ذات أهمية باعتبار أن الموضوع مهم ويحتاج إلى دراسات أعمق تكمل الثغرات التي لم نستطع إكمالها ولم ننتبه لها لان العلم ليس له حدود وتبقى النتائج نسبية فلو توصل العلماء إلى حدود نهائية لما كان فيه تطور، أي بنهاية ونتائج دراسة هي بدايات لدراسات أخرى وهكذا وجود تراكم علمي ومعرفي والتطور دائما للوصول إلى الأفضل.

لهذا نرجوا أن تكون هناك في المستقبل دراسات وبحوث عملية أخرى تأخذ بعين الاعتبار الأم كطرف أساسي في الأسرة، بصفة خاصة، ودورها داخل المجتمع ككل.

الهوامش:

1- همشري أحمد عمر، **التنشئة الاجتماعية للطفل**، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2003،ص.328

2- بركات حليم، **المجتمع العربي المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 1985،ص.185

3- MEGHERBI Abd – el ghani, **Culture et personnalité algerinne**, de massinissa à nos jours,ed enali opu,alger,1986, p60

4- عواد معروف أمل، **أساليب الأمهات في التطبيع الاجتماعي للطفل في الأسرة الجزائرية**، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1987،ص.39

5- وطفة علي، "**الإرهاب التربوي**"، جريدة البعث الأسبوعي، العدد 8420، دمشق، 1990،ص.83

6- عواد معروف أمل، مرجع سبق ذكره، ص38-.39

7- سيد أحمد عبد المجيد منصور، دور الأسرة كأداة للضبط الاجتماعي في المجتمع العربي، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1987، ص.180

8- العيسوي عبد الرحمان، **مشكلات الطفولة والمراهقة**، دار العلوم العربية، مصر، 1994،ص.40

9- ابن خلدون عبد الرحمان، **المقدمة**، دار القلم، ط5، بيروت، 1984، ص.540

10- أين مزاهرة: **سيكولوجية الطفل علم النفس ، النمو**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2003، ص.195

11- صالح عبد العزيز: **التربية وطرق التدريس**، دار المعارف، مصر، ج2 ، 1961، ص19.

12- الحمزاوي نسيم، **الرباط الوجداني بين الأبوين والبنين في رحاب الأسرة**، مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، قسم الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس، تونس، 1995، منشور بتاريخ 2007/09/19،ص.111

13- همشري أحمد عمر ، مرجع سبق ذكره، ص.337

14- عبد الله محمد عبد الرحمان: **علم اجتماع التربية الحديثة – النشأة التطورية والدراسات البدائية الحديثة**، دار المعرفة الحديثة ، الأزاريطية، الاسكندرية، 1998، ص372.

تقييم البرنامج التكويني البيداغوجي التحضيري لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين في الجزائر (قراءة تحليلية في ضوء جودة البرامج التكوينية)

بوشريط نورية، طالبة دكتوراه، جامعة وهران2 محمد بن أحمد
إشراف: أ.د/ يوب نادية مصطفى الزقاي، جامعة وهران2 محمد بن أحمد

ملخص الدراسة:

يحتاج برنامج التكوين البيداغوجي التحضيري الموجه إلى أساتذة التكوين والتعليم المهنيين، إلى الدراسة والبحث في جودة المحتوى، نظرا لنواحي النقص التي يعاني منها القطاع، كالتسرب المهني، والأداء المتدني للأساتذة، وعدم تحقق الكفايات المهنية التي تظهر في نقص كفاءة اليد العاملة، على الرغم من تلقي الأستاذ التكوين البيداغوجي. لذا نحاول في هذه الدراسة إبراز و تسليط الضوء على واقع برنامج التكوين البيداغوجي التحضيري لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين في ظل جودة البرامج التكوينية والمرتبطة بكل من الاحتياجات التدريبية، والأهداف، و المحتوى، وطرائق التدريس ووسائل التعليم وتقنيات التعلم، والتقييم، والتربص التطبيقي وفعالية البرنامج، والمتابعة. نوقشت الدراسة بالاستعانة بالأطر النظرية والدراسات السابقة حول الموضوع.

الكلمات المفتاحية: التكوين البيداغوجي، التكوين والتعليم المهنيين، معايير جودة البرامج.

Abstract:

The preparatory training program (syllabus) for teachers of professional training and education requires studying and researching the quality of the content due to the lacks that of the sector is suffering from such as professional dropout, teachers' low performance and lack of professional competencies that appear in the lack of labor efficiency though the teacher received the pedagogic composition.

In this study, we attempt to highlight the reality of the preparatory training program for teachers of professional training and education in light of the quality of the training programs related to the training needs, objectives, content, methods of teaching, learning techniques, evaluation, Applied Training, the effectiveness of program, and follow-up. The study was discussed using theoretical frameworks and previous studies on the subject.

Key words: pedagogical Training, Vocational professional and education, Quality of program creteria.

1) مقدمة: خلق التطور التكنولوجي معطيات جديدة في سوق العمل، وإحداث تحولات على المستوى الاقتصادي، مما جعل الدول تبحث عن استراتيجيات لمواكبة هذا التطور، و تبين أن التكوين ضرورة ملحة للتوافق مع المستجدات الاقتصادية، ذلك أن الكفاءات المهنية هي الوحيدة القادرة على تجسيد هذا التطور. من هنا اهتمت الجزائر بقطاع التكوين المهني، لتلبية حاجات الاقتصاد بتوفير يد عاملة مؤهلة من جهة، وكذا تحقيق تنمية اجتماعية من جهة أخرى.

لذلك اعتبرت وزارة التكوين المهني (1995) التكوين المهني على انه توفير اليد العاملة المؤهلة للاقتصاد الوطني في أسرع وقت ممكن، وأفضل الشروط المتعلقة بالنوعية والكمية الضرورية، لإنجاز مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية. [1]

نظرا لأهمية دور التكوين المهني أكد كل من فرانسوا و جولين (Francois ,D & Julien N ,2012) أن دور التكوين المهني لم يعد مجرد الحصول على شهادات تأهيلية تسهم في تطوير الشخصية أو النهوض الاجتماعي، بل أصبح التكوين المهني موجه إلى حد كبير لتيسير المسارات الوظيفية، و لنمو المهن الواعدة، وتعزيز قدرات في حال إعادة تصنيف النشاطات، وتسهيل التكيف مع التغيرات في مؤسسات العمل [2]

لأجل هذه الأدوار خلق قطاع التكوين المهني مؤسسات شاملة وكاملة، منها المسئول عن التأطير التقني والبيداغوجي للموارد البشرية للقطاع، ومنها المسئول عن الدراسات والبحث في المهن والمؤهلات، ومنها المسئول عن التطوير والتكوين المتواصل، ومنها المسئول عن التكوين عن بعد ، ومنها الخاص بالتجهيزات التقنية والبيداغوجية، لنصل إلى آخر المؤسسات في الترتيب الهرمي المؤسسات العمومية وتتمثل في مراكز ومعاهد التكوين والتعليم المهنيين.

حيث أوكلت مهمة ضمان أداء الوظيفة وتعزيز الموارد البشرية بتكييف عروض التكوين حسب تغير سوق العمل، وحسب احتياجات البلاد الاقتصادية الاجتماعية، إلى مؤسسات الهندسة البيداغوجية باعتبارها تحتل الناحية المسيطرة في النظام الوطني للتكوين والتعليم المهنيين من ناحية التأطير التقني والبيداغوجي للموارد البشرية للقطاع. طبقا للمنشور رقم 05 مؤرخ في 26جويلية 2012 والمتضمن مكانة و دور مؤسسات الهندسة البيداغوجية والتي تضم المعهد الوطني للتكوين المهني (INFEP) ومعاهد التكوين المهني (IFEP) ضمن المنظومة الوطنية للتكوين و التعليم المهنيين. [3]

بالتركيز على معاهد التكوين المهني (IFEP) الذي تتعدد أدواره لتشمل مجال الهندسة البيداغوجية، ومجال هندسة التكوين، ومجال التقييم، ومجال الدراسات والبحث البيداغوجي ، كما يشير المنشور من المرسوم التنفيذي رقم 10- 99 مؤرخ في 2 ربيع الثاني عام 1431 الموافق 18 مارس 2010 يحدد القانون الأساسي النموذجي لمعاهد التكوين والتعليم المهنيين. [4]

من بين مهام مجال هندسة التكوين، إعداد برامج التكوين المتخصص وضمان التكوين وتحسين مستوى الأسلاك الإدارية والتقنية والبيداغوجية للتكوين والتعليم المهنيين، و تحضير وضمان عمليات التكوين وتحسين المستوى لفائدة الإطارات التابعة لقطاعات وهيئات أخرى.[5]

أوكلت مهمة هندسة التكوين لمعاهد التكوين المهني حسب المادة 20 من القانون رقم08-07 المؤرخ في 16 صفر 1429 الموافق 23 فبراير سنة 2008 و المحدد للقانون الأساسي النموذجي لمراكز التكوين والتمهين بمتابعة الدورات التكوينية وتحسين المستوى وتجديد المعارف التي ينظمها الوزير المكلف بالتكوين والتعليم المهنيين قصد ضمان تحسين مؤهلاتهم وترقيتهم المهنية وتحضيرهم لمهام جديدة.[6]

تُتابع الدورات التكوينة على مستوى معاهد التكوين المهني (IFEP) حسب القرار الوزاري رقم 246 مؤرخ في 1993/12/18 المتضمن المقاطعات الجغرافية لمعاهد التكوين المهني . تمثلت المعاهد في (معهد التكوين المهني بئر خادم، سطيف، عنابة، المدية، ورقلة، سيدي بلعباس)، وحددت المادة 2 من نفس القرار التوزيع الجغرافي ل 48 ولاية موزعة على ست معاهد المذكورة التي تسعى إلى ضمان التكوين وتحسين المستوى لعمال قطاع التكوين والتعليم المهنيين.[7]

باعتبار أستاذ التكوين والتعليم المهنيين احد أطراف العملية التعليمية في قطاع التكوين المهني، فهو ملزم بمتابعة التكوين البيداغوجي التحضيري قبل الشروع في مزاولة الوظيفة، من اجل تكوين الأستاذ واكتساب التجربة التدريسية حسب ما أشار إليه مكايل Miceal.j (2011) ان الهدف من التكوين البيداغوجي الحصول على أساس من المعرفة حول طرق التدريس في الموضوع التخصص والتعرض للتجربة العملية داخل الفصول.[8]

على أساس ما تقدم سنحاول عرض برامج التكوين البيداغوجي التحضيري لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين، وتسليط الضوء على مدى جودتها من حيث التزامها بأهم معايير جودة البرامج.

2) **إشكالية البحث:** يعد قطاع التكوين المهني قطاعا استثماريا يسعى الى تكوين اليد العاملة وتأهيلها بما يتوافق و متطلبات السوق، مركزا على جودة مخرجاته بان تكون تتسم بالكفاءة ومتفقة مع اهداف النظام من حيث احتياجات المجتمع واحتياجات الفرد ذاته فمفهوم الجودة في التعليم بصفة عامة ينبغي ان يشمل مكونات المنظومة وعناصرها (متربص– مكون – منهاج) ، حيث تظهر جودة التكوين المهني في عميلها الاول والمتمثل في المتربص، ذلك ان المنظومة التكوينية تسعى الى ارضائه واكسابه كفايات مهنية سواء المعرفية والمهارية والواجدانية التي تجعل منه مؤهلا كيد عاملة مساهمة في اقتصاد الوطن، مما جعل الكفايات المهنية ومدى تحققها احد مؤشرات لجودة التكوين.

ما جعل القطاع يخصص معاهد التكوين المهني لإعداد أساتذة التكوين والتعليم المهنيين ، وتهيئتهم للقيام بالمهام الموكلة إليهم في تدريس التخصصات وتكوين المتربصين في الجانبين النظري والتطبيقي، وضمان الجودة قي التكوين، ما حدده المرسوم التنفيذي رقم 09 – 93 مؤرخ في 26 صفر عام 1430

الموافق 22 فبراير 2009 يتضمن القانون الأساسي الخاص بالموظفين المنتمين لأسلاك التكوين والتعليم المهنيين مهام أساتذة التكوين والتعليم المهنيين، تقديم التعليم النظري والتطبيقي.

لكن حين البحث في مؤشرات جودة مخرجات التكوين المهني نجد أنها غير محققة حسب دراسة سامعي توفيق (2010) حول مدى تحقيق مؤسسات التكوين المهني في مدينة سطيف للكفايات المهنية لدى خريجي القطاع التكوين المهني، توصلت إلى أن الكفايات المهنية غير محققة حسب رأي الأساتذة ويرجع ذلك إلى ست عوامل هي: نقائص في المناهج، وقلة الأجهزة ونقائص في كفاءة الأستاذ، ونقص الحصص التطبيقية داخل المؤسسات التكوينية، وضعف التربصات على مستوى سوق العمل، ونقص مصداقية الامتحانات المنظمة داخل المؤسسات التكوينية.[10]

كما اكدت دراسة قبلي خضرة (2012) حول فعالية التكوين المهني من حيث تحقيقه لأهدافه في بعض التخصصات التقنية، توصلت الدراسة الى انخفاض في رضا المكونين عن مستوى التكوين ونقص كفاءة المتكونين، ونقص في التخطيط العلمي و تبقى فعالية التكوين المهني بعيدة عن المستوى المطلوب.[11]

اضافة الى ان المتمعن في واقع التكوين المهني وحسبما لمسته الطالبة داخل مؤسسات التكوين والتعليم المهنيين خلال مدة عملها بالقطاع، مشكلة التسرب المهني بمختلف أشكاله (التخلي، الرسوب) ما جعل القطاع يحاول البحث عن أسباب الظاهرة من خلال إنشاء لجان على مستوى كل ولاية بموجب (المقرر الوزاري رقم 1177 المؤرخ في ابريل 2007 والمتضمن إنشاء اللجنة الولائية المكلفة بدراسة التسرب في مؤسسات التكوين المهني) انتهى التقرير النهائي إلى اعتبار الأداء البيداغوجي المتدني للأستاذ من أهم العوامل المؤثرة في التسرب المهني.[12]

إن بؤرة البحث في الجودة التكوين ترتبط ارتباطا كبيرا بأداء الأستاذ البيداغوجي و جودة التكوين البيداغوجي الذي تلقاه هذه الاخير، بهدف تنمية وصقل مهارات الاستاذ التكوينية وتهيئته لاداء مهام التدريس بشكل صحيح، غير ان **مصطفى حداب (2003)** اشار الى ان برنامج تكوين المكونين ما زال يستجيب لاعتبارات استعجاليه بسبب ارتفاع نسبة التمدرس والإرادة السياسية الهادفة إلى دمقرطة التعليم، وجزأرة برامج التكوين بعد الاستقلال، وارتفاع نسبة التسرب، وفتح عدد كبير من مراكز التكوين المهني، ونقص وندرة الأساتذة الجامعيين في الكثير من التخصصات الجامعية. أدى إلى تحضير ادني للمكونين وأحيانا دون تكوين بيداغوجي [13]

إن تحقق أهداف البرامج التكوينية في تكوين الأساتذة بحاجة إلى المساءلة في جودة برامجها ومدى توفر المعايير المعتمدة في التكوين، من اجل التقويم للتعرف على الوضع الراهن ، وتحديد حاجات القائمين على سير هذه البرامج من مكوني مكونين والمكونين و بهدف رسم سياسة التطوير أو العلاج في

حالة وجود قصور أو نقص، وكذا الاستفادة من فعالية البرامج في التأكد من جودة مخرجات التكوين والمتمثلة في اكتساب الأساتذة للكفايات التدريسية لأداء المهام بكل كفاءة.

وتأسيسا على ما تقدم و من منطلق الدور السامي الذي يقوم به أستاذ التكوين والتعليم المهنيين باعتباره حجر الزاوية في المنظومة جاءت هذه الدراسة من خلال معرفة واقع التكوين البيداغوجي التحضيري لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين ، لذلك تتبلور إشكالية البحث في التساؤل التالي:

ما واقع برنامج التكوين البيداغوجي التحضيري لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين في معاهد التكوين المهني في ظل معايير جودة البرامج ؟

3) **أهداف البحث:** تتمثل أهداف الدراسة في النقاط التالية:

✍ تهدف الدراسة إلى الوقوف على مواصفات البرنامج المعتمد عليه حاليا في تكوين أساتذة التكوين والتعليم المهنيين، من خلال توفر مجموعة من الشروط المرتبطة بكل من (الاحتياجات التدريبية، والأهداف، والمحتوى، والمكون، و الوسائل التكوينية، و الطرائق البيداغوجية، والتقييم، والتربص التطبيقي، ومدة التكوين، وقياس الفعالية للبرنامج، والمتابعة).

✍ تقديم واقع أو حقيقة عن برنامج التكوين البيداغوجي التحضيري الموجه لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين بمختلف الرتب، ومدى جودة البرامج المقدمة في هذه المعاهد.

✍ محاولة إبراز نقاط القوة والضعف في البرنامج التكويني البيداغوجي التحضيري الموجه لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين بعد بيان الواقع الذي هو عليه.

4) **أهمية الدراسة:** تتلخص أهمية الدراسة في ما يلي:

✍ تتجلى الأهمية في أنها تقدم تصورا واضحا لطبيعة البرنامج الحالي في تكوين الأساتذة العاملين بقطاع التكوين المهني من جهة، ومن جهة أخرى تبرز نقاط القوة في البرنامج وكذا نقاط الضعف. الأمر الذي من شأنه يعطي للمشرفين و القائمين على تصميم البرامج تصورا واضحا عن طبيعة البرنامج وما يحتاجه للتطوير والتحسين.

✍ كما تتجلي أهميتها في لفت انتباه الباحثين إلى ضرورة البحث في برامج التكوين البيداغوجي التحضيري ومدى فعاليته في تنمية الكفايات التدريسية لدى الأساتذة، بالإضافة إلى البحث في مختلف البرامج التي يقدمها القطاع لمختلف أسلاكه.

✍ كما تكمن أهمية الدراسة في قلة الدراسات المحلية (في حدود اطلاع الطالبة) حول برامج التكوين البيداغوجي لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين، حيث الدراسات في هذا القطاع انصب تركيزها على الكفايات المهنية للمتربصين، على الأداء البيداغوجي، مبادئ إعداد وتقييم عملية التكوين المهني، **لإجابة** على تساؤل الدراسة سنحاول المقارنة البرنامج البيداغوجي بين ماهو عليه والمأمول من خلال إبراز معايير جودة البرامج التكوينية ، ومدى التزام برنامج التكوين البيداغوجي التحضيري بهذه المعايير.

5) **المفاهيم الاساسية:**

5-1- **برنامج التكوين البيداغوجي التحضيري**: كل ما تقدمه معاهد التكوين المهني والتعليم المهنيين الجهوية (تكوين المكونين) من مقررات بيداغوجية وثقافية ومهنية طيلة مدة التكوين البيداغوجي المستغرقة ستة أشهر تتخللها فترات التربص التطبيقي بمدة شهرين.

5-2- **معايير جودة البرامج التكوينية**: تتمثل في جملة المواصفات والشروط التي يجب توافرها في العناصر المكونة للبرنامج التكويني البيداغوجي التحضيري والمحددة في (الاحتياجات التدريبية، و الأهداف، والمحتوى، وطرائق التدريس، وهيئة التدريس، والوسائل التعليمية ومصادر التعلم تقنيات التعلم الحديثة، والتقييم، والتربص التطبيقي/التربية العملية، و فعالية البرنامج التكويني، و المتابعة للبرنامج، من خلال تبيان تواجد مؤشرات تحقيق الجودة في كل معيار من المعايير المذكورة.

5-3- **الأساتذة التكوين والتعليم المهنيين (المكونون):** هم الأساتذة المكلفين بتكوين المتربصين على مستوى مؤسسات التكوين والتعليم المهنيين (مراكز و معاهد وطنية متخصصة) بمختلف الرتب أستاذ التكوين المهني PFEP، و أساتذة متخصصين من الدرجة (1و2) 2 / 1 PSFEP

5-4- **أساتذة التكوين المهني (مكوني المكونين):** هم الأساتذة المكلفين بالتكوين البيداغوجي، ودورات تحسين المستوى لمختلف أساتذة التكوين والتعليم المهنيين على مستوى المعاهد الجهوية للتكوين المهني.

6) **معايير جودة البرامج التكوينية**: ترتبط الجودة بفلسفة التحسين والتطوير، والتأكد من مخرجات البرامج من خلال تحقق أهداف البرنامج باستيفاء عدد من المواصفات في الخريجين، وأصبح مفهوم الجودة المدخل الرئيسي لمختلف المجالات أهمها التربوي بتحقيق جودة التعليم في مختلف المؤسسات التربوية. فالجودة في المؤسسات التعليمية كما يحددها محسن علي عطية (2015) استحضار احتياجات المتعلمين والمجتمع، وجميع المستفيدين من خدمة التعليم داخل المؤسسات التعليمية وخارجها، ورغباتهم، ووضع البرامج التعليمية وفق معايير تضمن الاستجابة لتلك الحاجات والرغبات بدرجة تتلاءم وتوقعات المستفدين وتنال رضاهم، وتكون هذه البرامج خاضعة للتحسين والتطوير المستمرين.[14]

يتطلب من أي جهة معنية قياس الجودة من خلال وضع معايير أو شروط تحدد من خلالها البيانات التي تعكس الجودة في البرنامج لذلك يعرف المعهد الأمريكي للمعايير American Institute (2011) National Standards المعايير على إنها المستوى الذي وضعته الهيئة المسئولة بشان هدف معين يراد الوصول اليه، ويحقق القدر المطلوب من الجودة. [15]

أما على مستوى البرامج التعليمية يكاد يتفق كل من همام سمير حمادنة (2014) [16]، وعمومن رمضان (2005) [17] و محمد أبو الفتوح حامد خليل (2011) [18] ان معايير تقييم جودة البرامج إعداد المعلم هي مجموعة الشروط والمواصفات التي يجب توافرها في العناصر التالية: أهداف البرنامج، و المحتوى، وطرق

التدريس، والتقييم، وهيئة التدريس، والوسائل التعليمية والتربية العملية، والتجهيزات المادية والمباني، حيث تؤدي الى مخرجات تتصف بالجودة وتعمل على تلبية احتياجات المستفدين من البرنامج.

لذلك ترتبط المعايير بجملة من المؤشرات التي تعكس الجودة في كل معيار من معايير تقييم لجودة، وعليه تعتبر المؤشرات حسب المركز الفيدرالي لجودة التعليم العالي بالولايات المتحدة: المؤشر ما يمكن استخدامه للتمييز بين الجيد وغير الجيد في العملية التعليمية. (19)

6- **معايير الجودة في البرامج التكوينية:** تتمثل المعايير في جملة المؤشرات التي تتعلق بكل معيار من المعايير التالية: الاحتياجات التدريبية، والأهداف، والمحتوى، وطرائق التدريس، و هيئة التدريس، والوسائل التعليمية ومصادر التعلم، و التقييم والتربص التطبيقي، والمتابعة للبرنامج، وقياس فعالية البرنامج.

سنحاول في الدراسة الحالية سنحاول تبيان مؤشرات تحقيق الجودة لكل المعايير السابقة الذكر والتركيز على المواصفات الخاصة بكل معيار ومقارنتها مع ما تضمنه برامج تكوين المكونين في قطاع التكوين والتعليم المهنيين ومناقشتها في ظل الأدبيات النظرية و الدراسات السابقة.

6-1-المعيار الأول : الاحتياجات التدريبية: تعد الاحتياجات التدريبية الخطوة الأولى والأساسية في أي برنامج تدريبي حسب ما أشار إليه يوسف الطائي (2006) أنها الأداة الرئيسية التي يمكن من خلالها تحديد مجالات تطوير و تنمية أداء الفرد من خلال العملية(20) ، حيث تمكننا الاحتياجات التدريبية من ضبط مجموعة المعلومات ، والمهارات ، والخبرات ، والسلوكات، والاداءات اللازم احداثها في المعلم سواء المبتدئ او العامل لمواكبة التغيرات والوصول الى الاداء المطلوب للوظيفة او تطويره.

في هذا الصدد يشير ضياء زاهر 2010 عن إسهامات الاحتياجات التدريبية في كونها تساهم في وضع تصور عام للبرنامج التكويني (التدريبي) فالاحتياجات نقطة الانطلاق في عملية التدريب، وتوجه الإمكانات والإجراءات التنفيذية لبرنامج التدريب والتنمية المهنية بما يكفل الأهداف المرجوة. (21)

طبقا للبرنامج المخصص للتكوين البيداغوجي لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين لم تحدد الاحتياجات التدريبية في البرنامج ما اكده القرار 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه(22)، دون ضبط او تحديد لإجراءات تحديد الاحتياجات التدريبية.

في حين تم تشخيص الاحتياجات التدريبية بمبادرة من الفريق البيداغوجي (نواب مدراء هندسة التكوين، مختصين بيداغوجيين مكوني المكونين للمعاهد الجهوية الست) من طرف مديرية الدراسات والبحث، وهي نسخة مصادق عليها سنة 2014، حيث تم التشخيص تبعا لدروس السداسي الأول للسنة الدراسية 2013، كشف التشخيص عن فروق بين معاهد تكوين المكونين الست (IFEP)المنفذة لبرنامج التكوين البيداغوجي للأساتذة المتخصصين. (23)

جاءت الاحتياجات على النحو التالي:

1- الاعتماد على أدوات لتنظيم التكوين البيداغوجي للأساتذة المتخصصين

2- المصداقية في نتائج التكوين البيداغوجي لاساتذة المتخصصين، البرنامج الحالي يستند على مرجعين تنظيمين (وزارين):

✍ المادة 4 والمادة 5 من القرار الوزاري المؤرخ في 4 جمادى الأولى 1431 الموافق ل 19 ابريل 2010 والمحدد للنظام الداخلي لمعاهد التكوين والتعليم المهنيين.

✍ القرار 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه.

إن المتمعن في الاحتياجات التدريبية المذكورة سابقا يجد أنها بعيد نوعا ولا علاقة لها بما يحتاجه الأستاذ من معارف ومهارات واتجاهات وقيم التي سيرتكز عليها البرنامج، او تكون المنطلق في تصميم البرنامج للتكوين الموجه للأساتذة، كما نجد ان الاحتياجات التدريبية يكون لها الأثر الفعال في تحديد البرامج وتوجيهها في حال اشتراك المكونين و المشاركين في التخطيط للبرامج، ليس فقط من تلقوا البرنامج لأنها احتياجات تدريبية تحتاج الى استكمال ببرامج تحسين مستوى، وهذا ما أشار إليه **محمد باردة** [24] **أن** شرط نجاح أي مشروع تربوي للتحديث أو التطوير يعود الى مدى انخراط المدرسين فيه وحماسهم له، ولن يتم ذلك إلا بواسطة إشراكهم عند التخطيط ، حيث تتطلب خطط التكوين إتباع خطوات منسجمة من تحديد حاجات الفئات المستهدفة وبلورة أهداف التكوين ثم طبيعته (معرفية – تربوية – مهنية).

في هذا الصدد يشير شقبوقة (2001) أن هناك عدة حالات تظهر فيها الحاجة الى تحديد الاحتياجات التدريبية منها: المستخدمون الجدد حيث يتم إعطاؤهم معلومات عن أسلوب العمل والعمل المطلوب منهم، ثانيا مشاكل الأداء التي تكتشف من خلال المراقبة والمشاهدة، ثالثا استحداث طرق وأساليب جديدة في العمل، رابعا تنويع المهارات خصوصا الترقية، وخامسا تحسين وتطور النظام.[25]

من خلال ما تقدم على يبدو معيار الاحتياجات التدريبية غير محقق، نظرا لأنه لم يتم إشراك الأساتذة بداية تكوينهم في التخطيط للبرنامج التكويني، فالاحتياجات التدريبية متعلقة بالأستاذ الذي سيتم تكوينه، من الجدد، مما يجعل الأهداف تتماشى والاحتياجات التدريبية لديهم.

هذا ما أكدته دراسة عز الدين عمرية (2003) من خلال التحقق من مدى استجابة هذا التكوين لحاجات الأساتذة توصلت الى أن البرنامج غير مجدد ولا منسجم مع منصب العمل ولا احتياجات الأساتذة.[26]

6-2- المعيار الثاني: أهداف البرنامج تعتبر الأهداف لأي برنامج تكويني الواجهة أو الصفحة التعريفية بأهمية البرنامج المقدم، من خلال تبيان العناصر التي سيركز عليها التكوين في مختلف المجالات (المعارف،

المهارات، الاتجاهات)، و تقاس جودة الأهداف من خلال مجموعة المؤشرات التي يجب ان تتوفر في هذا المعيار.

حيث حدد **همام سمير حمادنة (2014)** في تقييمه لجودة الأهداف جملة المواصفات في النقاط التالية: وجود أهداف واضحة ومعلنة ، وتتفرع عنها أهداف تفصيلية، وتحدد نتائج التعلم المتوقعة من المتكونين، وتشمل جميع المجالات (المعرفية، الوجدانية، المهارية)، ومشتقة من احتياجات المعنيين بالتكوين. [27]، ويضيف **احمد كنعان** (2009) على المواصفات السابقة ان تكون الأهداف تتسم بالشمولية، وان تكون معلومة للهيئة التدريسية، والمجتمع، قابلة للقياس.[28]

كما تشير **سوسن شاكر الجبلي (2011**) انه يجب ان نناقش تقييم معيار الأهداف كحد أدنى من خلال ما يلي :

أ) وجود هدف عام للبرنامج موثق ومعمم على الجهات المعنية يحدد المعارف والمهارات.
ب) وجود أهداف تفصيلية موثقة ومعممة تنبثق عن الهدف العام للبرنامج.
ت) انسجام أهداف البرنامج مع السياسة العامة للمؤسسة التعليمية. [29]

في حين سطرت **جامعة جنيف** معيار الأهداف كبعد من أبعاد الجودة للبرامج التكوينية مبرزة أن أثناء تقييمه يجب تحديد ما إن كانت صياغة كل أهداف التكوين لكل عملية التعلم (البرنامج، الوحدة، الدروس)، وان تتجه الأهداف نحو المهارات التي سيتم الحصول عليها، وصياغتها في مخرجات التعلم و أن تكون معلنة لكلا أطراف العملية التكوينية، تشمل مختلف مستويات التفكير (المعرفة، الفهم، التركيب، التطبيق..الخ) أن تكون واضحة. [30].

بالرجوع إلى أهدف برنامج التكوين البيداغوجي لمعاهد التكوين المهني، لا بد من الإشارة انه في بداية التكوين لم تحدد أو تضبط الأهداف ضمن الدليل البيداغوجي، هذا ما يؤكده القرار 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه [31] ، حيث لم تذكر الأهداف التكوينية ضمن هذا القرار ، وإنما مواد تتعلق بالمدة وأخرى عن كيفية التقييم وتنظيم التكوين، وكذا المحتوى البيداغوجي.

لكن ضبطت أهداف البرنامج البيداغوجي لتكوين الأساتذة المتخصصين بعد مبادرة الفريق البيداغوجي في النسخة المصادق عليها (2014) ضمن برنامج التكوين البيداغوجي للأساتذة المتخصصين في التكوين والتعليم المهنيين التوظيف الخارجي [32] ويشير الدليل انه في نهاية مسار تكوين الأساتذة المتخصصين في التكوين والتعليم المهنيين اللذين تم توظيفهم على أساس الشهادة يتمكن هؤلاء من:

- أن يصبحوا إطارات مكونة في النظام التربوي لوزارة التكوين والتعليم المهنيين.
- التحكم في الجوانب السيكولوجية والبيداغوجية لأي فوج خلال فترة التكوين.
- ينشط حصة تكوينية حسب القواعد المصادق عليها من طرف النظام التربوي الجزائري.

إن المقارنة بين أهداف البرنامج الحالي لتكوين أساتذة المتخصصين في التكوين والتعليم المهنيين، وبين المعايير المتعارف عليها لضمان جودة التكوين البيداغوجي، تشير الى غياب المعايير ضمن أهداف البرنامج، فهي اهداف عامة لا تستوفي الشروط، إذ يحتاج البرنامج هدف عام الذي يعتبر هدف استراتيجي لتنمية الأداء البيداغوجي أو يعبر عن الارتقاء بمستوى الأداء للأساتذة تنشق عنه أهداف تفصيلية التي تعتبر ترجمة للهدف العام وهي كذلك المعايير التي يمكن القياس بها نجاح هذه الأهداف في مختلف المجالات المعرفية، المهارية، و اتجاهات الأساتذة.

6-3- المعيار الثالث: المحتوى

يرتبط المحتوى لأي برنامج بضبط الأهداف واتصافها بجملة من المواصفات، و هذا ما أشار إليه **جيلالي بوحمامة** (2005) الاختيار السليم للمحتوى لا يمكن أن يتم إلا في ضوء أهداف دقيقة واضحة ومحددة تشمل المعلومات والمعارف والمهارات والاتجاهات والقيم، كما يفيد تحديد الأهداف في عملية التقويم بتحديد مدى فعالية عملية التكوين.[33]

لا يكفي وضع أهداف طموحة لتحقيق جودة البرامج التكوينية، بل لا بد من الترجمة الصحيحة للأهداف الى محتوى وتحديد الآليات التي تساعد الاختيار والتنفيذ للمحتوى، وتتحدد جودته مثل ما أشار همام حمادنة(2014)[34] مواكبة محتوى البرنامج المعرفة المعاصرة في المجال التربوي، وان يراعي الفروق الفردية، و يلبي احتياجات المتكونين، ويعكس المحتوى أهداف البرنامج بشكل واضح. ويراعي التوازن بين الجانب النظري والجانب التطبيقي.

كما يشير **أحمد علي كنعان (2009)** أن جودة محتوى البرنامج ترتبط بمراعاة اختيار المحتوى المناسب لاحتياجات المتكونين والمحتوى كل متكامل ويراعي الفروق الفردية، والتوازن بين الخبرات النظرية والعملية، أن يسهم في إكساب المتكونين اتجاهات وقيم ايجابية، ينمي الاتجاهات الايجابية نحو المهنة، بالإضافة إلى المحتوى موجه على أساس ما يواجه الأستاذ في عمله الميداني، و يتيح الفرصة للاحتكاك المبكر بعملية التدريس، كما يكون المحتوى متسق ومناسب للأهداف، ويقدم توصيف للمواد والأنشطة المعروضة فيه.[35]

كما يجب أن يتوفر في أي محتوى برنامج تكويني العناصر الأساسية التي يقوم عليها التكوين على حد ذكر **بسام غانم** (2010) [36] في العناصر التالية:

- الإعداد النظري: إعداده إعدادا مناسبا يأخذ بعين الاعتبار جميع المواد في التربية وعلم النفس التي تساعد المعلم على فهم المتعلم والتعامل معه بأساليب صحيحة.

- الإعداد الوظيفي: كل ما يخص التدريس بصورة خاصة، كالتعامل داخل الفصل وخارجه، مهارات التعزيز، التشجيع، إدارة الصف، أساليب التدريس، الوسائل التعليمية.

- التدريب العملي: يساهم هذا التدريب في فعالية البرنامج من خلال قدرة المعلم على أداء وظائفه وانجاز المهام بطريقة ميدانية داخل غرفة الصف.

تشترط جامعة جنيف Universieté de GENEVE (2015) في جودة المحتوى أن يكون اختيار وتنظيم المحتوى مع الحرص على الربط بين النظري والتطبيقي، كما تشترط تحديث المحتوى بشكل منتظم وفقا لتطورات العلوم، أو أعمال المجموعات البحثية المشاركة في تطوير البرنامج والممارسات المهنية، توزيع المحتويات بالتكامل بين الوحدات والدروس.[37]

بالرجوع إلى محتوى البرنامج البيداغوجي فقد شهد تعديلات عدة، حيث وفقا للقرار الوزاري 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه. نجد ان البرنامج يتضمن شكلين التكوين البيداغوجي النظري، والتربص التطبيقي، ويتضمن التكوين النظري 12 مقياسا بحجم ساعي 432 سا[38]، وعنونت المقاييس على النحو التالي:

الجدول (01) يوضح محتوى البرنامج البيداغوجي لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين.

الرقم	المقاييس	الحجم الساعي	المعامل
01	المبادئ العامة للتكوين والتعليم المهنيين	18 ساعة	1
02	بيداغوجية عامة	72 ساعة	2
03	بيداغوجية تطبيقية	90 ساعة	3
04	تحضير ومحاكمة حصة تعليمية	48 ساعة	3
05	استغلال برامج التكوين و الدليل التقني والبيداغوجي للمتربصين	30 ساعة	2
06	التسيير البيداغوجي	18 ساعة	2
07	التحرير الإداري	18 ساعة	1
08	النظافة، الامن والبيئة	24 ساعة	1
09	مدخل للإعلام الآلي	30 ساعة	1
10	التكفل بالفئات الخاصة	24 ساعة	1
11	تركيب وصيانة التجهيزات	18 ساعة	1
12	تكنولوجيا الإعلام والاتصال	18 ساعة	1

	الحجم الساعي	438 ساعة	

المصدر : الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، (2011): قرار وزاري رقم 35 المؤرخ في 31 مارس.

وفي سنة 2014 تم تعديل المحتوى ضمن دليل التكوين البيداغوجي للأساتذة المتخصصين من حيث عدد المقاييس وكذا التسمية وخصص البرنامج المعدل للأساتذة المتخصصين (PSFEP) ، اذ تضمن المحتوى 13 مقياسا [39] ، والجدول التالي يوضح المحتوى المعدل:

الجدول (02) يوضح محتوى البرنامج التكويني البيداغوجي في النسخة المعدلة 2014

الرقم	المقاييس	الحجم الساع	المعامل
01	تقديم عن قطاع التكوين والتعليم المهنيين	90 ساعة	1
02	المهام التقنية والإدارية		1
03	بيداغوجية عامة		2
04	بيداغوجية تطبيقية	126 ساعة	2
05	استغلال برامج التكوين المصممة وفقا للمقاربة بالكفاءات		2
06	تحضير ومحاكمة حصة تعليمية	41 ساعة	2
07	بيداغوجية المشروع و المشروع البيداغوجي	176 ساعة	1
08	التكفل بالفئات الخاصة		1
09	منهجية اعداد دليل المتربصين		1
10	منهجية البحث البيداغوجي		1
11	مبادئ في الإعلام الآلي		1
12	تكنولوجيا الإعلام والاتصال		1
13	الأمن والسلامة		1
	الحجم الساعي	442 ساعة	17

Source : institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2014)

أما في يخص أساتذة التكوين المهني (PFP) فخصص لهم برنامج خاص بهم في النسخة نوفمبر 2015[40]، والمتضمن البرنامج المحدد في القرار 35 المؤرخ في مارس 2011 مع بعض التعديلات على مستوى تسمية المقياس، والمحتوى، والحجم الساعي.

الجدول (03) يوضح محتوى البرنامج البيداغوجي لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين.

الرقم	المقاييس	الحجم الساعي	المعامل
01	تقديم قطاع التكوين والتعليم المهنيين	12 ساعة	//
02	بيداغوجية عامة	84 ساعة	3

03	بيداغوجية تطبيقية	81 ساعة	3
04	تحضير ومحاكمة حصة تعليمية	58 ساعة	2
05	استغلال برامج التكوين	78 ساعة	2
06	منهجية اعداد الدليل التقني للمتربصين	20ساعة	1
07	التسيير البيداغوجي	18 ساعة	1
08	التحرير الإداري	18 ساعة	1
09	النظافة، الأمن والبيئة	18 ساعة	1
10	مبادئ الإعلام الآلي	30 ساعة	1
11	التكفل بالفئات الخاصة	24 ساعة	1
12	تركيب وصيانة التجهيزات	18 ساعة	1
13	تكنولوجيا الإعلام والاتصال	22 ساعة	1
	الحجم الساعي	438 ساعة	

source : institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2015)

من خلال الجدول أعلاه نجد أن المحتوى في برنامج التكوين البيداغوجي التحضيري ينوع بين العناصر المذكورة سابقا من إعداد نظري وتربوي وعملي، لكن التنوع غير كاف وإنما التكامل بين عناصر المحتوى ما يحقق الجودة في البرنامج ، وهو ما يحقق التكوين الفعال، فالأستاذ المتكون يحمل في جعبته فقط مادة التخصص. التحاقه بهذا البرنامج بهدف إكسابه القدرة على ترجمة ما يحمله من معارف ومهارات وخبرات في تخصصه إلى المتعلم . من خلال تدريبه على مهارات التدريس من تخطيط وتنفيذ وتقويم، وكيفية إدارة الصف وضبطه . هذا التكامل ما لم نلحظه في محتويات البرنامج الحالي، بحيث لا يقدم للأستاذ المتكون ما يعرف بمهارات التدريس (تخطيط، وتنفيذ، وتقويم، وتفاعل صفي) التي تعد الكفايات التدريسية، إنما يقدم له بعض المهارات الجزئية التي تساعد في تنفيذ مهارات التدريس كتحضير الدرس، الاتصال البيداغوجي، الاغراض البيداغوجية، دينامكية الجماعة التقييم، وهي مهارات تندرج ضمن مهارات التدريس.

مما يبدو عليه انها مهارات منفصلة في حال تقديمها كمادة منفصلة للأستاذ المكون ، يجعله مشوش في كيفية الربط بينها وجعلها في مفهوم واحد، فلو قدمت في صورة واحدة كمفهوم عام وتتفرع إلى مهارات يتدرب عليها جزئيا، تكون اكتر تقبلا وفهما واستيعابا للعمل بها، فالانتقال من العام إلى الخاص من أهم مبادئ نجاح التكوين.

كذلك ما يميز البرنامج الحالي أنه لا يخلو من الجوانب الثقافية في التكوين، إذ نجد التعريف بقطاع التكوين، وكذلك الإعلام الآلي، وتكنولوجيا الإعلام والاتصال. هي مقاييس تزيد من المستوى الثقافي

للأستاذ المتكون، وكذا تفتحا ذهنيا يفوق مستوى التخصص الذي يتقنه ، كأن يفهم طبيعة القطاع الذي يعمل به، وتوظيف وسائل التكنولوجيا والاتصال في مادته.

إضافة إلى عدد من المقاييس التقنية التي لها علاقة بطبيعة العمل منها: إعداد وتحيين البرامج، وإعداد الدليل التقني و تركيب وصيانة التجهيزات، ومنهجية البحث، والمهام التقنية والإدارية.

كل ما يقدم في هذا المحتوى التكويني يظهر حقيقة التنوع والاهتمام بجميع العناصر التربوية والعملية والنظرية، لكن قد يكون هناك نوع من اللاربط في عرض وتبيان المحتوى ، فلوم جمعت المواد التي لها نقطة اشتراك سواء بيداغوجية، أو تقنية، أو منهجية في وحدة واحدة تتفرع منها أو تحققها عدد من المواد. يكون أكثر وضوحا لكلا أطراف العملية التكوينية دون الاستفسارات غير المباشرة عن فائدة كل مقياس او ما ضرورة المقياس من طرف الاستاذ المكون، كما ويقل عدد المقاييس المعروضة، وتكون أكثر إدراكا من قبل الاستاذ المكون المتربص.

ما لم نلحظه في محتوى البرنامج الاهتمام بجانب الاتجاهات، التي تساهم في توفير اعتقادات للمتدربين من المثل والقيم التي يحب توفرها في العمل، والى تغيير ما يعتقدون فيه، أو تعديل تفضيلاتهم، أو تقبل أراء جديدة ويتم ذلك من خلال الصياغة الملائمة للجانب المعرفي، وبعث ذلك في الجانب التطبيقي، مثل أخلاقيات المهنة وكذلك تشريعات العمل فهي تعطي مفاهيم ومعارف تزيد من معتقدات وقيم الأستاذ المتكون التي تظهر في ميدان العمل في سلوكاته.

ما يؤكده **ضياء زاهر** (2011) من أهم الاعتبارات التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في ضبط المحتوى، تحتوي كل وحدة تدريبية على مكونات ثلاث وقد تقتصر على واحد منها وهي (المعارف، المهارات والاتجاهات. [41]

بشكل عام يحتاج البرنامج المقدم الى أستاذ التكوين والتعليم المهنيين الى مراجعة وتطوير على مستوى المحتوى بمسايرة التطورات المعرفية، وكذلك احترام أهم المعايير للجودة من حيث ضمان التكامل بين العناصر المقدمة في البرنامج، وان يعكس أهداف البرنامج، ويضمن التوازن بين الجانب النظري والتطبيقي.

ما أكدته دراسة عز الدين عمرية (2003) من خلال التحقق من مدى استجابة هذا التكوين لحاجات الأساتذة توصلت الى أن البرنامج غير مجدد ولا منسجم مع منصب العمل. [42]

كما أكدت دراسة صالح صالحي وأمال شوتري (2006)حول التكوين المهني بين خصوصية العرض ومنطق الطلب، ان هناك خلل وجمود تكوين المكونين، إذ لم تسجل أي زيادة في معاهد التكوين المهني التي بقيت لعقود من الزمن ولحد الساعة ستة معاهد.[43]

في نفس السياق تشير دراسة السنبل (2004) حول جودة المحتوى أن برامج تأهيل المعلمين وإعدادهم في الوطن العربي بأمس الحاجة إلى بناء منظومات مضبوطة الجودة من حيث المقررات.[44]

6-1- **المعيار الرابع : طرائق التدريس** بعد ضبط المحتوى في صورته النهائية، يحتاج الى الطريقة التي تُسهل وصوله الى المتعلم، بحيث تتلاءم مع طبيعة المادة وكذلك مع مستوى المتعلم من حيث قدرتها على إثارة انتباهه وتنشيط أفكاره.

في هذا الصدد يقدم مصطفى عبد السلام(2007) تعريفا لطريقة التدريس بأنها كل ما يتبعه المعلم من إجراءات وخطوات وتحركات متسلسلة متتالية مترابطة لتنظيم المعلومات والمواقف والخبرات التربوية لتحقيق الهدف أو الأهداف المحددة من الدرس، ما يجعل التنوع في الطرائق يحقق الأهداف[45]، و يحدد حسن محمد حسنين (2003) طرائق التدريس في (تمارين فردية وجماعية – مجموعات عمل – المناقشة الموجهة – الشراكة – المسابقات – قوائم المهمات الذاتية – العصف الذهني – واجبات منزلية)[46] ، ويضيف خالد ابو شعيرة (2008) العروض العملية، التعلم الفردي ، النمذجة ، التعلم التعاوني، التدريس المصغر.[47]

اما خليل شبر وجامل وابو زيد (2014) فيصنفها الى طريقة الإلقاء والمحاضرة، وطريقة المناقشة، وطريقة الحوار (السقراطية)، وطريقة العرض العملي، وطريقة القصة في التدريس، وطريقة حل المشكل، وطريقة المشروعات، وطريقة التعلم باللعب، و الزيارات الميدانية، والتعلم التعاوني، وطريقة العصف الذهني، والتعلم بالاستقصاء.[48]

يجب أن تتصف طرائق التدريس بمجموعة من المواصفات لضمان جودة التكوين حددها بشير همام حمادنة (2014) في :

مناسبة طرق التدريس لعدد المتكونين، وتحقق الأهداف المحددة لها، واستخدام طرق متنوعة متجددة، وتوظيف الوسائل التكنولوجية الحديثة في التدريس [49]

في حين تركز جامعة جنيف في جودة البرامج على معيار طرائق التدريس ما يلي:

طرق التدريس والوسائل التعليمية ذات الصلة بأهداف التكوين وتكون متنوعة ومبتكرة، وطرق التدريس تأخذ بعين الاعتبار تنوع كفاءات المشاركين (الفروق الفردية) ووضعياتهم المهنية، أن يكون محور العملية هو المتعلم ، كما تشجع الطرائق التدريسية على المشاركة الفعالة والتعلم الذاتي. ولكل وحدة (مقياس) طرق تدريس وأساليب ووسائل تعليمية.[50]

لم تحدد طرائق التدريس او التكوين على مستوى القرار الوزاري 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه.

اما على مستوى مبادرة الفريق البيداغوجي تظهر طرائق التدريس في دليل التكوين النسخة 2014 الموجهة للاساتذة المتخصصيين ذُكرت طرائق التدريس على شكل تقنيات للتنشيط في برنامج التكوين

البيداغوجي للأساتذة المتخصصين فقط، معتمدين على نموذج كولب KOLB موصى به في كل المقاييس المخصصة لتكوين الأساتذة المتخصصين (PFSEP) وتتمثل الأساليب كما ذكرت في البرنامج[51] على الشكل التالي:

1- التجربة الحسية: ممارسة تمهيدية للمشاركين لتحديد أفكارهم أو الفهم حول للموضوع مثل: (العصف الذهني، تجارب شخصية، نشاطات الترتيب) من بين النشاطات التشاركية مثل: (المحاكاة، دراسة الحالة، لعب الأدوار، المناقشة)

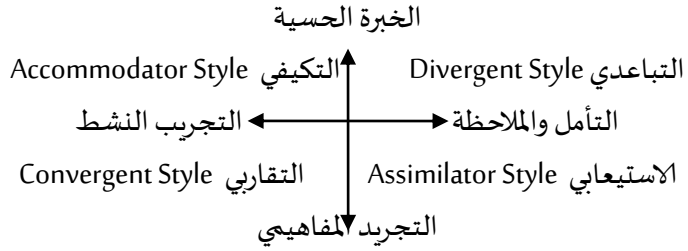
2- الملاحظة والتأمل: التأمل العام و المناقشة ابتداء من النشاط (نشاط جماعي، مناقشة ثنائية أسئلة /أجوبة)

3- نظريات ومفاهيم: تحليل المفاهيم/ النماذج/ المبادئ الأساسية المشاركة أو وضع إطار مفاهيمي مثل: (على شكل عروض موجزة، وثيقة دعم، فيديو)

4- التطبيق و التقويم : التجربة او التطبيق (أثناء أو بعد الورشة) للمفاهيم، والكفاءات، والمواقف المتطورة اثناء التكوين، في الأخير الحوصلة، والإعادة، والتقويم.

لكن يجب التوضيح أن طرائق التنشيط مستمدة من أنماط التعلم لنموذج كولب Kolb احد أساليب التعلم المعتمدة على نظرية التعلم التجريبي Expériential learning theory (ELT)، حيث توفر هذه النظرية نموذجا شاملا عن عملية التعلم، ونموذج متعدد السنوات في تنمية الكبار، وهي تؤكد على الدور الرئيسي الذي تلعبه التجربة في التعلم، وهي تتميز عن النظريات الأخرى مثل نظرية التعلم المعرفي التي تميل الى التأكيد على الإدراك ، وكذا نظرية التعلم السلوكي التي تنكر اي دور للتجربة الذاتية في التعلم [52]

تعد عناصر نموذج كولب ذات اقطاب ثنائية على خطين متصلين كما هو موضح في الشكل التالي:



الشكل (01) يوضح أنماط التعلم عند كولب.

يوضح الشكل أن المتعلم يميل الى تطوير أدائه في احد الأرباع الأربعة، والتي تمثل الجزء الداخلي للخطين المتصلين، حيث يحدد بعدا كيفية ادراك المعلومات ومعالجته للمعلومات أسلوب التعلم للفرد، فتفضيل الفرد للخبرة الحسية تتضمن تفضيله للمشاعر بالمقارنة مع التفكير، والنزعة الى استخدام مهاراته الحدسية من إحساس بما يدركه الفرد، وتفضيله للملاحظة التاملية تتضمن ملاحظة حذرة

كطريقة لفهم ما تعنيه الخبرة، كما يظهر الفرد اهتماما للكيفية التي تحدث بها الاشياء بشكل واقعي بالمقارنة مع ما سيقوم به، أي التأمل بالمقارنة مع العمل، كما أن تفضيل الفرد للتحليل المفاهيمي المجرد يتضمن ميلا نحو التفكير المنطقي أكثر من ميله نحو المشاعر، وتفضيل الفرد للتجريب يتضمن الاهتمام بالتطبيق العملي والتعلم من خلال المحاولة والخطأ.[53]

لكن الأمر الذي لم يؤخذ بعين الاعتبار حين اعتمد على هذا النموذج للتعلم، أن هناك عوامل تساعد في تشكل والتأثير في أنماط التعلم، ما حدده كلوب klob.D (1999) في طرحه لأنماط التعلم، حيث أشار أن هناك خمسة مستويات معينة من السلوك تؤثر في المستويات الأربعة للتعلم وهي: (أنواع الشخصية، التخصص العلمي، الوظيفة المهنية، الدور الوظيفي، الكفاءات التكيفية [54]

سنحاول وبتصرف تفسير تأثير المستويات الخمس التي ذكرها كلوب klob (1999) على أنماط التعلم وكيفية الاستفادة منها:

✍ نوع الشخصية: .Personality Types تنتج أنماط التعلم من الطرق المفضلة للأفراد على التكيف مع العالم مثلا الانبساطي

✍ التخصص العلمي Educational Specialization : تتنوع تخصصات الأفراد بتنوع العلم الذي يدرسونه فقد يختار الفرد التاريخ، أو الفنون، أو علم النفس، اللغات وهي علوم تميل اغلبها على اعتماد نمط التعلم التباعدي في حين يوجد تخصصات أكثر تجريدا مثل العلوم الفيزيائية، الهندسية التي تميل الى نمط التعلم التقاربي.

✍ اختيار الخلفية المهنية: Professional Career Choice يتأثر التعلم وأنماطه بطبيعة المهن، فاختيار المهنية ليس فقط عرض الفرد تخصصه العلمي في بيئة العمل، ولكنه ينطوي على الالتزام بمشكلة المهنة عامة، مثل الخدمة الاجتماعية، فالفرد يصبح عضوا في مرجعية من أقرانهم اللذين يتقاسمون العقلية المهنية، ومجموعة من القيم والمعتقدات حول كيف ينبغي أن يتصرف مهنيا، هذا التوجه المهني جعل أنماط التعلم تختلف من خلال العادات المكتسبة في التدريب المهني.

✍ الدور الوظيفي الحالي .Current Job Role : متطلبات المهنة والضغط المهني تشكل التوجه التكيفي للمهنة فطبيعة الوظائف والمهام التي تندرج ضمنها تجعل أنماط التعلم متباينة، فمنها ما يتطلب مهارات تنفيذية يتطلب نمطا تكيفيا في التعلم، في حين المهام التي تتطلب مهارات شخصية القائمة على العلاقات الشخصية والتواصل فتتطلب أنماط تعلم تباعدي، أما المهام التي تتطلب مهارات التقنية وحل المشكلات فتميل الى نمط التعلم التقاربي، كما تعتمد مهام التخطيط والبحوث على نمط التعلم الاستيعابي.

✍ كفاءات التكيف: Adaptive competencies وهو أكثر العوامل وساطة في تشكل أنماط التعلم، وهو المهام المحددة أو مشاكل الفرد أثناء عمله، فكل مهمة تواجهه تتطلب مجموعة من المهارات المتناظرة من اجل الأداء الفعال وتؤدي المطابقة الفعالة لمطالب المهام والمهارات الشخصية الى الكفاءة التكيفية،

فمهارات القيادة والمبادرة تتطلب نمط التعلم التباعدي، في حين اسلوب التعلم الاستعابي مرتبط بتحليل المعلومات والبناء النظري، ونمط التعلم التقاربي مرتبط بمهارات التحليل الكمي واستخدام التكنولوجيا ووضع الاهداف.[55]

كما قدم كلوب (klob) ملخصا عن تأثير نمط التعلم بالمستويات الخمس السابقة الذكر ملخصا إياها في الجدول التالي[56]:

الجدول رقم (04) يوضح العلاقة بين أنماط التعلم و المستويات الخمس للسلوك

أنماط التعلم مستوى السلوك	النمط التباعدي	النمط الاستعابي	النمط التقاربي	النمط التكيفي
نوع الشخصية	الانطوائي	الانطوائي	الانبساطي	الانبساطي
التخصص العلمي	الفنون، الانجليزية، التاريخ، علم النفس..	الاقتصاد، الرياضيات، علم الاجتماع، الكيمياء	هندسة، فيزياء، علوم	إدارة أعمال
الخلفية المهنية	الخدمة الاجتماعية، الفنون، الاتصال	علوم، ابحاث، معلومات	تكنولوجيا، اقتصاد، البيئة	منظمات الأعمال
الدور الوظيفي	الوظائف شخصية	وظائف المعلومات	الوظائف التقنية	الوظائف التنفيذية
كفاءات التكيف	المهارات التقييمية	مهارات التفكير	مهارات اتخاذ القرار	مهارات العمل

Resource: Kolb .D,1999 :

بعد العرض التوضيحي لنموذج كلوب klob في أنماط التعلم، وبالرجوع الى البرنامج التكويني للأساتذة المتخصصين الموجه الى الأساتذة ذوي الرتبة PSFEP1/ PSFEP2 بمختلف التخصصات واساتذة التكوين المهني PSFEP ، التي تتلقى التكوين في فوج واحد وبتنوع التخصصات، يتبادر في أذهاننا السؤال حول كيفية ضبط أساليب التنشيط في هذا الزخم المتنوع للتخصصات والشخصيات والكفاءات التكيفية مما قد يجعل الطريقة التدريسية لا تحقق الهدف من الدرس.

وباستطلاع أساليب التعلم نجد تصنيف دون ودون The Dunn's Learning Style Inventory model وهي من النظريات الأكثر شعبية واستخداما حيث يعرف The Dunns أسلوب التعلم انه الطريقة التي يركز فيها الفرد على العمليات والمهارات الاكاديمية الجدية والصعبة لتخزينها وتذكرها. وأنماط التعلم هي

المزيج بين العديد من الخصائص البيولوجية والتجريبية المفروضة التي تساهم في التركيز، كل بطريقتها الخاصة وكلها معا كوحدة، فأسلوب التعلم هو أكثر من مجرد إن كان المتعلم يتذكر المعلومات الجديدة والصعبة وبسهولة من خلال السمع، والرؤية، والقراءة ، والكتابة، والتوضيح، واللفظبة، والنشاط، فالقوة الإدراكية هي جزء واحد فقط من أسلوب التعلم، بل هو أكثر من إن كان الفرد يعالج المعلومات بالتتابع التحليلي، أو بالطريقة الشاملة، فالمعالجة هي مجرد عنصر واحد من نمط التعلم، ومن المهم أن ندرك أن نمط التعلم ليس فقط السلوك الفردي، ولكن دراسة كل ميول لكل فرد نحو التعلم، فهو نموذج يأخذ في عين الاعتبار مختلف البيئات [57]

يعتقد دون ودون Dunn & Dunn أن تطابق أساليب التدريس مع أساليب التعلم يؤدي الى تحسن تعلم الأفراد، وقد اهتم بعدة عوامل متداخلة ومتفاعلة، تدخل في تمط التعلم وتتوزع الى أربع مجالات هي:

1- الحاجات أو المتغيرات البيئية: كالصوت والحرارة والضوء وتصميم الأثاث والمقاعد.

2- الحاجات أو المتغيرات الانفعالية: وتتضمن الدافعية والمسؤولية والمثابرة والتصميم.

3- الحاجات أو المتغيرات الجسمية: وستضمن الطعام والشراب والحركة والوقت والوضع المفضل من قبل الفرد (سمعي، بصري، حركي)

4- المتغيرات الاجتماعية: وتشمل مجموعات التعلم وأشكال السلطة.

وقسم التعلم حسب ميول الأفراد الى الأنماط التالية (الشمولي، التحليلي، التأملي، الحركي النشط) وركز أن عناصر أسلوب التدريس يمكن تكييفها لتفضيل المتعلم على التخطيط التعليمي، ومجموعات الطلبة، وتصميم الغرفة الصفية، وبيئة المدرسة، ومميزات التدريس، وأساليب التدريس، وأساليب التقييم. [58]

باعتبار البرنامج التكويني تحضيري لتدريب الأستاذ على مهارات التدريس من جهة، وكذا كيفية تصميم البرامج وفقا للمقاربة بالكفاءات، وكيفية التعامل الإداري والتقني مع بيئة العمل، وتكيف حاجات المتعلمين من جهة اخرى، يحتاج البرنامج الى التنويع في طرائق التدريس بما يتوافق مع اهداف الدرس، وليس حسب انماط التعلم لان هناك عوامل متعددة لا تسمح بالاعتماد على هذا النموذج، كما لابد الاخذ بعين الاعتبار ان المحاكاة للدروس تحتاج الى تجزئة للمهارات التدريسية وتدريبها للأستاذ المتكون وهو ما يتوافق مع طريقة التدريس المصغر، ما أشار إليه بسام غانم (2010) أن التدريس المصغر احد أساليب تدريب المعلمين وإعدادهم، الذي يتم تحت ظروف مضبوطة، يطبق على مهارة تعليمية محددة في موقف صفي مصغر، ومع عدد قليل من المتعلمين لوقت صغير شريطة إخضاعه للتقويم بعد الأداء، بأدوات مضبوطة، ثم تكرير الأداء التصحيحي إلى أن يبلغ المتدرب المستوى المطلوب في المهارة. [59]

غير ان من بين اهم النقاط التي تسهم في نجاح طريقة التدريس المصغر في تحقيق اهداف الدرس، عدد المشاركين في الفوج ما أكده شلوم (2009) أن المشكلات التي تواجه التدريس المصغر كبر عدد مجموعات المتعلمين التي في الواقع تصل إلى 18 متعلما [60]

الأمر الذي لا يتوافق مع البرنامج المعتمد عليه حاليا، باعتبار عدد المتكونين يصل إلى 30 مكونا متربصا في الفوج الواحد مما قد يجعل طريقة التدريس المصغر تواجه مجموعة من العراقيل في تنفيذها او الاعتماد عليها او حتى تحقق اهدافها.

5-6- المعيار الخامس: الوسائل التعليمية وتقنيات التعلم

كثيرا ما يكون المحتوى أو المعلومات المقدمة صعبة أو تبدو غريبة على المتعلم، مما يجعل المعلم في مواقف أكثر صعوبة بسبب عدم الاستيعاب من قبلهم، أو يلمحون الغرابة على المشاركين في التكوين. ما يجعل الاستعانة بالوسائل التعليمية هي الحل الذي يُقرب المفاهيم ، أو عرض المعلومات بالشكل الواضح، و نظرا لأهميتها ودورها الحساس يعدها **صالح علي فصالة** (2010) أداة يستخدمها المعلم لتحسين عملية التعلم والتعليم، وتوضيح المعاني ، والأفكار ، أو التدريب على المهارات، أو تنمية الاتجاهات، و غرس القيم دون أن يعتمد المعلم أساسا على الألفاظ، والرموز، والأرقام .[61]

بالتالي الوسائل التعليمية يستعان بها في تسريع اكتساب المعارف والمهارات، أو بالأحرى تحقيق أهداف الدرس لكن التنويع فيها سيكون له الأثر الكبير في تحقيق الأهداف، فالوسائل التعليمية في الحقيقة تنقسم حسب تقسيم **عفت الطناوي** (2011) إلى المواد التعليمية istructional materials or software و الأجهزة التعليمية audiovisuel Equipment or hardware، تعد هذه المواد التعليمية المعينة في التدريس كالأفلام، والأشياء والنماذج ، والعينات، والصور، وغيرها، بينما الأجهزة التعليمية هي جميع الأجهزة المستخدمة في عرض هذه المواد مثل الجهاز العاكس، التلفاز.[62]

تحتاج البرامج في تنفيذها للمحتوى إلى استخدام مختلف الوسائل التعليمة بالشكل الصحيح والتوقيت المناسب مع التنويع في الاستخدام إذ يحدد دعمس مصطفى (2009) معايير الوسائل التعليمية التوفر للوسائل وكذا التنويع فيها في قاعة التدريس الواحدة من (أجهزة كمبيوتر، تلفاز، جهاز اسقاطي (projector Slide , projector,) جهاز فيديو..الخ ، كما يركز على مصادر التعلم من حيث وجود المكتبة تتوفر على المراجع والكتب الحديثة، وتوفير خدمات الطباعة والتصوير للطلبة وتوفر المخابر والمعامل المزودة بأحدث التجهيزات والأدوات.[63]

كما أنها تعتبر احد الأبعاد التي يقاس بها جودة البرامج، حيث حدد احمد علي كنعان (2009) معايير جودة الوسائل ومصادر التعلم في: كفاية قاعات التدريس وملاءمتها، توفر المكتبة والكتب والدوريات والمراجع ذات الصلة بالبرنامج، المعامل والمخابر الكافية لتحقيق أهداف البرنامج، المعامل والمخابر مجهزة بما يحقق أهداف البرنامج.[64]

لم يخصص في البرنامج البيداغوجي عنصرا خاصا بالوسائل التعليمية ومصادر التعلم، التي يتوفر فيها الوصف لهذه الوسائل، الا انه كانت إشارة للدعائم البيداغوجية المستخدمة من تكوين الاساتذة المتخصصين في الدليل 2014 لكل مقياس من المقاييس وغيبت في البرنامج الخاص بأساتذة التكوين المهني

، نذكر منها بالأخص: (وثائق متعلقة بالمقياس المدرس ، النصوص القانونية، دليل البرامج بالمقاربة بالكفاءات، مخطط وضعية تعليمية)[65]

6-6- المعيار السادس: أعضاء هيئة التدريس

يجب أن تتحدد معايير التقييم لضمان الجودة في التكوين في توفر كادر تدريسي متفرغ مناسب من حيث العدد والخبرة وتنوع التخصصات، وتغطية أعضاء هيئة التدريس لكافة المجالات المعرفية للتخصص، والتأهيل التربوي والأكاديمي لأعضاء هيئة التدريس الجدد ، و التطوير الأكاديمي المستمر لأعضاء هيئة التدريس لمواكبة التطورات الحديثة في مجال التخصص، و التواصل بين أعضاء هيئة التدريس والكوادر الفنية والإدارية وكذا الطلبة، و وجود آليات للتعيين والترقية، وجود نظام متكامل لتقويم أعضاء الهيئة التدريسية دوريا والارتقاء بهم، و مدى ثبات الكادر التدريسي ونسبة استمراريتهم في عملهم، و المشاركة في النشاطات العلمية، في تقويم المنهاج، وجود آلية لاستقطاب أعضاء هيئة تدريس من ذوي الخبرة.[66]

لم يعطى اهمية للكادر التكويني في الوزاري 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه.[67]

الا ان مبادرة الفريق البيداغوجي في وضع دليل لتكوين الاساتذة المتخصصين خلصت الى تحديد قائمة من الأساتذة المكونين في الدليل 2014 فقط، للتكفل بمختلف المقاييس النظرية والتطبيقية المدرجة في البرنامج التكويني البيداغوجي، وعلى ما يبدو هناك تنوع في ملمح المكونين من مفتشين بيداغوجيين، وأساتذة مختصين في البيداغوجيا بالإضافة إلى متخصصين في المنهجية، وآخرين متخصصين في الإعلام الآلي والنظافة والأمن والبيئة، للتكفل بمختلف المقاييس المدرجة في البرنامج.[68]

لكن يحتاج البرنامج التكويني الى اساتذة متخصصين ومن ذوي الشهادات العليا، على اساس انهم يكونون اساتذة متخصصين من حملة شهادات مهندس، و ليسانس، وتقني سامي، ذلك ان فعالية ادائهم تتوقف على فعالية اداء مكوني المكونين، في هذا الصدد تؤكد دراسة **عدوان وفاشة (1993)** إلى ضرورة تطوير برنامج تأهيل المعلمين بحيث يغلب عليها الطابع الميداني والنشاطات العملية الصفية ، وأن يكون المدربون من حملة شهادة الدكتوراه وعندهم الخبرة الكافية ، وإدخال التكنولوجيا الحديثة والحاسوب في عملية تأهيل المعلمين. [69] . في هذه النقطة بالتحديد يمكننا التسليم بالقول " لا يمكن لأي نظام تعليمي أن يرتقي أعلى من مستوى معلميه .[70]

7-6- المعيار السابع: الجدولة الزمنية

يحتاج البرنامج أن يتم ضمن إطار زمني مخطط له، لتحقيق أهداف التكوين، والمحتوى من معارف ومهارات وقيم واتجاهات يرتبط ضبط المدة أو الجدولة الزمنية بعدد الأهداف التفصيلية المسطرة والمدة اللازمة لتحقيقها وكذا الأهمية النسبية لكل هدف فقد يحتاج هدف ما الى مدة أطول من هدف آخر.

المدة المنفذة للبرنامج التكويني تم تحديدها بستة أشهر وفقا للمادة 7 من القرار الوزاري 35 المؤرخ في 11 مارس 2011 المحدد لمدة ومحتوى التكويني البيداغوجي التحضيري، والمحدد بمدة 6 أشهر بحجم ساعي 438 ساعة. ، مع شهرين للتربص التطبيقي. [71]، أجريت تعديلات وفقا لمبادرة الفريق البيداغوجي للدليلين 2014-2015 بحيث مدة التكوين على مستوى الجانب النظري خصص لبرنامج الأساتذة المتخصصين (PSFEP) حجم ساعي مقدر بـ 712 سا، منها 270 سا للتربص التطبيقي بمدة تقارب الشهرين، في حين خصص لأساتذة التكوين المهني (PFP) حجم ساعي مقدر بـ 481 سا للتكوين النظري، وشهرين للتربص التطبيقي.[72]

6-8- المعيار التاسع: التقييم

يعد التقييم عملية مهمة، للتأكد من مدى اكتساب المتعلم محتوى البرنامج بمختلف جوانبه، وللتأكد من سير البرنامج بالشكل المخطط له، لضمان الجودة في هذا العيار ركز احمد كنعان (2009) على عنصر الموضوعية في التقييم، و الأساليب شاملة لجميع جوانب العملية التعليمة، وتشمل مختلف مستويات المعرفية، و تراعي الفروق الفردية، وتعتمد أساليب متنوعة في التقييم. [73]

في حين ركزت جامعة جنيف في تحديد جودة معيار التقويم، أن تكون أهداف التقييم متصلة بالمحتوى ، و طرائق التقييم (مكتوبة، شفوية، أعمال ، ملفات) موزعة على الوقت ، و تسمح بتقدم التعلم، وطرق تقييم التعلم متنوعة، و ذات صلة بالأهداف. [74]

لم يشهد معيار التقييم تعديلا كبيرا في برنامج التكوين البيداغوجي لمختلف أساتذة التكوين والتعليم المهنيين، حيث وفقا للقرار الوزاري 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه، والمحدد في مادته 11 كيفيات تقييم التكوين البيداغوجي التحضيري كما يلي:

- معدل المراقبة البيداغوجية لجميع الوحدات المدرسة تحسب من 0 الى 20 بمعامل 2.
- معدل نقاط التربصات التطبيقية تحسب من 0 الى 20 بمعامل 1.
- نقطة الامتحان النهائي: محاكاة درس نظري ومحاكاة درس تطبيقي مدة كل محاكاة ساعتان بتقييم (0 – 20) بمعامل 3.[75]

اما عن اقتراحات الفريق البيداغوجي في النسختين 2014 و 2015 للأساتذة المتخصصين، وأساتذة التكوين المهني، تم الإبقاء على ثلاثة أشكال لتقييم مع ضبط للمصطلحات البيداغوجية أو مسميات ، وتعديل على مستوى التقييم النهائي من خلال محاكاة لأحد الدرسين تطبيقي أو نظري او كلاهما، وجاءت مراحل التقييم على النحو التالي:

- الامتحان الكتابي لكل مقياس: بمدة زمنية 20د بعلامة (0 - 20) و معدل التقييم لكل مقياس (0 - 20).

- تقييم التربص التطبيقي: بمعدل (0-20)
- التقييم النهائي (محاكاة) : محاكاة درس نظري و/أو تطبيقي، مدة المحاكاة 2سا، بمعدل تقييم (0-20).

كما تم ضبط لعمليات التقويم للمكتسبات على الشكل التالي:

1- المعدل العام: يجب أن يتحصل الأستاذ المتكون على معدل 10 فما فوق للحصول على شهادة التكوين البيداغوجي التي تسمح له بتجاوز امتحان التثبيت (الترسيم)

2- المعدل العام الأقل من 10 : يعيد المقاييس عير المحصلة.

3- المعدل العام 10 فما فوق مع نقطة إقصائية : يعيد المقياس غير المحصل.[76]

نلمس تعددا وتنوعا في طرائق التقييم للمتكون ، في الاختبارات التحصيلية الكتابية ، والتقييم المستمر، وكذلك التقييم للأداء (المهارات) من خلال محاكاة درس نظري و آخر تطبيقي يختارها المكون المتربص.

8-6- المعيار العاشر: التربص التطبيقي

لا يخلو أي برنامج تكويني من التربص التطبيقي، اذ يشير عمر نصر الله (2008) التربص التطبيقي هو الجانب التطبيقي من برنامج إعداد المعلمين وتأهيلهم وتدريبهم على القيام بوظيفة المعلم، ويتم التدريب بالمشاهدة والمشاركة والممارسة والتي لها عدد من المكونات "المعرفي الإدراكي، الوجداني، والأدائي.[77]

في نفس السياق يؤكد **بسام غانم وخالد أبو شعيرة** (2010) انه عبارة عن مراحل عملية تتمثل في المشاهدة، والمشاركة والممارسة، والتقويم الذي يعد تغذية راجعة يشارك فيه لجنة لتقييم وتقويم عمل الأستاذ المتربص، من اجل تحسين مستواه وتعديل أي خطا قد يقع فيه مستقبلا.[78]

تقاس جودة التربص التطبيقي بجملة من المواصفات تمثلت من وجهة نظر احمد علي كنعان (2009) وجود مصلحة خاصة بالتربص التطبيقي، وأهداف التربص التطبيقي واضحة، والتنسيق بين المعاهد ومؤسسات التربص، وينمي التربص التطبيقي مهارات المتعلم اللازمة للتدريس، تساعد على الفهم التام لمواقع عملية التدريس في المدارس والمواقف التعليمية، يمارس المتكون العملية التدريسية بشكل كامل داخل الغرفة الصفية، والتطبيق الفعلي لمختلف المقاييس المتدرب عليها في المعهد، والمدة كافية للتربص التطبيقي، وجود دليل للتربص التطبيقي.[79]

في حين يحدد بلقيس دعمس (2009): المعايير في التربص التطبيقي أن يساعد المتدرب على اشتقاق الأهداف السلوكية التدرب على تحليل المادة العلمية، و التمكن من إدارة أنشطة الدرس، و التدرب على اختيار استراتيجيات التدريس، ويساعد في بناء اختبارات بأنواعها المختلفة، و يساعد في تقديم التعزيز والتغذية الراجعة، والتمكن من طرح الأسئلة الصفية وكذا تنمي كيفية اختيار واستخدام الوسائل التعليمية.[80]

يشير **عمر علي دحلان** (2013) إلى معايير جودة التربص التطبيقي ما إذا كانت تسهم في تنمية مهارات المتكون في مهارات التدريس من تخطيط وتنفيذ للدرس والتقويم بمختلف أنواعه وإعداد الاختبارات التحصيلية، والتفاعل الصفي داخل الصف. (81)

يجب الإشارة أن أهداف التربص التطبيقي لم تحدد أو تذكر على مستوى دليل التكوين المذكور في القرار الوزاري 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه، لكن بعد مبارة الفريق اليداغوجي ضبطت في النسخة المصادق عليها لتكوين الأساتذة المتخصصين سنة 2014، ولم تحدد في دليل أساتذة التكوين المهني (PFEP) إلا على شكل هيكلة تنظيمية بحيث يجرى على ثلاث مراحل تتخلل فترات التكوين النظري، و بالرجوع الى الأهداف المسطرة للتربص التطبيقي للاساتذة المتخصصين (PSFEP) على حسب الدليل يجب أن يكون التربص التطبيقي كهدف لتنفيذ الكفاءة المكتسبة من قبل الأستاذ المتخصص أثناء كل مرحلة من التكوين وذلك بعد:

- ممارسة التربص التطبيقي داخل مؤسسات التكوين المهني.
- تعزيز مكتسبات التكوين.
- تقييم لمستوى مكتسبات المتكون.

أما عن عمليات تنفيذ التربص التطبيقي حددت على ثلاث مستويات:

✍ التربص التطبيقي الأول: يتم تنفيذه بعد البيداغوجيا العامة مدته أسبوعين، من خلال نشاطات تعتمد على الملاحظة باستخدام دليل الملاحظة، يسلم في نهاية على شكل تقرير تربص.

✍ التربص التطبيقي الثاني: يتم تنفيذه بعد استكمال مقياس استغلال برامج التكوين المصممة وفقا للمقاربة بالكفاءات، يتم من خلال النشاطات حول مراحل التصمم وفق المقاربة بالكفاءات.

✍ التربص التطبيقي الثالث: يتم تنفيذه مباشرة بعد استكمال المقياسين (بيداغوجيا تطبيقية + تحضير ومحاكاة حصة تعليمية)، يتم في مدة 4 أسابيع، يقوم الأساتذة بعملية التدريس على أساس أستاذ بديل mise en doublure والوثائق المسلمة مخطط المقياس، مخطط الدرس، بطاقات الوصفية، والتقرير. (82)

مما يبدو انه لم تذكر تفاصيل عن التنسيق بين المعاهد المتربص بها ومؤسسة التكوين البيداغوجي، ولا كيفية متابعة هذا التربص، كما يظهر أن التقييم يعتمد على تقرير يعده الأستاذ التربص مع مجموعة ملاحق حول مخطط الدرس، لكن الذي يجب أن لا نغفل عنه هو الحاجة الى دليل للتربص التطبيقي لضبط العمليات التي سيقوم بها الأستاذ المتربص أثناء مختلف مراحل التربص التطبيقي من ملاحظة، ومشاركة، وممارسة، ثم التقويم، والتي تعد تفصيلات على ما تم انجازه أثناء التربص حسب مؤشرات جودة التربص التطبيقي.

6-9- المعيار التاسع: المتابعة

يتضمن مفهوم المتابعة مراقبة المتربص (الاستاذ المكون) بعد تلقيه البرنامج التكويني بهدف معرفة إن كانت العملية التكوينية تسير وفق ما خطط له، وتحديد جميع العوامل التي تؤثر في نجاح العملية، وهو ما أشار إليه محمد الصيرفي (2009) تتمثل المهام الرئيسية للمتابعة في تجميع المعلومات والبيانات الإحصائية الدقيقة عن جميع ما يؤثر في العملية التدريبية وما يتأثر بها ويلي ذلك كيفية استخدام تلك المعلومات من اجل تحسين النشاط التدريبي.[83]

يعد هذا المعيار مهما في متابعة المكونين في أماكن عملهم لتحديد نواحي الضعف في البرنامج والعمل على معالجتها، والنواحي التي تحتاج إلى تجديد .[84]

تتم المتابعة على مستوى البرنامج المخصص للأساتذة المتخصصين من خلال ما هو أدرج في الدليل 2014 لتكوين الأساتذة المتخصصين، غير أنها متابعة تقنية بيداغوجية لمراقبة سير التكوين لأفواج الأساتذة موزعة على ثلاث عمليات:

1- قبل التكوين: تكون قبل بداية البرنامج ب 15 يوما، يتم فيها التحضير للتكوين من خلال تحضير الوثائق ذات العلاقة بالتكوين، تحديد مكوني المكونين الداخليين والخارجيين، تحديد أماكن التربصات التطبيقية، نقل الاحتياجات اللوجيستيكية، و ضبط محضر بداية التكوين.

2- أثناء التكوين: من خلال متابعة حضور المتكونين، متابعة تنفيذ برنامج التكوين، وتقويم الرضا، والتربص التطبيقي.

3- بعد التكوين: المتابعة تتجلى في التقييم النهائي، المحضر النهائي للتكوين البيداغوجي، ضبط محضر نهاية التكوين.[82]

تتعلق المتابعة بعد التكوين بمدى نجاح الأستاذ المكون في أداء المهام بعد التوين حسب ما تلقاه، كما وتحدد نقاط القوة والضعف في الأداء والعمل على تداركها أو تعزيزها، من خلال زيارات ميدانية بعد التكوين للأستاذ في مكان العمل، أو قياس لأداء بغية تحديد نقاط الضعف والعمل على معالجتها، هي نقاط لم نجد لها اهتماما في برامج التكوين البيداغوجي لاساتذة التكوين والتعليم المهنيين.[85]

في هذا الصدد يؤكد **رشدي طعيمة (2006)** في مبادئ التخطيط لبرامج التنمية المهنية على المتابعة لأداء المتدربين في الميدان ليتم تقويم برامجها على أساس مدى تأثيرها على فعالية أداء المعلمين، وتطوير ممارساتهم وارتفاع مستوى تعلم المتعلمين.حيث تستخدم نتائج هذا التقويم وهذه المتابعة في ترشيد جهود وخطط التنمية المهنية التالية [86]

6-10- المعيار العاشر: قياس فعالية البرنامج

يشير بلال السكارنه (2011) إن مرحلة التقييم للبرامج التدريبية هي تلك الإجراءات التي تقاس بها كفاءة البرامج التدريبية ومدى نجاحها في تحقيق أهدافها المرسومة، كما تقاس بها كفاءة المتدربين ومدى التغير الذي نجح التدريب في إحداثه فيهم، وكذلك تقاس بها كفاءة المدربين الذين قاموا بتنفيذ العمل

التدريبي، فهو بمثابة عملية قياس مستمرة لكفاءة النظام التدريبي وقياس مدى تحقيق هذا البرنامج للأهداف المحددة مسبقا.[87]

تتمثل معايير التقييم لمعيار قياس فعالية البرامج حسب ما أشار إليه **أبو عرابي، ومحمود** (2013) في وجود آليات ملائمة ومفعلة للاستمرار في تحسين وتطوير العملية التدريسية، وجود تقويم ذاتي، و مدى تطبيق آليات وإجراءات إدارة الجودة وفاعليتها في تحسين الجودة، مدى استخدام نتائج التقويم للتطوير والتحسين وبخطة زمنية موثقة.[88]

في الحقيقة انه عند الحديث عن تقييم فعالية البرامج يحضرنا نموذج كيركباتريك kirkepatrick (1959) هو النموذج المرجعي عند تناول مسألة الأثر المترتب على التكوين النظري أو العملي. ويعتبر هذا النموذج أربعة مستويات بقياس رضا المشاركين في التكوينSatisfaction، وتحسين معارفهم ومهاراتهم Acquisition، والتغيرات في السلوك الفعلي Transfert والتغيرات في سياق الأعمال المهنية على نطاق أوسع Impact .[89]

ضمن برنامج التكوين لمختلف أساتذة التكوين والتعليم المهنيين لا يوجد تحديد لكيفية قياس فعالية البرنامج، أو الأثر الذي يتركه التكوين في القرار الو الوزاري 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه، إلا انه تم إدراج التقويم في تقرير نهاية التكوين في دليل برنامج التكوين لأساتذة التكوين المتخصصين (PSFEP) بمبادرة من فريق بحث بيداغوجي يتطرق إلى شكلين من التقويم:

1/ تقييم المكتسبات: نقاط كل أستاذ متخصص في المقاييس وتحليلها كميا وكيفيا.

2 / تقييم الرضا: مجموع استجابات الأساتذة المتخصصين وتحليلها كميا وكيفيا.[90]

بعد الاطلاع على بطاقة تقويم الرضا، هي موجهة للأساتذة المتخصصين ورضاهم في كل مقياس على مستوى خمسة محاور (تقييم الروح المعنوية ومواقف المشاركين، و تقدير المتكون للفوائد من التكوين للمقياس، تقييم التكوين بصفة عامة للمقياس، و تقييم تنظيم التكوين للمقياس، تقييم اداء المتكونين) مما يعكس التغطية الشاملة لمعرفة رضا الأساتذة المكونين المتربصين حول كل مقياس ومحتواه والمشرف على المقياس، غير إن البطاقة غير مفعلة وذلك بعد طلبنا للاستمارات، أو النتائج التي توصلت إليها المصلحة بعد تحليل البطاقات.

مما يشير الى أن المعاهد التكوينية تفتقر إلى سياسة تقييم الفعالية للبرامج بكل أشكاله، حيث لا توجد مصلحة مستقلة تبحث في اثر التدريب لا على مستوى المتكونين ولا على مستوى المؤسسات، إذ تنتهي علاقة الأستاذ المتكون بالمعهد بعد حصوله على شهادة نهاية التكوين التي تؤهله لاجتياز امتحان التثبيت على مستوى المؤسسة التي يعمل بها، ثم تتجدد علاقته بالمعهد تحت عنوان دورات تحسين المستوى، التي يبقى التحاق الأستاذ بها اختياري حسب العناوين المدرجة، منها ما يتعلق بالبيداغوجيا ومنها ما يتعلق بالتخصص.

لذلك أكد **هيثم عبد المجيد (2013)** على ضرورة إنشاء وحدة تابعة لإدارة تطوير المهارات، تحت مسمى وحدة قياس اثر التدريب. هي وحدة مخصصة لقياس ردة الفعل أثناء وبعد التدريب لنجاح التدريب والتغلب على المعوقات، كذلك نشر ثقافة القياس وتقبل الآراء لإظهار مكان الضعف والقوة في البرامج مما يساعد في معالجتها وتعديلها حسب الاحتياجات التدريبية.[91]

7- جودة برامج التكوين البيداغوجي التحضيري:

بعد العرض المفصل لمعايير تقييم جودة البرامج ومقارنتها مع ما يُعتمد عليه كبرامج تكوينية لمختلف أساتذة التكوين والتعليم المهنيين، يمكن القول ما يزال التكوين البيداغوجي التحضيري لأساتذة التكوين والتعليم المهنيين بحاجة إلى نوع من الدراسات الميدانية التطويرية ورسم سياسات واستراتيجيات فعالة في التكوين، تتجاوز فكرة الحشو للمفاهيم، وتعتمد سياسة قياس الفعالية للبرامج المقدمة ، من اجل معرفة نقاط القوة والضعف، بحيث يركز البرنامج على أهم عنصر وهو تحديد الاحتياجات التدريبية ليس فقط للبرامج التكوينية قبل الخدمة حتى وأثناء الخدمة، ويمكن الاستعانة في تحديدها من خلال تقارير المفتشين، وكذا الاستعانة بالمتكونين أنفسهم، لضمان الواقعية والنفعية للبرامج.

ما أكده محمد الخوالدة ومحمد أبو صالح (1991) أن برامج التكوين في الوطن العربي عاجزة عن تأدية دورها الوظيفي وأهدافها متمركزة حول تبليغ المعرفة، وهي غامضة وفضفاضة، كما أن اختيار المحتويات لا يقوم على أية معايير موضوعية .[92]

كما أثبتت عز الدين عمرية (2003) من خلال التحقق من مدى استجابة التكوين لحاجات الأساتذة ، توصلت أن التكوين المقدم لا يترك أثرا ايجابيا على أداء الأساتذة بحيث لا يزودهم بمهارات مهنية ولا معارف نظرية لتطوير أدائهم، والبرنامج غير مجدد ولا منسجم مع منصب العمل ولا احتياجات الأساتذة، عدم توفر الوسائل البيداغوجية الضرورية والمتناسقة مع أهداف التكوين.

وأكدت دراسة رضا حيرش (2008) هدفت الدراسة الكشف عن العلاقة بين الأداء البيداغوجي لأستاذ التكوين المهني والتكفل البيداغوجي، توصلت الدراسة الى النتائج الى أن متوسط الأداء البيداغوجي للأساتذة الدائمين اقل بكثير من المتوسط المقبول للأداء البيداغوجي، كما سجلت النتائج أن التكفل البيداغوجي ضعيف.[93]

خلاصة :

من خلال ما تم عرضه في هذه الورقة إلى أن لمعاهد التكوين المهني دورا متميزا وبارزا في تكوين أساتذة التكوين والتعليم المهنيين قادرين على تخريج يد عاملة فعالة، وفي إعداد القوى البشرية المتخصصة، و التكيف مع العقبات التي ستواجههم في ميدان العمل على الرغم من عدم التزامها ببعض المعايير كالاحتياجات التدريبية، وضبط الأهداف، وطرائق التدريس، والمتابعة وقياس الفعالية للبرنامج. إلا انه يجدر الإشارة إلى أن فعالية أدائهم يرتبط ارتباطا كبيرا ليس فقط بالتكوين الذي تلقونه وإنما كذلك مرتبط بالمؤسسات التي سيعملون بها والطاقم الاداري.

مع ذلك يبقى تحسين البرامج التكوينية للأساتذة في ظل التطورات المعرفية والتكنولوجية ضرورة حتمية، انطلاقا من الاحتياجات التدريبية للأستاذ، مراعين في ذلك الفروق الفردية والنشاطات العملية أثناء التربص التطبيقي، بغية تحسين جودة البرامج التكوينية وهو ما **حرصت عليه دراسة عدوان وفاشة (1993)** حين ركزت على تطوير برنامج تأهيل المعلمين بحيث يغلب عليها الطابع الميداني والنشاطات العملية الصفية ، [94]

من خلال ما تقدم يمكن تقديم الواقع لبرنامج التكوين البيداغوجي في النقاط التالية:

- ✍ غياب رؤية ورسالة واضحة للبرنامج التحضيري البيداغوجي.
- ✍ الأهداف المسطرة أهداف عامة تحتاج إلى الاهداف التفصيلية القابلة للقياس.
- ✍ ضبط البرنامج بما يتوافق واحتياجات الأساتذة المتكونين.
- ✍ المحتوى غير مضبوط ضمن معايير لها علاقة بالأهداف.
- ✍ غياب سياسة واضحة لمتابعة التربص التطبيقي.
- ✍ غياب التقييم لفعالية البرنامج والمتابعة له.
- ✍ غياب بعض المقاييس المهمة مثل أخلاقيات المهنة وتشريع العمل.
- ✍ افتقار إلى الدليل أو الحقائب التدريبية لتوحيد عملية التكوين.
- ✍ غياب البحوث والدراسات في مجال التكوين البيداغوجي التحضيري.
- ✍ نقص في الوسائل التعليمية المعتمد عليها في البرنامج.

مقترحات : حرصا منا على التحسين في هذا القطاع ارتأينا تقديم بعض المقترحات متمثلة في:

1) ينبغي الوقوف وبحث أهم المشكلات التي يعاني منها القطاع خاصة البرامج البيداغوجية.
2) يستحسن العمل على قياس فعالية البرامج المعتمدة في المعاهد لتكوين المكونين تحديدا لنقاط القوة والضعف.
3) ينبغي الحرص على قياس الاحتياجات التدريبية للأساتذة المتكونين والعمل على تلبيتها.
4) يفترض ضبط برامج تكوينية ضمن معايير مضبوطة.
5) ينبغي توحيد التكوين على مستوى المعاهد منه خلال إعداد حقائب تدريبية مشتركة لمختلف المقاييس.
6) الحرص على توفير وسائل تعليمية حديثة ومتنوعة في تنفيذ التكوين البيداغوجي.
7) محاولة رسم خطة دقيقة في سير التربص التطبيقي وتقييمه وكذا متابعته.
8) السعي على تشجيع البحث العلمي في القطاع والاستفادة من نتائجه.

قائمة المراجع:

(1) واضح العمري (2005): مدى تأثير التكوين المهني الاقامي على التصورات الذهنية للمتربصين، مذكرة لنيل شهادة ماجستير علم النفس تخصص عمل وتنظيم، جامعة الجزائر. ص 65

(2) Frencoie. D , & julien . N , Quelle formation professionnelle pour quelle développement dans les DOM ? agence française de développement, AFD. 2012 , p 28

(3) République algérienne démocratique et populaire(2012) : circulaire précisant la place et le rôle des établissements d'ingénierie pédagogique (INFEP- IFEP) au sein du système national de formation et d'enseignement professionnels. P 3

(4) المنشور من المرسوم التنفيذي رقم 10- 99 مؤرخ في 2 ربيع الثاني عام 1431 الموافق 18 مارس 2010 يحدد القانون الأساسي النموذجي لمعاهد التكوين والتعليم المهنيين.

(5)JOURNAL OFFICIEL DE LA REPUBLIQUE ALGERIENNE (2009) : Décret exécutif n° 09-316 du 17 Chaoual 1430 correspondant au 6 octobre 2009 fixant le statut de institut national de la formation et de l'enseignement professionnels (INFEP). N° 57. P13

(6) الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية (1993): القرار الوزاري رقم 246 مؤرخ في 18 ديسمبر 1993 متضمن المقاطعات الجغرافية لمعاهد التكوين المهني. ص 6

(7) الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 1993: المرجع نفسه ، ص 1-3

(8) Miceal.j – ever and all (2001) evaluation of teacher programs, purpose-methods and policy option, national academy of education, washingtom .DC .p1.

(9) الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية (2009) المرسوم التنفيذي رقم 09 – 93 مؤرخ في 26 صفر عام 1430 الموافق 22 فبراير 2009 يتضمن القانون الأساسي الخاص بالموظفين المنتمين لأسلاك التكوين والتعليم المهنيين مهام أساتذة التكوين والتعليم المهنيين.

(10) سامعي توفيق (2010) مدى تحقيق مؤسسات التكوين المهني في مدينة سطيف للكفايات المهنية للكفايات المهنية لدى خريجي قطاع التكوين المهني، مذكرة لنيل شهادة دوكتوراه في علم النفس، تخصص علوم التربية، جامعة فرحات، سطيف.

(11) قبلي خضرة (2011) : فعالية التكوين المهني من حيث تحقيقه لاهدافه في بعض التخصصات-دراسة ميدانية بمراكز التكوين المهني لولاية غليزان، اطروحة لنيل شهادة دكتوراه في علم النفس العام، جامعة وهران.

(12) رضا حيرش (2008): علاقة الأداء البيداغوجي بالتكفل البيداغوجي لدى أساتذة المختصيين في التعليم المهني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصص علوم التربية، جامعة الجزائر. ص16

(13) رضا حيرش (2008): المرجع نفسه ، ص 20.

(14) محسن علي عطية (2015):الجودة الشاملة المنهج، دار المناهج للنشر والتوزيع، الاردن. ص25

(15) ندى بنت صالح الرميح (2015) معايير جودة البرامج التعليمية للاشخاص ذوي الاعاقة نظرة عالمية وإقليمية. ورقة عمل مقدمة الى الملتقى الخامس عشر للجمعية الخليجية للاعاقة" جودة الخدمات المقدمة للاشخاص ذوي الاعاقة. مدينة الدوحة: قطر. ص 3

(16) همام سمير حمادنة (2014) : درجة توفر معايير ضمان الجودة في برنامج اعداد معلم التربية الابتدائية في جامعة اليرموك من وجهة الطلبة المتوقع تخرجهم ، ورقة بحث مقدمة للمؤتمر الثالث " تكامل مخرجات التعليم مع سوق العمل في القطاع العام والخاص" جامعة البقاء التطبيقية، الاردن.ص9

(17) عمومن رمضان ، معمري حمزة (ب ت) رؤية مستقبلية لاعداد المعلم في ظل التدريس بالكفاءات، ملتقى التكوين بالكفاءات في التربية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة. ص ص 272- 283 ، ص17

(18) محمد ابو الفتوح حامد خليل (2011): التقويم التربوي بين الواقع والمامول، مكتبة الشقري للنشر والتوزيع، الرياض، المدينة المنورة، ص 51-55.

(19) ندى بنت صالح الرميح (2015) المرجع نفسه ، ص 3

(20) يوسف حجيم الطائي و آخرون (2006): إدارة الموارد البشرية مدخل استراتيجي متكامل، مؤسسة الورق للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، الاردن ص 297

(21) ضياء زاهر عبد الرحيم (2011) مفاهيم جديدة في ادارة الموارد البشرية، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة الاول، عمان.ص 143

(22)الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية (2001): القرار 35 المؤرخ في 31 مارس 2011 الذي يحدد المدة والمحتوى البيداغوجي التحضيري للأساتذة وأساتذة إعادة تكييف المتربصين أثناء فترة التربص التجريبي وكيفية تنظيمه ، ص1.

(23) institut national de la formation et de l'enseignement professionnels (2014) la pédagogie programme de formation pédagogique des professeurs spécialisés de la de la formation et de l'enseignement professionnels (PSFEP) recrutement externe. Direction des etudes et de la recherche. Alger. P1.

(24) محمد باردة (ب س): التكوين المستمر بين الحاجات والإمكانيات ورهان التجديد، مجلة علوم التربية العدد55، ص ص 128- 138، ص 135.

(25) بلال خلفة السكارنة (2010) اتجاهات حديثة في التدريب، دار المسسيرة للنشر والتوزيع ، ط1، الاردن. ص 94.

(26) رضا حيرش (2008): المرجع نفسه، ص16.

(27) همام سمير حمادنة (2014) : المرجع نفسه ، ص 38

(28) أحمد علي كنعان (2009) :تقييم برامج تربية المعلمين ومخرجاتها وفق معايير الجودة من وجهة نظر طلبة السنة الرابعة في قسم معلم ، مجلة جامعة دمشق – المجلد - 25 العدد +4 3 . دمشق ص ص 15-93، ص84

(29) سوسن شاكر الجبلي (2011): ضمان جودة واعتماد البرامج الاكاديمية في المؤسسات التعليمية (الاهداف، والاجراءات، النتائج)، مؤتمر رابطة جامعات لبنان بالتعاون مع المكتب الوطني لبرنامج تمبوس الاوروبي المنعقد من (29-30 نيسان 2011. جامعة لبنان. ص 13

(30)Universieté de geneve (2015) bureau qualité dimontions de la qualité pour les programmes de formation. L'évaluation des programmes de formation à l'Université de Genève. P 9

(31)- الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية (2011) : المرجع نفسه.

(32) institut national de la formation et de l'enseignement professionnels (2014) : ibid, p .2

(33) جيلالي بوحمام (2005): أهمية الأهداف التعليمية ودورها في إنجاح عملية التعلم والتعليم، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 23 قسنطينة ، ص ص 5-20 ص 7.

(34) همام حمادنة (2014) : المرجع نفسه ، ص

(35) احمد علي كنعان (2009) : المرجع نفسه ، ص 86

(36) بسام عمر غانم، خالد محمد ابو شعيرة (2010):التربية العملية الفاعلية بين النظرية والتطبيق في صفوف الحلقة الاولى من المرحلة الاساسية، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، عمان، الاردن. ص

(37)) Universieté de geneve (2015 : p , ibid (12

(38) الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية (2011): المرجع نفسه.

(39)institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2014) : ibid, p 7

(40) Institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2015). Programme de formation pédagogique des professeurs de formation professionnelle (PFP), direction des études et recherche, Alger., p 8

(41) ضياء زاهر عبد الرحيم (2011) : المرجع نفسه، ص 180.

(42) رضا حيرش (2008): المرجع نفسه، ص16.

(43) صالح صالحي، امال شوتري : التكوين المهني بين خصوصية العرض ومنطلق الطلب ، مجلة بحوث اقتصادية ، العددان 22/21 . ص 25- 67.

(44) احمد علي كنعان (2009): المرجع نفسه، ص24

(45) مصطفى عبد السلام (2007): اساليب التدريس والتطوير المهني للمعلم، دار الجامعة الجديدة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، الاسكندرية، مصر.

(46) حسن محمد حسنين (2003): التدريب التشاركي، دار المجدلاوي، الطبعة الاولى، عمان.

(47) خالد محمد ابو شعيرة (2008): التربية المهنية الفاعلة ومعلم الصف، مكتبة المجتمع العربي، الطبعة الاولى، الاردن. ص 281.

(48)خليل إبراهيم شبر و عبد الرحمن جامل و عبد الباقي ابو زيد (2014) أساسيات التدريس، دار المناهج للنشر والتوزيع، الاردن. ص 173-252.

(49) همام سمير حمادنة (2014): المرجع نفسه ، ص 40

(50) Universieté de geneve (2015) : ibid, p :17

(51) institute national de la formation et l'enseignement professionnels (2014) : ibid, p 10.

(52)Kolb david A , richard E Boytzis , charahampos mainemelis (1999) . Expériential Learning Theory Previous Research and New Directions, Department of Organizational Behavior ,Weatherhead School of Management Case Western Reserve University, Cleveland. P:2

(53) محمد بشير المسيعدين (2011) اثر نمط التعلم لدى طلبة جامعة مؤتة حسب نموذج كولب في كل من ذكائهم الانفعالي ودافعيتهم للانجاز، رسالة مقدمة لاستكمال درجة الماجستير في علم النفس التربوي، جامعة مؤتة.الاردن. ص10

(54) Kolb .D(1999) ibid :p 7

(55) Kolb .D(1999) ibid :p 7-11

(56 Kolb .D(1999) ibid :p: 37

(57) Carma Daouk (2013) : Effects of Dunn and Dunn Learning Styles Model on Achievement and Motivation: A Case Study, School of Arts and Sciences, lebanese american university. P 28

(58)- محمد بشير المسيعدين (2011) : المرجع نفسه، ص 11

(59)بسام عمر غانم، خالد محمد أبو شعيرة (2010): المرجع نفسه ، ص

(60) إيمان احمد شهوب الواحدي (2009): ضبط معايير الجودة في برامج إعداد المعلمين بكليات التربية الجماهرية الليبية، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر العربي الدولي لضمان جودة التعليم العالي، الجامعة الوطنية الماليزية. ص10.

(61) صالح علي فصالة (2010) مهارات التدريس الصفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، عمان، الأردن. ص12

(62) عفت مصطفى الطناوي (2011):التدريس الفعال - تخطيطه، مهاراته، استراتيجياته، تقويمه، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الاردن. ص82

(63) دعمس مصطفى (2009): اعداد وتاهيل المعلم، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، عمان الاردن.

(64) احمد علي كنعان (2009) المرجع نفسه، ص 41.

(65) Institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2015). Ibid :p 12-24

(66) سوسن شاكر الجبلي (2011): المرجع نفسه، ص 25

(67) الجمهورية الجزائؤية الديمقراطية الشعبية (2011): المرجع نفسه

(68) Institut national de la formation et l'enseignement professionnels : (2014) ,Ibid : p 9

(69)رياض يوسف سمور (2006): دور برنامج المدرسة وحدة تدريب في النمو المهني للمعلمين، مجلة الجامعة الإسلامية سلسلة الدراسات **الإنسانية**، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، فلسطين، ص ص 463- 503. ص483

(70) حسن حسين البيلاوي (2005):الجودة الشاملة في التعليم بين مؤشرات التميز ومعايير الاعتماد، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، الأردن. ص120.

(71) الجمهورية الجزائؤية الديمقراطية الشعبية (2011): المرجع نفسه: ص 4

(72)Institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2014) (2015). Ibid .

(73)احمد كنعان (2009) المرجع نفسه، ص40

(74) Universieté de geneve (2015) : ibid, p 16

(75)الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية (2011): المرجع نفسه: ص 3

(76)Institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2014) (2015). Ibid :p 6/ p26

(77) عمر عبد الرحيم نصر الله (2008) أساسيات في التربية العملية، دار وائل، الطبعة الثانية، الأردن. ص22

(78) بسام غانم وخالد أبو شعيرة (2010): المرجع نفسه.

(79) احمد علي كنعان (2009) : المرجع نفسه ، ص 42

(80) دعمس مصطفى (2009): المرجع نفسه ، ص 35

(81) عمر علي دحلان (2013) درجة تافر معايير الجودة الشاملة في برنامج إعداد معلم اللغة العربية في كلية التربية بجامعة الاقصى، مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الانسانية) ، المجلد السابع عشر، العدد الثاني، ص ص 35-66.ص 43.

(82)Institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2014) ibid : p 6

(83)محمد الصيرفي (2009) التحليل على مستوى المنظمات، الموسوعة العلمية للسلوك التنظيمي، الجزء الرابع، المكتب الجامعي الحديث. ص 241.

(84)عمر علي دحلان (2013) المرجع نفسه : ص 46.

(85)Institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2014) : ibid , p 4.

(86)رشدي احمد طعيمة (2006): الجودة الشاملة في التعليم مؤشرات التميز ومعايير الاعتماد، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، الأردن. ص166.

(87) بلال السكارنه (2006): المرجع نفسه، ص 70

(88) أبو عرابي، سلطان و محمود رأفت محمد (2013) دليل ضمان جودة البرامج الأكاديمية في كليات الجامعات العربية، اتحاد الجامعات العربية، الأردن.ص 31.

(89) **Ann** Stes **et Peter** Van Petegem, « La formation pédagogique des professeurs dans l'enseignement supérieur », *Recherche et formation*, 67 | 2011, 15-30. P 15

(90)Institut national de la formation et l'enseignement professionnels (2015) : ibid, p27.

(91)هيثم عبد المجيد واخزون (2013): دراسة تقييميه لأثر البرامج التدريبية في عمادة الجودة والتطوير جامعة حائل، السعودية.

(92)بوعبد الله لحسن، نابي نبيلة (2010): مقاربة منظومية للبرامج التكوينية، منشورات مخبر إدارة وتنمية الموارد البشرية، ، جامعة فرحات عباس سطيف الجزائر، ص 30.

(93)رضا حيرش (2008): المرجع نفسه ، ص11.

(94)رياض يوسف سمور (2006): دور برنامج المدرسة وحدة تدريب في النمو المهني للمعلمين، مجلة الجامعة الإسلامية سلسلة الدراسات **الإنسانية**، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، فلسطين، ص ص 463- 503. ص483

التخلف برزخ بين عالم الغيب وعالم الشهادة

أ/ بهلول عبدالقادر، جامعة تيارت
طالب دكتوراه، جامعة وهران 02 محمد بن أحمد
بإشراف أ.د/ محمدي رياحي رشيدة، جامعة وهران 02

ملخص:

السمة الطاغية في تحديد معالم المجتمعات المتخلفة غياب "قيمة العمل" فهي مجتمعات تحيا حياة برزخية حيث لا قيمة للعمل ،إخراج المجتمعات العربية الإسلامية من حالة التكلس الحضاري إلى الفاعلية الحضارية جعل الخطاب الفلسفي العربي الإسلامي يحدد معالم العلاقة القائمة بين عالم الغيب وعالم الشهادة ومقتضيات كليهما،وعلى هذا الأساس تتبلور مسألة التنوير التي كانت ولا زالت تغذي الخطاب العربي في جميع تمظهراته ،مرجعية هذه المسألة ثنائية اقتضت الصيرورة التاريخية عدم توازنها ،ثنائية تمثل ضدان لا زال العقل العربي الإسلامي يبحث لها عن تركيب يحقق الإنصاف الحضاري ،بحث تعكسه أسئلة محيرة مستفزة مقلقة ترتب عنها عدة أطروحات معرفية زادت من تعميق القلق الذي أخذ بعدا وجوديا وقيميا ومعرفيا تناسلت منه عدة إشكاليات مضامينها تحدد مسارات تمثل في جوهرها محاولات تتفاوت في جديتها للقضاء على شبح التخلف والعطالة الحضارية .ما بين الأطروحات النظرية والجانب التطبيقي برزخ كالبرزخ الموجود بين عالم الشهادة وعالم الغيب ،ذلك أن تشخيص عوامل التخلف وتحديد الوصفة الناجعة يتجلى في ثنايا الفكر العربي الإسلامي المهووس بفكرة التقدم لكن الأفكار والمقاربات مهما كانت جدية وقوية لا تجدي نفعا في ظل **المفارقة القائمة بين النظري والعملي** من ناحية **والفصل المطلق بين العقل والوحي ،وبين العبادات والمعاملات** من ناحية أخرى ،إن هذه المفارقة تمثل برزخ بين عالم الشهادة وعالم الغيب كرس مفهوم التخلف. .

وعليه الإشكالية: هل استطاع الخطاب الفلسفي العربي الإسلامي الحديث والمعاصر تجاوز الثنائيات القاتلة القابعة هناك في رحم التراث والمعطلة للإقلاع الحضاري؟

الكلمات المفتاحية: التخلف، التنمية، عالم الغيب، عالم الشهادة، التنوير.

Abstract: Backwardnessbetween the unseen world and the witnessed one The topic of Arabic enlightment was and is still feeding the Arabic discourse with all its aspects, distinguishing between worshipping and dealing, theoretical and practical, faith and work, It shows the collective mind which bring the changing project between the unseen world and the witnessed one, i.e : the work as a civilizational value in the Islamic philosophy and worshiping which leads to the Arabic philosophical discourse in the present day.

Therefore the problematic is : could the Islamic and Arabic philosophical discourse overcome the fatal dichotomy in the patrimony ?

تعددت مقاربات الفكر العربي الحديث والمعاصر الداعية للتنوير، وتزامن ذلك مع تخبط في تشخيص ظاهرة التخلف، مقاربة سلفية بنت تصوراتها على عالم الغيب، وأخري ليبرالية حاولت أن تجتث الفكر من عوالم الغيب على أساس أن الفكر التنويري يستمد حقيقته من عالم الشهادة، وعليه معادلة من أُتي جوامع الكلم" اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لأخرتك كأنك تموت غدا" ..باتت مبهمة تعذر الوقوف على حدي طرفيها، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :"إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث ولد يدعو له وصدقة جارية، وعلم ينتفع به" ..ذلك أن الحياة البرزخية وهي تنتمي إلى عالم الغيب لا عمل فيها، أما عن عالم الشهادة فالعمل جوهر بل قوام الحياة والغاية من الوجود، إنهحلقة الوصل بين العالمين فإذا غاب العمل واكتفينا بالنظر كان البرزخ بين العالمين وذلك هو التخلف بكل ما يحمله من أبعاد تخلف روحي أخلاقي قيمي وتخلف مادي مجاله الحضارة والثقافة الداعية لقيم السكون .

لا يمكن الفصل بين ظاهرة التنمية، وظاهرة التخلف فبينهما علاقة تلازم في الحضور على مستوى التصور إلى درجة أننا نستطيع القول أن التنمية ببساطة هي القضاء على التخلف في هذا السياق يُحَدد **محمد عابد الجابري** معنى التنمية من خلال مُقاربة يقيمها بين مصطلح الفلسفة ومصطلح المدينة، يوظف أسطورة الطوفان، التي مضمونها أن كبير آلهة اليونان زوس zeus قرر أن يغرق البشر في الطوفان بعد أن انتشر الفساد والظلم والاستبداد على الأرض واستثنى من البشر الملك **دوكاليون** deucalion وزوجته **بيرها**pirrha لأنهما كان عادلين محبين للعدل بعد حدوث الطوفان مضى زمن شعر فيه الملك وزوجته بالوحدة فسألا زوس أن يعمر الأرض بالبشر فأمرهما أن يرمي كل منهما بالأحجار وراء ظهورهما، تحولت تلك الأحجار إلى بشر «يحتاج الناس حينئذ إلى إعادة البناء ويقومون بما نعبر عنه نحن اليوم ب"التنمية". والتنمية، أو العمران والتعمير لا فرق تتناول ميادين ثلاثة:ميدان الاقتصاد، وميدان المهن والصناعات، وميدان الاجتماع والسياسة والثقافة. والتنمية في هذا المجال الأخير كما في المجالات الأخرى لا تصدق ولا تُحقِق الهدف منها إلا إذا كان التدبير فيها يتم بالحكمة، الحكمة التي تعني معرفة ما هو موجود ومعرفة ما يجب..وتلك هي الفلسفة في علاقتها بالمدينة...العودة إلى الفلسفة إذن هي اليوم كما كان الشأن بالأمس ضرورة يفرضها فشل التدبير الذي تم بدون حكمة فأدى إلى الأزمة..»[1] يبدو أن الجابري في تعريفه هذا يربط التخلف بسوء التدبير في المجال السياسي، ويجعل الحكمة مرادفة لمصطلح الفلسفة، والسؤال المحرج الذي يطرح في هذا السياق أي فلسفة ؟ ثم أليس مصدر الخطاب السياسي الخطابالفلسفي ؟ ومنه سوء التدبير مصدره بالدرجة الأولى الخطاب الفلسفي الذي لا يعي أدواته ولا يعي من يخاطب.إن الحكمة التي تحصر الوجود في أحد العالمين لا تمثل إلا نصف الحقيقة، ومخرجاتها تكرس التخلف باسم الدين أو باسم الحضارة والتمدن، حضارة كل شيء موجود فيها إلا إنسانية الإنسان التي غابت أو تآكلت بفعل التطبيع الثقافي الداعي إلى عدم الاعتراف بالعمق الميتافيزيقي للإنسان، على أساس انه عائق أمام التقدم، وكابح للحريات الشخصية، وتبقى عندئذ مسألة الدين والتدين مسألة فردية تنتمي إلى دائرة الحريات الشخصية لا علاقة لها بالمشروع المجتمعي، فترتب عن ذلك الفتنة التي هي أشد من

القتل لان ذلك فتح المجال واسعا لمفهوم التطرف، تطرف يمكن النظر إليه على مستويين:**الأول** يعتقد أن حقيقة التقدم مصدرها عالم الغيب، **والثاني** يعتقد أن مصدرها عالم الشهادة .

الفكر العربي الحديث والمعاصر غني بأطروحاته النهضوية الإصلاحية، لكنه غنى من لا يمتلك شيء فسوق الأفكار تعج بالأفكار والزبائن غائبون فما فائدة الإبداع في غياب المبدع الحقيقي وهو رأس المال البشري الذي بدونه لا يمكن أن يتحقق الإقلاع الحضاري؟ إن جوهر الموضوع يجز بنا جزا إلى خطورة الخلط بين الدين والتدين، فالدين مرجعيته متعالية يعبر عنها بالنص أو النقل، أما التدين فهو ممارسة مقتضيات الدين وفق هرمينوطيقا معينة إما قائمة على الشك يلعب فيها العقل الدور الفعال كأداة معول عليها في تحقيق التنوير، أوهرمينوطيقا قائمة على أساس الإيمان الذي مصدره نور الأنوار كتاب جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ورسول مبعوث هادي إلى الله وسراجا منيرا، ترتب عن ذلك على الصعيد النظري إذا خطابين :خطاب يمثله أنصار التيار النصي، وخطاب يمثله أنصار التيار العقلي..

- **التيار النصي المعاصر** بجميع أطيافه يعتقد أنه يمتلك الحقيقة لأن خطابه مرجعيته الواحد الأحد مبدأ الوجود ورسوله عليه الصلاة والسلام«وهو الفكر الذي ينهض أو يقوم على النص الديني (الإسلامي) ويستمد منه سلطته المعرفية، ويعتمده كمرجعية مطلقة وقاطعة، وأولى وأخيرة، في أمور الدين والدنيا»[2]وهو تيار يمكن أن نميز فيه فريقين الأول يوصف بالأصولي لأنه يقف عند حدود الظاهر من النص أي يتقيد حرفيا بالنص والوقوف على ظاهر النص في حد ذاته تأويل يدخل ضمن هرمينوطيقا الإيمان أما الفريق الثاني فيوصف بالتحديثي ويتبع أنصاره منهج التأويل للنص على أن كليهما ينطلق من القاعدة الأشعرية "النص سابق على العقل" وهؤلاء يجمعون بين هرمينوطيقا الأيمان والشك.

تجليات التيار النصي ترتب عنها سلوك يتغذى من مخرجات الخطاب على مستومتطرف، أو مستوي يروم التوازن، حول الصراع من المستوى الحضاري أي معركة التعمير والتمكين والبناء هذا الذي يصطلح عليه بالتنمية، إلى معركة شعارها الخوف على الدين ، فالآخر الظالم المتمادي في ظلمه ومن يواليه حسب زعمهم معطل لمسيرة التعمير بممارساته العدوانية المرسخة للتخلف لأنه استغني عن الدين أو جعله عرضيا في حياة الأمة أي بدل دنياه بآخرته، وسار على هدي الآخر الأجنبي فلو دخل جحر ضب لتبعه، الخطاب على المستوي النفسي يبث مظاهر الحصرة والحزن والتباكي..، ويبرز أمجاد الماضي الذي أصبح وعاء زمني مفرغ من الفعل الحضاري إلا ما تعلق بالقشور، والعائق الأكبر المعطل لمسيرة التقدم حسب زعمهم محصور في المسألة السياسية بحيث معركة البناء أصبحت معركة محاربة الاستبداد بحثا عن مراكز القوة لكن في غياب الوعي التاريخي بالراهن ومقتضياته، هذا الخطاب كان له بالغ الأثر في استفزاز عواطف الجماهير المحبة لدينها والمضللة في التعبير عن هذا الحب، فكانت الثورات العربية التي بدأت بحلم جميل وانتهت إلى واقع مزعج عمق التخلف وزاد من درجة التأخر، فالترهيب والتخويف والتكفير وذم الدنيا، وتأجيج المشاعر الدينية.. كانت أدوات هذا الخطاب المتطرف المؤدلج ومصطلح

"حزب إسلامي " في حد ذاته يحمل في طياته نفي الإسلام عن الآخر، إن الخوف على الدين بهذا المعني أدي إلى خلخلة البنى الاجتماعية بالتركيز على مواطن الاختلاف تحت مسمى تصحيح العقيدة والنتيجة يمكن حصرها في أنه خطاب يقتات من الماضي غير مبالي بالحاضر وسلطة الآخر المتنامية، إنه خطاب يتنكر لعالم الشهادة جملة وتفصيلا ..

-**التيار العقلي العربي المعاصر** بجميع أطيافه يتبنى خطاب شق طريقه على هدي ثورة لوثر وحركته الاحتجاجية ضد الكنيسة على أساس أن التيار النصي يحجر على العقل الذي به تحدد ماهية الإنسان بل لولا العقل لما كان هناك الوحي وعليه علاقة النص بالعقل علاقة هرمينوطقية تستدعي حضور الواقع بكل تجلياته وهؤلاء امتداد لتراث فكري قائل بالقاعدة المضادة"أسبقية العقل على النص" يمثله من القدماء بامتياز المعتزلة وغالى فيه ابن الراوندي ومحمد بن زكريا الرازي.. أما المعاصرين فوجدوا ما يستجيب لهذا المعنى في فكر الحداثة كمنظومة معرفية اتخذت من العقل المرجعية لتحقيق التقدم، كتجربة حية ثمارها الإيجابية مشخصة عند الآخر، فراحوا ينسجون على منواله، فالعالم العربي وفق تصوراتهم في أمس الحاجة إلى عصر أنوار عربي ومنهم ناصيف نصار، وطه حسين، وشبلي شميل، وسلامة موسى، ويعقوب صروف، وإسماعيل مظهر، وفؤاد زكريا.. وعليه التيار العقلي تيار حداثي والحداثة تمثل« نهج في التغيير الحضاري الشامل الذي يقوم على الانفصال العميق عن كل إعادة وتكرار وتلفيق، أي عن كل رجوع إلى الأصل .يعتمد على العقل البرهاني والتجريبي في تطوير المجتمع من خلال تطوير اقتصاده وأنماط حياته وتعبيراته، وتخليصه من الإيديولوجيات السحرية الغيبية، ومن التقاليد المكبلة ومن انتماءات الماضي .فلا حداثة دون عقلنة الفكر ودون انفصال العقل العلمي عن الوجدان الديني، وحده الأسلوب العلمي والمنهج العقلاني يبني الدولة العصرية..»[3] إذا كان التيار الأول يخاف على الدين فالتيار العقلي يخاف من الدين وكلاهما لم يعمل على استثمار عناصر القوة في الدين الداعية إلى التنوير .

تصادم الخطابين على الصعيد النظري بعيدا عن الفعل الحضاري أوقع الجميع في مستنقع التخلف، فلا حركة الإصلاح مع الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبدو ..حققت كل أهدافها، ولا من ورثوا الفكر الإصلاحي بكل همومه وإشكالاته من المعاصرين استطاعوا بمشاريعهم النهضوية تخليص الوطن العربي من هذا المستنقع، ذلك أن **الهوة بين النظري والعملي** من ناحية، **والفصل المطلق بين العقل والوحي، وبين العبادات والمعاملات** من ناحية أخرى يمثل برزخ بين عالم الشهادة وعالم الغيب.

الإنسان روح ومادة ولكل مكون مطالبه وفي غياب التوازن مابين العالمين تعددت المسائل في الفكر العربي من سؤال المعرفة، إلى سؤال الثقافة، إلى سؤال السياسة، إلى سؤال الحضارة، وبالإمكان حصرها في سؤال واحد وهو سؤال التنمية الشاملة، أسئلة قلقة تنم عن قلق وجودي معرفي وقيمي لذات مضطربة بعد ما كانت مالكتا لمسارات التاريخ توجهها كيف ما شاءت في عصرها الذهبي (04قرون الهجرية

الأولى)أصبحت تبحث لنفسها عن مكان في التاريخ من خلال التأريخ، وليس من خلال صناعة التاريخ ذلك أن ينابيع الإبداع جفت وإن كان هناك إبداع فهو يعيش ميتا في عالم البرزخ ينتظر وقت الحساب لا لشيء إلا لأن الهوة بين الركام المعرفي النظري، والجانب العملي اتسعت أبعادها، فكان جدير بالفكر العربي في أبحاثه أن يتساءل لما نحن قوم نقول ولا نفعل؟ ما عوائق وكوابح تحويل القول إلى فعل؟ عوض التساؤل عن ماهية التخلف عندها الفكر المحنط ربما يعرف طريقه إلى الحياة التي هي وسط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، والتي لا يستقيم معناها إلا بالعمل على المستويين، فكيف السبيل إلى تحديد طرفي هذه المعادلة ؟

مسألة العلاقة بين **العلم والعمل والإيمان ومسألة** علاقة **العقل كوسيلة معرفة بالوحي** من المسائل الجوهرية التي ركز عليها القدماء والمعاصرين من مفكرينا وفلاسفتنا، **طه عبد الرحمن**[*] في كتابه "سؤال العمل" قارب بين هذه المفاهيم فبالنسبة له من يسأل **: ما العمل ؟ وكأنه يسأل:"كيف أكون آية"؟ أو"كيف أجعل من نفسي آية"؟ كيف وصل إلى هذه النتيجة؟:**

أ. **العلاقة بين العلم والعمل والإيمان:**

1. التساؤل عن ماهية العمل لا تكفي للإحاطة بغرضه، فسؤال ما العمل لا يراد لذاته وإنما يراد لغاية أهم وهي ممارسة هذه الحقيقة عينها .
2. معرفة الحقيقةتنزل من العمل منزلة العلم، ولا عمل بغير علم، والعكس صحيح، فالعلم لايتصور في العقل بغير إمكان الاشتغال بطريقته، وهذا الاشتغال هو العمل.
3. العلاقة بين العلم والعمل تحكمها ثلاثة مبادئ :"مبدأ تقديم اعتبار العمل، ومبدأ العلم المستعمَل، ومبدأ العلم النافع" حسب الفكر الإسلامي المبدأ الأول يحث على أن كل مسألة نظرية أو كلام لا يترتب عنه عمل لا فائدة منه ولا حاجة للبحث فيه..أما المبدأ الثاني فيستلزم بأن نتعلم من العلم ما نعمل به فقط فلا نزيد على ذلك حتى نعمل بما تحصلنا عليه من العلم ثم أخيرا المبدأ الثالث ويقضي بأن نراعي في تحصيل العلم ثماره الآجلة والعاجلة التي تعود على الفرد والمجتمع بالنفع، وهذه المبادئ تمثل حدودا للعلم والعمل.
4. المقابلة بين "النظر"و"العمل" إرث يوناني لا ينسجم مع طبيعة الفكر الإسلامي، لكن المجال التداولي الإسلامي أضفى عليه خصوصيته فأعطاه الصبغة العملية "فالنظر" أصبح ينتمي إلى دائرة "أعمال القلب" و"العمل" ينتمي إلى دائرة "أعمال الجوارح" ومنه كل تغيير مرهون بعمل وكل تأمل أو نظر يتضمن قوة العمل إذا السيد، الحاكم أو الفيلسوف اليوناني كان يقتات بسعادة غيره وهم الأشقياء المعذبون في الأرض..
5. كلما تغلغل الإنسان في العمل، زاد علمه، واتسع عقله ويقول الرسول "ص" في هذا المجال "من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لا يعلم"ومنه كلما انغمس طالب العلم في العلم، كانت الثمرة عمل صالح

وكلما انهمك في العمل كانت الثمرة علم أنفع.وتجدر الإشارة إلى أن مصطلح "العلم" و"العمل" يشتركان في الاشتقاق اللغوي ع/ل/م عبارة عن تقليبين مختلفين من التقاليب الستة الممكنة لهذه المادة .

6. سر الوجود وعلى رأسه الإنسان أن **يتبين هذا الإنسان الآيات في نفسه وفي الآفاق**، فيدرك بحيث لا يخالط إدراكه ريب أن هناك خالق جعل من الوجود والإنسان آية، ومنه ليس للإنسان من سبيل إلى النهوض بوضعه كآية وبمقتضياتها إلا الدخول في العمل باختياره إذا الإيمان موجب للعمل، والعمل بغير إيمان مفرغ من المحتوى الوجودي كما أراده الله تعالى، فقد يبلغ فيه الإنسان مبلغا عظيما فيكدس ما يكدس لكن لا يحيا كإنسان.. بهذا المعنى حركية الفكر التربوي الإسلامي تعانق عالم الوجود والقيم فالعلم والمعرفة أدوات بها يرقى الإنسان إلى درجة الكمال إن عرف ولزم لكن هيهات، والتكيف مع نوازع الشر مسألة نسبية، وكأني بمصطلح النزعة الإنسانية الذي تغنت به فلسفة عصر النهضة الغربية يمثل في الفكر الإسلامي تحدي قائم في ذات الإنسان المؤمن برسالته في الوجود المتعارك دوما مع نوازعه الذاتية التي تسعى لقتله واستعباده واستعباد الآخر، فلا علم، ولا عمل ولا إيمان إلا بحب الآخر، وتلك لا عمري أرقى معاني النزعة الإنسانية، فما أحوج الأمة الإسلامية عامة والأمةالعربية خاصة لهذه المعاني في مسيرتها الحضارية المتعثرة، فالخصم هو "الأنا" و"الآخر" معين لي عليه، وأنا معين له عليه، وغايتنا واحدة تجسيد الخلافة بالمعنى الديني والحضاري والثقافي فحضارة الغرب هي نصف الحقيقة، أو حقيقة مشوهة، لأنها شوهت معنى إنسانية الإنسان، وعليه لا يمكن فهم الذات إلا بالخروج عن الذات، فالإنسان لم يعرف أن الأرض كروية ويتيقن من هذه المعرفة التي أصبحت ثابتة إلا بعد الخروج عن الأرض، ولما كان الإنسان عالم قائم بذاته مندرج في عالم أكبر منه كانت إمكانية الخروج عن الذات واردة وإمكانية الخروج عن العالم غير واردة، لكن رغم ذلك يستطيع الإنسان أن يعرف إذا عقد صلحا مع الله فلم يجعل العقل إلها، وكسر أصنام الوثوقية والأنانية والتمركز على الذات وجعل منطلق الحضارة مبادئ الوحي والعقل، والقلب لفهم حقيقة المعرفة والوجود والقيم.. لا شك أن فهم بهذا المعنى تتعانق فيه السماء مع الأرض لا يتحقق إلا بأساليب تربوية متشبعة بفلسفة تربوية مرجعيتها الوحي والعقل ولا تعارض بينهما..

ب. **علاقة العقل كوسيلة معرفة بالوحي:**

يحدد **طه عبد الرحمن** علاقة **العقل كوسيلة معرفة بالوحي** مبرزا مبررات الفصل ما بينهما مفندا تلك المبررات فيرى بأن الفصل تم تناوله من ثلاثة جوانب :

1- العقل بمعني الرأي والرأي يضاد الوحي..

2-الوحي بمعني النقل والنقل يضاد العقل ..

3-الوحي خبر خارجي، والخبر الخارجي يضاد العقل..زبدة تحليل وتفنيد كل نقطة من هذه النقاط كالتالي:

- أما الزعم الأول فالرأي تجلى من تجليات العقل وعليه «فمن يرد العقل إلى الرأي يكون كمن يرد الكل إلى الجزء، فيكون هذا الرد باطلا، فالرأي إذن ليس مرادفا للعقل..»[4].

- أما الزعم الثاني فمرجعيته حصر مصطلح الوحي في المعنى الخاص فقط أي الكلام الذي أنزله الله سبحانه على أنبيائه، دون الانتباه إلى المعنى العام للوحي الذي لا تستقيم سيرورة الوجود بصفة عامة والوجود الإنساني بصفة خاصة إلا به وهو « ما يلقى في القلب من العلم، ويبدو أن صلة الوحي بالقلب هي أقوى صلة يمكن أن تكون لأي فعل إدراكي به، بحيث لا وحي إلا في القلب وإذا كان الأمر كذلك، لزم أن يكون الوحي أقرب فعل إلى العقلوإيضاح ذلك أنه، لما كان العقل هو الفعل المميز للقلب، وكان الوحي عبارة عن إلقاء في القلب، دل ذلك على أن الوحي إنما هو امتداد للفعل العقلي نفسه بحيث يورثه علم ما لم يعلم بنفسه، ولولا وجود قدر مشترك بين الوحي والعقل، لما حصل هذا الإمداد الذي من شأنه أن يوسع آفاق العقل..»[5]

- أما الزعم الثالث فيفنده بثلاثة حجج الأولى :النقل يقتضي أن الخبر ينقل عن قائله على ما هو عليه من دون تغيير لفظه، والوحي خبر نقله الأنبياء إلى أقوامهم على النحو الذي نزل به، لكن ليس في الخبر المنقول ما يدل على تعارضه مع العقل لأن« كل قول منقول هو من إنشاء قائله، وهذا الإنشاء يقتضي من العقل ما يقتضيه القول غير المنقول، ذلك أن النقل لا يكون إلا مجرد تحريك للقول من قائل إلى غيره لا أثر له في مضمونه ...فما الظن إذا كان المنقول هو كلام الله عز وجل وكان الناقل –أو قل المبلغ- هو النبي الصدوق!»[6] ومحتوى هذه الحجة أنه من غير المعقول إن ينزل الوحي على عقل غير مؤهل للمعرفة فوحي الله هو منتهى العقل ودعوته على لسان أنبيائه، دعوة إلى كمال العقلانية ..ومضمون الحجة الثانية يلزم فيها الفاصل بين العقل والنقل إلى التأمل في معارفه، والنتيجة التي يتوصل إليها حتما، أن أغلب المعقولات من معارف الإنسان منقولات، فحياته تستحيل لو توجب عليه أن لا يأخذ إلا بما يتوصل إليه عقله فكيف يثق في منقولات غيره ولا يثق في الوحي وهو كمال العقل ؟أما الحجة الثالثة فيقول « يبدو أن السبب الذي دعا إلى مقابلة المنقول بالمعقول هو الاعتقاد بأن الخبر يضاد النظر، بحيث يعتبر النظر مرادفا للعقل والخبر مرادفا للنقل، ولكن ..الخبر قد يكون نظرا منقولا، كما أن النظر قد ينبني على خبر، وحتى لو سلمنا بالتضاد بين الخبر من جهة أن الأول يوجب التوسط، وأن الثاني لا توسط فيه، فلا نسلم بالترادف بين النظر والعقل ولا بين الخبر والنقل، فالعقل أعم من النظر، لأنه فعل القلب الجامع، والنقل أعم من الخبر، لأنه فعل التحريك من موضع إلى موضع، أيا كان الشيء المتحرك..»[7].

أما في سياق تحليله لمعنى"خبر خارجي" فيرى أن الإنسان لا يمكن أن يتصور علاقته بالعالم الغيبي أو عالم الملكوت إلا من خلال مقولات العالم المرئي التي فطر عليها حتى أنه يضطر إلى التشبيه فيمن حقه التنزيه

ومن هذه المقولات الجهات المكانية "خارج وداخل"..."فوق وتحت"..فالجهة "فوق" دلالة تقريب وليست دلالة تحقيق عندما يتعلق الأمر بالوحي، كما أنها تحمل دلالة السمو المعنوي، ويبقى الله سبحانه وتعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، قريب إلى قلوبنا وعقولنا، فهو الواسطة إلى أنفسنا، فلولاه ما عقلت قلوبنا، ما عقلت عقولنا والآيات على ذلك كثيرة « وعلى هذا، فإذا وصف الوحي بكونه خارجيا، فلا ينبغي أن يحمل ذلك على معناه المكاني – أي المرئي – وإنما على معنى غير مكاني – أي غيبي – وإلا فالأولى أن تكون قلوبنا هي المعدودة في الخارج، وليس الوحي، لأنه هو الذي يتوسط في عقلها، فينزل منزلة الداخل بالنسبة إليها ويترتب على هذا، أن الوحي ليس خارجيا إلا في الظاهر الذي يحكمه قانون المكان، وإنما حقيقته أن له "وجود داخلي" أعمق من "الوجود الداخلي للعقل"، إذ هو الواسطة فيه..»[8].

إن ما يدفعنا إلى هذا التحليل قضايا ذات طابع إبستيمولوجي أفرزها العلم الحديث والمعاصر مرجعيتها المنهج المتبع في تصور حقائق الوجود وهو المنهج التجريبي، وفي هذا تكريس وتعميق للمفاضلة بين الحس والعقل في تقصي الحقائق، مفاضلة ترتب عنها سفسطة علمية، لغة الحوار فيها راقية ومفاهيمها معقدة والغاية منها نصف الحقيقة، وكان منتهى هذا الحوار العودة إلى المرجعية الميتافيزيقية، فتنازل العقل مستسلما ذليلا لبعض المبادئ التي أسس عليها علومه وكان الإيمان بها ضرورة علمية، كالإيمان بمبدأ الحتمية، ومبدأ السببية ..فتحول مسار العلم من القانون إلى النظرية، فالفيزياء الكلاسيكية التي مبدأها الحس أصبحت نظرية مبدأها العقل والرياضيات الكلاسيكية التي مبدأها الحدس الحسي أصبحت عقلية خالصة وكل هذه العلوم وغيرها أصبح قائمة على أساس الفرضية التي هي فكرة مقترحة على أساسها يتم بناء النظرية العلمية، ونتاج هذا التراكم المعرفي لا يخرج عن دائرة النسبية ويبقى مصطلح النسبية، والضرورة المنطقية، والحتمية واللاحتمية... أدوات معرفية غامضة باهتة في ظل إسرار العقل العلمي على تحييد المعطى الميتافيزيقي في معاينة حقائق الوجود وتاريخ العلم يقر بحقيقة موضوعية وهي أن الميتافيزيقا تجَبُ العقل ومنتجاته، فكلما حاول الهروب منها وقع في أحضانها، أعتقد أن تاريخ العلم ليس إلا حوار بين الميتافيزيقا وحلم تحصيل الحقيقة العلمية، حقيقة الإنسان حقيقة الوجود، حقيقة المصير..ومفاتيح هذه الحقائق ممكنة إذا نبذ العقل العلمي فكرة لا أومن إلا بالمشخص أي إذا نبذ فكرة المفاضلة بين العلوم الحسية والعلوم العقلية وبعبارة أوضح إذا تآلف العقل والوحي، رب قائل إن طرحكم هذا محض هراء، نعم هو كذلك بالنسبة لواقعنا العربي الإسلامي المعاصر الذي تعثرت نهضته رغم وجود منطلقات النهوض، مستلقيا على الأرض لا قدرة للحركة لديه راح يتطلع بعيونه الشاخصة لثمرة عصر الأنوار والحداثة، ولا زال متكلسا يناقش في خطابه الذي يسوقه والمفصول عن الواقع إمكانية الدخول في العولمة من عدمها وبالأمس القريب كان يناقش مشكلة الأصالة والمعاصرة .

على هذا الأساس نستنتج أن العقل الفلسفي العربي الإسلامي المعاصر بهذا المعنى فاقد لهويته كان ولا يزال يبحث عن هويته بعيدا عن الافتقار لله تعالى، وهويته التي بها استطاع وضع أسس ومنطلقات

العلم في العصر الذهبي والتي تلقفها الغرب وجعلوها مبدأ لحركتهم العلمية، هوية إيمانية قائمة على مبدأ العلم والعمل، والإيمان بالله تعالى وفي ذلك صلاح الدين والدنيا.

الهوامش:

1- الجابري محمد عابد، "قضايا في الفكر المعاصر"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1- 1997، ص 16.

2- الحاج كميل، "تصدع العقل العربي المعاصر أو الصدام الصاعق مع الحداثة"، دار الحداثة، بيروت، ط1، 2010، ص38.

3- صادق جلال لعظم، "نقد الفكر الديني"، دار الطليعة، بيروت، 1919، ط1، ص 8.

*- أنظر: عبد الرحمن طه، "سؤال العمل بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2012م، ص6، 7، 8.

4- عبد الرحمن طه،"سؤال العمل بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2012م، ص95.

5- نفس المرجع، ص 95.

6- نفس المرجع، ص96.

7- نفس المرجع، ص 97.

8- نفس المرجع ص 98.

مصدر السلطة والشرعية لدى المثقف والسياسي في الجزائر وطبيعة العلاقة بينهما

أ/ دادي محمد ، جامعة تيارت/ طالب دكتوراه بجامعة وهران 2

بإشراف أ.د /مزوار بلخضر ، جامعة تلمسان

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مواقف وآراء المثقفين الجزائريين، وذلك بالرجوع إلى الفترة الاستعمارية، أي اتخاذ فترة بداية القرن العشرين كمرحلة مرجعية، وذلك لسببين اثنين وهما: -التحاق بعض الجزائريين بالمدرسة الاستعمارية ووصول بعضهم إلى مستويات علمية رفيعة، وهذا ما أهّلهم إلى أن يكونوا من فئة المثقفين بالمفهوم الحديث للكلمة. أما السبب الثاني فهو وجود الظاهرة الاستعمارية والتي تتطلب نضالا وكفاحا من أجل استرداد الحرية والاستقلال من طرف شعب مستعمر، والذي من المفروض أن يكونوا المثقفين في طليعته.

فالفئة المثقفة الجزائرية في معظمها خلال النصف الأول من القرن العشرين، كانت تطالب بالاندماج والمساواة مع الفرنسيين داخل الدولة الاستعمارية، في حين أن الفئات الشعبية هي التي انحازت إلى الحركة الوطنية والتيار الاستقلالي. كما أن الحرب التحريرية قامت في غياب المثقف وكان التحاقه بها متأخرا نسبيا وهذا ما جعله في موقع التابع للسياسي (العسكري). وقد استمرت هذه العلاقة إلى ما بعد الاستقلال، حيث بقي المثقف الجزائري بعيدا عن سلطة القرار السياسي لافتقاده للشرعية والمشروعية التي استولى عليها (السياسي-العسكري) باسم الشرعية التاريخية والثورية.

الكلمات المفتاحية: المثقف، السياسي، الثورة، السلطة، الشرعية، المشروعية.

Abstract : The aim of this study is to reveal the attitudes and opinions of the Algerian intellectuals by reference to the colonial period, ie, the beginning of the twentieth century as a reference stage. This is because of the following two reasons: - Some Algerians enrolled in the colonial school and some of them reached high levels of science. Of intellectuals in the modern sense of the word. The second reason is the existence of the colonial phenomenon, which requires struggle and struggle for the restoration of freedom and independence by a colonized people, who are supposed to be intellectuals at the forefront.

During the first half of the 20th century, the Algerian intelligentsia was demanding integration and equality with the French within the colonial state, while popular groups were aligned with the national movement and the independence movement. In addition, the liberation war was carried out in the absence of the intellectual. This relationship continued until after independence, where the Algerian intellectual remained away from the power of political decision for his lack of legitimacy and legitimacy seized (political-military) in the name of historical and revolutionary legitimacy.

Bey words : intellectual, political, revolution, power, legitimacy.

مقدمة: لا يمكن لأي مجتمع من المجتمعات أن يستغني عن الفئة المثقفة، لأنها هي الفئة المستنيرة التي بإمكانها نشر الوعي الاجتماعي وتنوير العقول، وتحديد الأهداف ورسم الآفاق المستقبلية للمجتمع والدولة معا. فالمتتبع لتاريخ الحركات الاجتماعية والثورات الكبرى يجد أن منظريها وقادتها كانوا مثقفين في الغالب. غير أن في الجزائر ونتيجة للاستعمار الاستيطاني الذي عرفته وما انجر عنه من تفكيك وتدمير للبنى السوسيو-ثقافية للمجتمع عن طريق السياسات الكولونيالية، والتي يعتبر التعليم أبرزها، حيث عمد الاستعمار إلى تفكيك التعليم المحلي ومن ثم إ نشر الجهل والامية في أوساط الجزائريين، واستبدال اللغة العربية باللغة الفرنسية والتي لم تكن متاحة إلا لفئة قليلة من الجزائريين. ونتيجة لهذه السياسة ظهرت فئة متعلمة من الجزائريين آمنت بمبادئ الحضارة الغربية عموما والثقافة الفرنسية على وجه الخصوص، وانبهرت بالتفوق العلمي والتقني لهذه الثقافة. وهذا ما انعكس على سلوكها وعلى طريقة عيشها، ومن ثم على آراءها ومواقفها من الاستعمار ومن الشعب الجزائري على السواء.

وفي المقابل كانت الغالبية من الجزائريين تعيش تحت وطئة الجهل والامية والفقر، هذه الفئة هي التي كونت النواة الصلبة للحركة الوطنية والتيار الاستقلالي الذي ناضل من أجل استقلال الجزائر، وكانت الحاضنة التي احتضنت النضال السياسي في الثلاثينيات والاربعينيات، وحملت السلاح وفجرت الحرب التحريرية في 54 في غفلة من المثقفين الذين انقسموا بين الاندماج والمساواة والانتخابات. ومن هنا وجد المثقف نفسه خارج اللعبة، وأمام خيارين اثنين لا ثالث لهما: إما الانضمام للثورة وبالتالي تبعيته لمفجريها، وإما الإخلاص لمواقفه وتصوراته وبالتالي الحكم على نفسه بالإقصاء والخيانة. ومن هنا بمكننا طرح الإشكال التالي: هل علاقة المثقف بالسياسي في الجزائر هي علاقة تبعية وسيطرة أم تكامل وتفاهم؟ وهل أنه من غير الممكن أن نفهم هذه العلاقة إلا بإرجاعها إلى مرحلة الحركة الوطنية والحرب التحريرية؟

1-المثقف الجزائري والحركة الوطنية:

في بداية القرن العشرين، بدأت الفئة الجزائرية المتعلمة في تشكيل هوية سياسية وثقافية تحت اسم (الشباب الجزائري). فأطفال القرن، كما يحب أن يسميهم (R.Ageron أجرون) ليسوا جيلا عضويا لسنة 1900. ولكن يجب أن ننتظر نهاية الحرب العالمية الأولى، كي يمكننا أن نفهم أكثر حركة (الشباب الجزائري)، ولكن هذه المرة مع فاعلين جدد في الحقل السياسي وفي الصحافة، أين نجد أن الأغلبية من الناشطين كان يدرسون في الثانوي كما نجد بعض الطلبة مثل (شريف بن حبيلس المولود سنة 1881، والدكتور محمد بن جلول، العربي طهرات وشريف سيسبان المولود سنة 1896، وفرحات عباس والدكتور بن خليل المولود سنة 1899 وبن عودة حاج سحان بشطارزي، المولود سنة 1894، ومحمد العزيز كسوس المولود سنة 1903[1]. فقد مثل هذا الجيل الفئة المثقفة باللغة الفرنسية، واللذين ساهموا في إنشاء

العديد من الجرائد والصحف، والتي كانت تدعو في معظمها إلى الاندماج داخل الدولة الفرنسية، وتطالب بالمساواة ما بين الفرنسيين والجزائريين تحت مظلة الدولة الاستعمارية الفرنسية.

فمشاعر المثقفين الجزائريين بعد الحرب العالمية الأولى، هي العامل الذي وجُه الأقلام السياسية لهذه النخبة[2]. إذ نجد فاني كولونا Fanny Collonaتعرف المعلمين الجزائريين أنهم: " وبالرغم من اختيار سياسة الاندماج كهدف نهائي حصرهم مسبقا في أطر النظام الكولونيالي الذي ينازعونه، فإن محتوى مطالبهم كان ثوريا بالمعنى الحرفي للكلمة "[3]. وقد أسس المعلمون جمعيتهم الأولى سنة 1912، ويليهم طلبة جامعة الجزائر وخريجي المدَّرسة Médersa في 1919. أما العلماء المسلمين الجزائريين فقد أسسوا جمعيتهم في 1931. والتناقض يكمن في الفعل والمبادرة حيث أن كلما زادت درجة التنظيم الداخلي وارتفعت، كلما تعقدت وظيفة المثقفين أكثر فأكثر[4]. وهذا ما تبرره الجرائد والمجلات التي كانت تصدر في تلك الفترة.

فالمثقف الجزائري قد شارك ضمن صفوف الحركة الوطنية، ولكن بصفة متقلبة في بعض الأحيان، فمشاركة المثقف كانت تتميز بوجوده على حواشي الإدارة والتسيير واتخاذ القرارات على مستوى الحزب الوطني: أي حزب الشعب الجزائري PPA. فحضور المثقف لم يكن يتميز بالحضور القوي على مستوى النواة المركزية لحزب الشعب. ولهذا نجد أن نشاط وحركة الأنتلجنسيا الجزائرية في تلك الفترة لم تكن سوى صورة معكوسة لهذا الوجود داخل الحركة الوطنية[5].

ففي سنة 1939 انضم إلى صفوف الحركة الوطنية الكثير من حاملي الشهادات الجامعية وطلبة الجامعة، وتلاميذ الثانويات. لأن حزب الشعب الجزائري لا يكوّ ن إطارات، ولكنه يعتمد على ما ينتجه المجتمع من إطارات. فالمثقفون يصلون بواسطة تكوينهم الشخصي والخاص، حيث أن مستوياتهم ومؤهلاتهم الثقافية تدفع بهم إلى الصفوف الأولى داخل الحزب والحركة. كما يصل البعض منهم إلى مناصب قيادية على المستوى الجهوي والوطني. ويمكنا أن نذكر البعض من الكوادر التي التحقت بصفوف الحركة الوطنية مثل: د لمين دباغين، دردور (طبيب أسنان)، حاج سعيد شريف (محامي)، محفوظي (أستاذ)، مايزا (محامي)، كما نجد بعض الطلبة مثل: بن يوسف بن خدة، مصطفاي، بن مهل، ... ومع وفاة بن باديس، فقدت جمعية العلماء الكثير من إطاراتها لصالح حزب الشعب مثل: شادلي المكي، سعيد زموشي ...[6]

ففي سنة 1935 نجد أحد المثقفين البارزين في تلك الفترة، وهو محمد العزيز كسوس والذي ألّف كتابا صغيرا من تقديم الدكتور محمد بن جلول، وذلك محاولة منه للمشاركة في النقاش السياسي الدائر آنذاك عند رجال السياسة الفرنسيين، حيث عنوُن هذا الكتاب بـ" La vérité de malaise algérien ". أين ينفي وينتقد وجود القومية الجزائرية ويدعم اقتراحات قانون فيولات Violette[7].

ولذا نجد اليوم الكثير من الباحثين المهتمين بموضوع المثقف، أن أغلبيتهم، يدعمون الرأي القائل بضعف عضوا نية المثقف الجزائري Organicité داخل الحركة الوطنية والمتمثلة أساسا في التيار الاستقلالي، وضعف تأثيره على القرارات التاريخية في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر مثل المطالبة بالاستقلال، وتأسيس وتنظيم حزب جماهيري، وكذلك تبني مبادئ الكفاح المسلح كوسيلة لتحقيق التحرر والاستقلال[8].

ولذلك نجد كريم بلقاسم ينعت المثقفين، بأنهم مناضلين سياسيين من جهة، وتقنيين للريشة (Techniciens de la plume). وذلك عندما قرأ كريم بلقاسم ما كتبه الدكتور شوقي مصطفاي، إذ يرد كريم بالقول:" إنه رائع مثلكم، تقني الريشة، إنكم تكتبون تماما، ما نفكر نحن فيه ". فهذا التصريح مهم جدا، إذ ما رجعنا بعشرية إلى الوراء، حيث نجد الدكتور مصطفاي، بجانب مصالي الحاج، على مستوى قيادة حزب الشعب[9]. فهذا ما يمكن أن يساعد على تحديد العلاقة بين المثقف والسياسي. فالمرحلة الممتدة من بدايات القرن العشرين إلى بدايات الأربعينات كان نشاط المثقف على العموم موازي للحركة الوطنية، ولذلك لم يكن انخراطه في صفوف الحركة الوطنية أي حزب الشعب تحديدا إلا في بدايات الأربعينات، وبالتالي لم يكن المبادر الأول بفكرة النضال والاستقلال، وعند اندلاع الثورة كذلك لم يكن من منظميها. فكما التحق المثقف بالحركة الوطنية متأخرا، كذلك نجده يلتحق بالثورة متأخرا، وربما هذا ما كان عاملا أساسيا في تحديد مكانته وأدواره.

2-المثقف الجزائري في فترة الثورة التحريرية:

1.2 الإعداد والتحضير للثورة:

عبر تاريخ الجزائر المعاصر، كثيرا ما يلاحظ ضعف عضوانية المثقفين Organicité الجزائريين داخل الحركة الوطنية بشقها الاستقلالي، كما يمكن ملاحظة ضعف تأثير المثقف على القرارات الهامة في فترة الاستعمار، فلم يكن المبادر الأول والمطالب باستقلال الجزائر، ولا المتبني للمبادئ التي تدعو للكفاح المسلح كوسيلة وحيدة لنيل الحرية، كما أنه لم يكن من المشاركين في إعداد الجيش السري[10].

فبالنسبة إلى بعض الثوريين الذين عايشوا اللحظات الأولى لاندلاع الثورة، فإنهم يعتبرون المثقفين بصفة عامة (أي طلبة الثانويات والجامعة) وحاملي الشهادات بصفة خاصة، يعتبرونهم عناصر مشكوك فيها، ولأجل ذلك لا يجب أن تسند لهم مناصب قيادية على المستوى المركزي للثورة. فالتحاق المثقفين بالثورة بقي يطرح العديد من الشكوك والتساؤلات لدى الكثير من جنود ومناضلي جيش وجبهة التحرير الوطني[11]، والذين كانوا ينتمون في معظمهم لحزب الشعب ويمثلون المنظمة الخاصة أو السرية L'OS التي كان لها السبق في إعلان الثورة في نوفمبر 1954.

إلا أن البعض الآخر من المختصين والباحثين يرون بأن الجهد الفكري قد سبق بالفعل انطلاق الرصاصة الأولى، ولو لا انتشار الفكر الذي كان يعبر عن إيديولوجية الثورة ويعمل في ذات الوقت على تعميقها باستمرار، لما استطاعت أية قوة أن تنفذ إلى الجماهير الشعبية[12]. وقد ميّز فرانز فانون في كتابه " معذبو الأرض " بين ثلاثة مراحل لتطور المثقف المستعمر وهي: مرحلة الاندماج الكلي حيث راح المثقف يبحث عن مخرج من وضعية التابع عبر استيعاب ثقافة المحتل، فمرحلة الحيرة حين سعت الأنتلجنسيا التائهة إلى استذكار الماضي والاقتراب من الشعب. ثم مرحلة انتقال الأنتلجنسيا من محاولات الانصهار بالشعب والذوبان فيه إلى إيقاظه وحمله على الكفاح[13]. وهذا ما يؤكد مدى عمق التفتت الذي شهدته البنية الثقافة للشعوب المستعمرة نتيجة ما لحقها من تكسير وتشويه طيلة فترة الاستعمار الطويلة.

فالتغيير أيا كان نوعه لا يحدث في المجتمع إلا إذا وقع تزويد الجماهير صاحبة التغيير بالوعي الذي يجعلها تدرك واقعها، وتؤمن بضرورة العمل من أجل تحسين ذلك الواقع أو تغييره جذريا[14]. فالمثقف الجزائري استطاع بفضل ما أوتي من علم وشجاعة، أن يكون قدوة وأن ينتج المادة الفكرية الكفيلة بنشر الوعي الوطني في أوساط الجماهير الشعبية، وبتكوين طليعة بعضها فعال ومبادر وبعضها مستعد لتبني الفعل والمبادرة والالتزام بالعمل من أجل إنجاحها. ففي فترة الكفاح المسلح 1954 – 1962 يمكن أن نميز بين ثلاث أنواع من المثقفين هم: الذين بقوا من الرواد أوفياء لمبادئ النضال، والذين صنعتهم جبهة التحرير الوطني، والذين لازموا الصمت لأسباب متعددة[15].

ولذا يعتبر جون بول سارتر أن المثقفين لا يمكنهم بأي حال من الأحوال " أن يلعبوا دورا حقيقيا في إعادة الطابع المدني للمجتمع إلا بقدر ما ينجحون هم أنفسهم في تجاوز أزمة الضمير العميقة التي يعيشونها بين عملهم العام وسلوكهم الخاص "[16]. فالميزة التي تميز بها المثقف الجزائري في مرحلة الاستعمار قد انحصرت بين غيابه الشبه الكلي على مستوى الحركة الوطنية عبر كل مراحل تطورها، وبقاءه على مستوى الفروع من المسؤوليات أثناء انخراطه في الثورة. فالحركة الوطنية الجزائرية قد رسخت فكرة الاستقلال في أوساط المجتمع، كما فرضت نفسها على المستعمر الفرنسي وواجهته بدون مثقفين، فهذا ما كان عاملا أساسيا في تحديد دور ومكانة المثقفين الذين التحقوا فيما بعد بالثورة، حيث أصبح المحك الحقيقي لاسترداد الشرعية هو المبادرة بإعلان الكفاح المسلح.

2.2 المشاركة في الثورة:

تعد سنوات بداية الخمسينات أصعب السنوات التي عرفها حزب الشعب منذ نشأته الأولى تحت اسم نجم شمال إفريقيا إلى غاية حركة الانتصار للحريات الديمقراطية. حيث شهد هذا الحزب أزمة خطيرة بين أنصار مصالي الحاج وأعضاء اللجنة المركزية، وانقسم إلى فريقين، غير أن الفريق الثالث والذي وقف موقف الحياد، وحاول أن يصلح بين الفريقين المتخاصمين، والمتمثل في أعضاء المنظمة السرية الشبه عسكرية L'OS، والتي تأسست سنة 1947 كجهاز تابع للحزب مكلف بالإعداد للكفاح المسلح، هو الفريق الذي كان له السبق في إعلان الثورة.

وفي سنة 1954 من شهر مارس حيث شهدت الأزمة أوجُها بين المصالين والمركزيين، اقتنع مجموعة L'OS بأن الأزمة اتخذت أبعادا خطيرة ولا يمكن إصلاحها، وبالتالي أسسوا " اللجنة الثورية للوحدة والعمل CRUA " من نفس الشهر كمنظمة مؤقتة تحضر لإعلان الكفاح المسلح في أقرب وقت ممكن، وقد توجت في الأول من نوفمبر 1954 بإعلان الثورة عبر إعلان الفاتح من نوفمبر، وإعلان إنشاء جبهة التحرير الوطني كحزب منظم ومتبني للثورة وناطقا باسمها.

فإعلان الثورة لم يكن منتظرا، وخاصة أن مفجريها لم يكونوا من المعروفين على مستوى قيادة حزب الشعب بشقيه المصالي والمركزي. يرجع ذلك إلى عدم احتلال الجماعة المفجرة للثورة مناصب قيادية كبيرة داخل حزب الشعب، وكذلك نظرا لتواضع مستوياتهم الدراسية نسبيا مقارنة بالقيادات السياسية لحزب

الشعب. حيث أن قادة الولايات ال29 بما فيهم ال09 التاريخيين، نجد 5/3 منهم بمستويات ابتدائية، والربع ¼ بمستوى ثانوي، و13,8 % حاصلين على مستويات جامعية. في حين لا نجد من بينهم ولا أمي واحد، كما أن الثلث منهم قد اجتاز الابتدائي. فلأجل هذا لا يمكن مقارنة هذه المجموعة بالجماهير الشعبية الأخرى، والتي كانت في معظمها أمية[17].

فبعد سنة 1955 و1956. انضم الكثير من الإطارات إلى جبهة وجيش التحرير الوطني، والمتمثلون أساسا في أعضاء حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائر الذي كان يرأسه فرحات عباس، وبعض من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولكن ما يمكن ملاحظته هو أن الملتحقين بجبهة التحرير الوطني من أصحاب البيان وجمعية العلماء يعد ضعيفا نسبيا مقارنة بعدد المركزيين، وهذا ما كان سببا مباشرا في تحديد وضعيات ومكانة الملتحقين بالثورة، حيث أن علاقات القوة كانت تحدد على أساس المبادرة بإعلان قيام الثورة، وهذا ما لم يسمح للملتحقين مؤخرا بالثورة أن يلعبوا الأدوار الأولى على مستوى القيادة[18].

ويمكن أن نميز بين ثلاث عينات أو مجموعات والتي كانت على مستوى قيادة جبهة وجيش التحرير الوطني، وهذا طيلة المدة التي استغرقتها حرب التحرير فنجد: العينة الأولى والتي بها 29 ضابطا وقائدا للولاية. أما العينة الثانية فتضم 87 شخصا وهم المتواجدين على مستوى هياكل القيادة من لجنة التنسيق والتنفيذ CCE، وأعضاء الحكومة المؤقتة GPRA، والمجلس الوطني للثورة CNRA، كما تضم مسيري الفيدرالية الجزائرية بفرنسا، وذلك من سنة 1954 حتى ربيع 1961. أما المجموعة الثالثة والتي تتكون من 91 إطارا حتى بداية 1962 والمتمثلة في رؤساء ديوان، وأمناء عامون وموظفون سامون في وزارات الحكومة المؤقتة، كما تضم أيضا مدراء بمصالح جيش التحرير، وكذلك مسؤولو هيئات ومنظمات شعبية، كما تحتوي هذه المجموعة على شخصيات هامة والتي كانت تمثل الجزائر بالخارج[19].

ومن هنا يمكننا التمييز بين رجال 1954 والملتحقين المتأخرين بالثورة أين تتقاطع وتلتقي فيما بين العسكريين الأقل تكوينا – والمدنيين الأكثر تكوينا سياسيا: فنجد في العينة التي تضم 87 عضوا، 31 سياسيا 35,6 % و56 ضابطا ما يقارب 3/2، والذين كانوا يتحكمون في الهياكل والهيئات القيادية للثورة، حتى ولو أن البعض منهم (الضباط) لم يكونوا يتواجدون باستمرار في الميدان وساحة المعارك. ففي الربيع من عام 1961، نجد أن 24 ضابطا من 56 أي 42,8 % كانوا متواجدين خارج الجزائر[20].

فكما هو معروف اليوم، والأرشيف يشهد على ذلك، أنه عندما دعت جبهة وجيش التحرير الوطني سنة 1956، وطلبت من الطلبة وتلاميذ الثانوي بالقسم النهائي الاختيار بين منحة دراسة في الخارج أو الالتحاق بصفوف المجاهدين، فالبعض فضل المنحة، في حين أن البعض الآخر من الطلبة والتلاميذ المضربين فضلوا الالتحاق بالثورة ومغادرة مقاعد الدراسة، بدون تردد داخل الجزائر، كما خارجها بتونس والمغرب وكذلك بأوروبا وذلك على مستوى تأطير المناضلين الناشطين، والذين كانوا مهددين من طرف العدو الفرنسي وخاصة الجالية الجزائرية المتواجدة بفرنسا آنذاك[21].

فالتحاقهم بصفوف جبهة وجيش التحرير لم يكن إلزاميا ولا جماعيا، بل كان إراديا بالنسبة للعناصر التي التحقت بالثورة. حيث نجد أن جبهة التحرير الوطني كانت تعتمد أساسا على نوعية الطلبة المنخرطين في الثورة أكثر مما تركز على العدد. فبالنسبة لعبان رمضان والذي كان يمثل المنسق الوطني للثورة، وقائد المنطقة الحرة للجزائر العاصمة ومساعديه كل من: بن يوسف بن خدة وسعد دحلب، كان الغرض من إدماج المثقف داخل صفوف الثورة هو رسم أفاق تأسيس الدولة الجزائرية المستقلة[22]. وهذا ما يبرز ويمكن ملاحظته عبر جميع هياكل وهيئات جبهة وجيش التحرير الوطنيين، فقد تواجد المثقفون (حاملي الشهادات الجامعية والثانوية) داخل هذه الهياكل وتقلدوا الكثير من المناصب والمهام ولكن بدرجة أقل داخل المراكز القيادية العليا للثورة ما جعلهم بعدين عن اتخاذ القرارات الهامة، والتي كانت من احتكار المناضلين الأوائل في حزب الشعب ومفجري الثورة.

فاستجابة المثقفين لنداء جبهة التحرير كان تطوعيا وذلك نابع من تصوراتهم الفكرية والتي أملت عليهم هذا الالتحاق، فقد استجابوا وبكثافة للأمر، الذي كان يدعو إلى الإضراب ووضعوا أنفسهم في خدمة الثورة. حيث التحق بعضهم بالمجاهدين المتواجدين بساحة المعركة بالداخل، والبعض الأخر التحق بالمنظمات التابعة لجبهة التحرير بالخارج، كما التحق بعضهم بالمؤسسات الجامعية الأجنبية، وإلى جانب قيادات ومسؤولي جبهة التحرير. ولكن وعلى الرغم من تواجدهم على مقربة من مركز القيادة، إلا أنهم كانوا مجردين من سلطة اتخاذ القرارات وتوجيه الثورة[23].

فالطلبة الجزائريون لبوا نداء الإضراب الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني، وذلك من أجل المساهمة في الثورة التحريرية، لقد انضموا إلى صفوف المجاهدين بالداخل، كما التحقوا بالمؤسسات الجامعية بالخارج أين كلفوا بمهام كمبعوثين مكلفين من طرف قيادة جبهة التحرير الوطني. ولكن ما بجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من تواجد المثقفين بجانب قيادة جبهة التحرير إلا أنهم بقوا عاجزين عن إبداء أي مبادرة ولا نية لوضع أي تغييرات ولمحاولة فرضها، ولا لاقتراح أي حلول ذات بعد كبير[24].

إلا أن البعض من المهتمين بشأن المثقفين في الجزائر يذهبون إلى تأكيد دور المثقف في صفوف الحركة الوطنية قبل الثورة وأثناءها. حيث يؤكد أحدهم ذلك إذ يستشهد بمفدي زكريا بالقول: " إن مفدي زكريا لم يكن شاعرا وكفى بل واحد من جنود القلم الذين لا تقتصر مساهماتهم في الكفاح على الكتابة فقط، لكنه كان من اللحظات الأولى لاندلاع الثورة شريكا في اتخاذ القرار، ومسؤولا يؤخذ رأيه بعين الاعتبار في المستوى القيادي "[25]. كما يستدل نفس الكاتب بمثقف آخر وهو مالك حداد، حيث قال: " سيظل التاريخ يحفظ لمالك حداد بأنه من المثقفين القلائل الذين تكيفوا بسرعة مع المعطيات الثورية التي جاءت بها جبهة التحرير الوطني، وراحوا من ذلك المنطلق يقدمون الحلول لمختلف القضايا الثقافية التي تتحكم معالجتها في تخليص المجتمع الجزائري نهائيا من السيطرة الأجنبية "[26]. إلا أن هذا الرأي يبدوا أنه مبالغ فيه بعض الشيء، إذ أن الكاتب يناقض نفسه حين يقول بأن مالك حداد من المثقفين القلائل، إذ أنه يؤكد ضعف مساهمة المثقف في اتخاذ زمام القيادة والقرار.

3.2 المثقف ومكانته داخل جبهة وجيش التحرير الوطني:

في الثامن عشر من ماي 1956، وباتفاق مع عبان رمضان، قام أعضاء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين UGEMA، المدعومين من طرف لمين دباغين وعلاوة بن بطوش ... بتنظيم لقاء، حيث تم الإعلان عن الدخول في إضراب عام وغير محدود عن الدراسة والامتحانات والانضمام إلى صفوف جبهة وجيش التحرير. ففي التصريح الذي صاحب الإعلان، قام اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين بذكر أسماء الطلبة المغتالين من طرف الشرطة الاستعمارية، من بينهم: زدور بلقاسم، والدكتور بن زرجب، وبعض تلامذة المتوسطات، كما ذكروا حكم الإعدام الذي لاقاه رضا حوحو، كما ذكروا في بيانهم أسماء العديد من الطلبة الذين تعرضوا للتوقيفات والسجن والتعذيب. وقد انتهى الإعلان بالتأكيد على ضرورة مغادرة وإخلاء مقاعد الدراسة بالجامعة والالتحاق بالكفاح المسلح لمساندة الجماهير الشعبية تحت قيادة جبهة التحرير الوطني وجيشها للتحرير[27].

فبهذا تكون الثورة وقيادتها في جبهة وجيش التحرير قد تزودت بفئة معتبرة من المثقفين من خلال التحاقهم بها، فتوزعوا عبر جميع الهياكل والهيئات الممثلة للثورة. وما يمكن أن يلفت الانتباه هو أن مجموعة ال87 عضوا والذين كانوا يمثلون الهيئات القيادية في جانبها السياسي، من أعضاء الحكومة المؤقتة والمجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ، كان مستواهم الدراسي مرتفعا مقارنة بمجموعة ال29 والذين كانوا يمثلون قادة الولايات أي العسكريين، فمجموعة ال87 عضوا حتى وإن كانت تضم اثنين غير متعلمين أي 2,47 %، فإنها على العموم تتميز بارتفاع المستوى الدراسي لأعضائها مقارنة بمجموعة ال29. كما نجد أن المتوقفين عن الدراسة في المستوى الابتدائي تعد نسبهم قليلة، حيث يمثلون أقل من النصف، أي 45,35 %. كما نجد أن الربع 25% من طلبة الثانوية، وأكثر من ربع الأعضاء لهم مستويات جامعية[28].

وقد نفسر هذا الارتفاع في المستوى الدراسي إلى إرجاعه إلى الالتحاق الذي شهدته جبهة التحرير الوطني من طرف الكثير من المثقفين والذين ينتمون إلى حزب البيان وجمعية العلماء والمركزيين، وقد تعزز عدد المتعلمين أكثر عند انضمام الكثير من الطلبة للثورة تلبية للنداء الذي وجهته جبهة التحرير بالإضراب عن الدراسة.

أما فيما يخص مجموعة ال91 والتي تتمثل في إطارات الحكومة المؤقتة، والمنظمات الشعبية والسفراء، والتي يدورها كانت تخضع لأوامر القيادة العليا. والشيء المميّز لهذه المجموعة هو وجود فئة معتبرة من أعضائها مدنيين وذوي مستويات عليا، حيث أن النصف منهم ذوي مستويات جامعية، والربع 25 % ذات مستويات ثانوية، والخمس 20 % منهم لا يتجاوزون المرحلة الابتدائية من التعليم. فهذه الميزات ناتجة أساسا في ضعف تواجد العسكريين حيث كانوا يمثلون 22% فقط من هذه المجموعة، إذ يرجع هذا إلى حاجة جبهة التحرير الوطني بصفتها كدولة في طريق النشأة، وهو ما يحتم عليها إيجاد عناصر مؤهلة علميا

ومهنيا وتكليفهم بمهام ووظائف تقنية، والتي كانت تتطلب تكوينا علميا ومعرفيا، وهو ما يخول لها القيام بمهام داخل صفوف جبهة التحرير وتمثيلها دوليا[29].

فمجموعة ال91 تحتل في مجملها درجة عالية نسبيا على المستوى السوسيو مهني. فالمهن التي كانوا يمتهنونها كانت مرتبطة أصلا بالأدوار المتعلقة بالتنفيذ على أعلى المستويات والتي من أجلها تم تعيينهم. حيث أن أكثر من العشر 10/1 هم مناضلون في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وفقط 7,5 % نجدهم من فئة العمال الأجراء عند الخواص، أما فئة الفلاحين فهي غير موجودة داخل هذه المجموعة. أما فئات الملاك الصغار والتجار وممتهني الأعمال الحرة فيمثلون 4,3% فقط. أما العسكريين القدامى ومعلمي اللغة الفرنسية والموظفين فهم يمثلون نسبة 20,5% هذه المرة. أما معلمي اللغة العربية فهم متواجدون بنسبة 4,3 %. كما تضم هذه المجموعة ثلاثة مهندسين 3,2 %، وأربعة كتاب وصحافيين % 4,3 من بينهم كاتب ياسين ومالك حداد، أما الطلبة والذين لم تكن لديهم أية مهنة فيمثلون 9,7 %، كما نجد 19 عضوا يمثلون نسبة 20,4 % يمتهنون أعمال حرة[30]. فالملاحظ أن هذه المجموعة تضم نسبة كبيرة من المتعلمين والمثقفين والذين كانوا في معظمهم مدنيين، وذلك ما تؤكده النسب والأرقام، كما نلاحظ الحضور الضعيف جدا للعسكريين والمزارعين والذين كانوا يتميزون بمستويات دراسية ضعيفة عموما وانعدام المستوى الدراسي بالنسبة لبعض العناصر منهم.

فمجموعة 91 عضوا هي فئة الأشخاص الذين ينضوُّن تحت القيادة بصفتهم أشخاص ثانويون، والمتكونين أساسا من وكلاء تنفيذ، وبرجوازيين وتكنوقراطيين، فقد كانوا يمثلون النخبة المؤهلة والمتميزة بالكفاءة والتي عملت السلطة على توظيفهم لبناء الدولة الجزائرية التي كانت في بداية نشأتها. هذه الفئة المثقفة التي كانت مجردة من اتخاذ أي قرارات ومن أي مبادرة سياسية، فعلى أية حال لم تكن تمتلك حق احتكار الكلمة الأخيرة، لأنها لم تستدعى وتوظف من أجل هذا. فالخاصة همشت على مستوى القيادة السياسية للمجتمع الجزائري منذ الحرب العالمية الثانية، ولم تعد قادرة على إيجاد مواقع لها داخل القيادة السياسية من أجل اتخاذ القرار، إنها ممثلة ثانويا على مستوى إطارات جبهة التحرير، ومن هنا يمكننا الرجوع إلى دراسة الانتماءات السياسية الأولى لهذه الإطارات كي نستطيع تحديد الوجه الجانبي لهؤلاء الإطارات[31].

فعندما تم تعيين الدكتور لمين دباغين من قبل مؤتمر الصومام -ضد بن بلة ومحساس-بصفته المسؤول الوحيد عن وفد الخارج لجبهة التحرير الوطني، كان ذلك من أجل تكليفه بمهام لوجيستيكية، وبالدرجة الأولى من أجل إبعاد مجموعة محساس التي كانت تحت إمرة أحمد بن بلة وقد همش لمين دباغين في الفترة التي كانت فيها القيادة متمركزة في الباءات الثلاثة وهم: كريم بلقاسم، لخضر بن طوبال، وعبد الحفيظ بوصوف، وفي سنة 1960، عيّن ممثلا لوفد جبهة التحرير الوطني بأنقرة (تركيا)[32].

كما يذهب البعض إلى القول بأن مفدي زكريا قد نظّم قصيدة "اللّهب المقدس" مكرها، وأن عبان رمضان استعمل معه العنف لإرغامه على ذلك. إلا أن البعض الآخر يرفض هذا ويعتبر أن العقل السليم يرفض

هذا الادعاء مطلقا.[33] أما مالك حداد فقد وضع نفسه في خدمة جبهة التحرير الوطني يمثلها في التظاهرات الثقافية الدولية، فرغم رضا المسؤولين على نتائج نشاطه، فإنه لم يكن مقتنعا بما كان يقدمه للوطن، إذ يعبر على ذلك بقوله: "إنني أتجول بينما الآخرون يقاومون، بينما هذا ألقي عليه القبض، وذلك عذب، وذاك اختطف ولم يعد يسمع له خبر".[34] إلا أننا يمكن أن نكتشف من هذه الشهادة أن المثقف لم يحتل المراكز القيادية داخل جبهة التحرير، وبقي دوره محصورا وثانويا على مستوى القيادة، كما أن مصدر شرعية السلطة كلن مقتصرا على حمل السلاح.

وتعتبر قضية لابلويت la Bleuit أخطر حادثة يتعرض لها المثقفون، وذلك بالولاية الثالثة التاريخية، حيث قام العقيد الفرنسي Godard جودارد بإيهام جيش التحرير بأن المثقفين الذين التحقوا بالولاية الثالثة هم مدعومين من طرف فرنسا من أجل ذلك تم انضمامهم لجيش التحرير الوطني لاختراقه من الداخل، وقد قام العقيد عميروش بفتح تحقيق، وتم تعذيب العديد من الطلبة والمثقفين أثناء التحقيق، حيث اعتبر العقيد عميروش أن جميع الطلبة والمثقفين الذين التحقوا بالولاية الثالثة خونة مندسين داخل جيش التحرير الوطني. ومن هنا أصبحت الأمية هي الضامن الوحيد للنجاة من العقاب والموت، وقد قامت لجان التحقيق ومكافحة الجوسسة والتي تم إنشاء ها بالولايات بعد الاجتماع المنعقد في ديسمبر 1958، حيث تم تنفيذ حكم الإعدام في حق العديد من الطلبة والمثقفين، وقد جاء في التقرير الذي قام بإعداده كل من سي أمحمد وسي صالح حصيلة ثقيلة من الطلبة والمثقفين الذين تم إعدامهم بعد التحقيق والتعذيب الذي تعرضوا له، حيث جاء في التقرير المكتوب في 17 أوت 1959 أن 486 شخصا قد تم التحقيق معهم، ثم حوكموا وتم تنفيذ الإعدام في حقهم، فالقائمة تضم أربعة برتبة ملازم أول، وخمسة برتبة ملازم، و 11 مرشحا Aspirants، 19 مساعد Adjudants، و35 برتبة رقيب أول، و409 من الجنود[35]

ونجد بعد الاستقلال الاتحاد العام للطلبة الجزائريين UGEMA، يقوم بتقييم ونقد ذاتي للاتحاد حيث يقول بيان صادر عن الاتحاد أنه وبالرغم من الإضراب الذي قام به الطلبة الجزائريون في ماي 1956، إلا أن الاتحاد لم يكن له الدور الكبير والقيادي داخل الثورة التحريرية، وأن الطلبة لم يقوموا بدورهم كما كان يجب أن يكون في الصفوف الأولى من أجل الكفاح المسلح، وأن الطلبة كانوا على هامش المأساة التي عرفتها الجزائر خلال مرحلة حرب التحرير[36]. وهذا ما يؤكد أن الشرعية التي اعتمدت عليها قيادة الثورة كانت مرتبطة بميدان القتال والمعركة، وأن المعيار الأولي والأساسي هو الحضور في ساحة القتال.

3-مرحلة الاستقلال:

يعتبر اليوم الخامس من جويلية 1962، أعظم حدث تاريخي تشهده الجزائر في تاريخها الحديث، كما أن هذا التاريخ أي يوم إعلان الاستقلال ما هو إلا نتيجة حتمية ومنطقية لإعلان الثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر 1954، فبعد الاستقلال مباشرة باشرت السلطة والقيادة السياسية في الجزائر في عملية بناء وتأسيس الدولة الوطنية الجزائرية، وذلك من أجل استدراك التأخر الكبير والفراغ الذي عرفه المجتمع الجزائري من خلال التكسير والتفتيت الذي عرفته البنى الثقافية والاقتصادية والسياسية من جراء

الاستعمار ، ولذا لجأت القيادة السياسية في الجزائر بعد الاستقلال لتسخير وتجنيد كل القوى والطاقات المادية منها والبشرية لردم الهوة السحيقة التي تركها الاستعمار، ومن الطاقات البشرية التي لا يمكن لأي دولة أو مجتمع أن يستغني عن إسهامها ومشاركتها في التنظير والتحضير لأي مشروع مجتمعي، نجد فئة المثقفين، ومن هنا يمكننا التساؤل حول وضعية ومكانة المثقفين داخل المجتمع في هذه الفترة، وعن علاقة المثقف بالدولة والحزب والسياسة في جزائر الاستقلال.

1-3 المثقف في فترة بناء الدولة الوطنية:

كل المعطيات المتوفرة حول الأنتلجنسيا المغاربية لا تنفي أنها كانت شقية خلال مرحلة الاستدمار الاستعماري وحزينة خلال مرحلة البناء الوطني، فلقد كانت تقدس أفكار (فولتير) و(روسو) وتطالب بالاندماج والتماثل وهذا شقاء لا نظير له! كما كانت متفاعلة ومنفعلة مع الأحادية الواحدة مسخرة قلمها وخطبها لسيف السلطان وهذا حزن لا مثيل له! [37] ويرى فرانز فانون بأن المثقفين في الدولة المستعمرة قد انضموا إلى صفوف الحزب عشية الاستقلال مؤكدون بسلوكهم لاحقا أن هذا الانضمام ليس له هدف آخر سوى انتزاع قطعة من الكعكة بعد الاستقلال[38]، فإذا كان المثقفون الجزائريون يشتركون في العديد من المميزات والخصائص التي يتميز بها جميع المثقفين من البلاد المستعمرة عامة، الأنتلجنسيا المغاربية خاصة، فما هي الفروق والميزات التي تميز المثقفين الجزائريين عن أقرانهم في باقي الدول المغاربية والمستعمرة عموما؟

ويرى بعض المتتبعين والمهتمين بموضوع المثقف في الجزائر، أن المثقفين معقدون تجاه الثورة لأن مشاركتهم كجنود كانت ضعيفة لأجل ذلك فهم يتجنبون الخوض في الموضوع، وهناك من يعتقد أن سبب العقدة يكمن في كون الثورة لم تعطهم كل ثقتها أثناء مرحلة الكفاح المسلح، بل أن عددا منهم أعدم في بعض المناطق بتهمة الخيانة خاصة، ثم تحولت التهمة، مع مرور الأيام، إلى عجز وجبن لصيقين بالمثقف يجردانه من القدرة على النضال والمقاومة.

في حين يرى البعض الآخر أن هذه المزاعم لا أساس لها من الصحة، لأن التغيير أيا كان نوعه لا يحدث في المجتمع إلا إذا وقع تزويد الجماهير صاحبة التغيير بوعي يجعلها تدرك واقعها، وتؤمن بضرورة العمل من أجل تحسين ذلك الواقع أو تغييره جذريا[39]، ومن خلال هذين الرأيين نسعى لمعرفة مدى صدق كل رأي، كي نستطيع أن نحدد ما للمثقف الجزائري وما عليه.

ومن الشخصيات المثقفة البارزة في الجزائر نجد فرحات عباس، والذي عرف مسيرة نضالية طويلة إبان الحقبة الاستعمارية، إذ انتقل من المطالبة بالمساواة والاندماج منذ نهاية العشرينيات حتى بداية الأربعينيات إلى الاعتدال في مواقفه والتغيير النسبي في طروحاته وأفكاره، حتى انتهى به الأمر إلى ترأس أول حكومة مؤقتة جزائرية في سبتمبر 1958، وترأسه المجلس التأسيسي مباشرة بعد الاستقلال ليستقيل من منصبه هذا في سنة 1963، ويكون السبب الأولي والرئيسي لهذه الاستقالة هو الاختلاف في الرؤى

والتعارض في المواقف بينه وبين القيادة التي استحوذت على السلطة غداة الاستقلال وهذا ما جعله في صف المعارضين للسلطة والنظام في الجزائر.

فقد عاد فرحات عباس بعد 1962 في الجزائر المستقلة إلى (مثاليته الجمهورية الأصيلة)، ولكن الديناميكية الاجتماعية والممثلة في حركة ونشاط التسيير الذاتي في سنتي 62 و63 قد تجاوزته. إنها مرحلة (الاشتراكية) على مقاس (فيدال كاسترو) التي عرفتها الدولة حديثة الاستقلال، ففي سنة 1963 استقال فرحات عباس من رئاسته للمجلس التأسيسي وذلك لاحتجاجه على المناهج غير الديمقراطية التي اتبعها أحمد بن بلة والذي كان يسعى لإرساء ركائز الحزب – الدولة، وتم إيقافه في 1964 حيث يقول في هذا الشأن: "لقد تم إيقافي لأنهم لم يرضوا أن أعبر علنا عن رفضي المشاركة في (بلشفة Soviétisation أي جعل الجزائر على النموذج السوفيتي) بلدي، إنها إيديولوجية طبقت ضد إرادة الشعب الجزائري". ولم يغير فرحات عباس رأيه وموقفه، وقد كان متعلقا جدا بقيم الديمقراطية مع احتفاظه بوعيه الاجتماعي[40].

وغداة الاستقلال عمدت السلطة السياسية في الجزائر إلى بذل مجهودات كبيرة في مجال التعليم وتعميمه على جميع فئات المجتمع، كما عملت على بعث الجامعة الجزائرية، حيث اعتمدت في الأول على الأساتذة الذين كانوا يدرّسون بالجامعات الأوربية وخاصة الفرنسية منها، وكانوا في غالبيتهم أساتذة جاءوا من الدول الاستعمارية، وبعض الأساتذة الجامعيون الذين ينتمون إلى أسر من الأقدام السوداء الذين بقوا في الجزائر بعد الاستقلال. إلا أن السلطة السياسية في الجزائر حديثة الاستقلال عملت على سد الفراغ الذي تركه الأساتذة الفرنسيون الذين غادروا جامعة الجزائر بعد الاستقلال ، حيث استعانت بالأساتذة المتعاونين والذين كانوا في معظمهم مثقفون شيوعيون والذين التحقوا بالجامعة الجزائرية كقناعة منهم والتزام، ومن بينهم البروفسور روبرت سوفوراي Rober Sauferey والمسيحي الليبرالي أندري ماندوز André Mandouse الذي يعتبر أول مدير للتعليم العالي بالجزائر المستقلة[41] وقد خلفه على رأس مديرية التعليم العالي الأستاذ مالك بن نبي من 1964 إلى غاية استقالته سنة 1967.

فالتبني الاشتراكي كخيار وحيد وأوحد من طرف السلطة السياسية بعد الاستقلال، وضع المثقفين الجزائريين آنذاك والذين لم يكونوا بالضرورة يؤمنون بنفس المبادئ والأفكار التي انتهجتها السلطة السياسية أمام خيارين اثنين فإما التخلي عن الأفكار والمبادئ والاندماج في النهج الذي وضعته السلطة، وإما التشبث بالمبادئ المخالفة للمبادئ السائدة، وبالتالي العزلة والتهميش، ولم تكن هذه الوضعية خاصة بوضعية المثقف الجزائري فقط، وإنما عرفتها العديد من الدول التي خرجت حديثا من الاستعمار، حيث يقول هشام شرابي: "في الصمت الرهيب الذي أعقب التنظيم اللاديمقراطي للسلطة فإن المثقف العربي محكوم عليه إما بالمحاباة أو النفي، و إما بالدعارة أو العزلة"[42].

فهذه الوضعية التي عرفتها الجزائر بعد الاستقلال على غرار باقي الدول المستعمرة والتي حتمت على المثقف أن يختار بين التشبث بالمبادئ والبقاء خارج السرب، وإما التخلي عن القناعات الخاصة

والانضمام إلى القافلة، "ففي الجزائر مثلا، أصبحت السلطة السياسية بعد نيل الاستقلال محاطة بفئة من الأنتلجنسيا الإدارية تاجرت صراحة بمفهوم خدمة الدولة وهيبة الموظف السامي"[43].

وعوض أن يحاول المثقف أن يجبر الكسر التاريخي بالعودة إلى القراءة الموضوعية للحادثة التاريخية المغيبة، راح يشارك في إضافة المزيد من الغموض على التراكمات الاجتماعية الناجمة عن التطبيقات المستعجلة للنماذج الأيديولوجية المستوردة. ولذلك فإننا نجد طوال فترة حكم الحزب الواحد تأطير للمجال الثقافي من طرف المجال السياسي، فالمثقف الجزائري عموما ظل تابعا للسياسي، وهو في أحسن الأحوال شريكا غير متكافئ. ومن هنا كان لزاما على المثقف في هذه الحالة أن ينتج خطابات تبرر وتعطي مشروعية لاختيارات رجل السياسة[44] وهذا ما يمكن أن نجده في العديد من الكتابات الروائية، والبرامج التعليمية وفي مجال السينما والمسرح وبعض الكتابات النظرية التي كانت تدافع عن النهج والنموذج الاشتراكي والأيديولوجية الحاملة له.

أما المثقفين الذين بقوا خارج السرب ولم يدخلوا بيت الطاعة، فقد عانوا من استراتيجية التغييب، والتي شاركت أي هذه الاستراتيجية في صناعة الهوة المفصلية التي عادة ما كانت تفصل المثقف المروض عن الوجه الآخر للجذور التاريخية التي يتشكل منها المجتمع الجزائري. ولذلك كانت كل القراءات التي حاولت أن تبرر لهذه الهوة قراءات ميكانيكية خاضعة لإيديولوجية المثقف وهو يذهب أبعد من السلطة في ممارسة سلطة تغييب هذا الوجه الآخر[45].

فعبر طول هذه المرحلة من 62 حتى 1988 وجد المثقفين أنفسهم خارج المجال، على هامش الدولة والمجتمع، لقد بقوا متواجدين على شكل أفراد، ولم يستطيعوا أن يتكتلوا في مجموعة ولم يكونوا مرتبطين حقا بمدارس فكرية ولا بتقاليد طويلة وعريقة، إنهم انعزاليون أكثر من استمراريون أي لم يكونوا حاملين لفكر متوارث ومستند على مرجعية راسخة، كما لم يكونوا مؤسسين لتيارات ومدارس فكرية ومعرفية، ومن أبرزهم: مصطفى الأشرف، مالك بن نبي، كاتب ياسين، مولود معمري، ومحمد حربي، لقد بدأوا يكتبون وينشرون، ويأخذون مواقع لهم، فقبل الاستقلال استطاعوا أن يبلوروا أفكارا لهم، فكتاباتهم وإسهاماتهم الفكرية، كانت مدفوعة بالتيار التاريخي المتنامي للقومية والوطنية، لقد انخرطوا في هذا التيار وأسهموا فيه. اما بعد الاستقلال فوجدوا أنفسهم في وضعية معقدة، في قلب القومية والوطنية والأمة والتي عادت من بعيد، على هامش الدولة، والتي اعتمدت على الطابع الشمولي لتجنب الاختناق والغرق، كما وجد المثقف نفسه، وبطريقة معينة على هامش المجتمع الذي عانى وتأثر تحت وضع الاستعمار[46].

2-3 المثقف في مرحلة حكم الحزب الواحد:

بعد الاستقلال مباشرة شرعت السلطة السياسية في الجزائر في إرساء ركائز النموذج الاشتراكي على غرار العديد من الدول التي استقلت عن الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى، حيث تبنت الدول المنعتقة النهج الاشتراكي على المقاس السوفياتي والصيني، وما يميز هذا النموذج هو الطابع الشمولي، كما سعت السلطة

السياسية في الجزائر لتثبيت أسس أركان الدولة-الحزب بقيادة الحزب الواحد والإيديولوجية الواحدة والتي لا تقبل التضايف ولا التعايش مع الرؤى والأفكار المختلفة عنها. ففي ظل هذه الوضعية كيف تعامل وتفاعل المثقف مع هذه المرحلة من تاريخ الجزائر المعاصر؟ وما موقفه من كل هذا؟

فالأسس الأيديولوجية التي تأسست عليها الدولة الجزائرية بعد الاستقلال والتي تتمثل في الوطنية، والاشتراكية والإسلام، كانت لا تسمح بأن تضايف الرؤى والتصورات والمبادئ التي تختلف وتتعارض معها. فالمزج بين الأسس الثلاثة التي اعتمدتها السلطة السياسية في الجزائر كانت تعتمد على تسخير جميع القوى والطاقات لإنجاحها، ومن بين هذه القوى فئة المثقفين، والتي وجدت نفسها أمام هذا الرهان، فإما الاندماج وإما الرفض وبالتالي الإقصاء. "ويشير الرئيس هواري بومدين في نوفمبر 1974 إلى أن المثقفين في المدن تحولوا إلى بيروقراطيين وبرجوازيين، وأنهم يديرون ظهورهم للثورة ويسيرون على طريق الانحراف وأحيانا الخيانة. وإذا كان المثقفون بالأمس خصوما متحمسين للاستعمار، فإنهم اليوم ببساطة أخذوا مكانه، فبمجرد أن ينهي الطالب، الذي يجيش شبابا ثوريا، دراسته الجامعية حتى يندمج في مجتمع المدن الاستهلاكي"[47].

وعلى أساس هذا القول يمكننا الاستدلال على استمرارية اتهام المثقفين وتحسيسهم بالذنب، حيث بقي المثقف في موضع الريبة والشك، فمنهم من اختار أن يسخر قلمه وخطبه للدفاع عن خيارات السلطة وتوجهاتها، حتى وإن لم يكن مقتنعا بذلك، ومنهم من رفض ذلك وأصر على البقاء خارج مظلة الحزب والدولة وبالتالي حكم على نفسه بالتهميش والإقصاء. فطوال مرحلة حكم الحزب الواحد بالجزائر والذي كان يمارس رقابته المطلقة على كل القطاعات، ظل الإنتاج الثقافي مراقبا من طرف السلطة مما أدى إلى منع الكثير من المثقفين من إبداء الرأي والتعبير بحرية، وبهذا بقوا مهمشين معزولين[48].

وأمام هذه الوضعية الصعبة، والرقابة التي كانت تمارسها السلطة على كل الإنتاج الثقافي والفكري والفني، لجأ البعض من المثقفين وخاصة الروائيين منهم إلى التخفي وراء الكتابات الروائية واتخاذ شخصية المثقف البطل المحوري في روايته. إذ لا يختلف دور المثقف في الواقع عن دور المثقف في الرواية، ذلك أن أول الأقنعة التي يجب أن يتقنع بها الروائي في استعمال الفضاء السردي من أجل تقديم الرؤية الإيديولوجية عن طريق البطل المثقف. فمن الناحية المبدئية، لا يختلف دور المثقف وهو يمارس دوره على مستوى الواقع عن دور المثقف وهو يمارس نفس الدور على مستوى السرد. وربما كان دور الثاني أكثر أهمية بالنسبة للروائي، لأنه يضمن له تحقيق كل الأحلام التي لم يستطع تحقيقها على مستوى الواقع، بما فيها الخيبات السياسية والمكبوتات الإيديولوجية المتعلقة أساسا بحرية الجهر بالمواقف والدفاع عنها[49].

فالدور الذي كان يقوم به الروائي كان يضمن له تمرير الرؤية الإيديولوجية تمريرا سلسا يضمن عنصر الصراع والمواجهة والبوح بالمكبوتات الإيديولوجية التي يقوم بها البطل المثقف على مستوى السرد، بينما يتخفى الروائي (السارد) في طابع التموقع الفوقي بالمفهوم الغرامشي. ذلك أن هذا المثقف ظل حضوره

محايثا لحضور الرواية. فمعظم النصوص الروائية الجزائرية تتخذ من شخصية المثقف محورا تدور حوله مختلف الأحداث[50].

وإذا ما تتبعنا مسيرة المثقف الجزائري منذ الاستقلال وخاصة منذ بداية السبعينات نجده أنه " كان المبشر بالتغيير القادم في رواية السبعينات، وهو المنتقد لواقعه والناقد للتاريخ والهوية في رواية الثمانينيات، وهو المأزوم والمهزوم تحت وطأة الواقع في رواية التسعينيات من القرن العشرين "[51].

4-فترة التعددية السياسية والإعلامية والعنف المسلح:

يعد تاريخ 05 أكتوبر 1988، تاريخا فاصلا في مسيرة المجتمع والدولة الجزائرية، فبعد تفاقم الأزمة الاقتصادية من جرّاء انخفاض أسعار البترول في 1986 إلى مستوياتها الدنيا، أصبحت الدولة عاجزة عن سد النفقات والمصاريف، وشرعت في رفع يدها عن دعم أسعار المواد الاستهلاكية، كما بدأت ظاهرة الندرة في المواد والارتفاع المتزايد لنسبة البطالة، فإذا كانت هذه بعض بوادر الأزمة في جانبها الاقتصادي، فما هي الإرهاصات الأولى لبداية الأزمة في جانبها السياسي والإيديولوجي؟

أما فيما يخص البعد السياسي والإيديولوجي فيبدو أنه ينقسم إلى قسمين أو إطارين فالإطار الأول والذي يعتبر داخلي والذي يتمثل في الصراع القائم بين الزمر والكتل الموجودة في هرم السلطة، والذي يتمثل خاصة في الصراع بين المحافظين والإصلاحيين، مما أوصل إلى الانسداد وضيق الأفق. أما الإطار الثاني والذي يتمثل في السياق العام العالمي وخاصة على مستوى الإيديولوجي، حيث شهدت هذه الفترة انهيار المعسكر الشرقي وتفكك الاتحاد السوفياتي وسقوط جدار برلين. فقد مست هذه الأزمة كل الدول والأنظمة التي كانت تتبنى النهج الاشتراكي، ومن ضمن هذه الأنظمة، النظام والسلطة في الجزائر حيث لا يمكن أن تكون بمنأى عما يحدث من تغيرات في العالم. وبهذا تكون الجزائر قد دخلت مرحلة جديدة، وهي مرحلة التعددية الحزبية، السياسية، والصحفية. ومن هنا يمكننا التساؤل حول وضعية ودور المثقف في هذه المرحلة. فما موقع المثقف من هذه التغيرات الحاصلة في الجزائر، وهل كان له دور في هذه العملية؟

فالحركة الشعبية والتي رافقها المناخ السياسي الجديد، قد لقيت ارتياحا كبيرا من قبل غالبية المثقفين من الجامعيين والإعلاميين على وجه الخصوص، والذين لطالما ناضلوا بكل شجاعة من أجل هذا، حيث نجحت هذه الحركة الشعبية حقا في خلق مجال جديد والذي تم بطريقة سريعة وعميقة وزعزع أركان النظام البيروقراطي، والذي عمل على خنق المجتمع. ولكنه قام بعملية انقلاب ليس فقط ضد القيم التي كانت تبدو أنها تجمعهم في مجال واحد من أجل النضال كالحرية، الديمقراطية والمساواة في الحقوق...، لكنها انقلبت ضد الأفراد أنفسهم بصفتهم حاملين لهذه القيم. فهؤلاء (المثقفون العضويون) كما يسميهم غرامشي Gramsci، والذين عانوا كثيرا من الأشكال المختلفة من الضغط والرقابة من قبل البيروقراطية، نظرا لتشبثهم بالجماهير عن طريق (البراكسيس Praxis) والذي ترجم عند أغلبيتهم، في الوقوف بالصفوف الأولى من أجل النضال الشعبي[52]. وأمام هذا الشكل من النضال، أين كان المثقفون مجردين من أية وسيلة للدفاع والوقوف أمام الخصم والدفاع ضد نظام الحكم، ومع حق الأفراد، ومن أجل الحريات وخاصة

الحرية الأكاديمية ... ولكنهم لم يكونوا مستعدين، ولا متوقعين أن يجدوا أنفسهم في مواجهة المجتمع في حد ذاته. ذلك أن الثقافة التي بدأت في التكوّن كانت قائمة على أساس أنها تريد أن تؤسس (مجتمع ملائكي)، وتنعت الآخرين (بالشياطين)[53].

ونتيجة لهذه الوضعية، وجد المثقفين أنفسهم على الهامش متخلفين عن الحركة الاجتماعية، بل أكثر من هذا، فقد وجدوا أنفسهم في وضعية الأعداء لهذه الحركة، فقد أصبحوا فريسة يسهل الانقضاض عليها، وضحايا مستهدفين للقضاء عليهم. فالديناميكية الاجتماعية، قد عرفت انقلاب في المعنى والذي انعكس على المثقفين في فترتين، ففي الفترة الأولى خلق تشويشا عميقا في شعور المثقفين وعكس (صورة ذواتهم)، إذ كانوا يعتبرون (أصدقاء الشعب)، في حين جعل منهم الخصوم في الفترة الثانية، فهؤلاء الخصوم (المثقفين) لم يواجهوا، ويجابهوا وفق المعايير المعتادة، عن طريق الكتابة ونقاش الأفكار ... إلخ، كل الطرق التي كانت ممنوعة أو مراقبة من طرف البيروقراطية، ولكنها بقيت الأداة المألوفة للفعل السياسي. ولكنهم الآن (المثقفين) يحاربون ويغتالون في بعض الأحيان بطرق بشعة وشنيعة[54].

فالضحايا الأوائل للعنف المسلح كانوا المثقفين – جامعيين وأطباء، صحافيين ونقابيين – أي الممثلين للآراء النقدية وخاصة المتعلقة منها بالنقاش العمومي والقضايا التي تهم المجتمع المحكوم عليه بالخطيئة وذلك لدرجة تأثيرها على الجماهير الشعبية. ومن بين هؤلاء الضحايا نجد (جيلالي ليابس). فتاريخ اغتياله في مارس 1993 يعتبر تدشينا لمرحلة الاغتيالات التي مست العشرات من المثقفين. حيث كانت هذه الاغتيالات تتم بطريقة وحشية وبربرية وتأخذ شكل طقوس. فمن شهر ماي 1993 إلى غاية ديسمبر 1994 تم اغتيال 23 صحفيا، ومن بينهم كتاب وشعراء، وتم اغتيال في نفس الفترة أكثر من 20 جامعيا، من بينهم أساتذة من المستويات العليا، وكذلك فنانين من طراز عالمي في مجال الأغنية والمسرح، وأكثر من عشرة نقابيين، وخاصة الذين ينشطون في قطاع التعليم[55].

ففي القطاع الجامعي، كان المثقفين المغتالين أساتذة من الوجوه المشهود لها بالتأهل العلمي كما كانوا يحظون باحترام كبير من طرف الجميع. وقد كانت تتم عملية الاغتيال في بعض الأحيان أمام مرأى الجميع، وذلك من أجل الترهيب وإعطاء المثال للغير. فهذه الفئة من المثقفين الذين اغتيلوا كانوا يمثلون ما نسميهم بحملة للمعنى Porteurs du sens، ومعلمي المعنى Maitres du sens، وقد كانوا يحظون بالإصغاء من طرف المقربين منهم، بل من طرف غالبية الجماهير. فقد كانوا يتدخلون ويشاركون عبر وسائل الإعلام (التلفزيون والجرائد المعروفة، والمحاضرات) حول الكثير من المواضيع والتي تكون في بعض الأحيان خارجة عن مجالات تخصصاتهم، ولكن الأهم من كل هذا هو أنهم كانوا يضعون القيم والمثل من أجل إرساء معالم لمشروع مجتمع[56].

وعلى الرغم من الصعوبات والتهديدات التي لقيها المثقفون أثناء الأزمة في العشرية الأخيرة من القرن العشرين، إلا أننا نجد رجالا ونساء بقوا يعملون على تحمل مسؤولياتهم الفكرية والثقافية، وبطرق مختلفة، فقد كانوا يدّرسون، يكتبون، ينشرون مقالات وكتب، يتدخلون عبر وسائل الإعلام، وينشئون

دور النشر، كما عملوا على إحياء بعض المجلات، وإنتاج منتوجات فنية. لقد وضعوا كل اهتماماتهم، ويقظتهم، ووعيهم، وذكائهم، ومعانيهم الأخلاقية، في خدمة المجتمع، والأمة، وقد وصلت لدرجة التضحية بأرواحهم وأنفسهم[57]. وهذا ما يمكن أن تبينه القائمة الطويلة للمثقفين المغتالين.

وأمام هذه الوضعية في سنوات التسعينيات، والتي تميزت بالعنف المسلح وكثرة الاغتيالات، وجد المثقفون النقديون أنفسهم مضطرين إلى الركون إلى الصمت، أو الالتحاق والانضمام إلى التيار الإصلاحي الجديد[58]. وعلى الرغم من هذا بقي الكثير من المثقفين على قناعاتهم ونشاطاتهم ولو بصورة محتشمة، ووفق ما تسمحه به الظروف.

الخاتمة: يبقى موضوع المثقف من المواضيع التي تثير الكثير من النقاش والجدل من قبل الباحثين والدارسين في المجال الاجتماعي والإنساني والثقافي، ولا يزال المجتمع بحاجة لوجود المثقف النقدي والتنويري كي يحدد له الأهداف ويرسم له الخطط المستقبلية، وينتج له المفاهيم والقيم والدلالات والتي لا يمكن للمجتمع أن ينمو ويتطور بدونها. أما بالنسبة للمثقف الجزائري الحالي فهو مطالب بإيجاد الحلول والأجوبة التي يطرحها الواقع والمجتمع باستمرار، وذلك بترجمة هذه الوقائع إلى مفاهيم ونظريات، ومن ثم صياغتها في شكل اطر نظرية حتى يتسنى له فهم هذا الواقع الذي يتغير ويتحول باستمرار. كما أن المثقف الجزائري ملزم بمواكبة التحولات الجذرية والعميقة التي يشهدها المجتمع جراء التطور المتسارع والرهيب الذي تعرفه وسائل الاعلام والاتصال الحديثة.

الهوامش:

[1]Saddak Benkada, Publicistes journalistes, anciennes et nouvelles élites du Maghreb, édisud, Aix- en Provence, 2003, p. 99.

[2] Istivan Lokos ,« Elites et sentiments entre les deux guerres mondiales,» anciennes et nouvelles élites du

Maghreb, IREMAM, éditions Aix-en-Provence, p. 118.

3 فلاديمير ماكسيمنكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، أنتلجنسيا المغرب العربي، دار الحكمة ودار النهضة، الطبعة الأولى، 1994، ص 69.

4 Abd-el-Kader Djaghloul, Lettrés, intellectuel et militants en Algérie, 1880-1950, Urasc – Oran - Alger 1988, p 18.

5 Nouara Hocine, les intellectuels algériens, éditions DAHLEB, Alger, 2005, p. 171.

6Ibid. pp. 168 – 169.

7 Saddak Benkada, Op.cit. p. 103.

8 Nouara Hocine, Op.cit. p. 169.

9 Mostapha madhi, hommage à Djilali liabes, éditions casbah, Hydra, Algérie, 2006, p.65.

10 Nouara Hocine, Op.cit. . p 280

11Ibid. p. 281

12 العربي بن الزبيري، المثقفون الجزائريون والثورة، منشورات المتحف الوطني للجيش، الجزائر، 1986، ص 41.

13 فلاديمير ماكسيمنكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، مرجع سابق، ص 76.

14 العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 22.

15 نفس المرجع، ص 109.

16 فلاديمير ماكسيمنكو، مرجع سابق، ص 08.

[17] Gilbert Meynier, les cadres du FLN – ALN, 1954 – 1962. Anciennes et nouvelles élites du Maghreb, IREMAM, éditions Aix-en-Provence, p.214.

[18] Ibid, p 215.

[19] Ibid. p.212.

[20] Ibid. p.216

[21] Mustafa Lachraf, des noms et des lieux, édition casbah, Alger, 1998. p. 90.

[22] Ibid. p. 177.

23 Nouara Hocine, Op.cit. p. 280.

24 Ibid. p. 171.

25 العربي الزبيري، مرجع سابق، ص .110.

26 نفس المرجع، ص. 169.

[27] Nouara Hocine, Op.cit. p. 176.

[28] Gilbert Meynier, Op.cit. p.215.

29 Ibid, p.p. 216 - 217.

30 Ibid, p. 220.

31 Ibid, p. 220.

32 Ibid. p. 211.

33 العربي الزبيري، مرجع سابق، ص.111.

34 نفس المرجع، ص. 164.

[35] Nouara Hocine, Op.cit. p. 183.

[36] Ibid. p.p.178-179.

37 فلاديمير ماكسيمنكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، مرجع سابق، ص. 08.

38 نفس المرجع، ص. 76.

39 العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 22.

40 Laszlo Nagy. « Ferhat Abbes, Personnage prématuré, personnage. Dépassé?» Anciennes et nouvelles élites du Maghreb, Op.cit. p.123

41 Yamina Batahar, Les groupes émergeant des chimistes, anciennes et nouvelles élites du Maghreb, IREMAM, éditions Aix-en-Provence, p. 250.

42 فلاديمير ماكسيمنكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، مرجع سابق، ص 123.

43 نفس الرجع، ص 122.

44 عبد القادر رابحي، "أيديولوجية الرواية والكسر التاريخي" الأدبي والأيديولوجي في رواية التسعينات، أعمال الملتقى الخامس للنقد الأدبي في الجزائر، جامعة سعيدة 2008، ص 53.

[45] نفس المرجع، ص 53.

46 Mostapha madhi, Op.cit. p. 67.

47 فلاديمير ماكسيمنكو، ترجمة عبد العزيز بوباكير، مرجع سابق، ص.ص 110-111.

48 Malika Kebbas, L'intellectuel en question dans (la traversée) de Mouloud Mammeri, INSANIYAT, N°14-15 Mai-decembre, 2001, p.170

49 عبد القادر رابحي، مرجع سابق، ص 49.

50 نفس المرجع، ص.49

51 نفس المرجع، ص 49.

52 Ali El Kenz, Les écrits d'exil, éditions CASBAH, Alger, 2009, p 281.

53 Ibid, p.295.

54 Ibid, p. 281.

55 Ibid, p.280 .

56 Ibid, p 294.

57 Mustapha madhi, Op.cit. pp. 72 – 73.

58 Mohamed Arkoun, humanism et Islam, editions el barzakh, Alger, 2006, p.164.

المتون الشفهية، النوع الاجتماعي والقيم
شباب مدينة تيارت نموذجا

أ/ بودواية مختار، جامعة ابن خلدون تيارت
د/جرادي العربي، جامعة ابن باديس مستغانم

الملخص:

الاستخدام الاجتماعي للمتون الشفهية يعمل على صناعة وإنتاج معاني خاصة بالجسد وبالقيم السلوكية الخاصة به تعمل كموجهات للأفراد بحيث تبين الهوية النوعية وحدود الفضاءات الاجتماعية وهي تعمل على الفصل الوظيفي بين المذكر والمؤنث لتؤسس لنوع من الازدواجية (أنوثة/ذكورة) يكمل أحدها الآخر، المتون موجهة للفئات العمرية ككل تعمل على تربية وحث الأفراد على نوع من الالتزامات تخدم الاجتماعي، إن المتون الشفهية غنية بالقيم على علاقة بالواقع الاجتماعي والثقافي لا زالت موجودة ومستخدمة على نطاق واسع على الرغم من كل التغيرات البنيوية والهيكلية التي عرفها المجتمع المحلي.

الكلمات المفتاحية: الشفهيات، القيم، النوع الاجتماعي، الأنوثة، الذكورة.

Abstract :

The social use of the oral corpus works to form and produce meanings and ther corous with behavioral values its ouen Also it given an identity and limited spaces to the individuels and separated between (mal/femal) and complet cachother addresses all categories in the socety in a longscal in spite of all its changees.

Key words : Oralities, Values, Social Gender, fiminity, masculin.

تهتم الأنثربولوجيا بالأنساق الرمزية والإشارات والعلامات والرموز على أنها أنماط شبه ثابتة تعبر عن الاجتماعي، تولي الكثير من الدراسات اهتمام بالغ للكلمة المنطوقة "الشفهيات" أي القوالب اللغوية وتعتبرها نصوص لها بعدها الدلالي لأنها قادرة على استيعاب معاني سلوكية وقيم، تتميز باستخدامها المكثف في الوسط المحلي لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إليه، تستخدم في سياق التخاطب/التواصل وفق مبدأ متعاقد عليه (الاتفاق الجمعي) ذات مقصدية تخدم وظيفة محددة قد لا تخرج عنها.
للشفهيات قدرة على بلورة مجموعة من القيم تحول النوع الاجتماعي إلى قيمة، فهي في نظر الشباب مصدر للقيمة، ناتجة عن الخبرة، التجربة والتاريخ، تصف الطبيعة التكوينية للذكورة والأنوثة، لهذا منهجيا تم اللجوء في الميدان (الوسط المحلي) إلى:

- تصنيف الأمثال حسب المضامين وترتيبها حسب شدة ودرجة التكرار بعد عرضها على فئة الشباب أي الرجوع إلى المتون المستعملة في اليومي المعبرة عن الخصائص الجنسية والتقسيم الاجتماعي للأنوثة والذكورة.
- الكشف عن المضامين ومحتوى المتون بالرجوع إلى الميدان وإلى تأويلات الشباب ورؤيتهم لها. في هذه المرحلة سنهتم بالجانب الدلالي أكثر من الجانب التركيبي مع ربط كل ذلك بالممارسات والتصورات والتمثلات.

يحاول المنتجون/المرددون للمتن العلامات من لغة شفوية/منطوقة إلى أيقوننات مادية تكشف عن هوية الفرد الاجتماعية لتسهل-لاحقا-الاهتداء والحكم على انتماء هذا الفرد إلى فئة أو نوع وفقا لمبدأ المماثلة بين الفرد وغيره، مما يجعلها تعبر عن الهوية النوعية. لكن الملاحظ لدى فئة الشباب وجود هامش للتغيير فتنامي قيم الحرية والذوق جعلا منها ذات دلالات جديد، فالمتون تتأثر بالتوجهات الفكرية والدينية والنظام المعرفي والحضاري، ليختزل ويحاط النوع الاجتماعي بطقوسية صارمة تتجلى من خلال اللغة الشفهية وقيمها.

يمكن النظر للشفويات بوصفها إيديولوجيا معلنة لغة، كما يمكن افتراض وجود رابط بين الممارسات اللسانية والسلوكيات الاجتماعية، فالمفردات داخل المتن تعكس ما هو خارجه، فتداول المتن على نطاق واسع لدى الشباب وإمكانية الاختيار بين مجموعة من القوالب اللغوية الغرض منه التعبير عن الاجتماعي يمكننا من الوصول إلى القيم، الأنساق الثقافية وكل ما له علاقة بالنوع الاجتماعي مثل: ثنائيات الذكورة/الأنوثة (معاني الفحولة وتصورات وثمثلات حول الجسد...الخ). فالمتن الشفهي عبارة عن تكثيف للغة ذو بعد ثقافي، اجتماعي.

تقاطع الشفهيات مع الخطابات الثقافة تعبر عن السلوكيات والقيم الواجب الالتزام بها، مع الاعتراف بأن المتن على الرغم من جماليته وطاقته التعبيرية وطابع التكثيف الغاية منه التوجه نحو متلقي معروف

(أحد أفراد الجماعة-مجتمع) فهو يعبر عن قيمهم وتوجهاتهم في ما تعلق بالجنوسة -النظرة للنوع الاجتماعي-، نحن أمام وجهة نظر مشتركة يسعى المنتج/المتداول إلى نقلها إلى الآخر.

منهجيا يجب الاهتمام بالدلالة اللغوية والدلالة الثقافية، والسلوك المراد تعيينه، لهذا يجب تتبع التغيرات التي تحدث على مستوى المتن وعلى مستوى اللغة والأداء ورد الفعل، الجمل والعبارات المصاحبة للمتن (أثناء لحظات إنجاز فعل الكلام)، فهم التعقيبات على المتن كما أنه يجب مراعاة مسألة وجود خطابات جديدة وفهم جديد للمتن، فالعلامة اللغوية لها صفة التوظيف المتعدد، لهذا تتعدد معانيها، الهدف هو الوصول إلى رمزية الثقافة وتجلياتها من خلال الشفهيات والربط بين كل المعاني/القيم الموجودة.

لأن المتون تتميز بقدرتها على التواصل فهي تضمن إنتاج وإعادة إنتاج القيم، بما أن الشفهيات لها خاصية الاستمرارية بين الجماعات، فهي تمكننا من الوصول إلى تمثلات الأفراد وقيمهم وسلوكياتهم (المتن يستمد قوته من خلال ارتباطه بالثقافة وبمعانيها وقيمها)، باختصار هي تمثيل لواقع اجتماعي، ثقافي، تعبر عن المكانات والأدوار المشغولة وهي انعكاس للواقع الاجتماعي، قد تكون الغاية منها إيجاد تموقعات للذات المذكر/المؤنث (تترجم كعبارات وتراكيب لغوية).

المشافهة وقيم الجسد:

الهدف هو خلق أنموذج للجسد يكون خطابيا يجب أن تتماهي معه كل الأجساد، تضبط الممارسات السلوكية والخطابية لتجعل منه مرجعا، مطلوب توحيد السلوكيات ليتحول إلى صورة نمطية تستجيب بشكل منظم لإيقاع المقدس يندمج في المعاملات يخضع لوضعيات محددة (وضعيات الجلوس، الأكل، النظر...الخ).

يجب أن ينخرط في الاجتماعي بعد أن يفقد الذاتي؛ يتم الاستعانة بالشفويات لتعميم ممارسات الجسد أي تقنين الأوضاع الجسدية، [1] وظيفة القيم الموجودة في المتن هي ربط الجسد بمفاهيم الإنتاج والفعالية يجب أن تضبط كل حركاته لمواجهة القيم الوافدة/الجديدة وقيم الغير.
تسعى اللغة إلى ترسيم الجسد بحيث تبدوا المرأة والرجل في إطارها طابعا ومطبوعا نتيجة لعضويته في الجماعات أو البيئة التي تفرض تبادل لبعض السمات الثقافية"[2]
الملاحظ أن استخدام المتن لدى الشباب يختزل الجسد في الغريزي فقط ويربطه بتفسيرات بيولوجية شائعة، إضافة صفة الشهوة إلى النوع الاجتماعي حول الجسد إلى كيان ذو طابع خاص يخضع للقيم المتمايزة، الجسد رأسمال رمزي "جزء من الشرف يجب أن يخضع للثنائيات الموجودة، "مجموع الثنائيات الأخلاقية المعيارية المتعارضة؛ الحشمة/السفور، الفضيلة/الإثم، الأصل/الدخيل، الطهارة/النجاسة."[3]

من خلال اللغة المتداولة حول الجسد يمكن أن نلاحظ أنه عبارة عن علامة دالة، ترتبط بالقيم الحشمة والحياء تعمل الشفهيات وفق استراتيجيات تراعي أن يدمج هذا الجسد في الاجتماعي، فالمتون غنية بعبارات الترغيب والترهيب، ثنائية الثواب والعقاب كل هذا لترويض الجسد وتوفير بدائل للأفراد للتعامل معه. جل المتون تنطلق من قواعد أخلاقية لنفي الجسد أو إثباته لأنه على علاقة بمفاهيم كالعار، الشبقية، اللذة ومستقر للفتنة. لهذا نجد أن الجسد يخضع لثنائية الحلال، الحرام، الممنوع، المباح، المسموح وفق هذه الثنائيات يتحدد مكانه ووظيفته.

تراعي المتون ربط الجسد بقيم كالخصوبة وتربطه بوظيفة حفظ النسل وضمان استمرارية البقاء، لهذا يجب المحافظة على -نقاء- الخط السلالي الأحادي الاتجاه من خلال المحافظة على الجسد والنوع.

الجسد/الذات هو ما يراه الآخرون أي الجزء المدرك الواجب رؤية من الآخر مؤسس للذات (مثل المرآة أي الانعكاس) وهو ما يؤول إذن يجب إظهار الغيرية والالتزام بالتماثل-التطابق؛ إلزامية التكرار للانعكاس كما يريده الآخر، الأب، الأخ، الآخر...الخ، جل ما يشاع في المتن يمنح الاختلاف يضبط التجلي والظهور. إن استراتيجية الإخفاء/الطمس في اللغة تعكس ما هو موجود في الواقع من أجل خلق تماثل فقط، تتيح المتون الشفهية وتؤسس لهذا التجلي فتبين المسموح بالظهور والممنوع المضاد للقيم. بحيث يصبح الأفراد "ذات" و"غير" في الآن نفسه الغاية من الشفهية تأسيس ل"**لأنا المعمم**" من خلال اللغة الاستخدام الواسع للمتون يساعد على الترسيخ وتبني القيم الموجودة فيها.

تعمل اللغة على خلق القرائن للتدليل على الجسد وقيمه وتركز على الصفات الجسدية (القوام، القد، الجمال والقبح)، يتم التأسيس للاختلاف في الهوية؛ الميول والاستعدادات بين الذكوري والأنثوي، من خلال خلق اللغة الحاملة للمعاني الوصفية أو التصنيفية، أحد الجنسين يتميز بقيمة العقل الطاغية والآخر يتمتع بقيم جمالية/جسدية فقط (شبوب الرجال في عقولها وشبوب النسا في وجوهها). من خلال المتن يتم الإفصاح عن الكينونة وعن القيم المرتبطة بها فالأنوثة إذا ربطت بقيم الجمال الجسدي تختصر في العفة، الرقة، اللطف، الحنان والأنس مقابل الذكورة التي ترتبط بالخشونة، القوة أي الفحولة والقدرة.

يرتبط الرجل بقيم النجدة، الوفاء، البأس والقوة بينما المرأة تربط بقيم أخرى وهذا بحد ذاته صناعة للمعنى للفصل في لاجتماعي. "فالأنثى تستعد للحضانة وتتصف بالرقة والحنو، بينما يستعد الذكر للنجدة، ويتصف بالبأس والقوة. وهي تطلب الحماية الرجل لها، بينما لا يليق برجل أن يطلب حماية المرأة له، والرجل أميل للهجوم، في حين أن المرأة أميل للدفاع، وهو الذي يطلب يد المرأة، بينما لا يليق بالمرأة أن تطلب يد رجل، هي تتحلى بالصون والستر بينما هو يتحلى بالإقدام والجرأة."[4]

لهذا فالقيم الجمالية التي يوصف بها جسد المرأة يجب أن تبذل للزوج فقط دون غيره ولا يمكن أن يتجلى هذا الجسد الأنثوي إلا في مراحل عمرية محددة بدورة الحياة أي بعد الزواج فقط. تحدد العورة لإعطاء

معنى للجسد وقيمه، يرى المتداولون للمتن من فئة الشباب أن الجسد لا يجب أن يكون عبارة عن سلعة يجب أن يتماهى مع القيم الاجتماعية المتعارف عليها، لا يجب أن يختصر كآلة للإعجاب وللإنجاب.

من هنا ينشأ فهم خاص للجسد الممتنع أو الممنوع لأنه لا يجب أن يمتع إلا من خلال الارتباط بالرجل برباط اجتماعي لخدمة وظيفية الإنجاب والتربية، وبما أن الجسد قبل هذه المرحلة يربط بهوية وبعناصر تعريفية يربط بالأصل، الأسرة، الأفراد وجماعات الانتماء وبقيم الجنس لذا يجب أن يحجب (مثلا تستخدم قيمة العذرية كغطاء لتبرير المنع والحجب وتتبعها قيم أخرى كقيمة الشرف).

دور القيم الشفهية توفير أخلاق ومعايير يجب أن يحافظ عليها الأفراد كوضعيات الجسد لذا لا يتشبه الذكور بالإناث يطلب من أحد الجنسين اللطف، الرقة، الحياء، الحنان والعطف ومن الأخر القوة والصلابة، يطلب من الأفراد أن يلتزموا بالقيم سلوكيا.

ترتبط المرأة بقيم مثل المكر الدهاء والمخاتلة وقوة التدبير للتعبير عن التمايز في القوة، لا يتعلق الأمر بالإقصاء والاستتباع بل بربط الأفراد بوظائف متمايزة وتقسيم الاجتماعي فقط، الجمع بين كينونتين متفردتين، ووصف للشراكة بينهما. لكنها تغلب قيم المكر، الحيلة والدهاء وتنسبها للأنثى وتجعل منها المتون المبادرة لطلب اللذة.

المتن يبين الأدوار فالرجل هو المسئول وإليه تنسب الأشياء، يحمل اسمه، لذا يجب أن يكون عاقلا للتغلب على القيم التي تنسب للمرأة.

الخروج عن هذه الوظيفية الموجودة في اللغة الشفهية يجعل كل من الذكورة والأنوثة غير خاضعين للتقييم الاجتماعي بل إلى النكران والتنديد، "قد تكون المرأة 'خشبة، راجل، حديدية'، "لكن المرأة التي تكون كذلك لا تعود امرأة، فهي تخرج بذلك، عن سويتها الأنثوية، ولن تصير رجلا، فتصبح خلوا من سمات الأنوثة والذكورة، ومن هنا يجدر بكل من الرجل والمرأة أن يبقى على سويته..."[5]

هناك متون ترى أن هناك دوما إدارة للشأن اليومي، تسيير الأسرة والمنزل وللمؤسسة الزوجية ليست بالضرورة حكرا على الذكور أو الإناث بل هو متعلق بالقدرة فقط المتن يظهر حسن التصرف والتدبير على أنها خاصة بالرجل لكنه لا ينفيها عن المرأة، من هنا تشيع الشفهيات للتكامل وتحاول الوصول إلى الاستقرار بين عنصرين مختلفين متمايزين. التأسيس للثنائية التكاملية. ربط الزواج بالإنجاب أي أن قوة الجنس موجهة لخلق الحياة. وهو مبرر كافي بالنسبة للشباب لحجب المرأة وسترها. أي أنها رؤية لا تمنع الجنس بل تعيد دمجه واستخدامه بصفة منظمة. لهذا فتبادل النساء وحفظ المرأة لقرينها أي الزوج العشير (المرأة للراجل-الراجل للمرأة) والمرأة تتحمل مسؤولية أنوثتها إذ يعتقد مجتمع البحث أو على الأقل الجزء الغالب أن المتن موجه للمرأة بالدرجة الأولى. إذا تم الالتزام بالقيم من طرف المرأة فإنها تحصل على أعلى قيمة؛ **الأمومة** لأنها تخدم الاجتماعي وتضمن استمرارية الجماعات، من هنا فتبادل النساء يجب أن يؤطر من جماعة إلى أخرى حسب ما تراه مناسبا. (الشفهيات تربط بين القدسي والجنسي والجماعي). إذا

كانت المرأة في مراحلها العمرية الأولى مجرد "إيروس" محسوس جنسي، فإنها بالأمومة تتحول إلى "لوغوس" تمتلك قيمة العقل وهي أعلى قيمة تسعى إليها.
لا تخلوا القصص الواردة عن الشباب من تعابير عن انتهاكات للمؤسسات الزوجية، الخيانة، العلاقات غير السوية بين الجنسين لهذا فدور المتن إشاعة قيم الإخلاص، التفاني والتذكير بالسلوكيات الشاذة. تطويع العلاقات من خلال خلق الفضائل والقيم مثل العفة والتحكم في المتعة وتقسيمها إلى مشروعة وغير مشروعة وفق نظام القيم، أي ضبط الحاجة وتقنين الرغبة، تستخدم المتون كآلية للدفاع والتبرير فقط ولتبيان ما هو مشروع والتحذير من الكينونة "الايروسية" الشهوانية.

إن المتداول للمتون غالبا ما يربط بينها وبين ثنائية المقدس والمدنس ليجعل منها أساس ضابط للمتعة ويجعل من الفعل الجنسي معيار موجه لخدمة الواقع الاجتماعي أي سعي لتأسيس لنموذج فعلي من خلال اللغة، تتحدد الجنسانية في المجتمع المحلي انطلاقا من الغريزي الذي يجب أن يضبط ليخدم وظائف محددة، إن استدعاء الديني أو الإحالة عليه في القصص والأمثال والأشعار لا يلغي الجنسي بل يضفي عليه هالة ويمنحه وظيفية مبررة بعيدة عن "الإثم". بالتالي تحول العذرية والعفة والحشمة إلى قيم سلوكية ضابطة للوضعيات والأجساد.

تظهر المرأة في جل المتون الشفهية والأساطير تقريبا عجوز مسنة أو شابة ماكرة التي تتفنن في جميع أنواع المكر..."[6] وهي صورة اتفاقية موحدة غالبة في الشفهيات. تعتبر المتون الشفهية والأساطير ذات قيمة كالوثائق التاريخية خلقت للتداول تجعل من أحد الجنسين يوسم من طرف الآخرين. الملاحظ أن النصوص تتجنب الدخول في زمن صريح فالأحداث تدور في ماضي أسطوري إلا أنها من "منظور اجتماعي تعتبر كحكم تكراري أو ابتكاري يصدره الفاعل في ظرف معين؛ في حالة تنازعية أو حدث عادي، تبدوا النصوص الشفهية كشكل من أشكال التلاسن الهادف إلى إبراز الحكمة الكامنة في التمثيل الاجتماعي التحتي للثقافة."[7] كل هذا لإنتاج قيم.

قيمة الشرف:

"فكرة الشرف مركزية في الدراسات الأنثروبولوجية المتوسطية وأداة قيمة للمقارنة المجتمعات المختلفة، لكنها ذات مضمون ملتبس خاصة أنها ترتبط بأفكار أخرى كالعفة، الإقدام، الثأر، الضيافة، الحماية والسخاء، النبل والمهابة، وهكذا ترسم ملامح لحقل معجمي."[8] كما أنها "ترتبط بايدولوجيا؛ يتعلق شرف الفئة العائلية في حوض المتوسط بحالة توازن بين طهارة الدم من جهة واعتبارات اجتماعية من جهة أخرى، يسخر كل شيء داخل الفئة لتأمين هذا التوازن، يسهر كلا الجنسين على أن يتصرف بكامل الاحترام لهذه القيمة، يسهر الرجال على احترام الحشمة الجنسية للنساء من أجل ألا تفسد طهارة نسبهم

وتحث النساء الرجال على عدم الإساءة إلى سمعتهن، إن فقدان الشرف يولد العار وهكذا تجبر الجماعة على إعادة التوازن المفقود بالقوة أو بالحيلة"[9]

لهذا فالذكورة والأنوثة كخاصية لا تعني المنتج/المتداول للمتن؛ بوصفها جسدا كأي جسد آخر وإنما الذي يعنيه هو المرأة/الأنثى الشريفة والرجل الحامي لها، كما أن الأنوثة ظاهرة لا تتكرر عند كل النساء إنها حالة خاصة بكل امرأة، ما دام الأمر كذلك فهي ناقصة يتوجب البحث عن ملامح؛ باستمرار؛ في جسد المرأة الذي لا يتكرر هو الآخر، كل ذلك للعثور على أنثى/الأنثى وعندها سنعثر على تلك المرأة المفقودة فهي حالة تخص امرأة واحدة."[10] إن المنتج يحاول أن يطوع الأجساد ويفرق بينها وفق القيم الموجودة في المجتمع.

تعكس الجازية كقصة مثلا الجمال الجسدي والفكري، يتجه الأفراد-الشباب إلى وصفها كنموذج يجب الوصول إليه وتبنيه من خلال اللغة هذا يبين أن "اللغة سلطة"... تجعل من الفرد "قطعة " يتم توجيهها السيطرة عليها من أجل تحقيق التوازن بين الحاجات ومتطلبات المجتمع، لا يكون ذلك إلا بهدم اللذات والشهوات لأنها تدفع إلى عدم الامتثال... "أصبحت السلطة تحاصر حياتنا اليومية...فأمست تخترق الأفراد، تظهر عبرهم ومن خلالهم."[11]

ومن خلال اللغة المتداولة.

تسعى المتون إلى تصوير الخطر المجهول غير المألوف وغير الوظيفي "العدو" ضد قيم الشرف والحرمة والنيف، " تربطه بحالات ووضعيات كالعزوبة والطلاق وجهل النسب كلها حالات خطرة نتجت عن سلوكيات غير سوية حسب المنتج أو المتداول للمتن.

بالرجوع إلى الميدان نلاحظ أنه بطريقة غير واعية يتم حصر وتقدير الأنوثة/الذكورة بالرجوع إلى الجسد فقط أي بالماهية الجسدية، (ما يقدمه الجسد من متعة وخدمة)، المتون الشفهية في الوسط المحلي تركز مثلا على صورة المرأة المغرية الفاتنة الساحرة المفعمة بالأنوثة ذات الشكل الجسدي المميز لكنها تحاول تأطير الجسد من خلال قيمة الحشمة والحياء والشرف، لقد حضي الجسد لغويا بالكثير من الأحكام المبنية على أسس تشتغل وفق ثنائيات الإنكار/الإثبات لإنتاج المنع/الحجب كل هذا لصناعة الفروق وإعطاء معنى اجتماعي للتميز.

كما أن عناية المتن الشفهي بالشبقية والممارسات الجنسية يفيد أن اللغة المستخدمة لدى الشباب تخدم وظيفة تحويل الطبيعي "الإباحي" إلى الاجتماعي من خلال إلحاق اللغة بالمعياري، هي عبارة عن آلية لتعزيز "الجنس الحميمي" الذي يخدم الاجتماعي فقط، تتأثر اللغة بالرقابة فالمنتج للمتن يحاول الإفصاح عن القيم لاجتماعية/المقبولة يربطها بطقوس وممارسات جسدية، وهو ما يوحي بوجود سلطة لمراقبة الجنس، النشاطات والممارسات من خلال إنتاج خطابات شفهية تلح على الابتعاد عن الغريزة. فالمتن لا يرغب في الملذات الشخصية ويجعل من الجنس مسألة جمعية، الشفهيات أقرب إلى الخطاب الجماعاتي

العائلي موجه لتحديد المسموحات والممنوعات يبين القوانين الضبط وهو على علاقة من جهة أخرى بنظام الالتزامات العلائقية.

ينبغي على جسد المرأة تأمين **الخصوبة** الدائمة، يجب أن يحافظ على الشرف، الخط السلالي، الأملاك ونمط القرابة، نحن أمام خطاب توجيهي لكل الفئات، في حالة المنتج العارف (الفاعل المتعالي) ينظر إلى الخطاب على أنه شبه مقدس.

المتن يحاول أن يشيع قيم التمايز بين الجنسين؛ يحاول المتداول للمتن إشاعة مفهوم النوع الاجتماعي مقاييس للوصف والتصنيف خلق قواعد للتبادل مبنية على قيم اجتماعية يصعب أن تفصل عن مقولات مركزية مثل، المصاهرة، البنوة، الرباط الاجتماعي، الأبوة...الخ، وهي غنية بالإحالات الرمزية للملكية والإرث وخط النسب والقرابة. كما أنه يحاول أن يبين الخصائص المسندة لكلا الجنسين يعمل المتن على إظهار الفروق والتمايز باستمرار؛ "جميع المجتمعات تعمد نحوا جنسيا؛ لـ المؤنث والمذكر، وهو يفرض ثقافيا ولكن هذا النحو –المفهومي الواقعي-يتخطى أحيانا "البديهيات" البيولوجية. من هنا تبدوا مفاهيم الجنس اجتماعية فقط..."[12] نلاحظ في الشفهيات تجزيئ للمهام والوظائف لخلق تبادلية تكتسي طابع الديمومة بالتركيز على الجنس والفهم البيولوجي، هذا التقسيم الذي يؤسس لعدم التشابه ويمد الفئات المتداولة للشفهيات بآليات للرؤية وقيم وصفية/تصنيفية للجسد للنوع الاجتماعي لاحقا.

يعمل المتن على توضيح، "مجموع الواجبات والحقوق والأملاك، بشكل عام حقوق لجنس/نوع "الرجل" على جنس/نوع المرأة."

دور الشفهيات/القيم هو فصل المتماثل عن المختلف وخلق للتمايز، وضع أنظمة للتأويل تساعد على توزيع الأجساد على مجموعة من الفضاءات الاجتماعية (الأنوثة/الفضاء الخاص، الذكورة/الفضاء العام)، أي أنه مؤسس ليخدم وظيفة سامية في نظر الشباب؛ الحفاظ على تماثل الأقارب وإيجاد تنظيم عائلي (جنس واحد لأصل خطي واحد) مبنى على تقديس الرباط الدموي والمصاهرة وبالتالي إعطاء مكانة مميزة للأنثى بربطها بقيم الشرف والعفة والحياء، وضمان للتبادل لتعزيز القدرات الإنجابية، لإعلاء قيمة **الخصوبة**. تعمل القيم على تحريم أو منع التبادل في حالات محددة.

حتى لو تراجعت قيمة القدسي والطقوسي إلا أن اللغة تتخذ من الجسد موضوعا، ففي المتن الشفهي نلاحظ تقاطع التعابير؛ يتم الربط بين جسد المرأة وإحالات عنه- مثل الربط بين النسا/الحرث؛ ترابط رمزي يتعلق بخصوبة المرأة وهو يمثل رجوع اللغة إلى النموذج الكوني المتمثل في الأرض؛ الأم/الكبرى المنجبة (أحرث الأرض القريبة...النساء حرث للراجل) هنا أيضا دور المتن التعبير عن الاجتماعي إخراج للعلاقة الجنسية من الفوضوية والعفوية، تحويلها من نشاط فردي محض إلى نشاط اجتماعي مقنن، كما أن المتن يولي أهمية بالغة "للنكاح الشرعي فقط" (الإعلان عن الأنموذج الاجتماعي المعترف به وربطه بالفهم القدسي للعلاقة الجنسية) أي الإعلان عن رفض الاشباعات الجنسية الأخرى مهما كانت، كما أن

المنتج والمتداول للمتن من فئة الشباب يبدي رفضه للجسد الشهواني الشبقي، كأسلوب حياة، المتن يرفض الإعلان عن الرغبة.

قيمة الجمال:

الجمال يعني اجتماع الصفات المحمودة أو هو احتواء ماهية الشيء على كل أو جل الصفات المرغوبة والمعترف بها على أنها جميلة، وهو استكمال الذات بتوفر الصفات اللائقة (الجمع بين حسن الجسم الشكل/اللون) وحسن التأدب وسرعة البديهة، والجسد الحسن الجميل هو ما تجتمع فيه الصفات كالاستقامة وتناسب الخلقة، والاعتدال إلى أن يصل إلى الكمال.

يرتبط الجمال كقيمة بماهية الشيء أي أنها تحدد ما يليق به "ما يليق بالأفراد حسب النوع" أي أن المتن يقوم على الاختلاف في مفهوم الجمال حسب النوع/الجنس؛ ولكل صفاته التي تميزه وتتجلى فيه "في الجوهر وفي السلوك الظاهر للعيان"، وهو مختلف لوجود تفاوت في معانيه على الرغم من الاعتراف بأن الجمال صفة موجودة لدى كل الأفراد. الجمال يعنى الموافق والمناسب الذي يعترف به اجتماعيا، ينقسم إلى المعنوي الذي يرتبط بالفعل والمادي الذي يمكن أن يرى ويدرك بالنظر فقط والجمال "الكامل" هو التناسب في جميع الصفات.

والجمال يعنى اجتماع الصفات الفاضلة أي الكمال الخلقي، ثم الوصول إلى الاعتدال أي ترتيب على النحو الواجب، المقرر اجتماعيا، لا تكفي اجتماع الصفات المحمودة فقط بل يجب أن تظهر في السلوك، "كمال الجسد يكتمل بكمال الأفعال" جمال محسوس يمكن إدراكه بالملاحظة البسيطة.

تسعى المتون إلى وضع أنموذج للجسد يرتكز على **القيم الجمالية** من خلال الوصف، لكنه يلجأ إلى استدعاء النظائر الطبيعية للتعبير عن الجسد (كالغزال) وتمثيله من خلال الأوضاع الحركات والإيماءات مثل مشي الغزال، تدل عليه عبارات لدى الشباب تتزعبل، الخودة، الحبة والحوتة، الوردة لوصف المرأة...الخ. كل هذا لتحويل الجسد إلى كيان وصفي تعبيري، لتحويل القيم الجمالية المرئية إلى قيم جمالية لغوية، لهذا يتم خلق قرابة بينه وبين أمور طبيعية أو تشبيهه (مثل عبارة عيشة راجل) كل هذا للإيحاء والتعبير عن المرغوب والممنوع أو المسكوت عنه، لكنها تجعل من قيمة الجمال قيمة زائلة وعارضة، لأن أي نموذج جسدي يجب أن يكتمل بالزينة وبقيم أخرى كقيم العقل-التعقل، ويكتمل بالديني قيم الطهارة والعفة، إضافة إلى قيم أخرى كالمهارة (كل صبع بصنعة).

الأنموذج الجسدي العام لدى الشباب يتميز بالأناقة، الرشاقة، الدقة، الضخامة؛ "يجب أن يملأ الجسد العين " أن يتلاءم المشهد الجسدي العام مع الخصائص الاجتماعية كالأدب والخصوبة".[13] إن المتن (إذا ما أضفنا له التعليقات من فئة الشباب) يمكن أن يعطينا معجما لغويا يقربنا من القيم والسلوك، فالشباب يربطون الجسد بالمتعة، أو يربطون بين الجمال كقيمة وقيم أخرى مهمة كالعفة، التخلق؛ لأن الجمال هو جزء اصطناعي يمكن الحصول عليه (قابل للتداول الامتلاك؛ يمكن الحصول عليه في أي وقت) كما أنها

ذات وظيفة تميزية اجتماعية (نجد صداها في عبارات بنات لجواد زينين...الزين المكمول...)؛ كما أن الاستيهامات الشهوانية[14] حاضرة لدى فئة الشباب، مثل التعابير التي تدل على القيم الجمالية التي ترتبط بضخامة الجسد وضخامة الأجزاء التي لها علاقة بالعملية الجنسية وبياض البشرة (الزرقة كي العسل إذا طاحت على الجرح تشفيه...) إذن القيم الجمالية ترتبط بتصوير الجسد.

النموذج الجمالي ومعايره تكون دائما تعبير عن وضعيات، بالتالي فإنها تربط المتعة والشهوة بالنموذج المثالي الجمالي. "إنها تؤسس للحظة الجنسية المرتقبة ولو على مستوى التخيل"[15] تنقل بعض المتون صورة عن الجسد الغالب فيها هو المتعة، الشهوة والتصوير للأنوثة ويختزل الجمال في نماذج حركية وتصوير للمظهر لدرجة تحويله إلى صورة خيالية، لكن بعض المتون الأخرى تصوره على أنه "فتنة". تربطها بالغواية والرغبة غير المعلنة في الإغواء.

الذكورة /الأنوثة كقيمة:

الملاحظ أن المتون تربط بين السلوكيات وتميز بين الذكورية والأنثوية، الملاحظ هو وجود نوع من الازدواجية في التعبير عن هذه الثنائية (لصناعة القيم)، "قد يظهر الازدواج في عبارات مبنية على الثنائية خير/شر (الخير مرأة والشر مرأة) قد يتخذ هذا الازدواج علاقات أخرى اقتصادية مثلا (الربح من المرأة والشر من المرأة) كما أنه يتخذ صفة التحذير (المرأة تعريك والمرأة تعيلك) إذن هذه الازدواجية مبنية على عدة ثنائيات فهي: شر/خير، ربح/خصارة، وكل هذه يشير إلى أن الصورة غير مستقرة."[16]

هذه الثنائيات تجعل من الأنوثة والذكورة مصدر للقيمة، فالمرأة مرغوبة ومقبولة مثلها مثل الذكورة وهي مطلوبة لأنها الموجه الأساسي للاقتصاد المنزلي (المرأة عمارة ولوكانت حمارة، هي مولات الدار، ...الخ)، وهي مصدر للاستقرار وللإشباع. إلا أن هناك متون أخرى تجعل منها مصدر للتهديد والخطر، مصدر للخوف (سوق البنات خاوي، جنان البنات خاوي، لا خير في البنية ولو كانت بالذهب مطلية، دار البنات خاوية، إلى ما عنده بنات ما عرفوه باه مات...الخ). مع التركيز على الوظيفية كتوجيهها إلى سياسة المنزل والسهر على اقتصاده (المرأة للراجل، المرأة إما دارها أو قبرها، ...الخ) كما أن المرأة تكون مضافة إلى الرجل في التعريف والهوية.

يعمل المتن الشفهي على تكوين مجموعة من القيم وربطها بثنائية الذكورة والأنوثة من خلال خلق لغة تميز بين قيم الصلاح وقيم عدم الصلاح، لكنها كلها تجعل من الثنائية السابقة مصدر لاستمرارية الجنس البشري.

مثلا: الأمثال تصف سلوك المرأة وقولها وفعلها فإنها تتحدث بصفة مباشرة مع الرجل لكونها "تحذره من المرأة أو ترغبه فيها كما أنها تضعه على علم بكل مساوئها من جهة وجل محاسنها من جهة أخرى."[17] تستخدم اللغة الشفهية لتبيان أثر المرأة على النظام الاجتماعي من خلال ربطها بقيم المكر، الدهاء وعدم التعقل فهي "علقة" "عقرب" تجعل منها مهددة للنظام الأسري وتغرس في اللغة مجموعة من الثنائيات

والتقابلات بين قيم مثل العفة الصلاح الاستقامة مقابلة لقيم مثل المكر، الدهاء، عدم التعقل وعدم الصلاح.

ترتبط المرأة بقيم أخرى وبوظائف يجب أن تقوم بها -خاصة أن فئة الشباب يؤمنون بهذه الوظيفية- لهذا يتم التركيز على فعل الخصوبة والعقم، يرى المستجوبون أن المرأة مسئولة عن الخصوبة، وأن العقم هو حالة لا وظيفية يجب تجاوزها (مسئولية الحفاظ على الاستقرار واستمرارية النوع شأن المرأة). تفضل الصفة الأولى على الثانية فالإنجاب هو الضامن لاستمرارية الاسم والوجود الأسري ككل مرهون بقيمة الخصوبة.

الربط بين قيم الصلاح وفكرة الأصل، الانتماء والنسب المعروف، هنا يكون الفرد بعيد عن قيم التحايل، الكيد والإغراء والخداع تحاول الأمثال أن تشيع القيم الأولى (كيد النساء كيدين ومن كيدهم ياحزوني...إذا حلفوا فيك النساء بات قاعد...إذا بغاوا يدبروا وإذا حبوا يدبروا...الخ).

للشرح نعتمد على المخطط الذي قدمه الباحث علي أفرافار:

الربط بين القيم والوضعيات الاجتماعية، مثل الثيب، البكر، المطلقة والعانس، وإنتاج مقولات تتوافق مع كل مرحلة، عدم التخلي عن القرينة إلا في حالات نادرة تمس الكرامة (كنت سيد الناس وليت كيفك كي الناس وتالي الناس).[18]

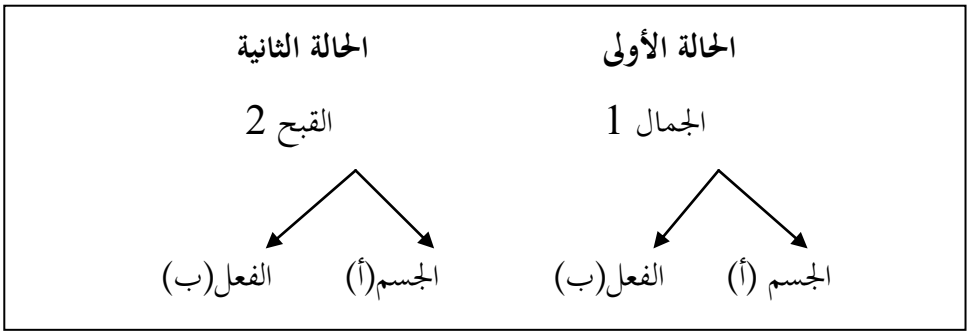
الحالة الأولى:	إمرأة متزوجة ←	ثيب هجالة ←	متزوجة للمرة الثانية
	↓	↓	↓
الحالة الثانية:	بكر	بايرة	متزوجة
	↓	↓	↓
موقف المجتمع:	احترام	عدم احترام	إحترام

نلاحظ أن هناك ربط بين الحالة الاجتماعية والقيمة كما أن الأفراد في المجتمع يتجاوزون هذه الوضعيات ليتحول كل شيء إلى قيمة مثل: تحويل العمل إلى قيمة وتربط بالنوع الاجتماعي "سبع نساء والقربة يابسة" مطلوب الالتزام بالوظيفية الاجتماعية وخدمة الاقتصاد المنزلي، ورعاية الأفراد داخل بنية الأسرة.

يمكن أن نستعير فكرة الباحث علي أفرفار، أيضا في فهم النوع الاجتماعي والقيم من خلال مستويين.

المستوى الأول: "وصف جمال أجزاء المرأة وما يظهر منها كالشعر، الفم، العينين، الرشاقة وبعض الأعضاء تعكس الرشاقة لدى المرأة".[19] ويعرض أوصاف تعتبر كمقياس للجمال تعتمد للاختيار "العرقوب" (عرقوبها يذبح الطير...عدم وجود جمال عدم وجود فال).

المستوى الثاني: إقران الفعل بصلاح السلوك "زين المرأة في حياها" وهو جزء من الجمال والضامن لصلاح السلوك ويعطينا الباحث الخطاطة التالية:



إذن التقاء جمال الجسم وجمال الفعل [1 (أ) + 1 (ب)] وهو التقاء نادر

جمال الفعل وقبح الجسم [1 (ب) + 2 (أ)] وهو الالتقاء الذي وجد مكانته داخل المثل الشعبي ذلك أن مقياس الجمال ليس مطلوبا بل حسن الفعل وذلك لتفادي الصراع الذي لا يفيد معه الجمال كقيمة بل أفعالها الصالحة. كما أن الهدف إعادة إنتاج الأفراد بنفس القيم ونفس التوجهات (أقبل القدرة على فمها تطلع للبنت لأمها).

هناك احتمالات أخرى يوردها الباحث علي أفرفار:

جمال الجسم وقبح الفعل [1 (أ) + 2 (ب)]. وهي غير محببة وغير وظيفية في مجتمع البحث

قبح الجسم وقبح الفعل [2 (أ) + 2 (ب)]. غير مقبولة لدى فئة الشباب كقيمة.

غير أن هذه القراءة نفقد معناه بالرجوع إلى الشفهيات نفسها ونفس الفئة (دار البنات خاوية) تأكيد للقيمة الذكورية الذين يعتبرون عزوة ومدافعين عن الشرف، فدور الذكوري مهم من الدور الأنثوي لهذا فالارتباط بالوظيفية يجعل من القيم تتمتع بالازدواجية.

"يتعلق الكيان الاجتماعي للمرأة مبدئيا بأمومتها أكثر من جاذبيتها الجسدية، فالجمال يزول لكن الولد يبقى. الأم الولود تعرف بأن المستقبل لها حتى لو خانها زوجها، فهي بموقع اجتماعي أفضل من موقع الجميلة العاقر فالأمومة تساوي الوظيفية والعقر يساوي الهامشية."[20]

تعكس المتون التخوف من اختراق منظومة السلطة، ويبين تعدد الأدوار وتعدد النماذج القيمية وأشكال الصراع الموجودة والممكنة. بما أن الأسرة تشكل وحدة أولية للانتماء وأساس للاستمرارية نلاحظ أن الاستخدام الاجتماعي للمتن يتجه إلى تقدير هذه البنية ويعتبرونها أساس للهوية، كما أنهم يعتبرون أن من بين الأولويات تأسيس أسرة، والحصول على أطفال، ومن بين القيم التي يهتم بها الشباب الاستقلالية في مقابل الطاعة وهو ما يثير مسألة علاقة الشباب بجيل الآباء.

وظيفة القيمة الجمال:

يساعد المتن الأفراد المتداولين على بناء وعي وتصور للأشياء تربط قيم الجمال بمفاهيم اجتماعية مثل العلاقات، الرباط الاجتماعي، المصاهرة ويخضعها للتقييم، لإضفاء معنى على الرغبات "تكوين موضوع الرغبة"، يعمل المتن على الفصل بين الجسد والرغبة من خلال صناعة "ذات عاقلة" تتحكم في الجسد، تأطير الحضور الدائم للجسد تحويل المتن إلى خطاب تبليغي حامل لهذا المعنى.

توجد مجموعة من المتتاليات المتعارضة، الدالة على الجمال مثل: (حديث النساء يونس ويعلم الفهامة.. ..ماكلتهم ما تتحسي وكلامهم ما يتنسي...الخ) يجمع المنتج بين المتن والحكي للتعبير عن الجمال، فالكلام في حد ذاته متعة لأنه يولد الأنس واللذة، إذا كان المخاطب أنثي تجتمع لذة الخطاب ولذة الجسد، والكلام فتنة مثل المرأة، يقترن بحديث الجسم "الايروسي"، في المثال السابق يكون الحديث عبارة عن لذة رمزية لأنه يبين "الايروس" الأنثوي على أنه مصدر للذة وأداة للفتنة، هنا يعمد المنتج/المتداول إلى الإفصاح عن المكبوت الخوف من المرأة. الخطاب/الكلام مجال لإنتاج الذات يجب أن يمنع لأنه قد يقود إلى الإباحية يطلق الشهوة، اللذة والفتنة. جل القصص تعبر عن ذلك من خلال تحول وتسلسل الأفعال من لحظة البداية أي الاستحسان ثم الميل ثم حدوث الألفة والوصول إلى الافتتان والوقوع في الإثم. الهدف هو الحفاظ على استقرار المجتمع ووظائفه، والحفاظ على أشكال التضامن، وعلى ما يستحق أن يكون من خلال التقليل أو منع العلاقات بين الجنسين.

إن المتن يقدم التجربة الجمعية والقيم ويقدم تصور للحقائق وللوجود الاجتماعي، وهو حديث عن الحميمية وعرض للأفكار والتعريف بالهوية النوعية، اللغة الشفهية تعكس التجربة الاجتماعية، الأنماط السلوكية الأنثوية/الذكورية. يعمل التداول على محاولة لتشكيل الذات؛ خلق لذوات تمثيلية ربط الأنا بالفضاء الاجتماعي، وربطها بالقيم؛ تتم الاستعانة بالمتن لأنه مصاغ بطريقة "درماتيكية" وفق آلية يراعي فيها إنتاج ما هو قابل للتداول في السوق اللغوية، يوظف لخدمة إيديولوجيا معينة.

ما تتضمنه الشفهيات من مفاهيم وقيم ومعايير تتجاوز الجوانب **الجمالية** إلى خدمة الاجتماعي فالتداول يسهم في تشكيل المعنى. الشفهيات تعبر عن وعي من يتكلمون بها ويستخدمونها، تعبر عن لاوعي الأفراد حين تحيل إلى دوال متعددة خارج المتعارف عليه، لا يمكن إلغاء تعدد المعاني ووحدة الاستخدام لكن يمكن إخضاعها للتحليل الأنثروبولوجي للكشف عن القيم والتصورات التي تتضمنها، خاصة أنها تتميز بتنوعها ثرائها وإمكانية استخدامها في سياقات متجددة قابلة للتمدد والتعبير عن جل السلوكيات الموجودة والممكنة، قوة التبليغ والإحاطة بالأشياء. وهي حاملة للتصورات حول الجنس-النوع الاجتماعي مبنية على سجالات ثنائية. فالأفراد مولعون باختيار الألفاظ والرجوع لمتن في جل المواقف اليومية (الملاحظ هو وجود حرص وميل إلى المتن لدقة التعبير) وهو ما يبرر كالتزام بالرجوع إلى المتن في كل لحظة فالشباب منتجون من الدرجة الثانية؛ يصنعون النص بناء على واقعة قابلة للتكرار والتعميم (موقف

اختباري) يقابله معنى عام وشائع قابل للاستخدام، معبر عن حقيقة النوع الاجتماعي وثنائية تتميز بالتقابل بين الذكوري/الأنثوي، والتفاعل الجدلي بينهما يحمل معني وقيم سلوكية.

بعيدا عن المعيارية والإغراق في المثالية يعتقد الشباب بصدق المتن (الاعتقاد والوثوق) وأنه نتاج لموقف اختباري يترجم الواقع الاجتماعي لغويا، من خلال تحليل المتن يمكن الوصول إلى وظيفته المجتمعية وأهميته كمنتج للقيم النظرية (منتج لمعرفة) ترتبط بالسلوك مباشرة، فالشباب من خلال الاستخدام الاجتماعي للغة وللمتن ينتجون القيم ويعكسون عبر هذا الاستخدام المفرط للمتن-الشفويات ظروف عيشهم وواقعهم وعالمهم الاجتماعي الحقيقي بالإضافة إلى التمثلات والتصورات، إذن فدراسة القيم/سلوكيات لا يجب أن تتوقف في هذا الجانب فقط بل يجب الرجوع إلى المحددات السابقة من أجل الفهم والوصول إلى المعنى الحقيقي الواقعي.

إن دراسة المتن يبين كذلك طبيعة العلاقات والمعاش الاجتماعي والتفاعل اليومي، مما يمكننا من فهم الاجتماعي، هي منتجات تقوم على توفير/تحويل معرفة (تقديم صورة-معرفة عن النوع الاجتماعي) خلق موضوعات للتمايز وللفصل، معرفة تمكن من وصف الذات والهوية النوعية، لها قيمة فعلية لأن الملاحظ في مجتمع البحث أي لدى الأفراد من فئة الشباب اعتقاد أن التقليد الشفهي "شبه قدسي" إذن فهو عبارة عن بنية ضرورية تعبر عن الكيفية التي يحيا بها الأفراد الواقع.

المتن هو عبارة عن موضوع منتج للمعرفة ذو وظيفة عملية، لأنه يسهم في إعادة إنتاج لغوية للعلاقات الاجتماعية والتمثلات والقيم النظرية حول الجنسين، على الرغم من أنها تاريخية لم تفقد من ماهيتها، تعبر عن التمايزات/التباينات الاجتماعية.

يعبر المتن عن البنية الاجتماعية ويعمل على تبرير النشاطات والتفاعلات وهو ذو وظيفة أساسية هي خلق التمايز وإضفاء طابعا غيبيا وجعل التناقضات واقعية مقبولة ومبررة، يساعد المتداولون له على إشاعة القيم لتعديل السلوكيات وبالتالي إنتاج علاقات نوعية وهوية اجتماعية اتفاقية.

اللغة الشفوية مولدة للفروق التي يعتقد الشباب أنها ضرورية/حقيقية هذا من جهة وهي مولدة لتصور حول طبيعة النظام وعلاقاته، بحيث يسعى الشباب للمحافظة عليها وإعادة إنتاجها (وظيفة تعريف الأفراد بمكاناتهم ضمن شبكة العلاقات والقيم التي يجب أن يمتلكوها) إنتاج لواقع وللقيم وللسلوكيات.

الهوامش والإحالات:

1 فريد الزاهي: "الجسد الصورة والمقدس في الإسلام"، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص40-41.

2 عايدة الجوهري رمزية الحجاب مفاهيم ودلالات، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، سبتمبر 2007 ص45.

3 عايدة الجوهري مرجع سابق، ص45.

4 علي حرب: "الحب والفناء؛ المرأة/السكينة/العداوة"، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الثانية، 2009، ص42.

5 علي حرب الحب والفناء، مرجع سابق، ص53.

6 بداك شابحة: "الممارسات السحرية للمجتمع القبائلي" منشورات دار السعادة، الجزائر، ص99.

7 بداك شابحة، مرجع سابق، ص110-111.

8 بيار بونت ميشال ايزار معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا ترجمة مصباح الصمد، الطبعة الأولى، المعهد العالي العربي للترجمة، 2006، ص583.

9 بيار بونت ميشال ايزار، مرجع سابق، ص583-584.

10أحمد حيدوش: شعرية المرأة وأنوثة القصيدة، منشورات إتحاد الكتاب العرب، 2001، ص103.

11 ميشال فوكو: ترجمة حسين موسى، "الفرد والمجتمع"، دار التنوير للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009، ص12.

12 بيار بونت ميشال إيزار: قاموس اثنووجيا أنثروبولوجيا، مرجع سابق، ص306.

13 فريد الزاهي، مرجع سابق، ص79.

14 يربط الشباب بين بعض القيم الجمالية والقدرة على ممارسة الجنس والشهوانية لدى المرأة مع التمييز بين النساء في لون البشرة، وكل واحدة لها صفات على علاقة بالمتعة الجنسية. فالشباب يرون أن للزينة علاقة بالفتنة والغواية تولد الإعجاب والمحبة وتثير الرغبة لدى الرجل. والجمال عبارة عن إستراتجية تريدها المرأة لغايات محددة موجهة مثل زيادة المقبولية والتقرب من الرجل لهذا تستعين المرأة بالكحل السواك والهبالة...الخ. قد يعنى التزيين دعوة للغواية

15 فريد الزاهي، مرجع سابق، ص89.

16 علي أفرفار: "صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني"، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1996، ص60.

17 علي أفرفار، مرجع سابق، ص63.

18 علي أفرفار مرجع سابق، ص72-73.

19 علي افرفار، مرجع سابق، ص71.

20 عبد الوهاب بوحديبة: "الجنسانية في الإسلام"، ترجمة محمد على مقلد، براس للنشر، 2000، تونس، ص280-281.

تأثير النزعة الوضعية على التشريع المعاصر في تحديد المسؤولية الجنائية

أ/ قاضي مراد ، جامعة ابن خلدون تيارت

أ.د/ سماعيلي يامنة، جامعة المسيلة

ملخص: لقد اتجه المذهب الكلاسيكي بشأن موضوع الإجرام ومكافحته، لينشئ الجريمة على ركن المسؤولية الجنائية، وهو ركن يقوم بدوره على مدى توفر شرطي الوعي وحرية الاختياري، ورواد هذا المذهب هم فلاسفة التنوير الفرنسيين في القرن الثامن عشر يضاف اليهما الفيلسوفان الألمانيان **ايمانويل كانط**، و**فريديريك هيجل**.

لكن ونظرا للفشل النسبي الذي مني به هذا المذهب وما كان يدعو إليه، ظهر الى الوجود مفكرون في إيطاليا بين القرنين التاسع عشر والعشرين دعوا إلى الكف عن الاهتمام بالجريمة من اجل تركيز العناية على حالة المجرم نفسه من النواحي العضوية والنفسية والاجتماعية، قصد اتخاذ تدابير وقائية دفاعية ضد الجريمة، كما نجم عن هذا الاتجاه الوضعي، ميلاد حركة قانونية في القرن العشرين قريبة من مجالات اهتمامه تحت اسم **حركة الدفاع الاجتماعي الحديث**.

Abstract :

The classic doctrine of criminality has been directedat crime. It is the cornerstone of criminalresponsibility, whichisbased on the availability of the policeman of consciousness and freedom of choice. The 18th century French philosophers of enlightenmentwerejoined by Germanphilosophers Emmanuel Kant and Frederic Hegel. However, due to the relative failure of this doctrine and whatwascalled for, the presence of thinkers in Italybetween the nineteenthcentury and twentycalled to desistfrom attention to the crime to focus attention on the case of the samecriminalfrom the organic, psychological and social aspects to takedefensivemeasuresagainst the crime , As a result of this positive trend, the birth of a legalmovement in the twentiethcentury close to the areas of interestunder the name of * the modern social defensemovement *

مقدمة: مما لا شك فيه ان المسؤولية هي بوجه عام وضع انساني اذ لا يعقل ان يتحمل كائنا آخر غير الإنسان المسؤولية و لما كانت هكذا، لم ينحصر النظر فيها على الفلاسفة فقط بل شاركهم فيها ذوو الاختصاص: علماء النفس، علماء الاجتماع، علماء الاجرام، رجال القانون، و مرد هذه المشاركة علاقة

المسؤولية بالجزاء، و اثر هذا الاخير بالنسبة للفرد و المجتمع، فالسائق المتهور مسؤول عن اصابة احد المارة، الاب مسؤول عن تربية اولاده، الام مسؤولة عن بيتها، الوزراء مسؤولون عن اعمالهم أمام البرلمان، و الطالب مسؤول عن نتائجه في الاختبار. فمن خلال هذه الامثلة يبدو ان المسؤولية تقتضي وجود فعل ما نضعه على عاتق شخص ما، لانه تسبب في حدوثه، و كان في مقدوره أن يحول دون وقوعه و من هنا تحمل هذا الشخص نتائج افعاله مادام هو المتسبب في حدوثها. فما المسؤولية؟ و ما شروطها؟ و ما أنواعها؟ و ما علاقتها بالعقاب؟ و الى اي مدى يكون المجرم مسؤولا عن أفعاله في زمن التشريع الوضعي؟ وما مدى نجاعة و فعالية اجراءات الدفاع الاجتماعي المتخذة من طرف المجتمع. **مفهوم المسؤولية:**

لغة: المسؤولية مصدرها صناعي من اسم المفعول: مسؤول المشتق من فعل سأل و لهذا فهي تفيد كون الانسان مسؤولا و هو مسؤول هنا عن فعل قام به في الماضي و خلف وراءه اثارا معينة.

اصطلاحا: هي تحمل الشخص نتائج افعاله. أو الحاق التبعة لفاعل قام بفعل ما. كما انها اهلية الفرد لتحمل نتائج افعاله.1

من خلال هذا التعريف نفهم أن للمسؤولية شروط فماهي؟

شرطا المسؤولية:

المعرفة (الوعي): لكي تكون المسؤولية لابد أن يكون الفاعل قادرا على معرفة الفعل أو الافعال التي قام بها، و على التمييز بين المباح و الممنوع، بين ما هو شر و خير من الافعال، و بمعرفة النتائج السيئة من الحسنة في الاعمال، فالطفل الصغير الذي يلعب بأعواد الكبريت و يتسبب في حادث حريق فهو غير مسؤول لانه لم يعرف الفعل الذي قام به و ما يترتب عنه.

الحرية: لابد أن تقوم المسؤولية على إرادة حرة في اختيار الافعال التي سيتحمل المسؤول نتائجها، أما الفرد في حالة تنويم أو اكراه فانه ليس بقادر على الاختيار و بالتالي فانه ليس المسؤول.

اذن المسؤولية هي تحمل نتائج الاعمال و قد تكون على شكل لوم أو عقاب يلحق بالشخص عند مخالفته للقانون. و هذا اللوم أو العقاب اما ان نشعر به داخل انفسنا و هذه هي المسؤولية الاخلاقية التي يحملها لنا الضمير، أو تسلط علينا من الخارج، و هذه هي المسؤولية الاجتماعية التي يحملها لنا المجتمع بنوعيها عرفية و قانونية. لكن ليس كلما كان هناك شخص و مخالفة للقانون كانت المسؤولية. فمثلما سبق أن بينا، لا يتحمل الطفل الصغير نتائج أعماله، و لا تلحق به التبعة لغياب النضج، و كذلك المجنون لغياب الوعي يجعل صاحبه غير قادر على التمييز بين الخير و الشر و لا يعرف النتائج الحسنة أو السيئة التي تترتب على الافعال و التصرفات فتوصف انها خير او شر.

قال **الرسول صلى الله عليه وسلم**:" رفع القلم عن ثلاثة: الصبي حتى يحتلم، و المجنون حتى يعقل، والنائم حتى يستيقظ." هكذا يولد الانسان و هو لا يعرف ما هو خير و ما هو شر، وما يجب القيام به و ما لا يجب. ثم يبدأ يتعلم شيئا فشيئا طبقا للتربية التي يتلقاها، الى أن يصل الى السن التي تمكنه من التمييز بين الافعال. و قد حدد القانون سن الرشد في غالب الاحيان بسن الثامنة عشر من عمر الانسان، قبلها يكون الآباء مسؤولين عن الافعال التي تصدر من أطفالهم، بصفتهم مسؤولين عنهم و عن تربيتهم، كذلك هناك من الافراد من بلغ سن الثامنة عشرة لكنهم لا يعدون مسؤولين، و قد يكونون مسؤولين، ثم ترفع عنهم المسؤولية مثلما يحدث في الحالة التي يفقد فيها الانسان وعيه، و قدرته على معرفة ما يترتب عن أعماله من نتائج، لإصابته بمرض عقلي أو نفسي. و قد ذكر الطب النفسي أمراضا عديدة يمكن للإنسان فيها أن يفقد وعيه و قدرته على التمييز بين الافعال و تأخذ هذه الامراض بعين الاعتبار من طرف المحكمة عن الحاق المسؤولية بالشخص و تحديد العقوبة.

غير أن ما نعنيه هنا بالمعرفة ليس معرفة القانون، فبين النضج و الجهل فرق كبير، ان الانسان الناضج والعاقل لا يحميه القانون اذا كان جاهلا له. اذ من واجبه معرفته بصفته فردا في مجتمع تنظم العلاقات فيه قوانين يجب احترامها. فلا يمكن للشخص البالغ و العاقل ان يقود السيارة و هو جاهل لقانون المرور، و اذا فعل و ارتكب حادثا، فان جهله لقانون المرور لن يحميه. و في هذا الصدد يقول **المعتزلة**:" اذا كان الانسان غير متمكن من أن يعرف بمعنى استحالت عليه المعرفة، فهو ليس مسؤولا. أما اذا كان بإمكانه أن يعرف و لم يعرف، فان هذا لا يعفيه من المسؤولية، و قد يكون بذلك قد ارتكب معصيتين: الاولى فعله القبيح، و الثانية جهله لقبحه." وان كان المخطئ الذي يعرف القانون مسؤولا امام القانون أكثر من الذي لا يعرفه. اذ كلما زاد قصده في ارتكاب الجريمة زادت مسؤوليته. و كلما قلت معرفته قل قصده و قلت مسؤوليته. أما من الناحية الاخلاقية فهو لا يعد مسؤولا اذا لم يقصد ارتكاب الشر.[2]

لكن ليست معرفة الخير و الشر، و التمييز بينهما الشرط الوحيد في الحاق المسؤولية بالشخص. اذ قد لا يكون الانسان مسؤولا و ان ثبت نضجه العقلي، لسبب واحد، انه فقد القدرة على الاختيار عند قيامه بالفعل. فالجندي الذي يقوم بالعمل امتثالا للاوامر لا يتحمل ما يترتب على هذا العمل من نتائج لأنه ليس صاحب القرار فيه. لذلك نجد المعتزلة يجعلون من وجود المسؤولية دليلا على وجود الحرية. كذلك جعل **كانط** من الحرية اساسا سلم به لبناء عالمه الاخلاقي، الذي لا يكون فيه الانسان مسؤولا، الا اذا كان حرا، وتغيب حرية الانسان و قدرته على الاختيار اذا وقع تحت ضغط خارجي المتمثل في الضغوطات الاجتماعية أو داخلي المتمثل في العقد و الامراض النفسية. يقول الدكتور **توفيق الشاوي** إن:" الفكرة الاساسية لدى جمهور المشرعين و الفلاسفة، هي ان الانسان متى بلغ درجة معينة من العقل و الادراك وحرية الاختيار، يعتبر مسؤولا مسؤولية ادبية و اخلاقية عن تصرفاته، بحيث يستحق ان يتحمل الجزاء الذي يفرضه

الدين أو الاخلاق او القانون عن الاعمال التي يرتكبها." لم يجد التشريع في الماضي بدلا من الاقرار بحرية ارادة الانسان من أجل ان يلحق به العقاب. مثلما يرى **نيتشه**. و لم يعلن عن حالات يمكن للإنسان أن يفقد حريته و قدرته على التمييز الا في القرن التاسع عشر، بفضل تطور العلوم الانسانية والاجتماعية خاصة علم النفس و علم الاجتماع. في سنة **1810** القانون الجنائي الفرنسي في المادة **64**، يعلن محددا الحالات التي لا يكون فيها الانسان مسؤولا عن اعماله:" ليس هناك جريمة، او مخالفة لما يكون المتهم في حالة اختلال عقلي عند ارتكاب الفعل، او لما يكون مجبرا بقوة لم يستطع مواجهتها." و ان كان غياب القدرة على الاختيار لا يلغي تماما مسؤولية الانسان الذي يبقى دائما يحمل مقدارا من الارادة و الاختيار، بصفته الكائن العاقل. فالقوانين التشريعية في العصر الحديث لا تلغي مسؤولية الانسان الا في حالات نادرة، و ان كانت هذه المسؤولية تحدد تبعا لقدرة الشخص على الاختيار التي يعد تحديدها من مهام المحكمة.[3]

هكذا نستنتج أن المعرفة لا تكفي لجعل الانسان مسؤولا، و انما يجب ان تكون لديه القدرة على الاختيار ايضا، فيصدر الفعل من ارادته الحرة.

لكن ونظرا للفشل النسبي الذي مني به هذا المذهب وما كان يدعو اليه من سياسة جنائية في مكافحة الجريمة، ظهر إلى الوجود مفكرون في إيطاليا بين القرنين التاسع عشر والعشرين دعوا إلى الكف عن الإهتمام بالجريمة من أجل تركيز العناية على حالة المجرم نفسه من النواحي العضوية والنفسية والإجتماعية، قصد إتخاذ تدابير وقائية دفاعية ضد الجريمة.

دواعي الإجرام في نظر الوضعيين:

اذا كان العلم يقوم على مبدأي السببية والحتمية اللذان يقولان: ان لكل ظاهرة سببا، و ان نفس الاسباب تعطي دائما نفس النتائج، و اذا كانت الجريمة ظاهرة كغيرها من الظواهر لها اسبابها الفاعلة، هل هذا يعني أن الانسان ليس مسؤولا عن أفعاله الاجرامية؟ اذا علمنا أن الانسان هو الكائن الوحيد الذي يمتاز بالعقل و الارادة، نتساءل الى اي مدى يمكن أن يكون مسؤولا في زمن التفسير الوضعي؟

ماذا نعني بالنزعة الوضعية؟ نعني بالنزعة الوضعية فلسفة **اوغست كونت Auguste compt** و اتباعه الذين يعارضون التفسير الفلسفي الميتافيزيقي للظواهر. و يدعون الى تفسير الظواهر باسبابها الفاعلة التي اذا تكررت تكرر معها نفس النتائج. ما علاقتها بالمسؤلية؟ تحاول النزعة الوضعية تفسير سلوك الانسان و خاصة الاجرامي منه. في حين يرى البعض ان الانسان يبقى مسؤولا مهما كانت الظروف و الاسباب لانه الكائن الوحيد الذي يمتاز بالعقل. مما يدفعنا الى طرح الاشكالية التالية: الى اي مدى يمكن للانسان ان يكون مسؤولا في وسط الحتميات؟ و الى اي مدى تكون اجراءات الدفاع الاجتماعي كفيلة

للقضاء على الجريمة؟ و ما هي الآفاق التي يسعى اليها المختصون في علم الاجرام من اجل التحكم و التقليل من خطر الجريمة على الفرد المجتمع؟[4]

ان ظهور النزعة الوضعية و تخلص الانسان من كل التفسيرات الفلسفية و الميتافيزيقية، مكنه من تحقيق نتائج علمية كثيرة في ميدان العلوم الطبيعية، و التحكم في الظواهر لمعرفة اسبابها الفاعلة، التي اذا تكررت تتكرر معها نفس الظواهر مما جعله يفكر في ادخالها ميدان السلوك الانساني، و تفسيره تفسيرا علميا، خاصة السلوك الاجرامي الذي يعد من الظواهر الاجتماعية الخطيرة، التي يواجهها الانسان منذ أن خلق، فعمل على مكافحتها، لما تسببه من خلل في استقرار المجتمع. غير ان وسيلة مكافحة الجريمة في القديم كانت العقاب الشديد او ما يعرف بالردع على اساس ان المجرم كائن عاقل يقوم بالجريمة بمحض ارادته. أما اصحاب النزعة الوضعية فيرون ان الجريمة لا ترجع لإرادة المجرم، و انما لأسباب فاعلة دفعته الى الجريمة دفعا. و هو لا يختار الجريمة و انما ينقاد اليها. هذه الدراسة العلمية للجريمة التي تمكننا من فهمها و التنبؤ بها قبل حدوثها، نسميها **علم الاجرام**.[5]

العوامل الفردية الموروثة:

ويعتبر **سيزار لومبروزو Lombrozo (1836-1909)** من المؤسسين الاوائل لها، وهو أستاذ الطب الشرعي والعصبي والضابط بالجيش الإيطالي إذ أن عمله كطبيب شرعي، ساعده على القيام بكثير من الأبحاث العلمية، التي مكنته من وضع نظريته الشهيرة في علم الإجرام. يرى **لومبروزو** بعد ان صنف المجرمين الى خمسة اصناف، ان المجرم بالطبع يحمل الجريمة في صفاته الجسمية و هو بذلك يحمل الجريمة معه منذ ولادته اي ان المجرم يولد و هو مزود باستعداد فطري للجريمة، و هو لا يتخلى عنها ابدا مما يجعله يشكل خطرا على المجتمع، وقدم **لومبروزو** اجراءا اجتماعيا مفاده وجوب عزل و استئصال المجرمين بالفطرة عن المجتمع و حتى نفيهم في بعض الحالات، كونهم لا يستطيعون التخلي عن الجريمة، كما انه اكد على ضرورة الاهتمام والتكفل بالمجرمين بالعادة و الصدفة و العاطفة عن طريق الارشاد و التوجيه و اعادة التربية و الاصلاح و هذا ما يعرف في وقتنا الحالي باجراءات الحماية الاجتماعية. أما المجرم بالجنون فاكد على ضرورة علاجه لانه يعاني من خلل او اظطراب عقلي.[6]

العوامل النفسية للإجرام:

أما المحللون النفسانيون و خاصة مدرسة التحليل النفسي بزعامة **سيغموند فرويد (1856-1939)** و**ألفريد أدلر (1870-1937)** و**كارل يونغ (1875-1961)** يرون ان سلوك الانسان يرجع الى اللاشعور، و ما يختزنه من ذكريات مؤلمة و رغبات مكبوتة، فيكون الانسان بذلك غير مسؤول عما يصدر منه من افعال اجرامية، فهو يعد مريضا يقتضي علاجه اذا اردنا القضاء على الجريمة.ويتفق أقطاب هذه المدرسة على

أن الجريمة سلوك منحرف، كثيرا ما يكون ناتجا عن عوامل نفسية مكبوتة في ساحة اللاشعور، وطبيعة هذه العوامل تختلف من أستاذ إلى آخر، وهذا حسب تجربة وخبرة كل واحد منهم، فرائد المدرسة **سيغموند فرويد** يرى أنه مادام أن اللاشعور يحتوي على الرغبة الجنسية المكبوتة أي مايدعوه بـ "الليبيدو libido"، فالسلوك الإجرامي من اعتداء على الاشخاص او انتهاك للأعراض مدفوع في نظره بهذه الرغبة الدفينة.

أما **ألفريد أدلر**، فيرى بدوره أن اللاشعور يحتوي على عقدة النقص (القصور الجسماني او الذهني)، فالسلوك الإجرامي في نظره بمختلف أنواعه مدفوع بهذه العقدة، اما **وكارل يونغ**، فهو يحاول أن يتجاوز التعدد في النظرة الحاصلة بين الأول والثاني، ليقول أن اللاشعور يضم الغرائز المكبوتة وعقدة النقص حقا ولكنه يضم أيضا مختلف الطقوس و"الطابوهات" المتوارثة، مما يشكل عند الفرد ما يدعوه هذا المفكر بحالة "اللاشعور الجمعي" الذي يؤثر في سلوك الفرد، بحيث يمكن أن يدفعه في يوم ما إلى ارتكاب الجريمة.[7]

العوامل الاجتماعية للإجرام:

اما انصار النزعة الاجتماعية فهم بدورهم يرجعون الجريمة الى اسبابها الفاعلة ايضا لكنهم يرفضون فطريتها، و هذا ما اكد عليه العالم الايطالي **فيري Verry** المعروف بمقولته الشهيرة: "ان الفقر المتقع والغنى الفاحش هما أساس الاجرام." فالجريمة عندهم وليدة اسباب وظروف اجتماعية قاسية كالفقر و الحرمان و البؤس و البطالة...الخ و مادامت نفس الاسباب تعطي نفس النتائج يكفي ان نلاحظ ظهور اسباب الجريمة لنتوقع حدوثها.

وعليه، فقد اعتبر **أونريكو فيري** الجريمة فعلا غير ناتج عن تصرف خاطئ لإرادة المجرم، بل هو فعل ناتج عن عوامل لا حيلة له في إيجادها بإرادته، فقد تكون نابعة من تكوينه العضوي والمزاجي أو من ظروفه النفسية أو من ظروفه الاجتماعية أو من كل هذه العوامل مجتمعة.[8]

العوامل البيولوجية للإجرام:

ومما زاد هذا الاتجاه الوضعي في محاربة الجريمة أكثر قوة التقدم الكبير الذي احرزته البيولوجيا في هذه السنوات الاخيرة. لقد اثبت البيولوجيون وجود علاقة سببية بين الصفات الجسمية كالهرمونات و الغدد، و بين ما يصدر من الانسان من سلوكات. فالعدوان الجنسي الذي يمارسه البعض ضد الاطفال الصغار يفسر بعامل نشاط الهرمونات الجنسية مما يلغي مسؤولية الانسان.

و اذا كان المجرم في الماضي يعاقب عقابا شديدا على اساس انه صاحب الفعل و اذا صدر منه شر، فهو الذي اراده و اختاره، و الذي يختار الشر يجب ان يعاقب كي يكون عبرة لنفسه و للآخرين، فان الكثير من المشرعين المعاصرين يدعون الى تخفيف العقوبة الى درجة الغائها في الكثير من الاحوال، باسم الظروف التي قد تكون اقوى من الانسان، فتدفعه الى الجريمة، مثلما دفع الجوع ذلك الشيخ الهرم في قصة العقاب **للمنفلوطي** الى السرقة من اجل اطعام احفاده الصغار الذي يتضورون جوعا امام عينيه.[9]

غير ان القانون اليوم و ان خفف من العقوبات التي كانت تسلط في القديم على المجرمين، فانه لم يستطع ان يلغيها تماما، الا في الحالات المرضية التي يؤكد فيها الطب النفسي عدم مسؤولية الشخص المطلقة. ان الانسان كونه كائنا عاقلا ذا ارادة، يعد مسؤولا عن كل ما يصدر منه من افعال، مهما كانت الظروف و الاسباب. لكن لا نعني بهذا مسؤولية التقليديين، التي ترفض الاعتراف بدور الظروف، و تعتبر المجرم انسانا شريرا يجب الانتقام منه، و لكن المسؤولية التي لا تنفي دور الظروف و العوامل الفاعلة في حدوث الجريمة. فقبل ان يلحق العقاب بالشخص نعمل على تحديد مقدار قدرته على الاختيار عند قيامه بالفعل، و يحدد العقاب طبقا لهذه القدرة. انعقد في سنة 1995 مؤتمر عالمي بانجلترا بين فيه علماء البيولوجيا، ان الجريمة ترجع الى اسباب بيولوجية و فيزيولوجية، تفلت من رقابة الشخص و ارادته، فتصدى له علماء الدين و الاخلاق و المجتمع. و كان تخوفهم من إلغاء المسؤولية كبيرا نظرا للضرر الذي قد يلحق بتماسك الحياة الاجتماعية و كيانها. و كان سؤالهم كيف يمكن للمجتمع ان يقوم و كيف يعيش الفرد مع غيره من الافراد، اذا لم يتحمل كل واحد ما يصدر منه من افعال؟ ألم يتفق الافراد ان يعيشوا جماعات بشرط ان توضع القوانين التي تنظم حياة الجماعة و يحترمها كل الافراد، و الذي يخرج عنها يعاقب حفاظا على كيان المجتمع و بقائه؟ و كيف يمكن الحديث عن الاخلاق و دعوة الانسان الى الارتفاع و الرقي بسلوكه الى ما يجب ان يكون عليه السلوك الانساني، اذا لم نؤمن بقدرة الانسان على توجيه سلوكه؟ او ليست المسؤولية هي التي تميز الانسان الصالح عن الطالح، ليكون الاول مثالا لغيره و يكون الثاني عبرة؟ فكم من انسان كان فقيرا و عاش ظروفا اجتماعية سيئة، و لكن كرامة و عزة نفسه تأبيان ان يمد يده الى السرقة.[10]

اذا كانت النزعة الوضعية لا تعتمد في دراستها، الا على ما هو محسوس، و تنفي بذلك الارادة كظاهرة معنوية و كسلاح يمتلكه الانسان، فان العلم اليوم لا ينكرها. فمثلما ادرك الفلاسفة انهم اخطأوا لما اهملوا الجانب الجسمي كعامل مهم في تحديد السلوك، كذلك ادرك العلماء انهم اخطأوا لما ارادوا اهمال الجانب الروحي. فالإنسان بجانبيه، الروحي والجسمي، و يجب اخذهما معا بعين الاعتبار اذا اردنا فهم سلوكه فهما صحيحا.

خاتمة: ان التشريع اليوم، في زمن العلم و التكنولوجيا و الاتجاه الوضعي، لا يستطيع أن ينفي تماما مسؤولية الانسان لأنه لا يستطيع ان ينفي تماما ارادته. و العودة الى عقوبة الاعدام التي تعتبر اقصى العقوبات المعمول بها اليوم في بعض الحالات افضل دليل على ذلك. بين المؤيدين للعقوبة و بين الرافضين لها باسم الظروف و الاسباب و حقوق الانسان، جدال يكشف عن صعوبة التوفيق بين الاتجاه الفلسفي الذي يقول بالإرادة والعقل و الاتجاه العلمي الوضعي الذي يقول بالظروف و الاسباب الفاعلة، و المسألة تعلق على عاتق المحققين الذين يحددون مقدار ضغط الظروف و الاسباب، و مقدار ارادة الانسان، كي لا يكون العقاب ظلما و لا تكون المسؤولية ميتافيزيقية عمياء، مثلما كانت في الماضي، و ان كانت لا تلغى الا في بعض الحالات المرضية الخطيرة حيث يعزل المريض كي لا يضر المجتمع. و هكذا فرغم ظهور النزعة الوضعية، فان مسؤولية الانسان ليس مشكوكا فيها و ان كانت اليوم تأخذ الظروف الاجتماعية و النفسية و الفيزيولوجية للمجرم بعين الاعتبار قبل تحديد العقوبة. و تجدر بنا الاشارة هنا الى الصعوبة الكبيرة التي يواجهها القانون من اجل تحديد العقوبة التي تسلط على المجرم.

الهوامش:

1- سعيد سبع: **الحديث في دروس الفلسفة**، دار الحديث للكتاب، الجزائر، 2001، ص 46

2- ربيع محمد شحاتة ويوسف جمعة سيد وعبد الله معتز سيد: **علم النفس الجنائي**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1994، ص 505

3- **سعيد بوالشعير: القانون الدستوري والنظم السياسية المقارنة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزء الأول، 1989، ص 69

4- عبد الرحمن بدوي: **موسوعة الفلسفة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج 1، بيروت، 1984، ص 482-483

5- بهنام رمسيس: **النظرية العامة للمجرم والجزاء**، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1991، ص 92

6- أحمد حبيب السماك: **ظاهرة العود الى الجريمة**، مطبوعات الجامعة، الكويت، 1985، ص 39

7- أحمد حبيب السماك: المرجع السابق، ص 103-106

8- بهنام رمسيس: المرجع السابق، ص 94

9- نبيل السمالوطي: **الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي**، دار الشروق، جدة، 1983، ص 75-76

10- نبيل السمالوطي: المرجع السابق، ص 81

مشكلات المجتمع الحضري

د/هاشمي بريقل، جامعة ابن خلدون تيارت

الملخص باللغة العربية:

التحضر من المواضيع التي شاع التداول فيها منذ القدم، فقد شهد العالم خلال القرن التاسع عشر نموا حضريا لم يسبق له مثيل، ذلك جراء الثورة الصناعية التي ظهرت في تلك الفترة في مختلف المدن التي هي في نهاية الأمر تلخيص لنضال الإنسان في مواجهة الطبيعة وما يتصل بها من إخفاق ونجاح.

والتحضر نوع من أنواع التغير في المجتمعات وفي أسلوب حياتها، كما أن انتقال السكان من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، أو ما يعرف بالهجرة الداخلية ظاهرة ظلت ملازمة لنمو السكان العالم في العقود التاريخية، وهي احد العوامل الاجتماعية للنمو الحضري.

وتؤكد الشواهد التاريخية الواقعية أن المدن تمر بفترات طويلة تستغرقها بعملية التحول من مرحلة إلى أخرى، وذلك بنفس الوتيرة في الأسلوب الذي يتم به عملية الاستهلاك والإنتاج .

Abstract

Urbanization is one of the topics that has become commonplace since ancient times. During the nineteenth century, the world witnessed an unprecedented urban growth. This was due to the industrial revolution that emerged during that period in various cities, which is ultimately a summary of human struggle against nature and related issues. Of failure and success.

Urbanization is a type of change in societies and their way of life. The movement of people from rural to urban areas, or so-called internal migration, has been a phenomenon that has been associated with the growth of the world population in historical decades and is one of the social factors of urban growth.

Historical historical evidence confirms that cities are going through long periods of transition from phase to stage, at the same pace as the process of consumption and production

مقدمـة

كانت المدن ولا تزال عبر الزمن تمثل مهد الحضارات الإنسانية الأولى، حيث لعبت دورا كبيرا في تأدية وظائف عديدة ومتنوعة لجميع المجتمعات الإنسانية، ولقد تعرضت المدن إلى عدة تغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية هامة كان لها تأثير على مسار الإنسانية في العالم، وهذا من جراء انتشار الصناعة وتطور وسائل الاتصالات والمواصلات، وقد انعكس ذلك على العالم المعاصر في ازدياد ظاهرة التحضر في العديد من مدنه، واحتوائها على أهم النشاطات والخدمات الاجتماعية المتنوعة، منذ ظهور حركة التحضر فيها، غير أن مدن العالم الثالث لم تحض بظهور مدينة كبرى يفوق تعدادها 2.5 مليون نسمة إلا في عام 1920، إلا أنه في عام 1960 بدأ ارتفاع عدد مدنها ليصل إلى 165 مدينة عام 1980[1]

ولم تعف دول العالم الثالث من حركة التحضر هذه، إلا أنَّها لم تتمكن من التحكم في نموها الحضري السريع، والذي يرجع سببه في المقام الأول إلى الهجرة الوافدة من المناطق الريفية إلى المراكز الحضرية، نتيجة للأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية السيئة السائدة في ريف العالم الثالث.

للتحضر بعدا اجتماعيا هاما، يشتمل على الحراك والتوزيع السكاني والجغرافي وسلوك ومواقف للفرد الذي يعيش في الحضر ومدى ملائمتها للحياة الجمعية الحضرية ولتنظيمها ووظائفها، كما شهد العديد من المشكلات في البنى الاجتماعية و الاقتصادية، وزيادة معدلات تغيراتها الاجتماعية والتكنولوجية.

أولا: المداخل النظرية في دراسة المجتمع الحضري

إن المتصفح للتراث النظري الضخم، والكتابات الخاصة بالنظريات السوسيولوجية الحضرية في كتب علم الاجتماع الحضري، يجد أن جميع النظريات والتفسيرات النظرية للظواهر الحضرية تصب في خمسة اتجاهات نظرية أساسية هي(1):

ا- الاتجاه النفسي – الاجتماعي : يمثل هذا الاتجاه المدرسة الألمانية في علم الاجتماع، وتعرف من الناحية الزمنية بالمدرسة الكلاسيكية، كما تعرف بالاتجاه السلوكي أو الاتجاه التنظيمي .

ونقطة اهتمام أصحاب هذا المدرسة هو السلوك أو الفعل والعلاقات الاجتماعية والأشكال التنظيمية للحياة الحضرية، فلا نطلق على الفرد صفة الحضرية انطلاقا من مكان إقامته فحسب، ولكن المعيار الأساسي والذي على ضوئه نخصه بهذه السمة هو نمط السلوك، كالفعل العقلاني والابتعاد عن الاستجابة العاطفية نتيجة لتعقد الحياة الحضرية .

وتبرز معالم هذا الاتجاه في نظريات وأفكار كل من " **جورج زيمل - فرديناند تونيز – ماكس فيبر- شبنجلر**" الذين يرون أن السلوك الحضري ينتج من التعقيد النظامي غير المحدد للمدن الذي يتميز بكثافة الحجم، مما يدفع ساكني الحضر إلى التكيف مع أنماط معينة من السلوك والاستجابات لكي يتوافق مع الشخصية الحضرية، مثل سيطرة الروح العقلانية والعلاقات اللاشخصية والإحساس بالكم والوقت والاتجاه نحو الرشادة في التعامل ...و هكذا فان الطبيعة المعقدة لنمط الحياة الحضرية يطبع سلوك الساكن الحضري بمميزات خاصة وهذه السلوكيات ما تلبث أن تنعكس على المدينة في حد ذاتها (المؤسسات والتنظيمات ...) وذلك انطلاقا مما يحمله سكان المدن من تصور وأفكار وعقلانية ورشادة في حياتهم الخاصة وفي تعاملاتهم وهكذا فالعقلانية والمدينة شيئان متلازمان .

فالبنسبة لـ " **جورج زيمل** " الذي انطلق في عملية تحليله للمدينة على خصائص اجتماعية ليلقي الضوء على أهم صور التفاعل الاجتماعي المميز للحياة الإنسانية في البيئة الحضرية، وانتهى **زيمل** إلى أن ساكني الحضر بحاجة إلى مزيد من الدقة والتوقيت، ليتمكنوا من الوفاء بالتزامهم وسط هذه الشبكة المعقدة لوظائف الحضرية، من أهم نتائج هذا التعقيد تطوير اقتصاد السوق والتنظيمات البيروقراطية الكبرى وسيطرة روح العقلانية والعلاقات اللاشخصية، وهذا ينعكس بدوره على شخصية الحضري، و لكي يتوافق الحضري مع هذا التعقيد النظامي عليه أن يكون أكثر عقلانية وإحساسا بالكم والوقت أن "

المال " و " العقل " وليس " الروح " أو " القلب " يصبحان من أهم المقومات التي تضمن بقاء واستمرار وتوافق الشخصية الحضرية، الأمر الذي تصبح معه العلاقات بين الإنسان وأقرانه وبينه وبين البيئة عموما علاقات جزئية (2).

وهكذا فان المدينة تطبع عقلية أفرادها (شخصية أفرادها) التي بدورها تطبع المدينة بطابع خاص من خلال التنظيمات، و ذلك وفق ثلاث مستويات أساسية هي :

- المستوى المادي الهيكلي التخطيطي للمدينة الذي يلاحظ في المسكن أو الشارع أو الحي أو المدينة ككل .
- المستوى الاقتصادي القائم على الصناعة والتبادل، وعلاقات المصلحة والمنفعة والتعاقد .
- مستوى المؤسسات الرسمية التي تنظم الحياة في المدينة، مثل مؤسسات الضبط وحفظ الأمن والسهر على مصالح السكان .

II- الاتجاه الايكولوجي : تشير هذه التسمية في علم الاجتماع الحضري إلى الأعمال الضخمة لمدرسة **شيكاغو** التي انتهجت منحى خاص بها في تفسير الظواهر الحضرية، وهذا الاتجاه من تأسيس الرواد الثلاثة "**روبرت بارك – ايرنست برغس – ريدريك ماكينزي**"، وتأثرت هذه المدرسة بعدة تيارات فكرية مثل "الداروينية الاجتماعية، والاقتصاد الكلاسيكي واتجاه الايكولوجيا الطبيعية "، ولذلك نجد هذا الاتجاه يعتبر المدينة " مكانا طبيعيا" وأنها عبارة عن " بناء طبيعي " وذلك في تفسيره للعمليات الاجتماعية الحضرية وأنماط التفاعل الاجتماعي الحضري(3).

كما أن الأفكار الرئيسية لهذه المدرسة كانت تتمركز حول الأجوبة على سؤالين هما : ما هي القوى غير الاقتصادية التي تعمل على خلق ثقافة المدينة ؟ وما هي إمكانيات الاختيار الحر والتجديد في ثقافة المدينة(4)؟

يرجع الفضل إلى " **بارك** " في تحديد الإطار العام للنظرية حين اعتبر المدينة مكانا طبيعيا لإقامة الإنسان المتحضر، وهو يرى أن المدينة تيار طبيعي يخضع لقوانين خاصة به، ولأنها كذلك فانه من الصعب تجاوز هذه القوانين لإجراء أي تعديلات في بنائها الفيزيقي، أو نظامها الأخلاقي ، و على هذا الأساس فان المدينة تمثل وحدة على درجة عالية من التنظيم من حيث المكان انبثقت وفقا لقوانينها الخاصة، عند هذه المرحلة يأتي دور " **برغس** " فيما قدمه من تصور نظري للنمط الايكولوجي للمدينة، وتعرف هذه النظرية باسم نظرية الدوائر المركزية أو بالتصور الحلقي، والتي توصل إليها من خلال دراسته لمدينة **شيكاغو** مفادها انه ما لم يواجه نمو المدينة الأمريكية عوامل معوقة، فإنها تتخذ في هذا الشكل من النمو شكل خمس حلقات متحدة المركز، تمثل الحلقة الأولى منها منطقة الأعمال المركزية ، وفيها تدور أكثر نشاطات المدينة وتقع على أطرافها حلقة ثانية هي منطقة التحول والانتقال تتعرض وباستمرار للتغير نتيجة لاتساع ونمو الحلقة الأولى، كما تتميز بكثافتها السكانية العالية، ظهور التفكك الاجتماعي أما الحلقة الثالثة فتضم منطقة ساكني الطبقة العاملة، يليها منطقة الفيلات وفي النهاية تقع الحلقة الخامسة خارج حدود المدينة، حيث تشكل الضواحي والأطراف مناطق سكنية لذوي الدخل المرتفع(5).

وحسب الدكتور " **محمد بومخلوف** " توصلت هذه المدرسة وفقا لمدخلها النظري إلى صياغة مجموعة من القضايا(6).

- **المدينة مخبر اجتماعي** : يمكن أن يتم من خلالها رصد جميع التفاعلات والعمليات الاجتماعية .

- **الحي الطبيعي** : ويقصدون به تلك الأحياء السكنية التي تنمو طبيعيا وبصفة حرة دون تعميم مسبق، الأمر الذي يفسح المجال للحصول على بناء اجتماعي طبيعي للحي .

- **علاقات المصلحة** : فالناس يعيشون مع بعضهم البعض لا لأنهم متشابهون، بل لأن الواحد منهم ضروري للآخر .

- **التقسيم الاجتماعي للمجال الحضري** : فالسكان يتوزعون على أحياء المدينة وفق مدخولهم الاقتصادي كما يتوزع المتفرجون على قاعات السينما .

- **المدينة من إنتاج الطبيعة البشرية :** ففي المدينة تظهر وتبرز الطبيعة البشرية على حقيقتها، حيث تسود فيها المنافسة والفردية وعلاقات المنفعة والعقلانية واختفاء السلوك العاطفي والتقليدي .

يجمع العلماء والمتخصصون في علم الاجتماع الحضري أن هذه النظرية تجاهلت العوامل الثقافية في سبيل تبسيط مشكلة البحث، وبهذا المعنى فهي تسلب البيئة الإنسانية خصوصيتها وتجردها من كل معنى، فالمدينة هي بناء التفاعل وليست بناء الحجر والصلب والاسمنت والإسفلت، كما أن هذه النظرية تنطبق على مدينة **شيكاغو** والمدن الأمريكية، وبذلك تفتقد هذه النظرية إلى التعميم .

III- اتجاه الثقافة الحضرية : هو احد المداخل النظرية الذي يحاول بصفة خاصة تقديم صورة لنموذج المجتمع الحضري، وما يميزه من خصائص من خلال منظور ثقافي باعتبار الحضرية ناتجة عن الحياة في المدينة نظرا لما تتمتع به من سمات وخصائص اجتماعية تميزها عن الحياة الاجتماعية الريفية .

ويتفق علماء الاجتماع الحضري على أن هذا الاتجاه من تطوير **لويس ويرث** وهو من مدرسة **شيكاغو** وتتضمن مقالة **ويرث** الشهيرة - الحضرية كطريقة للحياة – الدعائم الأساسية لهذا الاتجاه .

IV- الاتجاه القيمي: تؤكد هذه المدرسة أهمية القيم الثقافية أو الاجتماعية كمتغير محوري عند دراسة أنماط استخدام الأرض والبنايات الحضرية الاجتماعية، وتدخل كتابات " **ماكس فيبر**" في إطار تراث هذه المدرسة، فقد اعتبر **فيبر** قيم الإنسان الاجتماعية والثقافية المتغير المفسر المستقل، على حين اعتبر البناء الاجتماعي متغيرا تابعا(7)، ولقد كتب بعض المؤلفين " **فون جرونبوم**" عام 1955 مقالا يؤيد هذا الاتجاه ويطبق أفكاره على المدن الإسلامية التقليدية التي تهيمن القيم الدينية على أنواع النشاط المختلفة في الحياة الحضرية، وقد توصل إلى ذلك حين استنتج من الصلاة التي تقام خمس مرات في اليوم وصيام شهر رمضان، نتائج تتصل بغلبة القيم والمعتقدات وتأثيرها في طابع الحياة الحضرية.

V- الاتجاه التكنولوجي : يقوم هذا الاتجاه بدراسة تأثير وسائل التكنولوجيا (من وسائل الاتصال والمواصلات...) على البناء الايكولوجي للمجتمع الحضري وعلى العلاقات الاجتماعية ودور التكنولوجيا في اختيار نوع المسكن ونوع الجيران، و هذا بفضل تطور الدراسات العمرانية .

ويعد " **ويليام أوجبرن** " و"**أموس هولي**" من رواد هذا الاتجاه، وقد حرصا على تأكيد دور وسائل النقل في التأثير على الأنماط المكانية والزمانية للمدن والمراكز الحضرية .

إن طبيعة سكان المدينة ومواقع إقامتهم وأعمالهم ، تعد في نظر **أوجبرن** نتاجا مباشرا لوظائف النقل المحلي، بل أن المدن ذاتها تعتبر من خلق وسائل النقل الخارجية والبعيدة المدى، كما أن تشتت سكان المراكز الحضرية، و إعادة التوزيع السكاني الذي تشهده هذه المواقع الحضرية وغير ذلك من عمليات ايكولوجية هي في نظر **هولي** استجابة مباشرة لما يشهده مجال النقل الداخلي والخارجي من اتساع ملحوظ في إمكانية الحركة وتسهيلاته(8).

لا احد يمكن أن ينظر ما للتكنولوجيا من آثار على طبيعة الحياة الحضرية من تجهيز للمباني وتقريب للاتصالات، وهذا ما يقلل من العزلة الاجتماعية ويؤثر على المركزية في المدن من عدمها، كما قد تزيد وسائل الاتصال من فرص التماسك الاجتماعي عن طريق كثافة الاتصال الذي توفره التكنولوجيا الحديثة، كما أنها في ميدان البناء وفرت فرصة ظهور الأسرة النووية في كنف العائلة الممتدة أي الاستمرار في نفس البناء الاجتماعي، من خلال التنقل مثلا إلى الضواحي على الأرض و البناء جماعة، و مع ذلك فان هذه المظاهر تبقى كفرضيات تحتاج إلى تحقيق امبريقي واسع .

ثانيا : مفهوم المجتمع الحضري

حظي المجتمع الحضري بتراث نظري هائل، زاد من تنوعه تعدد التخصصات والخلفيات كالتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والسياسة وعلم الآثار، و كان اهتمام علماء الاجتماع بالمجتمع الحضري، مغايرا لنظرة العلوم الأخرى، ونظر علماء الاجتماع إلى المدينة على أنها شكل متميز من أشكال المجتمعات المحلية وأن طريقة الحياة فيها أيضا مميزة، فعكفوا على دراسة الثقافة الفريدة للمدينة .

وأجرى عدد كبير من البحوث في العشرينات و الثلاثينات من هذا القرن عن الاتجاهات الاجتماعية لسكان المدينة، قام بها علماء الاجتماع في مدرسة **شيكاغو** وخاصة **بارك، إرنست برغس، كليفورد شو، ألزوريت فاريس و لويس ويرث**(9).

والمجتمع الحضري هو مجتمع المدينة عند علماء الاجتماع، ويتميز هذا المجتمع بعدة سمات مثل التعقيد والتباين وتقسيم العمل وارتفاع مستوى التكنولوجيا وتباين السلوك والعلمانية وتقدم التنظيم الاجتماعي واللاتجانس وشدة الحراك الاجتماعي وكثافة السكان وكبر الحجم .

يوضح هذا التعريف خصائص المجتمع الحضري، أي خصائص الحياة الحضرية، حيث يبرز عدة سمات تتميز بها المدينة كبيئة يسكنها الحضر، وجاءهذا التعريف من منظور علماء الاجتماع الحضري الذين يركزون أثناء دراستهم للمدينة على أنها ظاهرة اجتماعية، واجتهدوا في إبراز خصائص هذه الحياة الاجتماعية.

كما جاء في المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية أيضا أن المجتمع الحضري نمط مثالي أو مجرد طوره **روبرت رادفيلد** كجزء من تصنيفه المجتمعي إلى حضري... شعبي، ويتميز المجتمع الحضري بعدد

السكان الكبير وباللاتجانس والاتصال الوثيق بالمجتمعات الأخرى من خلال التجارة وعملية الاتصال ... يسوده تقسيم العمل المعقد، و سيطرة الاهتمامات المتبادلة العلمانية على المقدسة، بالإضافة إلى غير ذلك فهو يتميز برغبة أعضائه في تنظيم السلوك على نحو عقلاني نحو أهداف محددة، و ذلك في مقابل الانقياد وراء مستويات السلوك ومعاييره التقليدية دون جدل، ومن ابرز خصائص المجتمع أن العلاقات غير الشخصية وتعاقدية وأن ضوابطه الاجتماعية من النوع الرسمي(10).

وواضع هذا التعريف هو الأنثربولوجي الأمريكي **روبرت رادفيلد** الذي انطلق في تعريفه للمجتمع الحضري من نموذج تصوري، من خلال دراسات ميدانية امبريقية لعدد من المجتمعات المحلية وهي أربعة مجتمعات محلية في شبه **جزيرة اليوكوتان بالمكسيك** ، وتوصل إلى عشرة متغيرات أساسية وهي(11):

إنه أقل- أو أكثر ارتباطا بالعالم الخارجي .

إنه أقل- أو أكثر تغايرا .

إنه أقل- أو أكثر تقسيما للعمل .

إنه أقل- أو أكثر تطويرا لاقتصاد السوق والمال .

إنه أقل- أو أكثر احتواءا على تخصصات مهنية أكثر علمانية .

إنه أقل- أو أكثر بعدا عن الاعتماد على الروابط والنظم القرابية .

إنه أقل- أو أكثر اعتمادا على مؤسسات ذات طابع غير شخصي للضبط .

إنه أقل- أو أكثر تمسكا بالعقيدة الكاثوليكية أو الأصل الهندي .

إنه أقل- أو أكثر بعدا عن التمسك بالعادات والأعراف التقليدية .

إنه أقل- أو أكثر تسامحا وتأكيدا للروح الفردية في الفعل أو الاختيار .

ويشير المجتمع الحضري إلى المجتمع الذي يتميز بالتعقيد وتقسيم العمل واللاتجانس واستخدام التكنولوجيا في الإنتاج والخدمات، وتمايز التنظيم الاجتماعي، وكبر حجم كثافة السكان والعلاقات الرسمية ووضوح الحراك الاجتماعي، و تعقد أساليب التفاعل الاجتماعي(12).

وعرف المجتمع الحضري هو " مجموعة من الأفراد تقطن في البيئة الحضرية (المدينة)، وتتسم بأسلوب حياة معين يتجاوب مع خصائص الحجم والكثافة واللاتجانس(13).

ومن السوسيولوجيين الذين انطلقوا من هذا التعريف " **لويس ويرث** " الذي وضح في مقالته " الحضرية كطريقة للحياة " تصوره عن المجتمع الحضري، ويرى **ويرث** أن الحجم والكثافة والتغاير أو اللاتجانس متغيرات أساسية أو خصائص مميزة للمجتمع الحضري، وينتج عن هذه المتغيرات خصائص مميزة للمجتمع الحضري، وانهيار الأسس التقليدية للتماسك الاجتماعي، وتحول العلاقات الاجتماعية إلى طابع لا شخصي، و تحول العلاقات الأولية إلى علاقات ثانوية، كما تحول الضبط الرسمي محل روابط التضامن إلى غير ذلك من الخصائص . وتبع كل من **جورج زيمل** و **دافيز** أسلوب **ويرث** في تصوره للحياة الحضرية .

وهناك من السوسيولوجيين في مجال علم الاجتماع الحضري من أخذ بهذا المعيار لتمييز المجتمع الحضري، إلا أن هذا التمييز يعاني من العديد من أوجه الضعف، حيث أن المحك السكاني يمكن أن يكون مفيدا في حالة دراسة سرعة التحضر في مناطق معنية إلا أنه لا يصلح للتطبيق في كل مكان وزمان، فقد توجد مناطق يتوفر سكانها على هذا الحجم و لا تتمتع بمواصفات الحضر، ولهذا يعد هذا المحك غير مفيد تماما من الناحية السوسيولوجية .

*** بعض المفاهيم المتعلقة بالمجتمع الحضري**

في إطار الحديث عن المجتمع الحضري استخدمت بعض المفاهيم والمصطلحات تمثل اشتقاقات لغوية من اللفظ الحضري، و ذلك مثل " التحضر " و " الحضرية "، وحري بنا أن نوضح ولو بصورة موجزة المعاني المرتبطة بهذه المصطلحات ومدلولاتها المختلفة، ومن هذه المصطلحات :

ا - التحضر

للتحضر معان كثيرة استخدمها علماء الاجتماع للإشارة إلى العمليات التي يتم من خلالها اكتساب النمط الحضري، كما استخدمه الآخرين للإشارة إلى الثقافة الحضرية.

ويشير المعنى العام للتحضر إلى "أنه ظاهرة اجتماعية جغرافية ينتقل السكان في ظلها من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، وبعد انتقالهم يتكيفون بالتدرج مع طرق الحياة وأنماط المعيشة الموجودة في المدن، وهو أساسا يعني تمركز السكان في المدن ويؤدي إلى تغيير اجتماعي وثقافي، و تدعيم الروح الفردية في العلاقات التي تصبح ثانوية بعدما كانت أولية في القرية ." (14)

وفقا لهذا التعريف يشير التحضر إلى مختلف العمليات الاجتماعية الأساسية التي تصاحب عملية التحضر وتفرضها الحياة الاجتماعية الحضرية وهي :

- الحراك الجغرافي للسكان .
- التمركز السكاني في المدن .
- التكيف التدريجي للسكان مع شروط الحياة في المدينة .
- التحول في العلاقات الاجتماعية من العلاقات الأولية إلى العلاقات الثانوية .
- الاتجاه نحو الفردية .

والتحضر كما عرفه " **عبد المنعم شوقي** " هو العملية التي تتم به زيادة سكان المدن عن طريق تغير الحياة في الريف من حياة ريفية إلى حياة حضرية، أو عن طريق هجرة القرويين للمدن المقصودة، بما في ذلك التغيرات التي قد تحدث لطبائع وعادات وطرق معيشة سكان الريف حتى يتكيفوا للمعيشة في المدن .(15)

هذا التعريف لا يختلف كثيرا عن المعنى العام للتحضر، حيث أشار صاحب التعريف إلى العمليات الأساسية المصاحبة للتحضر وهي :

- التحضر عملية تتم من خلالها زيادة عدد سكان المدن عن طريق الهجرة .
- التغير الذي يحدث لطبائع الناس وعاداتهم (عملية التكيف) .
- اكتساب الطابع الحضري .

ولكن يجب أن ننوه إلى أن عملية التكيف واكتساب الطابع المميز للحياة الحضرية، يتطلب وقتا طويلا و لا يحدث بصفة آلية بمجرد الانتقال إلى السكن في الحضر .

ويمكن أن نميز بين خمسة معاني للتحضر، وتتمثل في المعنى الجغرافي والديموغرافي والايكولوجي، والتنظيمي والسوسيولوجي، وسنعتمد في عرض هذه المعاني على كتابات " **محمد بومخلوف** "(16) :

1- المعنى الجغرافي : يشير التحضر في معناه الجغرافي إلى اتساع الرقعة الجغرافية الوطنية للتجمعات السكنية الحضرية، سواء بتوسع التجمعات الحضرية القائمة نحو محيطها الريفي أو بتحول القرى إلى تجمعات حضرية، بسبب ما يطرأ عليها من تحول اقتصادي أو إداري أو غير ذلك أو بظهور تجمعات حضرية جديدة تماما، كما في حالة المدن الجديدة والمدن الصناعية وأن التوزيع الجغرافي للمدن على الرقعة الجغرافية الوطنية له دلالة بالغة الأهمية وعلى أكثر من صعيد اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا واستراتيجيا، فهو مؤشر على الصحة الحضرية للمجتمع.

2- المعنى الديموغرافي : يشير إلى ازدياد عدد سكان التجمع السكاني الحضري إحصائيا نتيجة لعمليتين ديموغرافيتين أساسيتين هما: النمو السكاني الطبيعي والنمو السكاني الناتج عن الحركة الجغرافية للسكان من الريف إلى المدينة.

3- المعنى الايكولوجي : يشير هذا المعنى إلى جانب البيئة الناتجة عن عملية التحضر من ازدياد عدد البنايات وتجاورها وتوسع حجم المدينة، وارتفاع كثافتها وظهور الأحياء والمناطق ذات الأنشطة المتخصصة، ينتج عن كل ذلك بيئة اجتماعية خاصة، تتميز بعلاقات جوار خاصة وكثافة التفاعل الاجتماعي والاتصال المباشر وغير المباشر، ولذلك فان البيئة الحضرية قد تؤدي إلى تلاقح الأفكار وانتشارها وتبادل الخبرات وما يتولد عن كل ذلك ابتكار وإبداع فتتحول إلى بيئة إشعاع فكري وثقافي وحضاري، وذلك لان البيئة الحضرية بطبيعتها توفر فضاء واسعا للحرية والتفاعل، وتتميز بالتباين الشديد والمجهولية والميل نحو الفردية والنفعية في العلاقات الاجتماعية، وهكذا فان التحضر يؤدي إلى إنتاج بيئة ذات طبيعة خاصة.

4- المعنى التنظيمي : المدينة هي تنظيم اجتماعي كبير، تبرز فيه سيطرة الإنسان على المجال والنشاطات والعلاقات الإنسانية بوضوح، بفضل التنظيمات المختلفة التي تسهر على ضبط الحياة الجماعية وعلاقاتها في البيئة الحضرية بصورتها السابقة من اجل ضمان فعالية هذا التجمع البشري الكبير، و ابرز مظهر تنظيمي يصاحب التحضر يتمثل في نظام الضبط الاجتماعي الذي ينتقل من الاعتماد على الأعراف إلى الضبط القائم على القوانين، وهذا إلى جانب أن الفرد الحضري يصبح فردا تنظيميا ينتمي في ذات

الوقت إلى تنظيمات عديدة حتى تستقيم حياته في المدينة إلى درجة القول أن المدينة تتميز بتنظيماتها التي تنتظم في إطارها العلاقات والجهود والأعمال الفردية والجماعية لتلك الجموع البشرية التي تجوب أرجاءها، وهكذا فالتحضر تنظيم.

5- **المعنى السوسيولوجي:** يشير إلى تلك العمليات الاجتماعية التي تصاحب التحولات المجالية والديموغرافية والبيئية والتنظيمية التي تصيب التجمع السكاني الحضري، فالمسافات المكانية السائدة بين السكان في التجمع الحضري قربت أو بعدت، تترك آثارها واضحة على علاقات الأفراد والجماعات بعضهم ببعض، كما هو الشأن بالنسبة لكثافة الاتصال ودرجة التفاعل وحجم التجمع السكاني والانتماء التنظيمي القسري والطوعي، كل ذلك يحدث نمطا جديدا تماما من العلاقات والسلوكيات والتصورات والذهنيات ينتج عنه ما يسمى بثقافة المدينة أو الثقافة الحضرية التي لها قيمها ومعاييرها، يكتسبها – الفرد -المنتقل إلى المدينة أو ينشأ عليها المولود فيها، وهكذا فالتحضر يؤدي إلى حالة من الوجود الاجتماعي بشقيه المادي واللامادي، يتسم بالتعقيد يفرض نفسه على الأفراد والجماعات معه، وهو معنى الحضرية عند **لويس ويرث**(17).

II- الحضرية

يشير مصطلح الحضرية للطابع المميز للمجتمع المحلي الحضري والأسلوب الخاص الذي تتسم به طريقة الحياة في المجتمع الحضري، والذي ينتج عن الطبيعة الايكولوجية والاجتماعية والثقافية للمدينة، ولذلك يمكن أن ننظر إلى الحضرية باعتبارها صفة تجريدية للخصائص المميزة للمدينة، التي يكتسبها ساكني الحضر سواء بالميلاد أو عن طريق الهجرة، حسب ما تبين لنا في المعاني السابقة للتحضر .

فيشير مفهوم الحضرية إلى " أنماط الحياة الاجتماعية التي يعتقد أنها مميزة لسكان المناطق الحضرية، و هي تتضمن مستوى عال من تقسيم العمل ونمو الذرائعية في العلاقات الاجتماعية وضعف العلاقات القرابية، ونمو المنظمات الطوعية والتعددية في المعايير، والتحول العلماني وزيادة الصراع الاجتماعي، وتعاظم أهمية وسائل الاتصال الجماهيري"(18).

وهناك من ينظر إلى الحضرية أنها نموذج معين من الثقافة تنشأ عن تركز عدد كبير من السكان، فهي تشير إلى " نماذج الثقافة والتفاعل الاجتماعي " الناتج عن تركز عدد كبير من السكان في مناطق محدودة نسبيا، و تعكس الحضرية تنظيم المجتمع في حدود تقسيم العمل المعقد، و مستويات التكنولوجية المتفوقة والتنقل الاجتماعي السريع، و الاعتماد المتبادل بين أعضائه في أداء الوظائف الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية غير الشخصية(19).

قدم صاحبي التعريفين السابقين الحضرية وخصائصها على أنها الحصيلة النهائية لعملية التحضر، و بالتأكيد هذا ينتج عنه ثقافة فريدة للمدينة، ودائما في إطار حديثنا عن الحضرية وإبراز التغيرات المصاحبة للتحضر .

وتلخصت أفكار **مدرسة شيكاغو** عن الثقافة الحضرية ولخصت في مقالة مشهورة نشرت عام 1938 من قبل **لويس ويرث** بعنوان **" الحضرية كطريقة للحياة "**، وتتمثل الخصائص التي قدمها **ويرث** في ما يلي " تقسيم معقد للعمل يعتمد على بناء مهني يتسم بالتباين، بحيث يشكل أساسا لنسق التدرج الاجتماعي، معدل عال للتنقل (الحراك المكاني الاجتماعي)، الاعتماد الوظيفي والتساند المتبادل بين الناس، اللاشخصية في العلاقات وانقسامية الأدوار الاجتماعية، الاعتماد على أساليب غير مباشرة للضبط الاجتماعي والانحراف المعياري(21).

ومما تجدر الإشارة إليه أن مفهوم الحضرية حظي بدراسة كثير من العلماء باختلاف مدارسهم، و قد تضمنت كتابات كل من " **جورج زيمل – بيترم سوروكين– زمرمان – بارك – سبايك مان** " عرضا لبعض الخصائص للحياة الحضرية باعتبارها أسلوبا خاصا للمعيشة أو لطريقة الحياة، ويرى "**السيد عبد العاطي السيد**" أن معظم هذه التحولات التي قدمها العلماء، أجمعت على التأكيد على الخصائص التالية (22):

- تطوير نسق أكثر تعقيدا لتقسيم العمل يعتمد على بناء مهني يتسم بالتباين، بحيث يشكل أساسا لنسق التدرج الطبقي.
- ارتفاع معدلات الحراك الاجتماعي والفيزيقي (المكاني).
- الاعتماد الوظيفي والتساند المتبادل بين الأفراد.
- انتشار وسيطرة نسق من العلاقات يتسم بالطابع السطحي وغير الشخصي إلى جانب سيطرة الطابع الانقسامي على الأدوار الاجتماعية.
- الاعتماد على الأساليب غير المباشرة للضبط الاجتماعي .

ووجهت عدة انتقادات إلى صاحب الحضرية كطريقة للحياة يمكن تلخيصها فيما يلي(23):

* حاول أن يعمم النتائج التي توصل إليها من أبحاثه وملاحظاته المستندة أساسا من مدينة **شيكاغو** ، وكان من المناسب والأجدر قبل ذلك أن يجري عدة مقارنات تاريخية بين المجتمعات .

* ذلك أنه حتى في داخل أمريكا أيضا يوجد في مسار المقيمين الحضريين (أهل الحضر)، تنوع في أسلوب الحياة في الأوساط شبه الحضرية، حيث أن كل مدينة تنتج نموذجا للثقافة الفرعية الخاصة المرتبطة بالبناء الاجتماعي.

*إن الكثافة السكانية ليس لها اثر موحد مهما كانت خصائص السكان، على العكس من ذلك فان هذه الآثار تتغير حسب درجة تحكم الجماعات المعنية في مستقبلها وحسب النموذج الثقافي المرجعي لديها .

* أن العلاقات الاجتماعية الثانوية ليست بالضرورة بديلة عن العلاقات الأولية، فكل نوع منها يمكن أن ينمو بصورة متكاملة، والمثال على ذلك العلاقات المعروفة في العائلة الممتدة فإنها في نطاق التحضر يمكن أن تعرف تجديدا في المعنى .

1- التمييز بين الريف والحضر

لقد صدرت العديد من الدراسات التي حاولت حصر مميزات المجتمع الحضري، من أجل فهم المعايير الاجتماعية التي تنظم العلاقات والتي تتحكم في الصلات والتصرفات السلوكية بين أعضاء المنتمين إلى المدينة، لكن هذه الدراسات لم تتفق حول تحديد دقيق لهذه السمات، حيث ركزت على تمييز المجتمع الحضري من خلال مقارنته بالخصائص الاجتماعية والثقافية للمجتمع الريفي .

2- استخدام المعيار الواحد في تمييز الريف من الحضر

يقوم هذا الاتجاه على الرجوع إلى محك أو معيار واحد في تمييز المجتمع الريفي من المجتمع الحضري، و قد اتبعت في هذا الصدد عدة طرق منها ما يلي :

أ- **الحجم أو عدد السكان** : يركز أصحاب هذا الاتجاه على حجم المجتمع وعدد سكانه، فالمجتمع الريفي هو ذلك المجتمع الذي يقل عدد أفراده عن عدد معين، والمجتمع الحضري هو ذلك المجتمع الذي يزيد عدد سكانه عن حد معين بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى، ويفترض أصحاب هذا الاتجاه أن كثرة عدد السكان يستتبعه حدوث العديد من المتغيرات مثل استحداث العديد، وهذا المحك هو الذي تأخذ به هيئة الأمم المتحدة، كما تعتمد عليه كثير من دول العالم كالولايات المتحدة الأمريكية " إذ تجعل الرقم الفاصل بين التجمعات السكانية الريفية والحضرية هو 2500 نسمة، حيث إذا زاد عن هذا كان التجمع السكاني حضريا، وإذا قل كان ريفيا(24)."

ولعل الاعتراض الأساسي على هذا الاتجاه يتمثل في أن الخصائص الديموغرافية لا تتضمن الخصائص الاجتماعية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان هذا المحك ربما يخدم الأغراض الإحصائية، إلا انه غير مقيد من الناحية الاجتماعية، فمعيار الحجم معيارا نسبيا يختلف من مجتمع إلى آخر ومن زمن إلى آخر .

ب- **المعيار الإداري** : يقوم هذا التصنيف على أساس الوحدات الإدارية داخل الدولة، فالتقسيم الإداري للدولة هو الذي يحدد المجتمعات الريفية والمجتمعات الحضرية، و تأخذ جمهورية مصر العربية بهذا الاتجاه إذا " يعتبر التجمع السكاني حضريا وفق المعيار الإداري كل ما هو عاصمة للمحافظة أو عاصمة للمركز، باستثناء المناطق الصحراوية، على أن يكون التجمع السكاني القروي هو ما ليس عاصمة لمحافظة أو مركز من المراكز الإدارية (25). "

ج- **المعيار الضريبي** : إن بعض دول العالم تتخذ من هذا المعيار أساسا للتفرقة بيم المناطق الريفية والمناطق الحضرية، فإذا كانت الضرائب المفروضة خاصة بالإنتاج الزراعي والأراضي الزراعي فقط، صنفت هذه المنطقة على أنها ريفية، أما إذا كانت الضرائب خاصة بالعقارات، أي تلك التي تقع على المباني والمنشآت الصناعية والتجارية صنفت المنطقة على أنها حضرية .

د- **المعيار العمراني** : تتميز المدينة عن الريف بالأبنية الشاهقة والشوارع العريضة والمرافق المختلفة كالأسواق والجسور والفنادق والمدارس والمطاعم والمقاهي ودور السينما والمسارح والأندية والجامعات والمدارس والمعاهد.. ولهذا اعتمد البعض على هذا المعيار، ويبقى هذا المحك هو الآخر غير كاف للتصنيف بين المجتمعات الريفية والحضرية .

هـ- **المعيار المهني:** وأساس التصنيف عدد أنصار هذا الاتجاه هو المهنة التي يمارسها غالبية أعضاء المجتمع، ومن بين رواد هذا الاتجاه المفكر العربي" **ابن خلدون**" الذي أورد فصولا في التمييز بين البدو والحضر وأرجع **ابن خلدون** الفروق بين البدو والحضر فروق في مصادر الإنتاج والمهنة، فحسب رأيه أن البدو يقومون على الزراعة، أما الحضر فهم أهل الصنائع وعمران وجاء بعده بعدة قرون من يؤيد هذا الاتجاه.

ويرى أنصار هذا الاتجاه أي المحدثين منهم أن المناطق الريفية هي المناطق التي يعمل أغلب أفرادها بالزراعة، أما المناطق الحضرية فهي تلك المناطق التي يمتهن أغلب سكانها مهنا أخرى غير الصيد والزراعة، وتعتبر ايطاليا من بين الدول التي تعمل بهذا الاتجاه.

ومن شأن هذا الاتجاه أن يخرج العديد من المجتمعات من الإطار الريفي إلى الإطار الحضري مثل القرى السياحية أو الصناعية، كذلك فان العمل الزراعي قد يمارس بأساليب حديثة من خلال استخدام التكنولوجيا.

3- **استخدام مركب السمات في التمييز بين الريف والحضر**

نظرا لفشل أنصار المعيار الواحد أو المحك الواحد في التمييز بين الريف والحضر، ونظرا لخصوصية المجتمع الريفي والمجتمع الحضري والتي تجعل من الصعب الارتكاز على عامل واحد من أجل التمييز، فحجم الوحدة التي يعيش فيها السكان أو تعدادهم أو نشاطهم المهني، أو تقسيم إداري معين هي محكات غير كافية، ولهذا جاء أنصار الاتجاه الاجتماعي الذين يرون أن المعيار الحقيقي في التمييز بين الريف والحضر هو شكل العلاقات، فالعبرة ليست في عدد السكان ولكن بنوعية العلاقات الإنسانية التي تميز الحياة الحضرية عن الريفية، وكذلك نماذج الجماعات المنتشرة ونوعية المعايير التي تنظم سلوك الناس وأنماط الضبط السائدة داخل المجتمع، ولذلك لجأ بعض الباحثين إلى استخدام عدة معايير أو ما يعرف بمركب السمات.

ومن أقدم المحاولات التي بذلت لتحديد خصائص المجتمع الحضري عن طريق مقارنته بالمجتمع الريفي محاولة كل من "**سور وكين**" و"**كارل زيمرمان**"، وقد ميزا بين الريف والحضر وفقا للأسس التالية(26):

- الاختلافات المهنية
- الاختلافات البيئية
- حجم المجتمع
- كثافة السكان
- تجانس السكان أو عدم تجانسهم نفسيا واجتماعيا وثقافيا ولغويا وكذلك من ناحية المعتقدات وأنماط السلوك، درجة الحراك الاجتماعي، معدلات الهجرة، شكل التباين الاجتماعي، أنساق التفاعل الاجتماعي.

وتتلخص محاولة **سور وكين** و **كارل زيمرمان** في نظرتهما إلى " المهنة " على أنها المحك الأساسي بين نموذجي المجتمع من فروق واختلافات(27).

كما طور " **راد فيلد** " ثنائية تقابل بين مجتمع شعبي أو قروي وآخر حضري، فالمجتمع الشعبي أو القروي كما يقول :" مجتمع صغير، منعزل، أمي، متجانس يربط بين أعضائه إحساس قوي بالتضامن ... والسلوك فيه تقليدي وتلقائي وشخصي، وفي هذا المجتمع يطغى كل ما هو مقدس على كل ما هو علماني، كما أن الاقتصاد يعتمد على المكانة أكثر من اعتماده على السوق(28)."

وفي نفس السياق كانت نظرية « **ويرث** " الذي يرى أن المدينة تتميز عن الريف بعدة خصائص وضعها في ما يلي:(29)

الحجم الكبير للسكان، شدة الكثافة، النمو المصحوب بظهور نظام علماني وانهيار المعيار الأخلاقي، اللاتجانس، شيوع الضوابط الاجتماعية الرسمية، سيادة الضوابط الرسمية .

ولكن حتى أعمال هذا الاتجاه (المحكات المتعددة) لم تسلم من النقد وخاصة " **راد فيلد** " و" **ويرث** " فقد تم نقد هذه الأعمال من طرف الأنتربولوجي " **لويس أوسكار**"(30).

4- المتصل الريفي الحضري ودراسة الفروق الريفية الحضرية

نظرا للنقص الواضح الذي ميز أعمال نظرية الثنائيات الريفية الحضرية، والتي لم تنجح في تقديم نظرية شمولية تفسر الفروق الريفية الحضرية، وأصل بعض العلماء جهودا أخرى مغايرة لتطوير نظرية أكثر كفاءة من النظريات السابقة، وبرزت نظرية المتصل الريفي الحضري .

ويذهب أصحاب هذه النظرية إلى وجود نوع من التدرج القائم من المجتمعات في درجة التريف والتحضر، حيث يصبح من السهل بعد ذلك تصنيف أي مجتمع على نقطة من هذا المتصل، فهناك تدرج واضح يبدأ من القرية الصغيرة إلى الكبرى ثم المدينة الصغيرة فالمدينة الكبيرة ثم المجتمع المسيطر، فتصنيف الريف ثم الحضر يتم وفقا للفروق الكمية في السمات المميزة للريفية والحضرية، وتستند فكرة " المتصل الريفي – الحضري " من الناحية النظرية إلى افتراضين أساسين الأول هو أن المجتمعات المحلية تندرج بشكل مستمر من الريفية والحضرية، وفقا لعدد من الخصائص، والثاني أن هذا التدرج يصاحبه بالضرورة اختلافات أو فروق متسقة في أنماط السلوك (31).

ومع أن أصحاب فكرة المتصل الريفي - الحضري لم يحصروا تلك الفروق المتسقة التي تحدث في أنماط السلوك والمصاحبة للتدرج المستمر في بعض المجتمعات، إلا أن علماء الاجتماع الحضري وضحوها كما يلي : (32)

- البناء المهني
- التدرج الاجتماعي
- الحراك الاجتماعي
- المشاركة في التنظيمات الطوعية
- العزلة السكنية

- التساند الوظيفي
- العلاقات الاجتماعية

ومع هذا فان أصحاب نظرية المتصل الريفي – الحضري، وعلى الرغم من أنهم تغلبوا على بعض المشكلات القياسية التي واجهت استخدام المعيار الواحد أو مركب السمات، فان أهم الانتقادات التي وجهت إلى جميع الدراسات، سواء منها ما استخدم المعيار الواحد أو المعايير المتعددة، إن هذه الفروق التي تميز الحياة في الريف عن الحياة في الحضر يمكن أن تختلف من ثقافة إلى أخرى .

ثالثا : خصائص الحياة الحضرية

لم تستقر الآراء بين العلماء في مجال علم الاجتماع الحضري حول العناصر الاجتماعية التي تميز المجتمع الحضري عن غيره، وهناك عدة عناصر لذلك أهمها (33):

I- اللاتجانس أو التغاير الاجتماعي :من ابرز مميزات المجتمع الحضري عدم التجانس النسبي، فالمجتمع الحضري يضم في جعبته الكثير من الفئات السكانية المختلفة والانتماءات والخلفيات القومية والطائفية والاقتصادية ... وهذا ما ينعكس بصورة واضحة على سلوك الأفراد، فنجد أن هذا النمط من الحياة يشجع ويؤكد الفروق الفردية، وكل هذا يجعل المدينة موطنا للتغاير واللاتجانس، فتصبح كبوتقة تختلط فيها الأجناس والثقافات المتغايرة، ويتحقق تكامل المجتمع من خلال ما يطوره هذا الاختلاف والتغاير من تضامن بين الأفراد، يكون على أن هذا الاختلاف والتغاير من تضامن بين الأفراد على أساس نفعهم لبعضهم البعض، وليس على أساس تماثلهم وتشابههم .

II- الطابع الثانوي للعلاقات الاجتماعية وسيطرة الضبط الرسمي :إن أهم ما أوجده اتساع حجم المدينة هو التحول الحاصل في العلاقات الأولية وسيطرة الضبط الرسمي محل الضبط الثانوي للأسرة، و ذلك نتيجة لاحتكاك سكان الحضر في حياتهم اليومية بحلقات من المؤسسات والأشخاص لقضاء حاجاتهم، وذلك على نحو ما هو حادث في المكاتب والنوادي والجامعات، وارتباط الإنسان الحضري بالآخرين يكون على أساس نشاطهم وأدوارهم أو ما يقومون به من وظائف، وهذه الجماعات تختلف عن الجماعات الأولية، والتي تميز المجتمعات الريفية والذي يكون التفاعل بين أعضائها بشكل مباشر، وما تقوم به هذه الجماعات من ضبط لسلوك أفرادها، وذلك على النقيض مما هو موجود في المجتمع الحضري، الذي يمارس الضبط من خلال جماعات ثانوية مثل الشرطة، المحاكم ...

وفي هذه الحالة تفقد الأعراف والتقاليد الشعبية إلى حد ما تأثيرها كموجهات للسلوك، ولكن رغم سيطرة علاقات الجماعة الثانوية في المدينة، إلا أن هذا لا ينفي القول بان مجتمع المدينة في ذات الوقت عبارة عن مجموعة من الجماعات الأولية المتداخلة التي تمارس قدرا لا يستهان به من ضبط السلوك .

III- التنقل والحراك الاجتماعي : من بين الخصائص التي ركز عليها علماء الاجتماع الحضري في وصف خصائص الحياة الحضرية والحراك الاجتماعي، إذ يوجد في مجتمع المدينة أهم المنظمات الاجتماعية التي

تعتبر وسائل للحراك الرأسي كالمؤسسات الدينية والقيادات العسكرية والبرلمانات والجامعات التي يستطيع الفرد من خلالها صعود السلم الاجتماعي الحضري، إضافة إلى الحراك الاجتماعي لأعلى وأسفل في معدلات الدخل التي ترتفع وتنخفض، و الحراك الأفقي كالانتقال من جماعة أسرية إلى أخرى فيما يخص الزواج والطلاق... بالإضافة إلى وجود الانتقال من منطقة إلى أخرى ومن عمل إلى آخر والانتقال من مكان إقامة إلى مكان آخر .

IV- الفردية : تشجع الحياة الحضرية وباستمرار تأكيد روح الفردية، وذلك كنتيجة حتمية للتزايد الهائل للسكان والتوسع الكبير للجموع البشرية، بالإضافة إلى الطابع الثانوي والطوعي للروابط الحضرية، وسهولة التنقل و الحراك الاجتماعي، وتعارض المصالح وتعدد هذه العوامل من شأنها أن تؤثر على الفرد حيث يصبح هو المسؤول الوحيد عن قراراته وأفعاله وسلوكه، وبالمقابل تتلاشى روح الجماعة وتتهاوى القيم المشجعة على ذلك من تماسك وتعاون في خضم الروابط والمنظمات الكبرى في المدينة .

V- سطحية العلاقات والروابط الاجتماعية: إن الروابط بين السكان تتميز بالسطحية، وان هذه الخاصية ترتبط ارتباطا وثيقا بنمو وتباين السكان، ويترتب على ذلك سيطرة الضبط الاجتماعي وظهور وسائل الاتصال بين الجماهير .

VI- التخصص: تكشف الدراسات الحضرية المتنوعة على وجود تأكيد واضح على التخصص باعتباره سمة من سمات الحياة الحضرية في المدن، فالحياة في المدن تعتمد على التخصص بصفة بارزة، وهذا مرده إلى كثافة السكان واختلافهم، و ينتج معه اختلافات في الحاجات من خدمات وسلع وأكل وغذاء .. كما أن الكثافة السكانية تفرض وجود نوع من التخصص لتلبية المطالب المتزايدة، والتخصص يفرض تنظيم اجتماعي معقد لتقسيم العمل ووجود تخصصات متنوعة في مختلف المهن في مجال الخدمات والإنتاج .

VII- الارتباط على أساس المصالح : إن خاصية الترابط على أساس المصالح أكثر وضوحا في المدينة عنها في المجتمع الريفي، ويبدو هذا في علاقة الإنسان بغيره من المجتمع، فالبرغم من أن سكان المدينة يسكنون بجوار بعضهم البعض، إلا أن حياتهم قائمة على أساس ارتباط كل منهم بالآخر، على أساس المصالح، ويبدو ذلك في العلاقات الاجتماعية مع الأصدقاء والالتحاق بالنوادي أو جمعيات خيرية ... من أشكال التنظيمات الاجتماعية المتميزة للمدينة .

يستطيع ساكن الحضر أن يحدد دائما آخرين لهم نفس المصلحة، ولهذا نجد معظم الجماعات في المجتمع الحضري تستند أساسا على المصالح المتخصصة، نجد من بينها القوميات والنوادي، وأصبحت مصلحة الفرد ترتبط بمصالح جماعة معنية، كما أن الروابط تكون اختيارية وطوعية سواء على مستوى المهنة أو الهواية أو على مستوى الموطن الأصلي أو الديانة أو على مستوى السن والسلالة، و لهذا نجد في المجتمع الحضري كيانات مختلفة إدارية، سياسية، جغرافية تفتقر دائما إلى الولاء والانتماء(34).

تعبر الخصائص السالفة الذكر عن واقع غريب من المجتمعات العربية، ومن ثم فان هذه الخصائص تنطبق على واقع المدن الغربية والذي ميز نشأتها ونموها وبناءها الاجتماعي فهي (المدن الغربية) نتاج لنظام اقتصادي واجتماعي وفكري وحتى تاريخي .

إن مثل هذه الظروف التي ساهمت في بروز خصائص بعينها للحياة الاجتماعية الحضرية في الغرب (أمريكا، أوروبا) لا تنطبق على واقع المجتمع العربي، ولهذا فان دراسة المدن العربية في حاجة أكثر للتوصل إلى بناء نماذج نظرية علمية تساعد في دراسة وفهم المجتمع العربي، وفي إعطاء تفسير للظواهر الاجتماعية ومنها ظاهرتي : التحضر والحضرية .

رابعا : مشكلات المجتمع الحضري

تختلف هذه المشكلات من بيئة إلى أخرى ومن دولة إلى دولة، وهذا راجع إلى ظروف البيئة الاجتماعية والقيم التي تسودها والعوامل المختلفة والمؤثرة فيها، هي التي تحدد نوع المشكلات التي تسود بيئة معينة دون غيرها، وبناءا على هذا فان خصوصية المجتمع الحضري تفرض بعض المشكلات أهمها(35) :

1- تفكك المجتمع الحضري

إن التحضر يؤدي عادة إلى ضعف في العلاقات بين المجتمع، فنجد أن الأفراد داخل العمارة الواحدة مثلا قد تمر عليهم سنوات دون أن يعرف الجار جاره، وهذا عكس ما نجده في المجتمع الريفي من اتحاد الأفراد.

ويرى بعض الاجتماعيين أن التفكك الحاصل في المجتمعات الحضرية يؤدي إلى ضعف الضبط الاجتماعي، فتقل بذلك سلطة المجتمع على أفراده، ويصبح الإنسان داخل المجتمع الحضري لا يراعي العادات و التقاليد و لا يضع اعتبار للآخرين مما يؤدي إلى ظهور مشكلات مختلفة مثل تشرد الأحداث والبغاء وشرب الخمر وغيرها...

2- الفقر

يرجع الفقر في المدينة إلى ضعف التكافل داخل المجتمع، حيث يقل ترابط المجتمع والأسرة، وتقل أيضا مسؤولية الأفراد عن أقاربهم، مما يؤدي إلى وجود فئة من الناس لا مورد لها إلا سؤال الآخرين، كما أن انشغال الناس في المدينة بأنفسهم يؤدي إلى تفشي ظاهرة الفردية وعدم معرفة الناس لبعضهم البعض مما يؤدي إلى انتشار ظاهرة التسول .

3- مشكلة محو الأمية

لعل من أهم المشكلات التي يواجهها المجتمع الحضري هي مشكلة محو الأمية، التي أصبحت محاربتها جد ضرورية في عصر العلم والتكنولوجيا، إذا أصبحت الحاجة ملحة إلى المعرفة والثقافة واكتساب المهارات المختلفة، حتى يتكيف الإنسان مع التطورات المجتمعية الحاصلة، وتعتبر مشكلة محو الأمية من أهم المشكلات في الواقع الاجتماعي في كل دولة نامية من دول العالم الثالث .

وقد أثبتت دراسات علوم التنمية والتربية والاقتصاد التربوي أن رأس المال البشري والأيدي العاملة المدربة مطلوبة، وأن الإنسان المثقف هو أعلى إنتاجية من غير المثقف، كما أن الأمم التي اهتمت بتثقيف أبنائها من الكبار كان عائد التنمية الاقتصادية لديها أكبر(36) .

ومن أجل مواكبة التطورات الحاصلة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، فان الدول العربية تعمل جاهدة للتقليل من نسبة الأمية في بلدها، ومن أمثلة ذلك نجد أن الجزائر أولت اهتمام متزايد بهذه المشكلة، حيث أنشأت في الآونة الأخيرة ما يسمى " بالديوان الوطني لمحو الأمية وتعليم الكبار " وذلك بالتنسيق مع مختلف الجمعيات الوطنية مثل " جمعية اقرأ الوطنية " التي تعمل على تعميم التعليم في مختلف الفئات العمرية .

خامسا : بعض خصائص الحياة الحضرية والتحضر في المجتمع الجزائري

كانت الجزائر في عهد ما قبل الاستعمار تعتبر مجتمعا جماعيا تتوفر فيه علاقات عائلية أو قبلية، و كان الاقتصاد و لاسيما في الوسط الريفي يقوم بصفة خاصة على إنتاج الحاجات بالنسبة للجماعة الاجتماعية القائمة (القبيلة أو العشيرة) التي تجد في تحقيق عيشها مما تنتجه بيدها، ومن ثم لم يكن المجتمع في أزمة بل كان في توازن على أن هذا التوازن لم يكن إلا نسبيا(37)، فقد وقع من المتغيرات والتقلبات البنيوية ما هز المجتمع وزعزعته، إن التقلبات الكثيرة التي انتابت المجتمع الريفي التقليدي منذ بداية القرن العشرين، أخلت بالتوازن النسبي الذي كان قائما بين الإنسان والطبيعة، وأساءت إلى المعيشة البشرية وحتى الحيوانية وأدخلت على المجموعة عناصر جديدة غيرت شكلها .

إن هذه السياسة الاستعمارية أنتجت وضعا اجتماعيا يمثل حالة نموذجية لمخطط استعماري متكامل لنقل شعب ذي تقاليد حضارية عريقة إلى وضع شبه بدائي تمهيدا لإخضاعه وإبادته(38)، فوقع تفكيك للبنى العائلية أو القبلية وتغيير بعيد المدى في عادات السكان، ولاسيما الريفيين منهم وفي نمط معيشتهم، حيث تحطم نمط الإنتاج الرعوي الذي كان يجمع أفراد العائلة أو القبيلة في وحدة واحدة، و الذي كان- النمط الإنتاجي- يحقق لهم العيش والاستقرار، و قامت مقامه شيئا فشيئا أنظمة زراعية من النوع الخفيف الواسع التي لا تؤتي إلا القليل من الفائض الغذائي، فأصبح التعلق بالأرض مهدد الأركان، وبدأت ظاهرة النزوح من الريف محدثة عدم الاستقرار الاجتماعي ومكونة لبداية ما قد يسمى بهامشية السكان النازحين، وتحولت فجأة أزمة الأرياف إلى أزمة المدن، إنها أزمة البنى الحضرية (السكن، التسيير، التموين، أوقات الفراغ) التي تخضع لصعوبة متعاظمة من زحمة السكان الجدد، إنها كذلك أزمة المدينة الهشة .

وكان للاستعمار أسوأ الآثار على سكان الريف بالخصوص لعزلتهم وهامشيتهم، ومن آثاره تمزيق الأملاك الزراعية العائلية وتحطيم نظام إنتاج المواد الغذائية مما جر تعميم الفقر والأزمة الغذائية، ونشأت من ذلك كله من تمييز مختلف للمجموعات الاجتماعية، فوارق اقتصادية واجتماعية وثقافية كبيرة الخطورة، وهكذا أخذ المجتمع الجزائري التقليدي من جراء التغيرات البنيوية المتعددة يتحول شيئا فشيئا إلى مجتمع متغاير الصفات سواء في الميدان الاجتماعي أو الاقتصادي العام أو في مجال العلاقات

السلوكية للسكان، و أن هذا التغاير لا يبدو بصورة أوضح في ذلك الوسط الريفي الذي تغير وأصبح يعرف مجموعة من الأنماط العائلية الزواجية ذات الطابع الحضري .

إن التطور التاريخي لنمط الحياة الاجتماعية في الجزائر خلق تقلبات كثيرة في بنية المجتمع الجزائري مجتمع شديد التنوع، وكثير التناقضات، حيث جعلت واقع المجتمع الجزائري يتسم بازدواج نمط الحياة التقليدي والحضري، الأول يظهر في تقديس الحياة القديمة والآخر يظهر في التطلع إلى الحياة العصرية، و لكن ليست الحياة الحضرية بل تقليدية إلى وجه كبير بحيث أن البلد تقليدي أساسا مع وجود دائم لتجمعات سكنية مدنية.

لقد بدأت المنطقة الريفية بعد الاستقلال تعرف التغيرات الاجتماعية التربوية والاجتماعية الاقتصادية والاجتماعية المهنية، كما أن هذه المنطقة الريفية هي التي يوجد فيها البناء الاجتماعي العائلي التقليدي، وهي أكثر ثباتا في الوقت الحاضر، وتغيرات هذا البناء ليست داخلية للجماعة الاجتماعية العائلية، التي تحتفظ بنفس النسق للمراجع الاجتماعية، لكنها للجماعة بمفاهيم التربية المدرسية للأطفال والعمل المأجور في ميدان عصري للرجال، وبإدخال باستمرار فوائد عصرية في الوسط الاجتماعي العائلي (ماء، غاز، كهرباء)، كذلك الجماعة الاجتماعية لهذه المنطقة وفية لنسق القيم التقليدية ومرتبطة دائما بالبناء التقليدي، لكن عناصر خارجية قوية وايجابية بدأت تقتحم النظام الاقتصادي والنظام السياسي والنظام المعرفي (القضائي) لهذا البناء الاجتماعي العائلي .

إن المنطقة الحضرية المتكونة من مدن صغيرة ومتوسطة وكبيرة وباستثناء المدن الصغيرة التي تدخل في منطقة شبه حضرية، والمنطقة الحضرية كما تشير التقديرات إلى أن نسبة التحضر بلغت 55 % عام 1994 بعد ما كانت تمثل 30% عام 1960، و لذلك يمكن القول أن المجتمع الجزائري من الناحية السوسيولوجية لا زال يعتبر مجتمعا ريفيا، أو نصف متحضر، أو حديث التحضر، وذلك لان تقريبا نصف السكان لا زالوا يقيمون في المناطق الريفية، وأن النصف الآخر من السكان المقيمين في المدن معظمهم من أصول اجتماعية ريفية، وتحضرهم حديث لا يتعدى عمر الجيل الواحد في أعظم الحالات (39).

إن هذه الحقيقة بالغة الأهمية بالنسبة للمجتمع الحضري على المستوى السوسيولوجي لفهم ومعالجة الظواهر الحضرية والأنظمة الحضرية (نظام الزواج – العائلة)، حيث نجد النظام العائلي والبناء الاجتماعي، يعرف أكثر تثقيفا ولكن بدون أن يرفض نسق المراجع الاجتماعية ونسق القيم التقليدية .

بالإضافة إلى ما تقدم نجد القرية والمدينة ترتبطان بشبكة من العلاقات الاجتماعية ريفية حضرية، وقد عملت مراكز الأسواق على استقرار علاقات القرية بالمدينة، كما أن التحرك على الصعيد المكاني ينحصر في انتقال مركز الثقل في الجزائر من الأرياف نحو المدن التي يعيش فيها أكثر من نصف السكان، و قد تجرد أهل الريف بأمواج هائلة متتالية من طابعهم الريفي، وينبغي في نفس الوقت الذي يجري فيه

تحضر الريف التقليدي، أن نلاحظ عملية ترييف المدينة ، وذلك بإضفاء الطابع الريفي التقليدي على المدينة، حيث أن مساكن المدن تنتشر بعيدا عن مركز المدينة حتى تصل إلى قلب الريف، و لا يمكن تخطيط حدودها بشكل قاطع على الخريطة، وهناك أقاليم ظلت ريفية بأكملها حتى وقتنا هذا، وينمو في هذه المناطق نمط من الحياة يعد ريفيا نسبيا، إن لم يكن ريفيا خالصا، وهكذا فان الصراع بين ما هو تقليدي وما هو حديث، يحسم غالبا لصالح الطرف الأول أي التقليدي، فأبناء ثقافة المجتمع الجزائري لم يتخلواُ عن أساليبهم الريفية على الرغم من تحولهم إلى حياة المدينة، واشتغالهم بالوظائف الحكومية وانفتاحهم على العالم الخارجي، والسبب في ذلك يعود إلى سيطرة القدرة الاستعمارية على المجتمع الجزائري، ودماره العميق جعله يميل إلى الانطواء على بقايا معدات نظام المراجع الاجتماعية الثقافية المعروفة قبل الاستعمار، لأنها تمثل الأصل في نظر الفرد الجزائري لا يمكن التخلي عنها، والإنكار التام للعلاقات الاجتماعية المميزة للنظام الجزائري وخاصة في المجتمع الريفي الذي يكون فيه التغير بطيئا(40).

وعلى الرغم من قبول المجتمع الكثير من التغيرات المادية التكنولوجية الحديثة، معنى ذلك أن التغير يمكن أن يصيب الجانب المادي من الثقافة بينما أسرع منه في الجوانب اللامادية، مما يؤدي إلى حدوث التخلف الثقافي من جهة، ومن جهة أخرى فان الثقافة التقليدية للمجتمع مستمرة في التجلي بطريقة أو بأخرى لكنها تبقى هامشية في الوظائف الاجتماعية الاقتصادية والتربوية الحديثة .

خاتمة: يعتبر التحضر نتيجة وعملية من عمليات التغير الاجتماعي، الاقتصادي والثقافي الذي يتضمن تغيرا في القيم والاتجاهات والسلوك، والتكيف مع الحياة المجتمعية الحديثة، فهو صورة متميزة للمجتمع الإنساني التي تسود فيها قوى متكاملة اجتماعية واقتصادية وثقافية ويتم من خلالها اكتساب الأفراد سمات اجتماعية معينة، كما يترك حالة من التحول في نمط الحياة خاصة بعدما تحولوا من نمط معيشي تقليدي إلى آخر قائم على الوظيفة والخدمات، لكن يبدو أن التحضر قد مس مجموعة من المجالات الحياتية، وأدى إلى تغيرات في النظم الاجتماعية، خاصة الأسرة، فلقد بات واضحا أن التحضر أدى بالأسرة إلى حالة من عدم التوازن والاستقرار في وظائفها وبنائها وأدوارها، بتغيرها يتغير للمجتمع.

الهوامش:

1. **محمد بومخلوف** : التوطين الصناعي وقضاياه المعاصرة – الفكرية والتنظيمية والعمرانية والتنموية التحضر – الجزائر، دار الأمة، 2001، ص71.
2. **إبراهيم الموسوي** : المدينة الإسلامية في ضوء علم الاجتماع الحضري مقال بالانترنت : www.darislam.com 2008/08/22، 14:00.
3. **محمد بومخلوف** : المرجع السابق، ص 74 .
4. **محمد عاطف غيث** : علم الاجتماع الحضري – مدخل نظري -، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1998، ص37 .
5. **محمد بومخلوف** : المرجع السابق، ص 75 .
6. **محمد بومخلوف** : المرجع نفسه، ص 76.
7. **إبراهيم الموسوي** : المرجع السابق، ص75 .

8. **محمد بومخلوف** : المرجع السابق، ص 81.
9. **مصلح الصالح** : النظريات الاجتماعية المعاصرة وظاهرة الجريمة في البلدان النامية، عمان، مؤسسة الوراق، 2000، ص 175 .
10. **تأليف نخبة من أساتذة قسم علم الاجتماع**: المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ب ت ، ص 497 .
11. **السيد عبد العاطي السيد** : علم الاجتماع الحضري، الازاريطة، دار المعرفة الجامعية، 2001، ج1، ص 74 .
12. **سميرة أحمد السيد** : مصطلحات علم الاجتماع، السعودية، مكتبة الشقري ، 1997، ص 179 .
13. **إحسان محمد الحسن :** موسوعة علم الاجتماع، بيروت، الدار العربية للموسوعات ، ط1، 1999، ص 555 .
14. **فوزي رضوان العربي** : أنماط التجمعات في الوطن العربي، في كتاب، دراسات في المجتمع العربي، اتحاد الجامعات العربية، الأمانة العامة، 1985، ص 137- 138 .
15. **عبد المنعم شوقي** : مجتمع المدينة – الاجتماع الحضري – بيروت، دار النهضة العربية، ط07، 1981، ص 23 .
16. **محمد بومخلوف**: المرجع السابق ، ص 25 .
17. **محمد بومخلوف** : المرجع نفسه، ص 27 .
18. **جوردن مارشال** : موسوعة علم الاجتماع، ترجمة : أحمد زايد وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 2000، مجلد2، ص 653 .
19. **تأليف نخبة من أساتذة قسم علم الاجتماع**: المرجع السابق ، ص 498 .
20. **حميد خروف وآخرون** : الإشكاليات النظرية والواقع - مجتمع المدينة نموذجا- سلسلة علم الاجتماع، قسنطينة، منشورات جامعة منتوري، 1999، ص 65- 66 .
21. **تأليف نخبة من أساتذة قسم علم الاجتماع**: المرجع السابق، ص 498-499 .
22. **السيد عبد العاطي السيد** : المرجع السابق، ص 96 .
23. **محمد بومخلوف** : المرجع السابق، ص 30-31 .
24. **عبد القادر القصير** : الهجرة من الريف إلى المدن، دراسة ميدانية عن الهجرة من الريف إلى المدن في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1992، ص 34 .
25. **عبد القادر القصير** : المرجع نفسه، ص 35 .
26. **هالة منصور** : محاضرات في موضوع علم الاجتماع الحضري ، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، 2001، ص 120 -121 .
27. **السيد عبد العاطي السيد** : المرجع السابق، ص 68-70 .
28. **عبد القادر القصير** : المرجع السابق، ص 39 .
29. **محمد الجوهري** : دراسات في علم الاجتماع الريفي والحضري، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، ص 195 196 .
30. **السيد عبد العاطي السيد** : المرجع السابق، ص 80-82 .
31. **محمد الجوهري** : المرجع السابق، ص 209 .
32. **هالة منصور** : المرجع السابق، ص 136 .
33. **بويعلي وسيلة** : زواج الأقارب في المجتمع الحضري وانعكاساته على الأسرة، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير علم الاجتماع العائلي، كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية، قسم علم الاجتماع، إشراف : زمام نور الدين، جامعة الحاج لخضر باتنة ، 2004-2005، ص 32-33.
34. **بويعلي وسيلة** : نفس المرجع، ص 34 .

35. **محمد عبد الفتاح محمد** : الخدمة الاجتماعية في مجال تنمية المجتمع المحلي، المكتب العلمي للكومبيوتر والنشر والتوزيع، ط02، 1996، ص 125 .

36. **قباري محمد إسماعيل** : علم الاجتماع الحضري، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ص 443

37. **محمد مختار بوراكي**: السلطة الأبوية في العائلة الجزائرية وحركة التغير الاجتماعي، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1987، ص 59-67 .

38. **محمد بومخلوف** : المرجع السابق، ص 124 .

39. **محمد بومخلوف** : المرجع نفسه، ص 121.

40. **محمد بومخلوف** : المرجع نفسه، ص 122.

تقييم العملية التدريبية عنصر هام في تنمية الموارد البشرية في المؤسسة

أ/ بن دريدي منير، جامعة باجي مختار عنابة

الملخص:

يعد العنصر البشري أساس أي تنمية سواء كانت اجتماعية أو مؤسساتية، فهو الذي يغير ويحرك ويتحكم في سيرورة كل موارد المؤسسة مهما كان نوعها وهدفها، لذلك لابد من تأهيل وتدريب مورد بشري فعال قادر على التحكم في كل هذه العمليات من خلال إستراتيجية تدريبية مبنية على خطوات وأسس وقواعد علمية متعارف عليها.

وعليه تهدف هذه الدراسة لمحاولة كشف النقاب على خطوة تقييم العملية التدريبية كأهم الخطوات التي تبنى عليها هذه الإستراتيجية، والتي تؤدي بدورها إلى تنمية قدرات ومهارات الموارد البشرية بغية الوصول إلى الأداء المتميز وتحقيق الجودة الشاملة وبناء مؤسسة قادرة على المنافسة ومواجهة التحديات والتغيرات الحاصلة على المستوى العالمي.

Abstract:

The human element is the basis of all development, whether social or institutional. He is the one who changes, manages and controls the process of all institution's resources, whatever its kind or purpose. Therefore, it is necessary to qualify and train an effective human resource capable of controlling all these processes through a training strategy based on recognized scientific steps, principles and rules.

The aim of this study is to explore and lift the veil on the assessment of the training process as the most important step on which this process is based. This step leads in turn to the development of human resources capabilities and skills in order to reach outstanding performance, achieve total quality and build a competitive institution. At this stage, this last will be able to face the challenges and meet current changes on a global scale.

المقدمة: يعتبر موضوع الموارد البشرية من أكثر الموضوعات التي أخذت وتأخذ الحصة الأوفر من اهتمام المتخصصين والممارسين الإداريين على مستوى المجتمعات والمؤسسات الإدارية، فقد أصبح مجالا تتقاطع في دراسته تخصصات كثيرة خاصة علوم الإدارة، الاقتصاد، الاجتماع من خلال عدة تخصصات كالتسيير

وإدارة الموارد البشرية والسلوك التنظيمي.....الخ، فالحركية الهائلة والغير مسبوقة في مجال التكنولوجيا جعل جل المؤسسات تسعى للحصول على التكنولوجيات الحديثة، وتعمل دوما على تنميتها وتطويرها لتبقى الرائدة في السوق العالمية في ظل التنافس الشرس والتحديات الناتجة عن العولمة، ما جعلها تركز على التدريب باعتباره هو الأساس الذي يحقق لها الميزة التنافسية ضمن هذه البيئة.

فالتدريب يرتكز على مجموعة من المقومات التي إن توافرت كلل بالنجاح، ولعل أهم خطوة من هذه الخطوات هي تقييم العملية التدريبية التي تعتبر مرحلة حاسمة لابد من الاستعانة بها حتى يسمح للأفراد والمؤسسة من تطوير وتنمية مسارهم الوظيفي، فتقييم التدريب هو المؤشر الأساسي في قياس نجاح أو فشل العملية التدريبية بأكملها، وذلك من خلال قياس مخرجات التدريب والأثر الذي تركه على سلوكات الأفراد من حيث تطور مهاراتهم وكفاءاتهم من جهة، والأثر الذي تركه على فعالية المؤسسة من جهة أخرى.

وعليه سوف تدور ورقتنا هذه حول مجموعة من المفاهيم التي لها علاقة بتقييم العملية التدريبية في المؤسسة، باعتبار هذه الخطوة أساسية في نجاح الإستراتيجية التدريبية للمؤسسة، وعامل من عوامل الارتقاء بالمورد البشري خاصة في ظل عصر التكنولوجيا والمعلومات.

أولا: مفهوم تقييم التدريب:

يعرف تقييم التدريب بأنه "عملية تهدف إلى قياس فاعلية وكفاءة الخطة التدريبية، ومقدار تحقيقها للأهداف المقررة، وإبراز نواحي القوة والضعف فيها"[1].

ويعرفه ستانلي بأنه "وسيلة لمعرفة ماذا فعل المدربون، وما هي السبل التي تجعل البرامج أكثر فعالية، ثم ما هي التعديلات التي يجب أن تتم على محتوى البرامج وعلى المنهجية، وعلى أساليب التعلم المستخدمة"[2].

ويمكن تعريفه كذلك بأنه "تلك الإجراءات التي تقاس بها كفاءة البرامج التكوينية (التدريبية) ومدى نجاحها في تحقيق أهدافها المرسومة، كما تقاس بها كفاءة المتكونين ومدى التغيير الذي نجح التكوين في إحداثه فيهم، وكذلك تقاس بها كفاءة المكونين الذين قاموا بتنفيذ العمل التكويني"[3].

من خلال هذه التعريفات نستطيع القول أن تقييم البرنامج التدريبي يقوم بالأساس على:[4]

-تحديد مستويات التقييم؛ وتتمثل في معايير يمكن أن تقيم على أساسها فعالية البرامج.

-أساليب جمع البيانات؛ وهي مجموعة من الطرق للحصول على المعلومات اللازمة عن الأفراد المتدربين.

-مقاييس التقييم؛ وهي تنقسم إلى موضوعية تعكس مدى نجاعة التدريب من خلال أرقام ونسب، وإلى ذاتية تعتمد في تقييمها لفعالية العملية التدريبية على أساليب جمع البيانات.

ثانيا: مبادئ تقييم برنامج التدريب:

لابد من توافر العديد من الركائز والمبادئ التي يجب توفرها لدى إدارة الموارد البشرية من اجل تقييم علمي وصحيح لبرنامج التدريب تتمثل في:[5]

- أن يكون التقييم عملية مستمرة تصاحب العملية التدريبية في مراحلها الأولى عند التخطيط وتصميم البرنامج التدريبي، وخلال التنفيذ، وبعد الانتهاء من عملية التنفيذ.

-أن يشمل التقييم جميع عناصر ومكونات البرنامج التدريبي ومن جميع جوانبه الإدارية والفنية والمالية، وان يغطي خطة البرنامج التدريبي وأسس ومعايير اختيار المدربين والمتدربين الذين يشاركون في البرنامج التدريبي، كما يشمل التقييم النواحي الإدارية من حيث اختيار المشرف الإداري والعلمي على البرنامج واختيار المركز التدريبي ومدى توفر الأجهزة والأدوات والمواد التدريبية....الخ.

- أن يشمل تقييم البرنامج التدريبي ذاته من مستواه ومادته وخططه وموعده ومدته.

- أن يتم تقييم البرنامج عن طريق استخدام أدوات وأساليب مثل الاستبيان، الاختبارات، الملاحظات....الخ.

- أن يمتد التقييم ليشمل الأثر الفعلي الذي يتركه البرنامج فعلا على المتدربين أنفسهم من حيث قدرة البرنامج على إكساب المتدربين المهارات اللازمة للارتقاء بأدائهم الوظيفي وفعاليتهم.

- أن يشترك في عملية تقييم البرنامج التدريبي جميع من لهم علاقة بالبرنامج من مشرفين ومدربين وأرباب عمل.....الخ

- أن يكون التقييم شاملا لجميع الأهداف التي يسعى البرنامج التدريبي لتحقيقها عند المتدربين، وان يسعى التقييم لتشخيص نواحي القوة والضعف في كل جانب من جوانب البرنامج بهدف تعزيز نواحي القوة ومعالجة نواحي الضعف.

- أن تتم عملية المتابعة للبرنامج التدريبي عن طريق الزيارات الميدانية للمتدربين في مواقع أعمالهم بهدف معرفة مدى قدرة البرنامج التدريبي على تلبية الحاجات التدريبية للمتدربين والتي تقررها طبيعة الوظائف التي يؤدونها في المؤسسات أو المصانع التي يعملون بها.

- يجب أن تتم عملية تقييم ومتابعة البرنامج التدريبي بشكل كلي ومتكامل وشمولي، بحيث نغطي جميع عناصر هذا البرنامج من مدخلاته وعملياته ومخرجاته، وان يتم اعتماد التغذية العكسية كعنصر أساسي من عناصر النظام التدريبي لمراقبة وضبط هذا البرنامج وتوجيهه، وضمان مساره من اجل أن يحقق الأهداف الموضوعة له.

ثالثا: الهدف من تقييم التدريب: يهدف تقييم البرنامج التدريبي إلى تحقيق ما يلي:[6]

-تقييم كفاءة خطوات العملية التدريبية، حيث يتم خلال عملية التقييم التأكد من سير العملية التدريبية في مراحلها المختلفة وفقا لخطة وضعت لذلك، بمعنى أن يتم التأكد من إنجاز البرنامج التدريبي وفقا لهذه الخطة وهذا يشمل تقييم تحديد الاحتياجات التدريبية وتقييم تصميم البرنامج، وتقييم كفاءة المدرب، وتقييم تعلم المتدرب، وتقييم وسائل التدريب وغير ذلك من عناصر البرنامج التدريبي.

-تقييم أهداف التدريب التطبيقية، حيث يتم خلال عملية التقييم التأكد من نقل أثر التدريب (المهارات، المعارف، السلوك) إلى واقع العمل الميداني واستخدام تلك المعطيات في تحسين أداء الموظف وبالتالي رفع كفاءة أداء المنظمة بوجه عام أو حل مشكلات معينة، كما يتم التأكد أيضا من أن عائد التدريب على المنظمة يعادل ما صرف عليه من موارد.

-التعرف على مدى تطبيق المتدربين للمعرفة والمهارات والخبرات التي تعلموها في بيئة العمل عند أداء مهام وظائفهم وواجباتهم، وكذلك التعرف على مدى تلبية البرنامج التدريبي للاحتياجات السلوكية.

-قياس مدى تحقيق أهداف التدريب والتأكد من أن البرنامج التدريبي يعمل وفقا للأهداف والخطة التي وضعت له، وما الذي تم انجازه من البرنامج التدريبي، وما تم تحقيقه من أهداف.

رابعا: مراحل تقييم البرامج التدريبية: تمر عملية تقييم التدريب بثلاث مراحل أساسية هي:

- مرحلة تقييم ما قبل التدريب.

- مرحلة التقييم أثناء تنفيذ التدريب.

- مرحلة التقييم ما بعد التدريب.

1/ مرحلة تقييم ما قبل التدريب: تتمثل هذه المرحلة في تقييم كلا من تحديد الاحتياجات التدريبية، وتصميم البرامج التدريبية، إذا يتم من خلال هذه المرحلة تقييم الاحتياجات التدريبية للمنظمة وللوظيفة وللموظف، وكذلك تحديد مدى التحضير لمتطلبات الدورة من مدربين ومستلزمات التدريب.[7]

حيث يتم في هذه المرحلة التأكد من العناصر التالية:[8]

- ارتباط الاحتياجات التدريبية بأهداف وسياسات المؤسسة.

- التنبؤ بعائدات التدريب على الفرد العامل وعلى المؤسسة.

- تقييم تصميم البرامج من حيث المنهاج والأسلوب والمواد والفترات الزمنية والموقع ونوع المتدربين حسب الاختصاصات المطلوبة.

- التأكد من توفر المبالغ المرصودة في الميزانية لتغطية نفقات البرامج التدريبية.

2/ مرحلة التقييم أثناء تنفيذ التدريب: تتضمن هذه المرحلة مجموعة من الخطوات نذكر منها:[9]

-مدى تحقيق البرنامج لأهدافه.

-مدى ملائمة التصميم وتنظيم البرنامج لأهدافه الرئيسية.

-مدى الالتزام بالمنهج التدريبي من قبل المدرب.

-مدى كفاءة الأساليب التدريبية المستخدمة.

-مدى كفاءة الوسائل التدريبية المستخدمة.

كذلك في هذه المرحلة لابد من تقييم أداء كلا من المدربين والمتدربين على النحو التالي:

2-1/ متابعة وتقييم المتدربين: ويشمل قياس أداء المتدربين ومعرفة مدى تجاوبهم مع المعارف والمهارات التي يقدمها البرنامج ومدى ارتباطها بالمهام والواجبات التي يقومون بها في ميدان العمل، ويتم التأكد من تحصيل المتدرب من خلال التطبيقات العملية والتقييمات التي عادة ما تكون على ثلاثة مراحل خلال البرنامج التدريبي[10]، والتي تتمثل فيما يلي:[11]

- المقابلات الشخصية مع المتدربين-يجريها مدير البرنامج- بالدورة التدريبية للاستماع إلى ملاحظاتهم وأدائهم ومواجهتهم بأي ملاحظات عن أدائهم ومجهودهم المبذول بالنسبة للبرنامج.

- جمع تقارير المشرفين على تنفيذ البرنامج، والتي تتناول مدى انتظام المتدربين واستجابتهم للبرنامج واهتماماتهم به كمؤشر لمدى نجاح الدورة التدريبية في تحقيق هدفها ومدى الفائدة التي حققتها.

- تصميم استمارات الاستقصاء التي تطرح للمتدربين للتعرف على أدائهم ومقترحاتهم، في شكل أسئلة تدور حول سير الجلية التدريبية، والموضوع، وطريقة عرضه، ومدى تغطية جوانبه المختلفة وملائمة الوقت المخصص لمناقشة الموضوع.

2-2/ متابعة وتقييم المدربين: وتمثل هذه العملية حجر الزاوية في العملية التدريبية فلا تهم أدوات التدريب، ولن ينفع كثيرا اختيار المدرب وإعداده لمهامه بل مواصلة متابعته لتطويره. ومن النقاط التي لا بد من التركيز عليها هي أن يكون المدرب حسن المظهر والسلوك عادلا وموضوعيا في تصحيح الاختبارات للمتدربين، ملما بالتعامل الإنساني مع المتدربين، عارفا بطرق التدريب وطرق إيصال أفكاره للآخر.[12]

3/ مرحلة التقييم ما بعد التدريب: تعد هذه المرحلة مرحلة التقييم النهائي لمدى نجاح المؤسسة في تنفيذ البرنامج التدريبي، وكذا النجاح في تحديد الاحتياجات التدريبية باعتبار هذا التقييم انعكاس لها، وتهدف هذه المرحلة إلى:

-التعرف على ايجابيات البرنامج التدريبي من خلال قياس نقاط القوة فيه.

-التعرف على سلبيات البرنامج التدريبي من خلال قياس نقاط الضعف فيه.

خامسا: نماذج تقييم فاعلية البرنامج التدريبي:

توجد العديد من النماذج التي يمكن بها تقييم فعالية البرنامج التدريبي يتمثل أهمها في:

1/ نموذج كرك باتريك: يعتبر النموذج الأكثر شيوعا واستعمالا من قبل القائمين على العملية التدريبية، حيث يحدد أربعة مستويات أساسية لتقييم عملية التدريب، وهو ما سوف نوضحه من خلال الجدول الأتي:[13]

المستوى	الأسئلة المطروحة	القياسات

النتائج	- هل المؤسسة أو الوحدة أو القسم بحالة أفضل نتيجة إجراء التدريب؟	- حوادث العمل. - نوعية العمل. - الإنتاجية. - التكاليف المدفوعة. - الإرباح المحصلة.
السلوك	-هل أبدى المتدربين سلوكا مختلف بعد التدريب؟ - هل يستخدم المتدربين المهارات والمعرفة التي تعلموها خلال التدريب؟	- تقييم لأداء المتدربين من قبل الرؤساء المباشرين ورفاق العمل والزبائن
التعلم	إلى أي حد حصل المتدربين على المزيد م المعرفة والمهارات بعد انخراطهم في البرنامج التدريبي بالمقارنة مع معرفتهم ومهاراتهم السابقة	- اختبارات مكتوبة. - اختبارات الأداء.
ردة الفعل	- هل أحب المتدربين: البرنامج، المدربين تسهيلات التدريب؟ - هل وجد المتدربون فائدة من البرنامج - هل أبدو اقتراحات معينة لتحسين البرنامج؟	- أسئلة تطرح على المتدربين (استمارات)

من الجدول نستنتج أن كرك باتريك يقسم تقييم البرنامج التدريبي إلى أربع مستويات على النحو التالي:

1-1/ معيار رد الفعل: يمكن استخدام ردود الفعل لدى الموارد البشرية التي تلقت برنامج تدريبي كأساس لتقييم هذا البرنامج، ويمكن أن يتم ذلك من خلال استمارة استبيان تحتوي على أسئلة يدور محتواها عن مدى شعور الفرد بالاستفادة من البرنامج (وأي الجوانب يعتبرها أكثر إفادة، وأيها أقل إفادة، وأيها أكثرها سهولة، وأيها أكثر صعوبة... الخ)[14].

1-2/ معيار التعلم: يقيس مقدار تزويد البرنامج للمتدربين بالمهارات والمعارف والقدرات التي يحتاجون إليها، أي بصورة أوضح يرجز المستوى الثاني على استيعاب المتدربين للنواحي التعليمية والمهارات التي أعطيت لهم من قبل مدربيهم، وقياس التعليم يتم إما خلال التدريب أو بعد الانتهاء من التدريب، ويتم ذلك من خلال اختبارات وتماري معينة تعطى للمتدربين[15].

1-3/ المعيار السلوكي: تتم عملية التقييم هنا باستخدام العديد من الطرق أهمها:[16]

-الملاحظة.

- مقارنة سجلات الأداء قبل وبعد التدريب.

- التقييم من قبل الرئيس المباشر.

- التقييم والتقارير الذاتية.

1-4/ معيار النتائج: تظهر في إنتاجية وفعالية المؤسسة، وذلك من خلال الفوائد الإجمالية المحققة للمؤسسة بعد تنفيذ البرنامج قياسا بالتكاليف، أي تحديد العوائد الاقتصادية من التدريب، "فمقاييس التكلفة وكمية الإنتاج وجودته، قيمة المبيعات والربحية، معدل دوران العمل، الغياب، نسبة الشكاوى...إلخ، تعتبر أمثلة للمقاييس التي تستخدم معيار نواتج الأداء التنظيمي"[17].

2/ نموذج كيرو CIRO: قام كل من بيتر داو، مايكل بيردن ونيل ركهام بتحديد أربعة مستويات أساسية لتقييم فعالية البرنامج التدريبي، حيث ترمز هذه الحروف إلى مجموعة من المصطلحات الانجليزية التي تحدد المعايير التالية:[18]

- تقييم السياق (Context evaluation).

- تقييم المدخلات (Input evaluation).

- تقييم رد الفعل (Reaction evaluation).

- تقييم المخرجات (Output evaluation).

يقصد هنا بالمدخلات هو من يدخل إلى البرنامج التدريبي من الأفراد الذين وقع عليهم الاختيار للقيام بالتدريب أي الأفراد ذوي المهارات والقدرات المحدودة، أما المخرجات فإنه يقصد بها ما ينتج عن البرنامج التدريبي أي الأفراد الذين اكتسبوا مجموعة المهارات والقدرات الجديدة والمطورة.

3/ نموذج كورب KORP: يقوم هذا النموذج على ثلاثة معايير لتقييم العملية التدريبية:[19]

الأول: يركز على قياس فعالية التدريب كعملية أي معرفة التقدم الذي أحرزه المشاركون في البرنامج من حيث المعلومات والماهرات والاتجاهات التي اكتسبوها.

أما الثاني: فيتناول اثر التدريب على سلوك المتدرب بعد انتهاء البرنامج التدريبي والتحاقه بجهة العمل، من حيث قدرته على ترجمة المعلومات المكتسبة إلى سلوك واتجاهات وظيفية ايجابية ومدى إسهام التغير الحاصل في سلوكه واتجاهاته في تحقيق فعالية المؤسسة ومدى الانسجام مع الأهداف المتوقعة في البرنامج التدريبي.

ويناقش الثالث: اثر التدريب على المؤسسة ككل وهذا يتضمن معرفة اثر التدريب على نجاح المؤسسة، من حيث زيادة الإنتاجية ورفع الروح المعنوية للعاملين، وتحسين نظم الاتصالات، وتحقيق الرضى العام للجمهور عن سلعة أو الخدمة المنتجة، والقدرة على مواجهة المستقبل وتحدياته.

سادسا: أساليب جمع البيانات لتقييم التدريب:

1/ الملاحظة:

تتم عملية التقييم من خلال هذا الأسلوب بعد التحاق الأفراد المتدربين بمواقع عملهم ومزاولتهم لنشاطاتهم لمدة زمنية معينة .يعتمد هذا الأسلوب التقييمي والذي يشرف عليه المسؤول المباشر أو مدير المصلحة على ملاحظة ومقابلة الأفراد المستفيدين من دورات التدريب وهم يتصرفون ويتفاعلون في مواقع عملهم[20].

2/ المقابلة: لابد هنا من الاعتماد على المقابلة الشخصية لكل متدرب على حدى من اجل محاولة ملاحظة ردود أفعاله وسلوكاته، وتحقق هذه المقابلة الفائدة المرجوة منها عندما:[21]

-تكون بالإضافة إلى جمع البيانات، حاجة إلى توصيل مشاعر الإهتمام والترغيب والتعاطف.

-لا تسمح طبيعة السلوك بملاحظته بشكل مباشر.

-تكون هناك حاجة إلى معلومات عن مشاعر ونوايا المشاركين وعن تصرفاتهم أيضا.

-يكون الحدث قد تم في الماضي ولا يمكن ملاحظته بعد ذلك.

-يكون القائم بإجراء المقابلة الشخصية غير متأكد مما يود جمعه من معلومات.

-يتوقع القائم بإجراء المقابلة الشخصية أن المستجيب لم يعط الموضوع قدرا كبيرا مسبقا من التفكير.

3/ الاستبيان: يتم توزيع الأسئلة في مجموعة من المحاور بحيث يحتوي كل محور على مجموعة من الأسئلة تعالج جانب من جوانب البرنامج التدريبي، ويمكننا أن نلخص خطوات وضع الاستبيان كالآتي:[22]

- القيام بإجراء مقابلة شخصية لعينة من مجتمع الدراسة.

- القيام بوضع قائمة بالمتغيرات التي سوف يتضمنها الاستبيان.

- القيام بمراجعة المتغيرات مع الأطراف المعنية.

- القيام بتحديد تركيبة الأسئلة.

- تحديد طريقة تحليل البيانات.

- جرب الأسئلة على عدد قليل من الأفراد ثم قم بالتنقيح(الاختيار).

- إعمل مسودة بالشكل العام وبالتعليمات، وضع خطة للإجراءات الإدارية للاستبيان.

- راجع الاستبيان وإجراءاته مع الأطراف المعنية.

- إختبر الاستبيان وإجراءاته الإدارية ميدانيا.

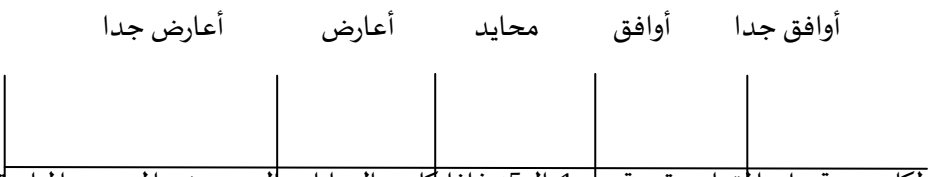
- راجع نتائج الاختبار الميداني.

- قم بتنقيح الإجراءات الإدارية وفقرات الاستبيان وعملية تحليل البيانات.

- راجع الأداة وإجراءاتها بعد تنقيحها مع الأطراف المعينة.

4/ طريقة التقرير المكتوب: يتم هنا تكليف المشرف المباشر بإعداد تقارير التقييم الخاصة بالأفراد الذين خضعوا للبرنامج التدريبي وهذا بعد مدة من التحاقهم بأعمالهم، حيث "يقوم المشرف من خلال هذه الطريقة بالتركيز على أهم الجوانب التي تم تدريب العاملين عليها، حيث يعمل على إعداد تقرير يذكر فيه حكمه على أداء مرءوسيه، وانطباعاته أو تعليقاته على هذا الأداء"[23].

5/ مقياس ليكرت: يمتاز مقياس ليكرت بالبساطة لكونه لا يحتاج إلى مجهود لحساب قيم عبارات السلم المستخدم في القياس، ويتلخص المقياس في تحديد مجموعة من العبارات تصف الموضوع المراد تقييم اتجاه الأفراد نحوه، ويمكن أن تأخذ هذه العبارات صيغ موجبة أو سالبة؛ و يطلب من الفرد المستفيد من التدريب توضيح استجابته تجاه كل عبارة من هذه العبارات وذلك باختياره الاستجابة المعبرة أكثر عن اتجاهه، وأمام كل عبارة يوجد سلم تحدد عليه الدرجات التي تعبر عن اتجاه الفرد نحو هذه العبارة[24]، ويمكن تحديد درجات سلم ليكرت كما يلي:[25]



وتعطى لكل درجة على المقياس قيمة من 1 إلى5؛ فإذا كانت العبارات التي تصف الموضوع المراد قياس اتجاه الفرد نحوه إيجابية، فإن قيم الدرجات على سلم التقييم تكون على النحو التالي:

أوافق جدا 5

أوافق 4

محايد 3

أعارض 2

أعارض جدا 1

أما إذا كانت العبارات التي تصف الموضوع المراد قياس اتجاه الأفراد نحوه سلبية، فإن قيم

الدرجات على سلم القياس تكون عكس قيم الدرجات في حال كون العبارة إيجابية، وذلك كما يلي:

أوافق جدا 1

أوافق 2

محايد 3

أعارض 4

أعارض جدا 5

ففي حالة ما إذا كانت العبارة إيجابية عن أي جانب من جوانب المتعلقة بعملية التدريب، مثل: اعتبر المحتوى التدريبي ملائما فإن قيم التقييم الخاصة بدرجات هذه العبارة تكون على النحو التالي: فتعطى الموافقة جدا درجة 5 وأوافق 4 ومحايد 3 وأعارض 2 ثم درجة أعارض جدا تعطى القيمة1. أما إذا كانت العبارة التي تصف جانب من جوانب العملية التدريب سلبية مثل: المحتوى التدريبي لا يعكس احتياجاتي

التدريبية، فإن قيم التقييم الخاصة بدرجات هذه العبارة تكون عكس التقدير في العبارة السابقة وذلك كما يلي: فتعطى درجة أوافق جدا اقل تقدير 1 وأوافق 2 ومحايد 3 وأعارض 4 وتعطى درجة معارض جدا القيمة5.

خاتمة: إن إستراتيجية التدريب المعتمدة حاليا من طرف المؤسسات تركز أساسا على عملية تقييم البرنامج التدريبي باعتبارها الركيزة الأساسية التي من خلالها يمكن الوصول إلى تحقيق الهدف المبتغى من التدريب وبالتالي تنمية الموارد البشرية والحفاظ عليها وتطويرها، ولا يتأتى كل هذا إلا من خلال وضع إستراتيجية واضحة المعالم تستند إلى معايير علمية عملية متعارف عليها في العرف الإداري وتأخذ بعين الاعتبار التحولات المستمرة داخل وخارج محيط المؤسسة.

الهوامش:

(1) حنا نصر لله، إدارة الموارد البشرية، دار الزهران ،عمان، الأردن، 2002، ص 237.

(2) نادر أحمد أبوشيخة، إدارة الموارد البشرية، دارا لصفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2001 ، ص ص 278-279.

(3) عبد الباري إبراهيم دره،زهير نعيم الصباغ، إدارة الموارد البشرية في القرن الحادي والعشرين- منحى نظمي،ط1، دار وائل للنشر،عمان،الأردن، 2008،ص330.

(4) احمد صقر عاشور، إدارة القوى العاملة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان،1979 ، ص491.

(5) رداح الخطيب، احمد الخطيب، التدريب الفعال، دار الكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006، ص ص280-282.

(6) أحمد الخطيب وعبد الله زامل العنزي، تصميم البرامج التدريبية للقيادات التربوية، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، اربد، عمان، الأردن، 2008، ص45.

(7) شاويش مصطفى نجيب، إدارة الموارد البشرية إدارة الأفراد، دار الشروق للنشّر والتوزيع، الأردن،2005 ، ص 106.

(8) حنا نصر الله، إدارة الموارد البشرية، مرجع سابق، ص ص238-239.

(9) عبد الرحمان توفيق، العملية التدريبية، مركز الخبرات المهنية للإدارة بميك، القاهرة ، مصر، 2002 ، ص78.

(10) نبق أبو بكر، الاستثمار في المورد البشري، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، الجزائر، 2002، ص122.

(11) السيد عليوة، الاحتياجات التدريبية، ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001 ، ص161.

(12) مهدي حسن زويلف ، أحمد قطامين، الرقابة الإدارية (مدخل كمي)، دار حنين، عمان، الأردن، 1995، ص345.

(13) إبراهيم حسن بلوط، إدارة الموارد البشرية من منظور استراتيجي، دار النهضة الحديثة، بيروت، لبنان، 2002، ص265.

(14) احمد صقر عاشور ، مرجع سبق ذكره ، ص ص492-493.

(15) إبراهيم حسن بلوط ، مرجع سابق، ص267.

(16) جال بروكس ، ترجمة/ عبد الإله إسماعيل كتبي ، مراجعة الترجمة /عبد اللطيف بن صالح ، قدرات التدريب و التطوير ، دليل عملي، الإدارة العامة للطباعة و النشر ، الرياض، المملكة السعودية ، 2000 ،ص281

(17) محمد سعيد سلطان إدارة الموارد البشرية، الدار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، مصر، دون سنة ، ص203 .

(18) عبد الرحمان توفيق، العملية التدريبية، مرجع سابق، ص335.

(19) نادر احمد أبو شيخة، إدارة الموارد البشرية، مرجع سابق، ص284.

(20) محمد الصالح قريشي، تقييم فعالية برامج تدريب الموارد البشرية، مذكرة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإقتصادية و علوم التسيير، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2005، ص91.

(21) نانسي ديكسون ،ترجمة، سامي علي الفرس، تقويم الأداء وسيلة تحسين النوعية في تنمية الموارد البشرية، الإدارة العامة للبحوث، الرياض، العربية السعودية، 1415هـ، ص233.

(22) نفس المرجع، ص250.

(23) محمد سعيد سلطان، مرجع سبق ذكره، ص318.

(24) محمد الصالح قريشي، مرجع سابق، ص100.

(25) عبد الرحمان محمد عيسوي ، علم النفس و الإنتاج، دار النهضة العربية ، بيروت، لبنان ، 1982، ص ص106-107.

استراتيجية الاختيار المهنـي بالمنظمة التجلّيات و الأبعاد

أ/ خريبش زهير، جامعة ابن خلدون تيارت
أ.د/ حسان الجيلاني، جامعة محمد خيضر بسكرة

الملخص:

تولي المنظمة الحديثة أهمية كبيرة لإستراتيجية اختيار الموارد البشرية، ويتجلى ذلك خاصة في سعيها لإستقطاب واختيار موارد بشرية تمتلك المواصفات والمؤهلات التي تنسجم مع رسالتها وثقافتها التنظيمية، وذلك بهدف إعطاء قوة وديناميكية لسيرورة عملها.

وضمن هذا السياق يأتي هذا المقال ليوضح أهم الجوانب المعرفية والطروحات النظرية حول إستراتيجية الاختيار المهني بكل دلالاته وتجلياته.

Abstract : The modern organization, attaches great importance to the strategy of selecting human resources, this is especially evident in its efforts to attract and select, human resources that possess the specifications and qualifications that are consistent, with its culture and organizational trusts in order to give power and dynamism to its work process.

Within this context ; this article will explain the most important aspects of knowledge and theoretical, theses on the strategy of professional choice with all its implication and manifestations.

مقدمة:

إن المتتبّع للفكر الإداري والتنظيمي، يدرك أن عملية الاختيار المهني تشكل أحد المجالات الأساسية في نشاط أي مؤسسة تسعى لوضع خطط واستراتيجيات تضمن لها البقاء والاستمرارية، وتتطلع إلى التفوق والتميز، ايمانا منها بأن اختيار الأفراد وفق أسس ومعايير سليمة من الممكن أن يعطوا لها ديناميكية في طريقة عملها وزيادة فعاليتها .

والمتمعن في واقعنا اليوم ؛يُدرك أن الاهتمام بعملية اختيار الأفراد من قبل المؤسسات المعاصرة، أصبح يتزايد باستمرار، ولعل ذلك راجع الى التطور التكنولوجي والمعرفي الحاصل على المستوى الدولي، والذي أدى إلى إعادة إنتاج موجة من التحديات العميقة والتغيرات الجوهرية التي طالت مختلف مناحي الحياة المعاصرة بجميع تمظهراتها، وهي مغايرة تماما لتلك المراحل التي عاشتها البشرية من قبل ، ولذلك كان من الطبيعي والمنطقي أن يصاحب هذه التطورات إعادة النظر في سياسة اختيار الأفراد بوسائل وطرق جديدة تناسب هذه التحديات وتواكب هذه التغيرات .

وتأسيسا على هذا التقديم؛ نحاول في هذا المقال تغطية بعض الجوانب المعرفية والمراكمات النظرية المتمحورة حول إستراتيجية الاختيار المهني بالمنظمة بدءا بتوضيح مفهوم الاختيار المهني، جذوره التاريخية و النظريات المفسرة له في الفكر الإداري تجلّياته بالمنظمة وأخيرا البعد المعاصر لإستراتيجية الاختيار المهني.

أولا- مفهومه:

يُشكّل مفهوم الاختيار المهني مفهوما ارتكازا في مختلف الأدبيات السوسيولوجية المتخصصة في تنمية وتسيير الموارد البشرية ،فقد حاولت معظم هذه الأدبيات تقديم تعاريف نظرية لهذا المفهوم بحسب توجّهات الباحثين العديدة ومشاربهم الفكرية المختلفة، وبتصفحنا للعديد من هذه الأدبيات تلمّسنا نوعا من الاتفاق حول تعريف الاختيار المهني لدى أغلب الباحثين، الذين حاولوا تحديد خصائصه البنائية والوظيفية.

وضمن هذا المنظور، يُعرّف الاختيار المهني بأنه عبارة عن سياسات وإجراءات من شأنها ضمان اختيار الأفراد وفق مبدأ الجدارة، من خلال التنبؤ بأفضلية المتقدمين لعمل وأي منهم يُحقق النجاح إذا تم تعيينه[1] ويشير هذا التعريف إلى مختلف الإجراءات العملية التي يمر بها طالب العمل ابتداء بطلب التوظيف ،المقابلات الاختبارات، الفحص الطبي.. إلخ والتي تهدف في مجملها إلى إمكانية **وضع الرجل المناسب في المكان المناسب**، وهناك تعاريف أخرى للاختيار المهني تشير إلى أنه عملية مواءمة بين مواصفات الفرد ومتطلبات الوظيفة ، ومن هذه التعاريف، التعريف الذي حدده **أحمد صقر عاشور** والذي مفاده : "الاختيار المهني هو المقارنة بين صفات الفرد ومتطلبات العمل، ثم المفاضلة والفرز بين المتقدمين للعمل الشاغر لاختيار أفضلهم مناسبة لهذا العمل"،[2] ونعتقد أن المواءمة بين قدرات الفرد ومتطلبات الوظيفة هي التوليفة الأساسية لبناء توافق بين خصائص الفرد الشخصية والعلمية وطبيعة العمل الموجه لأدائه، وفي هذا السياق يشير كذلك **مجمود السيد أبو النيل** إلى أن : "الاختيار المهني هو وضع الفرد المناسب في العمل المناسب لقدراته الذهنية وسمات شخصيته وميوله[3] وانطلاقا من هذا التعريف الذي حدده أبو النيل، نشير فقط هنا إلى نقطة أساسية وهي تلك المتعلقة بمدى فشل الكثير من العمال في أداء وظائفهم بفعالية، بمجرد عدم رغبتهم وميلهم للعمل الذي وجّهوا إليه وهو ما يسهم بحسب اعتقادنا في تفريخ الكثير من المشاكل المرتبطة بسوء السلوك التنظيمي، كدوران العمل، الإهمال، التغيب ترك العمل، انخفاض المردودية في الأداء...إلخ.

ثانيا: جذوره التاريخية في الفكر الإداري :

إن الفكر الإداري له امتدادات تاريخية قديمة قدم الإنسان، ولكن من حيث تشكيله كنظرية إدارية علمية قائمة من حيث مقوّلاتها ومبادئها، أو من حيث المنظّرين الذين بلوروا أفكارها فإنه حديث نسبيا.

وضمن هذا التصور القاضي بوجود جذور تاريخية لهذا الفكر، فقد كان للحضارات القديمة مساهمة فعلية في إنتاج الكثير من الممارسات الإدارية، ومنها تلك المتعلقة بالمبادئ الأساسية في مجال اختيار الأفراد

وأساليب توظيفهم ولايزال يعمل بها إلى وقتنا الحالي، وهو ما تقره الأدبيات المعاصرة في الإدارة، وفي هذا السياق فقد أشار الكثير من الباحثين في مجال التنظيم أن بداية الإدارة كانت في الصين واعتبروا أن الصينيين هم أول من اشترط إجراء الاختبارات بالنسبة للمترشحين بهدف شغل مناصب عمل في الوظائف الحكومية العامة، بحيث يتم اختيارهم وتعيينهم على أساس معياري الجدارة والكفاءة[4] وبهذا تعتبر الحضارة الصينية أقدم نظام عرفه التاريخ في اختيار العاملين وتعيينهم في الخدمة المدنية ففي القرن11ق م، أدرك الصينيون أهمية استخدام أساليب مميّزة لاختيار وتعيين العمال وترتيب وظائفهم، فقد كانت تعاليم **كونفو شيوس** تتضمن مقترحات علمية موجّهة للإدارة العامة للدولة مبنية على أسس سليمة، تؤكد على ضرورة اختيار قيادات تتوفر على مواصفات أساسية كالقدرة، النزاهة، الأمانة، والابتعاد عن الأنانية ...إلخ، وتعيينهم مباشرة في مختلف مواقع الدولة[5] وإلى جانب الصينيين فقد كان للمصريين كذلك دورا كبيرا مميزا في الفكر الإداري، ويتجلى ذلك من خلال استيعاب وممارسة المصريين القدماء للمبادئ والمفاهيم الإدارية السليمة والعمل على التحليل والتوصيف التفصيلي للوظائف الذي يشير إلى مجمل المعايير والشروط الواجب توافرها فيمن يتم اختياره وتعيينه في شغل المناصب العليا بالدولة[6] هذا وقد كان للحضارة الإغريقية، مساهمة كبيرة في اعتماد طرق الاختيار وأساليبه وذلك عندما تنبأ **سقراط** بالفكر الإداري الحديث عند وصفه لوظيفة واجبات القائد أو المدير المكلف بتسيير عماله، ويجبرهم على التحلي بالطاعة والولاء، وأن يقوم باختيار وتعيين الشخص المناسب لأداء المهمة المناسبة[7].

وفي سياق هذا التتابع الكرونولوجي للفكر الإداري القديم، نرى أنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى ما قدمه **الفارابي** كذلك في هذا المجال والمتعلق، بالشروط والمعايير الواجب توافرها في رئيس المدينة حيث يرى الفارابي أن أهم وظائف المدينة هي وظيفة الرئاسة، ولا يصلح الفرد لكي يكون رئيسا إلا إذا توفرت فيه بعض المواصفات والتي يتم اختياره على أساسها ومنها: سلامة الأعضاء، القدرة على الحفظ، الفطنة والذكاء، القدرة على الإستنباط، محب للعلم، أن يكون حكيما ..إلخ[8].

وبمراجعة سريعة لتاريخ الفكر الإداري عبر الحضارات القديمة،كما أشرنا إليه والمتعلق بعملية اختيار الأفراد فقد كان للحضارة العربية الإسلامية، وظهور الإسلام أي ما يزيد عن 1400 سنة، دورًا بارزًا في بداية المرحلة الأكثر تطورًا وتقدمًا في ميدان تنظيم شؤون الدولة، وبخاصة منها فيما يخص إرساء المعايير الواجب توفرها فيمن يتم اختياره لتولي شؤون الدولة، والحرص فقط على توافر الشروط التي أقرها القرآن الكريم، والابتعاد عن المحسوبيات والمنسوبيات، وعموما فقد حددت هذه المعايير وفق الشروط الموضوعية التالية :

- المفاضلة بين المتقدمين للوظيفة وجعلها من نصيب المقتدر والمؤهل لأدائها لقوله تعالى:{إن الله يأمركم أن تؤذوا الأمانات إلى أهلها} النساء 58
- معيار القوة والأمانة :بحيث يتجلى من يتقدم لطلب الوظيفة بالأمانة والقدرة لقوله تعالى:{إن خير من استئجرت القوي الأمين } القصص26 [9]

- يجب كذلك المتقدم بطلب العمل أن يتحلى بنقاء الذمة وطهارة اليد، والتنزه عن استغلال المنصب في الابتزاز ،سواء بالرشوة أو باستغلال النفوذ للكسب الخاص[10] وبناء على هذه المعايير في اختيار الأفراد من طرف الإدارة الإسلامية فذلك لأن النبي {ص }يعتمد على الاعتبارات الموضوعية في اختياره للأمراء كالكفاءة والجدارة، والقدرة والصرامة، ولا يتأثر بالاعتبارات الشخصية، فالإدارة الإسلامية عملت على الاستفادة من جميع الطاقات البشرية المتاحة، فقد ولى الرسول {ص } خالد بن الوليد لقيادة الجيوش،كما أنه كلف معاوية بكتابة الوحي[11].

وبهذا فقد كان للحضارات القديمة دورًا كبيرًا في إرساء قواعد أساسية في الفكر الإداري ولكن من دون تشكيل علم للإدارة قائم بذاته ،وبتطور الفكر الإداري والتنظيمي، فقد ظهرت العديد من الاتجاهات الفكرية التي مهدت لظهور الإدارة وفق التأصيل النظري والعلمي على يد ثلة من الباحثين الذين حاولوا تقديم رؤى وفهومات تتسم بالواقعية، وتقترب أكثر من فهم الإدارة بكل دلالاتها وأبعادها وبالتالي وضعها على حكة البحث الميداني والأكاديمي.

ثالثا- النظريات المفسرة للاختيار المهني في الفكر الإداري:

1-3 الفكر الإداري الكلاسيكي:

ظهرت الإتجاهات الإدارية الكلاسيكية في، نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في أمريكا وأوروبا وتتفق هذه النظريات في كونها تنظر للمؤسسة على أنها نظام مغلق؛ ومن بين هذه النظريات نجد نظرية الإدارة العلمية بقيادة فريد ربك ونسلو تايلور (1856-1915) الذي أكد على تحديد الأساليب العلمية للاختيار العلمي للأفراد داخل المؤسسة[12] لأنه يرى أن تحقيق الفعالية مرهون بمدى تطبيق مبدأ وضع العامل المناسب في المكان المناسب [13] وخاصة عند إجراء تجاربه حيث ركز تايلور في نظريته هذه على مسألة الاختيار من الجانب الفزيولوجي للعامل أكثر من الجانب النفسو-اجتماعي بحيث يرى أنه لكي يستطيع العامل رفع قطعة كبيرة من الحديد، يجب أن يكون باردًا وغبيًا ويماثل الثور في تكوينه العقلي[14] وفي المقابل نجده كذلك يحدد بعض المعايير العلمية أكثر لأن وظيفة إدارة الأفراد في ظل سيادة الإدارة العلمية تقوم بإجراء الاختبارات، كاختبار الذكاء، ..إلخ، وتحديد المعايير الواجب توافرها في اختيار الأفراد [15] حتى يتوافقون مع الأعمال التي يقومون بها فتايلور يؤكد على عدم تعيين فرد نشيط وذكي في أداء عمل دون مستواه ونشاطه الجسمي والذهني[16].

وفي نفس السياق فقد أكدت **النظرية البيروقراطية** للعالم الألماني **ماكس فيبر** على ضرورة التركيز على تلك الخصائص المتعلقة بأساليب اختيار العنصر البشري داخل التنظيم البيروقراطي بحيث يتم اختيار الأفراد للوظائف (الأعمال) التي يشغلونها بناء على درجة التخصص في هذه الوظائف إضافة إلى ضرورة احتكام قرارات اختيار الأفراد وترقيتهم لمعايير موضوعية ؛كالكفاءة والتأهيل العلمي بعيدا عن الاعتبارات الشخصية[17] وإلى جانبه فقد أكدّ **هنري فايول** صاحب نظرية التكوين الإداري على تحديد بعض المعايير الواجب توافرها في المديرين كونه لم يبدأ حياته عاملا وإنما شغل منصب مدير لإحدى الشركات

الفرنسية، ويمكن تحديد هذه المعايير كما أشار إليها في: المعايير الجسمية والعقلية، صفات خلقية ،وتربوية، صفات فنية، والخبرة[18] وقد حدد فايول هذه المواصفات فيمن تتم اختياره بناءً على متطلبات الوظائف الإدارية التي صنفها إلى: وظائف فنية ،تجارية ،مالية ،صيانة ،محاسبة ،ووظائف إدارية، ورأى أن هذه الوظائف تتطلّب وجود طاقة فكرية إدارية مؤهلة لإدارتها بفعالية، تأخذ بالضرورة وضع معايير ومقاييس علمية في اختيار المسؤولين داخل الادارة[19].

2-3 الفكر الإداري الحديث:

تُطلعنا الأدبيات السوسيو-تنظيمية؛ بأن ظهور هذه النظريات التي تمخضت أفكارها عن أفكار النظريات الكلاسيكية كان في الثلاثينيات من القرن المنصرم، وكان اهتمامها منصبا على أهمية العنصر البشري في العلمية الإدارية والإنتاجية كما تغيرت نظرتها للتنظيم باعتباره نسقا مغلقا ،محاولة إدخال متغيرات تنظيمية تتفاعل معه باعتباره نسقا مفتوحا كتأثير البيئة الخارجية وما تشتمل عليه من أنساق مختلفة.

وضمن هذا المنظور؛ فقد ظهرت نظريات معاصرة في الفكر الإداري ومنها ،**نظرية النظم** والتي تعتبر المنظمة كنظام اجتماعي، مكون من أجزاء مستقلة ولكنها في نفس الوقت مترابطة وتعمل مع بعضها البعض حيث يتم استيراد المدخلات من البيئة ثم تحويلها الى مخرجات عن طريق العمليات أو الأنشطة وعليه فإن نظرية النظم في المؤسسة تتكون من أربعة أجزاء رئيسية وهي : المدخلات ،عمليات التحويل،المخرجات ، التغذية العكسية[20]

و بالتالي ، فإن المنظمة تقوم بعملية الإختيار المهني وفق الإستراتيجية النظمية التالية:

المدخلات: وما توفره من موارد بشرية مستقطبة ووفيرة بالنوعية المطلوبة، معايير وخصائص محددة لاختيار الأفراد، قوانين ...الخ.

العمليات: بعد استقطاب هذه الموارد يتم إخضاعها إلى بعض الإجراءات العملية ؛والمتمثلة في القيام بالإختبارات ،المقابلات ،الفحوص الطبية...الخ .

المخرجات: المتمثلة في توفير الموارد البشرية الصالحة للتعيين في الأماكن المناسبة وبالتالي زيادة الفعالية التنظيمية[21] ولأن التوجه الحديث للفكر الاداري ،يوجه كامل اهتماماته للعنصر البشري، فقد ظهرت

النظرية اليابانية

بزعامة **وليام أُوشي** ،حيث أدرك اليابانيون أهمية العنصر البشري المؤهل والمتعلم ،ومساهمته في توفير موارد إنتاجية عالية والتزاما بهذه الإستراتيجية فقد اتبعت ؛ الإدارة اليابانية سياسات عديدة وخاصة ضمان الوظيفة للموظف مدى الحياة؛ وذلك من خلال اعتماد الأُسلوب العلمي في اختيار وتعيين الأفراد المؤهلين من المترشحين ويتوقف مستقبل هؤلاء العاملين تبعا لأدائهم كما تعزز وتكمل هذه السياسة الموضوعية في اختيار العاملين ، سياسة التدريب المستمر عن طريق تشجيع البحث والقيام بالحصص الدراسة المسائية ...الخ[22] كما تدعم كذلك هذه السياسة في التوظيف أنه بمجرد اختيار وتعيين الفرد

الجديد في المؤسسة فإنه يبقى في وظيفته حتى بلوغه سن55 سنة[23] وغالبا ما يتم اختيار الأفراد في المنظمات اليابانية من خريجي الجامعات لأنها تتبع مبدأ الإستثمار في التعليم والبحث العلمي وتوجيه نتائجه لفائدة حل المشكلات الصناعية التي تواجه المؤسسات اليابانية بحيث 90% من بحوث الماجستير بالجامعة اليابانية توجه لهذا الغرض[24].

وفي نفس السياق فقد أكد صاحب **نظرية الإدارة بالأهداف** عالم الإدارة الشهير **بيتر دركر Peter Drucker** ،على أهمية علمية اختيار الأفراد حيث يرى دركر أن هذه العملية تشكل جزءا من إستراتيجية المؤسسة المستقبلية ،واعتبر أن الإختيار السليم للأفراد هو بمثابة العمود الفقري للمؤسسات ؛ لذلك نجده يؤكد أن المورد البشري المؤهل والكفئ يستطيع تحقيق أهداف المؤسسة على اعتبار هذه النظرية تنظر لنجاح المنظمة بمدى تحقيق أهدافها ،وبالتالي فإن دركر يرى عملية الاختيار المهني السليم هو الركيزة الأساسية لتنمية وتطوير المورد البشري ،وبالتالي إمكانية تحقيق الأهداف[25]

رابعـــا- تجلّيـــات إستراتيجية الاختيار المهني بالمنظمة :

4-1: المصادر المعتمدة في الاختيار المهني:

بقراءتنا المتواضعة لمختلف الأدبيات المجمّعة حول موضوع الاختيار المهني، وبخاصة منها تلك التي عالجت مصادر اختيار الأفراد ؛ وجدنا أنها تحصر هذه المصادر في مصدرين رئيسين وهما: المصادر الداخلية والتي تكون بهدف تغيير المصالح أو الرتب المهنية، والمصادر الخارجية التي تتم عن طريق جذب المترشحين وفرزهم و إخضاعهم لمختلف الإجراءات المعمول بها في التوظيف؛كالمقابلات، الاختبارات ...الخ[26]

1- المصادر الداخلية: وتتعلق بإمكانيات وطاقات المنظمة الداخلية، فالعديد من المؤسسات تقوم بعملية الاختيار من مصادرها الداخلية؛ وذلك عن طريق الترقيات والتحويلات (النقل الوظيفي) والاختيار من المصادر الداخلية طريقة تسمح لإدارة الموارد البشرية، بإتاحة الفرصة وإعطاء الأولوية في شغل المناصب لعمال المؤسسة بحيث تقدم هذه الطريقة العديد من الفوائد ومنها؛ السماح للمؤسسة بتخفيف استثماراتها في الأشخاص بهدف عقلنة نفقات التوظيف والتكوين وربح الوقت[27] وبما أن هذا النوع من المصادر ينفّذ عن طريق الترقية والنقل الذي ينتقل به الفرد إلى منصب أعلى فإنه طريقة لزيادة تحفيز واندماج الأفراد[28] في المؤسسة ما يؤدي إلى رفع الروح المعنوية لديهم ويعمل كذلك على:

- توفير قوي بشري تمتلك الخبرات الكافية في العمل وهو ما يؤدي إلى التقليل من تكاليف التدريب
- المحافظة على العناصر البشرية داخل المنظمة من التسرب في حالة ترقيتهم أو نقلهم[29].
- التقليل من تكاليف التشغيل والإدماج .
- يسمح بالحراك المهني الداخلي للمؤسسة والترقية الداخلية
- يعطي الأولوية في التوظيف للعمال الذين يعملون بالمنظمة.[30]

وبالرغم من المزايا العديدة لهذه المصادر الداخلية في اختيار الأفراد إلاّ، أن هناك بعض المخاطر التي تعترضه ولعل أبرزها :

- أن الاختيار على أساس الترقية؛ من الممكن أن يؤدي إلى بروز بوادر الغيرة بين المرؤوسين غير المرقّين مما قد يؤثر ذلك سلبا على الأهداف العامة للمؤسسة.

- يحرم هذا النوع من المصادر المؤسسة من الأفكار الجديدة التي قد تحصل عليها المؤسسة من المصادر الخارجية وهو ما يحدث لها جمودًا ديناميكية في عملها كما يحرمها من الحصول على عمال ذوي القدرات والكفاءات المطلوبة .

2- **المصادر الخارجية:** وتلجأ المؤسسة إلى اختيار الأفراد من المصادر الخارجية، لقناعتها الراسخة بضرورة تفعيل ديناميكية التنظيم، وذلك عن طريق استقطاب قوى بشرية جديدة تمتلك الكفاءة اللازمة لتحقيق القدرة التنافسية في السوق وإدخال آراء وأفكار جديدة تساعد المؤسسة في تغيير سياساتها وتحقيق أهدافها[31] وتحصل المؤسسة على المصادر الخارجية؛ عن طريق اعتمادها على بعض الوسائل الأساسية كالموظفين القدامى، واعلانات عروض العمل، المؤسسات التعليمية، مكاتب التوظيف الخاصة، الجمعيات المهنية، الصحافة المكتوبة، الدوريات المتخصصة، معارض طلب العمل ومواقع البحث عن العمل والتي نجدها متوفرة بكثرة في الوقت الراهن[32]

وبالرغم كذلك مما توفره هذه الطريقة من مزايا فإنها كذلك قد تنجم عنها العديد من المشكلات التنظيمية ومنها:

- انخفاض الروح المعنوية لدى أفراد المؤسسة لعدم اقتناعهم بهذه السياسة في اختيار المرشحين.

- هناك نظرية مريبة إلى الفرد الجديد بالدول النامية بحسب آراء بعض المتخصصين والباحثين؛ لأن الموظف الجديد بهذه الدول ينظر إليه كأنه إنسان غريب يجب عزله وعدم التعاون معه[33]

2-4 المعايير المعتمدة في اختيار الأفراد: تشير معايير الاختيار المهني إلى تلك المواصفات والخصائص التي يجب توافرها في المترشح لشغل الوظيفة، وهذه الخصائص والمعايير تكون مستمدة من تحليل الوظائف بغرض الحصول على مستويات عالية من الأداء والفعالية داخل المؤسسة ومن بين هذه المعايير ما يلي :

- **مستوى التعليم:** تتطلّب كل وظيفة من الوظائف داخل المؤسسة مستوى معين من التأهيل العلمي وإجبارية توفر طالب العمل على شهادة علمية تؤهله لشغل الوظيفة الشاغرة ، ويكون هذا التأهيل العلمي محدد في بطاقات توصيف الوظائف، حيث تقوم المؤسسة بتحديد المستوى لعلمي المطلوب قبل الإعلان عن شغل الوظائف، كما أنها تقوم بتحديد نوعية هذا التأهيل ومجال التخصص وحتى جهة التخرج .

- **الخبرة المهنية** : تفضل الكثير من المؤسسات ورجال الأعمال، اختيار الأفراد الذين لديهم خبرة سابقة تكون متناسبة مع العمل الذي يشغلونه؛كون هذه الخبرة تسهل من ممارسة العمل،كما أنها تعتبر مؤشرا لإمكانية نجاح العامل في عمله واستقراره في وظيفته .

- **الخصائص الشخصية** : وتشير هذه الخصائص الشخصية إلى نمط شخصية الفرد، من حيث حالته الاجتماعية وعلاقتها بالاستقرار النفسي في الوظيفة التي يشغلها، بحيث تقوم بعض المؤسسات بإجراء اختبارات للشخصية وتهتم باختيار الأفراد الذين تتوافر فيهم خصائص شخصية معينة، تتناسب مع طبيعة الوظيفة فالفرد مثلا الذي يوظف في مجال العلاقات العامة يجب أن يكون اجتماعيا ومنبسطا ولا يميل إلى العزلة[34]، وتشتمل كذلك هذه الجوانب الشخصية على الخصائص الانفعالية كالانبساط، والانطواء، الميولات، ومستوى النضج الانفعالي والتفضيلات المهنية.[35].

- **اللياقة البدنية**: ولأن بعض الوظائف يحتاج العمل بها إلى توفر قوة جسمية للمتقدم للعمل، كقوة الذراعين، الطول قوة التحمل ...الخ وذلك بحسب طبيعة العمل[36] فمثلا العمل الصناعي أصبح يتطلّب خصائص فيزيولوجية من أجل إنجازه وتنفيذه؛ بحيث يجب على العامل الذي يشغل وظيفة أن تتوفر فيه مواصفات موافقة لطبيعة المنصب حتى يتمكن من تحمل ظروف منصب عمله كالظروف الفيزيقية المحيطة مثلا[37] ومع التطور السريع الذي مسّ مختلف مناحي المنظمات الحديثة ؛ فقد تغيّرت النظرة الحديثة في اختيار الأفراد وأصبحت المؤسسات تعتمد على معايير أُخرى فنية وأكثر دقة ومنها:

- توافر المهارات الفكرية المطلوبة، القدرة على الابداع ،التميز والابتكار، ضرورة توفر المهارات الإنسانية والتي تشتمل على التعاون، الثقة، الولاء..الخ [38]!ضافة إلى المعايير التالية:

- القدرة على إتقان المهنة من خلال توفر الكفاءات والخبرات والسمات الشخصية

- المعرفة والتكوين الجيد Le savoir

- المعرفة الفعلية Le Savoir –Faire بمعنى القدرة على تطبيق المعرفة النظرية ميدانيا وتقنيا...إلخ[39]

3-4 خطوات عملية الإختيار المهني:

لقد أصبحت المؤسسات في الوقت الراهن تعتمد في اختيارها لأحسن الأفراد، على العديد من الخطوات والمراحل والتي يُعتقد أنها أدق وأكثر فعالية وكفاءة، من الإجراءات الكلاسيكية التي كانت تعتمد على طرق تقليدية كطريقة؛ تحليل الخلق والصور الفوتوغرافية والتي تبقى طرق يشوبها بعض الشكوك لدى الكثير من المتخصصين في مجال الاختيار وعموما يمكن تحديد خطوات الاختيار المهني في المراحل التالية:

1- طلب التوظيف: عقب الإعلان عن المناصب الشاغرة، يتقدم المرشحين الذين تتوفر فيهم الشروط اللازمة، بحيث يقوم هؤلاء بملئ طلبات التوظيف من طرفهم شخصيا، وغالبا ما تتضمن هذه الطلبات بعض البيانات الخاصة بالمتقدمين منها، البيانات الشخصية (الاسم ،الجنس ،السن ،تاريخ ومكان الميلاد...)، الحالة الاجتماعية والصحية، بيانات حول المؤهلات العلمية والخبرات السابقة وبيانات خاصة بعض الجهات التي يمكن الرجوع إليها بهدف الاستفسار عن مدى صحة المعلومات الواردة في طلب الاستخدام.[40].

2- إجراء المقابلة الأولية: وتعتبر مرحلة مفتاحية في خطوات الاختيار المهني، وهي أول مرحلة يلتقي فيها المترشح بالقائم بالمقابلة بطريقة مباشرة، ويمكنه كذلك مقابلة العديد من الأفراد، وهذه المقابلة تكون

مُحضّـرة مـن قبـل القـائم بالمقابلـة مُسـبقًا، حتى تكـون فعالـة أكثر[41] وتعتبر المقابلـة الأوليـة تقنيـة استكشـافية Technique Exploratoir وذلك لأنها أداة فـرز المرشحين في بداية مراحل استقبالهم ، ويستلزم هذا وقت طويل وكلفة كبيرة؛ لأن هذه العملية تحتاج إلى الانضباط وخاصة في تلقي طلبات المترشحين واحتواءها على أمور مشكوكة وخاصة السير الذاتية(CV) [42] والهدف من إجراء هذه المقابلة هو؛ أخذ صورة أولية عن المتقدمين من ناحية المظهر، والسلوك، طريقة الكلام، اللباس..إلخ .

3- الاختبارات: تعتمد معظم المؤسسات حاليا على آلية إجراء الاختيارات؛ هذه الأخيرة التي تلعب دورًا هامًا في التنبـؤ بـأداء الفـرد في الوظيفـة مسـتقبلا، إذا طُبقـت بطريقـة موضـوعية ومـا يلاحـظ في تطبيـق هـذه الاختيارات؛ أنها لا تماثل الاختيار المثالي؛ **لأن عملية الاختيار المهني ليست علوم دقيقة** فالمؤسسات تسعى جاهدة لتجرّب بانتظام البحث عن الطريقة المثالية (المناسبة) ؛ والتي تسمح لها بتفادي جميع الأخطاء المحتملة،كما أن هذه المؤسسات لديها عديد الطرق في الاختيار ومنها؛ الاختبارات ولكي يتم تغطية وتنفيذ هذه الاختبارات بموضوعية، يجب أن يتم ذلك وفقا لأخلاقيات التوظيف حيث يتم إبلاغ المرشح بمكان إجراء هذه الاختبارات عن طريق إرسال معلومات إليه بهدف مساعدته ودعمه[43] ،وتوجد الكثير من أنواع هـذه الاختبـارات كاختبـارات الشخصـية، الأداء، القـدرات والاسـتعدادات، الرغبـة الاختبـارات السـيكو-تقنية..الخ .

4- المقابلة: بعد النجاح في اجتياز الاختبارات يخضع المرشحون إلى إجراء المقابلات، وهي عبارة عن حوار يجري بين المقابلون والمرشحون بحيث تهدف المقابلات إلى اختيار الأشخاص المناسبين مع الوظائف التي يشـغلونها[44] وتسـتخدم هـذه المقابلـة هنـا كتقنيـة عميقـة Technique d'approfondissement وليسـت كتقنية استكشافية كالمقابلة الأولية فبعد النجاح في الاختبارات وفرز المرشحين الذين تتوفر فيهم المعايير الموضوعية لتستغل المنصب يقومون بهذه المقابلة والتي تعتبر الأكثر عقلانية وتأثيرا وفعالية لأنها تسمح بمقابلة عدد قليل من المرشحين وتكون متقصيه ومركّزة[45]

5 - إجراء الفحص الطبي: تقوم الكثير من المؤسسات بطلب إجراء الفحص الطبي قبل تعيين أي موظف جديد وذلك بهدف التأكد من قدرته الصحية والجسمانية لأداء الوظيفة الموجه إليها ونتيجة للتكلفة الكبيرة التي تتكبدها المؤسسة أثناء إجراء هذا الفحص الطبي؛ فقد أصبحت تُتيح بعض المؤسسات أسلوب بديل؛ وهو الرجوع إلى طلبات التوظيف التي تملأ من قبل المتقدمين في المرحلة الأولى وفي حالة عدم ظهور أو الإشارة لأي مشاكل صحية، فإنه لا يطلب من المتقدم إجراء الفحص الطبي[46]

6- اتخاذ قرار التعيين :وهي بمثابة المرحلة الأخيرة في الاختيار المهني ويتم فيها تثبيت المرشحين الذين اجتازوا المراحل السابقة بنجاح ، فبعد ثبوت قدرتهم على أداء العمل داخل المؤسسة تقوم إدارة الموارد البشرية بإعداد قرار التثبيت في الوظيفة والاتصال مباشرة بالجهة المختصة للموافقة عليه[47] وغالبا ما تكون هذه المرحلة أقل تجهيزا وتقنية من المراحل السابقة، وتصدق مباشرة إلى اختيار بصفة قطعية بين فردين أو أكثر لذلك قد تكون هذه المرحلة غير موضوعية ويغلب عليها الطابع الشخصي[48]

خامســا: البعد المعاصر للاختيار المهني :

1-5 الاختيار المهني كبعد أساسي في تشكيل ثقافة المؤسسة: تعتبر عملية اختيار الأفراد كخطوة رئيسية في تشكيل الثقافة التنظيمية؛ ذلك وأنه من خلال قيام المؤسسة بعملية الاختيار ،يتم التعرف على الأفراد الذين ترى المؤسسة أنهم يمتلكون بعض المواصفات والأنماط السلوكية ،والخلفيات الثقافية والاستعدادات والتوجيهات المناسبة لها فعملية التعيين تعني في نهاية الأمر اختيار الأفراد الذين تتفق قيمهم مع قيم المؤسسة، وبإمكانهم الامتناع عن التعيين إذا لم تكن المؤسسة متفقة مع قيمهم وأهدافهم، وتوجد العديد من الأمثلة الواقعية لتأكيد هذه الحقيقة فمثلا العمل في البنوك التي تتعامل بالفائدة البنكية، فنجد بعض المرشحين للتعيين يتخذون قرارهم الشخصي بالعمل أو عدم العمل في مثل هذه البنوك حسب درجة التوافق أو التعارض بين القيم التي يؤمنون بها وبين القيم والثقافة السائدة في هذه البنوك؛ وبالتالي تكمن هنا أهمية وجود التوافق بين منظومة القيم لدى المرشحين للوظائف (التعيين)، ولدى البنوك المختلفة ومختلف الزبائن المحتملين ولهذا السبب أنشأت حاليا ما يُعرف بالبنوك الإسلامية على اعتبار أنها لا تتعامل بالفائدة، ما جلب هذا النوع من البنوك قطاعا خاصا من الموظفين والعملاء الذين وجدوا فيها، مكانا مناسبا وموافقا لهم ولقيمتهم، وبالتالي فهؤلاء بما يحملونه من قيم ومعتقدات يمكنهم تشكيل ثقافة تنظيمية خاصة بهذه البنوك.

وضمن هذا المنظور؛ تعتبر عملية الاختيار المهني كأحد الأبعاد الأساسية في تشكيل ثقافة المؤسسة ويتجلى هذا أكثر في الفترة التجريبية التي تحرص مختلف المؤسسات على وضع موظفيها الجدد ،تحت فترة تجربة مدتها بين ثلاثة أشهر إلى سنتين الشيء؛ الذي يسمح لها بالتعرف على الأفراد الذين يمتلكون قدرات ومهارات وقادرين على التكيف مع القيم الثقافية السائدة، وبالتالي، إمكانية تشكيلهم لثقافة فعالة أكثر تنسجم مع الأهداف المسطّرة للمؤسسة[49]

2-5 البعد المعاصر لإدارة الموارد البشرية في اختيار الأفراد :

منذ العقدين الأخيرين من القرن المنصرم فقد واجهت العالم تحديات عميقة وتغيرات جوهرية يكون فيها للمعرفة والمعلومات والتطور العلمي الأساس الوحيد في بناء وتطور المجتمعات الإنسانية وقد صاحب هذه التحديات الراهنة ؛ظهور مفاهيم جديدة ومنها : مجتمع المعرفة، اقتصاد المعرفة ،مجتمع المعلومات، اقتصاد المعرفة، مجتمع الشبكات، الثورة التكنولوجية الثالثة، التنمية البشرية...الخ[50] وهو ما أدى لإدارة الموارد البشرية، أن تتخذ بعدًا استراتيجيًا معاصرًا في التعامل مع هذه التحديات، والتي فرضت عليها نوعا من المرونة والتأقلم وخاصة إعادة النظر في بعض الوظائف الحساسة الملقاة على عاتقها؛ وهي تلك المتعلقة بعملية اختيار الأفراد بالمنظمة لشغل المناصب الشاغرة، ومحاولة إغناء وتكييف هذه السياسة في اختيار الأفراد مع ما تفرضه هذه التحديات العالمية.

ووفق هذا المنظور؛ فإن الفلسفة الجديدة لإدارة الموارد البشرية وفق البعد المعاصر، فإنها لا تختار الفرد لشغل وظيفة محددة وإنما يكون تعيينه مرهون، بما يمتلك من قدرات ومهارات مختلفة تؤهله

للعمل في أكثر من منصب واحد ففي اليابان مثلا؛ تتم التعيينات من حديثي التخرج ولمرة واحدة في السنة ،وأن هذا الأسلوب **Once–A-Yearhiring** يمكن تطبيقه؛ لأن التعيينات الجديدة في اليابان غير مرتبطة بوظيفة محددة وإنما هي مرتبطة بالعامل وقدراته ومهاراته، وبالتالي وجب عليها توسيع مصادر الاختيار، وأن تقوم بتحديد احتياجاتها من المهارات المطلوبة بشكل دقيق، كما أن تتوافق المهارات والقدرات التي يمتلكها الأفراد مع متطلبات الوظائف التي يوجهون اليها، وبالتالي تستطيع أن تخفض دورة التعيين إلى يوم واحد[51]، ونظرا لفاعلية هذا الأسلوب في اختيار الأفراد الذي يقوم على مبدأ العمل في أكثر من وظيفة واحدة فقط، أصبح التوجه الحديث لإدارة الموارد البشرية هو كيف تستطيع المنظمة المعاصرة اختيار أفراد يمتلكون معايير متنوعة وعريضة؛ وذلك يحتاج إلى تبنّي إجراءات عملية ودقيقة، تتبعها المنظمات في اختيار الكوادر البشرية المناسبة لشغل الوظائف وفق البعد معاصر؛ ومن بين هذه الإجراءات:

- **كسر المبدأ الفايولي القائل "بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب"** فقد أدى البعد المعاصر لممارسات إدارةالموارد البشرية إلى عدم الايمان بهذا المبدأ في الاختيار الذي ينسب إلى عالم الإدارة الشهير **هنري فايول** واتجهت إلى اختيار الأفراد عن طريق إرساء معايير وشروط متنوعة وعديدة، من الواجب توافرها في من يتم اختياره وأن يكون قادرا على العمل في وظائف عديدة، فنمط العمل في المؤسسة المعاصرة اليوم؛ يقوم على عمل الفريق، وهوما يتطلب من الفرد ممارسة وظائف عديدة وبالتالي وجب توفره على خصائص ومعايير متنوعة[52]

- **آلية التوظيف الالكتروني**: أصبحت كذلك الفلسفة الحديثة لإدارة الموارد البشرية تعتمد على آلية التوظيف الإلكتروني، وذلك بهدف مواكبة التطورات المتلاحقة، وبالتالي عملت هذه الشركات والمؤسسات على تغيير طريقة اختيار الأفراد وتعيينهم بشكل سريع يقوم على شبكات الانترنت، ويعتمد هذا التوظيف الإلكتروني على جملة من الإجراءات ومنها:

- الاعلان عن الوظائف الشاغرة عن طريق شبكة الانترنت

- توفير آليات البحث ومراسلة المرشحين عبر البريد الالكتروني.

- توفير روابط لأصحاب العمل السابقين والمؤسسات التعليمية؛ وذلك من خلال روابط المواقع والبريد الالكتروني الخاصة بهم.

- **إجراء اختبارات على الانترنت**: وذلك حتى يتسنى لإدارة الموارد البشرية، اختيار الأفراد تتوفر فيهم المواصفات اللازمة، وخاصة تلك الاختبارات المتعلقة بالقياسات النفسية على الانترنت في وقت قصير؛ مما يخفض من نفقات التوظيف، فقد طبقت في هذا الشأن الحكومة الكندية هذا النوع من الاختبارات، والذي ترتب عليه انخفاض في نفقات عملية التوظيف بنسبة زادت عن 50%[53].

- **الاعتماد على آلية سكانير المهارات**: بحيث أصبح الاختيار الحديث يتمثل؛ في تحديد معايير الاختيار المهني بناءا على سكانير المهارات، وهو عبارة عن وثيقة أو بطاقة التوظيف، والتي تحتوي على مجموع المعلومات التي تكون عادة عبارة عن مهارات افتراضية، والتي تسعى المؤسسة للحصول عليها في المترشحين [54].

- **اختيار أفراد قادرين الإبداع**: إن "البعد" أو التوجه الحديث لإدارة الموارد البشرية في اختيار الأفراد يشجع على انتقاء أفراد يتوفرون على عديد المهارات والأفكار ويتّصفون بالمرونة، وبالتالي فإن المؤسسات الحديثة تقوم بهذه الممارسات لتشجيع وتطوير الإبداع وفي هذا الصدد ينصحSheley ، بضرورة تركيز مقابلات التوظيف في المؤسسة على جوانب السلوك الإبداعية للمتقدم للعمل وضرورة توجه لجان لفحص المهارات وانتقاء الموظفين بناء على الخبرات الإبداعية للفرد[55].

- **اعتماد الشروط الموضوعية**: لقد رأى التوجه الحديث لإدارة الموارد البشرية في ظل المتغيرات العالمية، أن تعمل على وضع أسس وشروط موضوعية في اختيار الأفراد كالخبرة والكفاءة والقدرة على إدارة وتسيير الأفراد [56]، وتزايد هذا الاهتمام أكثر بمدى اعتماد الشروط الموضوعية في اختيار الأفراد خاصة على دخول اقتصاد المعرفة L'économie de savoir، مما أدى إلى ضبط معايير أكثر موضوعية، تناسب هذا التوجه الحديث وخاصة لدى خريجي الجامعات كالقدرة على التفكير الإبداعي، الإلمام باللغة الانجليزية، القدرة على العمل ضمن فريق. [57]

خلاصة: بناءا على الجوانب المعرفية والمراكمات النظرية التي حاولنا الإحاطة، بها حول موضوع الاختيار المهني، يتّضح لنا أن إستراتيجية اختيار الأفراد شكّلت المحور الأساسي لنشاط أي مؤسسة، تسعى لتحقيق أهدافها و زيادة فعاليتها خاصة وأن سياسة الاختيار المهني في الوقت الراهن؛ أصبحت تُشكّل بُعدا أساسيًا من ثقافة المؤسسة المعاصرة وخطتها الإستراتيجية؛ فضلا عن أن الإجراءات المعاصرة في اختيار الأفراد أصبحت تستند إلى مقولات حديثة تأخذ بعين الاعتبار المؤهلات العالية، والكفاءات والخبرات اللازمة التي يمتلكها الأفراد والتي تسمح لهم بالعمل، في أكثر من منصب واحد وهذا تماشيا مع التحديات الراهنة التي شهدها العالم.

الهوامش:

1. يوسف حجيم الطائي ومؤيد عبد الحسني الفضل: إدارة الموارد البشرية، مدخل استراتيجي متكامل، الوراق للنشر والتوزيع،ط1، 2006، ص 203.
2. أحمد صقر عاشور: إدارة الموارد البشرية، الدار الجامعية الاسكندرية.(ب ط)، 1997، ص 170.
3. محمود السيد أبو النيل: علم النفس الصناعي والتنظيمي، دار الفكر العربي، ط1، 2005، ص 87.
4. علي فلاح الزغبي، عبد الوهاب بن بريكة: مبادئ الادارة (الأصول والأساليب العلمية)، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2013، ص 107.
5. بغلول زهير: الوجيز في الفكر الاداري، مخبر التطبيقات النفسية والتربوية، جامعة منتوري قسنطينة، نوفمبر 2011، ص 40
6. بغلول زهير:المرجع نفسه، ص 39.
7. كامل محمد المغربي: الإدارة أصالة المبادئ ووظائف المنشأة مع حداثة وتحديات القرن الحادي والعشرين، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، ط1، 2007، ص92.

8. علي عبد الواحد وافي: المدينة الفاضلة للفارابي، نهضة مصر للطباعة للنشر والتوزيع، مصر (ب س ن)، ص ص 30-32.

9. فهمي خليفة الفهداوي: الإدارة في الاسلام (المنهجية والتطبيق والقواعد)، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط3، 2014، ص ص 82-83.

10. عبد السميع سالم الهراوي : لغة الإدارة العامة في صدر الاسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986، ص273.

11. منصور رحماني: الاعجاز في حياة البني عليه السلام، مجلة البحوث والدراسات الانسانية، منشورات جامعة 20أوت 1955، سكيكدة ،دار الهدى للنشر والتوزيع، عدد 01 سبتمبر 2007، ص 336.

12. عبد السلام أبو قحف: أساسيات التنظيم والادارة، الدار الجامعية الاسكندرية، 2005، ص39.

13. أسامة خيري: الإدارة العامة، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2013، ص 50.

14. سعد عيد مرسي بدر: الإيديولوجية و نظرية التنظيم، مدخل نقدي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2006ن ص 126

15. معاد مصطفى فراج: أساسيات الإدراة بين النظرية والتطبيق، زمزم للنشر، عمان، ط1ن 2014، ص ص 216-217.

16. رتيمي الفوضيل: المنظمة الصناعية بني النشئة و العقلانية، (الدراسة النظرية)، ط1، 2009، ص 151.

17. محمد قاسم القريوتي: مبادئ الادراة(النظريات، العمليات، والوظائف)، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط3، 2006، ص ص 60-61.

18. جميل احمد توفيق: ادارة الاعمال(مدخل تطبيقي)، دارالنهضة العربية للنشر، بيروت، ص 41.

19. ناصر دادي عدون: اقتصاد المؤسسة، دار المحمدية العامة، الجزائر، ط2، ب س ن، ص 112.

20. كامل مجمد المغربي: مرجع سابق، ص 128.

21. عمرو صفي عقيلي: إدارة الموارد البشرية (بعد معاصر)، دار وائل للنشر: عمان، ط2، 2009، ص 310.

22. محمد قاسم القريوتي: مرجع سابق، ص 143.

23. محمد رسلان الجيوسي، جميلة جاد الله: الإدارة علم وتطبيق، دار المسيرة والتوزيع، ط3، 2008، ص 58.

24. عبد العالي دبلة: مدخل إلى التحليل السوسيولوجي، دار الخلدونية، الجزائر، 2011، ص 205.

25. عمرو صفى عقيلي: مرجع سابق، ص ص 315-316.

26. Collection c'est facile : économie de l'enterprise ,Lasary , 2001, p158.

27. Sid Ahmed Benraouane : le Management des ressources humaines, office de la publication universitaire, 4eme édition, Alger, p75.

28. Farid Makhlouf : l'entrepise, organisation et gestion, maison d'edition Eurl bleues int, Algerie 2006,pp105-106.

29. فيصل حسونة: إدارة الموارد البشرية، دار أسامة للنشر والتوزيع عمان، 2011، ص 66.

30. Damiel le rouzic : communication et gestion des ressources humaines ,1er édition .france ,2006, P148

31. علي غربي : تنمية الموارد البشرية ، منشورات جامعة قسنطينة ،دار الهدى للطباعة والنشر ، عين مليلة 2004، ص 53.

32. M.C Belaid : collection gestion , guide pratique pour la gestion des ressources humaines,maison d'édition pour l'enseignement et la formation ,alger ,2009, p28.

33. علي غربي و آخرون : مرجع سابق.ص 98.

34. أحمد ماهر : ادارة الموارد البشرية ،الدار الجامعية للنشر والطباعة ، الاسكندرية ، 1999 ، ص ص 156-158.
35. محمد الصيرفي : الموسوعة العلمية للسلوك التنظيمي (أبعاد السلوك الفردي والتنظيمي ، المكتب الجامعي الحديث ،الإسكندرية ، 2009 ، ص 186.
36. خضير كاظم حمود وياسين كاسب الخرشة : إدارة الموارد البشرية ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان ، ط2 ، 2009 ، ص 112.
37. محمد المهدي بن عيسى : علم اجتماع التنظيم ،من سوسيولوجية العمل الى سوسيولوجية المؤسسة ، مطبعة لميابلاست ،ط1 ،2010 ، ص 145.
38. حضير كاظم حمود : مرجع سابق ، ص 255.
39. Genévrière Madou : le recrutement et la gestion personnel dans les petites entreprise ,édition du pint fleuri, France،2001 ،P29
40. محمد عبد الوهاب ، حسين عشماوي : الإدارة الإستراتيجية في تنمية الموارد البشرية ، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدان ، القاهرة ، ط1 ، 2014 ، ص 151.
41. Faycel Benchemen et géraldine Galindo : Gestion des ressources humaines ,guilino ,èditeur .EJA.Paris,2006 ،P51.
42. Gysabon et jeam marie jivel : l'entretien de rerutement (des outils et des methodes pour mieux recruter) ,ESF,éditeur Paris ،1996.PP.16-18.
43. Odile derenne ,Andrie lucas et autre : le developpement des ressources humaines, Edition ENSP,2002,P175.
44. صباح حميد ، غازي فرحات أبو زيتون : الاتصالات الادارية (رأس ومفاهيم ومراسلات الاعمال)، دار الراية للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1 ، 2007 ، ص 114.
45. Gysabon et jean Marie jivel : OP،cit،P18.
46. رواية حسن : ادارة الموارد البشرية ، رؤية مستقبلية ، الدار الجامعية للنشر والتوزيع ، 2001 ، ص ص ، 149-150.
47. عمرو وصفي عقيلي : مرجع سابق ، ص 349.
48. Loïc cadin et autres : gestion des ressources humaines (pratique et éléments de théorie ،dunode ،paris،1997,P196.
49. محمد قاسم القريوتي : السلوك التنظيمي (دراسة السلوك الانساني الفردي والجماعي في المنظمات المختلفة ، دار الشروق للنشر ، عمان ، ط4 ، 2003 ، ص 164.
50. دبلة عبد العالي: مرجع سابق، ص 197.
51. أشرف عبد الرحمن الشيمي : ادارة الموارد البشرية في عصر المعرفة ، مؤسسة اقرأ للنشر ، القاهرة ، ط1 ،2007 ، ص ص 96-97 .
52. عمر وصفي عقيلي : مرجع سابق ، ص 310.
53. برايان هو بكنز ، جيمس ماركهام ، ترجمة خالد العامري ، الادارة الالكترونية للموارد البشرية ، دار الفاروق للنشر والتوزيع ، القاهرة ،2008 ، ص ص ، 173-176.
54. اسماعيل حجازي ، معاليم سعاد : تسيير الموارد البشرية من خلال المهارات ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2013 ، ص 231.

55. رفعت عبد الحليم الفاعوري : إدارة الإبداع التنظيمي ، منشورات المنظمة العربية للتنمية الإدارية ، القاهرة ، 2005 ، ص 208.

56. محمود يحي سالم : تنمية الموارد البشرية ، المجموعة العربية للتدريب والنشر ، القاهرة ، 2014 ، ص 28.

57. أحمد علي الحاج محمد : اقتصاد المعرفة واتجاهات تطويره ، دار المسيرة للنشر ، عمان ، ط1 ، 2014 ، ص ص ، 124-125.

مواصفات القيادة الاستراتيجية لدى

اطارات مركب تكرير البترول RA1/K (سكيكدة)

كريم أمينة، طالبة دكتوراه علوم، جامعة وهران 2 أحمد بن أحمد

أ.د/غياث بوفلجة، جامعة وهران 2 أحمد بن أحمد

ملخص: تبحث الدراسة الحالية في مدى امتلاك قادة مركب تكرير البترول RA1/K (سكيكدة) لمواصفات القيادة الاستراتيجية التالية : فلسفة استراتيجية في العمل - القدرة على التفكير الاستراتيجي - الرؤية الاستراتيجية في العمل - مهارة اتخاذ القرار الاستراتيجي وذلك من خلال المنهج الوصفي التحليلي على عينة قدرها 168 اطار (عليا- وسطى- تنفيذية) استعمل الاستبيان كأداة جمع البيانات التي تم تفريغها بواسطة الحزمة الاحصائية للعلوم الاجتماعية SPSS وتمثلت النتائج في تحقق الفرضية اذ يتمتع قادة مركب تكرير البترول سكيكدة بسمات القيادة الاستراتيجية التي سبق الاشارة اليها سابقا.

الكلمات المفتاحية : القيادة الاستراتيجية – التفكير الإستراتيجي – الرؤية الاستراتيجية – القرارات الاستراتيجية.

Abstract :
The current study examines the extent to which the leaders of the RA1 / K (Skikda) Oil Refining Company have the following strategic leadership characteristics: strategic business philosophy - strategic thinking ability - strategic vision at work - strategic decision making Through the application of analytical descriptive method, where the questionnaire was used as a tool to collect data that was unloaded by the statistical package of social sciences SPSS The size of the sample was estimated at 168 individuals (upper, middle, and executive) The results were in the realization of the hypotheses as the leaders of the oil refining complex Skikda strategic leadership qualities.
Keywords: strategic leadership - strategic thinking - strategic vision - strategic decisions

تمهيد : يرى عبد الحفيظ مقدم بشان الواقع الحالي للمؤسسة الاقتصادية العمومية انها تعاني العديد من المشكلات التي تعرقل تقدمها وتطورها وتهدد استمرارها ومن اهم هذه المشكلات سوء التسيير الذي نجم عنه تدهور واختلال في القيم التنظيمية الايجابية ،كما ان انظمة التسيير التي سادت مرحلة التوجه الاشتراكي تركت اثرا سلبيا على سلوك تسيير وتنظيم المؤسسة الاقتصادية الجزائرية ،فقد كان التناقض هو السمة المميزة لثقافة التسيير كنتيجة لتعدد الوصايات وتضارب الاوامر وعد وضوح السلطة (1)

وتركز معظم كتب القيادة الحديثة على دور الرؤساء التنفيذيين والموظفين لنجاح اي تنظيم ،ففي اي مؤسسة مهما كان عدد عمالها هناك رئيس واحد .. لكن ماذا عن باقي الموظفين والمسؤولين ؟ فهيمنة شخصية القائد الاعلى وتجميع كل خيوط العمل بيده لا تتيح الفرصة امام تنمية الصف الثاني من القيادات القوية داخل المؤسسة ،خاصة في ظل التحول من الاقتصاد الصناعي الى اقتصاد المعلومات وهو ما يخلق تحديات حقيقية امام مؤسسات العصر الحديث يتطلب تجاوزها ادارة ريادية بكل المقاييس لا يهمها اتخاذ الخطوات الصحيحة فقط بل ان تكون هذه الخطوات مثمرة وتؤدي الى النتائج المطلوبة ذلك ما يعبر عنه بامتلاك الرؤية الاستراتيجية لدى القادة باختلاف مستوياتهم الادارية وتوحيد هذه الرؤية ضمن نطاق سياسة المنظمة واستراتيجيتها وتحليل عوامل البيئة الداخلية والخارجية بما يخدم الاهداف المسطرة على المدى القريب المتوسط والبعيد وهو ما سنتطرق اليه فيما يلي .

1- مشكلة الدراسة : بالنظر لأهمية الدور الذي يلعبه القادة الاستراتيجيين في تطوير المؤسسات الانتاجية الجزائرية ، تجتهد الدراسات الادارية الحديثة حاليا في حث الادارة العليا بالمنظمة على ضرورة التخلص من فكرة المدير التقليدي ،وتبني فكرة المدير الاستراتيجي ،أو بشكل دقيق "القائد الاستراتيجي " (2)

وبالتالي تحديد من هم الاستراتيجيين داخل المنظمة ليس بالأمر الهين وفي ذات الوقت هو امر اساسي ومهم من اجل تفعيل دورهم ودعمهم ،تحقيقا لأهداف المؤسسة وحتى لا نخسرهم لصالح مؤسسات منافسة اخرى ،او ما نراه حاليا من هجرة اكفئ اطاراتنا الى الخارج ونجاحهم في مؤسسات خارجية ،لأننا أحيانا نجسد مقولة **" محاربة الناجح حتى يفشل "** لذلك لابد من معرفة من هم الاستراتيجيين داخل كل مؤسسة وتحديد مواصفاتهم وتنمية قدراتهم المحافظة عليهم وهنا نتساءل هل يمتلك القادة في مؤسسة بحجم سوناطراك مواصفات القيادة الاستراتيجية ؟ بمعنى اخر :

- هل لدى الاطارات العليا بمركب تكرير البترول RA1/K سوناطراك (سكيكدة) سمات القيادة الاستراتيجية ؟

1-1- هل يمتلكون فلسفة استراتيجية في العمل؟

2-1- هل يمتلكون القدرة على التفكير الاستراتيجي؟

3-1- هل لديهم رؤية استراتيجية في العمل؟

4-1- هل يمتلكون مهارة اتخاذ القرار الاستراتيجي؟

2- فرضيات الدراسة : من بين الاهداف الرئيسية للدراسة هو سعيها الى التحقق من الفرضيات التالية : يمتلك الاطارات العليا مركب تكرير البترول RA1/K سوناطراك (سكيكدة) مواصفات القيادة الاستراتيجية التالية: (1 يمتلكون فلسفة استراتيجية في العمل - 2 يمتلكون القدرة على التفكير الاستراتيجي - 3 لديهم رؤية استراتيجية في العمل - 4 يمتلكون مهارة اتخاذ القرار الاستراتيجي)

3- أهمية الدراسة : نتناول في هذه الدراسة موضوع القيادة الاستراتيجية وهو موضوع على قدر كبير من الأهمية العلمية والعملية وذلك من خلال الطرح الحديث لموضوع القيادة من منظور حديث وفق اخر ما توصلت اليه ادبيات الفكر الاداري في هذا المجال وهو ما نرجو من خلاله تسليط الضوء على اهمية دور القادة الاستراتيجيين وتوضيح دورهم في تطوير الثقافة التنظيمية في المؤسسات الانتاجية حيث انه وبالنظر الى اهمية دور القادة الفاعلين في المؤسسات بالنظر الى تعقد ادوارهم ومهامهم ، وبالموازاة مع ما تعرفه المؤسسات من تغيرات متسارعة الوتيرة بين الأمس واليوم ،وحتى بين البيئة الخارجية والداخلية على حد سواء ،بات من الضروري ايجاد نمط مختلف من القادة القادرين على مواكبة كل هذه التغيرات وقيادة منظمات الأعمال والمؤسسات التي ينتمون اليها لتكون في المقدمة ولتواجه كافة الأخطار المحتملة وفق رؤية ومنهجية متميزة تجعلهم مختلفين عن القادة الاخرين وهو ما تحتاجه مؤسساتنا الانتاجية الجزائرية ،على غرار الدول المتقدمة التي خصصت مراكز متخصصة في تكوين القادة تدفع لها المؤسسات اموال طائلة من اجل تكوين قادتها على اخر تقنيات فن القيادة مازلنا نحن لا نولي أهمية كبيرة للموضوع لذلك جاءت هذه الدراسة من أجل تسليط الضوء أكثر على القيادة الاستراتيجية كبعد حديث من ابعاد القيادة

4- المفاهيم المرتبطة بالقيادة الاستراتيجية :

1.4 - القيـادة : عرفت الادارات التي سادت في ظل الحضارات القديمة كثيرا من المبادئ الادارية فعرفت حكومة الفراعنة مشكلات الافراد وتمكنت الادارة الصينية من وضع الحلول لمشكلات المديرين واهتمت الادارتان اليونانية والرومانية بديمقراطية الادارة وبعض المبادئ الادارية الهامة كدورية الوظائف واللامركزية (3)

وهي في الفكر اليوناني مشتقة من الفعل يبدأ او يقود او يحكم وهو يتفق مع الفعل اللاتيني Agere ومعناه يحرك او يقود فالقائد هو شخص يملك القدرة على التأثير في الاخرين لتحقيق الاهداف المنشودة كما انه ليس كل قائد مدير وليس كل مدير قائد فالقائد يتميز بصفات وخصائص معينة (4)

وهي حسب الفريد وبيتيAlfred&Beatty "القدرة على ضمان الانشطة المرغوبة لمجموعة من المرؤوسين بشكل طوعي دون اكراه وبالنسبة لبرنارد تشستر B.I.Chester تعني السمة التي تميز سلوك الفرد "القائد وبواسطتها يوجه الافراد و انشطتهم وفق الجهود التنظيمية وبالنسبة لتيري Terry فالقائد يعتبر مثال والقدوة للآخرين اما كونتز واودونيل Koontz&O'Donnel فيعرفانها بالقدرة على ممارسة التاثير ما بين الأفراد من خلال وسائل الاتصال من اجل انجاز الاهداف (5)

وهي ايضا الوصول الى الهدف بأحسن الوسائل وبأقل التكاليف وفي حدود الامكانات والتسهيلات المتاحة مع حسن استخدامها(6)

والقيادة كمفهوم تتضمن السيطرة والتوجيه وتعتمد على مبدأ حيازة واستخدام القوة من اجل السيطرة على الاخرين وتوجيههم وهذا ما يسمى بالقيادة المباشرة اما القيادة غير المباشرة فهي من خلال اعجاب المرؤوسين بالقائد وبسلوكه وهي قيادة فكرية او ذهنية من خلال مهارة التأثير في الاخرين (7)

فمفهوم القيادة يرتكز على دعامتين مادية ومعنوية ،**الدعامة المعنوية** : تتمثل في العقيدة والفكر الاداري الذي يؤمن به القائد والتي ترسم له المثل التي يحتذيها وتقوده نحو اهدافه اما **الدعامة المادية** : فهي الادوات التي لابد من توافرها للقائد مثل السلطة الملائمة وشبكة اتصالات فعالة والقوى البشرية اللازمة ... وغيرها (8)

وقد اثار مفهوم القيادة جدلا بين الباحثين والمنشغلين بالفكر الاداري حيث تباينت تبعا لذلك تعريفاتهم لمفهوم القيادة فهناك من يرى انها جزء من الادارة ، وهناك من يعتقد ان الادارة جزء من القيادة ورأي ثالث يقول ان الادارة علم بينما القيادة فن ،فالقادة بحكم موقعهم يجب ان لا ينغمسوا في تفاصيل العمل الروتيني اليومي ويجب ان يكون لهم تطلع استراتيجي شامل وواسع لأنهم بدون ذلك يصبحوا اداريين وتنتفي عنهم صفة القيادة (9)

وتختلف القيادة عن الادارة في كون القيادة تركز على العلاقات الانسانية وتهتم بالمستقبل فتحرص على توضيح الرؤية والتوجهات الاستراتيجية وتمارس اسلوب القدوة والتوجيه ،اما الادارة فهي تركز على الاداء والانجاز في الوقت الحاضر ،فالقيادة بدون ادارة تجعلنا نعيش في عالم التخطيط للمستقبل مع اهمال الانجاز الفوري الذي نحتاج اليه لتحقيق الاهداف المستقبلية ،والإدارة وحدها تجعلنا لا نهتم سوى بانشغالاتنا الانية فنهمل التخطيط للمستقبل (10)

وبالتالي فان القيادة يجب ان نجدها في جميع الوحدات التنظيمية (الاقسام الادارات وحدات العمل فرق العمل) وبر جميع المستويات الادارية (عليا وسطى مستوى اول) للتنظيم وبمعنى اخر القيادة هي وظيفة المديرين في جميع المستويات الادارية (11)

2.4 - الريـادة : استعمل مفهوم الريادة لأول مرة في اللغة الفرنسية في مطلع القرن 16 بمعنى المخاطرة وتحمل الصعاب خلال الحملات العسكرية وفي مطلع القرن 18 بدأ استعمالها في المجال الاقتصادي بمعنى "القدرة على خلق وبناء الاشياء اي انها المبادرة والبناء والعمل لانجاز المشروع " فالقائد الريادي

يتفوق خطوة عن القادة الاخرين فهو يحاول ان يجعل المرؤوسين قادة ولا يكتفي بالأهداف المحددة له بل يخلق لنفسه اهدافا ابتكارية جديدة (12)

كما عرف بيتر دريكر عام 1985 الريادي بأنه الشخص الذي يستطيع أن ينقل المصادر الاقتصادية من إنتاجية منخفضة إلى إنتاجية مرتفعة .أما جيفري تيمنز عام 1994 عرف الريادي (المبادر الفردي) بأنه الشخص المبدع الذي يبني عملا متميزا من لاشيء ،فالريادي هو الذي يتمتع بصفات أخذ المبادرة وتنظيم الآليات والمتطلبات الاقتصادية والاجتماعية وكذلك القبول بالفشل والمخاطرة .ولديه القدرة على طلب الموارد و العاملين والمعدات وباقي الأصول ويجعل منها شيئا ذا قيمة، ويقدم شيئا مبدعا وجديدا ،كذلك يتمتع بالمهارات والخصائص سواء الإدارية والاجتماعية و النفسية التي تمكنه من ذلك. (13)
ويرى مجموعة من الخبراء في جامعة هارفارد ان القادة المؤثرين والرياديين يتميزون عن غيرهم من القادة بامتلاكهم لرؤية واضحة نحو المستقبل يشرحونها لمجموعتهم ويسعون لتحقيقها ،كما انهم يتقنون فن التعامل مع المواقف الغامضة ولديهم استعداد دائم للتصدي للمخاطر وإدارة مستويات التمزق والتشتت والصراع ،لديهم مهارة التواصل الفعال مع فريق العمل ،يتشبثون بأهدافهم مهما كانت العوائق والعقبات ولديهم قدر كافي من الدهاء السياسي لإدارة شؤون العمل ،يحسنون التحكم في اعصابهم ويملكون رباطة الجأش ويتحلون في ذات الوقت بروح الفكاهة والدعابة عندما يسمح الوقت بذلك ويهتمون بالآخرين ولهم القدرة على استشعار احتياجاتهم المهنية (14)

3.4 -الاستراتيجية : يعود مصطلح الاستراتيجية إلى الكلمة اليونانية STRATEGOS والتي تعني فن القيادة العسكرية ومعناها(الجنرال) ،وهي مستمدة من العمليات العسكرية و تعني تكوين التشكيلات وتوزيع الموارد الحربية بصورة معينة وتحريك الوحدات العسكرية لمواجهة العدو أو للخروج من مأزق أو حصار أو للانقضاض على العدو ومباغتته أو لتحسين المواقع أو لانتهاز فرص ضعف العدو اما في مجال الأعمال فالأمر لا يختلف كثيرا فهي تعني " اسلوب التحرك لتحقيق الميزة التنافسية لمواجهة تهديدات أو فرص بيئية والذي يأخذ في الحسبان نقاط الضعف والقوة الداخلية للمشروع سعيا لتحقيق رسالة ورؤية وأهداف المنظمة " وبالتالي فان اي تعريف لمفهوم الاستراتيجية يجب ان يتضمن اربعة ابعاد هي: (15)

1. اسلوب مترابط وموحد وكامل للقرارات.

2. هي وسيلة لتحديد رسالة المنظمة في ظل أهدافها طويلة الاجل .

3. هي وسيلة لتعريف المجال التنافسي للشركة .

4. هي استجابة للفرص والتهديدات الخارجية ونقاط القوة والضعف الداخلية لتحقيق ميزة تنافسية .

ويمكن تعريفها ايضا على انها مجموعة القرارات والتصرفات التي تنشأ عنها صياغة وتنفيذ الخطط التي تحقق أهداف المنظمة وطموحاتها بالشكل المرغوب.(16)

يرى الكبيسي (2006) ان دخول مصطلح الاستراتيجية مع بداية عقد الخمسينيات من القرن العشرين الى الادب الاداري وعالم الاعمال كان يشير في الغالب الى الاهداف الكبيرة التي تسعى المؤسسات الى تحقيقها او الى القرارات الهامة للقيادات العليا خاصة بعد اشتداد التنافس بين المؤسسات للسيطرة على الاسواق (17)

كما يعرف مايك فريدمان وبنيامين تريجو الاستراتيجية بكونها اطار الخيارات التي تحدد طبيعة منشأة ما واتجاهاتها ويؤكدان على ان الاستراتيجية لا تعني كل تخطيط بعيد المدى كما لا يعتبر كل قرار ينطوي على نسبة مخاطرة عاليا قرارا استراتيجيا لذلك فمن المهم عدم الخلط بين الاستراتيجية وباقي العمليات الاخرى(18)

4.4 -التفكير الاستراتيجي : هو محاولة لتوقع ماذا سيكون عليه الواقع الجديد للمنظمة ومستقبلها ، بجميع أبعاده ومعاييره ومتطلباته والسعي للتأثير في متغيراته ، كما انه تفكير يستشرف المستقبل ويحدد اتجاها يقود المنظمة لاستثمار الفرص والمتغيرات المستقبلية ، ويقودها نحو وضع الخطوات المناسبة التي تنقل رؤيتها إلى واقع ويحاول التأثير على مساراتها من اجل ان يتحول ذلك الحلم الى واقع ،اما أبعاد هذا التفكير الاستراتيجي ،فمنذ 1994 م وضع هنري منسبيرج Henry Minzberg مفهوم التفكير الاستراتيجي في إطار أكاديمي واضح وحدد غاياته وأبعاده ووضع حدوده في: (19)

- أنه طريقة خاصة للتفكير ،يهتم بمعالجة البصيرة ،ينجم عنه منظور متكامل للمنظمة من خلال حسن توظيف الحدس والإبداع في رسم التوجهات الإستراتيجية وتقديم أفكار جديدة يصعب على المنافسين تقليدها
- انه يعد مسار فكري وعقلي محدد يقدم صوراً وأفكاراً تتناسب مع الهدف المنشود، و تعمل على تنقية المعلومات الواردة إلى الذهن من الشوائب.
- انه يسبق أي عمل قيادي استراتيجي سواء التخطيط أو الإدارة أو صياغة الإستراتيجية .
- ضرورته للقيادات العليا والدنيا واعتماده منهجاً علمياً لقيادة المؤسسات لأهميته وإيجابياته
- تقويته الولاء والانتماء للمنظمة والرضا الوظيفي بين العاملين وإشاعة ثقافة الحوار والمشاركة والتفاؤل والشفافية بينهم في مناخ ديمقراطي سليم وتوحيد الجهود وتعبئه الطاقات البشرية العاملة في المنظمة

- انه تفكير يستشرف المستقبل ويحدد اتجاهاته ويقود المنظمة لاستغلال الفرص والمتغيرات المستقبلية كما يقودها لاستنباط الاستراتيجيات ورسم الخطوات المناسبة التي تحول رؤيتها إلى واقع.
- اشراك أكبر عدد من الأفراد مع إعطائهم أكبر قدر من الحرية المنظمة في التعبير عن آرائهم وعدم فرض أية قيود على الاقتراحات والأفكار المقدمة ، وتعميقه المسؤولية التضامنية والمشاركة الجماعية في اتخاذ القرارات

5.4 -القيادة الاستراتيجية : ظهر مفهوم القيادة الاستراتيجية Strategic Leadership لأول مرة على يد (Mintzberg,1984) و (kotter,1982) في اشارة الى المدير التنفيذي او رئيس الشركة كما اشار كل من (Nachman & Shrivastava ,1989) الى ان بروز مفهوم القيادة الاستراتيجية تلا مفهوم الادارة الاستراتيجية بعدة سنوات ويتفق (Vera & Crossan, 2004) و (Zoogah,2009) في وجود فرق بين القيادة والقيادة الاستراتيجية فالأولى تتمثل بأي مستوى في المنظمة بينما الثانية تتمثل في مستوى القمة في المنظمة والفرق الثاني ان القيادة تركز على العلاقة بين القادة والمرؤوسين بعكس القيادة الاستراتيجية التي تركز على العمل التنفيذي كنشاط علائقي وكنشاط استراتيجي ايضا ويصفها (Mungonge,2007) بأنها القدرة على التوقع والتصور والحفاظ على المرونة وتمكين الاخرين لإحداث تغيير استراتيجي كضرورة ،ويضيف له (Ireland & Hitt,2005) التفكير الاستراتيجي والعمل مع الاخرين (20) .

وهي حسب هيوز وبيتي(2006) المسؤولة عن نجاح المنظمات او فشلها والقادة الاستراتيجيون هم المسؤولون عن تحقيق التوازن الاستراتيجي بين التطلعات والحاجات وعن التميز والمنافسة وهم الذين يتولون التخطيط والتفكير الاستراتيجي بهدف تطوير المنظمات فالقيادة الاستراتيجية توجد عندما يفكر الافراد ويفعلون ويؤثرون في الاخرين بطرائق تشجع على الميزة التنافسية المستدامة للمنظمة (21)

وتعود نظرية القيادة الاستراتيجية إلى نظرية المستويات الأعلى Upperelations التي طورت من طرف Hambrick & Mason 1984 وتشير نظرية المستوى (الصف) الأعلى إلى أن المنظمة هي انعكاس لإدراك قيم المدراء في المستوى الأعلى ، حيث إن معارف خبرة ،قيم ،وتفضيلات المدير ستؤثر على تقييمه للمحيط واختياراته الاستراتيجية (Boal & Hooijberg) وقد انبثق مصطلح القيادة الاستراتيجية من الإدارة الاستراتيجية ،لأن أهم دور للقائد الاستراتيجي هو صياغة الاستراتيجية(Sosik et al, 2005) وتشير القيادة الاستراتيجية إلى القدرة على التأثير على الآخرين للاتخاذ الطوعي للقرارات اليومية لتحسين الاستقرار طويل المدى للمنظمة ، والمحافظة في الوقت ذاته على الاستقرار المالي قصير المدى(22)
وان كانت القيادة فن ومنهج فالإستراتيجية بالتأكيد هي فن لأنها تتعامل حسب تعريفها مع المستقبل غير المعلوم فاستشراف المستقبل ورسم صورة لاستجابة مؤسستك له لتطلب قدرا عظيما من الابداع ولتنفيذ رؤيتك وربط الاستراتيجية بالعمليات يحسمها فن التفكير الابداعي كذلك (23)

فالقيادة الاستراتيجية هي رؤية وليست برنامج ،وتفكير استراتيجي وليس تخطيطا استراتيجيا او تكتيكيا مهما كان أمده وأفقه ،وهي حدس قيادي وليس معلومات استراتيجية ،وهي ذكاء اعمال وليس ذكاء وظيفة ،وهي اخيرا حس البقاء والنمو بالعلاقة مع المنافسين وليس حس الانظمة والقواعد للتعامل مع المرؤوسين (24) أما بورتر(Porter-1985) فيعرفها بأنها "القدرة على ادارة موارد الشركة البشرية والمادية لتحقيق أهداف الشركة بعيدة الأمد وتحقيق التنافسية الاستراتيجية وكسب عوائد فوق متوسط الصناعة " (25)

5 - منهج الدراسة :

استخدم المنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على دراسة الظاهرة ووصفها والتعبير عنها كميا وكيفيا فالتعبير الكيفي يصف الظاهرة ويوضح خصائصها اما التعبير الكمي فيعطي وصفا رقميا يوضح مقدار هذه الظاهرة او حجمها ودرجات ارتباطها مع الظواهر الأخرى (26)

6 -مجالات الدراسة :

المجال المكاني : مركب تكرير البترول RA1/K : هو عبارة عن احد المؤسسات التحويلية الانتاجية الكبرى التي تملكها الدولة ،يقع هذا المركب ضمن دائرة المنطقة الصناعية "سوناطراك" على بعد 7 كلم شرق ولاية سكيكدة و 2 كلم من البحر يشغل حاليا حوالي 1356 عامل وقد تأسس هذا المركب في سنة 1976 تبعا للعقد الممضي بين الجزائر وشركة "سنام بروجيتي SNAM-PROGETTI " الايطالية في 30 افريل 1974 على مساحة تقدر 256 هكتار حيث دخل حيز الانتاج في مارس 1980 راس مالها حوالي 12 مليار دينار جزائري وتحتل مصفاة سكيكدة المرتبة الأولى افريقيا والثالثة عالميا ،ويضم المركب 12 دائرة و 55 مصلحة و 21 فرع ،يرتكز نشاطه على تكرير النفط الخام الأتي من حاسي مسعود و انتاج البنزين بجميع انواعه ومعالجة النفط لإنتاج الزفت بجميع انواعه والعطور اضافة الى معالجة الخام المحول المستورد لإنتاج الزفت المؤكسد وزفت الطرقات بقدرة انتاجية تصل الى 277 الف طن /سنة

المجال الزمني : انطلقت الدراسة الميدانية الاساسية في مركب **تكرير البترول RA1/K** في الفترة الممتدة من 2017/07/ 09 الى غاية 08/11 / 2017 .

7 - مجتمع الدراسة : يشمل جميع اطارات مركب تكرير البترول RA1/K والمقدر عددهم حسب بيانات مصلحة المستخدمين لسنة 2016 حوالي 339 اطار دائم

8 -عينة الدراسة : شملت الدراسة الأساسية عينة مقدارها 168 اطار اي ما يقارب 50 ٪ من مجتمع الدراسة وهو عدد الاستبيانات الصحيحة المسترجعة .

9 -أسلوب المعاينة : تم اختيار افراد العينة بطريقة عشوائية طبقية حيث نستخدم هذا النوع من العينات عندما يكون هناك تباين (عدم تجانس) واضح في مجتمع الدراسة ،حيث تم الحرص في هذه الدراسة على تمثيل اطارات جميع مصالح المركب في العينة.

10 -أداة الدراسة : استبيان مواصفات القيادة الاستراتيجية لمعرفة مواصفات القيادة الاستراتيجية من وجهة نظر اطارات المؤسسة وهو يشمل 37 فقرة موزعة على اربعة أبعاد أساسية وتتدرج الاجابات على مقياس ليكرت الخماسي

الجدول رقم (01) يوضح ابعاد استبيان مواصفات القيادة الاستراتيجية والفقرات التي تنتمي لكل بعد.

البـــــعد	الفقرات التي تنتمي اليه	
1 . فلسفته في العمل	من 01 الى 09	
2 . القدرة على التفكير الاستراتيجي	1.مدى توافر ابعاد التفكير الاستراتيجي لديه	من 10 الى14
	2.مدى امتلاكه لقدرات التفكير الابداعي	من 15 الى 18
3. امتلاكه للرؤية الاستراتيجية	من 19 الى 28	
4. القدرة على اتخاذ القرار الاستراتيجي	1. المساهمة في صناعة القرار الاستراتيجي	من 29 الى 32
	2.القدرة على توفير مقومات نجاح القرار الاستراتيجي	من 33 الى 37

صدق وثبات الأداة : بعد صدق المحكمين تم دراسة الصدق البنائي للأداة للتعرف على مدى التجانس والاتساق الداخلي لأدوات الدراسة من خلال حساب معاملات الارتباط بين كل فقرة من فقرات الاستبيان والدرجة الكلية للبعد الذي تنتمي اليه وكذلك معاملات الارتباط بين كل بعد من ابعاد الاستبيان والدرجة الكلية للاستبيان كما هو موضح أدناه.

الجدول (02) : معاملات الارتباط بين درجة كل فقرة والدرجة الكلية للمحور (البعد) الذي تنتمي اليه

فلسفته في العمل		القدرة على التفكير الاستراتيجي		مدى امتلاكه للرؤية الاستراتيجية		اتخاذ القرار الاستراتيجي	
رقم الفقرة	معامل لارتباط	رقم الفقرة	معامل الارتبا	رقم الفقرة	معامل الارتباط	رقم الفقرة	معامل الارتباط
الفقرة 01	0.524 **	الفقرة 10	0.692 **	الفقرة 19	0.794 **	الفقرة 29	0.787 **
الفقرة 02	0.716 **	الفقرة 11	0.793 **	الفقرة 20	0.880 **	الفقرة 30	0.755 **
الفقرة 03	0.540 **	الفقرة 12	0.828 **	الفقرة 21	0.861 **	الفقرة 31	0.823 **
الفقرة 04	0.622 **	الفقرة 13	0.804 **	الفقرة 22	0.875 **	الفقرة 32	0.719 **

الفقرة 05	0.745 **	الفقرة 14	0.720 **	الفقرة 23	0.854 **	الفقرة 33	0.738 **
الفقرة 06	0.749 **	الفقرة 15	0.878 **	الفقرة 24	0.802 **	الفقرة 34	0.875 **
الفقرة 07	0.792 **	الفقرة 16	0.861 **	الفقرة 25	0.799 **	الفقرة 35	0.902 **
الفقرة 08	0.726 **	الفقرة 17	0.907 **	الفقرة 26	0.822 **	الفقرة 36	0.895 **
الفقرة 09	0.737 **	الفقرة 18	0.839 **	الفقرة 27	0.802 **	الفقرة 37	0.904 **
				الفقرة 28	0.820 **		

(**) الارتباط دال عند مستوى دلالة 0.01

من خلال الجدول رقم (02) نلاحظ أنه هناك ارتباط بين كل فقرات المحور الأول " فلسفته في العمل " والدرجة الكلية لهذا المحور حيث ان معاملات الارتباط كما هو مبين في الجدول تتراوح ما بين (0.524 و0.792) وهي جميعها دالة احصائيا عند مستوى دلالة (0.01).

- هناك ارتباط بين جميع فقرات المحور الثاني "القدرة على التفكير الإستراتيجي" والدرجة الكلية لهذا المحور حيث ان معاملات الارتباط كما هو موضح في الجدول تتراوح ما بين (0.692 و 0.907) وهي جميعها دالة احصائيا عند مستوى دلالة (0.01)

- هناك ارتباط بين كل فقرات المحور الثالث " مدى امتلاكه للرؤية الاستراتيجية " والدرجة الكلية لهذا المحور حيث ان معاملات الارتباط كما هو مبين في الجدول تتراوح ما بين (0.794 و 0.880) وهي جميعها دالة احصائيا عند مستوى دلالة (0.01).

- هناك ارتباط بين كل فقرات المحور الرابع " اتخاذ القرار الاستراتيجي " والدرجة الكلية لهذا المحور حيث ان معاملات الارتباط كما هو مبين في الجدول تتراوح ما بين (0.719 و 0.904) وهي جميعها دالة احصائيا عند مستوى دلالة (0.01).

-2 الارتباط بين كل محور والدرجة الكلية لاستبيان مواصفات القيادة الاستراتيجية : الجدول رقم (03) يوضح معاملات الارتباط بين الدرجة الكلية لكل محور والدرجة الكلية لاستبيان مواصفات القيادة الاستراتيجية.

المحاور	معاملات الارتباط بيرسون
1- فلسفته في العمل	0.864 **
2- القدرة على التفكير الاستراتيجي	0.880 **
3- مدى امتلاكه للرؤية الاستراتيجية	0.931 **
4- اتخاذ القرار الاستراتيجي	0.890 **

(**) الارتباط دال عند مستوى دلالة 0.01

من خلال الجدول رقم (03) نلاحظ ان كل المحاور الاربعة لاستبيان مواصفات القيادة الاستراتيجية مرتبطة مع الدرجة الكلية للاستبيان اذ تتراوح معاملات ارتباطها كما هو موضح في الجدول ما بين (0.864 و0.931) وهي دالة احصائيا عند مستوى دلالة (0.01) .

ثبات الأداة : حيث اعطى التناسق الداخلي (ألفا كرومباخ) Alfa de crombach قيمة 0.972 أما الثبات بطريقة التجزئة النصفية Splite-half والتي تعني تقسيم كل أداة إلى قسمين فقرات زوجية وفقرات فردية فقد كانت قيمتها 0.825 وبعد معالجتها وفق معادلة سبيرمان براون Spearman-Brown أصبحت قيمته 0.904 وهو يعني مستوى مرتفع من ثبات الأداة

11-الأساليب الاحصائية المستعملة : تم تحليل بيانات هذه الدراسة من خلال الحزمة الاحصائية للعلوم الاجتماعية SPSS في نسخته العشرين وفق الأساليب الإحصائية التالية :

- حساب التكرارات والنسب المئوية للتعرف على خصائص العينة
- المتوسط الحسابي لمعرفة مدى ارتفاع وانخفاض استجابات افراد العينة نحو مختلف مقاييس البحث.
- الانحراف المعياري لحساب درجة تشتت استجابات أفراد العينة في المقاييس المختلفة.
- اختبار" ت t. test "لاختبار دلالة الفروق بين المتوسطات النظرية والمتوسطات الحسابية لمختلف المقاييس .

12 - عرض النتائج : نص الفرضية : " يمتلك القادة بمركب تكرير البترول RA1/K (سكيكدة) مواصفات القيادة الاستراتيجية التالية : فلسفة استراتيجية في العمل - القدرة على التفكير الاستراتيجي - رؤية استراتيجية في العمل - مهارة اتخاذ القرار الاستراتيجي " .

*** المعالجة الاحصائية للفرضيات :** بغية التحقق من صحة هذه الفرضية كان لابد من حساب المتوسطين : النظري وحسابي والمقارنة بينهما ، انطلاقا مما سبق وبعد حساب المتوسطات النظرية والحسابية تحصلنا على النتائج التالية :

الجدول رقم (04) قيم المتوسطات الحسابية والمتوسطات النظرية لاستبيان مواصفات القيادة الاستراتيجية.

البـــــعد		المتوسط الحسابي		المتوسط النظري	
فلسفته في العمل		34.52		27	
القدرة على التفكير الاستراتيجي	a. مدى توافر ابعاد التفكير الاستراتيجي لديه	18.63	34.07	15	27
	b. مدى امتلاكه	15.43		12	

	لقدرات التفكير الابداعي				
امتلاكه للرؤية الاستراتيجية		35.17	30		
4. القدرة على اتخ القرارالاستراتيجي	a. المساهمة في صناعة القرار الاستراتيجي	14.36	33.15	12	27
	b. القدرة على توفير مقومات نجاح القرار الاستراتيجي	18.79		15	
5.الاستبـــيان ككـل		136.91	111		

انطلاقا من الجدول رقم (04) نلاحظ ان المتوسطات الحسابية لكل الابعاد الرئيسية والفرعية لاستبيان مواصفات القيادة الاستراتيجية هي اكبر من المتوسطات النظرية لها ،كما نلاحظ ان المتوسط الحسابي للاستبيان ككل (136.91) اكبر من المتوسط النظري (111) له ،ولمعرفة ان كانت هذه الفروق بين المتوسطات النظرية والحسابية دالة احصائيا ام لا تم حساب قيمة اختبار " ت " لمجموعة واحدة ،لمعرفة دلالة الفروق بين المتوسط النظري لاستبيان مواصفات القيادة الاستراتيجية والمتوسط الحسابي للدرجات التي تحصل عليها افراد العينة في هذا المقياس كما هو موضح في الجدول أدناه .

الجدول رقم (05) يوضح قيم اختبارت لمجموعة واحدة لمعرفة دلالة الفروق بين المتوسطات النظرية والمتوسطات الحسابية لاستبيان مواصفات القيادة الاستراتيجية.

البـــــعد	قيمة ت	الدلالة
1 . فلسفته في العمل	18.78	دال عند مستوى دلالة 0.01
2 . القدرة على التفكيرالاستراتيجي	13.73	دال عند مستوى دلالة 0.01
a.مدى توافر ابعاد التفكير الاستراتيجي لديه	12.31	دال عند مستوى دلالة 0.01
b.مدى امتلاكه لقدرات التفكير الابداعي	13.62	دال عند مستوى دلالة 0.01
3. امتلاكه للرؤية الاستراتيجية	8.78	دال عند مستوى دلالة 0.01
4. القدرة على اتخاذ القرارالاستراتيجي	10.35	دال عند مستوى دلالة 0.01
a. المساهمة في صناعة القرار الاستراتيجي	8.36	دال عند مستوى دلالة 0.01
b.القدرة على توفير مقومات نجاح القرار الاستراتيجي	10.75	دال عند مستوى دلالة 0.01
5.الاستبيـــان ككـــل	13.926	دال عند مستوى دلالة 0.01

من خلال نتائج الجدول رقم (05) نلاحظ ان الفروق بين المتوسطات الحسابية والمتوسطات النظرية دالة عند مستوى دلالة (0.01) لصالح المتوسطات الحسابية ما يعني تحقق الفرضية الأولى والفرضيات الجزئية التابعة لها وعليه يمكننا القول أن القادة بمركب تكرير البترول RA1/K سوناطراك (سكيكدة) يمتلكون مواصفات القيادة الاستراتيجية التالية : يمتلكون فلسفة استراتيجية في العمل - يمتلكون القدرة على التفكير الاستراتيجي (تتوفر فيهم ابعاد التفكير الاستراتيجي وقدرات التفكير الابداعي) - لديهم رؤية استراتيجية في العمل - يمتلكون مهارة اتخاذ القرار الاستراتيجي (يساهمون في صناعة القرار الاستراتيجي ويوفرون مقومات نجاح هذا القرار الاستراتيجي) .

13 - مناقشة النتائج : من خلال مراجعة ما تم عرضه من نتائج نخلص للقول انه لدى الاطارات العليا والقادة في سوناطراك سمات القيادة الاستراتيجية التالية : **فلسفة استراتيجية** في العمل حيث لا تسير الامور عشوائيا وانما وفق فلسفة وتصور شامل منبثق من سياسة المؤسسة وثقافتها التنظيمية هذه الفلسفة الاستراتيجية في العمل يمكن ان ترى ملامحها من خلال مبادئ ديمينغ و ايشيكاوا المعلقة على جدران مكاتبهم وسياسة المنظمة التي تجدها في المداخل والممرات الرئيسية رفقة القانون الداخلي للمؤسسة كل هذه التفاصيل وغيرها تشعرك ان الناس هنا يملكون فلسفة في العمل ومع الحديث معهم لمسنا انهم على قدر كبير من الوعي بالمحيط الداخلي والخارجي للمؤسسة وأنهم فعلا يملكون فلسفة استراتيجية في العمل ،كما أن لديهم **القدرة على التفكير الاستراتيجي** حيث تتوفر فيهم ابعاد التفكير الاستراتيجي وقدرات التفكير الابداعي وذلك من خلال تعاملهم السريع والفعال مع مختلف المشكلات التي تصادفهم نظرا لحساسية القطاع وأهمية استقراره الذي يؤثر على استقرار الدولة ككل وإدراكهم لحجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم وتوجه الأنظار اليهم من قبل الصحافة والجهات الامنية والمدنية والسلطات العليا في الدولة واتخاذ القرارات في مثل هذه الظروف الصعبة والحساسة يتطلب قادة يملكون مهارة التفكير الاستراتيجي المبدع و **مهارة اتخاذ القرار الاستراتيجي** سواءا من حيث المساهمة في صناعة القرار الاستراتيجي ومن حيث توفير مقومات نجاح هذا القرار الاستراتيجي وهو الأمر الذي يعتبر على قدر كبير من الأهمية لأنه لا يكفي أن نعطي قرارات وإنما الأهم هو أن نفعل هذه القرارات وأن لا تظل حبرا على ورق وهذا كله يتطلب **رؤية استراتيجية في العمل** لولاها لفشل الأمر برمته خاصة في ظل المنافسة الشديدة على الاسواق من قبل المؤسسات الأجنبية وتذبذب أسعار المحروقات ما سعى بقادة سوناطراك الى اتخاذ جملة من القرارات والتدابير على المستوى المحلي والدولي وهذا وفق رؤية استراتيجية لواقع الاقتصاد الجزائري ككل والمؤسسة على وجه التحديد كما لا ننسى ما مرت به المؤسسة من أزمات بعد أزمة شكيب خليل وما تم من تطهير وإعادة هيكلة كله تم تحت تصور ورؤية استراتيجية اصلاحية من قبل القادة نترك للمختصين الحكم على مدى نجاحها على المدى المتوسط والبعيد.

ويجدر بالذكر ان دراسة سلمى حتيتة (2012) رحيمة قد بينت ان لمهارات القيادة الاستراتيجية (الرؤية التركيز التنفيذ) للقادة العسكريين في العراق دور في التهيؤ لضغوط العمل كما أشارت دراسة ايثار عبد الهادي الفيحان واحسان دهش جلاب (2006) حول ممارسات القيادة الاستراتيجية وعلاقتها بخدمة الزبون في المصارف الاهلية العراقية الى وجود دور للمدراء والقادة في تحديد المسارات الاستراتيجية للمصارف وان نمط الثقافة التنظيمية المنتشر هو الثقافة الداعمة، واشارت دراسة أقطي جوهرة (2014) لأثر القيادة الاستراتيجية(مرتبطة بـ: الثقافة التنظيمية-براس المال البشري-بالتصور الاستراتيجي بالرقابة المتوازنة) على التشارك في المعرفة في مجموعة من المؤسسات الفندقية الجزائرية حيث توصلت الى ان كل من سلوك واستراتيجية التشارك تفسرها ممارسات القيادة الاستراتيجية كما أن لهذه الاخيرة اثر غير مباشر في كل من سلوك واستراتيجية التشارك في المعرفة من خلال التسويق الداخلي وثقافة التعلم التنظيمي بينما لا يوجد اثر غير مباشر لممارسات القيادة الاستراتيجية في كل من سلوك التشارك في المعرفة واستراتيجيتها من خلال التوجه التسويقي الداخلي

خاتمة : من خلال هذه الدراسة يمكننا القول بامتلاك قادة مركب تكرير البترول RA1/K (سكيكدة) مواصفات القيادة الاستراتيجية التالية : فلسفة استراتيجية في العمل - القدرة على التفكير الاستراتيجي - رؤية استراتيجية في العمل - مهارة اتخاذ القرار الاستراتيجي لكن تضل هذه المواصفات وحدها غير كافية في ظل الكثير من المعوقات التي قد تحد من دورهم في تطوير المؤسسة والارتقاء بها نحو الريادة.

الهوامش:

1.بوخدير (عمار) تجدد الممارسات التسييرية للمديرين وتحول ثقافة التنظيم بمؤسسة إسبات عنابة ،رسالة دكتوراه غير منشورة ،تحت اشراف أ.د لحسن بوعبد الله ،قسم علم النفس تخصص العمل والتنظيم جامعة الاخوة منتوري ،الجزائر 2005

2.الغالبي (طاهر محسن منصور) ادريس (وائل محمد صبحي) الادارة الاستراتيجية منظور منهجي متكامل دار وائل للنشر :عمان 2007

3.كنعان ، (نواف سالم) القيادة الادارية (ط1) ، دار الثقافة للنشر والتوزيع :عمان 2007 ،ص 25.

4.الغزو ،(فاتن عوض) القيادة والاشراف الاداري(ط1) ،دار اسامة للنشر والتوزيع :عمان ، 2010 ،ص10

5.نجم ، (عبود نجم) القيادة الادارية في القرن الواحد والعشرين(ط1) ،دار صفاء للنشر والتوزيع :عمان 2011 ،ص 21-22.

6.قنديل (علاء محمد سيد) القيادة الادارية وادارة الابتكار (ط1)دار الفكر للنشر والتوزيع ،عمان 2011 ص: 18

7.العتيبي (صبحي)تطور الفكر والانشطة الادارية (ط1)دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع ،عمان 2002،ص:140

8.عباس ، (علي) اساسيات علم الادارة ط4 ،عمان : دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة 2009،ص:159

9.كلالدة ،(ظاهر محمود)الاتجاهات الحديثة في القيادة الادارية . دار زهران للنشر والوزيع ،عمان 1997 ص: 27- 28

10. مشهور(ثروت عباس)استراتيجيات التطوير الاداري (ط1) دار اسامة للنشر والتوزيع ،عمان 2009،ص: 134 - 135

11. طه (طارق) السلوك التنظيمي في بيئة العولمة والانترنت ،دار الجامعة الجديدة ،الاسكندرية 2008،ص: 205

12. السكارنة (بلال خلف) وآخرون.التفكير الاداري والاستراتيجي في عالم متغير (ط1) مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع الاردن 2010 ،ص: 162 - 163

13. السكارنة ، (بلال خلف) الريادة و إدارة منظمات الأعمال ط1 ،دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة الأردن 2008،ص:19

14. (مجموعة من المؤلفين) قيادة الافراد ،ترجمة نور الدائم با بكر عبد الله ،مطبوعات كلية هارفارد لإدارة الاعمال ،بوسطن 2011 ،ص : 34-35.

15. ماهر ،(أحمد) الادارة الاستراتيجية الدليل العملي للمديرين ، الدار الجامعية :الاسكندرية 2007 ،ص : 20

16. الكرخي ،(مجيد) التخطيط الاستراتيجي المبني على النتائج ، مطبعة الريان :قطر 2014 ،ص:71

17. الزعبي ،(محمد موسى). دور القيادات الاستراتيجية في تطوير المنظمات الأمنية والمدنية في الجمهورية العربية السورية ،باشراف أ.د محمد سيد حمزاوي ،اطروحة دكتوراه في الفلسفة في العلوم الامنية ، جامعة نايف العربية للعلوم الامنية كلية الدراسات العليا قسم العلوم الادارية 2010 ،ص : 27.

18. فريدمان(مايك) وتريجو (بنيامين. بي) فن ومنهج القيادة الاستراتيجية ، ترجمة عبد الرحمان بن احمد الهيجان المنظمة العربية للتنمية الادارية بحوث ودراسات القاهرة 2006،ص:24

19. الكرخي، مجيد ، مرجع سابق ، ص: 47 - 49

20. حتيتة ،(سلمى) دور مهارات القيادة الاستراتيجية في التهيؤ لضغوط العمل ،مجلة الانبار للعلوم الاقتصادية والادارية ،مجلد 4 العدد 9 ،2012 ص: 251

21. الزعبي ،محمد موسى ،مرجع سابق ،ص: 38

22.أقطي (جوهرة) اثر القيادة الاستراتيجية على التشارك في المعرفة ،اطروحة دكتوراه في علوم التسيير تحت اشراف أ. د يحياوي مفيدة جامعة مخمد خيضر كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير قسم علوم التسيير،بسكرة 2014 ،ص: 19

23.فريدمان مايك و تريجو بنيامين. بي . مرجع سابق ،ص: 301

24.نجم ، عبود نجم ، مرجع سابق ،ص: 130

25.نفس المرجع ،ص: 137

26.عبيدات (ذوقان) البحث العلمي مفهومه وأدواته وأساليبه ، دار الفكر : عمان ، 2006 .

قلق المستقبل وعلاقته بتقدير الذات والدافعية للإنجاز لدى تلاميذ الطور الثانوي

بودربالة شهرزاد ، طالبة دكتوراه علوم ، جامعة وهران2 محمد بن أحمد

أ. د/ منصوري مصطفى، جامعة وهران2 محمد بن أحمد

الملخص :

تهدف هذه الدراسة الى البحث في موضوع قلق المستقبل وعلاقته بتقدير الذات والدافعية للإنجاز لدى فئة التلاميذ المتمدرسين في الطور الثانوي، ولقد شملت عينة الدراسة مجموعة من تلاميذ الطور الثانوي قوامها 310 تلميذ بواقع (192 أنثى، 118 ذكر)، موزعين على مختلف التخصصات والمستويات الدراسية، كما استخدمت مجموعة من الأدوات لجمع البيانات المراد دراستها في هذا البحث وهي مقياس قلق المستقبل لمسعود سناء منير (2006)، ومقياس تقدير الذات لروزنبرغ تعريب علي بوطاق (1960)، ومقياس الدافع للإنجاز لهارمنز تعريب فاروق عبد الفتاح موسى (1981)، كما وتمت المعالجة الإحصائية لبيانات الدراسة التي تم جمعها بالأساليب الإحصائية وهي كالتالي التكرارات والنسب المئوية، معامل الإرتباط بارسون ، وتم التوصل إلى النتائج التالية، وهي وجود نسبة مئوية كبيرة من التلاميذ المتمدرسين في الطور الثانوي يعانون من درجة عالية من قلق المستقبل، كما توجد علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين قلق المستقبل وتقدير الذات لدى عينة الدراسة، ويوجد علاقة إرتباطية دالة إحصائيا بين قلق المستقبل والدافعية للإنجاز لدى تلاميذ الطور الثانوي .

الكلمات المفتاحية : قلق المستقبل، تقدير الذات، الدافعية للإنجاز، تلاميذ الطور الثانوي .

Summary : The aim of this study was to investigate the future concern and its relation to self-esteem and motivatio for achievement among the secondary scool student the study sample included a group of 310 secondary student (192 females-118 males)، and a number of tools were used to collect the data to be studied in this study this is the measure of the future concern of mesaoud sana munir (2006)، and the rosenberg self-esteem (1960)، and the measure of motivation for achievment of harmeans (1981)، the statistical data for the study data collected by the statistcal methods were calculated as follows frequency and percentage persen correlation coefficient the following results were obtaind a large percentage of secondary scool students suffer from a high degree of anxiety of the future there is also a statistically significant correlation between anxiety، and self-esteem in the

study sample there is a statistically significant correlation the anxiety of the future and the motivation for achievement in the secondary stage student.

Key words : future anxiety، self-esteem، motivation for achievement، secondary stage students

المقدمة :

يعتبر الشباب والمراهقون خاصة المتمدرسين منهم الفئة الأكثر إنشغالا بالمستقبل، حيث نجدهم يترقبون المستقبل بتوجس وذلك خوفا منهم من عدم تحقيق طموحاتهم المادية والمعنوية، ويؤكد طلعت منصور (1995) أن أغلب ما يثير القلق لدى المراهقين والشباب هو المستقبل ، بل أن الشاب عندما يشعر بعدم وضوح أو عدم تحديد المستقبل المهنى فإنه يشعر بالإحباط والقلق على ذاته وعلى مستقبله ووجوده . (آرون بيك ، 2000 ، 410)

إذن إن قلق المستقبل يؤثر سلبا على الصحة النفسية لدى المصابين به خاصة إذا تعلق الأمر بفئة الشباب والمراهقين المتمدرسين حيث تنعكس أثار هذا الإضطراب على مردودهم الأكاديمي ومستقبلهم التعليمي ككل، حيث يعتبر التعلم بأطواره المختلفة العامل المؤثر في عملية تكيف الفرد وتفاعله مع البيئة التي يعيش فيها، وذلك من خلال إحساسه بأنه طاقة غير معطلة وأنه عنصر إيجابي في المجتمع، لما يحمله من مؤهل يجعله قادرا على التواصل والتوافق مع الاخرين، ومن الملاحظ أن التلاميذ المتمدرسين يفكرون بشكل كبير في المستقبل ويتخوفون من المستقبل وما يخبأه لهم، وإن التوقعات السلبية الناتجة عن الظروف المحيطة بالتلاميذ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تدهور الظروف السياسية والإنفلات الأمني، وإنتشار ما يسمى بالربيع العربي في رقعة واسعة من الدول العربية، والأزمات إقتصادية الناتجة عنها بعد نزول أسعار النفط الى أدنى مستوياتها وما إنجر عنها من إضطرابات إجتماعية كنقص القدرة الشرائية لدى المواطنين، وإنتشار البطالة بنسب رهيبة ، إنتشار الرشوة وإستعمال النفود لتلبية الحاجات...، وإنتشار الطوائف الدينية الدخيلة على المجتمع والخلافات بين الدعاة حول أمور الدين الإسلامي، التطور التكنولوجي السريع الذي يصعب مسايرته وإنتشار الجريمة الإلكترونية...، كل هذه الظروف وأخرى تؤثر على أذهان ونفسيات، ويمكن لقلق المستقبل الناتج عن هذه الظروف أن يؤثر على الأداء دراسي للتلاميذ بطريقة غير مباشرة وذلك بالتأثير على قدراتهم وإمكانياتهم، كخفض مستوى الدافعية للإنجاز لذى التلاميذ، وسوء تقدير الذات أو ما يسمى بالتقدير السلبي لذات، حيث يعتبر تقدير الذات والدافعية للإنجاز من العوامل الأساسية والضرورية للتعلم والتحصيل الدراسي لدى التلاميذ .

الإشكالية : يتميز العالم المعاصر بتغيرات، وتحولات سريعة وعميقة تشمل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، والثقافية للفرد بالإضافة الى تطور الشبكات الإلكترونية...، انعكست آثارها

على الفرد، حيث تحولت حياته اليومية من حياة بسيطة الى حياة معقدة تضع أمامه تحديات وأهداف يومية متسارع ومتجددة تجعله عرضة لمجموعة من الاضطرابات وذلك من خلال سعيه لمواكبة هذه التطورات، كالضغط النفسي والاكتئاب والتوتر، وخاصة القلق حيث تشير زينب محمد شقير (2005) إلى أن قلق المستقبل يمثل أحد أنواع القلق الأكثر شيوعا والتي يشكل خطورة في حياة الفرد والذي يمثل خوف من مجهول ينجم عن خبرات ماضية وحاضرة يعيشها الفرد . (أحمد عكاشة ، 2005 ، 113)

مما قد يعود بالضرر على صحة الفرد النفسية والسلوكية خاصة إذا تعلق الأمر بفئة المراهقين والشباب المتمدرسين، حيث يأخذ المستقبل حيزا واسعا من تفكيرهم نظرا للظروف المحيطة بهم والتي توحي لهم بكل ما هو غامض ومقلق نظرا لكثرة الأمثلة الفاشلة في المجتمع من خريجي الجامعات والبطالين... مما قد يؤثر سلبا على ذواتهم كالتأثير السلبي على الدافعية للإنجاز لديهم والتي تعتبر تلك القوة التي تدفع الفرد الى المثابرة وبدل الجهد، وتحمل الصعاب، والتغلب على كل ما يصادفه من عقبات في سبيل تحقيق التفوق والإرتقاء، والتأثير السلبي على تقدير الذات لديهم الذي هو عبارة عن فهم إنفعالي للذات ويعبر عن التقييم الإيجابي أو السلبي الذي يضعه الفرد لنفسه، وهذا ما يعود بالسوء على صحتهم النفسية وتحصيلهم الأكاديمي، ولكن يتوقف هذا على درجة القلق وكيفية تعامل المتمدرس معه، حيث أنه وعلى الرغم من التأثيرات السلبية لقلق المستقبل على الفرد إلا أنه يمكن أن يكون له تأثيرات إيجابية حيث يعتبر بمثابة جهاز إنذار ينشط الفرد ويبعثه على بذل الجهد للتوصل الى خفض نتائج التهديد، والوصول الى درجة مناسبة من التكيف وتحقيق كل الأهداف المسطرة مستقبلا على الرغم من وجود العقبات والتحديات، والتحولات الاجتماعية المتسارعة ومن هنا نطرح الإشكالية التالية :

هل يعاني التلاميذ المتمدرسين في الطور الثانوي من قلق المستقبل ؟

التساؤلات الفرعية :

و لقد تفرعت عن هذه الإشكالية التساؤلات التالية :

هل هناك علاقة ارتباطية دالة إحصائيا بين قلق المستقبل وتقدير الذات لدى تلاميذ المرحلة الثانوية ؟

هل هناك علاقة ارتباطية دالة إحصائيا بين قلق المستقبل والدافعية للإنجاز لدى تلاميذ المرحلة الثانوية؟

و للإجابة عن هذه الإشكالية والتساؤلات الفرعية نطرح الفرضيات التالية :

الفرضية العامة: يعاني التلاميذ المتمدرسين الطور الثانوي من قلق المستقبل .

الفرضيات الفرعية :

هناك علاقة ارتباطية دالة إحصائيا بين قلق المستقبل وتقدير الذات لدى تلاميذ الطور الثانوي .

هناك علاقة ارتباطية دالة إحصائيا بين قلق المستقبل والدافعية للإنجاز لدى تلاميذ الطور الثانوي .

أهداف البحث :

تتلخص أهداف البحث فيما يلي :

الكشف عن صحة معاناة تلاميذ الطور الثانوي من قلق المستقبل من عدمها .

معرفة ما إذا كان هناك علاقة بين قلق المستقبل وتقدير الذات لدى تلاميذ الطور الثانوي.

البحث عن ما إذا كان هناك علاقة بين قلق المستقبل والدافعية للإنجاز لدى تلاميذ الطور الثانوي.

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في كونه :

دراسة ميدانية تبحث في واقع التلاميذ المتمدرسين في الطور الثانوي وتطلعاتهم المستقبلية .

تسليط الضوء على نوع من أنواع الاضطرابات النفسية التي يمكن أن تؤثر سلبا على الصحة النفسية والتحصيل الأكاديمي لتلاميذ الطور الثانوي .

قياس قلق المستقبل، وتقدير الذات، والدافعية للإنجاز لدى تلاميذ الطور الثانوي .

تحديد مصطلحات الدراسة :

1- قلق المستقبل :

قلق المستقبل كما يراه بارلو (2004) Barlow هو قلق المستقبل هو حالة مزاجية سلبية تتميز بأعراض التوتر البدني والتخوف من المستقبل، كما أنها تتميز بالتأثير السلبي من حيث إن الشخص يركّز على احتمالية خطر أو سوء حظ لا يمكن السيطرة عليه. (جنان سعيد الرحو، 2005 ، 30)

كما ترى زينب محمود شقير (2005) قلق المستقبل أنه : " قلق المستقبل هو خلل أو اضطراب نفسي المنشأ ينجم عن خبرات ماضية غير سارة ، مع تشويه وتحريف إدراكي معرفي للواقع وللذات من خلال استحضار للذكريات والخبرات الماضية غير السارة، مع تضخيم للسلبيات وتصغير للإيجابيات الخاصة

بالذات والواقع ، تجعل صاحبها في حالة من التوتر وعدم الأمن، مما قد يدفعه لتدمير الذات والعجز الواضح وتعميم الفشل وتوقع الكوارث، وتؤدي به إلي حالة من التشاؤم من المستقبل وقلق التفكير بالمستقبل، والخوف من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية المستقبلية المتوقعة، والأفكار الوسواسية وقلق الموت واليأس " . (جنان سعيد الرحو،2005 ، 29)

و يعريفه أحمد سعود (2008) على أنه هو خبرة إنفعالية غير سارة يتملك الفرد خلالها الخوف الغامض نحو ما يحمله الغد الأكثر بعدا من صعوبات، والتنبؤ السلبي للأحداث المتوقعة، والشعور بالتوتر والضيق، والإنقباض عند الإستغراق في التفكير، وضعف القدرة علي تحقيق الأهداف والطموحات، والإحساس بأن الحياة غير جديرة بالاهتمام والشعور بعدم الأمن والطمأنينة نحو المستقبل، والإنزعاج وفقدان القدرة علي التركيز. ((أفنان نظيرة، 2004 ، 17)

2- تقدير الذات :

يرى روزنبرغ أن تقدير الذات (1965) Rosenberg هو التقييم الذي يضعه الفرد ويبقي عليه لنفسه، وهو يعبر عن إتجاه للقبول أو عدم القبول، ويمكن النظر الى تقدير الذات من منطلق هذا التعريف على أنه إعتبار الذات وإحترامها أو العكس. (جون فيكس، 2005 ، 60)

كما يرى لورانس (1981) Lorence تقدير الذات أنه التقييم الذي يصدره الفرد على ذاته إيجابيا أو سلبيا، والتقييم الموجب يشير الى تقدير الفرد المرتفع لذاته، بينما التقييم السالب يشير الى تقدير الفرد المنخفض لذاته. (جون فيكس، 2005 ،60)

و يعريفه كوبر سميث (1991) Cooper Smithعلى أنه تقييم يضعه الفرد لنفسه وبنفسه، يعمل على المحافظة عليه،

و يتضمن إتجاهات الفرد الإيجابية والسلبية نحو ذاته، كما توضح مدى إعتقاد الفرد على أنه قادر وهام وكفء. (إبراهيم خليفة، 2007 ، 82)

3- الدافعية للإنجاز:

الدافعية للإنجاز كما يعريفها فاروق عبد الفتاح(1994) هي الرغبة في الأداء الجيد وتحقيق النجاح، وهي هدف ذاتي تنشط وتوجه السلوك، وتعتبر من المكونات الهامة في النجاح المدرسي. (جودث عزت، 2004 ، 18)

وترى نادية الشربوني(2004) الدافعية للإنجاز على أنها تكوين إفتراضي متعدد الأبعاد، يدفع الفرد إلى المثابرة على بذل الجهد، وتحمل الصعاب، والتغلب على كل ما يصادفه من عقبات في سبيل تحقيق

الطموح، والتفوق، والارتقاء من خلال المنافسة والإسرار على أن يتم ذلك بسرعة وإستقلالية . (بطرس حافظ بطرس، 2004 ، 22)

كما يعرفها تعريف محمد جاسم العبيدي(2009) الدافعية للإنجاز هي مقدار النزوع لبذل الجهد لأداء الواجبات والمهمات بصورة جيدة . (جون فيكس، 2005 ، 303)

إجراءات الدراسة الميدانية :

1 - منهج الدراسة : استخدم في هذه الدراسة المنهج الوصفي لأنه يخدم أهداف الدراسة

2- الحدود المكانية والزمانية والبشرية للدراسة :

أ- الحدود المكانية الدراسة :

تمت هذه الدراسة في06 ثانويات موزعة على شرق، وغرب، ووسط، وجنوب ولاية وهران .

ب- مدة الدراسة : أجريت هذه الدراسة من تاريخ 04-01-2015 إلى غاية تاريخ 11-02- 2015 أي لمدة شهر تقريبا.

ج- عينة الدراسة ومواصفاتها : العينة حسب متغير الجنس:

الجدول رقم (01) يمثل توزيع أفراد عينة الدراسة حسب متغير الجنس:

الجنس	التكرار	النسب المئوية
الإناث	192	%61.93
الذكور	118	%38.07
المجموع	310	**%100**

يلاحظ من خلال الجدول رقم (01) أن عينة الدراسة تحتوي من حيث الجنس على 192 أنثى أي ما يعادل 61.93%، و118 ذكر وهو ما يعادل 38.07% وهذا يدل على أن عدد الإناث يفوق عدد الذكور في هذه الدراسة العينة حسب متغير السن:

الجدول رقم (02) يمثل توزيع عينة الدراسة حسب متغير السن:

السن	التكرار	النسب المئوية
16-14	146	%47,11
19-17	143	%46,12
22-20	21	%21,93
المجموع	310	**%100**

يلاحظ من خلال رقم (02) أن المستوى العمري لعينة الدراسة ينحصر بين 14 و22 سنة، حيث تقدر أكبر نسبة عمرية للتلاميذ ذوو 16 سنة حيث بلغ عددهم 68 تلميذاً بنسبة مئوية تقدر21,93%، أما أدنى سنة فكانت للتلاميذ ذوو 22 سنة حيث بلغ عددهم 03 بما يعادل نسبة 0,33% فقط.

العينة حسب متغير المستوى الدراسي:

الجدول رقم (03) يمثل توزيع عينة الدراسة حسب المستوى الدراسي:

المستوى الدراسي	التكرار	النسب المئوية
السنة الأولى	102	%32,90
السنة الثانية	91	%29,36
السنة الثالثة	117	%37,74
المجموع	310	**%100**

يوضح الجدول رقم (03) أنه عدد تلاميذ السنة الأولى ثانوي قد بلغ 102 تلميذا بنسبة مئوية تقدر بـ 32,90%، أما تلاميذ السنة الثانية ثانوي فبلغ عددهم 91 تلميذا بنسبة مئوية تقدر بـ 29,36% وأما تلاميذ السنة الثالثة ثانوي فبلغ عددهم 117 تلميذا تقدر بـ37,74%، وبالتالي يلاحظ أن عدد تلاميذ السنة الثالثة ثانوي هم أكبر عدداً، ثم يليهم تلاميذ السنة الأولى، فتلاميذ السنة الثانية.

العينة حسب التخصص:

الجدول رقم (04) يوضح توزيع عينة الدراسة حسب التخصص:

التخصص	التكرار	النسب المئوية
جذع مشترك آداب	45	%14,51
جذع مشترك علوم و تكنلوجيا	45	%14,51
آداب ولغات أجنبية	29	%9,38
آداب وفلسفة	60	%19,35
تسيير وإقتصاد	51	%16,45
علوم تجريبية	56	%18,06
تقني رياضي	24	%7,74
المجموع	310	**%100**

يلاحظ من خلال رقم (04) أن التخصصات الدراسية لعينة الدراسة كانت متنوعة وشملت كل التخصصات، حيث يقدر أكبر عدد للتلاميذ الذين يدرسون بتخصص آداب وفلسفة حيث بلغ عددهم

60 تلميذاً بنسبة مئوية تقدر19,35%، أما أدنى سنة فكانت للتلاميذ الذين يدرسون بتخصص التقني الرياضي حيث بلغ عددهم 24 تلميذ بما يعادل نسبة 7,74% فقط

3- أدوات الدراسة :

بعد التأكد من صحة صدق وثبات أدوات البحث في الدراسة الاستطلاعية تم إستخدام الأدوات التالية :

1-مقياس تقدير الذات لروزنبرغ تعريب علي بوطاق (1960).

2-مقياس الدافع للإنجاز لهارمنز تعريب فاروق عبد الفتاح موسى (1981).

3-مقياس قلق المستقبل لمسعود سناء منير (2006).

وصف أدوات الدراسة :

1- مقياس قلق المستقبل :

يتكون مقياس قلق المستقبل لمسعود سناء منير من 20 فقرة منها 10 فقرات إيجابية و10 فقرات سلبية:

الفقرات الإيجابية :

1- لا يقلقني تزايد تعامل الناس بالرشوة .

2- على العموم لا تلازمني فكرة الموت .

3- أنا متأكد من عدم الرسوب في الإمتحانات المقبلة .

5- لا تضايقني قلة فرص العمل المتاحة للشباب .

6- أشعر أن حياتي ستتغير للأحسن .

7- أعتقد أنني لن أصاب بمرض خطير في المستقبل .

8- أشعر بالفرح عند التفكير بأنني سأعمل في الوظيفة التي أحب .

9- أنا متأكد من التفوق في دراستي مستقبلا .

10- بالنسبة لي لا يهمني تزايد إنهيار العلاقات الإجتماعية بين الناس .

الفقرات السلبية :

1- أشعر أن صعوبة المناهج الدراسية قد تؤدي بي الى الفشل الدراسي .

2- أتوتر من وقت لآخر عند التفكير في مستقبلي الصحي .

3- أخشى من وقوع بعض المصائب في المستقبل .

4- أنزعج عند التفكير فب مستقبلي المهني .

5- يزعجني أن تؤدي الفضائيات والأنترنيت الى الفساد الأخلاقي في المجتمع .

6- كل ما من حولي يدل على أن الماضي أحسن من المستقبل .

7- أشعر بالخوف من أن أصاب بحادث .
8- أفزع عند التفكير في عدم فهمي للمواد الدراسية في السنوات المقبلة .
9- يضايقني إنخفاض الوازع الديني لدى الكثير من الناس في المجتمع .
10- يقلقني إرتفاع معدل البطالة في أوساط الشباب .
طريقة التصحيح :
تتبع الطريقة تدرج الدرجات تبعا لدرجة إيجابية أو سلبية الفقرة، حيث أنه في الفقرات 10 الموجبة تعطى الإجابات (تنطبق علي، تنطبق علي أحيانا، لا تنطبق علي) الدرجات 3، 2، 1 على الترتيب، أما الفقرات 10 السالبة فتعطى الإجابات (تنطبق علي، تنطبق علي أحيانا، لا تنطبق علي) الدرجات 1، 2، 3 على الترتيب .
و تعتبر الدرجة 20 هي أدنى درجة يمكن للفرد الحصول عليها في هذا المقياس، بينما تعتبر الدرجة 60 هي أعلى درجة يمكن للفرد الحصول عليها .

2-مقياس تقدير الذات :

و يتكون مقياس تقدير الذات لروزنبرغ من 10 بنود أو عبارات تقيس تقييم الذات العام، منها خمسة بنود موجبة وخمسة بنود وخمسة سالبة وهي كالتالي:

الفقرات الموجبة:
1- على العموم انا راضي على نفسي
2- أحس أن لدي عددا من الصفات الجيدة.
3- بإستطاعتي إنجاز الأشياء بصورة جيدة كغالبية الأفراد.
4- أحس أني فرد له قيمته وهذا على الأقل مقارنة بالآخرين.
5- أتخذ موقف ايجابي نحو ذاتي.
الفقرات السالبة:
1- في بعض الأوقات أفكر بأني عديم الجدوى.
2- أحس أنه لا يوجد لدي الكثير من الأمور التي أعتز بها.
3- أنا متأكد من إحساس أحيانا بأني عديم الفائدة.
4- أتمنى أن يكون لي احترام أكثر لذاتي.
5-على العموم أنا أميل للإحساس بأنني شخص فاشل.

طريقة التصحيح : تتبع طريقة تدرج الدرجات تبعا لدرجة إيجابية أو سلبية الفقرة، حيث أنه في الفقرات 05 الموجبة تعطى الإجابات (موافق بشدة، موافق، غير موافق، غير موافق بشدة) الدرجات 4، 3، 2،1

على الترتيب، أما في حالة الفقرات 5 السالبة فتعطى الإجابات (موافق بشدة، موافق، غير موافق، غير موافق بشدة) الدرجات 1، 2، 3، 4 على الترتيب.

و تعتبر الدرجة 10 هي أدنى درجة يمكن للفرد الحصول عليها في هذا المقياس، بينما تعتبر الدرجة 40 هي أعلى درجة يمكن للفرد الحصول عليها.

3-مقياس الدافع للإنجاز:

الفقرات الإيجابية هي ذات الأرقام التالية :

.2،5،6،7،8،11،12،13،14،17،18،19،20،21،22،23،24،25،26

الفقرات السالبة هي ذات الأرقام التالية:

.1،3،4،9،10،15،16،27،28

و تشير الدرجة العالية على هذا المقياس على دافع للإنجاز مرتفع، بينما تشير الدرجة المنخفضة إلى دافع للإنجاز منخفض.

طريقة التصحيح :

تبقى طريقة التصحيح هي نفسها التي تم ذكرها في الدراسة الاستطلاعية، حيث تتبع طريقة تدرج الدرجات تبعا لدرجة ايجابية الفقرة أو سلبيتها، ففي الفقرات 19 الموجبة تعطى الإجابات أ، ب، ج، د، هـ الدرجات 1، 2، 3، 4، 5 على الترتيب، أما في حالة الفقرات 9 السلبية فتعطى الإجابات أ، ب، ج، د، هـ الدرجات 5، 4، 3، 2، 1 على الترتيب.

و تعتبر الدرجة 28 هي أدنى درجة يمكن للفرد الحصول عليها في هذا المقياس، بينما تعتبر الدرجة 129 هي أعلى درجة يمكن للفرد الحصول عليها.

الأساليب الإحصائية المستخدمة في الدراسة :

إستخدمت الطالبة الباحثة مجموعة من الأساليب الإحصائية لمعالجة البيانات التي جمعتها في الدراسة الأساسية، ولقد استخدمت حزمة الإحصاء للعلوم الاجتماعية SPSS ، وهذه الأساليب الإحصائية هي:

الإحصاء الوصفي:

التكرارات

النسب المئوية

الإحصاء الإستدلالي:

معامل إرتباط لبرسون

4- عرض النتائج :

نتائج الفرضية الأولى:

الجدول رقم (05) يمثل توزيع درجات قلق المستقبل لدى تلاميذ الطور الثانوي في الدراسة :

العينة310	درجة قلق منخفضة	درجة قلق متوسطة	درجة قلق عالية	المجموع
التكرارات	19	44	247	310
النسب المئوية	%06.14	%14.19	%79.67	%100

من خلال الجدول رقم (05) يمكن أن نقول بأن توزيع درجات القلق بين التلاميذ غير معتدلة، حيث كانت نسبة درجة القلق المرتفعة 79.67% بواقع 247 تلميذ شملته الدراسة وهي أعلى نسبة، ويليها التلاميذ الذين لديهم قلق متوسط والذين قدر عددهم ب 44 تلميذ بنسبة مئوية قدرها 14.19 %، ويأتي في المرتبة الأخيرة التلاميذ الذين لديهم قلق منخفض بنسبة % 06.14 وهي نسبة قليلة من عينة الدراسة بواقع 19 تلميذ .

نتائج الفرضية الثانية :

الجدول رقم (06) يمثل يوضح حساب معامل الارتباط بين قلق المستقبل وتقدير الذات لدى عينة الدراسة .

قيمة "ر"	العينة	مستوى الدالة
0,252	310	0,01
		دالة إحصائيا

من خلال الجدول رقم (06) يمكن أن نقول يتضح أن هناك علاقة ارتباطيه موجبة، دالة إحصائيا عند مستوى 0,01 بين قلق المستقبل تقدير الذات لدى تلامذة الثانوية.

نتائج الفرضية الثالثة :

الجدول رقم (07) يمثل حساب معامل الإرتباط بين قلق المستقبل والدافعية للإنجاز لدى عينة الدراسة

قيمة "ر"	العينة	مستوى الدالة
0,267 -	310	0,01
		دالة إحصائيا

من خلال الجدول رقم (07) يتضح أن هناك علاقة ارتباطيه سالبة، دالة إحصائيا عند مستوى 0,01 بين قلق المستقبل الدافعية للإنجاز لدى تلامذة الثانوية.

5- مناقشة عامة للنتائج :

من خلال النتائج المحصل عليها يمكن أن نقول أن الأغلبية الساحقة من التلاميذ الذين شملتهم عينة الدراسة يعانون من درجة عالية من قلق المستقبل، وهناك علاقة إرتباطية بين قلق المستقبل وتقدير الذات، كما أن هناك علاقة إرتباطية بين قلق المستقبل والدافعية للإنجاز وبهذا يمكن أن نقول أن الفرضيات الثلاث قد تحققت.

إن تقدير الذات والدافعية للإنجاز من العوامل الأساسية والضرورية لسير التعلم والتحصيل الدراسي بطريقة جيدة، حيث يعتبر تقدير الذات التقييم الذي يضعه الفرد لنفسه وبنفسه، يعمل على المحافظة عليه، ويتضمن إتجاهات الفرد الإيجابية والسلبية نحو ذاته، كما توضح مدى إعتقاد الفرد على أنه قادر وهام وكفء حسب تعريف كوبر سميث (1991)h Cooper Smit . (60:07)

فإذا أحس التلميذ بأنه غير قادر على مجابهة الظروف الصعبة التي تحيط به، والتي تحول بينه وبين تحقيق أهدافه المستقبلية المادية والمعنوية، فإن بذلك ينظر الى نفسه نظرة دونية أو سلبية بالمقارنة مع محيطه السلبي الذي يوحي له بكل ما هو صعب وعقبة في طريقه، وهذا ما يثبط همته ونشاطه المدرسي، حيث يعتبر هذا النشاط أو ما يسمى بالدافع للإنجاز بدوره مكون ضروري في المجال المدرسي، حيث تعتبر الدافعية للإنجاز تكوين إفتراضي متعدد الأبعاد، يدفع الفرد إلى المثابرة على بذل الجهد، وتحمل الصعاب، والتغلب على كل ما يصادفه من عقبات في سبيل تحقيق الطموح، والتفوق، والإرتقاء من خلال المنافسة والإسرار على أن يتم ذلك بسرعة وإستقلالية حسب نادية الشربيني (1999) .(22:15)

و إنخفاض الدافعية للإنجاز بدوره يكون عامل مباشر لتراجع الأداء الدراسي للتلاميذ، وذلك لأن أهمية الدافعية للإنجاز تكمن في دورها المنشط لسلوك الإنسان وإنخفاضها يعني الخمول وعدم القدرة على أداء المهام مهما كانت بساطتها.

و الجدير بالذكر أن لقلق المستقبل دور إيجابي على الرغم من كل تأثيراته السلبية فهو عامل يجعل الفرد أكثر إستعدادا لمجابهة التحديات وأكثر مقاومة للأحداث والظروف المحيطة به إذا كانت درجات قلق المستقبل متوسطة وخفيفة الشدة، مما يجعل الفرد أكثر فعالية ونشاط، وهذا يعني أن قلق المستقبل يعمل على الرفع من مستوى الدافعية للإنجاز، وكذلك الأمر بالنسبة لتقدير الذات فيمكن لقلق المستقبل بدرجاته المعتدلة أن يجعل الفرد أكثر إيجابية تجاه ذاته وبذلك يصبح أكثر واقعية في تقويمه

لذاته وتقويمه للظروف، وهذا ما ينعكس إيجابيا على صحته النفسية ويجعله أكثر حماسا لتحقيق الأهداف المستقبلية.

المراجع :

1- إبراهيم خليفة ، علم النفس التربوي، دار المسيرة النشر والتوزيع، عمان، 2007.

2- أحمد عكاشة، الطب النفسي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية للنشر والطباعة والتوزيع، عمان، 2005.

3- آرون بيك، العلاج المعرفي والاضطرابات الانفعالية، ترجمة عادل مصطفى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 2000.

4- أفنان نظيرة دروزة، أساسيات في علم النفس التربوي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2004.

5- بطرس حافظ بطرس، المشكلات النفسية وعلاجها، دار المسيرة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، عمان، 2010.

6- جنان سعيد الرحو، أساسيات علم النفس، دار العربية للعلوم، بيروت، 2005.

7-جون فيتكس، حالات الاضطراب النفسي العقلي، ترجمة مي السيد مقلد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

8-جودت عزت عبد الهادي وسعيد حسني العزة، مبادئ التوجيه والإرشاد والتوجيه، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 2004.

سياسة التمويل الداخلي للثورة التحريرية 1954-1962

د/ امحمد بوحموم، جامعة ابن خلدون، تيارت

ملخص:

يتضمن هذا المقال أهم مصادر التمويل الداخلي للثورة الجزائرية، والمتمثلة في الغرامات، الزكاة، الضرائب الاشتراكات التبرعات والهدايا وكذا الغنائم. كما تناول أهم النفقات الداخلية للثورة، المتمثلة في شراء الأسلحة الذخيرة، لوازم الحرب، الغذاء، أجور المجاهدين، مساعدات الفقراء، الخدمات الإجتماعية . والصعوبات شكلتها سلطات الاحتلال للهيئات الثورية الكلفة بجمع الأموال، خاصة فيما يتعلق بالحصار الاقتصادي المفروض على الثورة والسعي لإبعاد الشعب عن الثورة، غلق الحدود، والإكثار من المناطق المحرمة والمحتشدات.

الكلمات المفتاحية:

الشعب الجزائري، جبهة التحرير الوطني، الثورة الجزائرية، مصادر التمويل الداخلي للثورة، النفقات الداخلية سلطات الاحتلال، صعوبات التمويل.

Abstract : This article includes domestic financing of the Algerian revolution process, in terms of income sources of contributions, donations, Zakat, fines, gifts, taxes, penalties. It includes the overhead of a revolution at home, in the purchase of weapons, ammunition, supplies, war, food, Mujahedeen wages, poor aid, social services. This shows us the financial balance between the bodies befallen
Abstract : This article includes domestic financing of the Algerian revolution process, in terms of income sources of contributions, donations, Zakat, fines, gifts, taxes, penalties. It includes the overhead of a revolution at home, in the purchase of weapons, ammunition, supplies, war, food, Mujahedeen wages, poor aid, social services. This shows us the financial balance between the bodies befallen

مقدمة: عندما شرع قادة المنظمة الخاصة[1] في وضع استراتيجية عملها (Harbi 2010) المتمثلة في الإعداد للكفاح المسلح (Yves Michaud , 2004) من النواحي المادية البشرية والقانونية (بوعزيز، 2008) أدركوا بأن الهياكل التنظيمية التي تم وضعها للبلاد في المجالين السياسي والعسكري، والتجهيزات المادية التي يتطلبها العمل المرتقب وكذا عملية التنسيق والتعاون الخارجي مع البلدان المغاربية، العربية والدولية، تحتاج إلى مجموعة من الإمكانات المادية والتي في مقدمتها الأموال، لاعتبارها شرط أساسي لتوفير مستلزمات الكفاح المسلح، وهو ما دفع بقادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى وضع ربع اشتراكات المناضلين تحت تصرف المنظمة . وفي سنة 1948 وضعت الحركة مبلغا قدر بـ 800.000 فرنك في خزينة المنظمة (يوسفي، 2007) ولما كانت الاعتمادات المالية المخصصة للمنظمة الخاصة قليلة والتي

قدرها حسين أيت أحمد في مؤتمر زدين[2] بـ 100.000فرنك قديم منها 6.000 فرنك تمثل مستحقات قادة المناطق (Harbi ,1981) ويرى محمد يوسفي بأن حركة انتصار الحريات الديمقراطية كانت تخصص مبلغا يقدر بـ 500.000 فرنك فرنسي قديم شهريا للمنظمة (يوسفي، 2007) وبما أن ذلك المبلغ لم يكن كافيا لتغطية نفقات المنظمة الخاصة، مما دفع بقادتها إلى القيام بعملية الهجوم على بريد وهران[3]، الذي أخذ منه مبلغ قدر بـ 3170.000 فرنك فرنسي قديم (يوسفي، 2007). ونظرا لنقص الأموال المخصصة للمنظمة الخاصة، فقد أثر ذلك سلبا على بعض ورشاته (Harbi,1981) مثل ورشات الأسلحة والذخيرة، ورشات التموين العام وغيرها من الأنشطة التي تحتاج إلى أموال طائلة والتي لم تكن متوفرة في ذلك الوقت.

وعندما شكلت اللجنة الثورية للوحدة والعمل[4] تم استمالة عضوين من اللجنة المركزية هما محمد دخلي مسؤول التنظيم في اللجنة المركزية ورمضان بوشبوبة، مراقب عام في التنظيم بحركة انتصار الحريات الديمقراطية، ولعل المراد من سعي محمد بوضياف ومصطفى بن بولعيد إلى كسب عضوين أساسيين في اللجنة المركزية هو رغبة أعضاء المنظمة الخاصة في جلب المركزيين إلى صفهم بهدف إعادة توحيد صفوف الحزب، بالإضافة إلى الاستفادة من إمكانات الحزب المادية المالية والتنظيمية (بلحاج، 2009) لأن أموال الحزب كانت بحوزتهما. (عثماني ،2012) وهذا يعني أن توسيع اللجنة له عدة أهداف سياسية، قانونية ومالية، ولم يكن بوسع اللجنة تحقيقها دون كسب أعضاء القيادة المركزية للحزب (حربي 1994) .الأمر الذي مكن جبهة التحرير الوطني فيما بعد من استغلال نحو 1.000.000 فرنك فرنسي من أموال اللجنة.

(S.H.A.T, 1H 1687 , Dossier N° 02,1959)لأنه إذا كان الهدف الأسمى من استمالة عضوين قياديين في اللجنة المركزية لصف أعضاء المنظمة الخاصة يكتسي طابعا سياسيا يتمثل في توحيد صفوف مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية قصد التوجه إلى العمل المسلح بصفوف متراصة فإن الوسيلة لإنجاز ذلك العمل وتحقيق متطلباته تتمثل في الأموال.

وعلى إثر انعقاد اجتماع مجموعة 22 [1] الذي تقرر فيه التعجيل باندلاع الثورة حيث عبر عن ذلك محمد مشاطي[2] أحد المشاركين في الاجتماع بالقول **((كلنا كنا مقتنعين بحماس على المرور إلى الكفاح المسلح))** (مشاطي، 2010، ص 69) وبعد تشكيل جبهة التحرير الوطني من قبل مجموعة الست التي أشرفت على عملية تفجير الثورة كما سعت إلى توفير الموارد المالية التي يحتاج إليها الكفاح المسلح، وهو ما جعل المجاهدون الأوائل يطلبون الدعم المالي من المناضلين، الذين . قام البعض منهم ببيع أرضه أو حلي زوجته بهدف تقديم الدعم المالي للثورة (بومالي، د.ت) وكانت قناعة الجزائريين بأن مساعدة الثورة الجزائرية بالأموال ضرورة حتمية لتحقيق الاستقلال والتخلص من الاستعمار الإستطاني في الجزائر

(S.H.A.T, 1H 1687 , Dossier N° 02,1959) ولم يفرض ذلك الإجراء على المناضلين فحسب بل كان قادة المناطق هم أول من قاموا بتمويل الثورة، فمصطفى بن بولعيد تبرع بجزء كبير من أمواله لصالح الثورة، كما تبرع ديدوش مراد بميراثه لصالح الثورة، وقام كريم بلقاسم باقتطاع نسبة 10% من اشتراكات المصاليين على مستوى منطقة القبائل بهدف شراء الأسلحة، وقام حاج بن علة بجمع مبلغ من المال في نواحي الظهرة [3] يقدر بـ 1.500.000 فرنك فرنسي من مناضلي ناحيته (Harbi , 1998)ولما كانت ميزانية جبهة التحرير قبيل اندلاع الثورة لا تتعدى 1400.000 فرنك فرنسي قديم (حربي، 1994) وهو مبلغ زهيد ولا يكفي لتغطية تكاليف حرب وطنية شاملة مما جعل قادة الثورة يقرون بتطبيق سياسة الاعتماد على الذات لكل منطقة على حدى في مجال التمويل. (بلحاج 2009). ونظرا لكون كل منطقة تاريخية تختلف عن الأخرى من حيث الخصائص الطبيعية والبشرية والإمكانات المادية المتوفرة لديها، وتركز القوة العسكرية والأمنية التابعة للاستعمار بها فقد أقرت لجنة الست تطبيق مبدأ اللامركزية. (بوضياف2010) على مستوى المناطق في شتى المجالات السياسية، العسكرية والاقتصادية، حتى تتمكن كل منطقة من استغلال قدراتها المادية و تكييف نشاطها العام مع ظروفها الخاصة، وظلت هذه السياسة مطبقة إلى غاية انعقاد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956، الذي أنشأ الهيئات المركزية وأعطى للثورة بعهدها المركزي في مجال القيادة واستغلال القدرات المادية. فكيف تمكنت تلك المناطق من توفير الموارد المالية لهياكلها الثورية .؟ وما هي والصعوبات التي واجهت الهيئات المكلفة بجمع الأموال على المستوى الداخلي .؟ والحلول التي اهتدى إليها القادة في الداخل لحل مشكلة التمويل.؟

آ) مصادر تمويل الثورة في الداخل: نظرا لخصوصية الثورة الجزائرية المتمثلة في طابعها الشعبي من حيث التنظير التخطيط والتنفيذ، وتلك الأمور لا تقتصر على القضايا السياسية والعسكرية فحسب بل تتعداها إلى الجوانب المادية بحيث لم تكن لهياكل الثورة (من الولاية، حتى نصف القسم) مؤسسات مالية، ولا أي نظام مالي محدد أو أي شكل من أشكال الدعم داخل التراب الوطني سوى ما يجود به الشعب الجزائري على الثورة 1959 , N°, 02 , Dossier 1H 1687 ,S.H.A.T))، ويتمثل ذلك في عدة مظاهر من بينها:

1) الغرامات : تفرض نقدا على المخالفين لقوانين جبهة التحرير الوطني، وتختلف قيمتها باختلاف طبيعة المخالفة ودرجتها، وتحددها مجالس محاكم الثورة كما تحددها المجالس الشعبية، وترفق كل غرامة بمحضر رسمي تحرره الهيئة التي قامت بتغريم الشخص المعني.(المنظمة الوطنية للمجاهدين، التقرير السياسي، المدية د.ت) وقد حددت مصالح الشرطة الفرنسية مجموعة من أصناف المخالفات التي كانت جبهة التحرير الوطني تعاقب كل من ارتكبها والقيمة المالية التي تفرض على كل مخالفة، والتي من بينها : في حالة ما إذا أقدم أي مواطن جزائري على سرقة رأس من الأبقار لمواطن أخر يغرم بدفع . 20.000 فرنك فرنسي، وإذا حوكم أي شخص من طرف محكمة الثورة وأدين لارتكابه أي جرم فإنه يعاقب بدفع مبلغ يقدر بـ 30.000 فرنكا، وإذا أقدم أي شخص على توزيع المواد الغذائية لعناصر الجيش الفرنسي، فإنه

يغرم بدفع 30.000 فرنك، وتسلط عقوبة مالية قاسية على أي مواطن جزائري امتنع عن تقديم يد المساعدة لعضو من جيش التحرير الوطني كان مجروحا أو مهدد بالخطر، حيث تكون العقوبة بدفع 60.000 فرنك . أما من أشترى لحما وهو يدري بأن الشاة التي ذبحت مسروقة فيغرم بدفع 15.000 فرنك وغيرها من العقوبات التي تفرضها قيادة جبهة التحرير الوطني على من يخالف تعاليم الشريعة الإسلامية والتعليمات المقدمة من قبل قيادة الثورة. (C.A.O.M.G.G.A/120 , 1957) كما يغرم أي شخص مدمن على التدخين بغرامة تقدر بـ 5.000 فرنك، وفي حالة ما إذا استمر في التدخين بعد إنذاره يغرم بـ 10.000 فرنك. و في حالة قيام أي شخص بفعل لا أخلاقي يسيء للآداب العامة ويتنافى مع الشريعة الإسلامية يغرم بدفع مبلغ يقدر بـ 50.000 فرنك، وإذا سرق أي مواطن لأخر بقرة مثلا يغرم بدفع20.000 فرنك، كما يغرم من قام بقطع أشجار الغابات بمبلغ يتراوح بين 500 و1000 فرنك. Emmanuelle Colin –Jeanvoine et Stéphane) (Derozier,2008 وغيرها من الغرامات التي تفرض على المخالفين لمبادئ الشريعة الإسلامية و للعادات والتقاليد، وكذا للتعليمات التي تصدرها قيادة الثورة على مستوى كل هيكل نظامي (من الولاية حتى نصف القسم) . وفي سنة 1956 مثلا قدرت مصالح الاستعلامات الفرنسية المبلغ الذي حصلت عليه جبهة التحرير الوطني عن طريق الغرامات المفروضة على الجزائريين في الداخل بـ 200.682.126 فرنك فرنسي. (Bougherara, 2006) ولعل أن الغرامة التي كانت تفرضها مصالح الجباية المالية التابعة لجبهة التحرير الوطني على المواطنين الجزائريين كان يراد منها توفير الأموال اللازمة للثورة وفي نفس الوقت توفير جو من الانضباط، وتجنب الوقوع في المخالفات سوى تلك التي تتنافى ومبادئ الدين الإسلامي أو تعليمات قيادة الثورة، ويعد بذلك التزام عقائدي، تربوي، سياسي ومالي مع الثورة الجزائرية.

2) الزكاة : تجمع وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية، من طرف هيئات خاصة تكلف من قبل قيادة الهياكل الثورية وتفرض على كل جزائري مسلم بلغ سن 18 سنة وله ما يمكن أن يزكي عليه، بحيث يتم جمعها ثم يحرر تقرير بشأنها يحدد فيه عدد المساهمين، والمبلغ الإجمالي المحصل عليه كما يحرر وصل بقيمة المبلغ، ويرفع كل ذلك إلى الهيئة العليا على مستوى الولاية.(اتحادية المجاهدين لدائرة تابلاط، 1992)

3) الضرائب : تفرض على الجزائريين سواء كانوا مقيمين داخل التراب الوطني أو خارجه، كما تفرض على الأجانب الذين يتعاملون مع الثورة الجزائرية، اللذين لهم نشاط اقتصادي مهما كانت طبيعته.[1] وتشير مصالح الشرطة الفرنسية إلى قائمة من الضرائب التي كانت تفرضها جبهة التحرير الوطني على المواطنين الجزائريين الذين يقومون بتربية المواشي، بحيث يفرض دفع 50 فرنك سنويا على كل رأس من الماعز و100 فرنك على كل رأس من الأغنام، 300 فرنك على كل رأس من الأبقار، الجمال والبغال .كما يدفع أصحاب السيارات والجرارات مبلغا يتراوح بين 10.000 و 15.000 فرنك فرنسي قديم خلال السنة. (C.A.O.M.G.G.A/120,1959) كما تشير أجهزة الاستعلامات الفرنسية على أن جبهة التحرير الوطني

كانت تفرض على الجزائريين بعض الضرائب الخاصة مثل ضرائب عقود الملكية والمقدرة بنسبة 05 % من قيمة السلع أو العقارات التي يتم بيعها، ويدفع الأشخاص الذين تحصلوا على الميراث على نسبة تتراوح ما بين 02 و 05 % من قيمة الميراث، ونحو 20 % من قيمة السلع في حالة ترويج السلع الفرنسية ,S.H.A.T) . (1H 1687, Dossier N° 02,1959 وفي شهر جوان سنة 1956 دفعت مجموعة من المعمرين في الجزائر 1000 فرنك على كل هكتار مزروع لصالح جبهة التحرير الوطني، ويطالبون بدفع المبلغ قبل جني الثمار، ففي منطقة سور الغزلان[1]، مثلا دفع أوروبي غرامة عن مزرعته قدرت ب500.000 فرنك، وتشير غرفة المحاسبة إلى أن كل أوربي مالك للأراضي الزراعية يطالب بدفع مبلغا سنويا يقدر 600.000 فرنك . وإذا كان الأوروبيون واليهود المقيمون في الجزائر يدّعون بأنهم جزائريين، فذاك يستوجب عليهم دفع قيمة مالية لأصحاب الأرض وللعلم الجزائري (Colin –Jeanvoine et Stéphane Derozier, 2008) وفي شهر أكتوبر 1955 قامت إحدى شركات النقل بتيزي وزو بدفع مبلغ يقدر بـ 10.000.000 لصالح جبهة التحرير الوطني و خلال شهر أفريل 1956 دفع أحد قدماء النواب بمعسكر مبلغا يقدر ب10.000.000 على ثلاث دفعات وفي سبتمبر 1956 دفع أحد الناقلين ما قيمته 1.500.000 فرنك، ودفع أخر بالشلف مبلغا بـ 2.000.000 فرنك autre,2008) (Emmanuelle, et كما دفع التجار اليهود بمدينة المدية مبلغا بقيمة 5.000.000 فرنك وقام أخر بمغنية بدفع 3.000.000 فرنك . كما تعهد الميزاب بمدينة الجزائر خلال الفترة الممتدة ما بين شهر جويلية 1956 و جانفي 1957 بدفع 165000 فرنك لصالح جبهة التحرير الوطني، ودفعت إحدى العائلات الثرية بالجزائر مبلغا بقيمة 10.000.000 فرنك (Bougherara,2006) . وبذلك تكون الضرائب والرسوم الجبائية المفروضة على المواطنين توفر أكثر من 50 % من مجموع ميزانية جبهة التحرير الوطني في الداخل، التي قدرت سنة 1958 بـ 880.000.000 فرنك فرنسي(Emmanuelle , 2008) وتختلف قيمة الضرائب باختلاف رقم الأعمال الخاص بكل تاجر أو مالك وباختلاف المنطقة التي يتواجد فيها الشخص المعني بدفع الضريبة .كما قد تتم عملية دفع الضرائب عن طواعية كما قد تتم عن طريق رسائل التهديد كما أشارت إلى ذلك أجهزة الأمن الفرنسية، والتي من بينها على سبيل المثال إرسال رسائل تهديد بالجلفة إلى الأعيان بهدف دفع مبالغ مالية تتراوح ببين 10.000 و 2.000.000 فرنك (Emmanuelle ، 2008) . وتشمل تلك التهديدات الأوروبيين والجزائريين على حد سواء S.H.A.T , 1H) (1959 , Dossier N° 03 , 2584ومهما تعددت أنماط الضرائب واختلفت قيمتها حسبما تشير إليه الوثائق الأرشيفية الفرنسية، والدراسات التي أعدها الفرنسيون حول الجباية الضريبية التي كانت تفرضها قيادة الثورة على المواطنين فإننا يمكن ان نستنتج منها بعض الحقائق، والتي من بينها. - تركز تلك الأجهزة على الضرائب التي تفرضها قيادة الثورة على المواطنين الجزائريين وحتى على بعض الأجانب الذين يتواجدون داخل التراب الوطني، لكنها تناست ما كانت تفرضه الإدارة الاستعمارية من جبايات متعددة الأشكال على الجزائريين، واحتجازها لأملاك المتعاملين مع الثورة الجزائرية .

- قيام مختلف الفئات الجزائرية بتقديم الدعم المادي (ومنه المالي) للثورة الجزائرية يدخل في إطار شعبية الثورة وقناعتهم بأن استرجاع السيادة الوطنية إنما هي مسؤولية الجميع ، وأن كل جزائري عليه أن يساهم في تحرير وطنه بالشيء والقدر الذي يستطيع عليه، وانطلاقا من قناعتهم الدينية التي ترى بأن الجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس (العثيمن، 2004) ولا يعد ذلك في نظرهم تمردا أو عصيانا بقدر ما يعد قياما بالواجب الوطني.

- كما نلاحظ بأن تلك الضرائب و إن اختلفت قيمتها إلا أنها كانت شاملة بحيث أنها مست الملاك والتجار سواء كانوا جزائريين أو أجانب، خاصة أولائك الذين كانوا يدعون بأنهم جزائريين، ومعاملة كل من يقطن على أرض الجزائر بنفس المعاملة، يدل على وجود رؤى بعيدة المدى لرجال دولة، وليس مجرد الحصول على الأموال.

4) الاشتراكات : بما أن الشعب الجزائري هو الممول الرئيسي للثورة الجزائرية في الداخل، ومن بين أشكال ذلك التمويل عملية الإشترك، التي كانت تعد في بداية الثورة الوسيلة المثلى لتمويل الثورة. 1958 (,C.AO.M.G.G.A, 3R/573, Dossier) . ورغم الاستقلالية المعطاة لكل هيئات الثورة في الداخل والخارج في كيفية تحصيل مواردها المالية وطرق إنفاقها إلا أن المبلغ الأدنى لإشتراكات المواطنين حددت خلال المرحلة الأولى من الثورة (1954-1956) بـ 200 فرنك فرنسي لكل جزائري موظف، كما حدد مبلغ 20.000 فرنك لكل تاجر.(المنظمة الوطنية للمجاهدين، المدية، د.ت) وبما أن كل منطقة (ثم ولاية) كانت مكلفة بوضع جرد لمواردها المالية، ومن ثم تحديد قيمة الاشتراك لسكانها . ففي تبسة مثلا حددت قيمة الإشتراك بـ 10.000 فرنك بالنسبة للموظفين، و ما بين 10.000 و 20.000 فرنك بالنسبة للملاك. وكان التباين واضحا في مبلغ الاشتراك من ولاية لأخرى (C.A.O.M G.G.A, 7G/1220, 1962) . فحسب مصالح الشرطة الفرنسية فإن قيادة الثورة في نواحي قسنطينة مثلا حددت قيمة الاشتراك سنة 1957 بـ 5.000 فرنك بالنسبة للموظفين وما بين 3.000 و5.000 فرنك بالنسبة للتجار، أما بالنسبة للعمال فحدد مبلغ 1000 فرنك للعمال المؤهلين وما بين 500 و90 فرنك للعمال اليدويين.(C.A.O.M G.G.A, 7G/ 1220 1957)كما تشير أجهزة الاستخبارات الفرنسية إلى أن جبهة التحرير الوطني لعبت دورا كبيرا من أجل إعادة تنظيم شبكة التمويل في المدن التي تأثرت بما ترتب عن إضراب الثمانية أيام سنة 1957 خاصة في مدينة الجزائر التي تعد الممول الرئيسي للولاية الرابعة و لغيرها من الولايات. وقدرت الأجهزة الأمنية الفرنسية المبلغ المحصل عليه عن طريق اشتراك المواطنين خلال سنة 1956 بـ 15.063.000 فرنك (Bougrara ,2006) . ويعد هذا المبلغ قليل جدا إذا ما علمنا بأن المنطقة الأولى من الولاية الرابعة[1] لوحدها تمكنت خلال سنة 1959 مثلا من الحصول على مبلغ قدر بـ 22.189.111 فرنك و قدرت نفقاتها بـ 23.640.505 فرنك وبذلك كان ميزان مدفوعاتها عاجزا بمبلغ 151394 فرنك فرنسي (C.A.O.M) G.G.A., 7G/1220, 1962

إلا أن ما نلاحظه هو أن قيمة اشتراك المواطنين رغم أهميتها إلا أن مبالغها تعد محدودة بالنظر إلى المبالغ الأخرى كما تختلف مداخيل الثورة من ولاية لأخرى، ففي الولاية الرابعة مثلا لم تكن الثورة تعاني من العجز المالي إلى غاية 1957 نظرا لوفرة مداخيلها وتكفل الشعب بتوفير مختلف مظاهر التموين التي تحتاج إليها الثورة لكن بعد إضراب الثمانية أيام الذي دعت إليه قيادة الثورة (المنظمة الوطنية للمجاهدين، المدية، د.ت)[1] ثم معركة الجزائر[2] واللذان ترتب عنهما تحطم نظام جبهة التحرير الوطني بشكل جزئي ومتباين (بن تومي، 2005) وهو ما أثر سلبا على عملية تموين وتمويل الثورة في المدن . كما أن الإكثار من المحتشدات والمناطق المحرمة ومراقبة اقتصاديات الشعب الجزائري أثر كذلك على تراجع مداخيل الثورة. (المنظمة الوطنية للمجاهدين المدية، د.ت) كما أثرت عملية غلق الحدود الشرقية والغربية بموجب خط موريس[3] خلال الفترة الممتدة ما بين جوان وأكتوبر1957. والذي يعد أول خط دفاعي تضعه سلطات الاحتلال في الجزائر، بهدف عزل الثورة الجزائرية عن جيرانها في كل من تونس والمغرب (Sylvie , 2010) . ثم قام شارل موريس (Challe Maurice)[4] خلال الفترة الممتدة بين ديسمبر 1958 وأفريل 1960، بوضع خط جديد عرف باسمه أي خط شال[5] مابين ديسمبر 1958 وأفريل1960 (, Alistair 2007) للحد من الدعم الخارجي للثورة في مجالي التموين والتمويل , G.G.A , C.A.O.M) (1957 , 3R/458 مما جعل قيادة الثورة تقرر رفع الحد الأدنى لاشتراكات المواطنين إلى 500 فرنك فرنسي، وبالتالي أصبح ذلك المبلغ مفروضا على الجزائريين الذين لهم مصدر دخل خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1959-1962. (Gilbert , 2003) ومن خلال تصفح الوثائق الأرشيفية الفرنسية والدراسات التاريخية التي استقت مادتها العلمية من تلك الوثائق، وما أكده المجاهدون وحتى المواطنون الذين عايشوا أحداث الثورة التحريرية، نستشف بعض الحقائق المتعلقة بعملية دفع لصالح الثورة التحريرية، والتي من بينها :

- تعد عملية دفع اشتراكات المواطنين للثورة عربون ولائهم لها وواجب وطني على كل جزائري له دخل معين إما عن طريق الوظيفة، الملكية أو التجارة، وتختلف، باختلاف ما يملكه كل الشخص من أموال، فإن كان لا يملك ما يقدم للثورة فإن الهيئات المسؤولة عن المالية والشؤون الاجتماعية هي التي تتولى تقديم الدعم المادي له طبقا للمبدأ الذي كان مطبقا خلال الثورة ((الثورة من الشعب وإلى الشعب)) وحتى الثروة المالية التي كانت تجمع خلال الثورة تخصص منها نسبة معتبرة للمنح والمساعدات والتي قدرت سنة 1959 بـ 47.1 % من قيمة المداخيل العامة، للثورة في الداخل (S.H.A.T, 1H 1688, 1959) وهو ما يدل على البعد الشعبي والإنساني للثورة . وفي حالة ما إذا كانت أي منطقة من التراب الوطني تعيش فيها نسبة كبيرة من البطالين والذين ليس لهم أي دخل مادي، فإنهم يعفون من دفع الاشتراك وتتولى مصالح الجبهة مساعدتهم ماديا واجتماعيا.

5) التبرعات والهدايا : والتي تمنح من قبل المواطنين الجزائريين، كما قد تقدم من قبل الأجانب، الميسوري الحال وتختلف قيمتها من شخص لأخر ومن سنة لأخرى، تبعا للدخل السنوي أو الشهري للشخص

المانح. (Guentar,2004) فحسب الأجهزة الأمنية الفرنسية، فقد قام أحد الجزائريين بدفع مبلغ من المال سنة 1957 لصالح جبهة التحرير الوطني بنواحي بجاية بقيمة 1.500.000 فرنك ودفع أوروبي مبلغا بقيمة 1.000.000 فرنك، ودفع مواطن جزائري بقالمة مبلغا لخزينة جبهة التحرير الوطني بقيمة 2.000.000 فرنك . أما في شلف فقد دفع أحد المواطنين مبلغا على دفعات بـ 1.000.000 ثم بقيمة 30.000.000 فرنك، ودفع مواطن أخر مبالغ متفرقة منها 1.000.000 و 20.000.000 فرنك (C.A.O.M.91/147 ,1959)وغيرها كثير من تبرعات الجزائريين والأجانب لصالح خزينة جبهة التحرير الوطني في مختلف جهات الوطن. وإن كانت الأجهزة الأمنية الفرنسية تدعي بأن تلك الأموال كانت تؤخذ تحت التهديد، فإن ذلك قد يعود لدافعين أساسيين، أولهما أن أجهزة الاستعمار كانت لا تتقبل فكرة منح الأموال لصالح الثورة الجزائرية عن طواعية وتستخدم عبارة تحت التهديد، وثانهما يتعلق بالأشخاص المتبرعين أنفسهم، حيث يقدمون ما يمكن تقديمه للثورة ثم يصرحون أثناء التحقيق بأنهم أرغموا بمساعدة جيش التحرير الوطني بالقوة.

6) الغنائم، وهي كل ما يتم الحصول عليه أثناء القيام بالعمليات العسكرية من أموال ومجوهرات وأشياء ثمينة، والتي تجمع تحت مراقبة المسؤول العسكري ثم توضع في خزينة الثورة.(اتحادية بوقرة، 2002)

ومهما اختلفت مصادر تمويل الثورة التحريرية في الداخل، وسواء كان ذلك عن طواعية أو كرها، يبقى الشعب الجزائري هو المصدر الوحيد لتمويل الثورة، وتزويدها بما تحتاج إليه من المواد الضرورية كالغذاء، المأوى الألبسة الأغطية الدواء وغيرها من المستلزمات.(بومالي، 2010) ومن خلال هذه العينات بمظاهر الدعم الشعبي للثورة الجزائرية يمكن أن نستنتج ما يلي:

- يعد التمويل من الأسس المادية التي تبرز شعبية الثورة الجزائرية، فرغم عامل الفقر الذي كانت سلطات الاحتلال سببا فيه، حيث جردت الجزائريين من ممتلكاتهم و أقهرتهم بشتى أنواع الضرائب، وأرغمت الكثير منهم على العيش في مناطق نائية جرداء لا تصلح لأي نشاط اقتصادي، و ووضعت الكثير منهم في المحتشدات أو أرغمتهم على الهجرة إلى ما وراء الحدود بهدف عزل الشعب الجزائري عن ثورته ومنعه من تقديم كل أشكال الدعم لثورته، ومنه الدعم المالي (مريوش، 2013) إلا أن كل تلك الضغوط لم تبعد الشعب الجزائري عن دعم ثورته . وتشير الكثير من شهادات أعضاء جيش التحرير الوطني إلى أن عملية جمع التبرعات لم تكن في أوساط الأشخاص الأحرار فحسب، بل حتى لدى الأشخاص الذين وضعوا رهن الاعتقال وفي غياهب السجون من المواطنين وأعضاء جيش التحرير الوطني الذين شكلوا شبكة لدعم الثورة داخل المؤسسات العقابية.(ديرة، حوار، 2001) وهذا يعبر عن البعد الشعبي للثورة، الذي كان مجسدا في جميع الأنشطة التي تقوم بها، سواء في المجال، العسكري، الاجتماعي والاقتصادي، ورغم الإخطار التي كانت محدقة بالجزائريين، إلا أن الكل تحمل أعباء الثورة.

- إذا كان جيش التحرير الوطني، قد استخدم القوة أحيانا سواء ضد بعض المواطنين الجزائريين أو ضد الأجانب لتحصيل الجبايات المالية (C.A.O.M.91.3F/144, s.d) كما تدعيه السلطات الأمنية الفرنسية(Emmanuelle, 2008) لا سيما في المدن، ومنها مدينة العاصمة التي أعيد تنظيم شبكة الدعم المادي بها في خريف 1957 بعد الأحداث التي عرفتها المدينة بين جانفي وأكتوبر (C.A.O.M, G.G.A, 7G/120,S.d) . إلا أن ذلك يعد التزاما ماديا للجزائريين تجاه ثورتهم، كما يعبر عن حسن تعامل بين الأجانب المقيمين في الجزائر من أوربيين ويهود مع الثورة الجزائرية، وإن استعملت القوة أحيانا فذاك دليل على صرامة الثورة الجزائرية قصد فرض الالتزام السياسي والمادي في الميدان وتجسيدا لمبدأ الصرامة في التعامل سواء فيما بين الهيئات الثورية أو بينها وبين الفئات الشعبية.

- تبدو الجبايات المحصل عليها غير كافية بالنظر لشمولية حرب التحرير وقوتها، إلا ذلك يعبر أيضا على أن الشعب الجزائري هو محتضن الثورة وممونها وممولها، كما يعبر أيضا على خصوصية الثورة الجزائرية التي تطبق حرب العصابات وتتحاشى حرب المواجهة التي تحتاج إلى إمكانات مادية وبشرية لم تكن متوفرة ، لكون قادة الثورة طبقوا أسلوب حرب العصابات لعدم تكافؤ القوة المادية والبشرية المسخرة للحرب ولأن هذا الأسلوب المطبق في مواجهة قوة عسكرية لها الخبرة الطويلة في إدارة الحروب كما لها كل الإمكانات المادية والبشرية (محاسين، 2011) كما أن مسيري الثورة كانوا يلزمون جيش التحرير كما يلزمون الشعب بالتقشف والاكتفاء بالأشياء الضرورية فقط، والأخذ من القدرات المادية للعدو قدر المستطاع (Jean – Charles Jauffret , 2001) الأمر الذي مكن قادة جيش التحرير الوطني من تسيير الثورة بإمكانات محدودة جدا وحققوا بها أكبر الانتصارات.

- قناعة الشعب الجزائري بأن الثورة هي مسؤولية الجميع، كل حسب قدراته والمجال الذي يمكن أن يساهم به و هو ما جعل الكل يؤدي مهامه بكل عفوية، خاصة لما تحدد الإطار القانوني، الذي يحدد صلاحيات كل أصناف جيش التحرير الوطني، وكذا مهمة المواطنين التي تعد السند الأساسي للثورة في شتى المجالات ومنها قضية التمويل (اتحادية بوقرة، 2002) كما عبر عن ذلك لخضر بن طبال نقلا عن المواطنين قائلا **((كانوا يسألوننا ويقولون، إذا لم يكن عندكم سلاح فإننا على استعداد لبيع جميع أرزاقنا ...بشرط ألا تقترضوا من عند الدول وتكون الجزائر مرهونة عند الاستقلال))** (المنظمة الوطنية للمجاهدين، د.ت، ص 30) ويفهم من هذا أن المواطنين الجزائريين كانوا مدركين بالمسؤولية الوطنية الملقاة على عاتقهم، ومستعدين لتحملها مهما كانت الصعاب.

ب) النفقات الداخلية : رغم أن الشعب الجزائري هو الممول والممون الأساسي للثورة الجزائرية، وبالتالي فهو الذي يتكفل بتوفير الاحتياجات الضرورية لجيش التحرير الوطني، ومع ذلك يضطر لدفع نفقات خاصة، والتي حددتها أجهزة الشرطة الفرنسية فيما يلي:

- توفير الأسلحة والذخيرة، وغيرها من مستلزمات الحرب.

- توفير الألبسة العسكرية لجيش التحرير الوطني.
- الأجور والمنح العائلية .
- إطعام وحدات جيش التحرير الوطني.
- الدعاية والدعاية المضادة التي تقوم بها لجان الإعلام والاتصال التابعة لجبهة التحرير الوطني. (C.A.O.M, G.G.A., 7G/1220 , 1959)

1) النفقات العامة : قدرت إحدى الدراسات المختصة في مجال التمويل بالنسبة لجبهة وجيش التحرير الوطني مجموع النفقات العامة للولايات التاريخية سنة 1959 بـ 8.8 مليار فرنك فرنسي. (S.H.A.T, , 1959 , 1H 2734) كما تشير دراسة أخرى صادرة عن أجهزة الاستعلامات الفرنسية بتاريخ 21 أكتوبر 1959إلى أن النفقات العامة للثورة في الداخل تقدر بـ 9.4 مليار فرنك سنويا أي بنفقة شهرية تتراوح ما بين 700 و 800 مليون فرنك فرنسي. (C.A.O.M, G.G.A s.d , 7G/513) وهذا ما جعل ميزانية الولايات التاريخية تعاني من عجز مالي يقدر بنحو 600 مليون فرنك ، خاصة إذا علمنا بأن سنة 1959 تمثل.

- تطبيق مخطط شال في الجزائر وهذا يعني قيام وحدات جيش الاستعمار بتدمير البنية الاقتصادية للجزائريين كما حدث في الولاية الرابعة مثلا.(S.H.A.T, 1H2754 , 1959) بالإضافة إلى غلق الحدود الشرقية والغربية للبلاد، وهو ما أثر سلبا على اقتصاد الثورة الجزائرية، لا سيما بعد تطبيق ما يعرف بالحرب الاقتصادية على الثورة التحريرية (C.A.O.M.G.G.A.2R/162, S.d .).

- كما اتخذت الحكومة المؤقتة سنة 1959 مجموعة من الإجراءات الوقائية في المجال الاقتصادي، والتي من بينها تكليف قادة الولايات بتحقيق اكتفائها المالي، نظرا لغلق الحدود والمراقبة المشددة على كل التراب الجزائري (C.A.O.M.G.G.3R/ 457 , 1959) التي شرع فيها منذ سنة 1957، مما جعل التمويل الخارجي صعب جدا.

- وفي نفس السنة طالبت الحكومة المؤقتة قادة الولايات التاريخية بالمساهمة في ميزانية الهيئات المركزية للثورة في الخارج وقدرت مساهمة الولايات بمبالغ تتراوح ما بين 600 و700 مليون فرنك (Gilbert , 2003) رغم وضعها المالي الصعب الأمر الذي جعل ميزان مدفوعاتها يسجل خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1958-1960 مثلا عجزا ماليا يقدر بقيمة 600.000.000 فرنك. (Emmanuelle, 2008) فالولاية الرابعة مثلا كان ميزان مدفوعاتها يحتاج إلى مبالغ مالية إضافية تتراوح بين 15 و20 مليون فرنك شهريا أي ما يعادل سنويا 220 مليون فرنك تقريبا (C.A.O.M, G.G.A , 7G/513 ,S.D) ووزعت نفقات الثورة في الداخل بشكل عام كالتالي:

2) النفقات العسكرية : قدرتها المصالح العسكرية الفرنسية سنة 1959 مثلا بـ 4.305 مليار فرنك، وهو ما يعادل 47.8 % من نفقات الحرب في الداخل، (S.H.A.T , 1H 168 , 1960) ويمكن القول بان هذا المبلغ قليل جدا بالنظر إلى طبيعة وشمولية الثورة التحريرية، وكذا للمبلغ المالي الذي رصدته الحكومة المؤقتة في الخارج للمصالح الوزارية التي لها علاقة بالحرب والمتمثلة في وزارة الدفاع التي خصص لها سنة

1959 مثلا 3.6 مليار فرنك، يضاف إليها ميزانية المصالح الخاصة المقدر بـ 2.045 مليار فرنك ثم ميزانية وزارة الاتصالات والعلاقات العامة المقدرة بـ0.820 مليار فرنك، ورصدت لهذه الوزارات الثلاث مبلغا قدر سنة1959 بـ 6.425 مليار فرنك أي أكثر من ميزانية الثورة في كامل الولايات C.A.O.M, (G.G.A ,7G/513,S.d) وهو ما جعل فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا تعد الممول الأساسي للثورة بالخارج حيث ترى المصالح الأمنية الفرنسية بأن نسبة مساهماتها في تمويل الثورة تقدر بـ 83 % بحيث تخصص منها نسبة 54% لتغطية نفقات الثورة في الداخل والباقي يوجه للهيئات المركزية في الخارج، إلا أن تلك الأموال كثيرا ما تبقى لدى مصالح جيش التحرير الوطني في كل من تونس والمغرب بسبب غلق الحدود. (C.A.O.M, G.G.A, 7G/513 , S.d) ويرى رئيس الفيدرالية علي هارون [1] بأن الفيدرالية حولت في سنة 1958 مثلا مبلغا يقدر بـ 4.494.538.250 فرنك لصالح الثورة التحريرية (هارون 2012) وإلى غاية 1961 كانت الفيدرالية تخصص سنويا 50 مليون فرنك سنويا لكل ولاية تاريخية. (هارون، 2012).

ومهما يكن من أمر فإن الهيئات المركزية للثورة في الخارج أولت اهتماما كبيرا للجوانب العسكرية لكونها تمثل الثورة في الخارج خاصة ما يتعلق بدعم جيش الحدود المتمركز على الحدود الشرقية والغربية للبلاد قصد التأثير على قوات الاحتلال ومن ثم إمكانية إيصال الدعم الخارجي إلى قادة الثورة في الداخل أو على الأقل تخفيف الضغط على وحدات جيش التحرير المقاتلة في الميدان.

3) النفقات الخاصة بدعم الشعب : والمتمثلة في المنح والمساعدات المختلفة وتمثل نفس القيمة المالية تقريبا مع النفقات العسكرية، والتي قدرت سنة 1959 مثلا بـ 47.2 % من مجموع النفقات العامة، وتتمثل في المنح العائلية للمجاهدين ومساعدة العائلات المعوزة وعائلات الشهداء، وتقديم الدعم للمدارس القرآنية ولطلبة العلم . وتشير التقارير العسكرية الفرنسية إلى أن الخدمات الاجتماعية التي يقدمها جيش التحرير الوطني للسكان تختلف من ولاية لأخرى ومن فترة لأخرى تبعا للإمكانات المادية المتوفرة .) (S.H.A.T , 1H 1688,1960وبهذا نفهم بأن قيادة الثورة التحريرية اهتمت بالجوانب العسكرية قصد تحقيق الانتصارات الميدانية على العدو كما أولت عناية خاصة بالجانب الاجتماعي للسكان باعتبارهم مصدر قوة الثورة واستمراريتها .

4) المنح : حُدَّدت منح للأسرى وعائلات الشهداء، بحيث خصصت لكل عائلة تقطن في الريف مبلغا شهريا يقدر بـ 2000 فرنك شهريا كأساس بزيادة 2000 فرنك عن كل شخص، أما بالنسبة لسكان المدن فقد خصصت للعائلات المعنية 5000 فرنك شهريا مع إضافة 2000 فرنك لكل شخص(وزارة المجاهدين، 1996)

5) المساعدات : تقدم للعائلات المعوزة وبدون دخل، والتي تخضع قيمتها للإمكانات المادية للقسم أو الناحية وكذا للقيمة المالية التي يتبرع بها سكان الإقليم الذي تقيم فيه العائلات التي تتلقى المساعدات،

بحيث كثيرا ما يتم ذلك أثناء إقامة الولائم أو بمناسبة الأعياد الدينية ومواسم جمع المحاصيل الزراعية وغيرها من المناسبات. (اتحادية بوقرة 2002)

6) نفقات الاتصالات: يعد قطاع الاتصالات من المهام الأساسية في الثورة التحريرية، ولذلك نجده من بين الهياكل الأساسية لهياكل الثورة[1] من القسم حتى الولاية، وتقدر نسبة الأموال التي ترصد لهذا القطاع بـ 5 % من مجموع المبلغ الإجمالي المخصص للهيكل التنظيمي. (S.H.A.T , 1H 1688, 1960) وتختلف قيمة المبلغ المالي المرصد لهذا القطاع باختلاف الولايات التاريخية، وما تملكه من احتياطات ماليه، ومن ظرف لأخر .

7) الأجور: حددت أرضية مؤتمر الصومام مجموعة من الفئات التي تتقاضى أجورا أو منحا من ميزانية الثورة وهي.

الرقم	الرتبة العسكرية	الأجرة الشهرية	الرقم	الرتبة العسكرية	الأجرة الشهرية
01	الجندي	1000	07	الضابط الأول	3500
02	الجندي الأول	1200	08	الملازم الثاني	3000
03	العريف	1500	09	الضابط الثاني	4000
04	العريف الأول	1800	10	الصاغ الأول	4500
05	المساعد	2000	11	الضاغ الثاني	5000
06	الملازم	2500	ـــــ	ـــــــــ	ـــــــــــ

(الوحدة: بالفرنك الفرنسي)

في حين حدد أجر الممرض بنفس أجر العريف أي 1500 فرنك، وحدّد مرتب الطبيب العسكري بنفس أجر الملازم أي 2500 فرنك، وأجر الطبيب بـ 3500 فرنك، وهو ما يشابه أجر الضابط الأول (وزارة المجاهدين، 1996)

وإذا كانت أرضية الصومام قد حدّدت القواسم المشتركة في سياسة التمويل على مستوى مختلف الولايات، إلا أن الثورة حافظت على السلطة التقديرية لقادة الهياكل الثورية لتقدير حجم الإعانات المادية للعائلات المحتاجة طبقا لدرجة الاحتياج وللإمكانات المادية المتوفرة في كل قسم مثلا، كما أن الهيئات الثورية رفعت من قيمة المنح المقدمة لسكان المدن نظرا لزيادة النفقات العامة بها بالمقارنة مع الأماكن الريفية التي تقل فيها نسبة النفقات العامة.

ج) الصعوبات التي واجهت التمويل الداخلي للثورة : واجهت الثورة التحريرية العديد من الصعوبات للحصول على الأموال، ومن ثم قدرة الولايات التاريخية على تحقيق الاكتفاء الذاتي في مجال التمويل، والتي من بينها:

1) سياسة الحصار المفروضة على الجزائريين: نظرا لإدراك السلطات الفرنسية لطبيعة الثورة الجزائرية المتمثلة طابعها الشعبي في جميع أوجهه السياسية، العسكرية والمادية، فإنها عمدت إلى محاولة تجفيف كل مصادر الدعم الشعبي لها ومنها عملية التمويل لارتباطها بتوفير كل الاحتياجات المادية للثورة مما جعل السلطات الفرنسية تشدد من مراقبتها على الجزائريين قصد منعهم من دعم الثورة. (المجلس الولائي للمجاهدين للمدية، "حوار" 1997) حيث تم الإكثار من أساليب المراقبة في مؤسسات العمل، الطرقات، الأسواق العمومية، في الأرياف والمدن على كل من يشتبه فيهم على أنهم يتعاملوا مع الثورة تجنبا للحصول على الدعم المادي لا سيما الأموال (اتحادية المجاهدين لتابلاط 1999) خاصة وأن السلطات الفرنسية كانت تدرك جيدا بأن كل أشكال الدعم المادي للثورة تأتي من طرف المواطنين، مما جعلها تشدد الضغط على عملية جمع الأموال وطرق تخزينها ومجالات إنفاقها.(مجلس المجاهدين للمدية 1999) وكلفت تلك السلطات مختلف مصالحها للبحث عن شبكة الدعم المالي للثورة سواء في شكل اشتراك، تبرع ضرائب وغيرها من مصادر تمويل جبهة التحرير الوطني.(C.A.O.M.G.GA, 3R/455. S.d) ويفهم من هذا بأن أجهزة الاستعمار أولت عناية كبيرة بهذا القطاع، للحيلولة دون وصول الدعم المادي وخاصة الأموال للهيئات الثورية حتى لا يتسنى لها توفير مستلزمات الكفاح المسلح، وكذا الخدمات العامة لوحدات جيش التحرير الوطني وللمواطنين المتعاملين مع الثورة .

2)كثرة البطالة في أوساط الشعب الجزائري لا سيما بعدما أقدمت إدارة الاحتلال على الإكثار من المحتشدات و المناطق المحرمة، كما ابعدت الفلاحين عن اراضيهم التي تعد مصدر رزقهم، وهو ما أثر سلبا على عملية تمويل الثورة بحيث لم يعد بعض المواطنين بقادرين على الاشتراك ولو بدينار واحد في الشهر، الأمر الذي صعب على الاتحادات الوطنية التابعة لجبهة التحرير الوطني من جمع الأموال. , (Michel 2007) وإن كانت عملية التمويل قد تأثرت بفعل انتشار المحتشدات المعتقلات والسجون لكنها لم تتوقف بفعل شبكة التنظيم التي أحدثتها جبهة التحرير الوطني داخل تلك المراكز.

3) اكتشاف أموال الثورة : تشير مصالح الاستخبارات الفرنسية إلى أن قواتها العسكرية كثيرا ما تكتشف الأموال التي خزنها ممثلو الثورة التحريرية وتستولي عليها.(1961 , C.A.O.M.G.G.A, 7G/1220) وذلك في إطار الحرب الاقتصادية التي مارستها سلطات الاحتلال ضد الثورة، سواء فيما يتعلق بتجفيف مصادر دخلها المالي، وتدمير النشاط الزراعي للجزائريين، ومنعهم من تربية المواشي أو الاستيلاء عليها، و اعتبار المناطق الرعوية التي يقطنون بها مناطق محرمة (C.A.O.M, G.G.A, 2R/162,1960) لكون الحرب

المعلنة ضد جيش التحرير الوطني كانت شاملة بما في ذلك الحرب الاقتصادية الشاملة التي لها علاقة بكل القطاعات الأخرى.

4) غلق الحدود الشرقية والغربية : أثرت هذه العملية بشكل كبير على دخول المساعدات المالية إلى التراب الوطني والتي قدرت في سنة 1956 على سبيل المثال بـ 300.000.0000 مليون فرنك شهريا. C.A.O.M, G.G.A.3R/ 457 1959() كما تراجع الدعم الخارجي للثورة في الداخل بين سنتي 1956-1957 نتيجة لعدم وجود هيئة رسمية للثورة في الخارج تتكفل بجمع الأموال وإدخالها إلى الولايات التاريخية، نتيجة لاختطاف أعضاء الوفد الخارجي بتاريخ 1957/10/22 (1957 , 457 /C.A.O.M, G.G.A.3R) وبعد تشكيل الحكومة المؤقتة والتي من بين أهدافها الأساسية تقديم الدعم بكل أشكاله للثورة في الداخل، إرتفع المبلغ المحول إلى الداخل في سنة 1958 إلى 600.0000.000 مليون فرنك حسب المصالح التاريخية الفرنسية (S.H.A.T, 1H1689 , 1958) وبـ 868.700.000 حسب إيمانويل كولين (Emmanuelle 2008)، وهذا رغم السياسة الفرنسية الرامية إلى عزل الداخل عن الخارج خلال الفترة التي أعقبت سنة 1957، إلا أن ما يكن قوله أن سياسة الاحتلال قللت من عملية الدعم المالي الخارجي للثورة لكنها لم تستطيع إيقافه.

ومن هنا يمكن أن نستنتج بأنه رغم سياسة الضغط الممارسة من قبل سلطات الاحتلال على السكان سواء كانوا مقيمين في المدن أو الأرياف لإبعادهم عن الثورة ومنعهم من تقديم كل أشكال الدعم المادي لها، وقيام تلك السلطات بتطبيق العديد من السياسات الزجرية ضد الجزائريين مثل الإكثار من المناطق المحرمة، المحتشدات، السجون المعتقلات وفرض مراقبة مشددة على تحركاتهم ونشاطهم السياسي والاقتصادي بهدف إحداث القطيعة التامة بين الشعب وثورته إلا أن تلك السياسة رغم خطورتها وانعكاساتها السلبية على الثورة، لكنها لم تحقق كل أهدافها و استطاع قادة الهياكل الثورية داخل الوطن من التكيف مع الوضع الصعب بترشيد نفقات الحرب والاستغلال الأمثل لمبدأ شعبية الثورة من حيث البعد الاقتصادي ومنه المالي، وتوسيع عملية الدعم المادي لمختلف شرائح المجتمع الجزائري كل حسب استطاعته وترسيخ مبدأ التكافل الاجتماعي في أوساط الشعب الجزائري إلى أبعد الحدود، كما فرض على الأوروبيين الذي يستحوذون على المزارع والورشات الصناعية والتجار المساهمة المالية لصالح الثورة باعتبار أن تلك الثروة التي بحوزتهم تحصلوا عليها بشتى الطرق على أرض الجزائر، ولكونهم يدعون بأنهم من أوروبي الجزائر فعليهم أن يدفعوا عربون ولائهم لممثلي الثورة الجزائرية، ودعمها على الأقل من الناحية الاقتصادية، ثم ليكون ذلك الدعم ضمانا لممتلكتهم وأرواحهم خلال مرحلة الثورة . وهذا يعني بأن قيادة الثورة ابتكرت أساليب مالية لتوحيد المجتمع الجزائري حول ثورته وجعله يفيد ويستفيد مما يقدم للثورة تحت شعار " الثورة من الشعب وإلى الشعب " ودفعت بالأوروبيين إلى المساهمة المالية لصالح الثورة إما طوعا أو كراهية، مقابل ما يبتز من الجزائريين لصالح الخزينة الفرنسية . ولعل ذلك يعود إلى نضج الفكر الثوري لدى الجزائريين بعد العديد من التجارب التي عرفتها الحركة الوطنية بأبعادها

السياسية، العسكرية، الاجتماعية والاقتصادية ليتجسد ذلك في البعد الشعبي للثورة التحريرية في جميع مقاصده والذي كان مصدر قوتها وسر صمودها ونجاحها.

الهوامش :

آ) قائمة المصادروالمراجع باللغة العربية:

1. اتحادية المجاهدين لدائرة بوقرة، 2002، الندوة التاريخية لمجاهدي دائرة بوقرة ولاية البليدة، بمقر بلدية حمام ملوان (البليدة).
2. أعضاء اتحادية المجاهدين لدائرة تابلاط ولاية المدية، 1999، حوار حول مراقبة السلطات الفرنسية لعملية الدعم الشعبي للثورة، بمقر اتحادية المجاهدين بتابلاط (المدية).
3. أعضاء المجلس الولائي للمجاهدين لولاية المدية، 1997، حوار حول الدعم الشعبي للثورة في الولاية الرابعة، بمقر منظمة المجاهدين بالمدية.
4. بلحاج صالح، 2009، تاريخ الثورة الجزائرية " صانعوا أول نوفمبر 1954، دار الكتاب الحديث، الجزائر.
5. بن تومي عمر، 2005، حوار التنظيم السياسي، الفدائي والمالي في العاصمة بعد معركة الجزائر، بمنزله الكائن ببلدية الأبيار، الجزائر العاصمة .
6. بوضياف محمد، 2010 ، التحضير لأول نوفمبر 1954، دار الخليل القاسمي، الجزائر.
7. بوعزيز يحي، 2008، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر .
8. بومالي أحسن، (د.ت) إستراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954-1956، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر.
9. حربي محمد، 1994، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، ترجمة نجيب عيدة، صالح المثلوثي، الجزائر .
10. ديرة أمحمد، 2001،حوار مع المجاهد ، حول دور المعتقلين والمساجين في دعم الثورة، بمنزل المجاهد خليفة عبد القادر (المدرب) الكائن ببلدية العاشور، ولاية الجزائر.
11. عثماني مسعود، 2012، الثورة الجزائرية " أمام الرهان الصعب " دار الهدى الجزائر.
12. العثيمن محمد بن صالح، 2004، الشرح الممتع على زاد المستقنع، المجلد الثامن، دار إبن الجوزي، اللملكة العربية السعودية .
13. محاسيس نجاة سليم، 2011، معجم المعارك التاريخية، دار زهران للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية .
14. مريوش أحمد، 2013، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، الجزء الأول، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر .
15. مشاطي محمد، 2010 ، مسار مناضل، ترجمة زينب قبي، منشورات الشهاب، الجزائر .
16. المنظمة الوطنية للمجاهدين، (د.ت) الطريق إلى نوفمبر، المجلد الأول، الجزء الثالث، تعقيب لخضر بن طوبال، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر .
17. المنظمة الوطنية للمجاهدين، (د.ت) التقرير السياسي للولاية الرابعة، المقدم للملتقى الوطني الثالث لتسجيل وقائع وأحداث الثورة التحريرية، الجزء الأول من 20 أوت 1956 إلى نهاية 1958، مطبعة المجلس الشعبي الوطني، الجزائر .

18. المنظمة الوطنية للمجاهدين، (د.ت) المكتب الولائي للمدية، ملف تاريخ الثورة التحريرية، مرحلة 20 /1956/08، إلى نهاية 1958 (د.ط) الجزائر .

19. وزارة المجاهدين، 1996، وثائق مؤتمر الصومام، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر .

20. ومالي أحسن ب، 2010، أدوات التجنيد والتعبئة الجماهيرية أثناء الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1956، دار المعرفة، الجزائر.

21. يوسف محمد، 2007، الجزائر في ظل المسيرة النضالية " المنظمة الخاصة " تقديم وتعريب محمد الشريف بن دالي حسين، منشورات تالة الجزائر .

ب) قائمة المصادروالمراجع باللغة الفرنسية

22 .Alistair Horne , 2007, Histoire de la Guerre D'Algérie , Edition Dahlab , Alger .

23. C.A.O.M , G.G.A , 3R/458 , 1957, Dossier « Surveillance des Frontières 1957 » Les Objectifs de la Fermeture de la Frontières , Délivré par la Secrétariat Permanant de la Défense en Algérie le 15/10/1957.

24. C.A.O.M , G.G.A., 7G/1220, 1962 , Dossier « Collecte de Fonds 1955-1962 , Financement de la Rébellion » Ex – en Provence.

25. C.A.O.M, G.G.A, 2R/162 , 1960, Dossier « Lutte Economique et Financer contre Rébellions » le 12/12/1960 , Ex – en Provence .

26. C.A.O.M, G.G.A, 7G/513 , (s.d) Dossier « Dépenses du F.L.N.à l'Intérieure)) Ex –en Provence 27.C.A.O.M, G.G.A., 7G/1220, 1959 , Dossier « Collectes du F.L.N.1957-1959 » Ex – en Provence.

28. C.A.O.M, G.G.A.3R/ 457 , 1959, Dossier « Surveillance les Frontières » 1957-1959, Ex – en Provence.

29. C.A.O.M. G.G.A, 3R/457, 1957 , Dossier « surveillance les Frontières 1957 » Ex – en Provence.

30. C.A.O.M.G.G.A.2R/162 , 1960 , Dossier « Lutte économique et Financer contre les Rébellions , le 12/12/1960 »

31. C.A.O.M.G.G.A/120 ,1957, Dossier Financement du F.L.N.1957.1959.Note de Service délivré pare le Commissaire Divisionnaire, Chef du Service Central des Renseignements Généraux, à Alger.

32. C.A.O.M.G.G.A/120, 1957 « Note de Renseignement Délivré par le Commissaire Démissionnaire des Renseignement Généraux d'Alger , Ex –en Provence .

33. C.AO.M.G.G.A, 3R/573, 1958 , Dossier « les Finances du F.L. en 1958 » Tableau A. Ex – en Provence .

34. Emmanuelle Colin –Jeanvoine et Stéphane Derozier ,2008, le Financement du F.L.N , Edition Bouchère France.

35. Gilbert Meynier , 2003, Histoire Intérieure du F.L.N 1954-1962 , Edition Casbah , Alger 2003,
36. Jean – Charles Jauffret et Maurice Vaisse , 2001 , Militaire et Guérilla dans la Guerre d'Algérie , Edition Complexe Paris.
37. Michel Launay ,2007, Paysans Algériens 1960-2006 , Edition , Karthala Paris .
38. Mohamed Guentari , 2004 , Organisation Politico – Administrative et Militaire de la Révolution Algérienne 1954-1962, Volume 01, Edition Office des Publications Universitaires , Alger..
39. Mohamed Harbi , 1981, le F.L.N. Mirage et Réalité , Edition Jeune Afrique , Paris.
40. Mohamed Harbi , 1998la Guerre Commence en Algérie , Edition Complexe , Paris.
41. Mohamed Harbi , 2010, les Archives de la Révolution Algérienne , Edition Dahlab , Alger Yves Michaud , 2004, la Guerre d'Algérie 1954-1962, Edition Odile Jacobe . Paris .
42. Nassima Bougherara , 2006 , les Rapports Franco –Allemands à l'Epreuve de la Question Algérienne 1955-1963, Edition Peter Lang , Bern .
43. S.H.A.T , 1H 2584 ,1959 , Dossier N° 03 « Lettres de Menaces Adressées par le Front de Libération Nationale à des Français de Souche Nord-Africaine et des Français de souche Européenne 1956-1959 » Paris.
44. S.H.A.T, 1H 1687 ,1959 , Dossier N° 02 « Financement du F.L.N , de la Rébellion 1957-1959 » Paris.
45. S.H.A.T, 1H 1688 ,1960 , « les Dépenses du F.L.N. à l'Intérieur et à l'Extérieur de l'Algérie 1959-1960 »
46. S.H.A.T, 1H 2734 , 1959 , Dossier « Structure du .F.L.N. » Alger Février 1959. Paris.
47. S.H.A.T, 1H1689, 1958, Dossier N°01 « Financement de la Rébellion » en 1958.Paris.
48. S.H.A.T, 1H2754 , (s.d) « Directives Politiques , sur l'Organisations Générales En wilaya 4 » Annexe N° 03., Paris .
49. Sylvie Thénault , 2010 , Histoire de la Guerre d'Indépendance Algérienne , Edition el Maarifa , Alger .

التأثيرات الدينية القرطاجية على النوميد

أ/ قفاف البشير، جامعة ابن خلدون تيارت

بعد انتقال الفينيقيين من الساحل الكنعاني إلى بلاد المغرب القديم وتأسيس قرطاجة، اصطحبوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وديانتهم التي كان لها تأثير واضح على الديانة المحلية النوميدية، فظهرت أسماء جديدة للإلهة والطقوس الدينية وحتي كيفية العبادة، ونجد إن هذا التأثير اخذ أشكال عدة، فإما ان ظهرت معبودات جديدة وإما اندمجت الديانة الوافدة مع المحلية وفيه من المظاهر الدينية التي بقيت على حالها ولكن تطورت لتتناسب مع الظروف الجديدة .

1- التأثيرات الدينية الداخلية على النوميد:

كان للبربر ديانتهم التي لا تختلف عن ديانات الأمم الوثنية إلا من حيث تفاصيل العبادات وتماثيل المعبودات التي هي من توابع اللغات، وبنزول الفينيقيين بسواحل بلاد البربر وإقامتهم لمحطات تجارية منذ نهاية الألف الثانية قبل الميلاد لم يلق معارضة من طرف السكان المحليين، لما تأسست مدينة قرطاجة 814 قبل الميلاد ليؤكد طبيعة العلاقات السلمية بينهما لمدة طويلة.[1]

ولما جاورهم القرطاجيون تأثروا بهم في عقيدتهم وقلدوهم في كثير من طرائق عبادتهم وغيروا بعض ما ورثوه عن أسلافهم.[2]

وقد بدأ تأثر كبير من طرف البربر للقرطاجيين في كثير من المجالات والتي ظهرت في الأضرحة، وفي طريقة الاعتقاد أيضا، كما يشير أيضا أن في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد إلى وجود ثلاث ممالك بربرية مستقلة وهي مملكة "قرطاجة" و "نوميديا" بشطريها "الماصيل" و"الماصيصل" ومملكة موريتانيا.[3]

إذ يمثل الدخول الفينيقي إلى شمال إفريقيا نقطة تحول في المعتقدات الليبية إذ طرأ عليها تطورا واضحا وتعرضه للتأثر بالديانة الكنعانية الشرقية فاندمجت الديانة الفينيقية في الديانة الليبية .[4]

فكأن هذه الحضارة القرطاجية قد تجنست رغم أصولها الشرقية البعيدة وصارت في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد تركيبا للعناصر الشرقية وللعناصر البربرية المتعددة مثل "بعل حمون" أهم آلهتها نتيجة انضمام "بعل" إلى "حمون" لهذا فقد تكونت في نوميديا حضارة قرطاجية بربرية حقيقية دامت في تطورها زمنا بعيدا بعد سقوط قرطاجة.[5]

هذه الديانة التي كانت متمكنة من نفوس أهلها متحكمة في سلوكاتهم المختلفة مسيطرة على أفكارهم ونظرتهم للحياة وقد جسدت الديانة الوثنية القرطاجية ظاهرة ميل الليبيين إلى التعلق بالسماء والأجرام السماوية التي كانت معروفة عندهم من قبل، وربما يفسر تغلغل الديانة القرطاجية في أوساط الأهالي لكونها استجابت إلى هذه النزعة.[6]، وتغلغلت هذه الديانة الشرقية في مناطق لم تكن تابعة لقرطاجة من الناحية السياسية بطرق سلمية وغير مباشرة، حيث أخذ النوميديون المعتقدات القرطاجية

وترجموها حسب أفكارهم ثم ضموها لمعتقداتهم وتصوراتهم القديمة.[7]، فقد عرف هذا التأثير القرطاجي مدة أكثر من عشر قرون، أي في مدة أكثر بمرتين من المدة التي بقيت بها[8].

ويتجلى تأثير المعتقدات في النوميديين من خلال الآلهة القرطاجية التي عبدها النوميديين وممارستهم الطقوس والشعائر الدينية القرطاجية ،وكذلك في طرق دفن موتاهم .[9]

حيث ظلت العادات القرطاجية القديمة والطقوس الدينية كما هي تماما، وعلى وجه الخصوص في المناطق الداخلية، وفي القرى التي كانت أقل قابلية لتأثير الحضارة الرومانية الجديدة ويعود سبب هذا التأثير إلى خبرة النوميديين الذين خدموا في جيش قرطاجة.[10]

وذلك من خلال الامتزاج الواضح بين عدد من العناصر الحضارية في ذلك المجتمع إلى جانب العنصر القرطاجي الفينيقي، وجد العنصر الليبي المحلي والعنصر اليوناني المتداخل في بعض مجالات المجتمع القرطاجي حيث ساهم هذا الامتزاج إلى انتقال النوميديين من الانعزالية نسبيا إلى مجتمع متطور له فاعلية في تاريخ منطقة البحر الأبيض المتوسط.[11]

2- الآلهة القرطاجية في نوميديا:

تبنى النوميديون عبادة "بعل حمون" القرطاجي وانتشرت عبادته في عهد "ماسينيسا" وما بعده حيث ظهر اختلاف كبير حول أصوله فمنهم من يرى أنه إفريقي والبعض يرى أنه قرطاجي، كما تبنو عبادة الإلهة "تانيت" التي أصبحت أهم المعبودات عندهم كما اهتم ملوك النوميديون بالمعتقدات الدينية القرطاجية الخاصة بالزراعة، فهي آلهة قرطاجية وكما يبدو أنها نتاج اندماج المعبودات الفينيقية "إلات" و"عشتروت" ولها خصائص سماوية فهي حامية المحاصيل الزراعية.[12]

ومن مظاهر التأثر بالديانة الشرقية أن الأهالي تسموا بأسماء دينية منسوبة إلى الآلهة مثل "مستنبعل"[13] و"أذر بعل" و "بد ملقرط"، وفي إنشاء الكثير من المعابد الآلهية المخصصة لعبادة بعل حمون وتانيت كالتي أنشأت لبعل حمون على أبواب كل مدينة مهمة منها معبدة الموجود على جانب القصر الملكي "بسيرتا" قسنطينة هذه المدينة التي عثر فيها على مواقع أثرية بونيقية كثيرة منها معبد "الحفرة"[14]

وأما عن الأضرحة الملكية والجدير بالذكر أن هندسة "المدغاسن" وعمارته تشكل مزيجا من العاصر القرطاجية وإغريقية ومصرية وتقاليد بربرية، وقبر الرومية يرى "جوداس" من جهة أخرى أن عبارة قبر الرومية التي استعملها العرب بعد الفتح بلاد المغرب أصلها فينيقي وتعني القبر الملكي"[15]

وأما عن الأضرحة البرجية أو شبيهة بالأبراج فقد شيدت في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، ويبدو أن هذا النوع من المدافن غريب عن تقاليد البنايات الجنائزية القديمة، كما أن هناك عدة مؤشرات تدل على أن أصول هذا النوع شرقية، فمظهره الخارجي وعناصره الهندسية تشبه إلى حد بعيد الأضرحة المنتشرة عبر حوض البحر المتوسط في فنيقا وسوريا مثل ضريح القديس.[16]

وأن هذا التأثير الشرقي ظهر خلال الوجود القرطاجي على حوض البحر المتوسط ثم تضاعفت خلال حكم الممالك البربرية في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد وبقي هذا النوع من العمارة خلال الفترة الرومانية.[17]

إضافة إلى ضريح "الخروب" الذي يرى البعض أنه مستوحى من التأثير القرطاجي، الذي يظهر على جبهات البناء التي استعملها القرطاجيون في أواخر عهدهم أو التجوفية أو الطنف المصري الشائع عند القرطاجيين.[18]

وما تذكره أيضا الطفاية بسوسة التي وجد بها الكثير من النصب، والتي يمكن أن تؤرخ بزمن "ماسينيسا" وفي فترات لاحقة عرفت نوميديا إنشاء الكثير من المعابد المخصصة لعبادة بعل حمون وتانيت وقد دلت البقايا الأثرية التي وجدت في أماكن مختلفة من نوميديا، تونس الجزائر منها النفوذ التي تحمل واجهات المعابد البونيقية وصور الآلهة البونيقية على النقود النوميدية والبقايا الأثرية التي وجدت في المعابد كمعبد "حدرموت" و"معبد الحفرة" بسيرتا التي تعود إلى فترة "ماسينسا" و"مسيبسا"، حيث وجدت أدوات مشابهة للأدوات القرطاجية إضافة إلى النقوش التي وجدت في نوميديا، والتي تمثل إهداءات ودعوات وصلوات للآلهة القرطاجية خاصة بعل حمون وتانيت، حيث استمرت عبادة هذين الإلهين أيضا خلال العهد الروماني،حيث يرى" Le CLAY.M "أن معظم المعابد التي خصصت للإله الروماني "ساتورن" إنما كانت مخصصة في الأصل ل"بعل حمون"، ولكن الإلهين الكبيرين أخذا اسمين جديدين هما "ساتورن وكايليستيس" وتدل الرموز المنتشرة للمعبودين بعل حمون و تانيت في المدن النوميدية منها قصر لمطة و قسنطينة على أن النوميديين اعتقدوا فيهما وعبدوهما حيث عثر على كثير من الشواهد الأثرية من نقوش ورموز لكليهما في مختلف المدن النوميدية من نصب كتب عليها "إلى المولى بعل وإلى الربة تانيت بيني بعل"[19]

3- **الطقوس الدينية والجنائزية القرطاجية في نوميديا:**

أ-الطقوس الدينية القرطاجية في نوميديا:

إن من أهم الطقوس الدينية التي ظلت خلال عهد الممالك البربرية هي ممارسة عادة تقديم الضحايا البشرية التي كانت موجودة في مدينة كيرتا على عهد ماسينيسا على الطريقة القرطاجية.[20]

حيث عثر على كتابات بكيرتا وضواحيها أكدت أن النوميد كانوا يضحون بأولادهم إلى الإلهة "مولكمور" وأشارت النصوص إلى هذا النوع من الأضحية في قرطاجة إلى الإله بعل حمون أكدت الاكتشافات الأثرية من خلال وجود بقايا عظمية للأطفال والنقيشة عن هذه التقاليد، كما أشارت النصوص البونيقية إلى التضحية بالأطفال من أجل الملك والخاص بعبادة تانيت.[21]

وتتم هذه التضحية ليلا في الهواء الطلق بحضور جمع غفير من الناس يلتفون حول تمثال الإله يترقبون عملية الأضحية ويصاحب الاحتفال الموسيقيون والراقصون ويستلمها الكاهن ثم يتقدم بها نحو المذبح، وسرعان ما يذبح الضحية بشكل غامض ويضعها بين يدي التمثال لتنزلق نحو اللهب المقدس، أما على

الشواهد الأثرية المكتشفة لا تقدم لنا صورة واضحة ودقيقة عن تلك الطقوس والتراتيل المصاحبة للاحتفالات الدينية.[22]

ما يمكننا في محاولة إعادة بناء طرق إجراء تلك الطقوس هذا الفراغ الذي جعل المؤرخين يحاولون إظهار بشاعة الحضارة البونيقية.[23]

إضافة أن عدم تدخل الرومان في عادات وتقاليد سكان شمال إفريقيا هذه الفترة سوى تحريم عادة تقديم الضحايا البشرية، أما النظم الدينية بقيت كما هي.[24]

ولقد ظهر التأثير القرطاجي على النوميد كما ذكرنا آنفا في التضحية البشرية من خلال الآثار التي أكدت لنا ذلك حتى لا يتسرب إلينا الشك إطلاقا من خلال وجود مسلتين وجدتا بالحفرة أن النوميد كانوا يمارسون الأضحيات الآدمية أبرزها صورة لطفل معوق قدمه أهله كقربان للإله "ملك" في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، وبهذا نلاحظ أن هذه التقاليد دخلت نوميديا عن طريق قرطاجة وهو تقليد قديم عند الكنعانيين والشعوب السامية الشرقية، كما لوحظ أيضا أن تضحية الأطفال قد استبدلت بحيوانات وهذا في كل من قرطاجة منذ نهاية القرن الأول قبل الميلاد وفي "دوجا" منذ القرن الثاني قبل الميلاد كما لوحظ أيضا بالقرب النوميدي حيث يتم استبدال الأطفال عند تقديمهم إلى المحرقة بحيوان.[25]

وجدت في نوميديا موائد القربان وبقايا إحراق الضحايا البديلة كطقس "الملشومور" حيث بقي إلى فترة متقدمة من العهد الروماني.[26]

وعلى الرغم مما تتطلبه المعتقدات الدينية الشرقية القرطاجية من تكاليف باهضة الثمن كالتضحية البشرية إلا أنها وجدت استجابة في نفوس الأهالي فاعتقوها متحملين تكلفة شعائرها الباهضة.[27]

وقد أنتج تبني النوميديين للمعتقدات الدينية القرطاجية صعوبة في التفريق بين الأقاليم القرطاجية والمواقع النوميدية حيث لم يكن هناك فرق بينهما في الديانة فقد حدث اندماج بين الديانة القرطاجية والليبية فاندمج الكبش المقدس للأهالي مع بعل الفينيقي – القرطاجي وقد استمر الأهالي يقدمون الأضاحي البشرية للإله بعل حمون وتانيت رغم إصدار مجلس الشيوخ الروماني قوانين تمنع الأضحية البشرية فقط دون الحيوانية[28]، حيث استمر الناس بالتضحية البشرية إلى غاية نهاية القرن الأول بعد المسيح.[29]

وفي الأخير نقول أن تزاوج القرطاجيين مع البربر السكان المحليين أصبح شيئا متميزا بحضارة رفيعة، وقد احتفظ هذا الشعب بتلك الحضارة حتى فيما بعد خراب العاصمة، ولقد مهد السبيل الوحيد للإسلام وللغة العربية إفريقيا، كما عرف انتشار لغة سامية الطابع.[30]

ب - الطقوس الجنائزية القرطاجية في نوميديا:

تفيد الشواهد الأثرية التي وجدت في مواقع مختلفة من الجزائر بأن النوميديين قد تأثروا بطرق الدفن القرطاجية إلا أن هناك اختلاف طفيف في عمق السراديب والوضعيات التي وجد عليها الموتى.[31]

يجدر بنا أن نشير أيضا أن هذه الشعائر لم تكن من خصوصيات السكان المحليين بل مارستها كذلك الشعوب الأخرى القديمة لهم إلى جانب لا يمكن أن نتجاهل تأثير الحضارات القديمة على الحياة الدينية في المغرب أين تجسد اقتباس البربر لبعض العادات الجنائزية بفضل احتكاكهم بالأمم المتحضرة وساعدهم في ذلك التواجد الفينيقي في العهد القرطاجي خاصة.[32]

فقد كشفت الحفريات على كثير من القبور ذات الطابع القرطاجي التي تعود معظمها إلى فترة متأخرة من تاريخ قرطاجة، أما بعضها فيعود إلى قرطاجة في العهد الروماني منها ما وجد في بونة-سيرتا.[33]

وتمثل القبور على العموم في حفرة أو بئر أو سرداب وتكون الحفرة أكثر اتساعا من جهة الرأس والكتفين وبذلك تأخذ العام للجسم عموما عند القرطاجيين.[34]

أما البئر عند النوميديين فهي أكثر اتساعا من مثيلاتها في قرطاجة ولكن،ها أقل عمقا حيث لا يزيد عمقها عن ثلاثة أمتار مثل القبور التي وجدت في بئر قوراية غرب الجزائر العاصمة، وهذا البئر مزود بسلالم للوصول نحو أسفل البئر، ونظرا لقلة العمق تعذر الدفن في طوابق كما في قرطاجة ولكن لا يمكن أن تجد حفرا في الجوانب احتوت على الموتى، ولم تكن السراديب منحوتة بنفس الشكل الذي كانت تنحت به السراديب القرطاجية ،ففي سوسة مثلا نجد الشكل الدائري ما يعني أن الميت لا يكون ممددا ولكن في العادة ما تكون غرفة الدفن مستطيلة وعادة ما تكون مداخل القبور مغطاة ببلاطات وفي بعض الأحيان يكون القبر محاط بحجارة ما يذكرا بـ "التيميلوس" ووضع النوميديون على قبورهم شواهد صخرية مثل القرطاجيين تماما.[35]

كان الميت ممددا وملقى على ظهره ويداه مضمومتان على الصدر، وكان رأس الميت يوضع في الداخل أما الأرجل ففي المدخل، أما الأرجل ففي المدخل أما التوجيه فيختلف ونتساءل عن جدوى وجود دبوس بالقرب من العنق أو الكتفين يفسر ذلك بكون الجثة كانت ملفوفة في قطعة من القماش الذي تأكل مع مرور الزمن فلم يبق له أثر، وبقيت الدبابيس المعدنية الأكثر مقاومة للعوامل الطبيعية.[36]

ووجد في نوميديا قبور ذات طابع ممتزج قرطاجي وليبي منها التي أخذ القبر فيها شكلا دائريا وجدت أرجل الميت مطوية وتم تلوين الجثة باللون الأحمر وهي طقوس ليبية قديمة.[37]

إضافة إلى عادة الحرق عرفها النوميديون الشرقيون في فترة متأخرة بواسطة الارستقراطية القرطاجية غير أن اكتشافات الأثرية في المغرب أثبتت قدمها عد النوميديين الغربيين والموريين وبالتالي من المحتمل جدا أنها استعملت في نوميديا الشرقية منذ القرن الرابع تحت تأثير المغاربة الغربيون.[38]وضع رماد الجثث في ضريح الخروب ويحتمل كذلك في سيقا.[39]

وازدادت القبور التي احتوت على عظام محروقة بعد القرن الثالث وزود هؤلاء الموتى بأثاث جنائزي ومنهم من يرى عكس العادة في قرطاجة إذا لم يكن الموتى المحرقين مزودون بأثاث جنائزي.[40]

ومهم من يرى الطلاء الأحمر "القرميد" هو تقليد شرقي ويستعمل في طلاء الجماجم وأحيانا التوابيت الخشبية فقد عرف هذا الطلاء انتشار واسع بمقابر الساحل التونسي سواء كانت القبور ذات تصور بوني أو ليبي.[41]

وتجدر الإشارة أن ضريح "الخروب" على عكس الأضرحة الأخرى يزخر بأثاث جنائزي متعدد ومتنوع اكتشف لأول مرة م خلال حفريات 1915-1916 بعضه في حالة جيدة والبعض الآخر متضرر ويتكون في غالب الأحيان من أسلحة دفاعية وهجومية زينة متنوعة وجرا وأواني فضية.[42]

وبالقرب من الموتى وجد الأثاث الجنائزي منها ما هو خاص بالميت كالخاتم وأدوات صنعت من أجله بعد وفاته ليستعين بها في حياته الأخرى، ويتمثل الأثاث الجنائزي في الفخاريات والمزهريات وأباريق ويضاف إليه مواد خزفية أخرى.[43]

ومواد زجاجية كالمصابيح والحواجل ومواد معدنية كالمرايا والدبابيس والذهب ومواد من العاج كالمشط وكثير من التماثيل الصغيرة للألهة ولأشخاص كما عثر في بعض القبور على بقايا عظام حيوانية وبقايا نباتية كالفواكه.[44]

ووجود هذه المواد دليل على اعتقاد النوميديين القدماء في الحياة الأخرى حيث كان الميت يزود بكل ما كان يستعمله في حياته الأخرى، ويعتقد أن مراسيم الدفن كانت تتم في جو م الخشوع والصلوات التي كان يقوم بها الكهان ولكن لم تقدم لنا المصادر المكتوبة والأثرية المعلومات الكافية لتناول ذلك بشيء من التفصيل، والتأكيد وتؤكد الشواهد الأثرية التي وجدت في مناطق مختلفة من نوميديا قد تأثروا بالقرطاجيين ببناء الأضرحة الضخمة على أبواب مدنهم التي يطلق عليها "لموزولي" Mousolee" الضريح الملكي دوقا والمدغاسن Medracen.[45]

حيث يلاحظ الدارس من خلال المخلفات الأثرية المتمثلة في الحجارة المحيطة بالمعبد أن له طابعا نوميديا ويظهر فيه تأثير بونيقي إغريقي خاصة في الطابع الإغريقي الإفريز الفينيقي.[46]

ويظهر ضريح الصومعة بقسنطينة Soumaa Du Khroub ويظهر في خصائصه هذا المعبد امتزاج بونيقي وإغريقي وحسب المؤرخين بأنه شيد على يد المعماريين القرطاجيين.[47]

والبعض الأخر عكس ذلك يرون أن الأضرحة هي تطور للبازينة المحلية ويعتقدون الفينيقيين قد نقلوا هذا النوع من بلادهم من الأضرحة إلى قرطاجة ثم نقلت هذه العادة عن طريق الاستقراطية القرطاجية إلى الملوك النوميديين وهو بناء على شكل مربع ينتهي بهرم، أما معبد دوجا Mausolée de Dougga وجدت به نصوص بالكتابة اللوبية والبونيقية.[48]

فقد احتوى معبد دوقة على نقشية أثرية حيث أن زيلاس، جد ماسينيسا الذي ورد اسمه في هذه النقشية كان يحمل لقب السبط بدلا من ملك مما يدل على مدى التأثير القرطاجي على حكام المدن النوميدية، في ذلك الوقت المتقدم من التاريخ، والنص اللوبي الذي احتوى على صفة إقليد التي تعني هي الأخرى الحاكم العسكري.[49]

أما المعبد الملكي الموريتاني الذي عرف باسم قبر الرومية فهو مزيج من تأثير اليوناني القرطاجي وتمثل تأثير القرطاجيين في الأعمدة التي بها نقشان فتسمى "أصولا أتيكية" وهي منتشرة في رسومات المسلات الفينيقية للقرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.[50]

والجدير بالذكر أن معظم النقائش التي وجدت في سيرتا كتب عليها بالبونية الحديثة اسم "بولقارت" و "حانو" ويبدو أهما سبطين فكل هذه اللقى الأثرية ذات تأثير بوني قد أعطت صورة واضحة لتأثير القرطاجيين على النوميد إلى حد كبير.[51]

في مجمل القول لقد استطاعت الممالك النوميدية بفضل احتكاكهم بالقرطاجيين خاصة، وبالشعوب الأخرى من أحداث تفاعل حضاري وهذا ما أكدته الشواهد الأثرية في أكثر من مرة بين أنظمتهم المحلية وبين التأثير الفينيقي البونيقي ساعدهم على خلق مجتمع متطور إلى حد بعيد، وبالرغم من استمرار التفاعل والتأثر الفعلي بالحضارات وخاصة القرطاجية احتفظوا ببعض المقومات الحضارية المحلية.[52]

وما يشد انتباهنا فقد عمت عبادة الآلهة القرطاجية عند النوميد بعل حامون وتانيت "بي بعل" وقد كانت عبادة الإله بعل حامون وجدت في نوميديا أرض ملائمة لازدهارها ولعل ما يدعم ذلك معبد الحفرة، حيث رافقته في النقوش الالهة تانيت إضافة إلى آلهة أخرى مثل "بعل إدير" و"ملقرت" حيث مثلت النصب التي كشفت بسيرتا بكل معطياتها وثائق أساسية للديانة النوميدية البونية ولم تزدهر ثقافة النوميديين إلا بعد أن امتزجت بالثقافة المحلية في شكلها الحضاري.[53]

لقد وجدت البصمة القرطاجية على الشعب النوميدي وخاصة في المناطق الداخلية، وذلك من المدغاسن le medhcen حيث تشهد تأثر نوميد بالهندسة المعمارية البونيقية، حيث وجدت آثار واضحة بمدى تأثر النوميد بالقرطاجيين في الجانب الديني في كودية الزعرور koodiat- Zaror شرق القديسية "صالصا" Salasa حيث وجدت بها مساحة صغيرة للتضحية ومنحوتات نذرية خالية من الكتابة.[54]

4 - **أصول الفكر الديني البربري**:

كان للبربر اتصال عظيم بمظاهر الطبيعة وبما فيها من عظمة كالأجرم العلوية والكواكب، كما أن الثور والكبش والتيس والأفعى هي رموز مؤهلة وكذلك بالنسبة للكهوف والمغارات وتحظى بمقام رفيع عندهم.

وكان البربر يعيشون على الزراعة وتربية الحيوانات لهذا كانت ديانتهم ديانة زراع ورعاة قبل كل شيء.[55]

وبناءا على هذا فإن النشاط هو اللبنة الأولى لظهور الفكر الديني في المغرب القديم أي عند البربر وهم السكان الأصليون في المنطقة ويمكن أن ندرج هذه الأصول في أربعة عناصر متكاملة فيما بينها محلية وخارجية يتصدرها المحلي، ثم التأثيرات المصرية وكذا الامتزاج السامي الكنعاني اليبي خلال الفترة ال البونية، إضافة إلى تأثيرات الديانة الإغريقية وحتى الرومانية.[56]

وبعد الدراسات الأثرية والتاريخية يذكر العلماء أن الأصول الباكرة للديانة البربرية المحلية تعود إلى العصر الحجري حيث عثر على كويرات حجرية مشذبة في موقع القطار بشرقي قفصة بتونس، يمك أن تكون قد أعدت للعبادة أو بتقرب بواسطتها البربر للآلهة.[57]

ومن خلال هذه الأدلة فإنه تبين اهتمام الإنسان المحلي للمغرب القديم بالجانب المعنوي وخصوصا أنه أصبح يدرك أن العالم المحيط به مليء بالأرواح ولابد أن يتقرب من الظواهر الطبيعية حتى يدفع ع نفسه الشر الذي يقف في طريقه وكذا محاولة ضمان المستقبل المجهول، فكانوا يرتدون الأقنعة ويتذكرون في أشكال حيوانات ويقومون بحركات ورقصات سحرية.[58]

ا - العبادة المحلية للمغرب القديم:

ا- 1- عبادة المياه:

تعتبر المياه مقدسة في المغرب القديم نظرا لطبيعة النشاط الممارس وكذلك فترات الجفاف المتكررة بطبيعة مناخ المنطقة مما أعطى المياه مكانة وقداسة.[59]

وعبر المغاربة القدماء على هذه القداسة بمعتقدات الاستدرار بطرق مختلفة، أما عن المنابع والآبار فهي مساك المقدس.[60]

وظلت هذه التقاليد قائمة في العهد الروماني ودليل ذلك ما وجده "Picard" في الحصن الروماني بموقع مسعد الثري castellum dimmidi وهي دمية تشخص صاحب الملعقة وأسطورته الشعبية التي تتعلق بطلب نزول المطر بمنطقة مسعد والأغواط والجزائر، وهو بئر في أسفله بناء خاص بالتعبد كما يوجد محراب خاص وهو ذا مدخل ضيق ومعزول، وعثر على إهداء إلى عدة آلهة منها اسكولاب esculape وهو الإله برأس كهنة المياه.[61]

ا-2- عبادة الشمس والقمر:

كانت عبادة الشمس والقمر منتشرة في بلاد المغرب القديم، وأشار إليها المؤرخ الإغريقي هيرودوت "... ما عدا قبائل السامون الذي يستقرون حول بحيرة تريتوي أي خليج السيرت الصغير" وقبائل الأترن الذين كانوا يلعنون الشمس التي تؤذيهم.[62]

وكان معظم الليبيون يعبدونها ويقدمون لها الأضاحي بطريقة وصفها المؤرخ هيرودوت، وهذا بهدف أبعاد الأرواح الشريرة ومباركة القطيع والتقرب والإشادة بالإله الشمس الذي يبعث الدفئ والحياة والحركة المرتبطة بفصول الزراعة والحصاد وتخصيب الأرض بأشعتها، فهي المقدس الذي نفخ الحياة في كل شيء.[63]

كما أشار إلى عبارة الشمس مؤرخين آخرون مثل بليني وديودور الصقلي، وفي القرن الـ 14 م أشار ابن خلدون إلى انتشار عبادة الشمس بين بعض القبائل البربرية، حيث استمرت عبادتها إلى جانب الديانات السماوية الأخرى.[64]

أما عن عبادة القمر ففي كتابات "ترتيليان" tertulien في القرن الـ 3م أشير إلى ثلاث آلهة قمرية منها فارسوتينية Varsutina المورية كان يعبدها الأفارقة.[65]

وقد كان للقمر مكانة خاصة في الطقوس التي تعتمد على السحر واستمرت حتى وقت متأخر.[66]

وقد استمرت عبادة الشمس عند المغاربة إلى وقت طويل على حد قول المؤرخين الذين جاءوا بعد هيرودوت ولإثبات هذا الموضوع يجب أن نتحدث عن الأدلة والشواهد عن أصول عبادتها، فعند المصريين كان رمز رأس كبش والثور وتعلوهما قرص الشمس فهذا يعكس الرأي أن هذه العبارة بتأثر من المصريين الذين عبدوا أمون على هذا الشكل.

وكذلك في ق 5 ق.م كتب هيرودوت أن المنطقة كانت مفتوحة على التأثيرات الخارجية وكانت الشمس أهم المعبودات لدى معظم الشعوب.[67]

وقد كان الإله أمون الإله الأعلى للمغاربة، وكانت عبادته منتشرة على نطاق واسع في كل أرجاء المغرب، حيث عثر على آثار ورسوم صخرية تمثل هذا على امتداد الأطلس الصحراوي والهوقار والتاسيلي وذكر غوستان مرسي G Mercier أن هذا الإله عبر في نوميديا كإله محلي أعلى واشتبه النصوص.

ويدعم أيضا هذا الرأي هنري ياسي (H Basserti) الذي يسري بأن أمون كان الإله الأكبر الذي لم يكن مجرد رمز ومظهر ديني.[68]

ولا يمكن الجزم أن عبادة أمون هي وافدة من مصر كما ذكر بعض المؤرخين أو العكس انتقلت من بلاد المغرب نظرا للجفاف الذي انتساب الصحراء وكان سببا في الانتقال إلى حوض النيل عن طريق الشعوب ذات اللون الأسمر (الأثيوبيون كما سماهم الإغريق)

وقد عثر على صلابة من فجر التاريخ (3500-3200) تظهر المصريين يجلبون من بلاد الليبيين نيرانا وكباشا وشجيرات زيتون، كما ظهرت التأثيرات المغربية في مصر على رأي "موري Morel منذ فترة مبكرة، حيث يذكر أن الإقليم الثاني قد تعرض للحكم الليبي، وكذلك الإقليم الثالث عرف بالإقليم الليبي وعبدت الآلهة "نت" "Neit" في الإقليمين الرابع والخامس وتدعى "الليبية" ويذكر أيضا أن طيبة بمصر عبدت الإله برأس كبش وهو معبود الواحات الغربية الليبية.[69]

وقد اعتمد العديد من المؤرخين إلى المكتشفات الأثرية كأدلة على عبادة الشمس فهي كثيرة من المواقع فوجدت على النصب النذرية والإهدائية وتوابيت القبور التي تحمل رمز قرص الشمس والقمر.[70]

ومهما يكن فان قله الوثائق وغموضها فان هذه العبادة خارجية نتيجة التأثيرات التي مست المنطقة وعلى هذا الأساس يرفض (ج) كامس الاستناد إلى قلة الشهادات وعدم دقتها وأنه لم يكن لهم إلا ديانات ومعتقدات بدائية مثلما يشير إليه بعض المؤرخين.[71]

وعلى العموم فإن المغاربة القدماء يمكن أن يكونوا قد مارسوا عبارة الشمس والقمر منذ أقدم العصور دون تأثير خارجي، وذلك من خلال ملاحظاتهم اليومية لمسيرة كوكب الشمس، ككل الشعوب القديمة، كما أن هيرودوت في كتاباته ربط بين الشمس والقمر من جهة ،والأسماء التي أعطاها الليبيون للشمس قبل

الإله الأكبر، الأعلى، الملك، السماء، روح الشمس، الشمس، الأقوى، وهذا دليل على معرفة السكان المحليين لنوع من التوحيد الكوكبي، نلمس في ذلك التأثيرات المصرية، لا سيما بعد حكم الملك أخناتون الذي نقل العبادة إلى تل العمارنة وكتب الكثير في وصف ومدح الإله "آتون رع" الذي يشير إلى عبادة الشمس.[72]

ا-3- عبادة الكهوف:

قدس السكان المحليين للمغرب القديم الكهوف والمغارات التي جعلوا منها مساكنا لهم، وكثيرا ما كانت تحمل في جدرانها رسوم حيوانية وآدمية، ويسهر الكهنة على تقديم الولاء لها والحفاظ عليها، ويمكن أن يكون اسم إفريقيا "لكامل القارة الذي ظهر في الفترة الرومانية يعود إلى اسم الإله المحلي للكهوف "إفري" هذا اعتمادا على الدراسة التي قدمها "س.قزيل" S/Gsell و Basset.[73]

وكانت الكهوف مخصصة للدفن كذلك، وقد أشار المؤرخ "هيرودوت" أنه كان من عادة المغاربة المحليين النوم على قبور الأشخاص الذين كانت لهم مكانة اجتماعية أثناء حياتهم كرؤساء القبائل والكهنة.[74]

ولا يستبعد أن فكرة بناء الأضرحة الضخمة والمعابد التي كانت قد شيدت للملوك والأمراء النوميد وتعود إلى تلك المحلات للعبادة والتقديس مثلا نجد (الضريح الموريتاني) بالقرب من تيبازة، والمدغاسن والصومعة وضريح دوقة.

ومن هذا نستنتج أن المغارات والكهوف كانت محل تقديس واتخذت أماكن للعبادة ويرجع ذلك إلى كونها مساكن الآلهة، ويقول القديس أغسطين أهم يعتقدون بقربهم إلى الله كلما غاصوا في باطن الأرض.[75]

ا-4- عبادة الملوك:

عرف بعض الملوك المغاربة بمكانتهم المتميزة من خلال النقوش والعمارة الجنائزية أو الكتابات المؤرخين، وتعود الوثائق الأولى حول ما عرف بعبادة الملوك عند السكان المحليين للمغرب القديم إلى القرن 3 ق.م، حيث عثر في قشية دوجة الثانية على نص إهدائي بالقرب من الضريح الذي شيد في السنة العاشرة من حكم الملك مسيبيسا، ابن الملك ماسينيسا وقد كتب بالبونية والليبية وهذا مقتطف منه "شيد مواطنوا دوقة هذا المعبد للملك ماسينيسا بن الملك غايا بن الشفط زلالسن، في العاشر لحكم مسينيبسا"[76]

ومن خلال هذا النص يرى (بيكار) و (غزال) أنه تم تأليه النوميديين للملك ماسينيسا وعلى العكس من ذلك يرى محمد الصغير غانم ومحمد فنطر أن لا شيء في النص يثبت ويؤكد عبادة النوميديين للملك (ماسينيسا) و لا يعطيه إلا لقب "ملك" حسب ما جاء في النصوص من عبارات بونية مثل (ه،م،م،ل،ك،ت) أي (الملك) أو المملكة اللوبية (ج،ل،د) بمعنى الحاكم الذي له صبغة عسكرية، أما مصطلح (ت،م،ق،د،ش) فهي تعني البناء أو المكان المقدس، وليس لها ارتباط شخصية (ماسينيسا) ويرى (غزال) أن ماسينيسا هو الذي انشأ هذا التقليد، وذلك بإعطاء نفسه الطابع الإلهي.[77]

ا-5- عبادة الأموات:

خص بعض الأشخاص الأموات منهم بمكانة متميزة عن الأحياء، ويتجلى ذلك من خلال الممارسات التي تحدث عنها المؤرخون القدماء، وكذلك من خلال النقوش والعمارة الجنائزية، حيث التصقت بعض الصفات بالأموات والأماكن المدفونون بها مثل القداسة، والقدرة على النفع والضرر، وتعكس تلك الممارسات وع من الخضوع وروابط الصلة بهم حتى عملية الدف التي ترتبط بطقوس فيها تقدير كبير للأموات، وتحميهم من كل الأخطار.[78]

ويذكر هيرودوت عن بعض الممارسات وعن أن المغاربة القدماء كانوا يقسمون برجال عرفوا بكونهم الأكثر عدالة وهم الأفضل ويلامسون قبورهم، كما كانوا يقصدون قبور أسلافهم وينامون عليها.[79]

ويعتبر المؤرخون أن قبور المنطقة الصحراوية المنتشرة في فزان إلى موريتانيا تعود إلى فجر التاريخ لاحتوائها على معبد صغير مثل التي وجدت في قزال التي تمثل قبر ومعبد في نفس الوقت.[80]

كذلك الشأن بالنسبة لقبور التيميلوس ذات القمم، فقد كانت بدورها معابد تتم فيها ممارسة طقس الرؤيا والتنبؤ بالمستقبل.

ب- الطقوس الجنائزية:

تعتبر الطقوس الجنائزية مصدرا أساسيا لدراسة الجانب الديني بالمغرب القديم لانعدام المصادر الأدبية المتعلقة بفترة ما قبل التاريخ وحتى فجر التاريخ.[81]

وهذا ما يجعل الاعتماد الكلي على المصادر المادية في دراسة المعتقدات في المغرب قد يؤدي إلى الابتعاد عن الحقيقة وإعطاء صورة مغايرة ويقصد بالطقوس الجنائزية كل ما يدخل ضمن دائرة التعامل مع الأموات من حيث طرق الدفن وكيفياته ووضعياته، إلى جانب الأثاث الجنائزي، وتعود هذه الطقوس في المغرب إلى العصر الحجري الحديث، ويتضح من خلال دراسة بقايا المدافن أن إنسان المغرب القديم قد مارس الدفن في أنواع عديدة من القبور، كالكهوف الطبيعية والاصطناعية، وقبور التيميلوس، وكذلك البازيناسي والشوشة التي تعود إلى فجر التاريخ، وهي تطور لنماذج من القبور الليبية.[82]

بالإضافة إلى قبور الدولمن والحوانيت التي عرفها المغاربة القدماء عن طريق التواصل الخارجي.[83]

وقد كان المغاربة القدماء يوجهون جثث موتاهم توجيها معينا وفقا لطقوس خاصة، ويظهر هذا التوجه جليا في مقابر كهوف "لالة مغنية" بالقرب من "المويلح" بالغرب الجزائري، حيث وجهت رؤوس الأموات نحو الغرب، وقد مددت الجثث في حفر الدفن على الجانب الأيمن وطويت أرجل الجثة، وتوضع صخور مبلطة تحمي رؤوس وصدور الجثث، ويلاحظ على العموم بأن الجثث كانت في غالب الأحيان وضعيات في الحفرة بشكل الجنين، وفي كثير من الأحيان الركبتان لا تلامس البطن واليدان لا تلامس الوجه.[84]

ب -1- وضعيات الدفن:

كشف الأثريون في الكهوف والمدافن أنواع مختلفة للعظام البشرية، كالدفن الفردي والجماعي ووضعيات دفن مختلفة ممدة ومطوية ووضعية الجلوس إلى جانب خلط العظام والدفن الثانوي، أما اتجاه وجه الميت فقد كان يوجه نحو الشرق كما في قبور "الركينة" بالقرب من قالمة.[85]

وفي القرن5ق.م يخبرنا هيرودوت أن الناموس كانوا يجتهدون في جعل المحتضري في وضعية الجلوس ويمنعونهم من الموت وهم مستلقون على ظهورهم كي يبقى في وضعية الجلوس ويدفن في تلك الوضعية.[86]

وعلى عكس هذا فقد عثر بعض الباحثين على مدافن عديدة تم فيها خلط العظام ونثرها، ويرجع هذا كل من "بيكار، و"شارل أندري جوليا" أن الأحياء يخافون من عودة الأرواح إلى الأموات وبالتالي تقوم بإيذائهم وهذا النثر يضمن عدم عودة الروح إلى الجثة.

أما الدفن الجماعي الأسري، فهو دليل على عدم انقطاع الصلة بعد الموت وتبقى الروابط الاجتماعية والأسرية التي ينتمي إليها حتى في العالم الآخر.[87]

ومن الممارسات الشائعة عند المغاربة القدماء هي تلوين الجثث باللون الأحمر، وتعود هذه الطقوس إلى فترة ما قبل التاريخ، ويذكر ذلك هيرودوت واستمرت هذه العادة خلال العهد البوني وحتى العهد الروماني.[88]

ويرى "كامس" أن اللون الأحمر الذي تطلى به الجثة يدل على استمرار سريان الدم فيها، وهو يعوض الدم الحقيقي في اعتقادهم والهدف منه إعادة القوة للميت.[89]

أما (س حزبل) أنه نوع من الزاد يتركه الأحياء للأموات، ويذهب العديد من الباحثين أنه نوع من الممارسة لتقديس الأحياء للأموات، ومن الممكن أن يكون اعتقاد في نوع من الحياة الأبديه، ومهما كانت الآراء فإن الطقوس واستمرارها دلالة على أصلها المحلي.[90]

الهوامش:

1- لحسن رابح، أضرحة ملوك النوميد والمور "دراسة أثرية وتاريخية مقارنة لأهم الأضرحة الملكية منذ القرن الرابع .ق .م إلى غاية عشية الفتح الإسلامي في القرن الـ4م، الجزائر دار هومة 2007، ص41.

2- الميلي مبارك، المرجع السابق، ص210.

3- لحسن رابح، المرجع السابق، ص43.

4- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص121

5- برنيان أندريه ونوشي أندري ولكوست إيف، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص70.

6- شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية، المرجع السابق، ص 259-260

7- بومعقل الحاج أحمد، المرجع السابق، ص121.

8- برنيان اندريه وآخرون ،المرجع السابق، ص70.

9- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص121.

10- الحجازي عبد العزيز عبد الفتاح، روما وإفريقيا من نهاية الحرب البونية الثانية إلى عصر الامبراطور أغسطس، ط1، القاهرة، مكتبة الأجلو مصرية، 2007 ص74.

11- فرحاتي فتيحة، وميديا من حكم الملك حايا إلى بداية الاحتلال الروماني، 213 ق.م، 46 ق.م، الجزائر، منشورات ابييك، 2007 ص295.

12- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص121-122.

13- شنيتي محمد البشري، المرجع السابق، ص258.

14- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص122.

15- لحسن رابح، المرجع السابق، ص 90-102

16- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص303.

17- لحسن رابح، المرجع السابق، ص205-206

18- لحس رابح، المرجع نفسه، ص217-218

19- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص122-123

20- الحجازي عبد العزيز عبد الفتاح، المرجع السابق، ص74

21- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص304

22- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص123

23- بورية الشاذلي والطاهر محمد، المرجع السابق، ص235

24- الحجازي عبد العزيز عبد الفتاح، المرجع السابق، ص74

° ملك: والتي تعني التضحية التي عوضت الطفل حسب ملاحظات القديس أوغستي، فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص304.

25- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص304-305

26 - LANCEL SERGE ALJERIE ANTIQUE DE MASSINISSA A SAINT AUGSTIN , PARIS, EDITION MENJES, 2003, p53

27- شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص159.

28- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص122

29- نفسه، ص127-129

30- يولم دنيز، الحضارات الإفريقية، تر: نسيم نصر، ط2، بيروت، باريس، منشورات عويدات، 1982، ص54

31- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص124

32- لحسن رابح، المرجع السابق، ص258

33- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص124

34 - Gsell (S), Hestoire anatenne de l'afrique du nord, T4, p456

35- بومعقل الحاج أحمد مولاي، المرجع السابق، ص125

36- لحسن رابح، المرجع السابق، ص263

° يعتبر اللون الأحمر مقوي سحري يرمز إلى الحياة والدم ويمنع الأرواح الشريرة ولوحظ استعماله في العهد القرطاجي واستمر إلى غاية العهد الروماني، لحسن رابح، المرجع نفسه، ص269.

37 -GSELL, Opcit, p445-444

38- لحسن رابح المرجع السابق، ص214

39- لحسن رابح المرجع نفسه، ص266

40 -GSELL, Opcit, p456

41- بورنية الشاذلي، محمد الطاهر، المرجع السابق ص213.

42- لحسن رابح، المرجع السابق، ص212

43 - Gsell S, op-cit, p135

44 - Gsell S, op-cit, p456-455

45 - GSELL S, Histoire anatenne de l'afrique du nord, T6, p269

46- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص311-313

47- بومعقل الحاج أحمد مولاي المرجع السابق، ص126

48- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص311

49- غانم محمد الصغير، المملكة الوميدية والحضارة البونية، المرجع السابق، ص112

50- فرحاتي فتيحة، المرجع السابق، ص313.

51- غام محمد الصغير، المرجع السابق، ص117.

52- فرحاتي فتيحة المرجع السابق، ص333

53- غانم محمد الصغير، المرجع السابق، ص160-161

54 - Lancel Serge, opcit, p54

55- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج1، ط4، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص44-55

56- الصغير غانم محمد، الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني، دار الهدى للطباعة، الجزائر، ص11.

57- الناضوري رشيد، المغرب الكبير، ج1، الدار القومية، 1966، ص104

58 - Fantar (MH) introduction a la decoverte archeologique de cartage, archeologie vivante, vol n°1-2

59 - Gsell S, Herodote textes relatif a l'histoire de l'afrique du nord, Alger, 1919, p19

60 - Picard (G CH), les religions de l'Afrique antique, libiriplon , paris, 1954, p4

61 - Decret et fantar (M H), l'afrique du nord dans l'antiquité des origines aux 5eme, Paris, 1981, p247

62 - Picard (G ch) , Ibid, p21

63- حسن نعيمة، موسوعة الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994، ص24

64- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج6، دار الكتاب اللبناني، 1968، ص185

65 - Camps (G) , Berberes aux magres de l'histoire, ed de hesperides, 1980, p2000.

66 - Gsell (S), H A A N , T1

67- الصغير غانم محمد، المرجع السابق، ص21

68- حارش محمد الهادي، دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار الهومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001، ص13.

69 - Lenormant (F), Histoire ancienne de l'orient jusqu(aux guerres mediques, edition Alevy, Paris 1887, p1100

70 - Camps (G) , Massinissa ou les buts de l'histoire , libyca, T VIII, 1960, p23

71 - Camps (G) , Berberes aux magres de l'histoire, p202

72 - Leglay (M) , Saturne africain , T3

73 - Gsell (S), H A A N, it, p256

74 - Herodote, 4, p172

75- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص24

76 - Picard (G CH), op cit, p17

77 - Gsell (S), H A A N, to 6, p129-130

78- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص38

79 - Camps (G), Massinissa, p20

81- محمد الصغير غانم، التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، الجزائر 1981، ص7

82- شارل أدري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص7.

83- محمد الصغير غانم، نفس المرجع السابق، ص8

84 - Ballon (L), Algérie prehistorique, ed ars et meters graphique, paris, 1958, p96-97 et 130

85 - Faid herbe, recherches autropologique sur les tombeaux de roknia, B A H, 1868, p39

86 - Herodote, IV, 190

87-Camps (G), Monumments et sites funéraires, protohistoriques, ed arts et mitiers graphiques, paris 1961, p436.

88 - Ibid, p522.

89 - Picard (G Ch), op cit, p18

90 - Gsell (S), H A A N, I, p272

تطورالإرشاد المدرسي في الجزائر

أ/ بن سعيد عبد القادر، جامعة سيدي بلعباس

الملخص :

يهدف هذا المقال إلى التعريف بأهم المراحل التي مر بها الإرشاد المدرسي في الجزائر حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها البلاد مبرزا دور مستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني في التكفل النفسي بفئة التلاميذ المتمدرسين في مختلف الأطوار التعليمية.

الكلمات المفتاحية:

الإرشاد المدرسي، مستشار التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني

Abstract

The aim of this article is to introduce the most important stages of the school guidance in Algeria according to the social and economic conditions experienced by the country, highlighting the role of educational and guidance counselors in the psychological care of the class of students in different educational stages.

Key Words

School guidance, Educational and vocational guidance counselor.

مقدمة:

يعد الإرشاد ضرورة من ضرورات الحياة العصرية، وواحد من مترتبات الحياة الإنسانية المتجددة على مر العصور وذلك للتغيرات المصاحبة لنمو الفرد والتغيرات التربوية، الأسرية، الاجتماعية والتكنولوجية السريعة كما تحظى المؤسسات التربوية بالنصيب الأوفر من خدمات الإرشاد النفسي، لأنها هي المؤسسات التي يوكلها المجتمع لتربية المواطنين الصالحين جسميا ونفسيا، ويعتبر الإرشاد المدرسي أكثر الطرق فائدة وعملية بالنسبة للمربين و الإرشاد من خلال العملية التربوية هو تقديم الخدمات الإرشادية مندمجة في العملية التربوية ككل في إطار برنامج محدد بحيث تتفق أهداف العملية الإرشادية مع أهداف العملية التربوية ككل.

عرفت المنظومة التربوية في الجزائر عدة إصلاحات تغيرت بتغيير الوزارات المشرفة على قطاع التربية والتعليم وباعتبار سياسة التوجيه جزء من هذا القطاع فإنها شهدت هي الأخرى تحولات اختلفت معطياتها وآلياتها في كل مرحلة من المراحل وما يمكن قوله إن في الجزائر لا يوجد مراكز متخصصة في الإرشاد وإنما توجد مراكز للتوجيه المدرسي والمهني تقدم خدمات للتوجيه على النمط الموروث عن النظام

الفرنسي(1) وبناءا على ما سبق ذكره يمكن طرح التساؤل التالي: ما هي أهم المراحل التي مر بها الإرشاد المدرسي في المنظومة التربوية الجزائرية؟

مر الإرشاد المدرسي بخمسة مراحل بالنظر إلى أهم الأحداث والتغيرات والتعديلات التي سجلت في كل منها وهي كالتالي:

1.المرحلة الأولى : 1962 إلى 1965

غداة الاستقلال لم تكن وزارة التربية الوطنية آنذاك تحتوي على مصالح مركزية خاصة بتسيير التوجيه بعد إجلاء الفرنسيين القائمين بهذه العملية.

ففي سنة 1962 تم توظيف أربعين مستشارا منهم خمسة جزائريين الأصل موزعين على ستة مراكز للتوجيه المدرسي في كل من :الجزائر وهران، عنابة، قسنطينة، سطيف ومستغانم.

بعد 1962إستمر مركزان هما مركز التوجيه لولاية الجزائر العاصمة وولاية عنابة في العمل بأربعة مستشارين منهم ثلاثة جزائريين.

ومع تنظيم وزارة التربية الوطنية في عام 1963 أنشأت المديرية الفرعية للتوجيه والتخطيط المدرسي نظرا للنقص الكبير في المختصين حيث تم تكوين خمس مستشارين في المغرب وتم توظيفهم من طرف مصالح التوجيه سنة 1964 وفي نفس السنة تم إحداث معهد علم النفس التطبيقي خلفا لمعهد علم النفس التقني المحدث سنة 1945وكانت مهمة المعهد تكوين مستشارين في التوجيه وأخصائيين في علم النفس التقني(2) وقد قررت الوزارة تكوين دفعة أولى في جامعة الجزائر على مستوى معهد تطبيقي لعلم النفس والتوجيه المدرسي حيث كانت شروط التحاق المترشح بالمسابقة أن يكون معلما، له خمس سنوات أقدمية في التعليم ولاجتياز هذه المسابقة يجب أن يمر المترشح بثلاث مراحل: امتحان كتابي وآخر شفاهي بالإضافة إلى محادثة مع مختصين في علم النفس مع العلم أن مدة التكوين تدوم سنتين(3).

2.المرحلة الثانية :1965 إلى 1974

تم فتح ثلاثة مراكز جديدة للتوجيه المدرسي والمهني في كل من ولايتي قسنطينة ،سطيف وسعيدة لتتخرج أول دفعة سنة1966مكونة من 10مستشارين للتوجيه المدرسي والمهني وبموجب المرسوم 66-241 المؤرخ في 5أوت1966، أحدث أول ديبلوم جزائري في التوجيه المدرسي والمهني (ديبلوم الدولة لمستشاري التوجيه المدرسي والمهني) وبالنسبة للمهام المسندة إليهم نجدها ترتكز فقط على التقويم المدرسي والتكفل بالاختبارات الجماعية للسنة الرابعة متوسط والقيام بعملية الإعلام ، ومن نقائص التوجيه في هذه المرحلة عدم متابعة التلميذ والتعرف المحدود على إمكانياته واستعداداته ، لذلك كانت القدرات ذات معيار كمي أي ما يحصل عليه التلاميذ من معدل.أما بالنسبة لإجراءات التوجيه المستخدمة في هذه المرحلة فقد سارت بشكل يشابه نظام التوجيه المتبع في فرنسا، وما يميز هذه المرحلة هو البعد التربوي في علاقة مستشار التوجيه بالتلميذ وعدم التغطية الكافية للمستشارين بالنظر إلى حجم الجمهور المدرسي(4).

3.المرحلة الثالثة: 1974 إلى 1990

تميزت هذه المرحلة من انتقال التوجيه من مجال الفحوص الفردية إلى الإعلام الجماعي والتوجيه الكمي ومن أهم الأحداث التي عرفتها هذه المرحلة هي تنصيب المدرسة الأساسية حيث حددت الأمرية الصادرة في الجريدة الرسمية رقم 33 بتاريخ 16 أفريل 1976 المتضمنة تنظيم التربية والتكوين وفقا للقدرات الفردية للتلاميذ ومتطلبات التخطيط التربوي (5) وحاجات النشاط الوطني وفي سنة 1985 أصبح معهد علم النفس التطبيقي دائرة تابعة لمعهد علم النفس وعلوم التربية بالجزائر حيث ادمج الطلبة الراغبين بالتكوين في التوجيه المدرسي في للحصول على شهادة الليسانس من أجل تكوين أخصائيين في علم النفس يستفاد منهم في التوجيه المدرسي وخاصة ما يتعلق بالحالات الصعبة (2).

والملاحظ أن هذه الفترة تمثل مرحلة انتقالية في سياسة التوجيه المدرسي، إذ أصبحت مهمة مستشار التوجيه محددة في القيام بالإعلام في شكل حصص يوزع من خلالها مستندات أو كتيبات إعلامية أو ما يسمى بالملصقات، التي تتضمن المسارات الدراسية أو المهنية التي تخص التلميذ وتكون عملية الإعلام بصفة جماعية و فردية تتناول إجراءات القبول والتوجيه من الأساسي إلى الثانوي وأنواع التخصصات وآفاقها في الجامعة، التكوين المهني وعالم الشغل.

أما بالنسبة للإجراءات التنظيمية للتوجيه في هذه الفترة فقد بقيت منحصرة في التوزيع الآلي للتلاميذ وفقا للمعدل المتحصل عليه من خلال السنة الدراسية، حيث يتم الانتقال إلى المرحلة الثانوية بالقبول التلقائي لـ50% من تلاميذ السنة التاسعة أساسي من كل إكمالية وفقا لترتيب التلاميذ على مستوى مدرستهم الأصلية (2)يكون قرار التوجيه على هذا الأساس دون الاعتماد على مجالس التوجيه المسبق(6) ومعنى هذا أن التوجيه يتم في هذه المرحلة بطريقة آلية دون الأخذ بعين الاعتبار القدرات والمؤهلات الفردية، و المعدل السنوي الذي يحصل عليه التلميذ هو المؤشر الوحيد لقياس القدرات والاستعدادات فتكون طريقة التوجيه عقيمة دون الأخذ في الحسبان شهادة التعليم الأساسي لأنها يمكن أن تكون المؤشر الذي يعكس المستوى الحقيقي للتلميذ وقدرته الفعلية على مواصلة التعليم، ومع ذلك لم تكن امتحانا رسميا يؤخذ به في مجال القبول، الأمر الذي أدى في بعض المؤسسات إلى تضخيم النقاط من طرف الأساتذة مما يؤثر سلبا على مصداقية التوجيه .

وأهم ما ميز هذه المرحلة يمكن تلخيصه فيما يلي:

1. إحداث الجذوع المشتركة في السنة الأولى ثانوي.
2. إحداث الشعب في السنة الثانية ثانوي.
3. تعيين مستشاري التوجيه المدرسي والمهني في المؤسسات التربوية.

4.المرحلة الرابعة : 1990 إلى 2005

تميزت هذه المرحلة بعدة تعديلات خاصة بعملية الانتقال إلى المرحلة الثانوية حيث أن التوجيه لم يعد يعتمد على الاتصال المباشر بالتخصص، بل أحدثت الجذوع المشتركة، وأصبح التعليم الثانوي ينقسم إلى مرحلتين:

مرحلة الجذع المشترك وتدوم سنة واحدة و مرحلة التخصص وتدوم سنتان ، وذلك وفقا للمنشور الوزاري رقم73 المؤرخ في04ماي 1991(7) وابتداء من الموسم الدراسي 1991 / 1992 تم إدماج مستشاري التوجيه المدرسي، وتعنيهم في الثانويات لأول مرة مع تحديد المهام والأدوار التي يقومون بها(8).

كما شملت الإجراءات الخاصة بقبول وتوجيه التلاميذ في السنة الثانية حسب ما نص عليه المنشور الوزاري رقم 101 المؤرخ في 08 أفريل 1992(9) بحيث أصبح يعتمد على الملمح التربوي للتلاميذ المترشحين للانتقال إلى الأولى ثانوي.ومن بين التعديلات التي استحدثت في هذه المرحلة إعادة النظر في مفهوم التوجيه وأساليبه، والتكفل بالتلميذ ومتابعته لتحسين مستواه، حيث تقرر في النصوص الرسمية ضرورة التعرف على التلاميذ ، وطموحاتهم وكذلك تقويم استعداداتهم ونتائجهم التربوية لتطوير قنوات التواصل الاجتماعي والتربوي داخل المؤسسة التربوية وخارجها.

5.المرحلة الخامسة :2005 إلى 2007

تميزت هذه المرحلة بإعادة الهيكلة في مرحلة التعليم الثانوي حيث تم إدخال تعديلات في عملية التوجيه بحيث يوجه التلميذ في مرحلة التعليم الثانوي حسب نتائجه وملمحه ورغبته إلى إحدى الجذعين المشتركين وهما الجذع مشترك آداب والجذع مشترك علوم وتكنولوجيا خلال السنة الدراسية 2006/2005 في جميع مؤسسات التعليم الثانوي، المنبثق عن التوجيه الأولي من السنة التاسعة أساسي ومواصلة لاستكمال عملية توجيه التلاميذ إلى شعب السنة الثانية ثانوي المحددة في القرار رقم 16 المؤرخ في 14 ماي 2005.(10)

وما يميز هذه المرحلة عن باقي المراحل الأخرى السالفة الذكر هو الاهتمام بالإرشاد النفسي من خلال التكفل بتمدرس تلاميذ ضحايا المأساة الوطنية التي عاشتها البلاد باعتبار الوضعية الخاصة لهذه الفئة تفرض العناية التامة بمتابعة تمدرسهم بصفة مستمرة مع تكليف مستشاري التوجيه المدرسي والفرق المختصة في تقنيات العلاج النفسي بمرافقتهم قصد إدماجهم في المسار الدراسي ومتابعتهم عن قرب من خلال مختلف العمليات التي تسمح لهم بالتكيف في محيط دراسي عادي. (11)

6. المرحلة السادسة :2008 إلى يومنا هذا

تميزت هذه المرحلة بصدور قوانين توجيهية جديدة للتربية الوطنية منها القانون التوجيهي للتربية الوطنية المؤرخ في أكتوبر 2008 كما تم تغيير اسم مستشاري التوجيه المدرسي والمهني بمستشاري التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني طبقا للمرسوم التنفيذي رقم 08-315، المؤرخ في 11 أكتوبر 2008 الذي يتضمن القانون الأساسي الخاص بالموظفين المنتمين للأسلاك الخاصة بالتربية الوطنية الذي ينص في الفقرة رقم 01 من المادة 101 (12) على متابعة التلاميذ الذين يعانون صعوبات من الناحية النفسية البيداغوجية

قصد تمكينهم من مواصلة التمدرس، كما يتم تنظيم سلسلة من العمليات الإرشادية بهدف توجيه التلميذ نحو الاختيارات الدراسية أو المهنية الأنسب له.

وفي سنة2014 تم صدور منشورخاص بإنشاء خلايا الإصغاء والمتابعة النفسية والتربوية بالثانويات(13) تجسيدا للتوصيات المنبثقة عن الأعمال الدراسية الخاصة بظاهرة العنف في الوسط المدرسي والمتابعة اليومية في الميدان لحالات التوتر النفسي، تبينت الحاجة الماسة إلى دعم التكفل بالقضايا التربوية والنفسية والاجتماعية للتلاميذ بآليات تعتمد أكثر على تجديد أساليب تنظيم الحياة المدرسية بتنشيط الإصغاء باعتباره عملا إرشاديا في المؤسسات قصد معالجة هذه القضايا في حينها، قبل أن تستفحل وتؤثر سلبيا على العملية التعليمية- التعلمية وعليه، وبالنظر لأهمية الإصغاء، يهدف نشاط خلايا الإصغاء والمتابعة النفسية والتربوية إلى معالجة الجوانب المترتبة عن مظاهر التوتر والعنف وآثارها المباشرة وغير المباشرة.

خلاصة:

لقد كان الإرشاد المدرسي فيما مضى موجودا، ويمارس دون ان يأخذ هذا الاسم أو الإطار العلمي، ودون أن يشمله برنامج منظم، ولكنه تطور وأصبح الآن له أسسه وطرقه ونظرياته ومجالاته وبرامجه، وأصبح يقوم به أخصائيون متخصصون علميا وفنيا، وأصبحت الحاجة ماسة إلى الإرشاد في المدارس وفي مجالات الحياة الأخرى بصفة عامة.

لقد حاولت وزارة التربية الوطنية منذ عدة سنوات تطوير عملية الإرشاد المدرسي بتحديث جهازه وتشريعاته خاصة في فترة التسعينات التي شهدت تعيين مستشارين بالثانويات، وذلك سعيا لتحسين الخدمات التوجيهية.

إذ يعتبر الإرشاد المدرسي من أهم الخدمات النفس بيداغوجية التي تقوم بها المدرسة الحديثة، بهدف إيجاد التلاؤم والتوافق النفسي والاجتماعي والمهني والتربوي للتلاميذ، والوصول بهم إلى أقصى غايات النمو من خلال مساعدتهم على بناء مشروعهم الدراسي والمهني وفقا لإمكاناتهم وقدراتهم العقلية والجسمية وميولا تهم التربوية بأسلوب يشبع حجاتهم ويحقق تصورهم لذاتهم وتكيفهم مع مجتمعهم.

المـــراجع:

1.عصام يوسف (2002) **التوجيه التربوي والإرشاد النفسي** دار أسامة للنشر والتوزيع ،عمان .

2.وزارة التربية الوطنية(1993)، مجموعة نصوص التوجيه التوجيه المدرسي والمهني مابين 1962إلى 1992

3.بوسنة محمود (1998)، التوجيه المرسي والمهني: الخلفية النظرية لمفهوم المشروع وبعض المعطيات الميدانية ، **مجلة العلوم الإنسانية**، ع10 ، ص ص (169-177).

4.براهمية صونية (2006): تأثير الوضعية المهنية على أداء مستشار التوجيه المدرسي والمهني حالة ولايتي قالمة وسوق أهراس، مذكرة ماجستير غير منشورة كلية العلوم الاجتماعية **قسم علم الإجتماع** ، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة ,الجزائر.

5.الأمرية رقم 76-35 المؤرخة في 16 أفريل 1976 ،الجريدة الرسمية رقم 33

6.وزارة التربية الوطنية ،المنشور الوزاري رقم 89.348 مؤرخ في 14 ماي 1989 ، الجزائر

7.وزارة التربية الوطنية ، المنشور الوزاري رقم 91.73 مؤرخ في 04 ماي 1991 ، الجزائر

8.وزارة التربية، المنشور الوزاري رقم 219 المؤرخ في 18 سبتمبر1991

9.وزارة التربية الوطنية ، المنشور الوزاري رقم 92.101 مؤرخ في 08 أفريل 1992 ، الجزائر

10.وزارة التربية الوطنية ، القرار الوزاري رقم 16 المؤرخ في 14 ماي 2005 ، الجزائر

11.وزارة التربية الوطنية ، المنشور الوزاري رقم 321مؤرخ في 16 أفريل 2006 ، الجزائر

12.المرسوم التنفيذي رقم 08-315 ، المؤرخ في 11 أكتوبر 2008.الجزائر

13. وزارة التربية الوطنية، المنشور الوزاري رقم 291مؤرخ في 20أوت2014، الجزائر